تراث الإسلام

تفسير الطبري

جامع البيان عن تأويل القرآن

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

٢٢٤ - ٣١٠ هـ

١

حققه وعلق حواشيه
محمود محمد شاكر

راجعه وخرج أحاديثه
أحمد محمد شاكر

الطبعة الثانية

الناشر
مكتبة ابن تيمية
القاهرة ت ٨٦٤٢٤٠



بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين (?)

قرئ على أبي جعفر محمد بن جرير الطَّبرى فى سنة ست وثلثمئة ، قال : ٢/١

الحمد لله الذى حَجَّت الألبابَ بدائعُ حِكَمه ، وخَصَمت العقولَ لطائفُ حُججه[1] ، وقطعت عذرَ الملحدين عجائبُ صُنْعه ، وهتفتْ فى أسماع العالمينَ ألسنُ أدلَّته ، شاهدةً أنه الله الذى لا إله إلا هو ، الذى لا عِدْلَ له معادل[2] ، ولا مثلَ له مماثل ، ولا شريكَ له مُظاهِر ، ولا وَلدَ له ولا والد ، ولم يكن له صاحبةٌ ولا كفواً أحدٌ ؛ وأنه الجبار الذى خضعت لجبروته الجبابرة ، والعزيز الذى ذلت لعزّته الملوكُ الأعزّة ، وخشعت لمهابة سطوته ذَوُو المهابة ، وأذعنَ له جميعُ الخلق بالطاعة طوْعاً وكرهاً ، كما قال الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه : ﴿ ولله يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ والأرْض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] . فكل موجود إلى وَحدانيته ذاع ، وكل محسوس إلى رُبوبيته هاد ، بما وسَمهم به من آثار الصنعة ، من نقص وزيادة ، وعجز وحاجة ، وتصرف فى عاهات عارضة ، ومقارنة أحداث لازمة ، لتكونَ له الحجة البالغة .

ثم أرْدف ما شهدتْ به من ذلك أدلَّتُه ، وأكد ما استنارت فى القلوب منه بهجته ، برسلٍ ابتعثهم إلى من يشاء من عباده ، دعاةً إلى ما اتضحت لديهم صحّته ، وثبتت فى العقول حجته ، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [سورة النساء : ١٦٥]

---

(١) حاجه يحاجه : نازعه الحجة ، وحجه يحجه : غلبه على حجته . وخاصمه : جادله بالحجة والبرهان ، وخصمه : غلبه وظهرت حجته على حجته . واللطائف : جمع لطيفة ، وكل شيء دقيق محكم وغامض خفى ، يحتاج إلى الرفق والتأنى فى إدراكه ، فهو لطيف .

(٢) العدل (بكسر العين وفتحها وسكون الدال) والعديل : النظير والمثيل . وعادله : ساواه وماثله .

وليذَّكَّر أولو النهى والحلم . فأمدَّهم بعوْنه ، وأبانهم من سائر خلقه ، بما دل به على صدقهم من الأدلة ، وأيدهم به من الحجج البالغة والآى المعجزة ، لئلايقول القائل منهم(١) : ﴿ مَا هٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ منه وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٣٣ - ٣٤]

فجعلهم سفراءَ بينه وبين خلقه ، وأمناءه على وحيه ، واختصهم بفضله ، واصطفاهم برسالته ، ثم جعلهم — فيما خصهم به من مواهبه ، ومنَّ به عليهم من كراماته — مراتبَ مختلفة ، ومنازل مُفترقة ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، متفاضلات متباينات . فكرَّم بعضهم بالتكليم والنجوى ، وأيّد بعضهم برُوح القدس ، وخصّه بإحياء الموتى ، وإبراء أولى العاهة والعمى ، وفضَّل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، من الدرجات بالعليا ، ومن المراتب بالعُظمى . فحباه من أقسام كرامته بالقسم الأفضل(٢) ، وخصه من درجات النبوّة بالحظ الأجزَل ، ومن الأتباع والأصحاب بالنصيب الأوفر . وابتعثه بالدعوة التامة ، والرسالة العامة ، وحاطه وحيداً ، وعصمه فريداً ، من كل جبار عاند ، وكل شيطان مارد(٣) ، حتى أظهر به الدّين ، وأوضح به السبيل ، وأنهج به معالم الحق ، ومَحَق به منار الشِّرك . وزهق به الباطلُ ، واضمحل به الضلالُ وخُدَعُ الشيطان وعبادةُ الأصنام والأوثان(٤) ، مؤيداً بدلالة على الأيام باقية ، وعلى الدهور والأزمان ثابتة ، وعلى مَرّ الشهور والسنين دائمة ، يزداد ضياؤها على كرّ الدهور إشراقاً ، وعلى مرّ الليالى والأيام

١/٢

---

(١) فى المطبوع : « القائل فيهم » ، ومثل هذا التبديل كثير فى المطبوع ، سأغفل منه ما شئت لكثرته ، وطلبا للاختصار فى التعليق بما لا غناء فيه .

(٢) الأقسام : جمع قسم (بكسر فسكون) ، وهو الحظ والنصيب من الخير .

(٣) الجبار العنيد والعاند : الذى جار ومال عن طريق الحق ، ثم عتا وطغا وجاوز قدره . والمارد : الذى مرن على الشر حتى بلغ الغاية ، فتطاول عتوا وتجبراً .

(٤) فى المخطوطة : « وجدع » بالجيم مضمومة ، من جدع الأنف ، وهو قطعها ، كناية عن الإذلال . ولا أظنها جيدة هنا . والخدع جمع خدعة (بضم فسكون) : وهى ما يخدع به من المكر والختل .

ائتلاقاً ، خِصِّيصَى من الله له بها دون سائر رسله[١] — الذين قهرتهم الجبابرة ، واستذلّتهم الأمم الفاجرة ، فتعفّتْ بعدهم منهم الآثار ، وأخملت ذكرهم الليالى والأيام — ودون من كان منهم مُرْسلا إلى أمة دون أمة ، وخاصّة دون عامة ، وجماعة دون كافّة .

فالحمدُ لله الذى كرمنا بتصديقه ، وشرّفنا باتّباعه ، وجعلنا من أهل الإقرار والإيمان به وبما دعا إليه وجاء به ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، أزكى صلواته ، وأفضلَ سلامه ، وأتمّ تحياته .

ثم أما بعد[٢] ، فإنّ من جسيم ما خصّ الله به أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الفضيلة ، وشرّفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وحباهم به من الكرامة السنية ، حفظَه ما حفظ عليهم — جلّ ذكره وتقدست أسماؤه — من وحيه وتنزيله ، الذى جعله على حقيقة نبوة نبيهم صلى الله عليه وسلم دلالة ، وعلى ما خصه به من الكرامة علامةً واضحة ، وحجةً بالغة ، أبانه به من كل كاذب ومفترٍ ، وفصّل به بينهم وبين كل جاحد ومُلحِد ، وفرّق به بينهم وبين كل كافر ومشرك ؛ الذى لو اجتمع جميعُ من بين أقطارها ، من جِنّها وإنسها وصغيرها وكبيرها ، على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[٣] . فجعله لهم فى دُجَى الظُّلَم نوراً ساطعاً ، وفى سُدَفِ الشُّبَه شهاباً لامعاً[٤] ، وفى مضَلّة المسالك دليلا هادياً ، وإلى سبل النجاة والحق حادياً ، ﴿ يَهْدِى به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة المائدة : ١٦] . حرسه بعين

(١) فى المطبوع : «تخصيصاً» ، وهو تصرف من الطابعين . خصه بالشىء يخصه خصا وخصوصية (بفتح الخاء وضمها) وخصيصى : أفرده به دون غيره .

(٢) حذف الطابعون قوله : «ثم» ، ليجعلوا كلام الطبرى دارجاً على ما ألفوا من الكلام .

(٣) يضمن ما جاء فى سورة البقرة : ٢٣ ، ويونس : ٣٨ ، والإسراء : ٨٨ .

(٤) السدف : جمع سدفة ، وهى ظلمة الليل يخالطها بعض الضوء ، تكون فى أول الليل وآخره ، ما بين الظلمة إلى الشفق ، وما بين الفجر إلى الصلاة .

منه لا تنام ، وحاطه برُكن منه لا يضام ، لاتهي على الأيام دعائمه ، ولا تبيد على طول الأزمان معالمه ، ولا يجور عن قصد المحجَّة تابعه[١] ، ولا يضل عن سُبُل الهدى مُصَاحبه . من اتبعه فاز وهُدِى ، ومن حاد عنه ضلّ وغوَى ، فهو موئلهم الذى إليه عند الاختلاف يئِلون ، ومعقلهم الذى إليه فى النوازل يعقلون[٢] ، وحصنهم الذى به من وساوس الشيطان يتحصنون ، وحكمة ربهم التى إليها يحتكمون ، وفصْل قضائه بينهم الذى إليه ينتهون ، وعن الرضى به يصدرون ، وحبله الذى بالتمسك به من الهلكة يعتصمون .

اللهم فوفقنا لإصابة صواب القول فى مُحكَمه ومُتشابهه ، وحلاله وحرامه ، وعامّه وخاصّه ، ومجمَله ومفسَّره ، وناسخه ومنسوخه ، وظاهره وباطنه ، وتأويل آيه وتفسير مُشْكِله . وألهمنا التمسك به والاعتصام بمحكمه ، والثبات على التسليم لمتشابهه . وأوزعنا الشكر على ما أنعمتَ به علينا من حفظه والعلم بحدوده . إنك سميع الدعاء قريب الإجابة . وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً .

اعلموا عبادَ الله ، رحمكم الله ، أن أحقّ ما صُرِفت إلى علمه العناية ، وبُلِغت فى معرفته الغاية ، ما كان لله فى العلم به رضًى ، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هُدى ، وأن أجمعَ ذلك لباغيه كتابُ الله الذى لا ريب فيه ، وتنزيله الذى لا مِرْية فيه ، الفائزُ بجزيل الذخر وسنىّ الأجر تاليه ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلٌ من حكيم حَميد[٣] .

ونحن — فى شرح تأويله ، وبيان ما فيه من معانيه — منشئون إن شاء الله ذلك ، كتاباً مستوعِباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه ، جامعاً ، ومن سائر الكتب

---

(١) المحجة : الطريق . والقصد : استقامة الطريق وسهولته .

(٢) وأل يئل وألا ووؤولا : لجأ طلباً للنجاة . والموئل : الملجأ والمنجى . والمعقل : الحصن المنيع فى رأس الجبل ، وعقل إليه يعقل عقلا وعقولا : لجأ إليه وامتنع به . وفى المطبوعة « يعتقلون » ، وفى المخطوطة مثلها غير منقوطة . ولم أجد « اعتقل » بمعنى عقل . وإن صحت فى قياس العربية .

(٣) تضمين آية سورة فصلت : ٤٢ .

غيره فى ذلك كافياً. ومخبرون فى كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما ١/٤ اتفقت عليه منه[1] ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه . ومبيِّنو عِلَل كل مذهب من مذاهبهم ، ومُوَضِّحو الصحيح لدينا من ذلك ، بأوجز ما أمكن من الإيجاز فى ذلك ، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه .

واللهَ نسألُ عونه وتوفيقه لما يقرب من مَحَابِّه ، ويُبْعد من مَساخِطه . وصلى الله على صَفْوته من خلقه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

وأولُ ما نبدأ به من القِيل فى ذلك : الإبانةُ عن الأسباب التى البدايةُ بها أولى، وتقديمها قبل ما عداها أحْرى. وذلك : البيانُ عما فى آى القرآن من المعانى التى من قِبَلها يدخل اللَّبْس على من لم يعان رياضةَ العلوم العربية ، ولم تستحكم معرفتُه بتصاريف وجوه منطق الألسُن السليقية الطبيعية .

---

(١) فى المطبوعة «عليه الأمة» ، وهو تصرف لا خير فيه . والهاء فى «منه» راجعة إلى كتاب الله .

﴿ القولُ فى البيانِ عن اتّفاق معانى آى القرآن ، ومعانى منطِق مَنْ نزل بلسانه القرآن من وَجْه البيان — والدّلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره هو الحكمة البالغة — مع الإبانةِ عن فضْل المعنَى الذى به بَايَن القرآنُ سائرَ الكلام ﴾

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ ، رحمه الله :

إن من أعظم نعم الله تعالى ذكره على عباده ، وجسيمِ منّته على خلقه ، ما منحهم من فَضْل البيان الذى به عن ضمائرِ صُدُورهم يُبينون ، وبه على عزائم نفوسهم يَدُلّون ، فذلّل به منهم الألسن[1] ، وسهّل به عليهم المستصعِب . فبه إياه يُوَحّدون ، وإيّاه به يُسبّحون ويقدّسون ، وإلى حاجاتهم به يتوصّلون ، وبه بينهم يتحاورُون ، فيتعارفون ويتعاملون .

ثم جعلهم ، جلّ ذكره — فيما منحهم من ذلك — طبقاتٍ ، ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ : فبيْنَ خطيب مُسْهِب ، وذَلِقِ اللسان مُهَذِّب ، ومفْحَمٍ[2] عن نفسه لا يُبين ، وعَيٍّ عن ضمير قلبه لا يُعبّر . وجعل أعلاهم فيه رُتبة ، وأرفعهم فيه درجةً ، أبلغَهم فيما أرادَ به بَلاغاً ، وأبينَهم عن نفسه به بياناً . ثم عرّفهم فى تنزيله ومحكم آيِ كتابه فضلَ ما حباهم به من البيان ، على من

---

(١) ذلل الشىء : لينه وسهله ونفى عنه جفوته وصعوبته .

(٢) أسهب الرجل : أكثر الكلام ، فإذا أكثر الكلام فى خطأ قالوا : رجل مسهب (بفتح الهاء) ، وإذا أكثر وأصاب فهو مسهِب (بكسر الهاء) . وذلق اللسان : فصيح طليق لا يتوقف . وقوله « مهذب » : من أهذب الطائر فى طيرانه ، والفرس فى عدوه ، والمتكلم فى كلامه : أسرع وتابع ، وفى حديث أبى ذر « فجعل يهذبُ الركوع » أى يسرع فيه ويتابعه . يقال : كلمنى فلان فأفحمته : أسكته فلم يطق جواباً وانقطع ، فهو مفحم . وفى المطبوعة « ومعجم عن نفسه ... »

فضّلهم به عليه من ذى البَكَم والمُستَعْجِم اللسان (١) ، فقال تعالى ذكرُه : ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيرُ مُبِين﴾ [سورة الزخرف : ١٨] . فقد وَضَحَ إذاً لذوى الأفهام ، وتبين لأولى الألباب ، أنَّ فضلَ أهل البيان على أهل البَكَم والمستعجِم اللسان ، بفضل اقتدار هذا من نفسه على إبانة ما أراد إبانته عن نفسه ببيانه ، واستعجام لسان هذا عما حاول إبانته بلسانه .

فإذْ كان ذلك كذلك — وكان المعنى الذى به باينَ الفاضلُ المفضولَ فى ذلك، فصار به فاضلاً والآخرُ مفضولاً ، هو ما وصفنا من فضْل إبانة ذى البيان ، عما قصَّر عنه المستعجمُ اللسان ، وكان ذلك مختلفَ الأقدار ، متفاوتَ الغايات والنهايات — فلا شك أن أعلى منازل البيان درجةً ، وأسنى مراتبه مرتبةً ، أبلغُه فى حاجة المُبِين عن نفسه ، وأبينُه عن مراد قائله ، وأقربُه من فهم سامعه . فإن تجاوز ذلك المقدار ، وارتفع عن وُسْع الأنام ، وعجز عن أن يأتى بمثله جميعُ العباد ، كان حجةً وعَلَماً لرسل الواحد القهار — كما كان حجةً وعَلَماً لها إحياءُ الموتى وإبراءُ الأبرص وذوى العمى ، بارتفاع ذلك عن مقادير أعلى منازل طبِّ المتطببين (٢) ، وأرفع مراتب عِلاج المعالجين ، إلى ما يعجز عنه جميع العالَمين . وكالذى كان لها حجةً وعَلَماً قطعُ مسافة شهرين فى الليلة الواحدة ، بارتفاع ذلك عن وُسع الأنام ، وتعذُّر مثله على جميع العباد ، وإن كانوا على قطع القليل من المسافة قادرين ، وللیسير منه فاعلين . ١/٥

فإذْ كان ما وصفْنا من ذلك كالذى وصفْنا ، فبيِّنٌ أنْ لا بيان أبيَنُ ، ولا حكمة أبلغُ ، ولا منطقَ أعلى ، ولا كلامَ أشرفُ — من بيان ومنطق تحدَّى

(١) كل من لا يقدر على الكلام فهو أعجم ومستعجم . استعجمت عليه قراءته : التبست عليه فلم يتهيأ له أن يمضى فيها ، فسكت وانقطع عن القراءة .

(٢) مقادير : جمع مقدار ، وهو القوة ، ومثله القدر والقدرة والمقدرة .

به امرؤ قوماً فى زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة ، وقِيلِ الشعرِ والفصَاحة ، والسجع والكهانة ، على كل خطيب منهم وبليغ(١) ، وشاعر منهم وفصيح ، وكلِّ ذى سجع وكهانة — فسفَّه أحلامهم ، وقصَّر بعقولهم (٢)، وتبرأ من دينهم ، ودعا جميعهم إلى اتباعه والقبول منه والتصديق به ، والإقرار بأنه رسولٌ إليهم من ربهم . وأخبرهم أن دلالته على صدْق مقالته ، وحجتَّه على حقيقة نبوّته — ما أتاهم به من البيان ، والحكمة والفرقان ، بلسان مثل ألسنتهم ، ومنطق موافقةٍ معانيه معانىَ منطقهم . ثم أنبأ جميعهم أنهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عَجَزَة ، ومن القدرة عليه نقَصَةٌ . فأقرّ جميعُهم بالعجز ، وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص . إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشَى ، فحاول تكلُّف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ما قد تيقن أنه عليه غير قادر . فأبدى من ضعف عقله ما كان مستتراً ، ومن عِيِّ لسانه ما كان مصُوناً ، فأتى بما لايعجِزُ عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق ، فقال : « والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثَرْداً ، واللاقمات لَقْماً » !(٣) ، ونحو ذلك من الحماقات المشبهةِ دعواه الكاذبة .

فإذْ كان تفاضُلُ مراتب البيان ، وتبايُنُ منازل درجات الكلام ، بما وصفنا قبل — وكان الله تعالى ذكرُه وتقدّست أسماؤه ، أحكمَ الحكماء ، وأحلمَ الحلماء ،

---

(١) فى المطبوعة : « كل خطيب . . . » بحذف « على » ، وفى المخطوطة « على خطيب . . . . » بحذف « كل » . وكلتاهما لا يستقيم بها كلام . والصواب ما أثبتناه . وأراد الطبرى أنهم رؤساء صناعة الخطب والبلاغة . . . على كل خطيب منهم و بليغ » . يعنى أن الذين تحداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن من العرب ، كانوا رؤساء البيان والبلاغة على كل مبين وبليغ من سائر العرب .

(٢) سفه أحلامهم : نسبهم إلى السفه ، وهو خفة الحلم واضطراب الرأى وضعفه ، وهو باب من الجهل . وفى المطبوعة : « وقصر معقولهم » والمعقول مصدر كالعقل ، يقال : ما لفلان معقول ، أى ما له عقل . وكأنه أراد بقوله « قصر » : نسبهم إلى قصر العقل وقلته . وأما قوله « قصر بعقولهم » ، فكأنه ضمن « قصر » معنى استخف بها ، فعداه بالباء ، أى عاب عقولهم واستقصرها واستخف بها . وأنا فى شك من صواب هذا الحرف .

(٣) من هذيان مسيلمة الكذاب لعنه الله . انظر تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٥ وسواه .

— كان معلوماً أن أبينَ البيان بيانُه ، وأفضلَ الكلام كلامه ، وأن قدرَ فضْل بيانه ، جلّ ذكره ، على بيان جميع خلقه ، كفضله على جميع عباده .

فإذْ كان كذلك — وكان غيرَ مبين منّا عن نفسه مَنْ خاطبَ غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب — كان معلوماً أنه غير جائز أن يخاطبَ جل ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطَبُ ، ولا يرسلَ إلى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسَلُ إليه. لأن المخاطب والمرسَلَ إليه ، إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه ، فحالهُ — قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعدَه — سواءٌ ، إذ لم يفدْه الخطابُ والرسالةُ شيئاً كان به قبل ذلك جاهلا . والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطاباً أو يرسل رسالةً لا توجب فائدة لمن خُوطب أو أرسلت إليه ، لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث ، والله تعالى عن ذلك مُتَعال .

ولذلك قال جل ثناؤه فى محكم تنزيله : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [سورة إبراهيم : ٤] . وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى ورَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة النحل : ٦٤] . فغير جائز أن يكونَ به مهتدياً ، مَنْ كانَ بما يُهْدَى إليه جاهلاً .

فقد تبين إذاً — بما عليه دللنا من الدّلالة — أن كلّ رسول لله جل ثناؤه أرسله إلى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه ، وكلّ كتاب أنزله على نبي ، ورسالة أرسلها إلى أمة ، فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه . فاتضح بما قلنا ووصفنا ، أن كتاب الله الذى أنزله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، بلسان محمد صلى الله عليه وسلم . وإذْ كان لسان محمد صلى الله عليه وسلم عربيًّا ، فبيِّنٌ أن القرآن عربيٌّ . وبذلك أيضاً نطق محكم تنزيل ربنا ، فقال جل ذكره : ﴿ إنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٢] . وقال : ﴿ وَإِنَّهُ

١/٦

لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [سورة الشعراء : ١٩٢ – ١٩٥] .

وإذْ كانت واضحةً صحةُ ما قلنا — بما عليه استشهدنا من الشواهد ، ودللنا عليه من الدلائل — فالواجبُ أن تكون معانى كتاب الله المنزّل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لمعانى كلام العرب موافقةً ، وظاهرُه لظاهر كلامها ملائماً ، وإن باينه كتابُ الله بالفضيلة التى فضَلَ بها سائرَ الكلام والبيان ، بما قد تقدّم وَصْفُنَاهُ .

فإذْ كان ذلك كذلك ، فبيِّن — إذْ كان موجوداً فى كلام العرب الإيجازُ والاختصارُ ، والاجتزاءُ بالإخفاء من الإظهار ، وبالقلة من الإكثار فى بعض الأحوال ، واستعمالُ الإطالة والإكثار ، والترداد والتكرار ، وإظهارُ المعانى بالأسماء دون الكناية عنها ، والإسرار فى بعض الأوقات ، والخبرُ عن الخاصّ فى المراد بالعامّ الظاهر ، وعن العامّ فى المراد بالخاصّ الظاهر ، وعن الكناية والمرادُ منه المصرَّح ، وعن الصفة والمرادُ الموصوف ، وعن الموصوف والمرادُ الصفة ، وتقديمُ ما هو فى المعنى مؤخر ، وتأخيرُ ما هو فى المعنى مقدّم ، والاكتفاءُ ببعض من بعض ، وبما يظهر عما يحذف ، وإظهارُ ما حظه الحذف —(١) أن يكون ما فى كتاب الله المنزّل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك ، فى كلّ ذلك له نظيراً ، وله مِثْلاً وشبيهاً .

ونحن مُبيّنو جميع ذلك فى أماكنه ، إن شاء الله ذلك وأمدّ منه بعونٍ وقوّة .

---

(١) قوله : « أن يكون ... » مبتدأ قوله « فبين » ، وما بينهما اعتراض طويل ؛ وهذا دأب الطبرى أبداً ، حتى كأنه لم يكن يخشى على قارئ أن يسو فهمه أو تكل فطنته .

﴿القول فى البيـان﴾

﴿عن الأحرف التى اتفقت فيها ألفاظ العرب﴾

﴿وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم﴾

قال أبو جعفر : إن سألنا سائل فقال : إنك ذكرت أنه غيرُ جائز أن يخاطب الله تعالى ذكرهُ أحداً من خلقه إلا بما يفهمه ، وأن يرسل إليه رسالة إلا باللسان الذى يفقهه . . . .

١ — فما أنت قائل فيما حدثكم به محمد بنُ حُميد الرازى ، قال : حدثنا حكّام بن سَلْم ، قال : حدثنا عَنْبسة ، عن أبى إسحق ، عن أبى الأحوص عن أبى موسى : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [سورة الحديد : ٢٨] ، قال : الكفلان : ضعفان من الأجر ، بلسان الحبشة(١) .

٢ — وفيما حدثكم به ابن حُمَيْد ، قال : حدثنا حكام ، عن عَنبسة ، عن أبى إسحق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ [سورة المزمل : ٦] قال : بلسان الحبشة إذا قامَ الرجلُ من الليل قالوا : نَشأ(٢) .

٣ — وفيما حدّثكم به ابن حميد قال : حدّثنا حكام ، قال : حدثنا عنبسة ، عن أبى إسحق ، عن أبى ميسرة : ﴿يا جبالُ أوِّبى معهُ﴾ قال : سبِّحى ، بلسان الحبشة(٣) ؟

قال أبو جعفر : وكل ما قلنا فى هذا الكتاب « حدّثكم » فقد حدثونا به .

---

(١) الخبر ١ — يأتى بهذا الإسناد فى تفسير سورة الحديد : ٢٨ وفى إسناده هناك خطأ .
(٢) الخبر ٢ — يأتى بإسناده فى تفسير سورة المزمل : ٦
(٣) الخبر ٣ — يأتى بإسناده فى تفسير سورة سبأ : ١٠

٤ — وفيما حدّثكم به محمد بن خالد بن خِداش الأزدىّ ، قال : حدثنا سلم ابن قتيبة ، قال : حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله : ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [سورة المدثر : ٥١] قال : هو بالعربية الأسد ، وبالفارسية شار ، وبالنبطية أريا ، وبالحبشية قسورة[١] .

٥ — وفيما حدّثكم به ابن حميد قال : حدّثنا يعقوب القمّى ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جُبَير قال : قالت قريش : لولا أنزِل هذا القرآن أعجميًّا وعربيًّا؟ فأنزل الله تعالى ذكره : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [سورة فصلت : ٤٤] فأنزل الله بعد هذه الآية فى القرآن بكل لسان فيه . ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [سورة هود : ٨٢ ، وسورة الحجر : ٧٤] قال : فارسية أعربت « سنك وكل[٢] » .

٦ — وفيما حدثكم به محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدىّ ، قال : حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحق ، عن أبى ميسرة ، قال : فى القرآن من كل لسان[٣] .

٧/١ وفيما أشبه ذلك من الأخبار التى يطولُ بذكرها الكتاب ، مما يدل على أن فيه من غير لسان العرب ؟

قيل له : إنّ الذى قالوه من ذلك غير خارج من معنى ما قلنا — من أجل أنهم لم يقولوا : هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً ، ولا كان ذاك

---

(١) الخبر ٤ — يأتى بإسناده فى تفسير سورة المدثر : ٥١

(٢) الخبر ٥ — يأتى بإسناده فى تفسير سورة فصلت : ٤٤ . ونص الخبر هناك : «فأنزل الله بعد هذه الآية كل لسان فيه ...» وهى أجود . وفى الدر المنثور ٥ : ٣٦٧ : «وأنزل الله تعالى بعد هذه الآية فيه بكل لسان . حجارة ... » . ثم يأتى بإسناده مختصراً فى تفسير سورة هود : ٨٢ . وانظر سائر ما روى فى « سجيل » فى تفسير سورة الفيل : ٤ . وقوله « حجارة من سجيل » . . كلام مستأنف ، ضرب به مثلا لما جاء فى القرآن من الألسنة الأخرى .

(٣) الخبر ٦ — لم أجده فى مكان آخر بعد . وهو فى الدر المنثور ٥ : ٣٦٧ وفيه : « بكل لسان » .

لها منطقاً قبل نزول القرآن ، ولا كانت بها العرب عارفةً قبل مجيء الفرقان — فيكون ذلك قولا لقولنا خلافاً(١) . وإنما قال بعضهم : حرف كذا بلسان الحبشة معناهُ كذا ، وحرفُ كذا بلسان العجم معناه كذا . ولم نستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد ، فكيف بجنسين منها ؟ كما قد وجدنا اتفاقَ كثير منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفة ، وذلك كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرْطاس ، وغير ذلك — مما يتعب إحصاؤه ويُملّ تعداده ، كرهنا إطالة الكتاب بذكره — مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى . ولعلّ ذلك كذلك في سائر الألسن التي نجهل منطقها ولا نعرف كلامها.

فلو أن قائلا قال — فيما ذكرنا من الأشياء التي عددْنا وأخبرْنا اتفاقَه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية ، وما أشبهَ ذلك مما سكتنا عن ذكره — : ذلك كله فارسي لا عربي ، أو ذلك كله عربي لا فارسي ، أو قال : بعضه عربي وبعضه فارسي ، أو قال : كان مخرج أصله من عند العرب فوقع إلى العجم فنطقوا به ، أو قال : كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته — كان مُستجهَلاً(٢) . لأن العربَ ليست بأولى أن تكون كان مخرجُ أصل ذلك منها إلى العجم ، ولا العجم أحقَّ أن تكون كان مخرج أصل ذلك منها إلى العرب ، إذ كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجوداً في الجنسين .

وإذْ كان ذلك موجوداً على ما وصفنا في الجنسين ، فليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنس الآخر . والمدّعي أن مخرج أصل ذلك إنما كان من أحد الجنسين إلى الآخر ، مدّعٍ أمراً لا يوصَل إلى حقيقة صحّته إلا بخبر يوجب العلم ، ويزيل الشكّ ، ويقطع العذرَ صحّتُه .

(١) خلاف : مخالف ، وسيكثر مجيئها في كلام الطبري .

(٢) قوله : «كان مستجهلا» ، جواب قوله : «لو أن قائلا قال . . .» . والفصل في عبارة الطبري يكون أطول من هذا ، كما سيمر بك . واستجهل فلاناً : عده جاهلا ، أو وجده جاهلا . والجهل هنا : فساد الرأي واضطرابه ، لأنه مبني على التحكم المحض ، كما ترى في رد الطبري .

بل الصواب فى ذلك عندنا : أنْ يسمَّى : عربيًّا أعجميًّا، أو حبشيًّا عربيًّا، إذ كانت الأمّتان له مستعملتين — فى بيانها ومنطقها — استعمالَ سائر منطقها وبيانها . فليس غيرُ ذلك من كلام كلِّ أمة منهما ، بأولى أن يكون إليها منسوباً — منه[١] .

فكذلك سبيل كل كلمة واسم اتفقت ألفاظ أجناس أمم فيها وفى معناها ، ووُجد ذلك مستعملا فى كل جنس منها استعمالَ سائرِ منطقهم ، فسبيلُ إضافته إلى كل جنس منها ، سبيلُ ما وصفنا — من الدرهم والدينار والدواة والقلم ، التى اتفقت ألسن الفرس والعرب فيها بالألفاظ الواحدة والمعنى الواحد ، فى أنه مستحقٌّ إضافته إلى كل جنس من تلك الأجناس — اجتماعٌ واقترانٌ[٢] .

وذلك هو معنى من روينا عنه القولَ فى الأحرف التى مضت فى صدر هذا الباب ، من نسبة بعضهم بعضَ ذلك إلى لسان الحبشة ، ونسبة بعضهم بعضَ ذلك إلى لسان الفرس ، ونسبة بعضهم بعضَ ذلك إلى لسان الروم. لأنّ من نسب شيئاً من ذلك إلى ما نسبه إليه ، لم ينفِ — بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه — أن يكون عربيًّا ، ولا من قال منهم : هو عربىّ ، نفى ذلك أن يكون مستحقًّا النسبةَ إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم غيرها . وإنما يكون الإثبات دليلا على النفى ، فيما لا يجوز اجتماعه من المعانى ، كقول القائل : فلان قائم ، فيكون بذلك من قوله دالاًّ على أنه غير قاعد ، ونحو ذلك مما يمتنع اجتماعه لتنافيهما . فأمّا ما جاز اجتماعه فهو خارج من هذا المعنى . وذلك كقول القائل فلان قائم مكلِّمٌ فلاناً ، فليس فى تثبيت القيام له ما دلَّ على نفى كلام آخر ، ٨/١

(١) قوله « منه » ، متعلق بقوله « بأولى » ، أى « بأولى منه . . . »

(٢) فى المطبوعة « باجتماع وافتراق » . وأراد الطبرى بقوله « اجتماع واقتران » أى أن يقال هو : « عربى أعجمى ، أو حبشى عربى » ، كما مر آنفاً فى كلامه . وسياق عبارته بعد حذف التفسير والاعتراض من كلامه هو هذا : « فسبيل إضافته إلى كل جنس منها ، سبيل ما وصفنا . . . اجتماع واقتران » . أى أن يجمع بين الوصفين أو يقرن بين النسبتين .

بجواز اجتماع ذلك فى حالٍ واحدٍ من شخص واحد . فقائل ذلك صادق إذا كان صاحبه على ما وصفه به .

فكذلك ما قلنا — فى الأحرف التى ذكرنا وما أشبهها — غيرُ مستحيل أن يكون عربياً بعضها أعجمياً، وحبشياً بعضها عربياً، إذ كان موجوداً استعمالُ ذلك فى كلتا الأمتين . فناسِبُ ما نَسبَ من ذلك إلى إحدى الأمتين أو كلتيهما محقٌّ غيرُ مبطل .

فإن ظن ذو غباءٍ أنّ اجتماع ذلك فى الكلام مستحيلٌ — كما هو مستحيل فى أنساب بنى آدم — فقد ظنّ جهلاً . وذلك أن أنساب بنى آدم محصورة على أحد الطرفين دون الآخر ، لقول الله تعالى ذكره : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [سورة الأحزاب : ٥]. وليس ذلك كذلك فى المنطق والبيان ، لأنّ المنطق إنما هو منسوب إلى من كان به معروفاً استعمالُه . فلو عُرِف استعمالُ بعض الكلام فى أجناس من الأمم — جنسين أو أكثر — بلفظ واحد ومعنى واحد ، كان ذلك منسوباً إلى كل جنس من تلك الأجناس ، لا يستحق جنسٌ منها أن يكون به أولى من سائر الأجناس غيره . كما لو أنّ أرضاً بين سَهل وجبل، لها هواء السهل وهواء الجبل ، أو بين برٍّ وبحرٍ ، لها هواء البر وهواءُ البحر — لم يمتنع ذو عقل صحيح أن يصفها بأنها سُهْلية جبلية(١) . أو بأنها بَرِّية بَحْرية، إذ لم تكن نسبتها إلى إحدى صفتيها نافيةً حقَّها من النسبة إلى الأخرى . ولو أفردَ لها مفردٌ إحدى صفتيها ولم يسلبها صفتها الأخرى ، كان صادقاً محقّاً .

وكذلك القول فى الأحرف التى تقدم ذكرُناها فى أول هذا الباب .

وهذا المعنى الذى قلناه فى ذلك ، هو معنى قول من قال : فى القرآن من كل لسان — عندنا بمعنى ، والله أعلم : أنّ فيه من كلّ لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التى تنطق به ، نظيرَ ما وصفنا من القول فيما مضى .

---

(١) النسبة إلى سهل (بفتح فسكون) : سهلى ، بضم السين ، على غير القياس .

وذلك أنه غيرُ جائز أن يُتوهَّم على ذى فطرة صحيحة ، مقرّ بكتاب الله ، ممن قد قرأ القرآن وعرف حدود الله — أن يعتقد أنّ بعضَ القرآن فارسى لا عربىّ ، وبعضه نبطى لا عربىّ ، وبعضه رومىّ لا عربىّ ، وبعضه حبشى لا عربى [1] ، بعد ما أخبر الله تعالى ذكرُه عنه أنه جعله قرآناً عربيًّا . لأن ذلك إنْ كان كذلك ، فليس قولُ القائل : القرآن حبشىٌّ أو فارسىٌّ ، ولا نسبةُ من نسبه إلى بعض ألسن الأمم التى بعضُه بلسانه دون العرب — بأولى بالتطويل من قول القائل [2] : هو عربى . ولا قولُ القائل : هو عربىٌّ بأولى بالصّحة والصواب من

---

(١) فى المطبوع والمخطوط « وبعضه عربى لا فارسى » مكان « وبعضه رومى لا عربى » ، وهو فاسد المعنى فآثرت أن أثبت ما يقتضيه سياق الكلام . وقد ذكر الروم آنفاً فى ص ١٦ .

(٢) فى المطبوعة : « بالتطول » وأراد الطبرى بقوله « التطويل » نسبة القول إلى التزيد والسعة فى الكلام ، حتى يستغرق الوصف بإحدى الصفات سائر الصفات الأخرى . وكلام الطبرى يحتاج إلى فضل بيان — من أول قوله : « وذلك أنه غير جائز أن يتوهم . . . » إلى قوله : « ولا جائز نسبته إلى كلام العرب » . فأقول :

أراد الطبرى أن يقول : إنه لا يستقيم فى العقل أن يكون الرجل مؤمناً بكتاب الله ، عارفاً بمعانيه وحدوده ، مقراً بأن الخبر قد جاء من ربه أنه جعل القرآن « قرآناً عربيا » ، ولم يجعله أعجميا بقوله « ولو جعلناه قرآناً أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى » — ثم يعتقد مع ذلك : أن بعض القرآن فارسى لا عربى ، وبعضه نبطى لا عربى ، وبعضه رومى لا عربى ، وبعضه حبشى لا عربى . فإنه إن فعل ، فقد نفى عن بعض القرآن أنه عربى ، والله يصف القرآن كله بأنه عربى . وأثبت لبعض القرآن أنه أعجمى ، والله تعالى ينفى عن جميعه أنه أعجمى .

وخبر الله تعالى عن كتابه أنه جعله « قرآنا عربيا » صفة شاملة لا يجوز لأحد أن يخصص شمولها على بعض القرآن دون بعض . ولو جاز لأحد أن يخصص شمولها من عند نفسه فيقول : « بعض القرآن حبشى لا عربى ، أو فارسى لا عربى ... » ، لجاز أيضاً لقائل أن يقول من عند نفسه : « القرآن حبشى أو فارسى أو رومى ، أو أعجمى » .

وحجة الطبرى فى ذلك : أن الذى يخصص شمول الصفة من عند نفسه على بعض القرآن بأنه عربى ، ويقول إن بعضه الآخر يوصف بأنه حبشى أو فارسى أو رومى — يدعى أن وصف القرآن بأنه عربى ، محمول على تغليب إحدى الصفات على سائر الصفات الأخرى . ولو جاز ذلك ، لجاز لقائل أن يقول : « القرآن حبشى أو فارسى أو رومى » ، لأنه فعل مثله ، فغلب إحدى الصفات على الصفات الأخرى .

وإذا اقتصر المقتصر على صفة بعضه فقال : « القرآن حبشى أو فارسى » ، لم يكن أولى بأن ينسب إلى التوسع فى الكلام والتزيد فى الصفة ، من القائل : « القرآن عربى » ، لأنه اقتصر أيضاً على صفة بعضه ، فتوسع فى الكلام وتزيد فى الصفة .

وإذا كان ما فى القرآن من فارسى ورومى ونبطى وحبشى ، نظير ما فيه من عربى ، فليس قول القائل : « القرآن عربى » ، أولى بالصحة والصواب من قول القائل : « القرآن فارسى أو حبشى » ،

قول ناسبه إلى بعض الأجناس التى ذكرنا . إذ كان الذى بلسان غير العرب من سائر ألسن أجناس الأمم فيه ، نظيرَ الذى فيه من لسان العرب .

وإذا كان ذلك كذلك ، فبيِّن إذاً خطأ من زعم أن القائل من السلف : فى القرآن من كل لسان ، إنما عنى بقيله ذلك ، أنّ فيه من البيان ما ليس بعربىّ ، ولا جائز نسبته إلى لسان العرب .

ويقال لمن أبى ما قلنا — ممن زعم أن الأحرف التى قدمنا ذكرها فى أول الباب وما أشبهها ، إنما هى كلام أجناس من الأمم سوى العرب ، وقعت إلى العرب فعرّبته — : ما برهانك على صحة ما قلت فى ذلك ، من الوجه الذى يجب التسليم له ، فقد علمتَ من خالفك فى ذلك ، فقال فيه خلاف قولك ؟ وما الفرقُ بينك وبين من عارضك فى ذلك فقال : هذه الأحرف ، وما أشبهها من الأحرف غيرها ، أصلها عربى ، غير أنها وقعت إلى سائر أجناس الأمم غيرها فنطقت كل أمة منها ببعض ذلك بألسنتها — من الوجه الذى يجبُ التسليم له ؟

فلن يقول فى شىء من ذلك قولا إلا ألزم فى الآخر مثله .

فإن اعتلّ فى ذلك بأقوال السلف التى قد ذكرنا بعضها وما أشبهها ، طولبَ

فكلاهما أطلق صفة أحد النظيرين على الآخر . وإذا جاز لأحدهما أن يفعل ذلك مصيباً فى قوله ، جاز للآخر مثله مصيباً فى قوله .

وهذا فساد من القول وتناقض ، ومخالف لقوله تعالى : « ولو جعلناه قرآناً أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى » ، فهذه شهادة من الله تعالى بأنه لم يجعله أعجمياً ، كشهادته سبحانه بأنه جعله « قرآناً عربيا » . وقد اقتضى مذهب هذا القائل أن يقال : « القرآن حبشى أو فارسى » . كما يقال : « القرآن عربى » سواء . فناقض هذا قول الله سبحانه . وهذا قول « غير جائز أن يتوهم على ذى فطرة صحيحة ، مقر بكتاب الله ، ممن قرأ القرآن ، وعرف حدود الله » كما قال الطبرى رحمه الله .

وإذن فقول القائل من السلف : « فى القرآن من كل لسان » ، ليس يعنى به أن فيه ماليس بعربى مما لا يجوز أن ينسب إلى لسان العرب — بل معناه أن فيه ألفاظاً استعملتها العرب ، وهذه الألفاظ أنفسها مما استعملته الفرس أو الروم أو الحبش ، على جهة اتفاق اللغات على استعمال لفظ واحد بمعنى واحد ، لا على جهة انفراد الكلمة من القرآن بأنها فارسية غير عربية ، أو رومية غير عربية . فإن السلف أعرف بكتاب الله وبمعانيه وبحدوده ، لا يدخلون الفساد فى أقوالهم ، مناقضين شهادة الله لكتابه بأنه عربى غير أعجمى .

– مطالبَتنا من تأوَّل عليهم فى ذلك تأويله – بالذى قد تقدم بيانه . وقيل له:

٩/١ ما أنكرتَ أن يكون من نسب شيئاً من ذلك منهم إلى من نسبه من أجناس الأمم سوى العرب ، إنما نسبه إلى إحدى نسبتيه التى هو لها مستحق ، من غير نَفْىٍ منه عنه النسبة الأخرى ؟ ثم يقال له: أرأيتَ من قال لأرض سُهْلية جبلية: هى سُهلية ، ولم ينكر أن تكون جبلية ، أو قال : هى جبلية ، ولم يدفعْ أن تكون سُهْلية ، أنافٍ عنها أن تكون لها الصفة الأخرى بقيله ذلك ؟

فإن قال: نعم ! كابرعَقْلَه . وإن قال : لا ، قيل له: فما أنكرتأن يكون قولُ من قال فى سجّيل : هى فارسية ، وفى القسطاس : هى رومية – نظيرَ ذلك ؟ وسئل الفرقَ بين ذلك ، فلن يقولَ فى أحدهما قولا إلا أُلزِم فى الآخر مثله .

﴿ القول فى اللغة ﴾

﴿ التى نزل بها القرآن من لغات العرب ﴾

قال أبو جعفر :

قد دللنا ، على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وُفِّق لفهمه ،[1] على أن الله جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم ، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها .

فنقول الآن — إذ كان ذلك صحيحاً — فى الدّلالة عليه بأىِّ ألسن العرب أنزل : أبألسن جميعها أم بألسن بعضها ؟ إذ كانت العرب ، وإن جمَعَ جميعَها اسمُ أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان ، متباينو المنطق والكلام . وإذْ كان ذلك كذلك — وكان الله جل ذكرُه قد أخبر عبادَه أنه قد جعلَ القرآن عربيًّا وأنه أنزل بلسانٍ عربىّ مبين ، ثم كان ظاهرُه محتملا خصوصاً وعُموماً — لم يكنْ لنا السبيلُ إلى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه ، إلا ببيان مَنْ جعل إليه بيانَ القرآن ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإذ كان ذلك كذلك—[2] وكانت الأخبار قد تظاهرت عنه صلى الله عليه وسلم

٧ — بما حدثنا به خلاد بن أسلم ، قال : حدثنا أنس بن عياض ، عن أبى حازم ، عن أبى سلمة ، قال —: لا أعلمه إلا عن أبى هريرة — : أن رسول

---

(١) هكذا فى المطبوع والمخطوط : « على أن الله جل ثناؤه » ، والأجود أن تكون « بأن الله جل ثناؤه » ، أى : « قد دللنا على صحة القول . . . بأن الله جل ثناؤه » ، والباء وما بعدها متعلقة بالقول .

(٢) جوابُ قوله : « فإذ كان ذلك كذلك » ، يأتى فى ص : ٤٨ س ٢٠ وهو قوله : « صحّ وثبت أن الذى نزل به القرآن . . . »

الله صلى الله عليه وسلم قال : أنزل القرآنُ على سبعة أحرف ، فالمِراءُ في القرآن كفرٌ — ثلاث مرات — فما عرَفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه[1].

٨ — حدثني عبيد بن أسباط بن محمد ، قال : حدثنا أبي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزِل القرآن على سبعة أحرف ، عليمٌ حكيم ، غفورٌ رحيم[2] .

٩ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثني عبدة بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثلَه .

١٠ — حدثنا محمد بن حميد الرازي ، قال : حدثنا جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة ، عن واصل بن حيّان ، عمّن ذكره ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل القرآن على سبعة أحرفٍ ، لكل حرف منها ظهر وبطنٌ ، ولكل حرف حَدٌّ ، ولكل حدٍّ مُطَّلَعٌ[3].

---

(١) الحديث ٧ — رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (رقم ٧٩٧٦ ج ٢ ص ٣٠٠ طبعة الحلبي) عن أنس بن عياض . ورواه ابن حبان في صحيحه (رقم : ٧٣ بشرح أحمد محمد شاكر) عن أبي يعلى عن أبي خيثمة عن أنس بن عياض . ونقله ابن كثير في التفسير ٢ : ١٠٢ عن مسند أبي يعلى ، وفي فضائل القرآن : ٦٣ عن مسند أحمد . وهو في مجمع الزوائد ٧ : ١٥١ . ونسبه ابن كثير في الفضائل للنسائي . والظاهر أنه يريد كتاب التفسير للنسائي .

(٢) الحديث ٨ ، ٩ — رواه أحمد في المسند (٨٣٧٢ ج ٢ ص ٣٣٢ حلبي) عن محمد بن بشر ، و (٩٦٧٦ ج ٢ ص ٤٤٠) عن ابن نمير ، كلاهما عن محمد بن عمرو ، وهو محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة ، وهو ابن عبد الرحمن بن عوف . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ : ١٥١ جعله رواية أخرى للحديث الأول ، ثم قال : « رواه كله أحمد بإسنادين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح . ورواه البزار بنحوه » . وسيأتي حديث آخر لأبي هريرة ، برقم : ٤٥ .

(٣) الحديث ١٠ ، ١١ — هو حديث واحد بإسنادين ضعيفين ، أما أحدهما فلانقطاعه بجهالة راويه : « عمن ذكره عن أبي الأحوص » . وأما الآخر فمن أجل « إبرهيم الهجري » راويه عن أبي الأحوص . و « مغيرة » في الإسناد الأول : هو ابن مقسم الضبي ، وهو ثقة . و « واصل بن حيان » هو الأحدب ، وهو ثقة . و « أبو الأحوص » : هو الجشمي ، واسمه : عوف بن مالك بن نضلة ، وهو تابعي ثقة معروف . و « مهران » في الإسناد الثاني : هو ابن أبي عمر العطار الرازي ، وهو ثقة ، ولكن في روايته عن الثوري اضطراب . وشيخه سفيان هنا : هو الثوري الإمام . و « إبرهيم الهجري » هو إبرهيم بن مسلم .

١١ — حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا مهران، قال: حدثنا سفيان، عن إبراهيم الهَجَرِىّ، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى صلى الله عليه وسلم مثله.

١٢ — حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، قال: حدثنا أبو بكر بن عياش، قال: حدثنا عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله، قال: اختلفَ رجلان فى سورةٍ، فقال هذا: أقرَأنى النبى صلى الله عليه وسلم. وقال هذا: أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم. فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبر بذلك، قال فتغير وجههُ، وعنده رجلٌ فقال: اقرأوا كما عُلِّمتم — فلا أدرى أبشىء أُمِرَ أم شىء ابتدعه من قِبَل نفسه — فإنما أهلك من كان قبلكم اختلافُهم على أنبيائهم. قال: فقام كلّ رجل منا وهو لا يقرأ على قراءة صاحبه. نحو هذا ومعناه[1]

١٣ — حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى، قال: حدثنا أبى، قال: حدثنا الأعمش — وحدثنى أحمد بن منيع، قال: حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، عن الأعمش — عن عاصم، عن زر بن حبيش، قال: قال عبد الله بن مسعود: تمارينا فى سورة من القرآن، فقلنا: خمس وثلاثون أو ست وثلاثون آية. قال: فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدنا عليًّا يُنَاجِيه، ١٠/١

والحديث بهذا اللفظ الذى هنا، ذكره السيوطى فى الجامع الصغير رقم: ٢٧٢٧، ونسبه للطبرانى فى المعجم الكبير، ورمز له بعلامة الحسن، ولا ندرى إسناده عند الطبرانى. وأما أوله، دون قوله «ولكل حرف حد» إلخ، فإنه صحيح ثابت، رواه ابن حبان فى صحيحه رقم: ٧٤. وانظر مجمع الزوائد ٧: ١٥٢، ١٥٣. وقوله «مطلع»: هو بتشديد الطاء وفتح اللام، قال فى النهاية: «أى لكل حد مصعد يصعد إليه من معرفة علمه، والمطلع: مكان الاطلاع من موضع عال». ثم قال: «ويجوز أن يكون: لكل حد مطلع، بوزن مصعد ومعناه». وسيأتى شرح ألفاظ هذا الحديث ص٢٤ — ٢٥ بولاق، بعد الحديث ٧٠.

(١) الحديث ١٢ — إسناده صحيح. وهو مختصر. ورواه أحمد فى المسند مطولا رقم: ٣٩٨١ عن يحيى بن آدم عن أبى بكر، وهو ابن عياش، بهذا الإسناد. ورواه من طرق أخرى مختصراً أيضاً. ورواه الحاكم فى المستدرك ٢: ٢٢٣ — ٢٤٤ بأطول مما هنا، بإسنادين: من طريق إسرائيل عن عاصم، ومن طريق أبى عوانة عن عاصم. وصححه ووافقه الذهبى. وذكره الحافظ فى الفتح ٩: ٢٣، ونسبه لابن حبان والحاكم.

قال : فقلنا: إنا اختلفنا فى القراءة . قال : فاحمرَّ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إنما هلكَ من كان قبلكم باختلافهم بينهم . قال : ثم أسرَّ إلى علىّ شيئاً، فقال لنا على: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرُكم أن تقرأوا كما عُلِّمتم (١) .

١٤ ــ حدثنا أبوكريب ، قال: حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن عيسى بن قرطاس ، عن زيد القصار ، عن زيد بن أرقم ، قال : كنا معهُ فى المسجد فحدثنا ساعة ثم قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أقرأنى عبد الله بن مسعود سورة ، أقرأنيها زيدٌ وأقرأنيها أبىّ بن كعب، فاختلفت قراءتهم ، فبقراءةِ أيِّهم آخُذُ ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وعلىٌّ إلى جنبه ، فقال على : ليقرأ كل إنسان كما عُلِّم ، كلٌّ حسنٌ جميل(٢) .

١٥ ــ حدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، قال: أخبرنى عروة بن الزبير: أن المِسْوَر بن مَخْرمة وعبد الرحمن بن عبدِ القارىّ أخبراه : أنهما سمعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورةَ الفرقان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبَّرت حتى سلَّم، فلما سلّم

(١) الحديث ١٣ — إسناداه صحيحان أيضاً ، وهو رواية أخرى للحديث قبله. ولم نجده بهذا الإسناد واللفظ فى موضع آخر .

(٢) الحديث ١٤ — هذا حديث لا أصل له ، رواه رجل كذاب ، هو « عيسى بن قرطاس » ، قال فيه ابن معين : « ضعيف ليس بشىء ، لا يحل لأحد أن يروى عنه » . وقال ابن حبان : « يروى الموضوعات عن الثقات ، لا يحل الاحتجاج به » . وقد اخترع هذا الكذاب شيخاً له روى عنه ، وسماه « زيد القصار » ! لم نجد لهذا الشيخ ترجمة ولا ذكراً فى شىء من المراجع . وهذا الحديث ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧ : ١٥٣ — ١٥٤ ، وقال : « رواه الطبرانى ، وفيه عيسى بن قرطاس ، وهو متروك » . ومن العجب أن يذكر الحافظ هذا الحديث فى الفتح ٩ : ٢٣ ، وينسبه للطبرى والطبرانى، ثم يسكت عن بيان علته وضعفه ! غفر الله لنا وله .

لبَّبته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتُك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقلت : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهو أقرأنى هذه السورة التى سمعتُك تقرؤها ! فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقْرِئنيها ، وأنت أقرأتنى سورة الفرقان ! قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله ياعمر ، اقرأ ياهشام . فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرؤها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلتْ . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ياعمر . فقرأتُ القراءة التى أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلتْ . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منها [1] .

١٦ — حدثنى أحمد بن منصور ، قال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، قال : حدثنا حرب بن ثابت من بنى سُلَيم ، قال : حدثنا إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فغيَّر عليه ، فقال : لقد قرأتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يغيِّر علىّ . قال : فاختصما عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ألم تقرئنى آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ! قال : فوقع فى صدر عمرَ شىء ، فعرف

---

(١) الحديث ١٥ – رواه أحمد فى المسند رقم : ٢٩٦ عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى ، وهو ابن شهاب ، بهذا الإسناد نحوه . ورواه أيضاً رقم : ٢٩٧ عن الحكم بن نافع عن شعيب عن الزهرى ، به . ورواه بأسانيد أخر ، مطولا ومختصراً : ١٥٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٣٧٥ . ورواه البخارى ٩ : ٢١ — ٢٣ من فتح البارى ، مطولا بنحو مما هنا ، من طريق الليث بن سعد عن عقيل عن ابن شهاب . ونقله ابن كثير فى فضائل القرآن : ٧٢ عن رواية البخارى ، ثم ذكر أنه رواه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى ، من طرق عن الزهرى . وفى تيسير الوصول ١ : ١٩٠ « أخرجه الستة » ، وفيه مكان « وتصبرت » ، و « تربصت به » وقوله : « كدت أساوره » أى كدت أواثبه وأبطش به . وقوله « فتصبرت حتى سلم » . موافق لرواية البخارى ، وفى المسند : « فنظرت حتى سلم » أى انتظرت .

النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في وجهه ، قال : فضربَ صدره وقال : ابعَدْ شيطاناً — قالها ثلاثاً — ثم قال : ياعمرُ ، إن القرآن كلّه صواب ، مالم تجعلْ رحمةً عذاباً أو عذابا رحمةً(١) .

(١) الحديث ١٦ — رواه أحمد في المسند (١٦٤٣٧ ج ٤ ص ٣٠ طبعة الحلبي) عن عبد الصمد ، وهو ابن عبد الوارث ، بهذا الإسناد ، نحوه . ونقله الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن : ٧٣ ، وقال : « وهذا إسناد حسن . وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبي ثابت ، لا نعرف أحداً جرحه » . ونقله الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ : ١٥٠ — ١٥١ ، وقال : « رواه أحمد ، ورجاله ثقات » . وذكره الحافظ في الفتح ٩ : ٢٢ — ٢٣ ، ونسبه للطبري فقط ، فقصر إذ لم ينسبه للمسند .

وإسناده يحتاج إلى بحث :

فأولا — « حرب بن ثابت » : ثبت في نسخ الطبري هنا « حرب بن أبي ثابت » ، وهو خطأ صرف من الناسخين . صوابه « حرب بن ثابت » ، وهو « المنقري » ، ترجمه البخاري في التاريخ الكبير : ٢ / ١ / ٥٨ ، قال : « حرب بن أبي حرب أبو ثابت ، عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري ، قاله عبد الصمد . وقال موسى : حدثنا حرب بن ثابت المنقري . يعد في البصريين » .

وترجمه ابن حبان في الثقات ٤٤٣ — ٤٤٤ ، قال : «حرب بن ثابت المنقري، من أهل البصرة ، يروى عن الحسن ومروان الأصفر ، روى عنه عبد الصمد ، كأنه : حرب بن أبي حرب الذى ذكرناه » . وقد ذكر قبله ترجمة « حرب بن أبي حرب ، يروى عن شريح ، روى عنه حصين أبو حبيب » .

والحافظ ابن حجر حين ترجم لحرب بن ثابت ، أشار إلى كلام ابن حبان هذا ، وعقب عليه بأنه « واحد ، جعله اثنين ، ثم شك فيه » ! ! ولم ينصفه في هذا ، فإنهما اثنان يقيناً ، فصل بينهما البخاري في الكبير ، فجعل الذى يروى عن شريح برقم : ٢٢٦ ، غير الذى نقلنا كلامه عنه برقم : ٢٢٧ .

وأما الذى جعل الراوي راويين فإنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢ / ١ / ٢٥٢ ذكر ثلاث تراجم ، بالأرقام : ١١٢١ ، ١١٢٣ ، ١١٢٥ ، فالأخير هو الذى روى عن شريح ، والأولان هما شخص واحد ، وهم فيه ابن أبي حاتم .

وقد نسب « حرب بن ثابت » هذا في التعجيل : ٩١ — ٩٢ بأنه « البكري » ، وكذلك في الإكمال للحسيني : ٢٣ . وأنا أرجح أن هذا خطأ من الناسخين ، أصله « البصري » ، فإن نسبته فيما أشرنا إليه من تراجمه « المنقري » ، وهو من أهل البصرة ، فمن ذلك رجحت أن صوابه « البصري » .

وثانياً — « إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة » : هكذا رواه عبد الصمد بن عبد الوارث عن حرب ابن ثابت المنقري . ولكن بعض العلماء شك في صحة هذا ، فقال البخاري في الكبير في ترجمة حرب : « وقال مسلم : حدثنا حرب بن ثابت سمع إسحق بن عبد الله » فهذه رواية البخاري عن شيخه مسلم بن إبرهيم الفراهيدي عن حرب بن ثابت « أنه سمع إسحق بن عبد الله » . وهي تؤكد صحة ما رواه عبدالصمد . ولكن قال البخاري عقب ذلك : « حدثني إسحق بن إبرهيم قال : أخبرنا عبد الصمد قال : حدثنا حرب أبو ثابت قال : حدثنا إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة . ويقال : إسحق هذا ليس بابن أبي طلحة ، وهم فيه عبد الصمد من حفظه ، وأصله صحيح » ، فهذه إشارة إلى هذا الحديث .

ولكنه قال في التاريخ الكبير ١ / ١ / ٣٨٢ في ترجمة « إسحق الأنصاري » : « إسحق الأنصاري . حدثنا موسى بن إسمعيل قال : حدثنا حرب بن ثابت المنقري قال : حدثني إسحق الأنصاري

١٧ — حدثنا عبيد الله بن محمد الفريابي ، قال : حدثنا عبد الله بن ميمون ، قال : حدثنا عبيد الله(١) — يعنى ابن عمر — عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقرأ القرآن ، فسمع آية على غير ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى به عمرُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن هذا قرأ آية كذا وكذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها شافٍ كافٍ(٢) . ١١/١

عن أبيه عن جده ، وكانت له صحبة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : القرآن كله صواب : وقال عبد الصمد : حدثنا حرب أبو ثابت سمع إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثله . وقال بعضهم : لقن عبد الصمد ، فقالوا : ابن عبد الله بن أبي طلحة ، ولم يكن فى كتابه : ابن عبد الله » .

فهذه إشارة أخرى من البخارى لهذا الحديث أيضاً ، كعادته فى تاريخه ، فى الإشارة إلى الأحاديث التى يريد أن يرشد إلى مواطن البحث فيها .

وقد أشار البخارى فى الموضعين إلى قول من شك فى أن « إسحق الأنصارى » راوى هذا الحديث غير « إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصارى » الثقة المعروف بروايته عن أبيه « عبد الله » عن جده « أبي طلحة زيد بن سهل الأنصارى الصحابى الكبير » أحد النقباء ، الذى شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأتى بقوله هذا مجهلا إياه ممرضاً ، بقوله مرة : « ويقال » ، ومرة : « وقال بعضهم » . ثم عقب على هذا التمريض فى المرة الأولى بقوله : « وأصله صحيح » ، يعنى أصل الحديث . فهو تصريح منه بصحة الحديث ، وبرفض قول هذا القائل الذى شك فيه .

وقد وافقه على ذلك زميله وصنوه أبو حاتم الرازى ، فقال ابنه فى الجرح والتعديل ، فى ترجمة « إسحق الأنصارى » ١ / ١ / ٢٣٩ — ٢٤٠ : « سمعت أبي يقول : يرون أنه : إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصارى » .

وسبقهما إلى ذلك شيخهما إمام المحدثين ، الإمام أحمد بن حنبل ، فأثبت هذا الحديث فى مسند « أبي طلحة زيد بن سهل الأنصارى » دون شك أو تردد . فصح الحديث ، والحمد لله .

(١) هو عبيد الله بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، وليس هو ابن عمر بن الخطاب .

(٢) الحديث ١٧ —إسناده ضعيف جداً ، من أجل « عبد الله بن ميمون » . أما « عبيدالله بن محمد بن هرون الفريابى » شيخ الطبرى ، فالظاهر أنه ثقة ، ولكنى لم أجد له ترجمة إلا فى الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢ / ٢ / ٣٣٥ ، قال : « نزيل بيت المقدس ، روى عن سفيان بن عيينة ، سمع منه أبي ببيت المقدس » . ولم يذكر فيه جرحاً . وأما علة الحديث فهو « عبد الله بن ميمون بن داود القداح » ، وهو ضعيف جداً ، قال البخارى : « ذاهب الحديث » ، وقال أبو حاتم والترمذى : « منكر الحديث » ، وقال أبو حاتم : « يروى عن الأثبات الملزقات ، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد » ، وقال الحاكم : « روى عن عبيد الله بن عمر أحاديث موضوعة » . وأما شيخه « عبيد الله

١٨ — حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني هشام بن سعد، عن علي بن أبي علي ، عن زبيد، عن علقمة النخعي، قال : لما خرجَ عبد الله بن مسعود من الكوفة اجتمع إليه أصحابه فودّعهم ، ثم قال : لا تنازَعُوا في القرآن ، فإنه لا يختلفُ ولا يتلاشى ، ولا يتغير لكثرة الرد . وإن شريعة الإسلام وحدودَه وفرائضه فيه واحدة ، ولو كان شيء من الحرفين ينهى عن شيء يأمر به الآخر ، كان ذلك الاختلافَ . ولكنه جامعٌ ذلك كله ، لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ، ولا شيء من شرائع الإسلام . ولقد رأيتُنا نتنازع فيه عندَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمرنا فنقرأ عليه ، فيخبرنا أن كلَّنا محسنٌ . ولو أعلمُ أحداً أعلم بما أنزل الله على رسوله مني لطلبته، حتى أزدادَ علمَه إلى علمي . ولقد قرأتُ من لسانِ رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يُعْرَض عليه القرآنُ في كل رمضان ، حتى كانَ عامُ قُبض ، فعرض عليه مرّتين ، فكان إذا فرغ أقرأ عليه فيخبرني أني محسنٌ . فمن قرأ على قراءتي فلا يدَعنَّها رغبة عنها ، ومن قرأ على شيء من هذه الحروف فلا يدَعنَّه رغبة عنه ، فإنه من جحد بآية جحد به كله[1] .

بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب » ، فإنه إمام ثقة معروف ، وهو أحد الفقهاء السبعة .

ومعنى الحديث في ذاته صحيح ، كأنه مختصر من معنى حديث عمر بن الخطاب ، الذي مضى برقم : ١٥ . ولكن هذا القداح ألزقه بعبيد الله بن عمر ، وجعله من حديث نافع عن ابن عمر . ولا أصل لهذا ، ولم نجده قط من حديث ابن عمر .

ولم يحسن الحافظ ابن حجر ، إذ أشار إلى هذا الحديث في الفتح ٩ : ٢٣ ، ونسبه للطبري ، دون أن يذكر ضعف إسناده .

(١) الحديث ١٨ — إسناده ضعيف جداً ، غاية في الضعف . لعلتين :

أولاهما : « علي بن أبي علي » ، وهو « اللهبي » ، من ولد أبي لهب . قال البخاري في التاريخ الصغير : ١٩٦ ، وفي الضعفاء : ٢٥ : « منكر الحديث ، لم يرضه أحد » . وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل : ٣ / ١ / ١٩٧ : « سألت أبي عن علي بن أبي علي اللهبي ؟ فقال : منكر الحديث ، تركوه » . وقال : « سئل أبو زرعة عن علي بن أبي علي الهاشمي ؟ فقال : هو من ولد أبي لهب ، وهو مديني ضعيف الحديث ، منكر الحديث » . وقال ابن حبان في الضعفاء : ٣١٥ « يروى عن الثقات الموضوعات ، وعن الأثبات المقلوبات ، لا يجوز الاحتجاج به » .

١٩ — حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وَهب ، قال : أخبرني يونس — وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا رِشْدينُ بن سعد ، عن عُقيل ابن خالد — جميعاً عن ابن شهاب ، قال : حدثني عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس حدثه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقرأني جبريلُ على حرف ، فراجعته ، فلم أزَل أستزيده فيزيدني ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف . قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة الأحرف ، إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً ، لا يختلفُ في حلال ولا حرام[1] .

وثانيهما : أن « زبيد بن الحرث اليامى » لم يدرك علقمة ولم يرو عنه ، إنما يروى عن الطبقة الراوية عن علقمة ، فروايته عنه هنا منقطعة ، إن صح الإسناد إليه فيها ، ولم يصح قط .

وقد جاء نحو هذا الحديث عن ابن مسعود ، من وجه آخر ضعيف أيضاً : فرواه أحمد في المسند رقم : ٣٨٤٥ مطولا ، من طريق شعبة عن عبد الرحمن بن عابس ، قال : « حدثنا رجل من همدان ، من أصحاب عبد الله ، وما سماه لنا » إلخ . وهذا مجهول الراوى عن ابن مسعود ، فلا يكون صحيحاً . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد مختصراً ٧ : ١٥٣ ، وقال : « رواه الإمام أحمد في حديث طويل ، والطبراني ، وفيه من لم يسم ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

قال أخي السيد محمود محمد شاكر : ولفظ المسند : « إن هذا القرآن لا يختلف ، ولا يستشن ، ولا يتفه لكثرة الرد » . و « استشن » : بلي وصار خلقاً كالشن البالي ، وهو القربة البالية . وقوله « لا يتفه » : لا يصير تافهاً ، التافه : الحقير . وكل كلام رددت قراءته نفدت معانيه وضعف أثره إلا القرآن . وأما قوله في رواية الطبري هنا « ولا يتلاشى » ، فقد قال أهل اللغة إنه مولد من « لا شيء » ، كأنه اضمحل حتى صار إلى لا شيء . ومجيئه في هذا الخبر غريب .

أقول : وإذ تبين أن راويه « علي بن أبي علي اللهبي » ممن يصطنع الأحاديث ويروي عن الثقات الموضوعات ، كما قال ابن حبان ، فلا يبعد أن يقول هذه الكلمة المولدة من عند نفسه . وهو متأخر أدرك عصر التوليد ، فقد أرخه البخاري في باب من مات بين سنتي ١٧٠ — ١٨٠ .

(١) الحديث ١٩ — هو بإسنادين : أحدهما صحيح ، والآخر ضعيف :

الإسناد الأول : عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس ، وهو ابن يزيد الأيلي عن ابن شهاب الزهري . وهو إسناد صحيح جداً .

والثاني : عن أبي كريب عن رشدين ، وهو ابن سعد ، عن عقيل بن خالد عن الزهري . وهو إسناد ضعيف ، لضعف رشدين بن سعد ، وكان رجلا صالحاً فيه غفلة ، وكثر خطؤه فغلبت المناكير في أخباره . ولكنه في هذا الحديث لم ينفرد بروايته عن عقيل بن خالد ، كما سيأتي .

و « رشدين » : بكسر الراء والدال المهملتين بينهما شين معجمة ساكنة . و « عقيل » بضم العين المهملة .

والحديث رواه مسلم ١ : ٢٢٥ عن حرملة عن ابن وهب عن يونس ، مثل الإسناد الأول هنا . ورواه البخاري ٦ : ٢٢٢ فتح الباري ، من طريق سليمان بن بلال عن يونس أيضاً .

٢٠ — حدثنى محمد بن عبد الله بن أبى مخلد الواسطى ، ويونس بن عبد الأعلى الصدفىّ ، قالا : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عبيد الله ، أخبره أبوه : أن أم أيوب أخبرته أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، أيَّها قرأتَ أصبتَ[١] .

٢١ — حدثنا إسمعيل بن موسى السُّدِّى ، قال : أنبأنا شَريك ، عن أبى إسحق ، عن سليمان بن صُرَد ، يرفعه ، قال : أتانى ملَكان ، فقال أحدهما : اقرأ . قال : على كم ؟ قال : على حرفٍ ، قال : زِدْهُ . حتى انتهى به إلى سبعة أحرف[٢]

ورواه البخارى ٩ : ٢٠ — ٢١ ، عن سعيد بن عفير عن الليث بن سعد عن عقيل بن خالد عن الزهرى .

وسيأتى أيضاً بإسناد صحيح ، برقم : ٢٢ ، من رواية نافع بن يزيد عن عقيل بن خالد عن الزهرى .

وهذان الإسنادان يؤيدان الإسناد الثانى هنا ، أعنى رواية رشدين بن سعد عن عقيل . ولذلك قلت إن رشدين — على ضعفه — لم ينفرد بروايته عن عقيل .

وقول ابن شهاب الزهرى : « بلغنى أن تلك الأحرف السبعة » إلخ : لم يذكره البخارى ، وذكره مسلم فى روايته . وهو مرسل غير متصل ، فهو ضعيف الإسناد . ولذلك أعرض البخارى عن ذكره .

ثم إن الحديث رواه أيضاً أحمد ، بنحوه ، فى المسند رقم : ٢٨٦٠ عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى . ورواه مسلم ١ : ٢٢٥ ، عن عبد بن حميد عن عبد الرزاق ، ولكنه لم يسق لفظه بل أحاله على رواية يونس عن الزهرى .

ورواه أحمد أيضاً مختصراً رقم : ٢٣٧٥ ، ٢٧١٧ ، من رواية ابن أخى الزهرى عن عمه .

ونقله ابن كثير فى فضائل القرآن : ٥٣ عن إحدى روايتى البخارى ، ثم أشار إلى روايته الأخرى وروايتى مسلم ورواية الطبرى هذه .

(١) الحديث ٢٠ — رواه أحمد فى المسند (٦ : ٤٣٣ ، ٤٦٢ — ٤٦٣ من طبعة الحلبى) ، عن سفيان بن عيينة ، بهذا الإسناد . ونقله ابن كثير فى فضائل القرآن : ٦٤ عن المسند ، وقال : « وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة » . ونقله الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧ : ١٥٤ ، وقال : « رواه الطبرانى ، ورجاله ثقات » . فقصر إذ لم ينسبه للمسند أولا . ولفظ المسند « أيها قرأت أجزأك » . ولفظ الطبرانى موافق للفظ الطبرى هنا .

و « عبيد الله » ، فى الإسناد : هو عبيد الله بن أبى يزيد المكى ، وهو ثقة معروف . وأبوه « أبو يزيد المكى » : ذكره ابن حبان فى الثقات .

وسيأتى الحديث مكرراً ، برقمى : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) الحديث ٢١ — الحديث فى ذاته صحيح ، لأن معناه سيأتى مراراً ، ضمن أحاديث لأبى بن كعب ، وقد كررها الطبرى بأسانيد متعددة ، بالأرقام الآتية : ٢٥ — ٣٩ . وسيأتى بحثها فى مواضعها إن شاء الله .

وأما هذا الإسناد بعينه ، فهكذا ورد فى الطبرى ، من حديث سليمان بن صرد . ونقل الهيثمى فى

٢٢ – حدثنا ابن البرقي، قال : حدثنا ابن أبي مريم ، قال : حدثنا نافع ابن يزيد ، قال : حدثني عُقَيْل بن خالد ، عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقرأني جبريل القرآنَ على حرف ، فاستزدته فزادني ، ثم استزدته فزادني ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف[1].

٢٣ – حدثني الربيع بن سليمان، قال: حدثنا أسد بن موسى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عبيد الله بن أبي يزيد ، عن أبيه ، أنه سمع أم أيوب تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوَه – يعني نحو حديث ابن أبي مخلد[2].

مجمع الزوائد ٧ : ١٥٣ نحوه ، من حديث سليمان بن صرد ، وقال : « رواه الطبراني ، وفيه جعفر ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » . وليس إسناد الطبراني بين أيدينا حتى نستطيع القول فيه . ولعل اسم « جعفر » – الذي لم يعرفه الهيثمي في إسناده – محرف عن شيء آخر .

ونقل ابن كثير في الفضائل : ٦١ هذا الحديث عن هذا الموضع من الطبري ، ثم قال : « ورواه النسائي في اليوم والليلة : عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن إسحق الأزرق عن العوام بن حوشب عن أبي إسحق عن سليمان بن صرد ، قال : أتى أبي بن كعب رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين اختلفا في القراءة ، فذكر الحديث . وهكذا رواه أحمد بن منيع عن يزيد بن هرون عن العوام عن أبي إسحق عن سليمان بن صرد عن أبي : أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم برجلين ، فذكره » .

وهذان الإسنادان اللذان ذكرهما ابن كثير صحيحان ، يدلان على أن سليمان بن صرد إنما سمع هذا الحديث من أبي بن كعب .

وليس الخطأ الذي وقع في إسناد الطبري هنا ، بحذف « أبي بن كعب » – خطأ شريك بن عبد الله النخعي راويه عن أبي إسحق السبيعي . إنما الخطأ – فيما أرجح – إما من إسمعيل بن موسى السدي شيخ الطبري ، وإما من الطبري نفسه . فإن الحديث رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل ، في مسند أبيه (٥ : ١٢٥ طبعة الحلبي) عن محمد بن جعفر الوركاني عن أبي إسحق عن سليمان عن أبي بن كعب – مختصراً كما هنا .

وسيأتي الحديث مطولا ، من رواية سليمان بن صرد عن أبي بن كعب رقم : ٢٥ .

(١) الحديث ٢٢ – هذا إسناد صحيح . قد مضى برقم : ١٩ ، بإسنادين آخرين ، وبينا تخريجه هناك .

و « ابن البرقي » ، شيخ الطبري : هو « أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم » المصري الحافظ ، توفي سنة ٢٧٠ . وله ترجمة في تذكرة الحفاظ ٢ : ١٣٥ .

و « ابن أبي مريم » : هو « سعيد بن الحكم بن محمد بن سالم » المصري ، عرف بابن أبي مريم . مترجم في التهذيب .

(٢) الحديث ٢٣ – هذا إسناد صحيح . فالربيع بن سليمان : هو المرادي المؤذن ، صاحب الشافعي وراوية كتبه . وأسد بن موسى المرواني الأموي المصري : يقال له « أسد السنة » ، ثقة من الثقات ، قال البخاري في التاريخ الكبير : ١ / ٢ / ٥٠ : « مشهور الحديث » . والحديث مكرر رقم : ٢٠ ، كما أشار إلى ذلك الطبري بالإحالة عليه . وسيأتي عقب هذا بإسناد آخر .

٢٤ — حدثنا الربيع ، قال : حدثنا أسد ، قال : حدثنا أبو الربيع السمان ، قال : حدثني عُبيد الله بن أبي يزيد ، عن أبيه ، عن أم أيوب ، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : نزل القرآن على سبعة أحرف ، فما قرأتَ أصبتَ[١] .

٢٥ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثني يحيى بن آدم ، قال : حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق ، عن فلان العَبْدى — قال أبو جعفر : ذَهب عنى اسمه — ، عن سليمان بن صُرَد ، عن أبيّ بن كعب ، قال : رحت إلى المسجد ، فسمعت رجلا يقرأ ، فقلت : من أقرأك ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانطلقت ١٢/١ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : استقرئْ هذا . قال : فقرأ ، فقال : أحسنت . قال فقلت : إنك أقرأتنى كذا وكذا ! فقال : وأنتَ قد أحسنتَ . قال : فقلت : قد أحسنتَ ! قد أحسنتَ ! قال : فضرب بيده على صدرى ، ثم قال : اللهم أذهِبْ عن أبيٍّ الشكّ . قال : ففِضْتُ عرَقاً ، وامتلأ جوْفى فرَقاً — ثم قال : إن الملَكين أتيانى ، فقال أحدهما اقرأ القرآن على حرف . وقال الآخر : زده . قال : فقلت : زدْنى . قال : اقرأه على حرفين . حتى بلغَ سبعةَ أحرف ، فقال : اقرأ على سبعة أحرف[٢] .

---

(١) الحديث ٢٤ — وأما هذا فإسناد ضعيف جدا ، فأبو الربيع السمان ، واسمه : أشعث بن سعيد البصرى ، ضعيف جدا ، كان شعبة يرميه بالكذب . والحديث مضى بإسنادين صحيحين ، رقم : ٢٠ ، ٢٣ .

(٢) الحديث ٢٥ — مضى بعض معناه مختصراً ، وأشرنا إلى هذا ، فى الحديث رقم : ٢١ ، وأن سليمان بن صرد ، راويه هناك ، إنما رواه عن أبى بن كعب .

وهذا الإسناد نسى فيه أبو جعفر الطبرى اسم « فلان العبدى » ، كما قال هو هنا .

وقد نقله ابن كثير فى الفضائل : ٦١ عن هذا الموضع من تفسير الطبرى ، ثم أشار إلى بعض رواياته الأخر التى سمى فيها « فلان العبدى » هذا باسمه ، وأراد أن يجمع بين هذه الروايات والرواية الماضية رقم : ٢١ ، التى فيها أن الحديث من رواية سليمان بن صرد دون ذكر أبى بن كعب ، فقال : « فهذا الحديث محفوظ من حيث الجملة عن أبى بن كعب ، والظاهر أن سليمان بن صرد الخزاعى شاهد ذلك » .

والصحيح ما ذهبنا إليه هناك ، من أنه من رواية سليمان بن صرد عن أبى بن كعب .

٢٦ ـــ حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا ابن أبي عدي ـــ وحدّثنا أبو كريب، قال: حدثنا محمد بن ميمون الزعفراني ـــ جميعاً عن حُميد الطويل، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه، عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه، قال: ما حاك في صدري شيءٌ منذ أسلمتُ، إلا أني قرأتُ آيةً، فقرأها رجل غيرَ قراءتي، فقلت: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الرجل: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: أقرأتني آية كذا وكذا؟ قال: بلى. قال الرجل: ألم تُقرئني آية كذا وكذا؟ قال: بلى، إن جبريل وميكائيل عليهما السلام أتياني، فقعد جبريل عن يميني، وميكائيل عن يساري، فقال جبريل: اقرإ القرآن على حرف واحد. وقال ميكائيل: استزِدْه، قال جبريل: اقرإ القرآن على حرفين. فقال ميكائيل:

وهذا الحديث المطول ـــ الذي هنا ـــ رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند أبيه ٥: ١٢٤ من طبعة الحلبي، عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن سقير العبدي عن سليمان بن صرد عن أبي بن كعب، بنحوه بمعناه.

فعرفنا من رواية عبد الله بن أحمد أن اسم هذا الراوي «العبدي»: «سقير». وهو بضم السين المهملة وفتح القاف، كما ضبطه الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري في كتاب المؤتلف: ٦٥، وكذلك أثبته الذهبي في المشتبه: ٢٦٦. وفي اسمه خلاف قديم، ولكن هذا هو الراجح الصحيح.

فقد ترجمه البخاري في التاريخ الكبير ٢ / ٢ / ٣٣١ في حرف الصاد، باسم «صقير»، وإن قع فيه خطأ من النساخ، فرسم «صعير» بالعين بدل القاف. وقد حقق مصححه العلامة الشيخ عبد الرحمن بن يحيي اليماني ذلك بالهامش، ونقل أن الأمير ابن ماكولا ضبطه «سقير» أيضاً.

وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢ /١/ ٣١٨ في حرف السين، باسم «سقير العبدي»، ثم أعاده في حرف الصاد ٢ / ١ / ٤٥٢ باسم «صقر العبدي، ويقال: صقير العبدي»، فجاء بقول ثالث.

وترجمه الحسيني في الإكمال: ٤٥، فقال: «سقير العبدي، عن سليمان بن صرد الخزاعي، وعنه أبو إسحق السبيعي: ليس بالمشهور». وتعقبه الحافظ في التعجيل: ١٥٧، فقال: «لم يصب في ذلك، فقد ذكروه في الصاد المهملة، ولم يذكر البخاري ولا ابن أبي حاتم فيه قدحاً، وذكره ابن حبان في الثقات»، وهو في الثقات: ٢٢٦، باسم «صقير العبدي».

فإذ تبين أن «العبدي» هذا تابعي ثقة، بتوثيق البخاري أن لم يجرحه، وبذكر ابن حبان إياه في الثقات ـــ كان هذا الإسناد صحيحاً.

ثم إن سقيراً العبدي لم ينفرد بروايته عن سليمان بن صرد. فقد رواه عنه تابعي آخر، ثقة معروف، من مشهوري التابعين، وهو يحيي بن يعمر.

استزده . حتى بلغ ستةً أو سبعةً — الشك من أبي كريب — وقال ابن بشار في حديثه : حتى بلغ سبعةَ أحرف — ولم يَشكّ فيه — وكلٌّ شافٍ كافٍ . ولفظ الحديث لأبي كريب[1] .

٢٧ — حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا ابن وهب، قال : أخبرني يحيى بن أيوب ، عن حُميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، عن أُبيّ بن كعب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه . وقال في حديثه : حتى بلغ ستة أحرف ، قال : اقرأه على سبعة أحرف ، كلٌّ شافٍ كافٍ[2] .

٢٨ — حدثنا محمد بن مرزوق، قال: حدثنا أبو الوليد، قال : حدثنا حماد

فرواه أحمد في المسند ٥ : ١٢٤ عن عبد الرحمن بن مهدى ، وعن بهز ، ورواه ابنه عبد الله ابن أحمد عن هدبة بن خالد القيسي ، ورواه أبو داود في السنن رقم : ١٤٧٧ ج ٢ ص ١٠٢ عن أبي الوليد الطيالسي — : كلهم عن همام بن يحيي عن قتادة عن يحيى بن يعمر عن سليمان بن صرد عن أبي ابن كعب ، بنحوه مختصراً . وهذه أسانيد صحاح على شرط الشيخين .

وسيأتى عقب هذا بأسانيد كثيرة ، من أوجه مختلفة ، عن أبي بن كعب بالأرقام ٢٦ — ٣٩ ، ٤٦ .

(١) الحديث ٢٦ — هذا بإسنادين : « محمد بن بشار عن ابن أبي عدى » ، و « أبو كريب عن محمد بن ميمون الزعفراني » ، كلاهما عن حميد الطويل . فالإسناد الأول صحيح على شرط الشيخين دون خلاف . والإسناد الثاني فيه « محمد بن ميمون الزعفراني » ، وهو ثقة ، وثقه ابن معين وأبو داود وغيرهما ، وضعفه البخاري والنسائي وغيرهما .

والحديث صحيح بكل حال ، إذ لم ينفرد بروايته هذان :

فقد رواه أحمد في المسند ٥ : ١١٤ ، ١٢٢ طبعة الحلبي ، مختصراً قليلا ، عن يحيى بن سعيد ، وهو القطان عن حميد الطويل ، بهذا الإسناد . ثم رواه ابنه عبد الله بن أحمد عن محمد بن أبي بكر المقدمي عن بشر بن المفضل ، وعن سويد بن سعيد عن المعتمر بن سليمان ، كلاهما عن حميد الطويل، بمعناه .

ورواه أيضاً أبو عبيد القاسم بن سلام — فيما نقل عنه ابن كثير في الفضائل : ٥٤ عن يزيد بن هرون ويحيى بن سعيد ، كلاهما عن حميد ، بهذا الإسناد مطولا .

وسيأتي عقب هذا ، رقم : ٢٧ ، من رواية يحيى بن أيوب عن حميد .

وقال ابن كثير ، بعد نقله رواية أبي عبيد : « وقد رواه النسائي من حديث يزيد ، وهو ابن هرون ، ويحيى بن سعيد القطان ، كلاهما عن حميد الطويل عن أنس عن أبي بن كعب ، بنحوه . وكذا رواه ابن أبي عدى ومحمد بن ميمون الزعفراني ويحيى بن أيوب ، كلهم عن حميد ، به » وهذا إشارة منه إلى أسانيد الطبري الثلاثة هنا . وهي كلها أسانيد صحاح .

(٢) الحديث ٢٧ — هو مكرر الحديث قبله . وقد أشرنا إليه في تخريجه .

ابن سلمة ، عن حُميد ، عن أنس بن مالك ، عن عُبادة بن الصّامت ، عن أُبَيّ ابن كعب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل القرآن على سبعة أحرف[1].

٢٩ — حدثنا أبو كريب قال حدثنا حسين بن على ، وأبو أسامة ، عن زائدة ، عن عاصم ، عن زِرّ ، عن أبيّ ، قال : لَقِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المِرَاء فقال : إنى بُعثتُ إلى أمة أمّيِّين ، منهم الغلامُ والخادمُ والشيخ العاسِي والعجوز ، فقال جبريل : فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف[2].

ولفظ الحديث لأبى أسامة .

---

(١) الحديث ٢٨ — وهذا إسناد صحيح أيضاً ، إلا أن حماد بن سلمة زاد « عبادة بن الصامت » بين أنس وأبى بن كعب . وسنبين ذلك ، إن شاء الله .

ومحمد بن مرزوق ، شيخ الطبرى : هو محمد بن محمد بن مرزوق الباهلى ، نسب إلى جده . وهو ثقة ، روى عنه مسلم فى صحيحه والترمذى وابن ماجة وغيرهم . وشيخه أبو الوليد : هو الطيالسى ، واسمه : هشام بن عبد الملك ، إمام حافظ حجة .

والحديث رواه أحمد فى المسند ٥ : ١١٤ طبعة الحلبى ، هكذا مختصراً ، عن عفان عن حماد ابن سلمة ، بهذا الإسناد . ثم رواه بالإسناد نفسه مطولا ، بنحو الرواية الماضية ، فى ٢٦ ، ٢٧ ، ثم رواه عن يحيى بن سعيد عن حميد عن أنس : « أن أبيا قال » — فأشار إلى تلك الرواية ، ثم قال : « ولم يذكر فيه عبادة » .

فالظاهر — عندى — أن حماد بن سلمة هو الذى انفرد بزيادة « عبادة » فى الإسناد . ولعل هذا سهو منه ، فقد رواه الرواة الذين ذكرنا من قبل ، دون هذه الزيادة ، وهم أكثر منه عدداً وأحفظ وأشد إتقاناً .

وأيا ما كان فالحديث صحيح ، سواء أسمعه أنس من أبى بن كعب مباشرة ، أم سمعه من عبادة ابن الصامت عن أبى .

(٢) الحديث ٢٩ — وهذا إسناد صحيح أيضاً . حسين بن على : هو الجعفى . أبو أسامة : هو حماد بن أسامة . زائدة : هو ابن قدامة . عاصم : هو ابن بهدلة ، وهو ابن أبى النجود . زر : هو ابن حبيش .

والحديث رواه أحمد فى المسند ٥ : ١٣٢ عن حسين بن على الجعفى عن زائدة ، وعن أبى سعيد مولى بنى هاشم عن زائدة أيضاً . ونقله ابن كثير فى الفضائل : ٥٩ عن الرواية الأولى من المسند .

ورواه أبو داود الطيالسى فى مسنده رقم : ٥٤٣ عن حماد بن سلمة . ورواه الترمذى ٤ : ٦١ من طريق شيبان ، وهو ابن عبد الرحمن النحوى ، كلاهما عن عاصم ، بهذا الإسناد ، نحوه . قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح . وقد روى عن أبى بن كعب من غير وجه » .

« أحجار المراء » ، بكسر الميم وتخفيف الراء وبالمد : موضع بقباء ، خارج المدينة ، وقال

٣٠ — حدثنا أبوكُرَيب ، قال : حدثنا ابن نُمير ، قال : حدثنا إسمعيل بن أبي خالد — وحدثنا عبدالحميد بن بيان القَنَّاد ، قال : حدثنا محمد بن يزيد الواسطي ، عن إسمعيل — عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي لَيْلى ، عن جده ، عن أُبيّ بن كعب ، قال : كنت في المسجد ، فدخل رجلٌ يصلي ، فقرأ قراءة أنكرتُها عليه ، ثم دخل رجلٌ آخر ، فقرأ قراءةً غيرَ قراءة صاحبه ، فدخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فقلت : يا رسول الله ، إن هذا قرأ قراءةً أنكرتُها عليه ، ثم دخل هذا فقرأ قراءةً غيرَ قراءة صاحبه . فأمرهُما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ ، فحسَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنَهُما ، فوقع في نفسي من التكذيب ، ولا إذْ كنت في الجاهلية! فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غَشيني ، ضربَ في صدري ، فَفِضت عَرَقاً ، كأنما أنظر إلى الله فَرَقاً . فقال : لي : يا أُبيّ ، أُرْسِلَ إليّ أن اقرإ القرآنَ على حرف ، فرددت عليه : أنْ هَوِّن على أمتي ، فردّ عليّ في الثانية : أن اقرإ القرآن على حرف.

مجاهد : « هي قباء » ، كما في النهاية لابن الأثير ١ : ٢٠٣ ، ٤ : ٩١ ، والقاموس وشرحه ٣ : ١٢٧ ، ووفاء الوفا للسمهودي ٢ : ٢٤٤ . ولم نجد في ذلك خلافاً ، إلا ما ذهب إليه أبو عبيد البكري في معجم ما استعجم : ١١٧ ، إذ زعم أنه « موضع بمكة ، على لفظ جمع "حجر" كانت قريش تمارى عندها ، وهي صفى السباب » ، ثم ذكر هذا الحديث شاهداً ؛ وأنا أرجح أنه وهم منه ، انتقل ذهنه بمناسبة تقارب معنى اللفظين إلى الظن باتحاد المكانين . فإن « صفى السباب » « موضع بمكة كانت قريش تمارى عندها » كما قال أبو عبيد نفسه في مادة « صفى » : ٨٣٨ ، فانتقل ذهنه فقال عقب ذلك : « وهو الموضع المعروف بأحجار المراء » ! ! و « المراء » : من المماراة ، و « الصفى » ، بضم الصاد وكسر الفاء وتشديد الياء : جمع « صفا » ، و « الصفا » : جمع « صفاة » ، وهي الحجر الصلد الضخم الذي لا ينبت شيئاً .

وما يؤيد اليقين بما أخطأ فيه أبو عبيد : أن في بعض روايات هذا الحديث الآتية : « عند أضاة بني غفار » ، وهي موضع بالمدينة يقيناً . وقد بين أبو عبيدة نفسه ذلك في : ١٦٤ ، وذكر الحديث بالرواية الآتية أيضاً شاهداً عليه .

وقوله « والشيخ العاسي » ، في مطبوعة الطبري « والشيخ الفاني » ، وفي المخطوطة « العاشي » ، وفي المسند « العاصي » . وكلها بمعنى . و « عسا الشيخ » : إذا كبر وأسن وضعف بصره ويبس جلده وصلب . ومثله « عصا » . وقال الأزهري : عصا : إذا صلب ، كأنه أراد « عسا » بالسين ، فقلبها صاداً » . (اللسان : عصا) .

فرددت عليه أن هوِّن على أمتى ، فردّ علىّ فى الثالثة ، أن اقرأه على سبعة أحرف ، ولك بكل رَدّة رَدَدْتُكَها مسألة تسألُنيها فقلت : اللهم اغفر لأمتى ، اللهم اغفر لأمتى ، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم . ١٣/١

إلا أن ابن بيانَ قال فى حديثه : فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : قد أصبتم وأحسنتم . وقال أيضاً : فارفضَضت عرقاً(١) .

٣١ — حدثنا أبوكُريب ، قال : حدثنا محمد بن فُضيل ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، بإسناده عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه ، وقال : قال لى : أعيذُك بالله من الشكّ والتكذيب . وقال أيضاً : إن الله أمرنى أقرأ القرآن على حرفٍ ، فقلت : اللهمّ ربّ خفف عن أمتى . قال : اقرأه على حرفين . فأمرنى أن أقرأه على سبعةِ أحرفٍ ، من سبعة أبوابٍ من الجنة ، كلها شافٍ كافٍ(٢) .

٣٢ — حدثنا أبوكريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن عيسى بن أبى ليلى — [و] عن ابن أبى ليلى عن الحكم — عن ابن أبى ليلى ، عن أبىّ قال : دخلتُ المسجدَ فصليتُ ، فقرأتُ النحل ،

---

(١) الحديث ٢٤ — إسناداه صحيحان . وعبد الحميد بن بيان القناد ، شيخ الطبرى فى الإسناد الثانى : ثقة من شيوخ مسلم ، ويقال له أيضاً « السكرى » . و « القناد » : نسبة إلى « القند » بفتح القاف وسكون النون ، وهو السكر المصنوع من عسل القصب .

والحديث رواه مسلم ١ : ٢٢٥ عن محمد بن عبد الله بن نمير عن أبيه عن إسمعيل بن أبى خالد ، بهذا الإسناد ، نحوه . ثم رواه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن بشر عن إسمعيل .

ورواه أحمد فى المسند ٥ : ١٢٧ طبعة الحلبى عن يحيى بن سعيد عن إسمعيل . ورواه ابنه عبد الله فى المسند أيضاً ٥ : ١٢٨ — ١٢٩ ، عن وهب بن بقية عن خالد بن عبد الله ، وهو الطحان ، عن إسمعيل . ونقله ابن كثير فى الفضائل : ٥٥ عن رواية أحمد . ارفضاض العرق : تتابع سيلانه .

(٢) الحديث ٣١ — إسناده صحيح أيضاً . وهو مكرر الحديث قبله .

ونقله ابن كثير فى الفضائل : ٥٥ عن الطبرى فى هذا الموضع ، واقتصر فيه على آخره ، من أول قوله « إن الله أمرنى » . ولكن وقع فيه خطأ فى الإسناد « عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبيه عن جده » ! فزيادة « عن أبيه » خطأ ناسخ أو طابع ، ليست فى الطبرى ، ولا موضع لها ، لأن عيسى روى هذا الحديث عن جده مباشرة ، كما فى الإسناد الماضى .

وقوله « أمرنى أقرأ القرآن » : هو على تقدير « أن » ، وهى ثابتة فى المطبوعة وابن كثير ، ومحذوفة فى المخطوطة .

ثم جاء رجل آخر فقرأها على غير قراءتى ، ثم جاء رجل آخرَ فقرأ خِلافَ قراءتِنا ، فدخل نفسى من الشكّ والتكذيب أشدُّ مما كنتُ فى الجاهلية ، فأخذتُ بأيديهما فأتيتُ بهما النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، استقرئ هذين . فقرأ أحدُهما ، فقال : أصبتَ . ثم استقرأ الآخر ، فقال : أصبتَ . فدخل قلبى أشدُّ مما كان فى الجاهلية من الشكّ والتكذيب ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ، وقال : أعاذك الله من الشكّ ، وأخْسأ عنك الشيطانَ . قال إسمعيل : ففِضْتُ عرقاً — ولم يقله ابنُ أبى ليلى — قال : فقال : أتانى جبريلُ فقال : اقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : إن أمتى لاتستطيعُ . حتى قال سبع مرات ، فقال لى : اقرأ على سبعة أحرفٍ ، ولك بكل ردة رُدِدتَها مسألة . قال : فاحتاجَ إلىّ فيها الخلائق ، حتى إبراهيم صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) الحديث ٣٢ — هو بإسنادين ، أحدهما متصل صحيح ، والآخر ظاهره الاتصال . وسنبين ذلك تفصيلا ، إن شاء الله .

وقد وقع هنا فى نسخ الطبرى خطأ من الناسخين ، بحذف واو العطف قبل قوله « عن ابن أبى ليلى عن الحكم » . ولذلك زدناها بعلامة الزيادة [و] . بأنا على يقين أن حذفها يجعله إسناداً واحداً ، ويكون إسناداً مضطرباً لا يفهم .

والذى أوقع الناسخين فى الخطأ ، والذى يوقع القارئ فى الاشتباه والاضطراب ، تكرار « عن ابن أبى ليلى» فى الإسناد . وهما اثنان ، بل ثلاثة : فالأول صرح باسمه فيه ، وهو : «عبد الله بن عيسى ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى» ، والثانى : «محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى » عم عيسى ، والثالث : « عبد الرحمن بن أبى ليلى » التابعى .

فالطبرى روى هذا الحديث عن أبى كريب محمد بن العلاء عن وكيع بن الجراح . ثم يفترق الإسنادان فوق وكيع :

فرواه وكيع عن إسمعيل بن أبى خالد « عن عبد الله بن عيسى بن أبى ليلى » ، وهو « عبد الله ابن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى» .

ورواه وكيع أيضاً « عن ابن أبى ليلى » ، وهو« محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى » ، عن الحكم ، وهو « الحكم بن عتيبة » .

ثم يجتمع الإسنادان مرة أخرى :

فيرويه « عبد الله بن عيسى » عن جده « عبد الرحمن بن أبى ليلى » عن أبى بن كعب ، كالإسنادين الماضيين ٣٠ ، ٣١ . وهو إسناد متصل .

٣٣ – حدثنا أبوكريب ، قال : حدثنا عبد الله ، عن ابن أبى ليلى، عن الحكم ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن أبىٍّ ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بنحوه(١) .

٣٤ – حدثنى أحمد بن محمد الطوسى ، قال : حدثنا عبد الصمد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنا محمد بن جُحادة ، عن الحكم – هو ابن عُتَيْبة – عن مجاهد ، عن ابن أبى ليلى ، عن أبىّ بن كعب ، قال : أتى جبريلُ النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو عند أضَاة بنى غِفار فقال : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تُقرِئ أمتك القرآنَ على سبعة أحرفٍ ، فمن قرأ منها حرفاً فهو كما قرأ(٢) .

ويرويه الحكم بن عتيبة عن « ابن أبى ليلى » ، وهو « عبد الرحمن » عن أبى بن كعب ، وهذا إسناد ظاهره الاتصال ، إلا أن فيه شبهة الانقطاع ، لأن الحكم بن عتيبة وإن كان يروى عن عبدالرحمن بن أبى ليلى كثيراً ، إلا أنه فى هذا الحديث بعينه رواه عنه بواسطة مجاهد ، كما سيأتى فى الأسانيد رقم : ٣٤ – ٣٧ ، وفيما سنذكر هناك إن شاء الله من التخريج .

ومن المحتمل جداً أن يكون الحكم سمعه من عبد الرحمن بن أبى ليلى نفسه ، وسمعه من مجاهد عنه ، فرواه على الوجهين . وهذا كثير فى الرواية ، معروف مثله عند أهل العلم .

وإذا لم يكن الحكم سمعه من « عبد الرحمن بن أبى ليلى » ، فتكون الرواية التى هنا – كالرواية التالية رقم : ٣٣ – خطأ من « محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى » ، فإنه وإن كان فقيهاً صدوقاً ، إلا أنه « كان سيء الحفظ مضطرب الحديث » ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل وغيره .

وليعلم أن « محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى » كان أصغر من ابن أخيه « عبد الله بن عيسى ابن أبى ليلى » ، وكان يروى عنه ، ولا يروى عن أبيه « عبد الرحمن » إلا بالواسطة ، وأما ابن أخيه « عبد الله بن عيسى » فقد أدرك جده وروى عنه مباشرة .

وعلى كل حال فالحديث صحيح بالروايات المتصلة ، ولا تؤثر فى صحته رواية محمد بن عبد الرحمن إن ظهر عدم اتصالها .

(١) الحديث ٣٣ – إسناده كالإسناد قبله : « ابن أبى ليلى » ، هو « محمد بن عبد الرحمن » يرويه عن أبيه « عبد الرحمن » بواسطة « الحكم بن عتيبة » .

وأما « عبد الله » شيخ أبى كريب ، فالظاهر عندى أنه « عبد الله بن نمير » ، إذ روايته عن محمد بن عبد الرحمن أبى ليلى ثابتة عندى فى المسند فى حديث آخر ، هو الحديث رقم : ٢٨٠٩ هناك .

(٢) الحديث ٣٤ – إسناده صحيح . عبد الصمد : هو ابن عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان البصرى وهو وأبوه من الأعلام الثقات . محمد بن جحادة – بضم الجيم وتخفيف الحاء المهملة ، ثقة عابد زاهد من أتباع التابعين .

وهذا الحديث مختصر ، وسيأتى عقبه مطولا بثلاثة أسانيد رقم : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، من طريق

٣٥ – حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن أبى ليلى ، عن أبىّ ابن كعب : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بنى غِفار ، قال : فأتاه جبريلُ فقال : إن الله يأمرك أن تُقرئَ أمتك القرآنَ على حرفٍ . قال : أسألُ الله مُعَافاته ومغفرتَه ، وإن أمتى لا تطيق ذلك . قال : ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين . قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك . ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآنَ على ثلاثة أحرف . قال : أسأل اللهُ معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القـــرآنَ على سبعة أحرف ، فأيّما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا[(١)] .

٣٦ – حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا ابن أبى عدى ، عن شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن أبى ليلى ، قال : أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عند أضاة بنى غفار – فذكر نحوه[(٢)] .

٣٧ – حدثنا أبو كريب ، قال حدثنا موسى بن داود ، قال : حدثنا شعبة – وحدثنا الحسن بن عرَفة ، قال : حدثنا شبابة قال : حدثنا شعبة – عن الحكم ، ١٤/١

شعبة عن الحكم بن عتيبة . وسيأتى مطولا أيضاً رقم : ٤٦ من طريق عبد الوارث عن محمد بن جحادة . ورواه أحمد فى المسند ٥ : ١٢٨ ، مطولا أيضاً ، من طريق عبد الوارث .

(١) الحديث ٣٥ – رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده رقم : ٥٥٨ ، عن شعبة . ورواه أحمد فى المسند ٥ : ١٢٧ – ١٢٨ ، عن محمد بن جعفر عن شعبة . ورواه مسلم ١ : ٢٢٥ – ٢٢٦ ، عن محمد بن المثنى وغيره عن محمد بن جعفر . ورواه أبو داود السجستانى فى السنن رقم : ١٤٧٨/٢ : ١٠٢ عن محمد بن المثنى أيضاً .

ونقله ابن كثير فى الفضائل ٥٨ – ٥٩ عن هذا الموضع من تفسير الطبرى . وقال : « وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى ، من رواية شعبة ، به » .

(٢) الحديث ٣٦ – هو مكرر الحديث قبله .

عن مجاهد ، عن ابن أبى ليلى ، عن أبىّ بن كعب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بنحوه[١] .

٣٨ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرنى هشام بن سعد ، عن عبيدالله بن عمر ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن أبىّ بن كعب أنه قال : سمعتُ رجلا يقرأ فى سورة النحل قراءةً تخالفُ قراءتى ، ثم سمعت آخر يقرؤها قراءةً تخالف ذلك ، فانطلقتُ بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إنى سمعت هذين يقرآن فى سورة النحل ، فسألتُهما : من أقرأهما ؟ فقالا : رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : لأذهبن بكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ خالفتما ما أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحدهما : اقرأ . فقرأ ، فقال : أحسنتَ . ثم قال للآخر : اقرأ . فقرأ ، فقال : أحسنتَ . قال أبىّ : فوجدتُ فى نفسى وسوسة الشيطان ، حتى احمرّ وجهى ، فعرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهى ، فضرب بيده فى صدرى ، ثم قال : اللهمّ أخْسِئْ الشيطانَ عنه ! يا أبىّ ، أتانى آتٍ من ربى فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفٍ واحدٍ . فقلت : ربِّ خفف عنى . ثم أتانى الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : رب خفف عن أمتى . ثم أتانى الثالثة فقال مثل ذلك ، وقلت مثله . ثم أتانى الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآنَ على سبعة أحرف ، ولك بكل رَدّة مسألة . فقلت : يا رب اغفر لأمتى ، يا رب اغفر لأمتى . واختبأتُ الثالثة شفاعةً لأمتى يوم القيامة[٢] .

(١) الحديث ٣٧ — هو مكرر ما قبله أيضاً . وهو بإسنادين عن شعبة . و « شبابة » فى الإسناد الثانى : هو شبابة بن سوار الفزارى المدائنى ، وهو ثقة ، أخرج له أصحاب الكتب الستة .

(٢) الحديث ٣٨ — هذا الإسناد نقله ابن كثير فى الفضائل : ٥٦—٥٧ ، وقال : « إسناد صحيح » . وأشار إليه الحافظ ابن حجر فى الفتح ٩ : ٢١ . وعبيد الله ، الراوى عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى : هو عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ، وهو إمام ثقة حجة ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وكان أحمد بن حنبل يقدمه على مالك وعلى غيره فى الرواية عن نافع ،

٣٩ ـ حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصَّنعانى ، قال : حدثنا المعتمر بن سليمان، قال : سمعت عُبيد الله بن عمر ،عن سيَّارٍ أبى الحكم، عن عبدالرحمن بن أبى ليلى، رَفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم: ذكر أن رَجُلين اختصما فى آية من القرآن ، وكلٌّ يزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم أقرأه ، فتقارآ إلى أُبىّ ، فخالفهما أبىّ ، فتقارَوْا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبى الله ، اختلفنا فى آية من القرآن ، وكلنا يزعم أنك أقرأته . فقال لأحدهما : اقرأ . قال : فقرأ ، فقال : أصبتَ . وقال للآخر : اقرأ . فقرأ خلافَ ما قرأ صاحبُه، فقال : أصبتَ . وقال لأبىّ : اقرأ . فقرأ فخالفهما ، فقال : أصبتَ . قال أبىّ : فدخلنى من الشكّ فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دَخل فىّ من أمر الجاهلية ، قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فى وجهى ، فرفع يدَه فضرب صدرى ، وقال : استعذْ بالله من الشيطان الرجيم ، قال : ففِضْتُ عرقاً ،وكأنى أنظرُ إلى الله فرَقاً . وقال : إنه أتانى آتٍ من ربىّ فقال :إن ربّك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : رب خفّف عن أمتى . قال : ثم جاء فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : رب خفف عن أمتى . قال : ثم جاء الثالثة فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : رب خفف عن أمتى . قال : ثم جاءنى الرابعة فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل رَدَّة مسألة . قال : قلت : ربِّ اغفر لأمتى ، رب اغفر لأمتى ، واختبأت الثالثة شفاعةً

ويقول : « عبيد الله أثبتهم وأحفظهم وأكثرهم رواية » . وفى ترجمته فى التهذيب ٧ : ٤٠ : « وقال الحربى : لم يدرك عبد الرحمن بن أبى ليلى » . وأنا أرجح أن هذا خطأ من الحربى ، فإن عبد الرحمن مات سنة ٨٢ أو ٨٣ ، وعبيد الله مات سنة ١٤٤ أو ١٤٥ ، فالمعاصرة ثابتة ، وهى كافية فى إثبات اتصال الرواية ، إذا لم يكن الراوى مدلساً ، وما كان عبيد الله ذلك قط . ولذلك جزم ابن كثير بصحة الإسناد .

١ قوله فى المرة الأولى « رب خفف عنى » ، فى الفضائل لابن كثير « رب خفف عن أمتى » .

لأمتي ، حتى إن إبراهيم خليلَ الرحمن ليرغبُ فيها (١).

٤٠ — حدثنا أبوكريب ، قال : حدثنا زيد بن الحُبَاب ، عن حمّاد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال جبريل : اقرأوا القرآنَ على حرف . فقال ميكائيل : استزده . فقال : على حرفين . حتى بلغَ ستة أو سبعة أحرف ، فقال : كلها شافٍ كافٍ ، ما لم يختم آيةَ عذاب برحمة ، أو آية رحمة بعذاب . كقولك : هلمّ وتعالَ (٢) .

٤١ — حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : أخبرني سليمان بن بلال ، عن يزيد بن خصيفة ، عن بُسر بن سعيد : أن أبا جُهيم الأنصاري أخبره : أن رجلين اختلفا في آية من القرآن ، فقال هذا : تلقّيتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الآخر : تلقّيتها من رسول الله صلى الله ١/١٥

(١) الحديث ٣٩ — وهذا إسناد صحيح إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى ، ولكنه مرسل ، إذ لم يذكر ابن أبي ليلى عمن رواه من الصحابة . وهو مؤيد بروايات ابن أبي ليلى الماضية عن أبي بن كعب ، فهو كالمتصل معنى .

و « سيار أبو الحكم » : هو العنزي الواسطي ، ثقة ثبت صدوق في كل المشايخ ، كما قال أحمد ابن حنبل ، مات سنة ١٢٢ . وفي التاريخ الكبير للبخاري : ٢ / ٢ / ١٦٢ : « قال ابن عيينة : شيع سيار أبو الحكم عبيد الله بن عمر من الكوفة إلى المدينة ، فأمر له بألف درهم ، فقال : لم أشيعك لهذا ، ولكن قلت : رجل صالح ، فأردت أن أشيعك » .

(٢) الحديث ٤٠ — سيأتي مرة أخرى ، بهذا الإسناد واللفظ ، برقم : ٤٧ .

ورواه أحمد في المسند ٥ : ٥١ طبعة الحلبي ، عن عفان عن حماد بن سلمة ، بنحوه . ورواه أيضاً ٥ : ٤١ عن عبد الرحمن بن مهدي عن حماد بن سلمة ، بشيء من الاختصار .

ونقله الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ : ١٥١ ، وقال : « رواه أحمد ، والطبراني بنحوه ، إلا أنه قال : واذهب وأدبر . وفيه علي بن زيد بن جدعان ، وهو سيء الحفظ ، وقد توبع ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .

ونقله ابن كثير في الفضائل : ٦٢ — ٦٣ عن الرواية المختصرة من المسند ، ثم قال : « وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن زيد بن الحباب عن حماد بن سلمة ، به . وزاد في آخره : كقولك هلم وتعال » . وهذه الزيادة ثابتة في الرواية المطولة في المسند ٥ : ٥١ بلفظ : « نحو قولك : تعال ، وأقبل ، وهلم ، واذهب ، وأسرع ، واعجل » .

عليه وسلم ، فسألا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فلا تَمارَوْا في القرآن ، فإنّ المِراء فيه كفرٌ(١) .

٤٢ — حدثنا يونس ، قال : أخبرنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، قال : قال

(١) الحديث ٤١ — رواه أحمد فى المسند رقم : ١٧٦١٥ (٤ : ١٦٩ — ١٧٠ حلبى) ، عن أبى سلمة الخزاعى عن سليمان بن بلال ، بهذا الإسناد . ونقله ابن كثير فى الفضائل ٦٤ — ٦٥ عن المسند ، وقال : « وهذا إسناد صحيح أيضاً ، ولم يخرجوه » ، يعنى أصحاب الكتب الستة . ونقله الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧ : ١٥١ وقال : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » .

ونقله ابن كثير قبل ذلك ، عن أبى عبيد القاسم بن سلام ، قال : « حدثنا إسمعيل بن جعفر عن يزيد بن خصيفة عن مسلم بن سعيد مولى الحضرمى — وقال غيره : عن بسر بن سعيد — عن أبى جهيم الأنصارى : أن رجلين اختلفا » ، إلخ . ثم قال ابن كثير : « وهكذا رواه أبو عبيد على الشك ! وقد رواه الإمام أحمد على الصواب » ، ثم نقل رواية المسند .

وما كانت رواية أبى عبيد على الشك ، كما زعم ابن كثير ، إنما للحديث طريقان : إسمعيل ابن جعفر ، يرويه عن يزيد بن خصيفة عن « مسلم بن سعيد » . وسليمان بن بلال ، يرويه عن يزيد ابن خصيفة عن « بسر بن سعيد » ، وهو أخو مسلم بن سعيد . فأشار أبو عبيد أثناء الإسناد إلى الرواية الأخرى ، دون أن يذكر إسنادها .

وقد ذكر البخارى الروايتين فى التاريخ الكبير : ٤ / ١ / ٢٦٢ ، فى ترجمة « مسلم بن سعيد مولى ابن الحضرمى » ، فأشار إلى أنه روى هذا الحديث عن أبى جهيم ، وقال : « قاله إسمعيل ابن جعفر عن يزيد بن خصيفة . وقال سليمان بن بلال عن يزيد بن خصيفة عن بسر بن سعيد عن أبى جهيم » . فأثبت بذلك الروايتين ، لم يجعل إحداهما علة للأخرى . فيكون يزيد بن خصيفة سمع الحديث من الأخوين : مسلم وبسر ، ابنى سعيد .

ومن عجب أن الحافظ أشار فى الإصابة ٧ : ٣٥ إلى رواية هذا الحديث من طريق مسلم ابن سعيد ، ونسبها للبغوى فقط ، ثم لم يشر إلى رواية بسر بن سعيد ، فأبعد جداً ! !

و « أبو جهيم الأنصارى » هذا : اسمه « عبد الله بن الحرث بن الصمة » ، وقيل فى اسمه أقوال أخر . ووقع فى هذا الحديث فى مطبوعة الطبرى ومجمع الزوائد والفضائل لابن كثير « عن أبى جهم » ، وهو خطأ مطبعى فى غالب الظن ، لأنه ثابت فى المسند « أبو جهيم » . وقال الحافظ فى الفتح ١ : ٣٧٤ — ٣٧٥ ، فى حديث آخر له عند البخارى : « وقع فى مسلم [يعنى صحيح مسلم] : دخلنا على أبى الجهم ، بإسكان الهاء ، والصواب أنه بالتصغير ، وفى الصحابة شخص آخر يقال له أبو الجهم ، وهو صاحب الأنبجانية ، وهو غير هذا ، لأنه قرشى ، وهذا أنصارى ، ويقال بحذف الألف واللام فى كل منهما ، وبإثباتهما » .

وقد أشار الحافظ إلى هذا الحديث فى الفتح ٩ : ٢٣ ، ونسبه لأحمد وأبى عبيد والطبرى . ووقع فيه فى هذا الموضع « أبى جهم » ، بدون تصغير ، وهو خطأ مطبعى أيضاً .

و « بسر بن سعيد » : بضم الباء وسكون السين المهملة . ووقع فى مطبوعة الطبرى « بشر » ، وهو خطأ مطبعى .

النبي صلى الله عليه وسلم : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها شافٍ كافٍ(١) .

٤٣ — حدثني يونس، قال : أخبرنا ابن وهب ، أخبرني سليمان بن بلال ، عن أبي عيسى بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أُمِرتُ أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف ، كلٌّ كافٍ شافٍ(٢) .

٤٤ — حدثنا أحمد بن حازم الغِفاري، قال: حدثنا أبو نُعيم، قال: حدثنا أبو خَلْدة ، قال : حدثني أبو العالية ، قال : قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل خَمسٍ رَجلٌ ، فاختلفوا في اللغة ، فرضي قراءتَهم كلِّهم ، فكان بنو تميم أعرَبَ القوم(٣) .

٤٥ — حدثنا عمرو بن عثمان العثماني ، قال : حدثنا ابن أبي أويس ، قال : حدثنا أخي ، عن سليمان بن بلال ، عن محمد بن عجلان ، عن المقبري ، عن أبي

---

(١) الحديث ٤٢ — يونس : هو ابن عبد الأعلى . سفيان : هو ابن عيينة . وهذا حديث مرسل ، لأن عمرو بن دينار تابعي ، فروايته عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلة .

(٢) الحديث ٤٣ — هذا إسناد مشكل ، لم أجد له وجهاً يعرف. فظاهره أن «أبا عيسى بن عبد الله بن مسعود » يروى عن أبيه عن جده ، فالجد ظاهراً أنه « مسعود » ، ولكنه صرح بأنه « عبد الله بن مسعود » ! فيكون « أبو عيسى » ليس ابن « عبد الله بن مسعود » ، بل ابن ابنه ، نسب إلى جده . ولا بأس بذلك إن كان له أصل . ولكن ليس في الرواة الذين تراجمهم عندنا من يسمى أو يكنى « أبا عيسى » ، من ذرية ابن مسعود . ولا نعرف لابن مسعود من الولد إلا اثنين : عبد الرحمن ، وفي سماعه من أبيه خلاف ، والراجح أنه سمع منه . وأبو عبيدة ، واسمه « عامر » ، ولم يسمع من أبيه ، تركه صغيراً .

فهذا إسناد محرف يقيناً ، ما صوابه ؟ لا ندري . ولا نستطيع أن نتخيل فيه احتمالات لتصحيحه . الرواية أمانة ، لا تؤخذ بالرأي ولا بالقياس ولا بالخيال .

وأما لفظ الحديث ، فقد ذكره السيوطي في زيادات الجامع الصغير . بهذا اللفظ ١ : ٢٦٠ من الفتح الكبير ، ونسبه لابن جرير عن ابن مسعود . ولم نجده في موضع آخر من الدواوين التي فيها الروايات بالإسناد . وقد يوفق الله غيرنا لوجوده ، إن شاء الله .

(٣) الحديث ٤٤ — هذا مرسل ، لأن أبا العالية تابعي ، يروى عن الصحابة ، وأبو العالية : هو رفيع ، بضم الراء ، بن مهران ، بكسر الميم ، الرياحي ، بكسر الراء وتخفيف الياء الأولى . وأبو خلدة بفتح الخاء وسكون اللام : هو خالد بن دينار السعدي .

هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ولا حرَج ، ولكن لاتختموا ذكرَ رحمة بعذابٍ، ولا ذكر عذابٍ برحمة(١) .

٤٦ — حدثنا محمد بن مرزوق، قال: حدثنا أبومَعْمر عبدالله بن عمرو بن أبي الحجاج ، قال: حدثنا عبد الوارث قال: حدثنا محمد بن جُحادة عن الحكَم ابن عُتَيبة ، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيّ بن كعب ، قال: أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم جبريلُ ، وهو بأضاة بنى غِفَار ، فقال : إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآنَ على حرف واحد . قال : فقال : أسأل الله مغفرَته ومعافاته — أو قال : ومعافاته ومغفرته — سل الله لهم التخفيف ، فإنهم لايُطيقون ذلك . فانطلقَ ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على حرفين . قال : أسأل الله مغفرَته ومعافاته — أو قال : معافاته ومغفرته — إنهم لا يطيقون ذلك ، فسل الله لهم التخفيف . فانطلق ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرُك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . فقال : أسأل الله مغفرته ومعافاته — أو قال : معافاته ومغفرَته — إنهم لا يطيقون ذلك ، سل الله لهم التخفيف . فانطلق ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فمن قرأ منها بحرف فهو كما قرأ(٢) .

قال أبو جعفر(٣) : صحّ وثبتَ أنّ الذى نزل به القرآن من ألسن العرب

---

(١) الحديث ٤٥ — ابن أبي أويس: هو إسمعيل بن عبد الله بن عبد الله بن أويس المدنى، ابن أخت مالك بن أنس ونسيبه . أخوه: هو أبو بكر عبد الرحمن بن عبد الله . والمقبرى: هو سعيد بن أبي سعيد .
وهذا الحديث ، بهذا الإسناد واللفظ ، لم أجده فى موضع آخر ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين . وقد مضى لأبى هريرة حديثان بثلاثة أسانيد ، بالأرقام : ٧ — ٩ .

(٢) الحديث ٤٦ — مضى الحديث مختصراً ، رقم : ٣٤ ، من طريق محمد بن جحادة . وأشرنا إليه هناك .

(٣) هذا جواب قوله فى أول الباب ، ص ٢١ س ١٤ : « فإذ كان ذلك كذلك ، وكانت الأخبار قد تظاهرت عنه صلى الله عليه وسلم ، بما حدثنا به خلاد بن أسلم . . . صح وثبت » ، إلخ . وقد نقل ابن كثير فى فضائل القرآن ٦٩ — ٧٠ بعض كلام الطبرى هنا ، واختصره اختصاراً .

البعضُ منها دون الجميع ، إذ كان معلوماً أن ألسنها ولغاتها أكثرُ من سبعة ، بما يُعْجِزُ عن إحصائه .

فإن قال : وما برهانك على أن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف » ، وقوله : « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » ، هو ما ادَّعيتَ — من أنه نزل بسبع لغات ، وأمِرَ بقراءته على سبعة ألسُن — دون أن يكونَ معناهُ ما قاله مخالفوك ، من أنه نزل بأمر وزجر وترغيب وترهيب وقَصَص ومَثَل ونحو ذلك من الأقوال ؟ فقد علمتَ قائلَ ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة .

قيل له : إنّ الذين قالوا ذلك لم يدّعوا أن تأويلَ الأخبار التي تقدم ذكرُناها ، هو ما زعمتَ أنهم قالوه في الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن دون غيره ، فيكونَ ذلك لقولنا مخالفاً ، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، يعنون بذلك أنه نزل على سبعة أوجه . والذي قالوه من ذلك كما قالوا .

١٦/١

وقد رَوَينا — بمثل الذي قالوا من ذلك — عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن جماعة من أصحابه ، أخباراً قد تقدم ذكرُنا بعضها ، ونستقصي ذكر باقيها ببيانه ، إذا انتهينا إليه ، إن شاء الله .

فأما الذي تقدم ذكرُناه من ذلك ، فخبر أبيّ بن كعب ، من رواية أبي كُريب ، عن ابن فضيل ، عن إسمعيل بن أبي خالد ، الذي ذكر فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرفٍ ، من سبعة أبواب من الجنة » .

والسبعة الأحرف : هو ما قلنا من أنه الألسن السبعة . والأبواب السبعة من الجنة : هي المعاني التي فيها ، من الأمر والنهي والترغيب والترهيب والقصص والمثَل ، التي إذا عَمل بها العامل ، وانتهى إلى حدودها المنتهي ، استوجب به الجنة . وليس والحمد لله في قول من قال ذلك من المتقدمين ، خلافٌ لشيء مما قلناه .

والدلالةُ على صحة ما قلناه — من أنّ معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « نزل القرآن على سبعة أحرف » ، إنما هو أنه نزل بسبع لغات ، كما تقدم ذكرناه من الروايات الثابتة عن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبىّ بن كعب ، وسائر من قدمنا الرواية عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أول هذا الباب — أنهم تماروْا فى القرآن ، فخالف بعضهم بعضاً فى نفْس التلاوة ، دون ما فى ذلك من المعانى ، وأنهم احتكموا فيه إلى النبى صلى الله عليه وسلم (١) ، فاستقرأ كلّ رجل منهم ، ثم صوّب جميعَهُم فى قراءتهم على اختلافها ، حتى ارتاب بعضُهم لتصويبه إياهم ، فقال صلى الله عليه وسلم للذى ارتاب منهم عند تصويبه جميعَهم : « إنّ الله أمرنى أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » .

ومعلوم أن تماريهم فيما تماروْا فيه من ذلك ، لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك ، لكان مستحيلا أن يُصوِّب جميعهم ، ويأمرَ كل قارئ منهم أن يلزم قراءته فى ذلك على النحو الذى هو عليه . لأن ذَلك لو جاز أن يكون صحيحاً ، وجبَ أن يكون الله جلّ ثناؤه قد أمرَ بفعل شىء بعينه وفرَضَه ، فى تلاوة من دلّت تلاوته على فرضه — ونهى عن فعل ذلك الشىء بعينه وزَجر عنه ، فى تلاوة الذى دلت تلاوته على النهى والزجر عنه ، وأباح وأطلق فعلَ ذلك الشىء بعينه ، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله فِعْلَه ، ولمن شاء منهم أن يتركه تَرْكَه (٢) ، فى تلاوة من دلت تلاوته على التخيير !

وذلك من قائله إنْ قاله ، إثباتُ ما قد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله وحُكْم كتابه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [سورة النساء : ٨٢] .

---

(١) فى المخطوطة : « وأنهم اختلفوا فيه إلى النبى صلى الله عليه وسلم » . وكل صواب .

(٢) أى : جعل له فعله ، وجعل له تركه . و « جعل » هنا ، بمعنى : أباح وأذن .

وفى نفْىِ الله جلّ ثناؤه ذلك عن حُكْم كتابه، أوضحُ الدليل على أنه لم ينزل كتابه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم إلا بحكمٍ واحدٍ متفق فى جميع خلقه، لا بأحكام فيهم مختلفة .

وفى صحّة كون ذلك كذلك ، ما يبطل دعوى من ادّعى خلاف قولنا فى تأويل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنزِل القرآن على سبعة أحرف » للذين تخاصموا إليه عند اختلافهم فى قراءتهم . لأنه صلى الله عليه وسلم قد أمرَ جميعهم بالثبوت على قراءته ، ورضى قراءة كل قارئ منهم — على خلافها قراءةَ خصومه ومنازعيه فيها — وصوَّبها . ولو كان ذلك منه تصويباً فيما اختلفت فيه المعانى ، وكان قولُه صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » إعلاماً منه لهم أنه نزل بسبعة أوجُهٍ مختلفة ، وسبعة معان مفترقة — كان ذلك إثباتاً لما قد نفى الله عن كتابه من الاختلاف ، ونفياً لما قد أوجب له من الائتلاف. مع أنّ فى قيام الحجة بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقض فى شىء واحد فى وقت واحد بحكمين مختلفين ، ولا أذن بذلك لأمته — ما يُغْنى عن ١٧/١ الإكثار فى الدلالة على أن ذلك منفىٌّ عن كتاب الله .

وفى انتفاء ذلك عن كتاب الله ، وجوبُ صحة القول الذى قلناه ، فى معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» ، عند اختصام المختصمين إليه فيما اختلفوا فيه من تلاوة ماتلَوْه من القرآن ، وفسادِ تأويل قول من خالف قولنا فى ذلك .

وأحْرى أنّ الذين تمارَوْا فيما تمارَوْا فيه من قراءتهم فاحتكموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يكن منكَراً عند أحد منهم أن يأمرَ الله عبادَه جلّ ثناؤه فى كتابه وتنزيله بما شاء ، وينهى عما شاء ، ويعِدَ فيما أحبَّ من طاعاته ، ويوعِدَ على معاصيه ، ويحتِمَ لنبيه ويعظه فيه[1] ، ويضربَ فيه لعباده الأمثال — فيُخاصمَ

(١) فى المطبوعة « ويحتج لنبيه » ، بدل « ويحتم » . وفى إحدى المخطوطات « ويعظ » ، بغير الضمير وبغير « فيه » . وأما الأخرى فليس فيها « ويعظه فيه » ، بل « ويحتم لنبيه صلى الله عليه وسلم » . و « حتم الأمر » : قضاه ، أى : يقضى لنبيه ويكتب له وعليه .

غيرَه على إنكاره سماعَ ذلك من قارئه (١) . بل على الإقرار بذلك كلّه كان إسلامُ من أسلم منهم . فما الوجهُ الذى أوجبَ له إنكارَ ما أنكر ، إن لم يكن كان ذلك اختلافاً منهم فى الألفاظ واللغات ؟ .

وبعد ، فقد أبان صحةَ ما قلنا الخبرُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نصًّا . وذلك الخبر الذى ذكرنا :

٤٧ — أنّ أبا كُرَيب حدثنا قال : حدثنا زيد بن الحباب ، عن حماد ابن سلمة ، عن على بن زيد ، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال جبريل : اقرإ القرآنَ على حرف . قال ميكائيل عليه السلام : استزدْه . فقال : على حرفين . حتى بلغ ستّة أو سبعةَ أحرف ، فقال : كلها شافٍ كافٍ ، ما لم يختم آيةَ عذاب بآية رحمة ، أو آيةَ رحمة بآية عذاب ، كقولك : هلمَّ وتعال (٢) .

فقد أوضح نصُّ هذا الخبر أنّ اختلاف الأحرف السبعة ، إنما هو اختلاف ألفاظ ، كقولك « هلم وتعال » باتفاق المعانى ، لا باختلاف معانٍ موجبةٍ اختلافَ أحكامٍ .

وبمثل الذى قلنا فى ذلك صحت الأخبارُ عن جماعة من السَّلَف والخلف .

٤٨ — حدثنى أبو السائب سَلْمُ بن جُنادة السُّوَائى ، قال : حدثنا أبو معاوية — وحدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا ابن أبى عدىّ عن شعبة — جميعاً عن الأعمش ، عن شقيق ، قال : قال عبد الله : إنى قد سمعت إلى القَرَأَةِ ، فوجدتُهم متقاربين فاقرأوا كما عُلِّمتم ، وإياكم والتنطع ، فإنما هو كقول أحدكم : هلم وتعال (٣) .

---

(١) يقول : « لم يكن منكراً عند أحد منهم . . . فيخاصم غيره » . فأطال الفصل .

(٢) الحديث ٤٧ — مضى الحديث بهذا الإسناد ، رقم : ٤٠ . فتلك إشارته بقوله هنا : « وذلك الخبر الذى ذكرنا أن أبا كريب حدثنا » ، إلخ .

(٣) الحديث ٤٨ — أبو السائب سلم بن جنادة السوائى الكوفى ، شيخ الطبرى : ثقة حجة لا شك

٤٩ — وحدثنا محمد بن المثنى، قال: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا شعبة، عن أبي إسحق، عمن سمع ابنَ مسعود يقول: من قرأ منكم على حرف فلا يتحوَّلنّ، ولو أعلمُ أحداً أعلمَ منى بكتاب الله لأتيتُه(١).

٥٠ — وحدثنا ابن المثنى، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، قال: حدثنا شعبة، عن عبد الرحمن بن عابس، عن رجل من أصحاب عبد الله، عن

فيه، روى عنه البخارى فى غير كتاب (الجامع الصحيح)، والترمذى وابن ماجة وأبو حاتم، وهو قديم الولادة، ولد سنة ١٧٤، ومات سنة ٢٥٤. وله ترجمة فى تاريخ بغداد ٩: ١٤٧ — ١٤٨، والتهذيب ٤: ١٢٨ — ١٢٩، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم: ٢ / ١ / ٢٦٩. و«سلم» بفتح السين وسكون اللام، ووقع فى نسخ الطبرى «سالم»، وهو تحريف. و«جنادة»: بضم الجيم وتخفيف النون. و«السوائى»: بضم السين وتخفيف الواو وبعد الألف همزة، نسبة إلى «بنى سواءة بن عامر بن صعصعة».

وأبو معاوية: هو محمد بن خازم الضرير، ولد سنة ١١٣، ومات سنة ١٩٥. فهذا الإسناد الأول عال جداً. وذلك أن الطبرى روى أثر ابن مسعود هذا بإسنادين:

رواه عن سلم بن جنادة عن أبى معاوية عن الأعمش. ثم رواه عن محمد بن المثنى عن ابن أبى عدى عن شعبة عن الأعمش.

وهذا الأثر عن ابن مسعود لم نجده فى غير هذا الكتاب، إلا ما ذكره صاحب اللسان بغير إسناد، كما سنشير إليه بعد، إن شاء الله.

وقوله «قد سمعت إلى القرأة فوجدتهم متقاربين»، فى المطبوعة «قد سمعت القراء». و«القراء»: جمع «قارئ»، كما هو واضح، ولكن الذى فى المخطوطة «إلى القرأة»، بزيادة «إلى» وبلفظ «القرأة»، بفتح الراء والهمزة ثم الهاء فى آخره، وهو جمع «قارئ» أيضاً، ففى اللسان «رجل قارئ، من قوم قراء، وقرأة، وقارئين». وهذا الجمع قياسى، مثل «كاتب وكتبة». وانظر همع الهوامع للسيوطى ٢: ١٧٧، ١٧٨. وهذا الأثر ذكره صاحب اللسان ١: ١٢٤، قال: «وروى عن ابن مسعود: تسمعت القرأة، فإذا هم متقارئون. حكاه اللحيانى ولم يفسره. قال ابن سيدة: وعندى أن الجن كانوا يرومون القراءة»! وهكذا وقع الخطأ لهم قديماً، جعلوها «متقارئون» بالهمزة، ثم فسرها ابن سيدة هذا التفسير العجيب. وهى واضحة فى الطبرى «متقاربين» بالباء. والسياق نفسه لا يدل إلا على صحة هذا وخطإ ما وقع فى اللسان.

وكلمة «القرأة» ستأتى فى مخطوطة الطبرى كثيراً بهذا الرسم، ثم يغيرها مصححو المطبوعة «القراء»، دون حاجة إلى هذا التغيير!

(١) الحديث ٤٩ — أبو داود: هو الطيالسى. وأبو إسحق: هو السبيعى الهمدانى التابعى المعروف، واسمه «عمرو بن عبد الله»، وهذا الإسناد ضعيف، لإبهام شيخ أبى إسحق الذى حدثه عن ابن مسعود. وقد مضى نحو معناه ضمن حديث متصل، عن ابن مسعود، رقم: ١٨. وانظر الإسناد التالى لهذا.

عبد الله بن مسعود ، قال : من قرأ على حرف فلا يتحوّلنّ منه إلى غيره[١] .

فعلوم أنّ عبد الله لم يَعْنِ بقوله هذا : من قرأ ما فى القرآن من الأمر والنهى فلا يتحولنّ منه إلى قراءة ما فيه من الوعد والوعيد ، ومن قرأ ما فيه من الوعد والوعيد فلا يتحولنّ منه إلى قراءة ما فيه من القَصص والمثَل . وإنما عنى رحمة الله عليه أنّ من قرأ بحَرْفه — وحرْفُه : قراءته ، وكذلك تقول العرب لقراءة رجلٍ : حرفُ فلان ، وتقول للحرف من حروف الهجاء المقطَّعة : حرف ، كما تقول لقصيدة من قصائد الشاعر : كلمة فلان — فلا يتحولنّ عنه إلى غيره رغبة عنه . ومن قرأ بحرف أبىّ ، أو بحرف زيد ، أو بحرف بعض من قرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الأحرف السبعة — فلا يتحولنّ عنه إلى غيره رغبة عنه ، فإن الكفرَ ببعضه كفرٌ بجميعه ، والكفرُ بحرف من ذلك كفرٌ بجميعه . يعنى بالحرف ما وصفنا من قراءة بعض من قرأ ببعض الأحرف السبعة .

١/١٨ ٥١ — وقد حدثنا يحيى بن داود الواسطى ، قال : حدثنا أبوأسامة ، عن الأعمش ، قال : قرأ أنس هذه الآية : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وأَصْوَبُ قِيلاً ﴾ . [سورة المزمل : ٦] فقال له بعض القوم : يا أبا حَمزة ، إنما هى « وأقْوَمُ » فقال : أقْوَمُ وأصْوَبُ وأهيَأ ، واحدٌ[٢] .

---

(١) الحديث ٥٠ — عبد الرحمن بن عابس : تابعى أيضاً . وقد أبهم الرجل الذى حدثه عن ابن مسعود ، فكان الإسناد ضعيفاً .

وهذا الأثر رواه أحمد فى المسند رقم : ٣٨٤٥ ضمن حديث طويل ، عن محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الرحمن بن عابس ، قال : « حدثنا رجل من همدان ، من أصحاب عبد الله ، وما سماه لنا » إلخ .

(٢) الحديث ٥١ — أبو أسامة : هو حماد بن أسامة الكوفى الحافظ . وهذا الأثر سيأتى بهذا الإسناد ، وبإسناد آخر ، فى تفسير سورة « المزمل : ٢٩ : ٨٢ » . ونقله السيوطى فى الدر المنثور ٦ : ٢٧٨ ، ونسبه أيضاً لأبى يعلى ومحمد بن نصر وابن الأنبارى فى المصاحف . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧ : ١٥٦ ، ونسبه للبزار وأبى يعلى ، وقال : « ولم يقل الأعمش : سمعت أنساً . ورجال أبى يعلى رجال الصحيح ، ورجال البزار ثقات » .

وقوله « وأهيأ » بدله فى مطبوعة الطبرى « وأهدى » ، والظاهر أنه من تصرف المصححين ، لأن ما أثبتنا هو الثابت فى المخطوطة وفى رواية الطبرى الآتية بالإسناد نفسه وفى الدر المنثور ومجمع الزوائد .

٥٢ ــ حدثني محمد بن حُميد الرازي ، قال : حدثنا حَكَّام ، عن عنبسة ، عن ليث ، عن مجاهد : أنه كان يقرأ القرآنَ على خمسة أحرُفٍ .

٥٣ ــ حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حَكَّام ، عن عنبسة ، عن سالم : أن سعيدَ بن جُبَير كان يقرأ القرآن على حرفين .

٥٤ ــ حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن مُغيرة ، قال : كان يزيدُ بن الوليد يقرأ القرآن على ثلاثة أحرف[1] .

أفترى الزاعمَ أن تأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآنُ على سبعة أحرف » ، إنما هو أنه أنزل على الأوجه السبعة التي ذكرنا ، من الأمر والنهي والوعد والوعيد والجدل والقصص والمثل ــ كان يرى أنّ مجاهداً وسعيدَ ابن جبير لم يقرآ من القرآن إلا ما كان من وجهيه أو وجوهه الخمسة دون سائر معانيه ؟ لئن كانَ ظن ذلك بهما ، لقد ظنّ بهما غير الذي يُعرفان به من منازلهما من القرآن ، ومعرفتهما بآي الفرقان !

٥٥ ــ وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن عُليَّة ، قال حدثنا أيوب ، عن محمد ، قال : نُبئت أن جبرائيل وميكائيل أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال له جبرائيل : اقرإ القرآن على حرفين . فقال له ميكائيل : استزده . فقال : اقرإ القرآن على ثلاثة أحرف . فقال له ميكائيل : استزده . قال : حتى بلغ سبعة أحرف ، قال محمد : لا تختلفُ في حلال ولا حرام ، ولا أمرٍ ولا نهي ،

---

(١) الأثر ٥٤ ــ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، أمير المؤمنين ، عرف باسم « يزيد الناقص » ، وكان رجلا صالحاً . وهو الذي قيل في المثل : « الأشج والناقص أعدلا بني مروان » ، فهو الناقص ، لنقصه الناس من أعطياتهم ما كان زاده سلفه في أعطياتهم ، والأشج : هو عمر بن عبد العزيز . ويزيد هذا هو الذي قتل ابن عمه الفاسق المستهتر : الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، سنة ١٢٦ ، وولي الخلافة بعده . انظر ترجمته في تاريخ ابن كثير ١٠ : ١٦ ــ ١٧ ، والتاريخ الكبير للبخاري ٤ / ٢ / ٣٦٦ ــ ٣٦٧ .

ومغيرة ، راوي هذا عن يزيد : هو مغيرة بن مقسم ، بكسر الميم وسكون القاف وفتح السين ، الضبي . وهو ثقة معروف كثير الحديث ، مات سنة ١٣٣ .

هو كقولك : تعالَ وهلمّ وأقبل، قال : وفي قراءتنا ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [سورة يس: ٢٩، ٥٣] ، في قراءة ابن مسعود (إن كانتْ إلا زَقيةً واحدة)(١) .

٥٦ ــ وحدثني يعقوب قال : حدثنا ابن عُلية ، قال : حدثنا شُعيب ــ يعني ابن الحبْحاب ــ قال :كان أبو العالية إذا قرأ عنده رجل لم يقل: « ليس كما يقرأ » ، وإنما يقول : أما أنا فأقرأ كذا وكذا . قال : فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي ، فقال : أرى صاحبك قد سمع : « أنّ من كفَر بحرفٍ منه فقدْ كفر به كلّه » .

٥٧ ــ حدثنا يونس بن عبد الأعلى ،قال :أنبأنا ابن وهب ،قال : حدثنا يونس ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرني سعيد بن المسيّب : أن الذى ذكر الله تعالى ذِكره [أنه قال]﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [سورة النحل : ١٠٣] إنما افتُتِن أنه كان يكتب الوحيَ ، فكان يملي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : سميعٌ عليمٌ ، أوعزيزٌ حكيمٌ ، أوغير ذلك من خواتم الآى ، ثم يشتغل عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو على الوحي ، فيستفهمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيقول :أعزيز حكيمٌ ، أوسميعٌ عليم أو عزيز عليم ؟ فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيّ ذلك كتبت فهو كذلك . ففتنه ذلك ، فقال : إنّ محمداً وكَلَ ذلك إليّ ، فأكتبُ ما شئتُ . وهو الذى ذكر لي سعيد بن المسيب من الحروف السبعة(٢) .

---

(١) الحديث ٥٥ ــ محمد : هو ابن سيرين التابعي ، فالحديث مرسل . ثم هو لم يدرك ابن مسعود ، فحكايته عنه قراءته منقطعة .

(٢) الحديث ٥٧ ــ هذا الحديث ذكره الطبرى مرة أخرى بهذا اللفظ نفسه في تفسير سورة النحل : ١٠٣ ، بغير هذه الزيادة التي وضعناها بين القوسين . وهو بغير هذه الزيادة يوهم أن الذى نزل فيه « إنما يعلمه بشر » ، هو كاتب الوحي الذى افتتن . مع أنه أراد إن الذى قال « إنما يعلمه بشر » هو كاتب الوحي الذى افتتن : وصدر كلام الطبرى في تفسير سورة النحل يقطع بذلك قال : « وقيل إن الذى قال ذلك رجل كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد عن الإسلام . ذكر من قال ذلك ... » ثم روى هذا الخبر ، فنفى ما قدمه هذا الوهم الذى يشكل على قارئه في هذا المكان . وكاتب الوحي الذى ارتد هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامرى القرشي ، وهو ليس بأعجمي ، وإنما قالوا إنه هو الذى ذكره الله تعالى في قوله . « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلى ولم يوح إليه شيء»

٥٨ — حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، عن عبد الله ، قال : من كفر بحرف من القرآن ، أو بآية منه ، فقد كفر به كله[١] .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : فإذْ كان تأويلُ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » عندك ، ما وصفت ، بما عليه استشهدتَ ، فأوْجِدنا حرفاً فى كتاب الله مقروءاً بسبع لغات ، فنحققَ بذلك قولك . وإلاّ ، فإن لم تجد ذلك كذلك : كانَ معلوماً بِعَدَمِكَهُ[٢] — صحةُ قول من زعم أن تأويل ذلك : أنه نزل بسبعة معان ، وهو الأمر والنهى والوعد والوعيد والجدل والقصص والمثل — وفسادُ قولك . أو تقولَ فى ذلك : إن الأحرف السبعة لغاتٌ فى القرآن سبعٌ ، متفرقة فى جميعه ، من لغات أحياءٍ من قبائل العرب مختلفة الألسن — كما كان يقوله بعض من لم يُنعم النظرَ فى ذلك[٣] . فتصير بذلك إلى القول بما لا يجهل فسادَه ذُو عقل ، ولا يلتبس خطؤه على ذى لُب . ١٩/١

وذلك أنّ الأخبار التى بها احتججتَ لتصحيح مقالتك فى تأويل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف » ، هى الأخبار التى رويتها عن عُمرَ بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبىّ بن كعب ، رحمة الله عليهم ، وعمن رويتَ ذلك عنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — بأنهم تماروْا فى تلاوة

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » [سورة الأنعام : ٩٣] وأما المعنى بقوله « إنما يعلمه بشر » فقد اختلفوا فى تحقيقه ، قالوا : قين بمكة نصرانى يقال له بلعام ، أو يعيش غلام لبنى المغيرة ، أو جبر النصرانى غلام بنى بياضة .

وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٤ : ١٣١ وقال فى صدره : « إن الذى ذكر الله فى كتابه أنه قال : إنما يعلمه . . . » ، فأثبتنا الزيادة منه لذلك .

(١) الخبر ٥٨ — مثله فى حديث المسند رقم : ٣٨٤٥ ، وما مر آنفاً برقم : ١٨ .

(٢) العدم : فقدان الشىء وذهابه ، وعدم الشىء : فقده فلم يعثر عليه .

(٣) فى المطبوعة « لم يمعن » ، غيرها المصححون هنا وفى مواضع ستأتى !! وأنعم النظر : بالغ فيه وأدقه .

بعض القرآن ، فاختلفوا فى قراءته دون تأويله . وأنكر بعضٌ قراءةَ بعض ، مع دعوى كل قارئ منهم قراءةً منها : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه ما قرأ بالصفة التى قرأ . ثم احتكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ، فكان من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ، أن صوّب قراءة كل قارئ منهم ، على خلافها قراءةَ أصحابه الذين نازعوه فيها ، وأمرَ كل امرئ منهم أن يقرأ كما عُلِّم ، حتى خالط قلبَ بعضهم الشكُّ فى الإسلام ، لما رأى من تصويب رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءةَ كل قارئ منهم على اختلافها . ثم جَلاهُ الله عنه ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم له : أن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

فإن كانت الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، عندك — كما قال هذا القائل — متفرقةً فى القرآن ، مثبتةً اليوم فى مصاحف أهل الإسلام ، فقد بطلت معانى الأخبار التى رويتها عمن رويتها عنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهم اختلفوا فى قراءة سورة من القرآن ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر كلاًّ أن يقرأ كما عُلم . لأن الأحرف السبعة إذا كانت لغات متفرقة فى جميع القرآن ، فغير مُوجب حرفٌ من ذلك اختلافاً بين تاليه[2] ، لأن كل تالٍ فإنما يتلو ذلك الحرفَ تلاوةً واحدةً على ما هو به فى المصحف ، وعلى ما أنزل .

وإذْ كان ذلك كذلك ، بطل وجه اختلاف الذين رُوى عنهم أنهم اختلفوا فى قراءة سورة ، وفسد معنى أمر النبى صلى الله عليه وسلم كلَّ قارئ منهم أن يقرأه على ما عُلم . إذْ كان لا معنى هنالك يُوجب اختلافاً فى لفظ ، ولا افتراقاً فى معنى . وكيف يجوز أن يكون هنالك اختلافٌ بين القوم ، والمعلِّم واحدٌ ، والعلم واحدٌ غير ذى أوجه ؟ وفى صحة الخبر عن الذين رُوى عنهم الاختلافُ فى حروف القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — بأنهم اختلفوا وتحاكموا إلى

---

(١) فى المخطوطة : « ثم اختلفوا إلى رسول الله » ، وهما سواء .

(٢) هى « تالين » جمع « تال » ، مضافة إلى الضمير ، فحذفت النون .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، على ما تقدم وَصْفُنَاهُ — أبينُ الدلالة على فساد القول بأن الأحرُف السبعة إنما هى أحرف سبعة متفرقة فى سور القرآن ، لا أنها لغاتٌ مختلفة فى كلمة واحدة باتفاق المعانى .

مع أن المتدبر إذا تدبر قول هذا القائل — فى تأويله قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، وادّعائه أنّ معنى ذلك أنها سبعُ لغات متفرقة فى جميع القرآن ، ثم جمع بين قِيله ذلك ، واعتلالِه لقيلِه ذلك بالأخبار التى رويت عمن رُوِىَ ذلك عنه من الصحابة والتابعين أنه قال : هو بمنزلة قولك تعالَ وهلم وأقبل ، وأن بعضهم قال : هو بمنزلة قراءة عبد الله « إلازقيةً » ، وهى فى قراءتنا « إلا صَيْحَةً » ، وما أشبه ذلك من حُججه — [1] علم أن حججه مفسدةٌ فى ذلك مقالتَه ، وأن مقالته فيه مُضادةٌ حججه .

لأن الذى نزل به القرآن عندَه إحدى القراءتين — : إما « صيحة » ، وإما « زَقية » وإما « تعالَ » أو « أقبل » أو « هلم » — لا جميع ذلك . لأن كلّ لغة من اللغات السبع عنده فى كلمة أو حرف من القرآن ، غيرُ الكلمة أو الحرف الذى فيه اللغة الأخرى .

وإذْ كان ذلك كذلك ، بطل اعتلاله لقوله بقول من قال : ذلك بمنزله « هلم » و « تعال » و « أقبل » ، لأنّ هذه الكلمات هى ألفاظ مختلفة ، يجمعها فى التأويل معنى واحد . وقد أبطل قائلُ هذا القول الذى حكينا قوله ، اجتماعَ اللغات السبع فى حرف واحد من القرآن . فقد تبين بذلك إفسادُ حجته لقوله بقوله ، وإفساد قوله لحجته [2] .

٢٠/١

قيل له : ليس القولُ فى ذلك بواحد من الوجهين اللذين وصفتَ . بل الأحرف السبعة التى أنزل الله بها القرآن ، هنّ لغات سبع ، فى حرف واحد ، وكلمة واحدة ،

(١) جواب قوله : « . . . . إذا تدبر قول هذا القائل . . . علم . . . . »

(٢) انتهى اعتراض المعترض الذى بدأ فى ص : ٥٥ ، ويليه جواب الطبرى فيما اعترض به .

باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى ، كقول القائل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلىّ ، وقصدى ، ونحوى ، وقربى ، ونحو ذلك ، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعانى ، وإن اختلفت بالبيان به الألسن ، كالذى روّينا آنفاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمن روينا ذلك عنه من الصحابة ، أن ذلك بمنزلة قولك : « هلمّ وتعالَ وأقبل » ، وقوله « ما ينظرون إلا زَقية » ، و « إلا صيحة » .

فإن قال : ففى أىّ كتاب الله نجدُ حرفاً واحداً مقروءاً بلغات سبع مختلفات الألفاظ ، متفقات المعنى ، فنسلم لك صحةَ ما ادّعيت من التأويل فى ذلك ؟

قيل : إنا لم ندع أن ذلك موجود اليوم ، وإنما أخبرنا أن معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، على نحو ما جاءت به الأخبار التى تقدّم ذكرناها . وهو ما وصفنا ، دون ما ادعاه مخالفونا فى ذلك ، للعلل التى قد َبيّنّا .

فإن قال : فما بال الأحرف الأخَرِ الستة غير موجودة ، إن كان الأمر فى ذلك على ما وصفتَ ، وقد أقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمر بالقراءة بهنّ ، وأنزلهن الله من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم ؟ أنسخت فرُفعت ، فما الدلالة على نسخها ورَفعها ؟ أم نسيتهن الأمة ، فذلك تضييعُ ما قد أمروا بحفظه ؟ أم ما القصةُ فى ذلك ؟

قيل له : لم تنسخ فترفع ، ولا ضيعتها الأمة وهى مأمورة بحفظها . ولكنّ الأمة أمرت بحفظ القرآن ، وخُيِّرت فى قراءته وحفظه بأى تلك الأحرف السبعة شاءت . كما أمرت ، إذا هى حَنثتْ فى يمين وهى مُوسرة ، أن تكفر بأىّ الكفارات الثلاث شاءت : إما بعتق ، أو إطعام ، أو كسوة . فلو أجمعَ جميعها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث ، دون َحظرها التكفيرَ بأىِّ الثلاث شاءَ المكفِّر ، كانت ُمصيبةَ حكمَ الله ، مؤديةً فى ذلك الواجبَ عليها من حق الله . فكذلك الأمة ، أمرت بحفظ القرآن وقراءته ، وخُيِّرت فى قراءته بأى الأحرف السبعة شاءت : فرأت

ـ لعلة من العلل أوجبتْ عليها الثباتَ على حرف واحد ـ قراءتَهُ بحرف واحد ، ورفْضَ القراءة بالأحرف الستة الباقية ، ولم تحظُرْ قراءته بجميع حروفه على قارئه ، بما أذن له في قراءته به .

فإن قال : وما العلة التي أوجبت عليها الثباتَ على حرف واحد دون سائر الأحرف الستة الباقية ؟

٥٩ ـ قيل : حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ الضَّبي ، قال : حدثنا عبد العزيز بن محمد الدَّرَاوَرْدي ، عن عُمارة بن غزِيَّة ، عن ابن شهاب ، عن خارجة بن زيد ابن ثابت ، عن أبيه زيد ، قال : لما قُتِل أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمامة ، دخل عمرُ بن الخطاب على أبي بكر رحمه الله فقال : إنّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمامة تهافتوا تهافتَ الفَرَاش في النار ، وإني أخشى أن لا يشهدوا موطناً إلا فعلوا ذلك حتى يُقتَلوا ـ وهم حملةُ القرآن ـ فيضيعَ القرآن ويُنسَى . فلو جمعتَه وكتبتَه ! فنفر منها أبو بكر وقال : أفعل ما لم يفعلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ! فتراجعا في ذلك . ثم أرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت ، قال زيد : فدخلت عليه وعمر مُحزَئِلٌ[1] ، فقال أبو بكر : إن هذا قد دعاني إلى أمر فأبيتُ عليه ، وأنت كاتبُ الوحي . فإنْ تكن معه اتبعتكما ، وإن توافِقْني لا أفعل . قال : فاقتصَّ أبو بكر قولَ عمر ، وعمر ساكت ، فنفرت من ذلك وقلت : نفعلُ ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ! إلى أن قال عمر كلمة : « وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ » قال : فذهبنا ننظر ، فقلنا : لا شيء والله ! ما علينا في ذلك شيء ! قال زيد : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطَع الأدَم وكِسَرِ الأكتاف والعُسُب[2] .

٢١/١

(١) احزأل الرجل : اجتمع وتحفز ورفع صدره كالمتهيء لأمر ، فهو محزئل : منضم بعضه إلى بعض ، جالس جلسة المستوفز .

(٢) الأدم جمع أديم : وهو الجلد المدبوغ ، كانوا يكتبون فيه . والكسر جمع كسرة (بكسر فسكون) : وهي القطعة المكسورة من الشيء . والأكتاف جمع كتف : وهو عظم عريض في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب ، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم يومئذ . والعسب جمع عسيب وهو : جريد النخل إذا نحي عنه خوصه .

فلما هلك أبو بكر وكانَ عُمر[١]، كتبَ ذلك في صحيفة واحدةٍ، فكانت عنده. فلما هلك، كانت الصحيفةُ عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم. ثم إن حذيفة بن اليمان قدِم من غزوة كان غزاها بِمَرْجِ أَرْمِينيةَ[٢]، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان بن عفان فقال: «يا أمير المؤمنين: أدرِكِ الناس! فقال عثمان: «وما ذاك؟» قال غزوت مَرْجَ أرمينية، فحضرها أهلُ العراق وأهلُ الشام، فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أُبيّ بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهلُ العراق، فتكفرهم أهلُ العراق. وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة ابن مسعود، فيأتون بما لم يسمع به أهل الشام، فتكفّرهم أهلُ الشام. قال زيد: فأمرني عثمان بن عفان أكتبُ له مُصْحفاً، وقال: إنّي مدخلٌ معك رجلا لبيباً فصيحاً، فما اجتمعتما عليه فاكتباه، وما اختلفتما فيه فارفعاه إليّ. فجعل معه أبان بن سعيد بن العاص، قال: فلما بلغنا ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨] قال: زيد فقلت: «التابوه» وقال أبان بن سعيد: «التابوت»، فرفعنا ذلك إلى عثمان فكتب: «التابوت» قال: فلما فرغتُ عرضته عَرْضةً، فلم أجد فيه هذه الآية:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣] قال: فاستعرضتُ المهاجرين أسألهم عنها، فلم أجدْها عند أحد منهم، ثم استعرضتُ الأنصارَ أسألهم عنها، فلم أجدها عند أحد منهم، حتى وجدتُها عند خُزيمة بن ثابت، فكتبتها، ثم عرَضته عَرضةً أخرى، فلم أجد فيه هاتين الآيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ

---

(١) قوله «وكان عمر»، أي ولي الأمر من بعده. وقال ابن حجر في فتح الباري ٩: ١٣ وذكر جمع القرآن في الورق والصحف على عهد أبي بكر، ثم قال: «هذا كله أصح مما وقع في رواية عمارة بن غزية...»

(٢) في المطبوعة «في فرج أرمينية»، وكذلك التي تليها. والمرج: أرض واسعة كثيرة النبت تمرج فيها الدواب، أي تذهب وتجيء. وقد أضيف «مرج» إلى كثير من المواضع والبلاد. وأرض أرمينية واسعة خصيبة. وذكر ابن حجر في الفتح ٩: ١٤ رواية «فتح أرمينية» و «فرج...» ولم يذكر «مرج»، وذكرها أبو عمرو الداني في كتابه «المقنع»: ٤ قال: «وكانوا يقاتلون على مرج أرمينية».

عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩] فاستعرضتُ المهاجرين ، فلم أجدها عند أحد منهم ، ثم استعرضت الأنصارَ أسألهم عنها فلم أجدها عند أحد منهم ، حتى وجدتها مع رَجل آخر يدعى خُزيمة أيضاً ، فأثبتها فى آخر « براءة » ، ولو تمّتْ ثلاثَ آيات لجعلتها سورة على حِدَة . ثم عرضته عرضةً أخرى ، فلم أجد فيه شيئاً ، ثم أرسل عثمان إلى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة ، وحلف لها ليردنها إليها فأعطته إياها ، فعرض المصحف عليها ، فلم يختلفا فى شىء . فردَّها إليها ، وطابت نفسه ، وأمرَ الناس أن يكتبوا مصاحفَ . فلما ماتت حفصةُ أرسل إلى عبد الله بن عمر فى الصحيفة بعزمة ، فأعطاهم إياها فغسلتْ غسلاً(١) .

٦٠ — وحدثنى أيضاً يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا نعيم بن حماد قال : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن عُمارة بن غَزِيَّة ، عن ابن شهاب ، عن خارجة ابن زيد ، عن أبيه زيد بن ثابت ، بنحوه سواء .

٦١ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن عُلَيَّة ، قال : حدثنا أيوب ، عن أبى قِلابَة ، قال : لما كان فى خلافة عثمان ، جعل المعلِّم يعلِّم قراءة

---

(١) الحديث ٥٩ ، ٦٠ — قال ابن حجر فى فتح البارى ٩ : ٩ — ١٩ ، وذكر رواية الطبرى مفرقة فى شرح الباب فى أول « باب جمع القرآن » ، فى شرح حديث جمع القرآن الذى رواه البخارى من طريق ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : « هذا هو الصحيح عن الزهرى ، أن قصة زيد ابن ثابت مع أبى بكر وعمر ، عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت ، وقصة حذيفة مع عثمان عن أنس ابن مالك ، وقصة فقد زيد بن ثابت الآية من سورة الأحزاب فى رواية عبيد بن السباق عن خارجة بن زيد ابن ثابت عن أبيه . وقد رواه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع عن الزهرى ، فأدرج قصة آية سورة الأحزاب فى رواية عبيد بن السباق » ، ثم قال عن هذا الخبر الذى رواه الطبرى : « وأغرب عمارة بن غزية فرواه عن الزهرى فقال : عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه ، وساق القصص الثلاث بطولها : قصة زيد مع أبى بكر وعمر ، ثم قصة حذيفة مع عثمان أيضاً ، ثم قصة فقد زيد بن ثابت الآية من سورة الأحزاب . أخرجه الطبرى . وبين الخطيب فى "المدرج" أن ذلك وهم منه ، وأنه أدرج بعض الأسانيد على بعض » .

الرجل ، والمعلم يعلم قراءةَ الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين — قال أيوب : فلا أعلمه إلا قال — : حتى كفر بعضهم بقراءة بعض . فبلغ ذلك عثمان ، فقام خطيباً فقال : « أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون ، فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً . اجتمعوا يا أصحابَ محمد ، فاكتبوا للناس إماماً » . قال أبو قلابة ، فحدثني أنس بن مالك قال : كنت فيمن يملى عليهم ، قال : فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعلهُ أن يكون غائباً أو في بعض البوادي ، فيكتبون ما قبلها وما بعدها ، ويَدعون موضعها ، حتى يجيءَ أو يُرْسَلَ إليه . فلما فرغ من المصحف ، كتب عثمان إلى أهل الأمصار : « إني قد صَنعتُ كذا وكذا ، ومحوتُ ما عندي ، فامحوا ما عندكم »[1] .

٦٢ — حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرني يونس قال : قال ابن شهاب : أخبرني أنس بن مالك الأنصاري : أنه اجتمع في غزوة أذربيجان وأرمينيةَ أهلُ الشام وأهل العراق ، فتذاكرُوا القرآن ، واختلفوا فيه حتى كاد يكون بينهم فتنة . فركبَ حُذيفةُ بن اليمان — لما رأى اختلافهم في القرآن — إلى عثمان ، فقال : « إنَّ الناس قد اختلفوا في القرآن ، حتى إني والله لأخشى أن يصيبهم مثلُ ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف » . قال : ففزع لذلك فزعاً شديداً ، فأرسل إلى حفصة فاستخرج الصحف التي كان أبو بكر أمر زيداً بجمعها ، فنسخ منها مصاحف ، فبعث بها إلى الآفاق[2] .

٢٢/١

---

(١) الخبر ٦١ — ذكر ابن حجر في الفتح ٩ : ١٥ أن ابن أبي داود أخرجه في المصاحف من طريق أبي قلابة ، وذكر صدر الخبر ، ثم ذكر سائره في ص : ١٨ . وفي المخطوطة مكان « ويدعون موضعها » و « يتركون موضعها » . وهو في كتاب المصاحف ص ٢١ — ٢٢ ، رواه عن زياد بن أيوب عن إسماعيل ، يعني ابن علية ، بهذا الإسناد . وفيه « ويدعون موضعها » .

(٢) الخبر ٦٢ — خرج ابن حجر في الفتح ٩ : ١٤ وما بعدها رواية يونس عن ابن شهاب عن أنس . وقال : « أخرجها ابن أبي داود . . . مطولة » . وهي في كتاب المصاحف ص ٢١ .

٦٣ ـ حدثني سعيد بن الربيع ، قال: حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهرى، قال : قُبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع ، وإنما كان فى الكرانيف والعسب[١] .

٦٤ ـ حدثنا سعيد بن الربيع قال : حدثنا سفيان ، عن مجالد، عن الشعبى ، عن صعصعة أنّ أبا بكر أولُ من ورّث الكلالةَ وجمعَ المصحف[٢].

قال أبو جعفر : وما أشبه ذلك من الأخبار التى يطول باستيعاب جميعها الكتابُ ، والآثار الدالة على أن إمامَ المسلمين وأميرَ المؤمنين عثمانَ بن عفان رحمة الله عليه ، جمع المسلمين ـ نظراً منه لهم ، وإشفاقاً منه عليهم ، ورأفة منه بهم ، حِذارَ الردّةِ من بعضهم بعدَ الإسلامَ ، والدّخولِ فى الكفر بعد الإيمان، إذ ظهر من بعضهم بمحضَره وفى عصره التكذيبُ ببعض الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن ، مع سماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم النهيَ عن التكذيب بشىء منها ، وإخباره إياهم أنّ المِراء فيها كفر ـ فحملهم رحمةُ الله عليه ، إذْ رأى ذلك ظاهراً بينهم فى عصره ، ولحداثة عهدهم بنزول القرآن ، وفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بما أمِنَ عليهم معه عظيم البلاء فى الدين من تلاوة القرآن ـ على حرف واحد[٣] .

وجمعهم على مصحف واحد ، وحرف واحد ، وخرّق ما عدا المصحف الذى

---

(١) الحديث ٦٣ ـ ذكر ابن حجر فى الفتح ٩ : ٩ رواية سفيان عن الزهرى عن عبيد عن زيد بن ثابت ، وأتمها فى ص: ١١ باختلاف فى اللفظ . والكرانيف جمع كرنافة : وهى أصول السعف الغلاظ العراض التى إذا يبست صارت أمثال الأكتاف . وكانوا يكتبون فيها قبل الورق .

(٢) الخبر ٦٤ ـ صعصعة : هو ابن صوحان ، بضم الصاد . وهو تابعى قديم ، كان مسلماً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يره . وهذا الخبر لم نجده فى موضع آخر . وأما « الكلالة » ، فقد اختلف فى تفسيرها ، والجمهور على أنه : من مات وليس له ولد ولا والد . كما قال الحافظ فى الفتح ١٢ : ٢١ . وهو الذى اختاره الطبرى ، فيما سيأتى فى تفسير الآية ١٢ من سورة النساء ، و ١٧٦ منها ج ٤ ص ١٩١ ـ ١٩٤ ، و ج ٦ ص ٢٨ ـ ٣١ من طبعة بولاق .

(٣) قوله « على حرف واحد » ، متعلق بقوله آنفاً : « فحملهم رحمة الله عليه » وقوله « فحملهم » معطوف على قوله أولا : « جمع المسلمين »

جمعهم عليه . وعزم على كل من كان عنده مُصحفٌ مخالفٌ المصحفَ الذى جمعهم عليه ، أن يخرقه[1] . فاستوسقتْ له الأمة على ذلك بالطاعة[2] ، ورأت أنّ فيما فعلَ من ذلك الرشدَ والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة التى عزم عليها إمامُها العادلُ فى تركها ، طاعةً منها له ، ونظراً منها لأنفسها ولمن بعدَها من سائر أهل ملتها ، حتى دَرَسَت من الأمة معرفتها ، وتعفت آثارها ، فلا سبيلَ لأحد اليوم إلى القراءة بها ، لدثورها وعُفُوِّ آثارها ، وتتابعِ المسلمين على رفض القراءة بها ، من غير جحود منها صحتَها وصحةَ شىء منها[3] ، ولكن نظراً منها لأنفسها ولسائر أهل دينها . فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم الشفيقُ الناصحُ ، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعضُ من ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم تَركُ قراءة أقرأهموها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم بقراءتها ؟

قيل : إن أمرَه إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمرَ إباحة ورخصة . لأنّ القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم ، لوجب أن يكونَ العلمُ بكل حرف من تلك الأحرف السبعة ، عند من تقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبرُه العذر ، ويزيل الشك من قَرَأَةِ الأمة[4] . وفى تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا فى القراءة بها مخيرين ، بعد أن يكون فى نقلة القرآن من الأمة من تجبُ بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة .

---

(١) فى الموضعين من المطبوعة « وحرق » بالحاء المهملة و « يحرقه » وقال ابن حجر فى الفتح ٩ : ١٨ فى شرح حديث البخارى : « فى رواية الأكثر " أن يخرق " بالخاء المعجمة ، وللمروزى بالمهملة ، ورواه الأصيلى بالوجهين ، والمعجمة أثبت » . ويخرق الكتاب أو الثوب : شققه ومزقه .

(٢) فى المطبوع والمخطوط « فاستوثقت » . ونقله ابن كثير فى الفضائل : ٧٠ « فاستوسقت » وهو الصواب . واستوسق القوم : اجتمعوا وانضموا . وفى حديث النجاشى : « واستوسق عليه أمر الحبش » أى اجتمعوا على طاعته . واستوسق لفلان الأمر : إذا أمكنه واجتمع له .

(٣) قوله « من غير جحود منها » ، أى من الأمة ، وكذلك الضمائر فيما بعدها

(٤) فى المطبوع : « من قراءة الأمة » ، والقرأة : جمع قارئ ، وانظر ما مضى : ٥١ فى التعليق وما سيأتى : ١٠٩ تعليق : ١ .

وإذْ كان ذلك كذلك، لم يكن القوم بتركهم نقلَ جميع القرآآت السبع، تاركين ما كان عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا. إذْ كانَ الذى فعلوا من ذلك، كان هو النَّظرَ للإسلام وأهله. فكان القيامُ بفعل الواجب عليهم، بهم أولى من فعل ما لو فعلوه، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقربَ منهم إلى السلامة، من ذلك[1]. ٢٣/١

وأما ما كانَ من اختلاف القراءة فى رفع حرفٍ وجرِّه ونصبه، وتسكين حرفٍ وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتّفاق الصورة، فمن معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» — بمعزل[2]. لأنه معلوم أنه لا حرفَ من حروف القرآن — مما اختلفت القراءة فى قراءته بهذا المعنى — يوجب المراء به كفرَ الممارى به فى قول أحد من علماء الأمة. وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراءِ فيه الكفر، من الوجه الذى تنازع فيه المتنازعون إليه، وتظاهرتْ عنه بذلك الرواية[3]، على ما قد قدمنا ذكرها فى أول هذا الباب[4].

فإن قال لنا قائل: فهل لك من علم بالألسن السبعة التى نزل بها القرآن؟ وأى الألسن هى من ألسن العرب؟

---

(١) قوله «من ذلك»، أى من الجناية على الإسلام.

(٢) أى «فمن معنى قول النبى ... بمعزل».

(٣) قوله «وتظاهرت» هى فى المخطوطة مهملة ولا تكاد تقرأ على وجه مرضى.

(٤) نقل ابن حجر فى الفتح ٩ : ٢٧ عن الإمام الحافظ أبى شامة قال: «ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل». وقال ابن عمار أيضاً: «لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغى له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هى المذكورة فى الخبر، وليته إذ اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة». وقال الإمام ابن الجزرى فى النشر ١ : ٣٣ : «أول إمام معتبر جمع القراءات فى كتاب: أبو عبيد القاسم بن سلام، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة وتوفى سنة ٢٢٤» ... ثم قال فى ص ٣٤ : «وكان فى أثره أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد أول من اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط وتوفى سنة ٣٢٤». ثم قال فى ص ٣٥ : «وإنما أطلنا فى هذا الفصل لما بلغنا عن بعض من لا علم له أن القراءات الصحيحة هى التى عن هؤلاء السبعة، وأن الأحرف السبعة التى أشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم هى قراءة هؤلاء السبعة، بل غلب على كثير من الجهال أن القراءات الصحيحة هى التى فى الشاطبية والتيسير ...».

قلنا : أما الألسن الستة التى قد نزلت القراءة بها ، فلا حاجة بنا إلى معرفتها ، لأنا لو عرفناها لم نقرأ اليومَ بها مع الأسباب التى قدمنا ذكرها . وقد قيل إن خمسة منها لعَجُزِ هوَازن ، واثنين منها لقريش وخزاعة . رُوى جميعُ ذلك عن ابن عباس ، وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله . وذلك أن الذى رَوَى عنه : « أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن » ، الكلبى عن أبى صالح ، وأنّ الذى روى عنه : « أن اللسانين الآخرين لسانُ قريش وخزاعة » ، قتادة ، وقتادة لم يلقَه ولم يسمع منه[1] .

٦٥ — حدثنى بذلك بعض أصحابنا ، قال : حدثنا صالح بن نصر الخزاعى ، قال : حدثنا الهيثم بن عدى ، عن سعيد بن أبى عَروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس ، قال : نزل القرآنُ بلسان قُريش ولسان خزاعة ، وذلك أن الدار واحدةٌ .

٦٦ — وحدثنى بعض أصحابنا ، قال : حدثنا صالح بن نصر ، قال : حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبى الأسود الدُّئَلى ، قال : نزل القرآن بلسان الكَعبين : كعب بن عمرو وكعب بن لؤىّ . فقال خالد بن سلمة لسعد بن إبراهيم : ألا تعجبُ من هذا الأعمى ! يَزعم أنّ القرآن نزل بلسان الكعبين ؛ وإنما أنزل بلسان قريش ![2]

---

(١) انظر ما استوعبه ابن حجر فى شرح هذا الباب كله فى فتح البارى ٩ : ٣٠ ، وابن الجزرى فى النشر ١ : ١٩ — ٥٣ ، وفضائل القرآن لابن كثير : ٥٤ — ٨٠ .

(٢) الأثر ٦٦ — وهذا الأثر منقطع أيضاً ، فإن قتادة ولد سنة ٦١ . وأبو الأسود الدئلى مات سنة ٦٩ .

وروى الخطيب فى تاريخ بغداد ٥ : ١٧٣ — ١٧٤ ، نحو هذا مرفوعاً ، بإسناده ، من طريق « أحمد بن عبد الجبار العطاردى حدثنى أبى عن سهل بن شعيب عن ابن سفيان الأسلمى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزل القرآن على لغة الكعبين : كعب بن لؤى ، وهو أبو قريش ، وكعب بن عمرو ، وهو أبو خزاعة » .

وهذا إسناد مظلم ! ! أحمد بن عبد الجبار : ترجمه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ١ / ١ : ٦٢ ، وقال : « كتبت عنه ، وأمسكت عن التحديث عنه لما تكلم الناس فيه » ، ثم روى عن أبيه أبى حاتم قال : « ليس بقوى » . وأما عبد الجبار ، والد أحمد هذا ، فلم أجد له ترجمة قط . وأما سهل ابن شعيب ، فترجمه ابن أبى حاتم أيضاً ج ٢/ ١ : ١٩٩ ، وذكر أنه يروى « عن الشعبى وعبيد الله

قال أبو جعفر : والعجز من هوازن : سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر ابن معاوية ، وثقيف[1] .

وأما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ، إذْ ذكَر نزول القرآن على سبعة أحرفٍ : إن كلها شافٍ كافٍ — فإنه كما قال جل ثناؤه فى صفة القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشِفَاءٌ لِمَا فى الصُّدُورِ وهُدًى ورَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس : ٥٧] ، جعله الله للمؤمنين شفاءً ، يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم من وَساوس الشيطان وَخطراته ، فيَكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته .

ابن عبد الله الكندى » ، ولم يذكره بجرح ولا تعديل . ولم أجد له ترجمة غيرها . وأما «ابن سفيان الأسلمى» ، فما عرفت من هو ؟ وما أظنه من طبقة الصحابة ، إذ لم يدرك ذلك سهل بن شعيب ، وإن كان منهم كان الإسناد منقطعاً .

(١) فى الأصل « وخيثم بن بكر » ، وكذلك فى فضائل القرآن : ٦٧ وهو خطأ . قال ابن كثير فى عقب هذا « وهم عليا هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم ، يعنى بنى دارم » .

﴿القول فى البيان﴾

﴿عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن﴾
﴿من سبعةِ أبوابِ الجنة » ، وذكر الأخبار الواردة بذلك[1]﴾

قال أبو جعفر : اختلفت النقلة فى ألفاظ الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٦٧ — فروى عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان الكتاب الأول نَزَل من باب واحد وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف : زاجرٌ وآمرٌ[2] ، وحلالٌ وحرامٌ ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال ، فأحِلُّوا حلاله وحَرِّموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نُهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا : آمنّا به كلٌّ من عند ربنا .

حدثنى بذلك يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : أخبرنى حَيوَة بن شريح ، عن عقيل بن خالد ، عن سلمة بن أبى سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف ، عن أبيه ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم[3] . ١/٢٤

---

(١) فى المطبوعة : « المروية بذلك » .

(٢) فى المطبوعة « زجر وأمر » ، والصواب من المخطوطة وفضائل القرآن ٦٦ ، وفتح البارى ٩ : ٢٦ .

(٣) الحديث ٦٧ — قال ابن حجر فى الفتح ٩ : ٢٦ وذكر الخبر السالف بهذا الإسناد فقال : « قال ابن عبد البر هذا حديث لا يثبت ، لأنه من رواية أبى سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود ، ولم يلق ابن مسعود » ، ثم قال : « وصحح الحديث المذكور ابن حبان والحاكم ، وفى تصحيحه نظر لانقطاعه بين أبى سلمة وابن مسعود . وقد أخرجه البيهقى من وجه آخر عن الزهرى مرسلا ، وقال : هذا مرسل جيد » . وانظر فضائل القرآن ٦٦ . وانظر مسند أحمد فى الحديث : ٤٢٥٢ عن فلفلة الجعفى عن ابن مسعود : « إن القرآن نزل على نبيكم صلى الله عليه وسلم من سبعة أبواب على سبعة أحرف — أو قال : حروف — وإن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد » .

ورُوِى عن أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه وسلم مُرْسَلاً غيرُ ذلك :

٦٨ — حدثنا محمد بن بشار ، قال حدثنا عباد بن زكريا ، عن عوف ، عن أبي قِلابة ، قال : بلغَنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنزل القرآنُ على سبعة أحرفٍ ، أمرٍ وزجرٍ وترغيبٍ وترهيب وجدل وقصص ومثل[١] .

٦٩ — وروى عن أبيّ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، ما حدثنى به أبو كريب ، قال : حدثنا محمد بن فضيل ، عن إسمعيل بن أبي خالد ، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبيّ ابن كعب ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرفٍ واحدٍ ، فقلت : ربّ خففْ عن أمّتى . قال : اقرأهُ على حرفين . فقلت : رب خفف عن أمتى . فأمرنى أن أقرأه على سبعة أحرف من سبْعة أبواب من الجنة ، كلها شافٍ كافٍ[٢] .

وروى عن ابن مسعود من قِبَلِه خلافُ ذلك كله .

٧٠ — وهو ما حدثنا به أبو كرُيب ، قال : حدثنا المحاربى ، عن الأحوص ابن حكيم ، عن ضَمْرة بن حبيب ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : إنّ الله أنزلَ القرآن على خمسة أحرف : حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال . فأحِلّ الحلال ، وحَرِّمِ الحرام، واعمل بالمحكم، وآمن بالمتشابه، واعتبر بالأمثال[٣] .

---

(١) الحديث ٦٨ — هذا حديث مرسل ، فلا تقوم به حجة .

(٢) الحديث ٦٩ — هذا إسناد صحيح . وهو أحد روايات الحديث رقم : ٣١ الماضى ، وقد أشار الحافظ إلى هذه الرواية ، فى الفتح ٩ : ٢١ . ووقع فى الإسناد فى نسخ الطبرى هنا « عبيد الله ابن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى » ، وهو خطأ ، صوابه « عبد الله » ، كما فى الرواية الماضية . وليس فى الرواة الذين رأينا تراجمهم « عبيد الله بن عيسى . . . » . ثم هنا أيضاً « عن أبيه عن جده » ، وأخشى أن يكون خطأ أيضاً ، إذ الحديث رواه عبد الله بن عيسى عن جده مباشرة ، كما مضى ، وكما فى رواية مسلم فى صحيحه ١ : ٢٢٥ لذلك الحديث .

(٣) الخبر ٧٠ — هذا موقوف على ابن مسعود ، من كلامه ، كما صرح بذلك الطبرى هنا بقوله « وروى عن ابن مسعود من قبله » . وذكره ابن كثير فى الفضائل : ٦٦ بعد الحديث

وكل هذه الأخبار التي ذكرناها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متقاربة المعانى ، لأن قول القائل: فلان مقيم على باب من أبواب هذا الأمر ، وفلان مقيم على وَجْه من وجوه هذا الأمر ، وفلان مُقيمٌ على حرفٍ من هذا الأمر — سواءٌ . ألا ترى أن الله جلّ ثناؤه وصف قوماً عبدوه على وجه من وُجوه العبادات ، فأخبر عنهم أنهم عبدوه على حرف فقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ [سورة الحج : ١١] ، يعنى أنهم عبدوه على وجه الشك ، لا على اليقين والتسليم لأمره .

فكذلك روايةُ من روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نزل القرآن من سبعة أبواب » و « نزل على سبعة أحرف » سواءٌ ، معناهما مؤتلف ، وتأويلهما غير مُختلف في هذا الوجه .

ومعنى ذلك كله ، الخبرُ منه صلى الله عليه وسلم عما خصه الله به وأمتَه ، من الفضيلة والكرامة التي لم يؤتها أحداً في تنزيله .

وذلك أنّ كل كتاب تقدّم كتابَنا نزولُه على نبيّ من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم ، فإنما نزل بلسان واحد ، متى حُوِّل إلى غير اللسان الذى نزل به ، كان ذلك له ترجمة وتفسيراً[1] ، لا تلاوةً له على ما أنزلهُ الله .

وأنزل كتابنا بألسُن سبعة ، بأيِّ تلك الألسن السَّبعة تلاه التالى ، كان لهُ تالياً على ما أنزله الله لا مترجِماً ولا مفسِّراً ، حتى يحوِّله عن تلك الألسن السبعة إلى غيرها ، فيصير فاعلُ ذلك حينئذٍ — إذا أصاب معناه — مُترجماً له . كما كان التالى

٦٧ الماضى ، جعله رواية أخرى له ، قال : « ثم رواه عن أبي كريب . . . عن ابن مسعود ، من كلامه . وهو أشبه » .

(١) يستعمل الطبرى « الترجمة » وما يشتق منه بمعنى البيان والتفسير والشرح ، لا بمعنى نقل الكلام من لسان إلى لسان يباينه . والترجمة التى يشير إليها هنا هى ما مضى فى خبر الأحرف التى نزل بها القرآن من مثل قولك « هلم . وأقبل » فإذا كان الكتاب الأول قد نزل وفيه ، « هلم » كان القارئ إذا قرأ « أقبل » ، وهى بمعناها ، مفسراً للكتاب لا تالياً له . انظر ما سيأتى : ٣٢ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧٥ من مطبوعة بولاق .

لبعض الكتب التي أنزلها الله بلسان واحد — إذا تلاه بغير اللسان الذى نزّل به — لهُ مترجماً ، لا تالياً على ما أنزله الله به .

فذلك معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : كانَ الكتابُ الأول ، نزل على حرْفٍ واحدٍ ، ونزل القرآن على سبعة أحرف .

وأما معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الكتاب الأول نَزَل من باب واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب » ، فإنه صلى الله عليه وسلم عنى بقوله : « نزل الكتاب الأول من باب واحد » ، والله أعلم ، ما نزل من كتب الله على من أنزله من أنبيائه ، خالياً من الحدود والأحكام والحلال والحرام ، كزبور داود ، الذى إنما هو تذكير ومواعظ ، وإنجيل عيسى ، الذى هو تمجيدٌ ومحامد وحضٌّ على الصفح والإعراض — دون غيرها من الأحكام والشرائع — وما أشبه ذلك من الكتب التي نزلت ببعض المعاني السبعة التي يحوى جميعَها كتابُنا ، الذى خصّ الله به نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمّته . فلم يكن المتعبِّدون بإقامته يجدون لِرِضَى الله تعالى ذكره مطلباً ينالون به الجنة ، ويستوجبون به منه القُرْبَة ، إلا من الوجه الواحد الذى أنزِل به كتابهم ، وذلك هو الباب الواحد من أبواب الجنة الذى نزل منه ذلك الكتاب . ٢٥/١

وخص الله نبيَّنا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمّتَه ، بأن أنزل عليهم كتابَه على أوجه سبعةٍ من الوجوه التي ينالون بها رضوان الله ، ويدركون بها الفوز بالجنة ، إذا أقاموها[1] ، فكلُّ وجه من أوجُهِه السبعة بابٌ من أبواب الجنة التي نزل منها القرآن . لأن العامل بكل وجه من أوجُهِه السبعة ، عاملٌ في باب من أبواب الجنة ، وطالب من قِبَله الفوز بها . والعملُ بما أمر الله جل ذكره في كتابه ، بابٌ من أبواب الجنة ، وتركُ ما نهى الله عنه فيه ، بابٌ آخر ثانٍ من أبوابها ؛ وتحليلُ ما أحلّ الله فيه ، بابٌ ثالث من أبوابها ؛ وتحريمُ ما حرّم الله فيه ، باب رابعٌ من أبوابها ؛

(١) في المطبوعة : «فلكل وجه من أوجهه السبعة باب من أبواب الجنة الذى نزل منه القرآن » . وهو تغيير لا جدوى فيه .

والإيمانُ بمحكمه المبين ، باب خامسٌ من أبوابها ؛ والتسليمُ لمتشابهه الذى استأثر الله بعلمه وحَجَب علمه عن خلقه والإقرارُ بأن كل ذلك من عند ربّه ، باب سادسٌ من أبوابها ؛ والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بعظاته ، باب سابعٌ من أبوابها .

فجميع ما فى القرآن — من حروفه السبعة ، وأبوابه السبعة التى نزل منها — جعله الله لعباده إلى رضوانه هادياً ، ولهم إلى الجنة قائداً . فذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن من سبعة أبواب الجنة » .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم فى القرآن : « إن لكلّ حرف منه حدًّا » ، يعنى[1] لكل وجه من أوجهه السبعة حد حدّه الله جل ثناؤه ، لايجوز لأحد أن يتجاوزه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وإن لكل حرف منها ظَهراً وبطناً » ، فظهره : الظاهر فى التلاوة ، وبطنه : ما بطن من تأويله[2] .

وقوله : « وإن لكلّ حدٍّ من ذلك مُطَّلَعاً » ، فإنه يعنى أنّ لكل حدٍّ من حدود الله التى حدّها فيه — من حلالٍ وحرامٍ ، وسائر شرائعه — مقداراً من ثواب الله وعقابه ، يُعاينه فى الآخرة ، ويَطَّلع عليه ويلاقيه فى القيامة . كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو أنّ لى ما فى الأرض من صفراءَ وبيضاءَ لافتديتُ به من هَوْلِ المطَّلَع » ، يعنى بذلك ما يطّلع عليه ويهجُم عليه من أمر الله بعد وفاته .

---

(١) انظر ما مضى فى خبر عبد الله بن مسعود . الحديث رقم : ١٠ والتعليق عليه .

(٢) الظاهر : هو ما تعرفه العرب من كلامها ، وما لا يعذر أحد بجهالته من حلال وحرام . والباطن : هو التفسير الذى يعلمه العلماء بالاستنباط والفقه . ولم يرد الطبرى ما تفعله طائفة الصوفية وأشباههم فى التلعب بكتاب الله وسنة رسوله ، والعبث بدلالات ألفاظ القرآن ، وادعائهم أن لألفاظه « ظاهراً » هو الذى يعلمه علماء المسلمين ، و « باطناً » يعلمه أهل الحقيقة ، فيما يزعمون .

﴿ القول فى الوجوه التى من قبلها يُوصَل إلى معرفة تأويل القرآن ﴾

قال أبو جعفر : قد قلنا فى الدلالة على أن القرآن كله عربى، وأنه نزل بألسُن بعض العرب دونَ ألسن جميعها ، وأن قراءة المسلمين اليوم — ومصاحفَهم التى هى بين أظهرهم — ببعض الألسن التى نزل بها القرآن دون جميعها . وقلنا — فى البيان عمّا يحويه القرآنُ من النور والبرهان ، والحكمة والتِّبْيان[1] ، التى أودعها الله إياه : من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، ووعده ووعيده، ومحكمه ومتشابهه ، ولطائف حُكَمه — ما فيه الكفاية لمن وُفِّق لفهمه .

ونحن قائلون فى البيان عن وُجوه مطالب تأويله :

قال الله جل ذكره وتقدست أسماؤه، لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[سورة النحل : ٤٤]، وقال أيضاً جل ذكره: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[سورة النحل : ٦٤]، وقال : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[سورة آل عمران : ٧].

فقد تبين ببيان الله جلّ ذكره :

---

(١) فى المطبوعة : « والبيان » .

أنّ مما أنزل الله من القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ما لا يُوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم . وذلك تأويل جميع ما فيه : من وجوه أمره — واجبه وَندْبِه وإرْشاده — ، وصنوفِ نَهيه ، ووظائف حقوقه وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، ومقادير اللازم بعضَ خلْقه لبعض ، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يُدرَك علمُها إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمّته . وهذا وجهٌ لا يجوز لأحد القول فيه ، إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم له تأويلَه[1] ، بنصٍّ منه عليه ، أو بدلالة قد نصَبها ، دالّةٍ أمّتَه على تأويله . ٢٦/١

وأنّ منه مالا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار . وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة ، وأوقات آتية ، كوقت قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، ونزول عيسى بن مريم ، وما أشبه ذلك: فإن تلك أوقاتٌ لا يعلم أحدٌ حدودَها ، ولا يعرف أحدٌ من تأويلها إلا الخبرَ بأشراطها ، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه . وبذلك أنزل ربُّنا محكم كتابه[2] ، فقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمواتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٧] . وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شيئاً من ذلك، لم يدلّ عليه إلا بأشراطه دون تحديده بوقته كالذى روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه ، إذْ ذكر الدجّال : إنْ يخرجْ وأنا فيكُم، فأنا حَجِيجُه ، وإن يخرجْ بعدى ، فالله خليفتى عليكم »[3] ، وما أشبه

---

(١) فى المطبوعة : « له بتأويله » .

(٢) فى المطبوعه : « وكذلك أنزل ربنا فى محكم كتابه » ، وهو تغيير وزيادة لغير فائدة .

(٣) قال ابن حجر فى الفتح ١٣ : ٨٤ فى شرح حديث ابن عمر الذى أخرجه البخارى ، وذكر الدجال فقال : « وما من نبي إلا أنذره قومه » ، قال : « فى بعض طرقه : إن يخرج فيكم فأنا حجيجه » . وهو إشارة إلى حديث النواس بن سمعان ، مطولا ، فى صحيح مسلم ٢ : ٣٧٦ ، وفيه : « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتى على

ذلك من الأخبار – التى يطول باستيعابها الكتاب – الدالّة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده علمُ أوقاتِ شىء منه بمقادير السِّنين والأيام ، وأن الله جل ثناؤه إنما كان عرَّفه مجيئه بأشراطه ، ووقّته بأدلته .

وأن منه ما يعلم تأويلَه كلُّ ذى علم باللسان الذى نزل به القرآن . وذلك : إقامةُ إعرابه، ومعرفةُ المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها ، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها ، فإنّ ذلك لا يجهله أحدٌ منهم . وذلك كسامعٍ منهم لو سمع تالياً يتلو : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١١، ١٢]، لم يجهلْ أنّ معنى الإفساد هو ما ينبغى تركهُ مما هو مضرَّة ، وأن الإصلاحَ هو ما ينبغى فعله مما فعلهُ منفعةٌ ، وإنْ جَهِل المعانىَ التى جعلها الله إفساداً، والمعانىَ التى جعلها الله إصْلاحاً . فالذى يعلمه ذو اللسان – الذى بلسانه نزل القرآنُ – من تأويل القرآن ، هو ما وصفتُ : مِنْ معرفة أعيان المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها ، والموصوفات بصفاتها الخاصة ، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيآتها التى خص الله بعلمها نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، فلا يُدرك علمُهُ إلا ببيانه ، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه .

وبمثل ما قلنا من ذلك رُوِى الخبر عن ابن عباس :

٧١ – حدثنا محمد بن بشّار ، قال : حدثنا مؤمَّل ، قال : حدثنا سفيان، عن أبى الزناد ، قال : قال ابن عباس : التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ : وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها ، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره .

قال أبو جعفر : وهذا الوجهُ الرابع الذى ذكره ابن عباس : مِنْ أنّ أحداً

كل مسلم » . وانظر أيضاً مجمع الزوائد ٧ : ٣٤٧ – ٣٤٨ ، ٣٥٠ – ٣٥١ .

وقوله « حجيجه » أى محاجه ومغالبه بإظهار الحجة عليه .

لا يُعذر بجهالته ، معنى غيرُ الإبانة عن وُجوه مَطالب تأويله . وإنما هو خبرٌ عن أنّ من تأويله ما لا يجوز لأحد الجهل به . وقد روى بنحو ما قلنا فى ذلك أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرٌ فى إسناده نظر .

٧٢ ـ حدثنى يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت عمرو بن الحارث يحدث ، عن الكلبىّ ، عن أبى صالح ، مولى أمّ هانىء ، عن عبد الله بن عباس : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنزِل القرآن على أربعة أحرفٍ : حلالٌ وحرامٌ لا يُعذَر أحدٌ بالجهالة به ، وتفسيرٌ تفسّره العرب ، وتفسيرٌ تفسّره العلماء ، ومتشابهٌ لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره ، ومن ادّعى علمه سوى الله تعالى ذكره فهو كاذب[1] .

(١) الحديث ٧٢ – إنما قال الطبرى « فيه نظر » – : لأن الذى رواه هو الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . وقد رد الطبرى آنفاً خبراً روى بمثل هذا الإسناد فقال : إنه ليس من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله . انظر ص : ٦٦ .

﴿ذكر بعض الأخبار﴾

﴿التى رُويت بالنهى عن القولِ فى تأويل القرآن بالرَّأى﴾ ٢٧/١

٧٣ — حدثنا يحي بن طلحة اليربوعى ، قال : حدثنا شَريك ، عن عبد الأعلى ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قالَ فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعدَه من النار[1] .

٧٤ — حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا يحي بن سعيد ، قال : حدثنا سفيان ، قال : حدثنا عبد الأعلى — هو ابن عامر الثعلبي — ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : من قال فى القرآن برأيه — أو بما لا يعلم — فليتبوأ مقعدَه من النار .

٧٥ — وحدثنا أبوكريب ، قال : حدثنا محمد بن بشر ، وقَبيصة ، عن سفيان ، عن عبد الأعلى ، قال : حدثنا سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله

---

(١) الأحاديث ٧٣ — ٧٦ — تدور هذه الأحاديث كلها على عبد الأعلى بن عامر الثعلبى ، وقد تكلموا فيه . « قال أحمد : ضعيف الحديث . وقال أبو زرعة : ضعيف الحديث ، ربما رفع الحديث وربما وقفه . وقال ابن عدى : يحدث بأشياء لا يتابع عليها ، وقد حدث عنه الثقات . وقال يعقوب بن سفيان : فى حديثه لين وهو ثقة . وقال الدارقطنى : يعتبر به . وحسن له الترمذى ، وصحح له الحاكم ، وهو من تساهله . وصحح الطبرى حديثه فى الكسوف » . تهذيب التهذيب ٦ : ٩٤ — ٩٥ . وقد روى أحمد هذا الحديث من طريق سفيان الثورى عن عبد الأعلى : ٢٠٦٩ ، ورواه أيضاً من طريق أبى عوانة عن عبد الأعلى رقم : ٣٠٢٥ ، بلفظ : « من كذب على القرآن بغير علم » . وقلنا فى شرح المسند : « إسناده ضعيف لضعف عبد الأعلى الثعلبى » ورواه أحمد أيضاً من أوجه أخر ، كلها من رواية عبد الأعلى. وقال ابن كثير فى التفسير ١ : ١١ : « هكذا أخرجه الترمذى والنسائى من طرق عن سفيان الثورى ، به . ورواه أبو داود عن مسدد عن أبى عوانة عن عبد الأعلى ، به ، مرفوعاً وقال الترمذى : هذا حديث حسن » . وأخشى أن يكون قول ابن جرير بعد : « وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا . . . » ، دالا على أنه يصحح حديثه هذا كما صحح حديثه فى الكسوف .

صلى الله عليه وسلم : من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعدَه من النار .

٧٦ ــ حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا الحكم بن بَشير ، قال : حدثنا عمرو بن قيس المُلائى ، عن عبد الأعلى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعدَه من النار .

٧٧ ــ حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن ليث ، عن بكر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : من تكلَّم فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعدَه من النار .

٧٨ ــ وحدثنى أبو السائب سَلْم بن جُنادة السُّوَائى ، قال : حدثنا حفص ابن غياث ، عن الحسن بن عُبيد الله ، عن إبراهيم ، عن أبى معمر ، قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : أىُّ أرضٍ تُقِلُّنى ، وأىُّ سماءٍ تُظِلُّنى ، إذا قلتُ فى القرآن ما لا أعلم[1] !

٧٩ ــ حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا ابن أبى عدى ، عن شعبة ، عن سليمان ، عن عبد الله بن مرة ، عن أبى معمر ، قال : قال أبو بكر الصديق : أىُّ أرضٍ تُقِلُّنى ، وأىُّ سماءٍ تظلّنى ، إذا قلتُ فى القرآن برأيى ــ أو : بما لا أعلم .

قال أبو جعفر : وهذه الأخبار شاهدةٌ لنا على صحة ما قُلنا : من أنّ ما كان من تأويل آى القرآن الذى لا يُدرَك علمه إلا بنَصِّ بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بنَصْبه الدلالة عليه ــ فغير جائز لأحد القِيلُ فيه برأيه . بل القائلُ فى ذلك برأيه ــ وإن أصاب الحق فيه ــ فمخطئٌ فيما كانَ من فِعله ، بقيله فيه برأيه ، لأن إصابته ليستْ إصابة مُوقن أنه محقٌّ ، وإنما هو إصابة خارصٍ وظانٍّ . والقائل

(١) الخبر ٧٨ ــ فى المخطوطة والمطبوعة : « سالم بن جنادة » ، وهو خطأ . وفى المخطوطة « أبى نعم » مكان « أبى معمر » ، وهو خطأ . وأبو معمر هو : عبد الله بن سخبرة الأزدى ، تابعى ثقة ، أرسل الحديث عن أبى بكر . وإبراهيم الذى حدث عنه هو : إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى .

وقوله « تقلنى » : أى تحملنى . أقل الشىء واستقله : رفعه وحمله . وانظر طرق هذا الخبر فى تفسير ابن كثير ١ : ١٢ .

فى دين الله بالظنّ ، قائلٌ على الله ما لم يعلم . وقد حرَّم الله جلّ ثناؤه ذلك فى كتابه على عباده ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣]. فالقائل فى تأويل كتاب الله ، الذى لايدرك علمه إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعل الله إليه بيانه — قائلٌ بما لا يعلمُ وإن وافق قيله ذلك فى تأويله ، ما أراد الله به من معناه . لأن القائل فيه بغير علم ، قائلٌ على الله ما لا علم له به . وهذا هو معنى الخبر الذى :—

٨٠ — حدثنا به العباس بن عبد العظيم العنبرى ، قال : حدثنا حبَّان بن هلال ، قال : حدثنا سهيل أخو حزم ، قال : حدثنا أبو عمران الجونىّ[1] ، عن جندب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال فى القرآن برأيه فأصاب ، فقد أخطأ[2] .

يعنى صلى الله عليه وسلم أنه أخطأ فى فعله ، بقيله فيه برأيه ، وإن وافق قيلُه ذلك عينَ الصَّواب عند الله . لأن قيله فيه برأيه ، ليس بقيل عالم أنّ الذى قال فيه من قول حقٌّ وصوابٌ . فهو قائل على الله ما لايعلم ، آثم بفعله ما قد نُهِيَ عنه وحُظِر عليه .

(١) فى المطبوعة « سهيل بن أبى حزم » ، وهو نفسه « سهيل أخو حزم » . وإنما قيل « سهيل أخو حزم » تعريفاً له بأخيه « حزم بن أبى حزم القطعى » ، إذ كان أوثق منه وأشهر . و « سهيل » هذا قال البخارى فى التاريخ الكبير ٢ / ٢ : ١٠٧ : « ليس بالقوى عندهم » ، وروى ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ٢ / ١ : ٢٤٧ — ٢٤٨ عن أبيه ، قال : « سهيل بن أبى حزم : ليس بالقوى ، يكتب حديثه ولا يحتج به ، وحزم أخوه أتقن منه » . وفى المطبوعة أيضاً « أبو عمران الجوينى » ، وهو خطأ ، وأبو عمران هو : عبد الملك بن حبيب الأزدى البصرى .

(٢) الحديث ٨٠ — قال ابن كثير فى التفسير ١ : ١١ — ١٢ ، ونقل الخبر عن الطبرى : « وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذى والنسائى من حديث سهيل بن أبى حزم القطعى . وقال الترمذى : غريب . وقد تكلم بعض أهل العلم فى سهيل » .

﴿ ذكر الأخبار التى رُويت ﴾

﴿ فى الحضّ على العلم بتفسير القرآن ، ومن كان يفسّره من الصَّحابة ﴾

٨١ - حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق المروزى، قال سمعت أبى يقول : حدثنا الحسين بن واقد ، قال : حدثنا الأعمش ، عن شَقيق ، عن ابن مسعود ، قال : كانَ الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عَشْر آياتٍ لم يجاوزهُنَّ حتى يعرف معانيهُنَّ ، والعملَ بهنَّ[١] .

١/٢٨ ٨٢ - حدثنا ابن حميد قال: حدثنا جَرير ، عن عطاء ، عن أبى عبدالرحمن ، قال : حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا : أنهم كانوا يستقرِئون من النبى صلى الله عليه وسلم ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعاً[٢] .

٨٣ - وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا جابر بن نوح ، قال : حدثنا الأعمش ، عن مُسْلم ، عن مَسْروق ، قال : قال عبد الله : والذى لا إله غيره، ما نزلتْ آية فى كتاب الله إلاَّ وأنا أعلم فيم نزَلتْ ؟ وأينَ أنزلت؟ ولو أعلم مكانَ أحدٍ أعلمَ بكتاب الله مِنِّى تنالُه المطايا لأتيته[٣] .

---

(١) الحديث ٨١ - هذا إسناد صحيح . وهو موقوف على ابن مسعود ، ولكنه مرفوع معنى ، لأن ابن مسعود إنما تعلم القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهو يحكى ما كان فى ذلك العهد النبوى المنير .

(٢) الحديث ٨٢ - هذا إسناد صحيح متصل . أبو عبد الرحمن : هو السلمى ، واسمه عبد الله ابن حبيب ، وهو من كبار التابعين . وقد صرح بأنه حدثه الذين كانوا يقرئونه ، وأنهم « كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم » ، فهم الصحابة . وإبهام الصحابى لا يضر ، بل يكون حديثه مسنداً متصلا .

(٣) الحديث ٨٣ - أخرجه البخارى ، انظر فتح البارى ٩ : ٤٥ - ٤٦ ، ولفظه « تبلغه الإبل لركبت إليه » .

٨٤ — وحدثني يحيى بن إبراهيم المسعودى، قال : حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق ، قال : كان عبدُ الله يقرأ علينا السُّورة ، ثم يحدِّثنا فيها ويفسِّرها عامَّةَ النهار [١].

٨٥ — حدثني أبو السائب سلم بن جُنادة[٢]، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن شقيق ، قال : استعمل علىٌّ ابنَ عباسٍ على الحج ، قال : فخطب الناسَ خطبة لو سمعها الترك والرُّوم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سُورة النور ، فجعل يفسرها .

٨٦ — وحدثنا محمد بن بشار ، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال: حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل شقيق بن سلمة ، قال : قرأ ابنُ عباسٍ سورة البقرة ، فجعل يُفسِّرها ، فقال رجل : لو سمعتْ هذا الديلمُ لأسلمتْ[٣] .

٨٧ — وحدثنا أبو كريب، قال : حدثنا أبو يمَان : عن أشعث بن إسحق، عن جعفر ، عن سعيد بن جُبير ، قال: من قرأ القرآنَ ثم لم يُفسِّره ، كان كالأعمى أو كالأعرابى[٤] .

---

(١) الحديث ٨٤ — شيخ الطبرى : هو يحيى بن إبراهيم بن محمد بن أبى عبيدة بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود . مترجم فى التهذيب . وجده « محمد » ، وجد أبيه « أبو عبيدة » واسمه « عبد الملك بن معن » — مترجمان فيه أيضاً . ولم نجد ترجمة لأبيه « إبراهيم بن محمد » .

(٢) فى المخطوط والمطبوع « سالم » ، وانظر ما سلف ص : ٨٧ رقم : ١

(٣) الخبران ٨٥ — ٨٦ — ذكرهما الحافظ ابن حجر فى الإصابة ٤ : ٩٣ : فذكر أولهما « فى رواية أبى العباس السراج من طريق أبى معاوية عن الأعمش». وذكر ثانيهما من رواية « يعقوب ابن سفيان عن قبيصة عن سفيان » ، وهو الثورى.

(٤) الأثر ٨٧ — أشعث بن إسحق بن سعد بن مالك بن عامر القمى : ثقة ، وثقه ابن معين وغيره . وله ترجمة فى الكبير للبخارى ١ / ١ : ٤٢٨ ، وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١ / ١ : ٢٦٩ . وشيخه « جعفر » : هو جعفر بن أبى المغيرة الخزاعى القمى . وأما الراوى عن أشعث ، فقد ذكر هنا باسم « أبو يمان » ، و « أبو اليمان » هو الحكم بن نافع، وهو من هذه الطبقة ، ولكن لم يذكر أنه يروى عن «أشعث» . والراجح عندنا أن صوابه «حدثنا ابن يمان» . وابن يمان : هو يحيى بن يمان العجلى الكوفى ، وقد ذكر فى الرواة عن أشعث ، وترجمه البخارى فى الكبير ٤ / ٢ : ٣١٣ وقال : « سمع سفيان الثورى وأشعث القمى » .

٨٨ ــ وحدثنا أبو كُريب ، قال: ذكر أبو بكر بن عياش : الأعمش ، قال : قال أبو وائل : وَلى ابنُ عباس الموسمَ ، فخطبهم ، فقرأ على المنبر سُورة النور ، والله لو سمعها الترك لأسلموا . فقيل له : حدّثنا به عن عاصم ؟ فسكت[١] .

٨٩ ــ وحدثنا أبو كريب ،قال: حدثنا ابن إدريس ،قال : سمعتُ الأعمش ، عن شقيق ، قال : شهدت ابن عباس وَولىَ الموسم ، فقرأ سورة النور على المنبر ، وفسرها ، لو سمعت الروم لأسلمت[٢] !

قال أبو جعفر : وفى حثّ الله عز وجلّ عباده على الاعتبار بما فى آى القرآن من المواعظ والبينات[٣] ــ بقوله جل ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٩] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٢٧ ، ٢٨] وما أشبه ذلك من آى القرآن ، التى أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آى القرآن ، والاتّعاظ بمواعظه ــ ما يدلّ على أنّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه .

لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: «اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام» ــ إلاّ على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به . فأما قبلَ ذلك ، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل . كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه،

---

(١) الخبر ٨٨ ــ يريد : أن أبا بكر بن عياش قال : «الأعمش» ، ولم يقل : «حدثنا الأعمش» ولم يذكر من الذى حدثه عنه . ففهم السامعون أنه دلس شيخه الذى رواه عنه عن الأعمش ، وظنوا أنه عاصم بن أبى النجود ، فقالوا له «حدثنا به عن عاصم» ، فأبى وسكت . فلعله سمعه من شيخ آخر ضعيف .

(٢) الخبر ٨٩ ــ ابن إدريس : هو عبد الله بن إدريس الأودى .

(٣) فى المطبوعة «المواعظ والتبيان» .

لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكَم : « اعتبر بما فيها من الأمثال ، وادّكر بما فيها من المواعظ » — إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه ، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم[1] . فأما وهى جاهلة بمعانى ما فيها من الكلام والمنطق ، فمحالٌ أمرُها بما دلّت عليه معانى ما حوته من الأمثال والعِبَر . بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به ، إلا بعدَ العلم بمعانى المنطق والبيان الذى فيها .

فكذلك ما فى آى كتاب اللهِ من العبر والِحكم والأمثال والمواعظ ، لا يجوز أن يقال : « اعتبرْ بها » إلا لمن كان بمعانى بيانه عالماً ، وبكلام العرب عارفاً ؛ وإلا بمعنى الأمر — لمن كان بذلك منهُ جاهلاً — أنْ يعلم معانى كلام العرب ، ثم يتدبَّره بعدُ ، ويتعظ بحِكَمه وصُنوف عِبَرِه .

فإذْ كان ذلك كذلك — وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره وحثّهم على الاعتبار بأمثاله — كان معلوماً أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدُلُّ عليه آيُه جاهلاً . ٢٩/١

وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون ، صحّ أنهم — بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الذى استأثر الله بعلمه منه دون خلقه ، الذى قد قدّمنا صفتَه آنفاً — عارفون . وإذْ صَحَّ ذلك فسَدَ قول من أنكر تفسيرَ المفسرين — من كتاب الله وتنزيلِه — ما لم يحجب عن خَلقه تأويله .

---

(١) فى المخطوط والمطبوع : « نبهه عليه » ، وهو لا يستقيم لاضطراب الضمائر . وقد أعاد الطبرى ضمائر هذه الجملة مرة على « بعض » من قوله « بعض أصناف الأمم » فذكر وأفرد . وذلك قوله « أنشد ... واعتبر ... وادكر » . ثم أعاد الضمير فى سائر الجمل على « أصناف الأمم ... » فأنث وجمع ، وذلك قوله « نبهها . . . وهى جاهلة . . . فمحال أمرها . . . » .

﴿ذكر الأخبار﴾

﴿التي غلِطَ في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن﴾

فإن قال لنا قائل: فما أنت قائلٌ فيما :ـــ

٩٠ ـــ حدثكم به العباس بن عبد العظيم ، قال : حدثنا محمد بن خالد ابن عَثْمة ، قال : حدثني جعفر بن محمد الزبيري ، قال: حدثني هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُفسِّر شيئاً منَ القرآن إلا آياً بعَددٍ ، علَّمهنَّ إياه جبريلُ.

٩١ ـــ حدثنا أبو بكر محمد بن يزيد الطرسوسي ، قال: أخبرنا معْن ، عن جعفر بن خالد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : لم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم يفسر شيئاً من القرآن ، إلا آياً بعَددٍ ، علمهنَّ إياه جبريل عليه السلام[١] .

---

(١) الحديث ٩٠ ، ٩١ – هو بإسنادين ، ونقلهما ابن كثير في التفسير ١ : ١٤ – ١٥ عن الطبري ، وقال : « حديث منكر غريب . وجعفر هذا : هو ابن محمد بن خالد بن الزبير العوام القرشي الزبيري ، قال البخاري : لا يتابع في حديثه . وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي : منكر الحديث ». وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ : ٣٠٣ ، وقال : « رواه أبو يعلى ، والبزار بنحوه . وفيه راو لم يتحرر اسمه عند واحد منهما ، وبقية رجاله رجال الصحيح . أما البزار فقال : عن حفص أظنه ابن عبد الله عن هشام بن عروة. وقال أبو يعلى: عن فلان بن محمد بن خالد عن هشام» . أما ما ذكر عن البزار ، فإنه لم يقع له الراوي بنسبه ، ووقع له باسم « حفص » فظنه « ابن عبد الله » ، ولعله تصحف عليه في نسخته عن « جعفر » أو تصحف من الناسخين ، فظنه « جعفر بن عبد الله بن زيد بن أسلم » . و «جعفر ابن عبد الله » هذا : مترجم في التهذيب ، وذكر أنه وقع اسمه في بعض نسخ مسند مالك للنسائي « حفص ابن عبد الله » . وأيا ما كان فقد بان خطأ البزار في ظنه ، وأن الراوي هو « جعفر بن محمد بن خالد الزبيري » .

و « جعفر الزبيري » ، راوي هذا الحديث : ذكر في الإسناد الثاني منسوباً إلى جده ، وهو جعفر ابن محمد بن خالد ، كما بينه ابن كثير ، وكما ترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١ / ١ : ٤٨٧ – ٤٨٨ ، وابن حجر في لسان الميزان ٢ : ١٢٤ . وترجمه البخاري في الكبير ١ / ٢ : ١٨٩

٩٢ — وحدثنا أحمد بن عَبدة الضبي ، قال : حدثنا حماد بن زيد ، قال : حدثنا عُبيد الله بن عمر ، قال : لقد أدركت فقهاء المدينة ، وإنهم ليغلظون القول في التفسير[1] ، منهم : سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيَّب ، ونافع .

٩٣ — وحدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا بشر بن عمر ، قال : حدثنا مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، قال : سمعت رجلا يسأل سعيد بن المسيب عن آيةٍ من القرآن ، فقال : لا أقول في القرآن شيئاً .

٩٤ — حدثنا يونس ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرني مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سُئل عن تفسير آية من القرآن ، قال : أنا لا أقول في القرآن شيئاً .

منسوباً لجده ، ثم قال : « قال لى خالد بن مخلد : حدثنا جعفر بن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام . . . وقال معن : عن جعفر بن خالد » .

والراجح عندى أنه « جعفر بن محمد بن خالد » ، لما ذكرنا ، ولأن ابن سعد ترجم لجده « خالد ابن الزبير » ٥ : ١٣٧ ، وذكر أولاده ، وفيهم « محمد الأكبر » و « محمد الأصغر » ، ولم يذكر أن له ولداً اسمه « جعفر » .

وسيأتى أن يعل الطبرى نفسه هذين الإسنادين بأن جعفراً راويهما « ممن لا يعرف فى أهل الآثار » . ص: ٨٩ وقد نقل ابن كثير أن البخارى قال فيه : « لا يتابع فى حديثه » ، وكذلك نقل الذهبى عنه فى الميزان ، وتبعه ابن حجر فى لسان الميزان . ولكن البخارى ترجم له فى التاريخ الكبير ، فلم يقل شيئاً من هذا ولم يذكر فيه جرحاً ، وكذلك ابن أبى حاتم لم يذكر فيه جرحاً ، ولم يذكره البخارى ولا النسائى فى الضعفاء . ونقل ابن حجر أن ابن حبان ذكره فى الثقات . وأن يذكره البخارى فى التاريخ دون جرح أمارة توثيقه عنده . وهذان كافيان فى الاحتجاج بروايته . ولئن لم يعرفه الطبرى فى أهل الآثار لقد عرفه غيره .

وفى الإسناد الأول من هذين « محمد بن خالد ابن عثمة » ، وقد ترجمه البخارى فى الكبير ١/١ : ٧٣ — ٧٤ ، وقال : « محمد بن خالد ، ويقال : ابن عثمة ، وعثمة أمه » ، ونحو ذلك فى الجرح والتعديل ٣ / ٢ : ٢٤٣ ، فينبغى أن ترسم « ابن » بالألف ، وهى مرفوعة تبعاً لرفع « محمد » وأمه « عثمة » بفتح العين المهملة وسكون الثاء المثلثة . ومحمد بن خالد هذا : ثقة .

وقوله فى الروايتين « إلا آياً بعدد » غيره مصححو المطبوعة « آيا تعد » . وفعلوا ذلك فى حيث كرر لفظ الحديث بعد .

(١) فى المطبوعة : « ليعظمون القول » ، وهما سواء .

٩٥ ـ حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب، قال : سمعت الليث يحدث ، عن يحي بن سعيد ، عن ابن المسيَّب : أنه كان لا يتكلم إلا فى المعلوم من القرآن[1] .

٩٦ ـ حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حكام، قال : حدثنا سفيان ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، قال : سألت عَبِيدة السلمانى عن آية ، قال : عليك بالسَّداد ، فقد ذهب الذين علمُوا فيمَ أنزِل القرآن .

٩٧ ـ حدثنى يعقوب ، قال : حدثنا ابن عُليَة ، عن أيوب وابن عون، عن محمد ، قال : سألت عَبِيدة عن آية من القرآن فقال : ذهبَ الذين كانوا يعلَمون فيمَ أنزل القرآن ، اتّق الله وعليك بالسَّداد .

٩٨ ـ حدثنى يعقوب ، قال : حدثنا ابن علية ، عن أيوب ، عن ابن أبى مُليكة : أنّ ابن عباس سُئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها .

٩٩ ـ حدثنى يعقوب ، قال : حدثنا ابن علية ، عن مهدى بن ميمون ، عن الوليد بن مسلم ، قال : جاء طَلْق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله ، فسأله عن آية من القرآن ، فقال له : أحَرِّج عليك إن كنت مُسلماً ، لمَّا قمت عنى ـ أو قال : أن تجالسنى .

١٠٠ ـ حدثنى عباس بن الوليد ، قال: أخبرنى أبى ، قال : حدثنا عبد الله ابن شَوْذَب ، قال : حدثنى يزيد بن أبى يزيد، قال : كنا نسأل سعيدَ بن المسيَّب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سَكَتَ كأن لم يسمع .

١٠١ ـ وحدثنا محمد بن المثنى ، قال: حدثنا محمد بن جعفر ، قال : أخبرنا شعبة ، عن عمرو بن مُرة، قال: سأل رجلٌ سعيد بن المسيب عن آية من القرآن ،

(١) فى المخطوطة : « إلا فى المعلوم من التفسير » ، والمعنى قريب .

فقال : لا تسألني عن القرآن ، وسَل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه — يعني عكرمة .

١٠٢ — وحدثنا ابن المثنى ، قال: حدثنا سعيد بن عامر ، عن شعبة ، عن عبد الله بن أبي السَّفَر ، قال : قال الشعبي : والله مَا مِن آية إلا قد سألتُ عنها ، ولكنها الروايةُ عن الله[1] .

١٠٣ — حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال : حدثنا ابن علية ، عن صالح — يعني ابن مسلم — قال : حدثني رجل ، عن الشعبي ، قال : ثلاثٌ لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن ، والروح ، والرأي[2] .

وما أشبه ذلك من الأخبار ؟ [3]

١/ ٣٠

قيل له : أما الخبر الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يفسِّر من القرآن شيئاً إلا آياً بعَدَدٍ ، فإن ذلك مصحِّحٌ ما قلنا من القول فى الباب الماضي قَبْل ، وهو : أنّ من تأويل القرآن ما لا يُدرك علمُه إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم . وذلك تفصيل جُمَلِ ما فى آيِه من أمر الله وَنَهْيِه[4] ، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه ، وسائر معانى شرائع دينه ، الذى هو مجمَلٌ فى ظاهر التنزيل ، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة — لا يدرَك علمُ تأويله إلا ببيان من عند الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما أشبه ذلك مما تحويه آيُ القرآن ، من سائر حُكْمه الذى جعلَ الله بيانه لخلقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلا يعلم أحدٌ من خلق الله تأويل ذلك إلا ببيان الرّسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يعلمه رسول الله

---

(١) الأخبار السالفة جميعاً نقلها ابن كثير عن الطبرى فى تفسيره ١ : ١٣ — ١٤ .

(٢) الأثر ١٠٣ — صالح بن مسلم : هو البكرى ، وهو ثقة من الطبقة العليا ، كما قال يحيى بن سعيد القطان ، فيما نقل ابن أبي حاتم فى الجرح والتعديل ٢ / ١ : ٤١٣ . وترجمه البخارى فى الكبير أيضاً ٢ / ٢ : ٢٩١ . وهو من الرواة عن الشعبى ، ولكنه روى عنه هنا بالواسطة . وستأتى رواية له عن الشعبى رقم ١١٤ .

(٣) هذا آخر السؤال الذى بدأ منذ ص : ٨٤ .

(٤) فى المطبوعة « وذلك يفصل » . والإشارة فى قوله « وذلك » إلى بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صلى الله عليه وسلم إلا بتعليم الله إيَّاه ذلك بوحْيه إليه، إما مع جبريل، أو مع من شاء من رُسله إليه . فذلك هو الآىُ التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسِّرها لأصحابه بتعليم جبريل إياه ، وهنَّ لاشك آىٌ ذوات َعددٍ .

ومن آى القرآن ما قد ذكرنا أن الله جل ثناؤه استأثرَ بعلم تأويله ، فلم يُطلعْ على علمه َملَكاً مقرّباً ولا نبيًّا مرسلا ، ولكنهم يؤمنون بأنه من عنده ، وأنه لا يعلم تأويله إلا الله .

فأما ما لا بُدَّ للعباد من علم تأويله، فقد بيّن لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم ببيان الله ذلك له بوحيه مع جبريل . وذلك هو المعنى الذى أمره الله ببيانه لهم فقال له جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٤] .

ولو كان تأويل الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه كان لا يفسِّر من القرآن شيئاً إلا آياً بعَددٍ — هو ما يسبقُ إليه أوهامُ أهل الغباء، من أنه لم يكن يفسِّر من القرآن إلا القليل من آيه واليسير من حروفه ، كان إنما ُأنزلَ إليه صلى الله عليه وسلم الذكرُ ليترُك للناس بيانَ ما أنزل إليهم ، لا ليبين لهم ما ُأنزل إليهم .

وفى أمر الله جلَّ ثناؤه نبيَّه صلى الله عليه وسلم ببلاغ ما أنزل إليه ، وإعلامِه إياه أنه إنما نزَّل إليه ما أنزل ليبين للناس ما ُنزِّل إليهم، وقيامِ الحجة على أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم قد بلّغ وأدّى ما أمره الله ببلاغه وأدائه على ما أمره به، وصحةِ الخبر عن عبد الله بن مسعود بقيله[1] : كان الرجل منا إذا تعلم عشرَ آيات لم يجاوزهُن حتى يعلم معانيهنّ والعملَ بهنّ —[2] ما ينبىء عن جهل من ظنّ أو توهّم أنّ معنى الخبر الذى ذكرنا عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه لم يكن

---

(١) فى المطبوعة « قد بلغ فأدى . . . » و « لقيله » .

(٢) سياق عبارته من أول هذه الفقرة هو : «وفى أمر الله جل ثناؤه ... وفى قيام الحجة . . . ، وفى صحة الخبر . . . ما ينبىء . . . »

يفسر من القرآن شيئاً إلا آياً بعَدد ، هو أنه لم يكن يبين لأمته من تأويله إلا اليسير القليل منه .

هذا مع ما في الخبر الذى رُوى عن عائشة من العلّة التى فى إسناده ، التى لا يجوز معها الاحتجاجُ به لأحد ممن علم صحيحَ سَنَد الآثار وفاسدَها فى الدين . لأنّ راويه ممن لا يُعْرَف فى أهل الآثار ، وهو : جعفر بن محمد الزبيرى .

وأما الأخبارُ التى ذكرناها عمن ذكرناها عنه من التابعين ، بإحجامه عن التأويل ، فإنّ فِعلَ من فعل ذلك منهم ، كفعل من أحجم منهم عن الفُتيا فى النّوازل والحوادث ، مع إقراره بأنّ الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه ، إلا بعد إكمال الدين به لعباده ، وعلمه بأن لله فى كل نازلة وحادثة حُكماً موجوداً بنصٍّ أو دلالة . فلم يكن إحجامُه عن القول فى ذلك إحجامَ جاحدٍ أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهُرِ عباده ، ولكن إحجامَ خائفٍ أن لا يبلغَ فى اجتهاده ما كلّف الله العلماءَ من عباده فيه .

فكذلك معنى إحجام مَن أحجم عن القيل فى تأويل القرآن وتفسيره من العلماء السّلف ، إنما كان إحجامه عنه حِذاراً أن لا يبلغ أداءَ ما كلِّف من إصابة صوابِ القول فيه ، لا على أن تأويل ذلك محجوبٌ عن علماء الأمة ، غير موجود بين أظهرهم .

﴿ذكر الأخبار﴾

﴿عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محمودًا علمه بالتفسير﴾ ٣١/١

﴿ومن كان منهم مذموماً علمه به﴾

١٠٤ — حدثنا محمد بن بشار، قال : حدثنا وكيع ، قال : حدثنا سفيان ، عن سليمان ، عن مسلم ، قال : قال عبد الله : نعم تَرْجمانُ القرآن ابنُ عباس .

١٠٥ — حدثني يحيى بن داود الواسطى ، قال: حدثنا إسحق الأزرق ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : نعم تَرْجمانُ القرآن ابنُ عباس .

١٠٦ — وحدثني محمد بن بشار ، قال : حدثنا جعفر بن عون، قال : حدثنا الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق عن عبد الله، بنحوه .

١٠٧ — حدثنا أبو كريب قال: حدثنا طَلق بن غنام ، عن عثمان المكى ، عن ابن أبي مُليكة قال : رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ، ومعه ألواحُه ، فيقول له ابن عباس : « اكتب » ، قال: حتى سأله عن التفسير كلِّه[1] .

١٠٨ — حدثنا أبو كريب، قال : حدثنا المحَاربي ، ويونس بن بُكير قالا : حدثنا محمد بن إسحق ، عن أبان بن صالح ، عن مجاهد ، قال : عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاث عَرْضات ، من فاتحته إلى خاتمته ، أوقِفه عند كل آية منه وأسألُه عنها .

---

(١) الخبر ١٠٧ — فى المطبوعة : « ومع الواحد » وهو تصحيف . وقد نقله ابن كثير فى التفسير ١ : ١٠ .

١٠٩ – وحدثني عبيد الله بن يوسف الجُبَيْرِىّ، عن أبى بكر الحنفى، قال: سمعت سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبُكَ به.

١١٠ – وحدثنا محمد بن المثنى، قال: حدثنا سليمان أبو داود، عن شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسَرة، قال: لم يلق الضحّاكُ ابنَ عباس، وإنما لقى سعيدَ ابن جبير بالرّىّ، وأخذ عنه التفسير.

١١١ – حدثنا ابن المثنى، قال: حدثنا أبو داود، عن شعبة، عن مُشَاش، قال: قلت للضحاك: سمعتَ من ابن عباس شيئاً؟ قال: لا.

١١٢ – حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن إدريس، قال حدثنا زكريا، قال: كان الشعبي يمرّ بأبي صالح باذان، فيأخُذ بأذنه فيعرُكُها ويقول: تُفسِّر القرآنَ وأنتَ لا تقرأ القرآن![1]

١١٣ – حدثنى عبد الله بن أحمد بن شَبُّويه، قال: حدثنا على بن الحسين ابن واقد، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنا الأعمش، قال: حدثنى سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ [سورة غافر: ٢٠] قال: قادر على أن يجزىَ بالحسنة الحسنة[2]، وبالسيئة السيئة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة غافر: ٢٠]، قال الحسين: فقلت للأعمش: حدَّثنى به الكلبى، إلا أنه قال: إنّ الله قادرٌ أن يجزىَ بالسيئة السيئة وبالحسنة عَشْراً، فقال الأعمش: لو أن الذى عند الكلبى عندى ما خرج منى إلا بخفير[3].

---

(١) الأثر ١١٢ – أبو صالح باذان، ويقال «باذام»: هو مولى أم هانىء بنت أبى طالب، وهو تابعى ثقة، ومن تكلم فيه فإنما تكلم لكثرة كلامه فى التفسير، وفى رواية الكلبى عنه. انظر شرح المسند فى الحديث ٢٠٣٠، وهذا الخبر الذى هنا نقله ابن حجر فى التهذيب فى ترجمته ١ : ٤١٧ عن زكريا، وهو ابن أبى زائدة. وعرك الأديم والأذن: أخذهما بين يديه أو إصبعيه ودلكهما دلكاً شديداً.

(٢) فى المخطوطة: «قادر على أن لا يجزى» وهو خطأ.

(٣) الخبر ١١٣ – يأتى هذا الخبر فى تفسير سورة غافر: ٢٠. ونصه هناك: «ما خرج منى إلا بحقير»، والذى كان هنا فى المطبوعة «ما خرج منى بحقير»، والصواب ما أثبتناه. و «الخفير»:

١١٤ — حدثني سليمان عبد الجبار ، قال: حدثنا على بن حَكيم الأَوْدِىّ ، قال : حدثنا عبد الله بن بُكَير ، عن صالح بن مسلم ، قال : مرّ الشعبي على السُّدِّى وهو يفسر ، فقال : لأن يُضرب على استِك بالطبل ، خيرٌ لك من مجلسك هذا(١) .

١١٥ — حدثني سليمان بن عبد الجبار ، قال : حدّثنى على بن حَكيم ، قال : حدثنا شَريك ، عن مسلم بن عبد الرحمن النخعى ، قال : كنت مع إبراهيم ، فرأى السُّدِّى ، فقال : أمَا إنه يُفسِّر تَفسير القوم .

١١٦ — حدثنا ابن البرقى ، قال : حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، قال : سمعتُ سعيد بن بَشِير ، يقول عن قتادة ، قال : ما أرى أحداً يجرى مع الكلبيّ فى التفسير فى عِنَان .

قال أبو جعفر : قد قلنا فيما مَضى من كتابنا هذا فى وُجوه تأويل القرآن ، وأن تأويل جميع القرآن على أوجهٍ ثلاثة :

أحدها لا سبيل إلى الوصول إليه ، وهو الذى استأثر الله بعلمه ، وحَجَبَ علمه عن جميع خلقه ، وهو أوقاتُ ما كانَ من آجال الأمور الحادثة ، التى أخبر الله فى كتابه أنها كائنة ، مثل : وقت قيام الساعة ، ووقت نزول عيسى بن مريم ، ووقتِ طلوع الشمس من مغربها ، والنفخ فى الصور ، وما أشبه ذلك .

والوجه الثانى : ما خصَّ الله بعلم تأويله نبيَّه صلى الله عليه وسلم دون سائر أمته ، وهو ما فيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجةُ ، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم لهم تأويلَه .

والثالث منها : ما كان علمهُ عند أهل اللسان الذى نزل به القرآن ، وذلك

مجير القوم الذى يكونون فى ضمانه ما داموا فى بلاده . وراوى هذا الخبر — على بن الحسين بن واقد : ضعفه أبو حاتم ، وقال البخارى : «كنت أمر عليه طرفى النهار ، ولم أكتب عنه» . وأبوه حسين بن واقد : ثقة .

(١) الأثر ١١٤ — صالح بن مسلم : مضت ترجمته فى الحديث ١٠٣ .

علم تأويل عربيته وإعرابه ، لا يُوصَل إلى علم ذلك إلا من قِبَلهم .

٣٢/١

فإذ كان ذلك كذلك ، فأحقُّ المفسرين بإصابة الحق — فى تأويل القرآن الذى إلى علم تأويله للعباد السبيلُ — أوضحُهم حُجة فيما تأوّل وفسَّر ، مما كان تأويله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون سائر أمته[١] من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه: إمَّا من جهة النقل المستفيض، فيما وُجِد فيه من ذلك عنه النقلُ المستفيض ، وإمَّا من جهة نقل العدول الأثبات ، فيما لم يكن فيه عنه النَّقلُ المستفيض ، أو من جهة[٢] الدلالة المنصوبة على صحته ؛ وأصحُّهم برهاناً[٣] — فيما ترجَم وبيَّن من ذلك — مما كان مُدرَكاً علمُه من جهة اللسان:[٤] إمَّا بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإمَّا من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائناً من كان ذلك المتأوِّل والمفسِّر ، بعد أن لا يكون خارجاً تأويلُه وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك ، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة ، والخلف من التابعين وعلماء الأمة .

---

(١) سياق عبارته « أوضحهم حجه . . . من أخبار رسول الله . . . » وما بينهما فصل .

(٢) كل ما جاء فى هذه العبارة من قوله « جهة » ، فكانه فى المطبوعة « وجه » .

(٣) فى المطبوعة : « وأوضحهم برهانا » ، وليست بشىء . وقوله : « وأصحهم برهاناً » معطوف على قوله آنفاً « أوضحهم حجة » .

(٤) ترجم : فسر وبين ، كما مضى آنفاً فى ص : ٧٠ رقم : ١ .

﴿القول فى تأويل أسماء القرآن وسُوَره وآيِه﴾

قال أبو جعفر : إنّ الله تعالى ذكرهُ سمَّى تنزيله الذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم أسماء أربعة :

منهن : « القرآن »، فقال فى تسميته إياه بذلك فى تنزيله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [سورة يوسف : ٣] ،وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة النمل : ٧٦] .

ومنهنّ : « الفرقان » ، قال جل ثناؤه فى وحيه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم يُسمِّيه بذلك: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان : ١] .

ومنهن: « الكتاب »: قال تباركَ اسمهُ فى تسميته إياه به :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قَيِّمًا ﴾ [سورة الكهف : ١] .

ومنهنّ: « الذكر »، قال تعالى ذكره فى تسميته إياه به : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩] .

ولكلّ اسم من أسمائه الأربعة فى كلام العرب ، معنى ووجهٌ غيرُ معنى الآخر ووجهه .

* * *

فأما « القرآن » ، فإن المفسرين اختلفوا فى تأويله . والواجبُ أن يكون تأويله على قول ابن عباس : من التلاوة والقراءة ، وأن يكون مصدراً من قول القائل :

قرأت، كقولك «الخُسران» من «خسِرت»، و«الغُفْران» من «غفر الله لك»، و«الكُفران» من «كفرتُك»، «والفرقان» من «فرَق الله بين الحق والباطل».

١١٧ — وذلك أنّ يحيي بن عثمان بن صالح السهمي حدثني، قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾، يقول: بيَّناه. ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [سورة القيامة: ١٨] يقول: اعمل به[1].

ومعنى قول ابن عباس هذا: فإذا بيَّناه بالقراءة، فاعمل بما بيناه لك بالقراءة.

ومما يوضح صحة ما قلنا في تأويل حديث ابن عباس هذا، ما:—

١١٨ — حدثني به محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [سورة القيامة ١٧] قال: أن نقرئك فلا تنسى ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ يقول: إذا تُلي عليك فاتَّبعْ ما فيه[2].

قال أبو جعفر: فقد صرَّح هذا الخبرُ عن ابن عباس: أنّ معنى «القرآن» عنده القراءة، فإنه مصدر من قول القائل: قرأتُ، على ما بيَّناه.

وأما على قول قتادة، فإن الواجب أن يكون مصدراً، من قول القائل: قرأتُ الشيء، إذا جمعتَهُ وضممتَ بعضه إلى بعض، كقولك: «ما قرأتْ هذه الناقةُ سَلًى قطُّ»[3]، تريد بذلك أنها لم تضممْ رحماً على ولد، كما قال عمرو بن كلثوم التغلبيّ:

---

(١) الأثر ١١٧ — سيأتي في تفسير سورة القيامة: ١٧ – ١٨، وفي إسناده هناك خطأ، ذلك أنه قال: «حدثنا علي قال حدثنا أبو صالح . . .» وصوابه: «حدثنا يحيي قال حدثنا أبو صالح». وأبو صالح هو: عبد الله بن صالح المبين في إسنادنا هذا.

(٢) الأثر ١١٨ — سيأتي أيضاً في تفسير هذه الآية من سورة القيامة.

(٣) السلى: الجلدة الرقيقة التي يكون الولد في بطن أمه ملفوفاً فيها، وهو في الدواب والإبل: السلى، وفي الناس: المشيمة

تُرِيكَ – إذا دَخَلْتَ على خَلاءٍ ، وَقَدْ أَمِنَتْ عُيُونَ الكاشِحِينا –[١]

ذِرَاعَىْ عَيْطَلٍ ، أَدْماءَ ، بِكْرٍ ، هِجَانِ اللَّوْنِ ، لَمْ تَقْرَأْ جَنِينا[٢]

يعنى بقوله : « لم تقرأ جنيناً » ، لم تضممْ رحماً على ولد .

١١٩ – وذلك أن بشر بن مُعاذ العَقَدِىّ حدثنا قال : حدثنا يزيد بن زُرَيْع قال : حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادةَ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾ ، يقول : حفظه وتأليفه ، ﴿ فَإِذا قَرَأْناهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ اتَّبع حلاله ، واجتنب حرامه . ٣٣/١

١٢٠ – حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، قال : حدثنا معمر ، عن قتادة بمثله .[٣]

فرأى قتادة أن تأويلَ « القرآن » : التأليفُ .

قال أبو جعفر : ولكلا القولين – أعنى قولَ ابن عباس وقول قتادة – اللذين حكيناهما ، وجهٌ صحيح فى كلام العرب . غيرَ أنّ أولى قولَيْهما بتأويل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ، قول ابن عباس .

لأن الله جلّ ثناؤه أمر نبيه فى غير آيةٍ من تنزيله باتباع ما أوحى إليه ، ولم يرخّص له فى ترك اتباع شىء من أمره إلى وقتِ تأليفِه القرآنَ له . فكذلك قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ، نظير سائر ما فى آى القرآن التى أمره الله فيها باتباع ما أوحى إليه فى تنزيله .

---

(١) من معلقته المشهورة . والضمير فى قوله : « تريك » إلى أم عمرو صاحبته . والكاشح : العدو المضمر العداوة ، المعرض عنك بكشحه . وقوله : « على خلاء » ، أى على غرة وهى خالية متبذلة .

(٢) العيطل : الناقة الطويلة العنق فى حسن منظر وسمن . والأدماء : البيضاء مع سواد المقلتين ، وخير الإبل الأدم ، والعرب تقول : « قريش الإبل أدمها وصهبها » ، يعنون أنها فى الإبل كقريش فى الناس فضلا . ووصفها بأنها بكر ، لأن ذلك أحسن لها ، وهى فى عهدها ذلك ألين وأسمن . وهجان اللون : بيضاء كريمة . وسيأتى هذا البيت الثانى فى تفسير الطبرى ٢٩ : ١١٨ « بولاق » .

(٣) الأثر ١١٩ ، ١٢٠ – سيأتى بإسناديه فى تفسير سورة القيامة .

ولو وَجب أنْ يكون معنى قوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ، فإذا أَلَّفناه فاتبع ما أَلَّفنا لك فيه — لوجب أن لا يكون كان لزمه فرضُ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ولا فرضُ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [سورة المدثر : ١ ، ٢] قبل أن يؤلَّف إلى ذلك غيرُه من القرآن . وذلك ، إنْ قاله قائل ، خروجٌ من قول أهل المِلَّة .

وإذ صَحَّ أن حكم كلِّ آية من آى القرآن كانَ لازماً النبيَّ صلى الله عليه وسلم اتباعُه والعملُ به ، مؤلَّفة كانت إلى غيرها أو غيرَ مؤلَّفة — صحّ ما قال ابن عباس فى تأويل قوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ، أنه يعنى به : فإذا بيَّنّاه لك بقراءتنا ، فاتبع ما بيناه لك بقراءتنا — دون قول من قال : معناه ، فإذا أَلَّفناه فاتَّبع ما ألفناه .

وقد قيل إن قول الشاعر :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجُودِ بِهِ   يُقَطِّعُ اللَّيلَ تَسْبِيحاً وقُرْآنَا[(١)]

يعنى به قائله : تسبيحاً وقراءةً .

فإن قال قائل : وكيف يجوز أن يسمى « قرآناً » بمعنى القراءة ، وإنما هو مقروء ؟

قيل : كما جاز أن يسمى المكتوب « كتاباً » ، بمعنى : كتاب الكاتب ، كما قال الشاعر فى صفة كتابَ طلاقٍ كتبه لامرأته :

تُؤَمِّلُ رَجْعَةً مِنِّى ، وفيها   كِتابٌ مثلَ ما لَصِقَ الغِرَاءُ[(٢)]

---

(١) البيت لحسان بن ثابت ، ديوانه : ٤١٠ ، وضحى : ذبح شاته ضحى النحر ، وهى الأضحية . واستعاره حسان لمقتل عثمان فى ذى الحجة سنة ٣٥ ، رضى الله عنهما . والعنوان : الأثر الذى يظهر فتستدل به على الشىء .

(٢) لم أجد هذا البيت فى شىء من المراجع التى بين يدى . وتنصب «مثل» على أنه بيان لحال المفعول المطلق المحذوف ، وتقديره : « كتاب لاصق لصوقاً مثل ما لصق الغراء »

يريد : طلاقاً مكتوباً ، فجعل « المكتوب » كتاباً .

وأما تأويل اسمه الذى هو « فُرْقان » ، فإن تفسيرَ أهل التفسير جاء فى ذلك بألفاظ مختلفة ، هى فى المعانى مؤتلفة .

١٢١ — فقال عكرمة ، فيما حدثنا به ابن حُميد ، قال : حدثنا حَكّام بن سَلْم ، عن عَنْبسة ، عن جابر ، عن عكرمة : أنه كان يقول : هو النَّجاة .

وكذلك كان السُّدِّىّ يتأوّلهُ .

١٢٢ — حدثنا بذلك محمد بن الحسين ، قال : حدثنا أحمد بن المُفَضَّل ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدِّى — وهو قول جماعة غيرهما .

وكان ابن عباس يقول : « الفرقان » . المخرَجُ

١٢٣ — حدثنى بذلك يحيى بن عثمان بن صالح ، قال . حدثنا عبدالله بن صالح ، عن معاوية بن صالح . عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس .

وكذلك كان مجاهد يقول فى تأويله بذلك .

١٢٤ — حدثنا بذلك ابن حُميد ، قال : حدثنا حَكّام ، عن عنبسة ، عن جابر ، عن مجاهد[١] .

وكان مجاهد يقول فى قول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ الفُرْقَانِ ﴾ [سورة الأنفال ٤١] يومٌ فَرَقَ الله فيه بين الحقّ والباطل

١٢٥ — حدثنى بذلك محمد بن عمرو الباهلى ، قال حدثنى أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد[٢] .

وكلّ هذه التأويلات فى معنى « الفرقان » — على اختلاف ألفاظها — متقاربات المعانى . وذلك أنّ من جُعِل له مخرجٌ من أمر كان فيه ، فقد جُعل

---

(١) الآثار السالفة كلها مروية فى تفسير آية الأنفال ٢٩

(٢) الأثر ١٢٥ - يأتى فى تفسير آية الأنفال ٤١

له ذلك المخرجُ منه نجاةٌ. وكذلك إذا نُجِّى منه، فقد نُصِر على من بَغاه فيه سُوءًا، وفُرِق بينه وبين باغيه السُّوءَ.

فجميع ما روينا — عمن روينا عنه — فى معنى « الفرقان»، قولٌ صحيح المعانى، لاتفاق معانى ألفاظهم فى ذلك. ١/٣٤

وأصلُ « الفُرْقان » عندنا: الفرقُ بين الشيئين والفصل بينهما. وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ، وإظهار حُجَّة، ونَصْرٍ[1]، وغير ذلك من المعانى المفرِّقة بين المحقّ والمبطِل. فقد تبين بذلك أنّ القرآن سُمِّى « فرقاناً »، لفصله — بحججه وأدلَّته وحدود فرائضه وسائر معانى حُكمه — بين المحق والمبطل. وفرقانُه بينهما: بنصره المحقّ، وتخذيله المبطل، حُكماً وقضاءً.

* * *

وأما تأويل اسمه الذى هو «كتابٌ» : فهو مصدر من قولك « كتبت كتاباً » كما تقولُ: قمت قياماً، وحسبت الشيء حِساباً. والكتابُ: هو خطُّ الكاتب حروفَ المعجم مجموعةً ومفترقة. وسُمى « كتاباً »، وإنما هو مكتوب، كما قال الشاعر فى البيت الذى استشهدنا به :

* وفيها كِتابٌ مثلَ ما لَصِقَ الغِراء *

يعنى به مكتوباً.

* * *

وأما تأويل اسمه الذى هو « ذِكْرٌ »، فإنه محتمل معنيين: أحدهما: أنه ذكرٌ من الله جل ذكره، ذكَّر به عباده، فعرَّفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائرَ ما أودعه من حُكمه. والآخر: أنه ذكرٌ وشرف وفخرٌ لمن آمن به وصدَّق بما فيه، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [سورة الزخرف : ٤٤]، يعنى به أنه شرفٌ له ولقومه.

* * *

(١) فى المطبوعة : « وتصرف » مكان « ونصر »، وهو خطأ محض

ثم لسوَر القرآن أسماءٌ سمّاها بها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١٢٦ — حدثنا محمد بن بشار ، قال: حدثنا أبو داود الطيالسى ، قال : حدثنا أبو العوَّام — وحدثنى محمد بن خلف العَسْقلانى ، قال: حدثنا رَوَّاد بن الجرَّاح ، قال : حدثنا سعيد بن بَشير ، جميعاً — عن قتادة ، عن أبى المَليح ، عن واثلة بن الأسْقَع : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أعطِيتُ مكان التوراةِ السبعَ الطُّوَل ، وأعطيت مكانَ الزَّبور المِئِين ، وأعطيتُ مكان الإنجيلِ المَثَانى ، وفُضِّلت بالمفصَّل(١) .

١٢٧ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال: حدثنا ابن عُلَية ، عن خالد الحذَّاء ، عن أبى قِلابة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطِيتُ السبعَ الطُّوَل مكان التوراة ، وأعطيت المثانِىَ مكانَ الزَّبور ، وأعطيت المئين مكانَ الإنجيل ، وفُضِّلت بالمفصَّل(٢) . قال خالد : كانوا يسمُّون المفصَّل: العربىَّ . قال خالد: قال بعضهم : ليس فى العربىِّ سجدةٌ .

---

(١) الحديث ١٢٦ — رواه الطبرى هنا بإسنادين ، أحدهما صحيح ، والآخر ضعيف : فرواه من طريق أبى داود الطيالسى عن أبى العوام ، وهذا إسناد صحيح . ورواه من طريق رواد بن الجراح عن سعيد بن بشير ، وهذا إسناد ضعيف — كلاهما عن قتادة .

أما طريق الطيالسى ، فإنه فى مسنده رقم ١٠١٢ ، ورواه أحمد فى المسند رقم ١٧٠٤٩ (٤ : ١٠٧ طبعة الحلبى) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧ : ١٥٨ ، ونسبه أيضاً للطبرانى « بنحوه » . وأبو العوام ، فى الإسناد الأول : هو « عمران بن داور » بفتح الدال وبعد الألف واو مفتوحة وآخره راء — « القطان » ، وهو ثقة .

وأما الطريق الثانى ، فى إسناده « رواد بن الجراح العسقلانى » ، وهو صدوق ، إلا أنه تغير حفظه فى آخر عمره ، كما قال أبو حاتم ، فيما نقله عنه ابنه فى الجرح والتعديل ١ / ٢ : ٥٢٤ ، وقال البخارى فى الكبير ٢ / ١ : ٣٠٧ : « كان قد اختلط ، لا يكاد أن يقوم حديثه » . و« رواد » بفتح الراء وتشديد الواو وآخره دال . ووقع فى الأصول هنا « داود » ، وهو خطأ . وفى إسناده أيضاً « سعيد بن بشير » ، وهو صدوق يتكلمون فى حفظه . ولكن لم ينفرد « رواد » بروايته عن سعيد ، فقد ذكره ابن كثير فى التفسير ١ : ٦٤ من كتاب أبى عبيد : عن هشام بن إسمعيل الدمشقى عن محمد بن شعيب عن سعيد بن بشير ، وقال ابن كثير : « هذا حديث غريب ، وسعيد بن بشير : فيه لين » ، وهو تعليل غير محرر ! فإن سعيد بن بشير لم ينفرد به — كما هو ظاهر — بل تأيدت روايته برواية الطيالسى عن أبى العوام عمران بن داور ، وهو إسناد صحيح ، كما قلنا . وسيأتى بإسناد ثالث ، رقم ١٢٩ .

(٢) الحديث ١٢٧ — هذا خبر مرسل عن أبى قلابة

١٢٨ - وحدثنا محمد بن حميد، قال حدثنا حَكَّام بن سَلْم، عن عمرو بن أبي قيس، عن عاصم، عن المسيَّب، عن ابن مسعود قال: الطُّوَل كالتوراة، والمئون كالإنجيل، والمثانى كالزَّبور، وسائر القرآن بعدُ فَضْلٌ على الكتب[1].

١٢٩ - حدثني أبو عُبيد الوَصَّابي، قال: حدثنا محمد بن حفص، قال: أنبأنا أبو حميد، حدثنا الفزارى، عن ليث بن أبي سُلَيم، عن أبي بُرْدة، عن أبي المَليح، عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال أعطاني ربّي مكانَ التوراة السبعَ الطول، ومكان الإنجيل المثاني، ومكان الزّبور المئين، وفضّلني ربي بالمفصَّل[2].

قال أبو جعفر: والسبع الطُّوَل: البقرةُ، وآل عِمْران، والنساء، والمائدة،

---

(١) الخبر ١٢٨ - لم نجد خبر ابن مسعود هذا. و «عاصم»: هو ابن أبي النجود، بفتح النون، وهو عاصم بن بهدلة. و «المسيب»: هو ابن رافع الأسدى، وهو تابعى ثقة، ولكنه لم يلق ابن مسعود، إنما يروى عن مجاهد ونحوه، كما قال أبو حاتم. انظر التهذيب ١٠ : ١٥٣، والمراسيل لابن أبي حاتم: ٧٦، وشرح المسند، فى الحديث: ٣٦٧٦.

(٢) الحديث ١٢٩ - هذا إسناد آخر للحديث الماضى ١٢٦، وهو إسناد مشكل، لم تستبن لنا حقيقته:

فأوله «أبو عبيد الوصابى حدثنا محمد بن حفص»! كذا وقع فى الأصول. وأخشى أن يكون خطأ، بل لعله الراجح عندى، فإن أبا عبيد الوصابى: هو محمد بن حفص نفسه، ترجمه ابن أبي حاتم فى الجرح والتعديل ٣ / ٢ : ٢٣٧، قال: «محمد بن حفص الوصابى الحمصى أبو عبيد، روى عن محمد بن حمير وأبي حيوة شريح بن يزيد. أدركته وأردت قصده والسماع منه، فقال لى بعض أهل حمص: ليس بصدوق، ولم يدرك محمد بن حمير، فتركته». وترجمه الحافظ فى لسان الميزان ٥ : ١٤٦ بنحو هذا، وزاد أن ابن مندة ضعفه، وأن ابن حبان ذكره فى الثقات. وكذلك ذكره الدولابى فى الكنى ٢ : ٧٥، ٧٦ باسمه وكنيته، وروى حديثاً عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبي عبيد هذا.

ثم «أبو حميد» الراوى عنه محمد بن حفص: لم أستطع أن أعرف من هو؟ وكذلك «الفزارى» شيخ أبي حميد، وقد يكون هو أبا إسحق الفزارى.

وأما أبو بردة: فهو أبو بردة بن أبي موسى الأشعرى، وهو يروى فى هذا الإسناد عن أبي المليح بن أسامة الهذلى، وكلاهما تابعى، إلا أن أبا بردة أكبر من أبي المليح، فيكون من رواية الأكابر عن الأصاغر.

وفى مجمع الزوائد ٧ : ١٥٨ حديث نحو هذا من حديث أبي أمامة، قال الهيثمى: «رواه الطبرانى، وفيه ليث بن أبي سليم، وقد ضعفه جماعة، ويعتبر بحديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

والأنعام، والأعراف ، ويونس ، فى قول سعيد بن جبير [١] .

١٣٠ — حدثنى بذلك يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا هُشيم، عن أبى بِشر، عن سعيد بن جبير .

وقد روى عن ابن عباس قولٌ يدلّ على موافقته قولَ سعيد هذا .

١٣١ —وذلك ما حدثنا به محمد بن بَشَّار ، قال : حدثنا ابن أبى عَدِىّ ، ويحيى بن سعيد ، ومحمد بن جعفر ، وسهل بن يوسف ، قالوا : حدثنا عَوْف ، قال : حدثنى يزيد الفارسىّ ، قال : حدثنى ابن عباس : قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عَمَدْتُم إلى الأنفال، وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطراً: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتموهما فى السبع الطُّوَل ؟ ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممَّا يأتى عليه الزمانُ وهو تُنزَّل عليه السُّوَرُ ذواتُ العَدد، فكان إذا ٣٥/١ نزل عليه الشىء دعا ببعض من كان يكتبُ فيقول : ضَعُوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءةُ من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قِصَّتُها شبيهةً بقصتها ، فظننت أنها منها . فقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُبيِّن لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنتُ بينهما، ولم أكتب بينهما سطر : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ووضعتهما فى السَّبع الطُّوَل »[٢] .

فهذا الخبر ينبئ عن عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، أنه لم يكن تَبيَّن له أنّ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير فى أول سورة البقرة ١ : ٦٤ . و « الطول » ، بضم الطاء وفتح اللام : جمع « الطولى » ، مثل « الكبر » و « الكبرى » .

(٢) الخبر ١٣١ – رواه أحمد بن حنبل فى المسند عن يحيى بن سعيد، وعن إسمعيل بن إبراهيم ، وعن محمد بن جعفر ، كلهم عن عوف الأعرابى ، بهذا الإسناد ، مطولا ، برقمى : ٣٩٩ ، ٤٩٩ وهو حديث ضعيف جداً ، فصلت طرقه ، ووجه ضعفه ، فى شرح المسند : ٣٩٩ .

الأنفال وبراءةَ من السبع الطُّوَل ، ويصرِّح عن ابن عباس أنه لم يكن يَرى ذلك منها .

وإنما سميت هذه السور السبعَ الطُّوَل ، لطولها على سائر سُوَر القرآن .

وأما «المئون» : فهى ما كان من سور القرآن عددُ آيه مئة آية، أو تزيد عليها شيئاً أو تنقص منها شيئاً يسيراً .

وأما «المثانى» : فإنها ما ثَنَّى المئين فتلاها ، وكان المئون لها أوائلَ ، وكان المثانى لها ثوانى . وقد قيل : إن المثانى سميت مثانى ، لتثنية الله جل ذكره فيها الأمثالَ والخبرَ والعبرَ ، وهو قول ابن عباس .

١٣٢ — حدثنا بذلك أبو كريب ، قال : حدثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن عبد الله بن عثمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس .

وروى عن سعيد بن جبير ، أنه كان يقول : إنما سميت مثانى لأنها ثنيت فيها الفرائضُ والحدود .

١٣٣ — حدثنا بذلك محمد بن بَشّار ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير .

وقد قال جماعة يكثر تعدادهم : القرآن كله مَثانٍ .

وقال جماعة أخرى : بل المثانى فاتحة الكتاب ، لأنها تُثْنَى قراءتُها فى كل صلاة .

وسنذكر أسماء قائلى ذلك وعللَهم ، والصوابَ من القول فيما اختلفوا فيه من ذلك ، إذا انتهينا إلى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى ﴾ [سورة الحجر : ٨٧] إن شاء الله ذلك .

وبمثل ما جاءتْ به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسماء سور القرآن التى ذُكِرَتْ ، جاء شعرُ الشعراء . فقال بعضهم :

حَلفتُ بالسَّبع اللَّواتى طُوِّلتْ ... وبمئِينَ بعدَها قد أُمْئِيَت[١]
وبمَثَانٍ ثُنِّيتْ فكُرِّرتْ ... وبالطَّواسِينِ التى قد ثُلِّثَت[٢]
وبالحَوامِيم اللَّوَاتِى سُبِّعتْ ... وبالمفصَّلِ اللَّواتِى فُصِّلت[٣]

قال أبو جعفر رحمة الله عليه : وهذه الأبيات تدل على صحة التأويل الذى تأوَّلناه فى هذه الأسماء .

وأما « المفصَّل » : فإنها سميت مفصَّلا لكثرة الفصول التى بين سوَرها بـ« بسم الله الرحمن الرحيم » .

* * *

قال أبو جعفر : ثم تسمى كل سورة من سور القرآن « سورة » ، وتجمع سُوَراً » ، على تقدير « خُطبة وخُطب » ، « وغُرفة وغُرَف » .

والسورة ، بغير همز : المنزلة من منازل الارتفاع . ومن ذلك سُور المدينة ، سمى بذلك الحائطُ الذى يحويها ، لارتفاعه على ما يحويه . غير أن السُّورة من سُور المدينة لم يسمع فى جمعها « سُوَر » ، كما سمع فى جمع سورة من القرآن « سور » .

قال العجاج فى جمع السُّورة من البناء :

فرُبَّ ذِى سُرَادِقٍ مَحْجُورِ ... سُرْتُ إليه فى أَعالى السُّورِ[٤]

فخرَّج تقدير جمعها على تقدير جمع بُرَّة وبُسْرة ، لأن ذلك يجمع بُرًّا وبُسراً . وكذلك لم يسمع فى جمع سورة من القرآن سُوْرٌ ، ولو جمعت كذلك لم يكن خطأ فى القياس ، إذا أريد به جميعُ القرآن . وإنما تركوا — فيما نرى — جمعه كذلك ، لأن كل جمع كان بلفظ الواحد المذكَّر مثل : بُرّ وشعير وقَصَب وما أشبه ذلك ، فإن

---

(١) الأبيات فى مجاز القرآن لأبى عبيدة : ٧ . أمأيت لك الشىء : أكملت لك عدته حتى بلغ المئة.
(٢) الطواسين التى ثلثت ، يعنى طسم الشعراء ، وطس النمل ، وطسم القصص .
(٣) الحواميم التى سبعت : سبع سور من سورة غافر إلى سورة الأحقاف .
(٤) ديوانه : ٢٧ . والسرادق : كل ما أحاط بالشىء واشتمل عليه ، من مضرب أو خباء أو بناء . ويعنى حريم الملك . ومحجور : محرم ممنوع لا يوطأ إلا بإذن . وسار الحائط يسوره وتسوره : علاه وتسلقه . « سرتُ إليه » : تسلقته .

جِماعَه يجرى مجرى الواحد من الأشياء غيره[١]. لأن حكم الواحد منه منفرداً قلَّما يُصاب، فجرى جماعه مجرى الواحد من الأشياء غيره[٢]، ثم جُعلت الواحدة منه كالقطعة من جميعه، فقيل: بُرَّة وشعيرة وقصبة، يراد به قطعة منه[٣]. ولم تكن سور القرآن موجودةً مجتمعةً اجتماعَ البرِّ والشعير وسور المدينة، بل كلُّ سورة منها موجودةٌ منفردة بنفسها، انفرادَ كل غُرْفة من الغُرف وخُطبة من الخطب، فجُعِل جمعُها جمع الغُرَف والخطب، المبنىِّ جمعها من واحدها. ١/٣٦

ومن الدلالة على أنَّ معنى السورة: المنزلةُ من الارتفاع، قول نابغة بنى ذُبيان:

ألَمْ ترَ أنَّ الله أعطاكَ سُورَةً ... تَرَى كلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ[٤]

يعنى بذلك: أنَّ الله أعطاه منزلة من منازل الشرف التى قصَّرت عنها منازلُ الملوك.

وقد همز بعضهم السورةَ من القرآن. وتأويلُها، فى لغة من هَمَزها، القطعةُ التى قد أفضِلت من القرآن عما سواها وأبقيت. وذلك أن سؤر كل شىء: البقية منه تَبقى بعدَ الذى يُؤخذ منه، ولذلك سميت الفضْلة من شراب الرجل — يشربُه ثم يُفضلها فيبقيها فى الإناء — سُؤْراً. ومن ذلك قول أعشى بنى ثعلبة، يصف امرأةً فارقته فأبقت فى قلبه من وجْدِها بقية:

فبَانَتْ، وقد أسْأرتْ فى الفُؤا ... دِ صَدْعاً، على نَأيِهاَ، مُسْتَطِيرَا[٥]

---

(١) فى المطبوعة: «فإن جماعه كالواحد». وفى المخطوطة «فإن جماعه مجرى الواحد»، سقط من الناسخ قوله «يجرى ...».

(٢) فى المطبوعة «مفرداً» مكان «منفرداً».

(٣) يعنى أنه اسم جنس، سبق الجمع الواحد. لأنه لم يوضع للآحاد، وإنما وضع لجملته مجتمعاً، وهو الذى يفرق بينه وبين واحده بالتاء.

(٤) ديوانه: ٥٧، ويأتى فى تفسير الطبرى: ٢١٥ (بولاق). يتذبذب: يضطرب ويحار. والذبذبة: تردد الشىء المعلق فى الهواء يمنة ويسرة. يقول: أعطاك الله من المنزلة الرفيعة، ما لو رامه ملك وتسامى إليه، بقى معلقاً دونها حائراً يضطرب ويتردد، لا يطيق أن يبلغها.

(٥) ديوانه: ٦٧، ويأتى فى تفسير الطبرى ٢٩: ١٢٩ (بولاق). استطار الصدع فى الزجاجة وغيرها: تبين فيها من أولها إلى آخرها، وفشا وامتد.

وقال الأعشى فى مثل ذلك :

بَانَتْ، وقدأ سْأَرَتْ فى النَّفس حَاجَتَهَا ، بعدَ ائتِلاف ؛ وخيرُ الوُدِّ ما نَفعَا[1]

* * *

وأما الآية من آى القرآن ، فإنها تحتمل وجهين فى كلام العرب :

أحدُهما : أن تكون سمِّيت آية ، لأنها علامةٌ يُعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها ، كالآية التى تكون دلالةً على الشىء يُستدلّ بها عليه ، كقول الشاعر :

أَلِكْنى إليهـا ، عَمْرَكَ اللهُ يا فَتى ، بآيَةِ ما جَاءتْ إلينـا تَهَادِيَا[2]

يعنى : بعلامة ذلك[3] . ومنه قوله جل ذكرُه : ﴿ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ﴾ [سورة المائدة : ١١٤] أى علامةً منك لإجابتك دُعاءنا وإعطائك إيَّانا سُؤْلَنا .

والآخر منهما : القصةُ ، كما قال كعب بن زهير بن أبى سُلمى :

أَلَا أَبْلغـا هذا المُعَرِّض آيَةً : أَيقْظانَ قالَ القولَ إذْ قالَ ،أمْ حَلَمْ[4]

يعنى بقوله « آية » : رسالةً منّى وخبراً عنى .

فيكون معنى الآيات : القصص ، قصةٌ تتلو قصةً ، بفُصُول ووُصُول .

---

(١) ديوانه : ٧٣ . « بعد ائتلاف » : أى بعد ما كنا فيه من جماع وألفة .

(٢) الشعر لسحيم عبد بنى الحسحاس ، ديوانه : ١٩ ، ويأتى فى تفسير الطبرى ١ : ١٥٦ (بولاق) ألكنى إليها : أبلغها رسالة منى ، والرسالة : الألوك والمألكة . وتهادى فى مشيه : تمايل دلالا أو ضعفاً .

(٣) فى المخطوطة : « بعلامة دلت » ، وهو خطأ .

(٤) ديوانه : ٦٤ ، وروايته : « أنه أيقظان » . وقد استظهرت فى شرح كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام : ٨٩ ، أن الصواب « آية » ، كما جاء فى مخطوطة الطبقات ، وشرح الطبرى دال على صواب ما استظهرت . وأهملت كتب اللغة تفسير هذا الحرف على وجهه ، مع مجيئه فى شعر كعب وغيره ، كقول حجل بن نضلة :

أَبلغْ معَـاوِيةَ المـمـزَّقَ آيَةً عنِّى ، فلستُ كبَعض من يتَقوَّلُ

﴿القول فى تأويل أسماء فاتحة الكتاب﴾

قال أبو جعفر : صَحَّ الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما :—

١٣٤ — حدثنى به يونس بن عبد الأعلى، قال: حدثنا ابن وهب ، قال: أخبرنى ابن أبى ذئب ، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: هى أمّ القرآن، وهى فاتحة الكتاب، وهى السبع المثانى[1].

فهذه أسماءُ فاتحة الكتاب .

وسمّيت «فاتحةَ الكتاب» ، لأنها يُفتتح بكتابتها المصاحف ، ويُقرأ بها فى الصلوات ، فهى فَواتح لما يتلوها من سور القرآن فى الكتابة والقراءة .

وسمّيت « أم القرآن » ، لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخُّر ما سواها خلفها فى القراءة والكتابة. وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب. وإنما قيل لها — بكونها كذلك — أمَّ القرآن ، لتسمية العرب كل جامع أمراً — أو مقدَّمٍ لأمر إذا كانت له توابعُ تتبعه ، هو لها إمام جامع — «أمًّا». فتقول للجلدة التى تجمع الدِّماغ : «أم الرأس»[2] . وتسمى لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها للجيش — «أمًّا» . ومن ذلك قول ذى الرُّمة ، يصف رايةً معقودة على قناة يجتمع تحتها هو وصحبُه :

---

(١) الحديث ١٣٤ — رواه أحمد فى المسند: ٩٧٨٧ (٢ : ٤٤٨ طبعة الحلبى) . والبخارى ٨ : ٢٨٩ فتح البارى — كلاهما من طريق ابن أبى ذئب ، بهذا الإسناد . ولفظ أحمد : « قال فى أم القرآن : هى أم القرآن ، وهى السبع المثانى ، وهى القرآن العظيم » . ولفظ البخارى : « أم القرآن : هى السبع المثانى ، والقرآن العظيم » . وذكره ابن كثير فى التفسير ١ : ٢١ ، من روايتَى المسند والطبرى . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٣ ، ونسبه أيضاً للدارمى وأبى داود والترمذى وابن المنذر وغيرهم . وسيذكره الطبرى مرة أخرى ، فى تفسير الآية ٨٧ من سورة الحجر (١٤ : ٤٠ — ٤١ من طبعة بولاق) ، بهذا الإسناد .

(٢) فى المخطوطة : « تلى للدماغ » ، وهذه أجود .

٣٧/١ وَأَسْمَرَ، قَوَّامٍ إِذَا نَامَ صُحْبَتِي ، خَفِيفِ الثِّيابِ لا تُوَارِي لَهُ أَزْرَا[١]

عَلَى رَأْسِهِ أُمٌّ لنا نَقْتَــدِي بِهَا ، جِمَاعُ أُمورٍ لا نُعاصِي لَهَا أَمْرَا[٢]

إذَا نزلَتْ قِيلَ: انزِلُوا، وإذا غدَتْ غدَتْ ذاتَ بِرْزِيقٍ نَنَال بِهَا فَخْرَا[٣]

يعنى بقوله : « على رأسه أمٌّ لنا »، أى على رأس الرمح رايةٌ يجتمعون لها فى النزول والرحيل وعند لقاء العدوّ . وقد قيل إن مكة سميت « أمَّ القُرى »، لتقدُّمها أمامَ جميعِها، وجَمْعِها ما سواها . وقيل: إنما سُميت بذلك، لأن الأرض دُحِيَتْ منها فصارت لجميعها أمًّا . ومن ذلك قول حُميد بن ثَوْر الهلالىّ :

إذا كانتِ الخمسُونَ أُمَّكَ ، لم يكنْ لِدائك ، إلّا أنْ تَموت ، طَبِيبُ[٤]

لأن الخمسين جامعةٌ ما دونها من العدد ، فسماها أمًّا للذى قد بلغها .

---

(١) ديوانه : ١٨٣ ، مع اختلاف فى بعض الرواية ، ورواية الطبرى أجودها . أسمر : يعنى رمحاً أسمر القناة . قوام : يظل الليل قائماً ساهراً . خفيف الثياب : يعنى اللواء . والأزر : الظهر . يقول : رمح أسمر عارى الثياب ، لا يوارى اللواء ظهره كما يوارى الثوب ظهر اللابس .

(٢) فى الديوان : « يهتدى »، والصواب « نهتدى » . وأمه التى ذكر ، هى اللواء ، ويقال للواء وما لف على الرمح منه : أم الرمح . وجماع أمور : أى تجمعها فتجتمع عليها ، وفى الحديث : « حدثنى بكلمة تكون جماعاً . قال : اتق الله فيما تعلم » . والأمور جمع أمر : يعنى شئوناً عظاماً . وأما قوله : لا نعاصى لها أمراً . فهو من الأمر نقيض النهى .

(٣) « نزلت » يعنى الراية . و « غدت » : سارت غدوة . وفى المطبوعة « ذات تزريق » وهو خطأ . والبرزيق : الموكب الضخم فيه جماعات الناس . وقوله : « ننال بها فخراً » أى نغزو فى ظلالها ، فنظهر على عدونا ونظفر ونغنم ، وذلك هو الفخر . وفى الديوان : « تخال بها فخراً » وفى المخطوطة : « تخال لها »، كأنه من صفة الراية نفسها ، تهتز وتميل فخراً وتيهاً لكثرة أتباعها من الغزاة والفرسان .

(٤) الشعر ليس لحميد بن ثور ، ولا هو فى ديوانه ، بل هو لأبى محمد التيمى عبد الله بن أيوب ، مولى بنى تيم ثم من بنى سليم ، من أهل الكوفة ، من شعراء الدولة العباسية . أحد الخلعاء المجان الوصافين للخمر ، كان صديقاً لإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق ، ونديماً لهما . ثم اتصل بالبرامكة ومدحهم ، واتصل بيزيد بن مزيد ، فلم يزل منقطعاً إليه حتى مات يزيد . الأغانى ١٨ : ١١٥ . وهذا البيت من قصيدة له ، روى بعض أبياتها الجاحظ فى البيان ٣ : ١٩٥ ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار ٢ : ٣٢٢ ، والراغب فى محاضرات الأدباء ٢ : ١٩٨ ، ومجموعة المعانى : ١٢٤ ، والشعر فيها جميعاً منسوب لأبى محمد التيمى، وهو :

إذا كانت السبعون سنّك ، لم يكن لدائك ، إلا أن تموتَ ، طبيبُ

وأما تأويل اسمها أنها «السَّبْعُ»، فإنها سبعُ آيات، لاخلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء فى ذلك.

وإنما اختلفوا فى الآى التى صارت بها سبع آيات. فقال عُظْمُ أهل الكوفة: صارت سبع آيات بـ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾، ورُوى ذلك عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين. وقال آخرون: هى سبع آيات، وليس منهن ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾، ولكن السابعة «أنعمت عليهم». وذلك قول عُظْم قَرَأةِ أهل المدينة ومُتْقنيهم[1].

قال أبو جعفر: وقد بيَّنا الصواب من القول عندنا فى ذلك فى كتابنا: (اللطيف فى أحكام شرائع الإسلام) بوجيز من القول، ونستقصى بيان ذلك بحكاية أقوال المختلفين فيه من الصحابة والتابعين والمتقدمين والمتأخرين فى كتابنا: (الأكبر فى أحكام شرائع الإسلام) إن شاء الله ذلك.

وأما وصف النبى صلى الله عليه وسلم آياتها السبعَ بأنهن مَثان، فلأنها تُثْنَى قراءتها فى كل صلاةِ تطوُّع ومكتوبة. وكذلك كان الحسن البصرى يتأوّل ذلك.

١٣٥ـ حدثنى يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن عُليَّة، عن أبى رَجاء، قال سألت الحسن عن قوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالقُرْآنَ العَظِيمَ ﴾

وإن أمرأً قد سار سَبْعين حِجَّةً ... إلى مَنْهلٍ، مِن وِرْدِه لقريبُ

إذا ما خلوتَ الدَّهرَ يوماً، فلا تقل ... خلوتُ، ولكن قلْ علىَّ رقيبُ

إذا مَا انْقَضَى القَرْنُ الذى أنتَ منهمُ ... وخُلِّفْتَ فى قرنٍ فأنت غريبُ

وللبيت الثانى قصة فى أمالى القالى ٣ : ١، وانظر زهر الآداب ٣ : ٢٢١، وذكر البيت الثانى والرابع وقال: «قال دعبل: وتزعم الرواة أنه لأعرابى من بنى أسد». واختلفوا فى رواية قوله: «السبعون سنك»، ففيها «الخمسون»، و«الستون». ولم أجد روايته «أمك» مكان «سنك» إلا فى كتاب الطبرى وحده.

(١) فى المطبوعة: «أعظم أهل الكوفة ...» ثم «أعظم قراء أهل المدينة». وهو تغيير. وعظم الشىء أو الناس: معظمهم وأكثرهم. و«قرأة» جمع قارىء. وانظر ما سلف: ٥١ — ٥٢ التعليق رقم: ٣ و ص ٦٤ تعليق رقم: ٤. وفى المطبوعة «ومتفقهيهم»، غيروه أيضاً.

[سورة الحجر : ٨٧] قال : هي فاتحة الكتاب . ثم سئل عنها وأنا أسمع فقرأها: ﴿ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ حتى أتى على آخرها ، فقال : تُثْنَى فى كل قراءة — أو قال — فى كل صلاة . الشك من أبى جعفر الطبرى[١] .

والمعنى الذى قلنا فى ذلك قصد أبو النجم العجلى بقوله :

الحمدُ لله الذى عَافَانِي وكلَّ خَيْرٍ بعدَهُ أَعْطانِي
مِنَ القُرآن ومِنَ المَثَانِي[٢]

وكذلك قول الراجز الآخر :

نَشَدْتُكم بِمُنْزِلِ الفُرقانِ أمِّ الكِتَابِ السَّبعِ من مَثَانِي[٣]
ثُنِّينَ مِنْ آيٍ من القُرآنِ والسَّبعِ سبعِ الطُّوَلِ الدَّوانِي[٤]

وليس فى وجوب اسم « السبع المثانى » لفاتحة الكتاب ، ما يدفع صحة وجوب اسم « المثانى » للقرآن كله ، ولما ثَنَّى المثين من السور[٥] . لأن لكلٍّ وجهاً ومعنًى مفهوماً ، لا يَفْسُدُ — بتسميته بعضَ ذلك بالمثانى — تسميةُ غيره بها .

فأما وجه تسمية ما ثَنَّى المثينَ من سور القرآن بالمثانى ، فقد بينا صحته ، وسندُلُّ على صحة وجه تسمية جميع القرآن به عند انتهائنا إليه فى سورة الزُّمَر ، إن شاء الله .

---

(١) الأثر ١٣٥ — سيأتى فى تفسير الآية : ٨٧ سورة الحجر ١٤ : ٣٨ — ٣٩ (بولاق) ، بهذا الإسناد ، بلفظ « فى كل قراءة » ، ولم يشك الطبرى هناك . و « أبو رجاء » ، فى هذا الإسناد : هو « محمد بن سيف الأزدى الحدانى البصرى » ، وهو ثقة ، وثقه ابن معين وابن سعد والنسائى وغيرهم .

(٢) اللسان (ثنى) : ومجاز القرآن لأبى عبيدة : ٧ . وقوله « بعده » الضمير عائد بالتذكير إلى معنى العافية فى البيت السالف . ورواية اللسان وأبى عبيدة « وكل خير صالح » ، ثم روى الأخير :

* « رب مثانى الآى والقرآن » *

(٣) مجاز القرآن لأبى عبيدة : ٧ « أم الكتاب » بدل من « الفرقان » .

(٤) فى المطبوعة « تبين » ، ولا معنى لها ، ومكان هذه الكلمة بياض فى المخطوطة . و « ثنين » : كررن مرة بعد مرة . وقوله « الدوانى » مكانها بياض فى المخطوطة . وكأنه أراد جمع دانية ، ووصفها بأنها « دوانى » ، أى قطوفها دانية .

(٥) فى المطبوعة : « وجود » مكان « وجوب » فى الموضعين السالفين . وفى المطبوعة « ولما يثنى من السور » ، وهى فى المخطوطة : « ولما هى المثين... » وكلتاهما خطأ . وقد سلف فى ص : ١٠٣ قوله : « وأما المثانى ، فإنها ما ثنى المثين فتلاها ، وكان المثون لها أوائل ، وكان المثانى لها ثوانى » وثنى : أتى ثانياً له .

﴿القول فى تأويل الاستعاذة﴾

تأويل قوله : ﴿أَعُوذُ﴾ .

قال أبو جعفر : والاستعاذة : الاستجارة . وتأويل قول القائل : ﴿أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أستجيرُ بالله — دون غيره من سائر خلقه — من الشيطان أن يضرَّنى فى دينى ، أو يصدَّنى عن حق يلزَمُنى لربّى .

تأويل قوله : ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ .

١/٣٨ قال أبو جعفر : والشيطان ، فى كلام العرب : كل متمرِّد من الجن والإنس والدوابِّ وكل شىء . وكذلك قال ربّنا جل ثناؤه : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾ [سورة الأنعام : ١١٢] ، فجعل من الإنس شياطينَ ، مثلَ الذى جعل من الجنّ .

وقال عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ، وركب بِرذَوْناً فجعل يتبختر به ، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبختراً ، فنزل عنه ، وقال : ما حملتمونى إلا على شيطانٍ ! ما نزلت عنهُ حتى أنكرت نفسى .

١٣٦ — حدثنا بذلك يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : أخبرنى هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر[1] .

قال أبو جعفر : وإنما سُمى المتمرِّد من كل شىء شيطاناً ، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاقَ سائر جنسه وأفعاله ، وبُعدِه من الخير . وقد قيل : إنه أخذ من

---

(١) الأثر : ١٣٦ نقله ابن كثير فى التفسير ١ : ٣٢ من رواية ابن وهب ، بهذا الإسناد . وقال : « إسناده صحيح » . وذكر الطبرى فى التاريخ ٤ : ١٦٠ نحو معناه بسياق آخر ، بدون إسناد .

قول القائل : شَطَنَتْ دارى من دارك — يريد بذلك : بَعُدت . ومن ذلك قول نابغة بنى ذبيان :

نأتْ بِسُعَادَ عَنْك نَوًى شَطُونُ فبانَت ، والفؤادُ بها رَهِينُ(١)

والنوى : الوجه الذى نَوَتْه وقصَدتْه . والشَّطونُ : البعيد . فكأن الشيطان — على هذا التأويل — فَيعَالٌ من شَطَن . ومما يدلّ على أن ذلك كذلك ، قولُ أميّة ابن أبى الصّلت :

أيُّمَا شاطِنٍ عَصَاه عَكَاهُ ثمّ يُلْقَى فى السِّجْن والأَكْبَالِ(٢)

ولو كان فَعلان ، من شاط يَشيط ، لقال أيُّما شائط ، ولكنه قال : أيما شاطنٍ ، لأنه من « شَطَن يَشْطُنُ ، فهو شاطن » .

تأويل قوله : ﴿ الرَّجِيمِ ﴾ .

وأما الرجيم فهو : فَعيل بمعنى مفعول ، كقول القائل : كفٌّ خضيبٌ ، ولحيةٌ دهين ، ورجل لعينٌ ، يريد بذلك : مخضوبة ومدهونة وملعون . وتأويل الرجيم : الملعون المشتوم . وكل مشتوم بقولٍ ردىء أو سبٍّ فهو مَرْجُوم . وأصلُ الرجم الرَّمْىُ ، بقول كان أو بفعل . ومن الرجم بالقول قول أبى إبراهيم لإبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [سورة مريم : ٤٦] .

وقد يجوز أن يكون قِيل للشيطان رجيمٌ ، لأن الله جل ثناؤه طرَده من سمواته ، ورجمه بالشُّهب الثَّواقب(٣) .

---

(١) زيادات ديوانه : ٢٠ .

(٢) ديوانه : ٥١ ، واللسان (شطن) و (عكا) . وعكاه فى الحديد والوثاق : شده شدًّا وثيقاً . والأكبال جمع كبل : وهو القيد من الحديد . وأظنه أراد هنا البيت فى السجن المضبب بالحديد ، من قولهم : كبله كبلا : حبسه فى سجن . هذا ما أستظهره من سياق الشعر .

(٣) الشهب ، جمع شهاب : وهو الشعلة من النار ، ثم استعير للكوكب الذى ينقض بالليل . والثواقب ، جمع ثاقب : وهو المضىء المشتعل .

وقد رُوى عن ابن عباس ، أن أول ما نزل جبريلُ على النبي صلى الله عليه وسلم عَلَّمه الاستعاذة .

١٣٧ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سَعيد ، قال: حدثنا بشر بن عُمَارة، قال : حدثنا أبو رَوْق، عن الضحّاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريلُ على محمد قال: « يا محمد استعذ ، قل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم »، ثم قال: قل: « بسم الله الرحمن الرحيم »، ثم قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] . قال عبد الله : وهي أول سورة أنزلها الله على محمد بلسان جبريل[1] .

فأمره أن يتعوذ بالله دون خلقه .

---

(١) الحديث ١٣٧ — نقله ابن كثير فى التفسير ١ : ٣٠ عن هذا الموضع من الطبرى ، وقال : « وهذا الأثر غريب ! وإنما ذكرناه ليعرف ، فإن فى إسناده ضعفاً وانقطاعاً » . وسيرويه الطبرى بعد ذلك ، برقمى ١٣٨ ، ١٣٩ ، بهذا الإسناد نفسه ، بأطول مما هنا . وسنذكر الضعف الذى أشار إليه ابن كثير : وقوله « استعذ » ليست فى المطبوعة .

أما عثمان بن سعيد ، فهو الزيات الأحول ، مترجم فى التهذيب ، وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١٥٢/١/٣ ، وروى عن أبيه أنه قال : « لا بأس به » . وأما بشر بن عمارة ، فهو الخثعمى الكوفى ، وهو ضعيف ، قال البخارى فى التاريخ الكبير ٨١/٢/١ « تعرف وتنكر » ، وقال النسائى فى الضعفاء: ص ٦ « ضعيف » ، وقال الدارقطنى : « متروك » ، وقال ابن حبان فى كتاب المجروحين : ص ١٢٥ رقم ١٣٢ : « كان يخطىء حتى خرج عن حد الاحتجاج به إذا انفرد ، ولم يكن يعلم الحديث ولا صناعته » ، وأما شيخه أبو روق — بفتح الراء وسكون الواو — فهو عطية بن الحارث الهمدانى ، وهو ثقة ، وقال أحمد والنسائى : « لا بأس به » .

وأما الانقطاع الذى أشار إليه ابن كثير ، فمن أجل اختلافهم فى سماع الضحاك بن مزاحم الهلالى من ابن عباس . وقد رجحنا فى شرح المسند : ٢٢٦٢ سماعه منه .

وكفى ببشر بن عمارة ضعفاً فى الإسناد ، إلى نكارة السياق الذى رواه وغرابته ! !

﴿القول فى تأويل﴾
﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

القول فى تأويل : ﴿ بِسْمِ ﴾ .

قال أبو جعفر : إن الله تعالى ذكره وتقدَّست أسماؤه أدَّب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وتقدَّم إليه فى وَصفه بها قبل جميع مُهمَّاته[1] ، وجعل ما أدَّبه به من ذلك وعلَّمه إياه، منه لجميع خلقه سُنَّةً يستَنُّون بها[2] ، وسبيلا يتَّبعونه عليها ، فبه افتتاح أوائل منطقهم[3] ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل: « بسم الله » ، على ما بطن من مراده الذى هو محذوف .

وذلك أن الباء من « بسم الله » مقتضية فعلاً يكون لها جالباً ، ولا فعلَ معها ظاهرٌ ، فأغنت سامعَ القائل « بسم الله » معرفتُه بمراد قائله ، عن إظهار قائل ذلك مُرادَه قولا[4] . إذْ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمراً، قد أحضر مَنطقُه به — إمّا معه، وإمّا قبله بلا فصْلٍ — ما قد أغنى سامِعَه عن دلالةٍ شاهدةٍ على الذى من أجله افتتح قِيلَه به[4] . فصار استغناءُ سامعِ ذلك منه عن إظهار ما حذف منه، نظيرَ استغنائه — إذا سمع قائلا قيل له : «ما أكلت اليوم ؟ » فقال: « طعاماً » — عن أن يكرِّر المسئولُ مع قوله « طعاماً » ، أكلت ، لما قد ظهر لديه من الدلالة على أن ذلك معناه[5] ، بتقدُّم مسئلة السائل إياه عما أكل . فمعقول إذاً أنَّ قول ٣٩/أ

(١) تقدم إليه بشىء : أمره بفعله أو إتيانه .

(٢) يقول : جعل الله ذلك سنة منه لجميع خلقه يستنون بها . فقدم قوله « منه لجميع خلقه » .

(٣) فى المطبوعة : « فى افتتاح . . . » ، والضمير فى « فبه » عائد إلى « ما أدبه به » .

(٤) فى المطبوعة : « من إظهار » ، « من دلالة شاهدة » .

(٥) معناه : أى ما يعنيه ويقصده .

القائل إذا قال: « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم افتتح تالياً سورةً ، أن إتباعه « بسم الله الرحمن الرحيم » تلاوةَ السورة، يُنبئ عن معنى قوله: « بسم الله الرحمن الرحيم ». ومفهومٌ به أنه مريد بذلك : أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم . وكذلك قوله: « بسم الله » عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله ، ينبئ عن معنى مراده بقوله « بسم الله » ، وأنه أراد بقِيلِه « بسم الله » ، أقوم باسم الله ، وأقعد باسم الله . وكذلك سائر الأفعال .

وهذا الذى قلنا فى تأويل ذلك ، هو معنى قول ابن عباس الذى : —

١٣٨ — حدثنا به أبوكريب ، قال: حدثنا عثمان بن سعيد ، قال: حدثنا بشر بن عُمَارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحّاك، عن عبد الله بن عباس، قال: إنّ أول ما نَزَل به جبريلُ على محمد ، قال: « يا محمد، قُل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم » ثم قال : « قل بسم الله الرحمن الرحيم » . قال: قال له جبريل: قل بسم الله يا محمد ، يقول : اقرأ بذكر الله ربك ، وقم واقعد بذكر الله(١) .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : فإن كان تأويلُ قول « بسم الله » ما وصفتَ، والجالبُ الباءَ فى « بسم الله » ما ذكرتَ، فكيف قيل « بسم الله» بمعنى أقرأ باسم الله ، أو أقوم أو أقعد باسم الله ؟ وقد علمتَ أن كلَّ قارئٍ كتابَ الله ، فبعَوْن الله وتوفيقه قراءتُه ، وأن كل قائم أو قاعد أو فاعلٍ فعلا ، فبالله قيامُه وقعودُه وفعلُه. وَهلاَّ — إذْ كان ذلك كذلك — قيل« بالله الرحمن الرحيم» ولم يُقَلْ « بسم الله » ؟ فإن قول القائل : أقوم وأقعد بالله الرحمن الرحيم ، أو أقرأ بالله — أوضحُ معنى لسامعه من قوله « بسم الله »، إذ كان قوله « أقوم أو أقعد باسم الله » ، يوهم سامعَه أن قيامه وقعوده بمعنى غيرِ الله .

قيل له، وبالله التوفيق : إن المقصودَ إليه من معنى ذلك غيرُ ما توهَّمته فى نفسك . وإنما معنى قوله « بسم الله »: أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء ،

(١) الحديث ١٣٨ — مضى مختصراً ، بهذا الإسناد ١٣٧ . وفصلنا القول فيه هناك .

أو أقرأ بتسميتى اللهَ ، أو أقوم وأقعد بتسميتى اللهَ وذكرِه — لا أنه يعنى بقيلِه « بسم الله » : أقوم بالله، أو أقرأ بالله ، فيكونَ قولُ القائل : أقرأ بالله، أو أقوم أو أقعد بالله — أولى بوجه الصواب فى ذلك من قوله « بسم الله » .

فإن قال : فإن كان الأمر فى ذلك على ما وصفتَ ، فكيف قيل : « بسم الله » وقد علمتَ أنّ الاسم اسمٌ ، وأن التسمية مصدرٌ من قولك سَمَّيت ؟

قيل : إن العربَ قد تخرج المصادرَ مبهمةً على أسماء مختلفة ، كقولهم : أكرمتُ فلاناً كرامةً. وإنما بناءُ مصدر «أفعلتُ»— إذا أخرج على فعله — «الإفعالُ». وكقولهم: أهنت فلاناً هَوَاناً ، وكلّمته كلاماً . وبناء مصدر: «فعّلت» التفعيل . ومن ذلك قول الشاعر :

أَكُفْراً بعــد رَدِّ المَوْتِ عنِّى وبعد عَطَائِكَ المِئَةَ الرِّتَاعَا[(١)]

يريد : إعطائك . ومنه قول الآخر :

وَإن كانَ هذا البُخْلُ منْك سَجيةً لقد كُنتُ فى طَولِى رَجَاءَكَ أَشْعَبَا[(٢)]

يريد : فى إطالتى رجاءك . ومنه قول الآخر :

أَظُلَيْمَ إنَّ مُصَابَكم رَجُلاً ، أَهْدَى السَّلامَ تحيَّةً ، ظُلْمُ[(٣)]

يريد : إصابتكم . والشواهد فى هذا المعنى تكثُرُ ، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفّق لفهمه .

---

(١) الشعر للقطامى ديوانه : ٤١ ، ويأتى فى تفسير آية سورة يوسف : ١٢ (ج ١٢ ص ٩٤ بولاق) . يقوله لزفر بن الحارث الكلابى ، وكان أسره فى حرب ، فمن عليه وأعطاه مئة من الإبل ، ورد عليه ماله . يقول : أأكفر بما أوليتنى ، وقد أعطيت ما أعطيت . والعطاء بمعنى الإعطاء ، ولذلك نصب به « المئة » . والرتاع جمع راتع : يعنى الإبل ترتع فى مرعى خصيب تذهب فيه وتجىء .

(٢) لم أجد البيت . وأشعب : الطماع الذى يضرب به المثل فى الطمع المستمر .

(٣) الشعر للحارث بن خالد المخزومى ، الأغانى ٩ : ٢٢٥ — ٢٢٦ ، وهذا البيت الذى من أجله أشخص الواثق إليه أبا عثمان المازنى النحوى ، وله قصة . انظر الأغانى ٩ : ٢٣٤ وغيره ، وفى المطبوعة : « أظلوم » ، والصواب من المخطوطة ، والأغانى وأمالى الشجرى ١ : ١٠٧ وغيرها . وهذه الشواهد السالفة استشهاد من الطبرى على أن الأسماء تقوم مقام المصادر فتعمل عملها فى النصب . وظليم : هى أم عمران ، زوجة عبد الله بن مطيع ، وكان الحارث ينسب بها ، فلما مات زوجها تزوجها .

فإذْ كان الأمر — على ما وصفنا ، من إخراج العرب مصادرَ الأفعال على غير بناء أفعالها — كثيراً ، وكان تصديرها إياها على مخارج الأسماء موجوداً فاشياً[1] ، فبيِّنٌ بذلك صَوابُ ما قلنا من التأويل فى قول القائل «بسم الله» ، أن معناه فى ذلك عند ابتدائه فى فعل أو قول : أبدأ بتسمية الله قبل فعلى أو قبل قولى.

وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن : «بسم الله الرحمن الرحيم» ، إنما معناه : أقرأ مبتدئاً بتسمية الله ، أو أبتدئ قراءتى بتسمية الله. فجُعِل «الاسمُ» مكان «التسمية» ، كما جُعل الكلامُ مكان التكليم ، والعطاءُ مكان الإعطاء. ١/٤٠

وبمثل الذى قلنا من التأويل فى ذلك ، رُوِى الخبر عن عبد الله بن عباس.

١٣٩ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمَارة ، قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : أوّل ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال : «يا محمد ، قل : أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم» ، ثم قال : «قل : بسم الله الرحمن الرحيم». قال : ابن عباس : «بسم الله» يقول له جبريلُ : يا محمد ، اقرأ بذكر الله ربّك ، وقم واقعد بذكر الله[2].

وهذا التأويل من ابن عباس ينبئ عن صحة ما قلنا — من أنه يراد بقول القائل مفتتحاً قراءته : «بسم الله الرحمن الرحيم» : أقرأ بتسمية الله وذكره ، وأفتتح القراءة بتسمية الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى — ويوضح فسادَ قول من زعم أن معنى ذلك من قائله : بالله الرحمن الرحيم أوّلِ كلّ شىء[3] ، مع أن العباد

---

(١) أراد بقوله : «تصديرها» : أى جعلها مصادر تصدر عنها صوادر الأفعال ، وذلك كقولك : ذهب ذهاباً ، فذهب صدرت عن قولك «ذهاب» ، ويعمل عندئذ عمل الفعل. وعنى أنهم يخرجون المصدر على وزن الاسم فيعمل عمله ، كقولك «الكلام» هو اسم ما تتكلم به ، ولكنهم قالوا : كلمته كلاماً ، فوضعوه موضع التكليم ، وأخرجوا من «كلم» مصدراً على وزن اسم ما تتكلم به ، وهو الكلام ، فكان المصدر : «كلاماً».

(٢) الحديث ١٣٩ — مضى هذا الخبر وتخريجه ، برقم ١٣٧.

(٣) قوله : «يوضح» ساقطة من المطبوعة. وفيها مكان : «أول كل . . .» ، «فى كل . . .».

إنما أمِروا أن يبتدئوا عند فواتح أمورِهم بتسمية الله، لا بالخبر عن عظمته وصفاته، كالذى أمِروا به من التسمية على الذبائح والصَّيد ، وعند المَطعم والمَشرب ، وسائر أفعالهم . فكذلك الذى أمِروا به من تسميته عند افتتاح تلاوة تنزيل الله ، وصدور رسائلهم وكتبهم .

ولا خلاف بين الجميع من علماء الأمة ، أن قائلاً لو قال عند تذكيته بعض بهائم الأنعام[1] : « بالله » ولم يقل : « بسم الله » أنه مخالف — بتركه قيلَ : « بسم الله » — ما سُنَّ له عند التذكية من القول . وقد عُلم بذلك أنه لم يُرد بقوله « بسم الله » « بالله » ، كما قال الزاعم أن اسمَ الله فى قول الله : « بسم الله الرحمن الرحيم » هو الله . لأن ذلك لو كان كما زعم ، لوجب أن يكون القائل عند تذكيته ذبيحتَه « بالله » ، قائلا ما سُنَّ له من القول على الذبيحة . وفى إجماع الجميع على أنّ قائلَ ذلك تاركٌ ما سُنَّ له من القول على ذبيحته — إذْ لم يقل « بسم الله » — دليلٌ واضح على فساد ما ادَّعى من التأويل فى قول القائل: « بسم الله » ، أنه مراد به « بالله » ، وأن اسم الله هو الله .

وليس هذا هو الموضع من مواضع الإكثار فى الإبانة عن الاسم : أهُوَ المسمى ، أمْ غيرُه ، أم هو صفة له ؟ فنطيل الكتاب به ، وإنما هذا موضع من مواضع الإبانة عن الاسم المضاف إلى الله : أهو اسمٌ ، أم مصدر بمعنى التسمية[2] ؟

---

(١) التذكية : النحر والذبح . ذكيت الشاة تذكية : ذبحتها .

(٢) استجاد أبو جعفر رضى الله عنه خير الرأى لحجته . والذى كتبه قبل ، وما يأتى بعد ، من أقوم ما قيل فى شرح هذا الموضع الذى لجت فيه العقول والأقلام . و بيان ما قال أبو جعفر : إن قولك « اسم » فى « بسم الله » ، إنما هو اسم مصدر (أو اسم حدث) ، أى هو فى الأصل اسم لما تفعل من تسميتك الشىء ، مثل « الكلام » اسم حدث لما تفعل من التكليم ، ومثل « العطاء » اسم حدث لما تفعل من الإعطاء ، ومثل « الغسل » ، اسم حدث لما تفعل من الاغتسال . وكأن أصله من قولك « سموت الشىء سموا » ، فأماتوا فعله الثلاثى و بقى مصدره ، « سمو» ، فحذفوا واوه المتطرفة ، فصار « سم » فأعاضوه منها ألفاً فى أوله ، فصار « اسم » ، كما كان قولك : « كلام » من فعل ثلاثى هو « كلم كلاماً » ، على مثال « ذهب ذهاباً » ، فأماتوا الفعل الثلاثى و بقى مصدره « كلام » ، فجعلوه اسم حدث لما تفعل من التكليم ، ثم أخرجوا مصدر الرباعى على مخرج اسم هذا الحدث ، فقالوا : «كلم يكلم كلاماً » ، بمعنى « كلم يكلم تكليما » .

فإن قال قائل: فما أنت قائلٌ فى بيت لبيد بن ربيعة :

إلَى الحَوْلِ ، ثم اسْمُ السَّلامِ عليكُمَا، ومن يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فَقَد اعتَذَر[١]

فقد تأوله مُقدَّم فى العلم بلغة العرب، أنه معنىٌ به : ثم السلام عليكما ، وأن اسمَ السلام هو السلام؟[٢]

قيل له : لوجاز ذلك وصح تأويله فيه على ما تأوّل ، لجاز أن يقال : رأيتُ اسم زيد ، وأكلتُ اسمَ الطعام ، وشربتُ اسمَ الشراب؛ وفى إجماع جميع العرب على إحالة ذلك، ما ينبئُ عن فساد تأويل من تأول قول لبيد : « ثمّ اسم السلام

فكذلك فعلوا فى قولهم « سمى يسمى تسمية » : أخرجوا لهذا الرباعى مصدراً على مخرج اسم الحدث وهو « اسم » ، فقالوا : « سمى يسمى اسماً » ؛ بمعنى « سمى يسمى تسمية » . فقولك « كلام » بمعنى « تكليم » وقولك « اسم » بمعنى « تسمية » صدُرا على مخارج أسماء الأحداث . وإذن فالمضاف إلى اسمه تعالى فى قولك « بسم الله » وأشباهها ، إنما هو مصدر صدر على مخرج اسم الحدث ، وهو اسم ، من فعل رباعى هو « سمى يسمى » ، فكان بمعنى مصدره وهو « تسمية » . وهو فى هذا المكان وأمثاله بمعنى المصدر «تسمية»، لا بمعنى اسم الحدث لما تفعل من التسمية. (انظر : ١٢٣-١٢٤ ،كلام الطبرى فى «أله»)

وهذا الذى قاله أبو جعفر رضى الله عنه أبرع ما قيل فى شرح هذا الحرف من كلام العرب . وقد أحسن النظر وأدقه ، حتى خفى على جلة العلماء الذين تكلموا فى شرح معنى « اسم » فى « بسم الله » وأشباهها، فأغفلوه إغفالا لخفائه وعورة مأتاه ، وإلفهم للكلام فى الذى افتتحوه من القول فى « الاسم » ، أهو المسمى أم غيره ، أم هو صفة له ، وما رسمه وما حده ؟ وهذا باب غير الذى نحن فيه ، فخلطوا فيه خلطاً ، فجاء الطبرى فحص الحق تمحيصاً ، وهو أرجح الآراء عندنا وأولاها بالتقديم ، لمن وفق لفهمه ، كما يقول أبو جعفر غفر الله له . وسيذكر بعد من الحجة ما يزيد المعنى وضوحاً وبياناً . ولولا خوف الإطالة ، لأتيت بالشواهد على ترجيح قول الطبرى الذى أغفلوه، على كل رأى سبقه أو أتى بعده .

(١) ديوانه، القصيدة رقم: ٢١، والخزانة ٢ : ٢١٧ ، ثم يأتى فى تفسير آية سورة التوبة: ٩٠ (١٠ : ١٤٤ بولاق) ، وآية سورة الرعد: ٣٥ (١٣ : ١٠٩). والشعر يقوله لابنتيه ، إذ قال :

تَمَنَّى ابنتَاىَ أن يعيشَ أبُوهما وهَلْ أنا إلاَّ من ربيعة أو مُضَرْ !

ثم أمرهما بأمره فقال قبل بيت الشاهد :

فقُوماَ فقولاَ بالذى قد علمتُما ولا تَخْمِشا وجْهاً ولا تَحْلِقا شَعَرْ

وقولاَ : هو المرءُ الّذى لا خليلَه أضاعَ ،ولاخانَ الصديقَ، ولا غدَرْ

فقوله « إلى الحول . . . » أى افعلا ذلك إلى أن يحول الحول . والحول : السنة كاملة بأسرها . وقوله « اعتذر » هنا بمعنى أعذر : أى بلغ أقصى الغاية فى العذر .

(٢) هذا المقدم فى العلم بلغة العرب ، هو أبو عبيدة معمر بن المثنى ، فى كتابه مجاز القرآن : ١٦ . وقد وقع بين ماضغى أسد ! وهذا الذى يأتى كله تقريع مرير من أبى جعفر لأبى عبيدة .

عليكما »، أنه أراد: ثم السلام عليكما، وادّعائه أن إدخال الاسم فى ذلك وإضافتَه إلى السلام إنما جاز، إذْ كان اسم المسمَّى هو المسمَّى بعينه.

ويُسأل القائلون قولَ من حكينا قولَه هذا، فيقال لهم: أتستجيزون فى العربية أن يقال: «أكلتُ اسمَ العسل»، يعنى بذلك: أكلت العسل، كما جاز عندكم: اسم السلام عليك، وأنتم تريدون: السلامُ عليك؟

فإن قالوا: نعم! خرجوا من لسان العرب، وأجازوا فى لغتها ما تخطّئه جميع العرب فى لغتها. وإن قالوا: لا، سئلوا الفرقَ بينهما: فلن يقولوا فى أحدهما قولاً إلا أُلزموا فى الآخر مثله.

فإن قال لنا قائل: فما معنى قول لبيد هذا عندك؟

قيل له: يحتمل ذلك وجهين، كلاهما غير الذى قاله من حكينا قوله.

أحدُهما: أن «السلام» اسمٌ من أسماء الله، فجائز أن يكون لبيد عنَى بقوله: «ثم اسم السلام عليكما»، ثم الزما اسمَ الله وذكرَه بعد ذلك، ودعا ذكرى والبكاءَ علىَّ، على وجه الإغراء. فرفعَ الاسم، إذْ أخّر الحرفَ الذى يأتى بمعنى الإغراء.[1] وقد تفعَلُ العربُ ذلك، إذا أخّرت الإغراء وقدمت المُغْرَى به، وإن كانت قد تنصبُ به وهو مؤخّر. ومن ذلك قول الشاعر:

يَا أَيُّها المائِحُ دَلْوِى دُونَكا! إنى رأيتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكا![2]

فأغرَى بـ«دونك» وهى مؤخرة، وإنما معناه: دونَك دلوى. فكذلك قول لبيد:

* إلى الحوْلِ، ثمّ اسمُ السَّلامُ عَلَيْكُمَا *

يعنى: عليكما اسمَ السلام، أى الزما ذكر الله ودعا ذكرى والوجدَ بى، لأن من بكى حَوْلاً على امرئ ميّت فقد اعتذر. فهذا أحد وجهيه.

---

(١) فى المطبوعة: «إذا وأخر». وقوله «فرفع الاسم»، يعنى ما فى قول لبيد «ثم اسم»، وكان حقه أن ينصب على الإغراء لو قال: «ثم عليكما اسم السلام» بتقديم الإغراء.

(٢) هذا رجز فى خبر طويل، الخزانة ٣: ١٧ قيل هزءاً برجل ألقوه فى بئر ثم رجزوا به. والمائح: هو الرجل الذى ينزل إلى قرار البئر إذا قل ماؤها، فيلق الدلاء فيملؤها بيده ويميح لأصحابه.

والوجه الآخر منهما : ثم تسميتي اللهَ عليكما ، كما يقول القائل للشيء يراه فيعجبه: « اسم الله عليك» يعوِّذه، بذلك من السوء، فكأنه قال : ثم اسمُ الله عليكما من السوء ، وكأنَّ الوجه الأول أشبه المعنيين بقول لبيد[1].

ويقال لمن وجه بيت لبيد هذا إلى أنَّ معناه: ثم السلام عليكما، أترَى ما قلنا — من هذين الوجهين — جائزاً ، أو أحدهما ، أو غيرَ ما قلتَ فيه ؟

فإن قال : لا ! — أبان مقدارَه من العلم بتصاريف وُجوه كلام العرب ، وأغنى خصمه عن مناظرته .

وإن قال : بَلى !

قيل له : فما برهانك على صحة ما ادَّعيت من التأويل أنه الصوابُ ، دون الذى ذكرتَ أنه محتملُه — من الوجه الذى يلزمنا تسليمه لك ؟ ولا سبيل إلى ذلك .

وأما الخبر الذى : —

١٤٠ — حدثنا به إسمعيل بن الفضل ، قال : حدثنا إبراهيم بن العلاء ابن الضحاك [وهو يلقب بزبريق] قال : حدثنا إسمعيل بن عياش ، عن إسمعيل بن يحيى ، عن ابن أبي مُليكة ، عمن حدثه ، عن ابن مسعود — ومِسْعَرِ ابن كِدَام، عن عطية، عن أبي سعيد — قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن عيسى بن مريم أسلمتْه أمُّه إلى الكتَّاب ليعلّمه، فقال له المعلم : اكتب«بسم» فقال له عيسى: وما « بسم » ؟ فقال له المعلم : ما أدرى ! فقال عيسى : الباء بهاءُ الله ، والسين سناؤه ، والميم مملكته[2] .

---

(١) الأول بغير شك أولى الأقوال بالصواب . فإنه كان قد أمر ابنتيه — كما قدمنا فى أبياته السالفة ، أن تقوما لتنوحا عليه بما أمرهما من ندبه وتأبينه ورثائه ، وأن تفعلا ذلك منذ يموت إلى أن يحول عليه الحول ، فلا معنى بعد أن يلقى السلام عليهما ، أى تحية المفارق ، بعد الحول ، فقد فارقهما منذ حول كامل. وأولى به أن يدعو لهما ، أو يستكفهما عما أمرهما به ، إذ قضتا ما أمرهما على الوجه الذى أحب ، « ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر » ، كأنه قال : كفا عندئذ عما أمرتكما ، فإن من بكى حولا فقد بلغ أقصى ما يسعه العذر . فسياق الشعر يقطع بترجيح ما ذهب إليه الطبرى عامة ، وإلى الجزم بأن معنى « ثم اسم السلام عليكما » هو : الزما ذكر الله ، ودعا ذكرى ، والبكاء على ، والوجد بى .

(٢) الحديث ١٤٠ — هذا حديث موضوع ، لا أصل له . وهو أطول من هذا ، وسيأتى بعضه برقمى ١٤٥ ، ١٤٧ ، فصل الطبرى كل قسم منه فى موضعه ، وفيه زيادة أخرى ، فى تفسير كلمات

ـ فأخشى أنْ يكون َغلطاً من المحدِّث ، وأن يكونأراد [ب س م] ، على سبيل ما يعلَّم المبتدئ من الصبيان فى الكتّاب حروف أبي جاد ، فغلط بذلك فوصَله ، فقال : « بسم » ، لأنه لا معنى لهذا التأويل إذا ُتلى « بسم الله الرحمن الرحيم » ، على ما يتلوه القارئ فى كتاب الله ، لاستحالة معناه عن المفهوم به عند جميع العرب وأهل لسانها ، إذا حُمِل تأويله على ذلك .

القول فى تأويل قول الله : ﴿ اللَّهِ ﴾ .

قال أبو جعفر : وأما تأويل قول الله تعالى ذكره « الله » ، فإنه على معنى ما رُوِى لنا عن عبد الله بن عباس ـ : هو الذى يَألَـهه كل شىء ، ويعبده كل خلْق .

« أبجد هوز » ، إلخ . رواه بطوله ابن حبان الحافظ ، فى كتاب المجروحين ، فى ترجمة إسمعيل بن يحيى ابن عبد الله التيمى ، رقم : ٤٤ ص ٨٥ ، وقال فى إسمعيل هذا : « كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات ، وما لا أصل له عن الأثبات ، لا تحل الرواية عنه ، ولا الاحتجاج به بحال » . ثم ضرب مثلا من أكاذيبه ، فروى الحديث بطوله ، عن محمد بن يحيى بن رزين العطار عن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك ، بالإسناد الثانى الذى هنا ، من حديث أبى سعيد الخدرى . وذكره ابن كثير فى التفسير ١ : ٣٥ نقلا عن ابن مردويه ، من حديث أبى سعيد وحده ، جمع فيه الأقسام الثلاثة التى فرقت هنا . ثم أشار إلى رواية الطبرى إياه . ثم قال : « وهذا غريب جدا ، وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات » ! وما أدرى كيف فات الحافظ ابن كثير أن فى إسناده هذا الكذاب ، فتسقط روايته بمرة ، ولا يحتاج إلى هذا التردد . وأما السيوطى ، فقد ذكره فى الدر المنثور ١ : ٨ ، ونسبه لابن جرير وابن عدى فى الكامل وابن مردويه وأبى نعيم فى الحلية وابن عساكر فى تاريخ دمشق والثعلبى ، ولم يغفل عن علته ؛ فذكر أنه « بسند ضعيف جدا » . وترجم الذهبى فى الميزان ١ : ١١٧ ، وتبعه ابن حجر فى لسان الميزان ١ : ٤٤١ — ٤٤٢ لإسمعيل بن يحيى هذا ، وفى ترجمته : « قال صالح بن محمد جزرة : كان يضع الحديث . وقال الأزدى : ركن من أركان الكذب ، لا تحل الرواية عنه . . . وقال أبو على النيسابورى الحافظ والدارقطنى والحاكم : كذاب » . وقال ابن حجر : « مجمع على تركه » . وذكر هو والذهبى هذا الحديث مثالا من أكاذيبه .

ثم إن إسناده الأول ، الذى رواه إسمعيل بن يحيى عن أبى مليكة ، فيه أيضاً راو مجهول ، وهو « من حدثه عن ابن مسعود » . وإسناده الثانى ، الذى رواه إسمعيل هذا عن مسعر بن كدام ، فيه أيضاً « عطية ابن سعد بن جنادة العوفى » ، وهو ضعيف ، ضعفه أحمد وأبو حاتم وغيرهما .

والزيادة بين قوسين ، فى لقب إبراهيم بن العلاء من المخطوطة . و « زبريق » : بكسر الزاى والراء بينهما باء موحدة ساكنة . وهو لقب إبراهيم ، فيما قيل . والصحيح أنه لقب أبيه ، فقد قال البخارى فى ترجمته فى الكبير ٣٠٧/١/١ : « زعم إبراهيم أن أباه كان يدعى زبريق » . وقال ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ١٢١/١/١ : « إبراهيم بن العلاء . . . يعرف بابن الزبريق » .

١٤١ — وذلك أنّ أبا كريب حدثنا ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمارة ، قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن عبد الله ابن عباس ، قال : « الله » ذو الألوهية والمَعْبودية على خلقه أجمعين[١] .

فإن قال لنا قائل : فهل لذلك فى « فعل ويفعل » أصل كان منه بناءُ هذا الاسم ؟

قيل : أمّا سماعاً من العرب فلا ، ولكن استدلالاً .

فإن قال : وما دلّ على أن الألوهية هى العبادة ، وأنّ الإله هو المعبود ، وأنّ له أصلا فى « فعل ويفعل » .

قيل : لا تمانع بين العرب فى الحكم لقول القائل[٢] — يصف رجلا بعبادة ، وبطلب ما عند الله جل ذكره : « تألّه فلان » — بالصحة ولا خلاف . ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج :

لِلهِ دَرُّ الغانيــــاتِ المُدَّهِ سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِن تَأَلُّهِي[٣]

يعنى : من تعبدى وطلبى اللهَ بعملى .

ولا شك أنّ « التألُّه » ، التفعُّل من « ألَه يأله » ، وأن معنى « أله » — إذا نُطق به : — عَبَدَ اللهَ . وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بـ « فعل يفعل » ، بغير زيادة .

١٤٢ — وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبى ، عن نافع ابن عُمر ، عن عَمرو بن دينار ، عن ابن عباس : أنه قرأ ﴿ وَيَذَرَكَ وإلاهَتَكَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٢٧] قال : عبادتَك ، ويقال : إنه كان يُعبَد ولا يَعبُد . ٤٢/١

---

(١) الحديث ١٤١ — إسناد هذا الخبر ضعيف ، كما فصلنا القول فيه ، فى إسناد الخبر ١٣٧ . وهذا الذى هنا نقله السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٨ مع باقيه الآتى برقم ١٤٨ بالإسناد نفسه . ونسبه السيوطى لابن جرير (وكتب فيه : ابن جريج ، خطأ مطبعيا) ، وابن أبى حاتم .

(٢) قوله « لا تمانع » ، أى لا اختلاف بينهم ، يدعو بعضهم إلى دفع مايقوله الآخر . وسيأتى مثله فى ص : ١٢٦ .

(٣) ديوانه : ١٦٥ . المده : جمع ماده . ومده فلاناً يمدهه مدهاً : نعت هيئته وجماله وأثنى عليه ومدحه . و « استرجعن » : قلن : إنا لله وإنا إليه راجعون . يقلنها حسرة عليه كيف تنسك وهجر الدنيا ، بعد الذى كان من شبابه وجماله وصبوته !

١٤٣ - حدثنا سفيان ، قال : حدثنا ابن عُيينة، عن عمرو بن دينار، عن محمد بن عمرو بن الحسن ، عن ابن عباس : ﴿ وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ ﴾ ، قال : إنما كان فرعونُ يُعبَد ولا يَعبُد[١] .

وكذلك كان عبدُ الله يقرؤها ومجاهد .

١٤٤ - حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: أخبرني حجاج، عن ابن جريج ، عن مجاهد : قوله « ويذرَكَ وإلاهتك » قال : وعبادتَك[٢] .

ولا شك أن الإلاهة - على ما فسره ابن عباس ومجاهد - مصدرٌ من قول القائل: ألَه اللهَ فلانٌ إلاهةً، كما يقال: عَبَد الله فلانٌ عبادةً، وعَبَرَ الرؤيا عبارةً . فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا : أنّ « أله » عَبد، وأن « الإلاهة » مصدرُه .

فإن قال : فإن كان جائزاً أن يقال لمن عبد الله : ألهه - على تأويل قول ابن عباس ومجاهد - فكيف الواجبُ فى ذلك أن يقال ، إذا أراد المخبر الخبرَ عن استيجاب الله ذلك على عَبْده ؟

---

(١) الخبران ١٤٢، ١٤٣ - إسناداهما ضعيفان ، من أجل « سفيان بن وكيع بن الجراح » ، شيخ الطبرى فيهما ، وسفيان هذا : ضعيف ، كان أبوه إماماً حجة ، وكان هو رجلا صالحاً ، ولكن وراقه أفسد عليه حديثه ، وأدخل عليه ما ليس من روايته . ونصحه العلماء أن يدعه فلم يفعل ، فمن أجل ذلك تركوه . قال ابن حبان فى كتاب المجروحين ، رقم ٤٧٠ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ : « فمن أجل إصراره على ما قيل له استحق الترك » .

وهذان الخبران ، سيذكرهما الطبرى فى تفسير آية سورة الأعراف : ١٢٧ (٩ : ١٨ بولاق) ، وهناك شىء من التحريف فى أحدهما . ونقل معناهما السيوطى فى الدر المنثور ٣ : ١٠٧ .

والقراءة الصحيحة المعروفة : (ويذرك وآلهتك) . وأما هذه القراءة « وإلاهتك » ، فقد نقلها صاحب إتحاف البشر : ٢٢٩ عن ابن محيصن والحسن . ونقلها ابن خالويه فى كتاب القراءات الشاذة : ٤٥ عن على وابن مسعود وابن عباس . وذكرها أبو حيان فى البحر ٤ : ٣٦٧ عن هؤلاء الثلاثة « وأنس وجماعة غيرهم » .

(٢) الخبر ١٤٤ - الحسين بن داود : اسمه « الحسين » ولقبه « سنيد » ، بضم السين المهملة وفتح النون . واشتهر بهذا اللقب ، وترجم به فى التهذيب ٤ : ٢٤٤ - ٢٤٥ ، وفى الجرح والتعديل ٣٢٦/١/٢ . وحجاج : هو ابن محمد المصيصى ، من شيوخ الإمام أحمد . وهذا الأثر عن مجاهد ، سيرويه الطبرى فى تفسير آية الأعراف (٩ : ١٨ بولاق) - بإسناد آخر .

قيل : أما الروايةُ فلا رواية فيه عندنا، ولكن الواجب — على قياس ما جاء به الخبرُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى : —

١٤٥ — حدثنابه إسمعيل بن الفضل، حدثنا إبراهيم بن العلاء، قال : حدثنا إسمعيل بن عياش ، عن إسمعيل بن يحيى ، عن ابن أبى مُليكة ، عمن حدثه عن ابن مسعود — ومِسْعَرابن كِدَام ،عن عطية العَوْفى ، عن أبى سعيد— قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ عيسى أسلمَتْه أمه إلى الكتّاب ليعلّمه فقال له المعلم اكتب « الله » فقال له عيسى : « أتدرى ما الله ؟ الله إلهُ الآلهة[1] » .

— أن يقال[2]: اللهُ جل جلاله ألَهَ العبدَ، والعبدُ ألَهَه . وأنْ يكون قولُ القائل « الله » — من كلام العرب أصله « الإله » .

فإن قال : وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك ، مع اختلاف لفظيهما ؟

قيل : كما جاز أن يكون قوله : ﴿لَـٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى﴾ [سورة الكهف : ٣٨] أصله : لكن أنا ، هو الله ربى ، كما قال الشاعر :

وتَرْمِينَنى بالطَّرْف،أىْ أنتَ مُذنبٌ ، وتَقْلِينَنى ، لٰكِنَّ إياكِ لا أَقْلِى[3]

يريد: لكن أنا إياك لا أقلى، فحذف الهمزة من« أنا » فالتقت نون « أنا » ونون «لكنْ» وهى ساكنة، فأدغمت فى نون « أنا » فصارتا نوناً مشددة . فكذلك « الله » أصله « الإله » ، أسقطت الهمزةُ التى هى فاء الاسم ، فالتقت اللام التى هى عين الاسم ، واللام الزائدة التى دخلت مع الألف الزائدة وهى ساكنة ، فأدغمت فى

---

(١) الحديث ١٤٥ — هو حديث لا أصل له . وهو جزء من الحديث الموضوع الذى روى الطبرى بعضه فيما مضى ١٤٠ ، بهذا الإسناد . وفصلنا القول فيه هناك .

(٢) قوله : « أن يقال » من تمام قوله فى السطر الثالث « ولكن الواجب — » خبر لكن .

(٣) الأضداد لابن الأنبارى : ١٦٣ ، والخزانة ٤ : ٤٩٠ ، وقال : « لم أقف على تتمته وقائله ، مع أنه مشهور ، قلما خلا منه كتاب نحوى ، والله أعلم » .

الأخرى التى هى عين الاسم ، فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشددة ، كما وصفنا من قول الله « لكنَّ هوَ الله ربّى » .

القول فى تأويل قوله : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

قال أبو جعفر : وأما « الرحمن » ، فهو فَعلان ، من رَحم ، و « الرحيم » فعيل منه . والعرب كثيراً ما تبنى الأسماء من « فَعِل يفْعَل » على « فعلان » ، كقولهم من غَضِب : غَضبان ، ومن سَكر : سكران ، ومن عَطش : عطشان . فكذلك قولهم « رَحمن » من رَحِمَ ، لأن « فعِلَ » منه : رَحم يرْحم . وقيل «رحيم» ، وإن كانت عين « فعِل» منها مكسورة ، لأنه مدح . ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء — إذا كان فيها مدح أو ذم — على «فعيل» . وإن كانت عين «فعل» منها مكسورةً أو مفتوحةً ، كما قالوا من « علم » عالم وعليم ، ومن « قدَر » قادر وقدير . وليس ذلك منها بناء على أفعالها ، لأن البناء من «فَعِل يفْعَل» و « فعَل يفعِل» فاعلٌ . فلو كان «الرحمن والرحيم» خارجين على بناء أفعالهما ، لكانت صورتهما «الراحم» .

فإن قال قائل : فإذا كان الرحمن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة ، فما وجهُ تكرير ذلك ، وأحدهما مؤدٍّ عن معنى الآخر ؟

قيل له : ليس الأمر فى ذلك على ما ظننتَ ، بل لكل كلمة منهما معنى لا تؤدى الأخرى منهما عنها .

فإن قال : وما المعنى الذى انفردت به كل واحدة منهما ، فصارت إحداهما غير مؤدية المعنى عن الأخرى ؟

قيل : أما من جهة العربية فلا تَمانُع[1] بين أهل المعرفة بلغات العرب ، أنَّ قول القائل : «الرحمن» — عن أبنية الأسماء من «فَعِل يفعَل» — أشدُّ عدولاً من قوله «الرّحيم» . ولا خلاف مع ذلك بينهم ، أنَّ كل اسم له أصل فى «فَعِلَ يفعَل» — ثم كان عن أصله

(١) لا تمانع : أى لا اختلاف بينهم ، يدعو بعضهم إلى دفع ما يقوله الآخر

من « فَعِل يفعَلُ » أشد عدولا — أنّ الموصوف به مفضَّل على الموصوف بالاسم المبنى على أصله من « فَعِل يفعَل » ، إذا كانت التسمية به مدحاً أو ذمّاً . فهذا ما فى قول القائل « الرحمن » ، من زيادة المعنى على قوله : الرحيم » فى اللغة . ٤٣/١

وأما من جهة الأثر والخبر ، ففيه بين أهل التأويل اختلاف : —

١٤٦ — فحدثنى السرى بن يحيى التيمى ، قال : حدثنا عثمان بن زفر ، قال : سمعت العَرْزَمى يقول : « الرحمن الرحيم » ، قال : الرحمن بجميع الخلق ، الرّحيم ، قال : بالمؤمنين[1] .

١٤٧ — حدثنا إسمعيل بن الفضل ، قال : حدثنا إبراهيم بن العلاء ، قال : حدثنا إسمعيل بن عياش ، عن إسمعيل بن يحيى ، عن ابن أبى مُليكة ، عمن حدثه ، عن ابن مسعود — ومسعر بن كدام ، عن عطية العَوفى ، عن أبى سعيد يعنى الخدرىّ — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ عيسى بن مريم قال : الرحمن رَحمنُ الآخرة والدنيا ، والرحيم رحيمُ الآخرة[2] .

فهذان الخبران قد أنبآ عن فرق ما بين تسمية الله جل ثناؤه باسمه الذى هو «رحمن» ، وتسميته باسمه الذى هو «رحيم» ، واختلافِ معنيي الكلمتين — وإن اختلفا فى معنى ذلك الفرق ، فدلّ أحدهما على أنّ ذلك فى الدنيا ، ودلّ الآخر على أنه فى الآخرة .

فإن قال : فأى هذين التأويلين أولى عندك بالصحة ؟

---

(١) الأثر ١٤٦ — نقله ابن كثير فى التفسير ١ . ٤٠ عن هذا الموضع . و « السرى بن يحيى ابن السرى التميمى الكوفى » ، شيخ الطبرى ، لم نجد له ترجمة إلا فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/١/٢٨٥ ، وقال « لم يقض لنا السماع منه ، وكتب إلينا بشىء من حديثه ، وكان صدوقاً » . و « العرزمى » المروى عنه هذا الكلام هنا ضعيف جدا ، قال الإمام أحمد فى المسند ٦٩٣٨ : « لا يساوى حديثه شيئاً » . وهو « محمد بن عبيد الله بن أبى سليمان العرزمى » . وأما عمه « عبد الملك بن أبى سليمان العرزمى » ، فإنه تابعى ثقة ، ولكنه قديم ، مات سنة ١٤٥ ، فلم يدركه « عثمان بن زفر » المتوفى سنة ٢١٨ و « العرزمى » بفتح العين المهملة وسكون الراء وبعدها زاى ، نسبة إلى « عرزم » . ووقع هنا فى الطبرى وابن كثير « العزرمى » ، بتقديم الزاى على الراء ، وهو تصحيف .

(٢) الحديث ١٤٧ — هذا إسناد ضعيف ، بل إسنادان ضعيفان ، كما فصلنا فيما مضى : ١٤٠ ، ١٤٥ .

قيل : لجميعهما عندنا فى الصحة مخرج، فلا وجه لقول قائل : أيُّهما أولى بالصحة ؟ وذلك أنّ المعنى الذى فى تسمية الله بالرحمن ، دون الذى فى تسميته بالرحيم : هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميعَ خلقه ، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعضَ خلقه، إما فى كل الأحوال، وإما فى بعض الأحوال . فلا شك — إذ كان ذلك كذلك — أنّ ذلك الخصوص الذى فى وصفه بالرحيم ، لا يستحيل عن معناه ، فى الدنيا كان ذلك أو فى الآخرة، أو فيهما جميعاً .

فإذ كان صحيحاً ما قلنا من ذلك — وكان الله جل ثناؤه قد خصّ عباده المؤمنين فى عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته ، والإيمان به وبرسله، واتباع أمره واجتناب معاصيه؛ مما خُذِل عنه من أشرك به، وكفر ، وخالف ما أمره به، وركب معاصيَه؛ وكان مع ذلك قد جعلَ ، جَلّ ثناؤه، ما أعد فى آجل الآخرة فى جناته من النعيم المقيم والفوز المبين، لمن آمن به ، وصدّق رسله، وعمل بطاعته، خالصاً ، دون من أشرك وكفر به —(1) كان بيِّناً أن الله قد خص المؤمنين من رحمته فى الدنيا والآخرة ، مع ما قد عمَّهم به والكفارَ فى الدنيا من الإفضال والإحسان إلى جميعهم فى البَسْط فى الرزق ، وتسخير السحاب بالغَيْث ، وإخراج النبات من الأرض ، وصحة الأجسام والعقول ، وسائر النعم التى لا تُحصى ، التى يشترك فيها المؤمنون والكافرون .

فربُّنا جل ثناؤه رحمنُ جميع خلقه فى الدنيا والآخرة ، ورحيمُ المؤمنين خاصةً فى الدنيا والآخرة . فأما الذى عمّ جميعَهم به فى الدنيا من رحمته فكان رَحماناً لهم به، فما ذكرنا مع نظائره التى لا سبيل إلى إحصائها لأحد من خلقه، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤ ، وسورة النحل : ١٨] .
وأما فى الآخرة ، فالذى عمّ جميعهم به فيها من رحمته ، فكان لهم رحماناً ، فى تسويته

---

(١) جواب قوله « فإذ كان صحيحاً . . . » . وما بينهما فصل .

بين جميعهم جل ذكرُه فى عَدله وقضائه ، فلا يظلم أحداً منهم مِثْقال ذَرّة ، وإن تَكُ حسنةً يُضاعفها ويُؤتِ من لَدُنْهُ أجراً عظيما ، وتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ. فذلك معنى عمومه فى الآخرة جميعَهم برحمته ، الذى كان به رحماناً فى الآخرة.

وأما ما خص به المؤمنين فى عاجل الدنيا من رحمته ، الذى كان به رحيما لهم فيها ، كما قال جل ذكره : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب : ٤٣] — فما وصفنا من اللطف لهم فى دينهم ، فخصّهم به ، دونَ من خذَله من أهل الكفر به . ١/٤٤ وأمَّا ما خصّهم به فى الآخرة ، فكان به رحيما لهم دون الكافرين ، فما وصفنا آنفاً مما أعدّ لهم دون غيرهم من النعيم ، والكرامة التى تقصرُ عنها الأمانىّ .

وأما القول الآخر فى تأويله فهو ما :—

١٤٨— حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر ابن عمارة ، قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : الرحمن ، الفعلان من الرحمة ، وهو من كلام العرب . قال : الرّحمن الرحيم : الرقيقُ الرفيقُ بمن أحبّ أن يرحمه ، والبعيد الشديد على من أحب أن يَعنُف عليه[1] . وكذلك أسماؤه كلها .

وهذا التأويل من ابن عباس يدل على أن الذى به ربُّنا رحمن ، هو الذى به رحيم ، وإن كان لقوله « الرحمن » من المعنى ، ما ليس لقوله « الرحيم » . لأنه جعل معنى « الرحمن » بمعنى الرقيق على من رقّ عليه ، ومعنى « الرحيم » بمعنى الرفيق بمن رفق به .

والقول الذى رويناه فى تأويل ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وذكرناه عن العرْزَمى[2] ، أشبه بتأويله من هذا القول الذى رويناه عن ابن عباس . وإن

---

(١) الحديث ١٤٨ — نقله ابن كثير فى التفسير ١ : ٤١ من هذا الموضع ، وقد مضى الكلام فى هذا الإسناد ، وبيان ضعفه : ١٣٧ ، ١٤١ . والذى فى الدر المنثور ١ : ٨ — ٩ « على من أحب أن يضعف عليه العذاب » ، والظاهر أنه تصرف من ناسخ أو طابع .

(٢) إشارة إلى ما مضى : ١٤٦ ، ووقع فى الأصول هنا « العزرمى » أيضاً ، بتقديم الزاى ، وهو خطأ ، كما بينا من قبل .

كان هذا القول موافقاً معناه معنى ذلك ، فى أن للرحمن من المعنى ما ليس للرحيم ، وأن للرحيم تأويلا غيرَ تأويل الرحمن .

والقول الثالث فى تأويل ذلك ما :—

١٤٩— حدثنى به عمران بن بَكّار الكلاعى ، قال : حدثنا يحيى بن صالح ، قال : حدثنا أبو الأزهر نصر بن عمرو اللَّخمى من أهل فِلَسْطين ، قال : سمعت عطاء الخراسانى يقول : كان الرحمن ، فلما اختزلَ الرحمن من اسمه كان الرحمنَ الرحيمَ[1] .

والذى أراد ، إن شاء الله ، عطاءٌ بقوله هذا : أن الرحمن كان من أسماء الله التى لا يتسمَّى بها أحد من خَلْقه ، فلما تسمَّى به الكذابُ مسيلمة — وهو اختزاله إياه ، يعنى اقتطاعه من أسمائه لنفسه — أخبر الله جلّ ثناؤه أن اسمه «الرحمنُ الرحيمُ» ليفصِل بذلك لعباده اسمَهُ من اسم من قد تسمَّى بأسمائه ، إذ كان لا يسمَّى أحد «الرحمن الرحيم» ، فيجتمع له هذان الاسمان ، غيره جلّ ذكره . وإنما يتسمَّى بعضُ خَلْقه إما رحيما ، أو يتسمَّى رَحمن . فأما «رحمن رحيم» ، فلم يجمعا قطّ لأحد سواهُ ، ولا يجمعان لأحد غيره . فكأنّ معنى قول عطاء هذا : أن الله جل ثناؤه إنما فَصَل بتكرير الرحيم على الرحمن ، بين اسمه واسم غيره من خلقه ، اختلف معناهما أو اتفقا .

والذى قال عطاءٌ من ذلك غيرُ فاسد المعنى ، بل جائز أن يكون جلّ ثناؤه خصّ نفسه بالتسمية بهما معاً مجتمعين ، إبانةً لها من خلقه ، ليعرف عبادُه بذكرهما مجموعينِ أنه المقصود بذكرهما دون مَنْ سواه من خلقه ، مع مَا فى تأويل كل واحد منهما من المعنى الذى ليس فى الآخر منهما .

---

(١) الأثر ١٤٩ — نقله السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٩ ونسبه للطبرى وحده . وعطاء الخراسانى هو عطاء بن أبى مسلم ، وهو ثقة ، وضعفه بعض الأئمة . وهو كثير الرواية عن التابعين ، وكثير الإرسال عن الصحابة ، فى سماعه منهم خلاف . وأما الراوى عنه «أبو الأزهر نصر بن عمرو اللخمى» ، فإنى لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من المراجع ، إلا قول الدولابى فى الكنى والأسماء ١ : ١١٠ : «أبو الأزهر الفلسطينى نصر بن عمرو اللخمى ، روى عنه يحيى بن صالح الوحاظى» .

وقد زعم بعضُ أهل الغَباء أنّ العرب كانت لا تعرف « الرحمن »، ولم يكن ذلك فى لغتها[1] ، ولذلك قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم : ﴿وَمَا الرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [سورة الفرقان : ٦٠] ، إنكاراً منهم لهذا الاسم . كأنه كان محالاً عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته ، أوْ : لاَ ، وكأنه لم يتْلُ من كتاب الله قول الله ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ — يعنى محمداً — ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [سورة البقرة : ١٤٦] ، وهم مع ذلك به مكذِّبون ، ولنبوته جاحدون! فيَعلمَ بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقةَ ما قد ثبت عندهم صحتُه ، واستحكمتْ لديهم معرفتُه . وقد أنشِد لبعض الجاهلية الجهلاء :

أَلاَ ضربَتْ تلكَ الفتاةُ هَجِينَهَا ... أَلا قَضَبَ الرحْمَنُ رَبِّى يَمِينَها[2]

وقال سلامة بن جَندل السَّعْدى[3] :

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَيْنَا عَلَيْكُمُ ... وَمَا يَشَإِ الرحْمَنُ يَعْقِدْ ويُطْلِقِ[4]

---

(١) لا يزال أهل الغباء فى عصرنا يكتبونه ، ويتبجحون بذكره فى محاضراتهم وكتبهم ، نقلا عن الذين يتتبعون ما سقط من الأقوال ، وهم الأعاجم الذين يؤلفون فيما لا يحسنون باسم الاستشراق . ورد الطبرى مفحم لمن كان له عن الجهل والخطأ ردة تنهاه عن المكابرة .

(٢) لم أجد قائل البيت . واستشهد به ابن سيدة فى المخصص ١٧ : ١٥٢ ، وعلق على البيت محمد محمود التركزى الشنقيطى ، وادعى أن البيت مصنوع ، وأن « بعض الرجال الذين يحبون إيجاد الشواهد المعدومة لدعاويهم المجردة ، صنعه ولفقه ، وأن الوضع والصنعة ظاهران فيه ظهور شمس الضحى ، وركاكته تنادى جهاراً بصحة وضعه وصنعته ، والصواب وهو الحق المجمع عليه ، أن الشاعر الجاهلى المشار إليه ، هو الشنفرى الأزدى ، وهذا البيت ليس فى شعره » ، وأنه ملفق من قول الشنفرى :

أَلا لَيْتَ شِعْرِى ، والتلَهُّفُ ضَلَّةٌ ... بما ضَرَبَتْ كَفُّ الفَتَاةِ هَجِينَهَا

والشنقيطى رحمه الله كان كثير الاستطالة ، سريعاً إلى المباهاة بعلمه وروايته . والذى قاله من إدعاء الصنعة لا يقوم . وكفى بالبيت الذى يليه دليلا على فساد زعمه أن الدافع لصنعته : إيجاد الشواهد المعدومة ، لدعاوى مجردة . وليس فى البيت ركاكة ولا صنعة .

(٣) فى المخطوطة والمطبوعة : « الطهوى » مكان السعدى ، وهو خطأ . ليس سلامة طهويا .

(٤) ديوانه : ١٩ ، وقد جاء فى طبقات فحول الشعراء : ١٣١ فى نسب الشاعر : سلامة بن جندل بن عبد الرحمن » ، وهذه رواية ابن سلام ، وغيره يقول : « ابن عبد » ، فإن صحت رواية ابن سلام ، فهى دليل آخر قوى على فساد دعوى الشنقيطى .

وقد زعم أيضاً بعضُ من ضعُفت معرفتُه بتأويل أهل التأويل ، وقلّت روايته
١/٤٥ لأقوال السلف من أهل التفسير ، أنّ « الرحمن » مجازه: ذو الرحمة ، « والرحيم » مجازه: الرّاحم[1] . ثم قال : قد يقدّرون اللفظين من لفظٍ والمعنى واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم . قال : وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونَديم، ثم استشهد ببيتِ بُرْجِ بن مُسْهِرٍ الطائى :

وَنَدْمَانٍ ، يَزِيدُ الكَأْسَ طِيباً ، سَقَيْتُ وَقَدْ تَغَوَّرَتِ النُّجُومُ[2]

واستشهد بأبياتٍ نظائرِه فى النَّديم والنَّدمان ، ففرق بين معنى الرحمن والرحيم فى التأويل لقوله :الرحمن ذو الرحمة ، والرحيم الراحم ، وإن كان قد ترك بيان تأويل معنيَيْهما على صحته. ثم مثّل ذلك باللّفظين يأتيان بمعنى واحد ، فعاد إلى ما قد جعله بمعنيين ، فجعله مثال ما هو بمعنى واحد مع اختلاف الألفاظ .

ولا شك أن ذا الرحمة هو الذى ثبت أن له الرحمة، وصحّ أنها له صفة ؛ وأن الراحم هو الموصوف بأنه سيرحم ، أو قد رحم فانقضى ذلك منه ، أو هو فيه . ولا دلالة له فيه حينئذ أن الرحمة له صفة، كالدلالة على أنها له صفة، إذا وُصِف بأنه ذو الرحمة . فأين معنى « الرحمن الرحيم » على تأويله ، من معنى الكلمتين تأتيان مقدّرتين من لفظ واحد باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى ؟ ولكن القول إذا كان على غير أصل معتمد عليه ، كان واضحاً عوارُه .

وإن قال لنا قائل : ولم قدّم اسمَ الله الذى هو « الله » ، على اسمه الذى هو « الرحمن » ، واسمه الذى هو « الرحمن » ، على اسمه الذى هو « الرحيم » ؟

قيل : لأن من شأن العرب ، إذا أرادوا الخبر عن مُخبَرٍ عنه ، أن يقدّموا اسمه ، ثم يتبعونه صفاتِه ونعوتَه . وهذا هو الواجب فى الحُكم : أن يكون الاسم مقدّماً قبل نعته وصفته، ليعلم السامع الخبرَ، عمَّن الخبرُ . فإذا كان ذلك كذلك —

(١) الذى عناه الطبرى ، هو أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه « مجاز القرآن » : ٢١ ، وقد نقل أكثر كلامه الآتى بنصه .

(٢) حماسة أبى تمام ٣ : ١٣٥ ، والمؤتلف والمختلف للآمدى : ٦٢ .

وكانَ لله جلّ ذكره أسماءٌ قد حرَّم على خلقه أن يتسمَّوا بها، خصَّ بها نفسه دونهم، وذلك مثلُ «الله» و«الرحمن» و«الخالق»؛ وأسماءٌ أباحَ لهم أن يُسمِّيَ بعضهم بعضاً بها، وذلك: كالرحيم والسميع والبصير والكريم، وما أشبه ذلك من الأسماء — كان الواجب أن تقدَّم أسماؤه التي هي له خاصة دون جميع خلقه، ليعرف السامعُ ذلك مَنْ توجَّه إليه الحمد والتمجيدُ، ثم يُتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره، بعد علم المخاطب أو السامع من توجَّه إليه ما يتلو ذلك من المعاني. فبدأ الله جل ذكره باسمه الذي هو «الله»، لأن الألوهية ليست لغيره جلّ ثناؤه من وجهٍ من الوجوه، لا من جهة التسمِّي به، ولا من جهة المعنى. وذلك أنا قد بيَّنا أن معنى «الله» تعالى ذكره معنى المعبود[1]، ولا معبودَ غيرهُ جل جلاله، وأن التسمِّي به قد حرَّمه الله جل ثناؤه، وإن قصد المتسمِّي به ما يقصدُ المتسمِّي بسعيد وهو شقي، وبحسَنٍ وهو قبيح.

أوَلا ترى أنّ الله جلّ جلاله قال في غير آية من كتابه: ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ فاستكبر ذلك من المقرِّ به، وقال تعالى في خُصوصه نَفسَه بالله وبالرحمن: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: ١١٠]. ثم ثنَّى باسمه الذي هو «الرحمن»، إذ كان قد مَنع أيضاً خلقه التسمي به، وإن كان من خلْقه من قد يستحق تسميته ببعض معانيه. وذلك أنه قد يجوز وصْف كثير ممنّ هو دون الله من خلقه، ببعض صفات الرحمة. وغير جائز أن يستحق بعضَ الألوهية أحد دونه. فلذلك جاء الرحمن ثانياً لاسمه الذي هو «الله». وأما اسمه الذي هو «الرحيم» فقد ذكرنا أنه مما هو جائز وصْف غيره به. والرحمة من صفاته جل ذكره، فكان — إذ كان الأمرُ على ما وصفنا — واقعاً مواقع نعوت الأسماء اللواتي هنّ توابعُها، بعد تقدم الأسماء عليها. فهذا وجه تقديم اسم الله

---

(١) في المطبوعة: «أن معنى الله هو المعبود».

الذى هو « الله » ، على اسمه الذى هو « الرحمن » ، واسمه الذى هو « الرحمن » ، على اسمه الذى هو « الرحيم » [(١)] .

٤٦/١ وقد كان الحسنُ البصرىّ يقولُ فى « الرحمن » مثل ما قلنا ، أنه من أسماء الله التى َمنعَ التسمىَ بها العبادَ[(٢)] .

١٥٠ـ حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا حماد بن مسعدة ، عن عوف ، عن الحسن ، قال : « الرحمن » اسمٌ ممنوع[(٣)] .

مع أن فى إجماع الأمة من منع التسمِّى به جميعَ الناس ، ما يُغنى عن الاستشهاد على صحة ما قلنا فى ذلك بقول الحسن وغيره .

---

(١) هذا الاحتجاج من أجود ما قيل ، ودقته تدل على حسن نظر أبى جعفر فيما يعرض له . وتفسيره كله شاهد على ذلك . رحمة الله عليه .

(٢) غيروه فى المطبوعة : « لعباده » .

(٣) الأثر ١٥٠ ـ نقله ابن كثير فى التفسير ١ : ٤١ ـ ٤٢ عن هذا الموضع . والسيوطى فى الدر المنثور ١ : ٩ ، ونسبه للطبرى وحده . و « عوف » الراويه عن الحسن : هو عوف بن أبى جميلة العبدى ، المعروف بابن الأعرابى ، وهو ثقة ثبت .

﴿القول فى تأويل فاتحة الكتاب﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ :

قال أبو جعفر : ومعنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ : الشكر خالصاً لله جل ثناؤه دون سائر ما يُعبد من دونه ، ودون كلّ ما بَرأ من خلقه[1] ، بما أنعم على عباده من النِّعم التى لا يُحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحدٌ ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلَّفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغَذَاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبَّههم عليه ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدِّية إلى دوام الخلود فى دار المُقام فى النعيم المقيم . فلربِّنا الحمدُ على ذلك كله أولاً وآخراً .

وبما ذكرنا من تأويل قول ربنا جلّ ذكره وتقدَّست أسماؤه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ، جاء الخبرُ عن ابن عباس وغيره : —

١٥١— حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمارة : ، قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : قال جبريل لمحمد صلى الله عليهما : قل يا محمد «الحمدُ لله» قال ابن عباس : «الحمد لله» : هو الشكر لله ، والاستخذاء لله ، والإقرار بنعمته وهدايته وابتدائه ، وغير ذلك[2] .

---

(١) فى المطبوعة «ما يرى» ، والصواب من المخطوطة وابن كثير ١ : ٤٢ .

(٢) الحديث ١٥١ — هذا الإسناد سبق بيان ضعفه فى ١٣٧ . و«محمد بن العلاء» شيخ الطبرى : هو «أبو كريب» نفسه فى الإسناد السابق ، مرة يسميه ومرة يكنيه . وهذا الحديث نقله ابن كثير فى التفسير ١ : ٤٣ ، والسيوطى فى الدر المنثور ١ : ١١ ، والشوكانى فى تفسيره الذى سماه فتح القدير ١ : ١٠ ، ونسبوه أيضاً لابن أبى حاتم فى تفسيره .

١٥٢ــ حدثني سعيد بن عمر السَّكُونِي، قال: حدثنا بقية بن الوليد، قال: حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حَبيب، عن الحكم بن عُمَيْر ــ وكانت له صحبة ــ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: إذا قلت «الحمد لله ربِّ العالمين»، فقد شكرت الله، فزادك(١).

(١) الحديث ١٥٢ ــ نقله ابن كثير ١ : ٤٣ بإسناد الطبري هذا، وذكره السيوطي في الدر المنثور ١ : ١١ ونسبه للطبري والحاكم في تاريخ نيسابور والديلمي «بسند ضعيف». وإسناده ضعيف حقاً، بل هو إسناد لا تقوم له قائمة، كما سنذكر:

أما بقية بن الوليد، فالحق أنه ثقة، وإنما نعوا عليه التدليس، ولا موضع له هنا، فإنه صرح بالتحديث.

ولكن عيسى بن إبراهيم، وهو القرشي الهاشمي، كل البلاء منه في هذا الحديث، وفي أحاديث من نحوه، رواها بهذا الإسناد. وقد قال فيه البخاري في الضعفاء: ٢٧: «منكر الحديث»، وكذلك النسائي: ٢٢. وترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٣ / ١ / ٢٧١ ــ ٢٧٢، وروى عن أبيه قال: «متروك الحديث»، وعن ابن معين: «ليس بشيء»، وقال ابن حبان في الضعفاء، الورقة ١٦٣: «لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد». وترجمته في الميزان ولسان الميزان فيها العجب.

وشيخه «موسى بن أبي حبيب» مثله: ضعيف تالف، وقال الذهبي في الميزان: «ضعفه أبو حاتم، وخبره ساقط. وله عن الحكم بن عمير، رجل قيل: له صحبة. والذي أراه أنه لم يلقه. وموسى ــ مع ضعفه ــ فمتأخر عن لقي صحابي كبير». فالبلاء من هذين أو من أحدهما.

حتى لقد شك بعض الحفاظ في وجود الصحابي نفسه «الحكم بن عمير»، من أجلهما! فترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١/ ٢ / ١٢٥، قال: «الحكم بن عمير: روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، لا يذكر السماع ولا لقاء، أحاديث منكرة، من رواية ابن أخيه موسى بن أبي حبيب، وهو شيخ ضعيف الحديث، ويروى عن موسى بن أبي حبيب عيسى بن إبراهيم، وهو ذاهب الحديث، سمعت أبي يقول ذلك».

وحتى إن الذهبي أنكر صحبته وترجم له في الميزان، وأخطأ في النقل فيه عن أبي حاتم، ذكر أنه ضعف الحكم! وكلام أبي حاتم ــ كما ترى ــ غير ذلك. وتعقبه الحافظ في لسان الميزان ٢ : ٣٣٧ وأثبت أنه صحابي، بما ذكره ابن عبد البر وابن منده وأبو نعيم والترمذي وغيرهم، وأن الدارقطني قال: «كان بدرياً».

وقد ذكره ابن حبان في كتاب الثقات (ص ٥٤) في طبقة الصحابة، وقال: «يقال إن له صحبة». ونقل الحافظ هذا في اللسان عن ابن حبان، ولكن سها فزعم أنه ذكره «في ثقات التابعين».

وترجمه ابن عبد البر في الاستيعاب، رقم ٤٧٦: باسم «الحكم بن عمرو الثمالي، وثمالة في الأزد، شهد بدراً، ورويت عنه أحاديث مناكير من أحاديث أهل الشام، لا تصح». وتسمية أبيه باسم «عمرو» خطأ قديم في نسخ الاستيعاب، لأن ابن الأثير تبعه في أسد الغابة ١ : ٢٦، وأشار إلى الغلط فيه، ثم ترجمه على الصواب: «الحكم بن عمير» ١ : ٢٧، وترجمه ابن سعد في الطبقات ١٣٤/٢/٧ على الصواب: «الحكم بن عمير الثمالي، من الأزد، وكان يسكن حمص». وحقق الحافظ ترجمته في الإصابة ٢ : ٣٠ تحقيقاً جيداً.

قال : وقد قيل : إنّ قول القائل « الحمد لله »، ثناء على الله بأسمائه وصفاته الحُسنى ، وقوله : « الشكر لله » ، ثناءٌ عليه بنعمه وأياديه .

وقد رُوِى عن كعب الأحبار أنه قال : « الحمدُ لله » ، ثناءٌ على الله. ولم يبيّن في الرواية عنه ، من أي معنيي الثناء اللذين ذكرنا ذلك .

١٥٣— حدثنا يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفِى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : حدثنى عمر بن محمد ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن أبيه قال : أخبرنى السلولى عن كعب ، قال : من قال « الحمد لله » ، فذلك ثناء على الله [1] .

١٥٤— حدثنى على بن الحسن الخرّاز ، قال : حدثنا مسلم بن عبد الرحمن الجَرْمى ، قال : حدثنا محمد بن مصعب القُرْقُسانى ، عن مُبارك بن فَضالة ، عن الحسن ، عن الأسود بن سريع : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ليس شىءٌ أحبَّ إليه الحمد ، من الله تعالى ، ولذلك أثنى على نَفسه فقال : « الحمد لله »[2] .

---

(١) الخبر ١٥٣ — هذا الإسناد صحيح ، وسواء صح أم ضعف ، فلا قيمة له ، إذ منتهاه إلى كعب الأحبار . وما كان كلام كعب حجة قط ، فى التفسير وغيره . و « الصدفى » : بفتح الصاد والدال المهملتين ، نسبة إلى « الصدف » بفتح الصاد وكسر الدال ، وهى قبيلة من حمير ، نزلت مصر . و « السلولى » ، هو : عبد الله بن ضمرة السلولى ، تابعى ثقة .

وهذا الخبر — عن كعب — ذكره ابن كثير ١ : ٤٣ دون إسناد ولا نسبة . وذكر السيوطى ١ : ١١ ونسبه للطبرى وابن أبى حاتم .

(٢) الحديث ١٥٤ — إسناده صحيح . على بن الحسن بن عبدويه أبو الحسن الخراز ، شيخ الطبرى : ثقة ، مترجم فى تاريخ بغداد ١١ : ٣٧٤ — ٣٧٥ . و « الخراز » : ثبت فى الطبرى بالخاء والراء وآخره زاى . وفى تاريخ بغداد « الخزاز » بزاءين ، ولم نستطع الترجيح بينهما . مسلم بن عبد الرحمن الجرمى : مترجم فى لسان الميزان ٦ : ٣٢ باسم « مسلم بن أبى مسلم » فلم يذكر اسم أبيه ، وهو هو . ترجمه الخطيب فى تاريخ بغداد ١٣ : ١٠٠ ، قال : « مسلم بن أبى مسلم الجرمى ، وهو مسلم بن عبد الرحمن » ، وقال : « كان ثقة ، نزل طرسوس ، وبها كانت وفاته » . و « الجرمى » : رسمت فى أصول الطبرى ولسان الميزان « الحرمى » بدون نقط . ولكنهم لم ينصوا على ضبطه . وعادتهم فى مثل هذا أن ينصوا على ضبط القليل والشاذ ، وأن يدعوا الكثير الذى يأتى على الجادة فى الضبط ، والجادة فى هذا الرسم « الجرمى » بالجيم ، وبذلك رسم فى تاريخ بغداد ، فمن هذا أو ذاك رجحناه . و « محمد بن مصعب القرقسانى » ، و « مبارك بن فضالة » : مختلف فيهما . وقد رجحنا توثيقهما فى شرح المسند : الأول فى ٣٠٤٨ ، والثانى فى ٥٢١ . و « الحسن » : هو البصرى ، وقد أثبتنا فى شرح صحيح ابن حبان ، فى الحديث ١٣٢ أنه سمع من الأسود بن سريع .

قال أبو جعفر : ولا تمانُعَ بين أهل المعرفة بلغات العرب من الحُكْمِ[١] — لقول القائل: «الحمد لله شكراً» — بالصحة. فقد تبيّن — إذْ كان ذلك عند جميعهم صحيحاً — أنّ الحمد لله قد يُنطق به فى موضع الشكر ، وأن الشكر قد يوضع موضعَ الحمد . لأن ذلك لو لم يكن كذلك، لما جاز أن يُقال« الحمد لله شكراً » ، فيُخْرِج من قول القائل «الحمد لله» مُصَدَّرَ: «أشكُرُ» ، لأن الشكر لولم يكن بمعنى الحمد، كان خطأ أن يُصَدَّرَ من الحمد غيرُ معناه وغير لفظه[٢] .

فإن قال لنا قائل : وما وجه إدخال الألف واللام فى الحمد ؟ وهلاّ قيل : حمداً لله رب العالمين ؟

قيل : إن لدخول الألف واللام فى الحمد ، معنى لا يؤديه قول القائل «حَمْدًا» بإسقاط الألف واللام . وذلك أن دخولهما فى الحمد مُنْبِئٌ عن أن معناه[٣] : جميعُ المحامد والشكرُ الكامل لله . ولو أسقطتا منه لما دَلّ إلاّ على أنّ حَمْدَ قائلِ ذلك لله ، دون المحامد كلها . إذْ كان معنى قول القائل : « حمداً لله » أو «حمدٌ الله» :

وقد ذكر السيوطى هذا الحديث فى الدر المنثور ١ : ١٢ عن تفسير الطبرى . ورواه أحمد فى المسند بمعناه مختصراً ١٥٦٥٠ (٣ : ٤٣٥ حلبى) عن روح بن عبادة عن عوف بن أبى جميلة عن الحسن عن الأسود بن سريع ، قال : « قلت : يا رسول الله ، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى ؟ قال : أما إن ربك يحب الحمد ». وهذا إسناد صحيح ، رجاله كلهم ثقات أثبات . وذكره ابن كثير فى التفسير ١ : ٤٣ عن المسند . وكذلك ذكره السيوطى ، ونسبه أيضاً للنسائى والحاكم وغيرهما .

ورواه أحمد أيضاً ١٥٦٥٤ ، والبخارى فى الأدب المفرد : ٥١ ، بنحوه ، فى قصة مطولة ، من رواية عبد الرحمن بن أبى بكرة عن الأسود بن سريع .

ومعناه ثابت صحيح ، من حديث ابن مسعود ، فى المسند ٤١٥٣ : « لا أحد أغير من الله ، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه ». ورواه أيضاً البخارى ومسلم وغيرهما .

(١) انظر ما كتبناه آنفاً : ١٢٦ عن معنى « لا تمانع » .

(٢) تكلم العلماء فى نقض ما ذهب إليه أبو جعفر من أن «الحمد والشكر» بمعنى ، وأن أحدهما يوضع موضع الآخر ، وهو ما ذهب إليه المبرد أيضاً . انظر القرطبى ١ : ١١٦ ، وابن كثير ١ : ٤٢ ، وأخطأ النقل عن القرطبى ، فظنه استدل لصحة قول الطبرى ، وهو وهم . والذى قاله الطبرى أقوى حجة وأعرق عربية من الذين ناقضوه . وقوله « مصدر أشكر » ، وقوله « أن يصدر من الحمد » ، يعنى به المفعول المطلق . وانظر ما مضى : ١١٧ ، تعليق : ١ .

(٣) فى المطبوعة : « مبنى على أن معناه » ، أدخلوا عليه التبديل .

أحمد الله حمداً، وليس التأويل فى قول القائل: ﴿ الحمدُ لِلّهِ ربِّ العالمين ﴾، تالياً سورةَ أم القرآن: أحمدُ الله، بل التأويلُ فى ذلك ما وصفنا قبلُ، من أنّ جميع المحامد لله بألوهيّته وإنعامه على خلقه بما أنعم عليهم به من النعم، التى لا كِفاء لها فى الدين والدنيا، والعاجل والآجل. ١/٤٧

ولذلك من المعنى، تتابعتْ قراءة القرّاء وعلماء الأمة على رَفع الحمد من ﴿ الحمدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾ دون نصبها، الذى يؤدى إلى الدلالة على أن معنى تاليه كذلك: أحمد لله حمداً. ولو قرأ قارئ ذلك بالنصب، لكان عندى مُحيلاً معناه، ومستحقًّا العقوبةَ على قراءته إياه كذلك، إذا تعمَّد قراءتَه كذلك، وهو عالم بخطئه وفساد تأويله.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله «الحمد لله»؟ أحَمِد الله نفسه جلّ ثناؤه فأثنى عليها، ثم علَّمَناه لنقول ذلك كما قال ووصَف به نفسه؟ فإن كان ذلك كذلك، فما وجه قوله تعالى ذكره إذاً ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وهو عزّ ذكرُه معبودٌ لا عابدٌ؟ أم ذلك من قِيلِ جبريلَ أو محمدٍ رَسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقد بَطل أن يكون ذلك لله كلاماً.

قيل: بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه، ولكنه جلّ ذكره حَمِد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهلٌ، ثم علَّم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته، اختباراً منه لهم وابتلاءً، فقال لهم قولوا: ﴿ الحمدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾، وقولوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾. فقوله ﴿ إياك نعبد ﴾ مما علمهم جلّ ذكره أن يقولوه ويَدِينُوا له بمعناه، وذلك موصول بقوله: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾، وكأنه قال: قولوا هذا وهذا.

فإن قال: وأين قوله: «قولوا»، فيكونَ تأويلُ ذلك ما ادَّعيْتَ؟

قيل: قد دللنا فيما مضى أن العرب من شأنها — إذا عرفتْ مكان الكلمة،

ولم تَشكَّك أنّ سامعها يعرف ، بما أظهرت من منطقها ، ما حذفت — [1] حذفُ ما كفى منه الظاهرُ من منطقها ، ولا سيما إن كانت تلك الكلمة التى حُذفت، قولاً ، أو تأويلَ قولٍ ، كما قال الشاعر :

وأعْلَمُ أنَّنِي سَأَكُونُ رَمْساً إذَا سَارَ النَّوَاعِجُ لا يَسِيرُ[2]
فَقَالَ السَّائلون لِمَنْ حَفَرْتُمْ ؟ فَقَالَ المُخْبِرُون لَهُمْ : وزيرُ[3]

قال أبو جعفر : يريد بذلك ، فقال المخبرون لهم : الميِّتُ وزيرٌ، فأسقط الميت ، إذ كان قد أتى من الكلام بما دلّ على ذلك . وكذلك قول الآخر :

وَرأيتِ زَوْجَكِ فى الوَغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفاً ورُمْحَا[4]

وقد علم أنّ الرمح لا يُتقَلَّد به،وأنه إنما أراد : وحاملا رمحاً ، ولكن لما كان معلوماً معناه ، اكتفى بما قد ظهر من كلامه ، عن إظهار ما حذف منه . وقد يقولون للمسافر إذا ودّعوه: «مُصاحَباً مُعافىً» ، يحذفون «سر ، واخرج» ، إذ كان معلوماً معناه ، وإن أسقط ذكره .

فكذلك ما حُذف من قول الله تعالى ذكره : ﴿ الحمدُ لله ربِّ العَالَمينَ ﴾ ، لمّا عُلم بقوله جل وعزّ ﴿ إيّاكَ نَعبُدُ ﴾ ما أراد بقوله : ﴿ الحمدُ لله رب العالمين ﴾ ،

---

(١) سياق الكلام : « أن العرب من شأنها . . . حذف » وما بينهما فصل .

(٢) تأتى فى تفسير آية سورة المؤمنون : ٨٧ (١٨ : ٣٧ بولاق) . ، ونسبهما لبعض بنى عامر ، وكذلك فى معانى القرآن للفراء ١ : ١٧٠ وهما فى البيان والتبيين ٣ : ١٨٤ منسوبان للوزيرى ، ولم أعرفه ، وفيها اختلاف فى الرواية . الرمس : القبر المسوى عليه التراب . يقول : أصبح قبرا يزار أو يناح عليه . ورواه الجاحظ : « سأصير ميتاً » ، وهى لا شىء . والنواعج جمع ناعجة : وهى الإبل السراع ، نعجت فى سيرها ، أى سارت فى كل وجه من نشاطها . وفى البيان ومعانى الفراء « النواجع » ، وليست بشىء .

(٣) رواية الجاحظ : « فقال السائلون : من المسجى » . وفى المعانى « السائرون » .

(٤) يأتى فى تفسير آيات سورة البقرة : ٧ / وسورة آل عمران : ٤٩ / وسورة المائدة : ٥٣ / وسورة الأنعام : ٩٩ / وسورة الأنفال : ١٤ / وسورة يونس : ٧١ / وسورة الرحمن : ٢٢ . وهو بيت مستشهد به فى كل كتاب .

من معنى أمره عبادَه ، أغنتْ دلالةُ ما ظُهِر عليه من القول عن إبداء ما حُذف .

وقد روينا الخبرَ الذى قدمنا ذكره مبتَدأ فى تأويل قول الله[1] : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، عن ابن عباس ، وأنه كان يقول : إن جبريل قال لمحمد : قل يا محمد : « الحمد لله رب العالمين » ، وبيّنا أن جبريل إنما علّم محمداً صلى الله عليه وسلم ما أُمِر بتعليمه إياه[2]. وهذا الخبر يُنبِئ عن صحة ما قلنا فى تأويل ذلك .

• • •

القول فى تأويل قول الله ﴿ رَبِّ ﴾ .

قال أبو جعفر : قد مضى البيان عن تأويل اسم الله الذى هو « الله » ، فى « بسم الله » ، فلا حاجة بنا إلى تكراره فى هذا الموضع .

وأما تأويل قوله ﴿ رَبِّ ﴾ ، فإن الرّب فى كلام العرب منصرفٌ على معان . فالسيد المطاع فيهم يدعَى ربًّا ، ومن ذلك قول لَبيد بن ربيعة :

وأَهْلَكْنَ يوماً ربَّ كِنْدَةَ وابْنَه ورَبَّ مَعدٍّ ، بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ[3]

يعنى بربّ كندة : سيّد كندة . ومنه قول نابغة بنى ذُبيان :

تَخُبُّ إلى النُّعْمَانِ حَتَّى تَنالَهُ فِدًى لكَ من رَبٍّ طَرِيفِى وتَالِدِى[4] ٤٨/١

والرجل المصلح للشىء يُدعى ربًّا ، ومنه قول الفرزدق بن غالب :

---

(١) فى المطبوعة : « فى تنزيل قول الله » .

(٢) انظر ما مضى آنفاً الحديث رقم : ١٥١ .

(٣) ديوانه القصيدة : ١٥ / ٣٢ . وسيد كندة هو حجر أبو امرىء القيس . ورب معد : حذيفة بن بدر ، كما يقول شارح ديوانه ، وأنا فى شك منه ، فإن حذيفة بن بدر قتل بالهباءة . ولبيد يذكر خبتاً وعرعراً ، وهما موضعان غيره .

(٤) ديوانه : ٨٩ ، والمخصص ٧ : ١٥٤ . الطريف والطارف : المال المستحدث ، خلاف التليد والتالد : وهو العتيق الذى ولد عندك

كانُوا كَسَالِئَةٍ حَمْقَاءَ إذْ حَقَنَتْ ... سِلَاءَها فِى أَدِيمٍ غَيْرِ مَرْبُوبِ (١)

يعنى بذلك : فى أديم غير مُصلَحٍ . ومن ذلك قيل : إن فلاناً يَرُبُّ صنيعته عند فلان ؛ إذا كان يحاول إصلاحها وإدامتها ، ومن ذلك قول علقمة بن عَبَدة :

فَكُنْتَ امرأً أفْضَتْ إليك رِبَابَتِى ... وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِى، فَضِعْتُ، رُبُوبُ (٢)

يعنى بقوله : « أفضتْ إليك » أى وصلتْ إليك رِبابتى ، فصرتَ أنت الذى تَرُبُّ أمرى فتصلحه ، لمّا خرجتُ من ربابة غيرك من الملوك كانوا قبلك علىّ (٣) ، فضيَّعوا أمرى وتركوا تفقُّده — وهم الرُّبوب : واحدهم رَبٌّ . والمالك للشىء يدعى رَبَّه . وقد يتصرف أيضاً معنى « الربّ » فى وجوه غير ذلك ، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة .

فربّنا جلّ ثناؤه : السيد الذى لا شِبْه له ، ولا مثل فى مثل سُودده ، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، والمالك الذى له الخلق والأمر .

وبنحو الذى قلنا فى تأويل قوله جلّ ثناؤه ﴿ ربِّ العالَمين ﴾ ، جاءت الرواية عن ابن عباس : —

١٥٥ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا

---

(١) ديوانه : ٢٥ . سلأ السمن يسلؤه : طبخه وعالجه فأذاب زبده . والسلاء ، بكسر السين : السمن . وحقن اللبن فى الوطب ، والماءَ فى السقاء : حبسه فيه وعبأه . رب نحى السمن يربه : دهنه بالرب ، وهو دبس كل ثمرة ، وكانوا يدهنون أديم النحى بالرب حتى يمتنوه ويصلحوه ، فتطيب رائحته ، ويمنع السمن أن يرشح ، من غير أن يفسد طعمه أو ريحه . وإذا لم يفعلوا ذلك بالنحى فسد السمن . وأديم مربوب : جلد قد أصلح بالرب . يقول : فعلوا فعل هذه الحمقاء ، ففسد ما جهدوا فى تدبيره وعمله .

(٢) ديوانه : ٢٩ ، ويأتى فى تفسير آية سورة آل عمران : ٧٩ ، (٣ : ٢٣٣ بولاق) والمخصص ١٧ : ١٥٤ ، والشعر يقوله للحارث بن أبى شمر الغسانى ملك غسان ، وهو الحارث الأعرج المشهور . قال ابن سيدة : « ربوب : جمع رب ، أى الملوك الذين كانوا قبلك ضيعوا أمرى ، وقد صارت الآن ربابتى إليك — أى تدبير أمرى وإصلاحه — فهذا رب بمعنى مالك ، كأنه قال : الذين كانوا يملكون أمرى قبلك ضيعوه » . وقال الطبرى فيما سيأتى : « يعنى بقوله : ربتنى : ولى أمرى والقيام به قبلك من يربه ويصلحه فلم يصلحوه ، ولكنهم أضاعونى فضعت » . والربابة : المملكة ، وهى أيضاً الميثاق والعهد . وبها فسر هذا البيت ، وأيدوه برواية من روى بدل « ربابتى » ، « أمانتى » . والأول أجود .

(٣) فى المطبوعة : « من الملوك الذين كانوا » ، غيروه ليوافق ما ألفوا من العبارة .

بشر بن عُمارة ، قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحّاك ، عن ابن عباس ، قال : قال جبريل لمحمد : « يا محمد قل : ﴿ الحمد لله ربِّ العالمين ﴾ » ، قال ابن عباس : يقول : قل الحمد لله الذى له الخلق كله — السمواتُ كلهن ومن فيهنّ ، والأرَضونَ كلُّهنّ ومن فيهنّ وما بينهن ، مما يُعلم ومما لا يُعلم . يقول : اعلم يا محمد أن ربّك هذا لا يشبهه شيء[1] .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ العَالَمِينَ ﴾ .

قال أبو جعفر : والعالَمون جمع عالَم ، والعالَم : جمعٌ لا واحدَ له من لفظه ، كالأنام والرهط والجيش ، ونحو ذلك من الأسماء التى هى موضوعات على جِمَاعٍ لا واحد له من لفظه .

والعالم اسم لأصناف الأمم ، وكل صنف منها عالَمٌ ، وأهل كل قَرْن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان . فالإنس عالَم ، وكل أهل زمان منهم عالمُ ذلك الزمان . والجنُّ عالم ، وكذلك سائر أجناس الخلق ، كلّ جنس منها عالمُ زمانه . ولذلك جُمع فقيل : عالَمون ، وواحده جمعٌ ، لكون عالم كلّ زمان من ذلك عالم ذلك الزمان . ومن ذلك قول العجاج :

* فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ *[2]

فجعلهم عالمَ زمانه . وهذا القول الذى قلناه ، قولُ ابن عباس وسعيد بن جبير ، وهو معنى قول عامّة المفسرين .

---

(١) الحديث ١٥٥ — سبق الكلام مفصلا فى ضعف هذا الإسناد ، برقم ١٣٧ . وهذا الحديث فى ابن كثير ١ : ٤٤ ، والدر المنثور ١ : ١٣ ، والشوكانى ١ : ١١ . ونسبه الأخيران أيضاً لابن أبى حاتم . وفى المطبوع وابن كثير « والأرض ومن فيهن » .

(٢) ديوانه : ٦٠ ، وطبقات فحول الشعراء : ٦٤ ، وخندف : أم بنى إلياس بن مضر ، مدركة وطابخة ، وتشعبت منهم قواعد العرب الكبرى .

١٥٦ـ حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمارة ، قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ ، الحمد لله الذى له الخلق كله : السموات والأرَضون ومَن فيهنّ ، وما بينهن ، مما يُعلم ولا يعلم[١] .

١٥٧ـ حدثنى محمد بن سنان القزّاز ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن شبيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس: ﴿ ربِّ العالَمِين ﴾ : الجن والإنس[٢] .

١٥٨ـ حدثنى على بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم بن عبد الرحمن ، قال : حدثنا محمد بن مصعب ، عن قيس بن الربيع ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، فى قول الله جل وعزّ ﴿ رَبِّ العالمين ﴾ ، قال : ربُّ الجن والإنس[٣] .

١٥٩ـ حدثنا أحمد بن إسحق بن عيسى الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا قيس ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير : قوله: ﴿ رَبِّ العالمين ﴾ ، قال : الجنّ والإنس[٤] .

---

(١) الحديث ١٥٦ ـ هو مختصر مما قبله : ١٥٥ .

(٢) الخبر ١٥٧ ـ إسناده صحيح . محمد بن سنان القزاز ، شيخ الطبرى : تكلموا فيه من أجل حديث واحد . والحق أنه لا بأس به ، كما قال الدارقطنى . وهو مترجم فى التهذيب ، وله ترجمة جيدة فى تاريخ بغداد ٥ : ٣٤٣ ـ ٣٤٦ . أبو عاصم : هو النبيل ، الضحاك بن مخلد ، الحافظ الحجة . شبيب : هو ابن بشر البجلى ، ووقع فى التهذيب ٤ : ٣٠٦ « الحلى » ، وهو خطأ مطبعى ، صوابه فى التاريخ الكبير للبخارى ٢ / ٢ / ٢٣٢ والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢ / ١ / ٣٥٧ ـ ٣٥٨ والتقريب وغيرها ، وهو ثقة ، وثقه ابن معين .

(٣) الخبر ١٥٨ ـ إسناده حسن على الأقل ، لأن عطاء بن السائب تغير حفظه فى آخر عمره ، وقيس بن الربيع قديم ، لعله سمع منه قبل الاختلاط ، ولكن لم نتبين ذلك بدليل صريح . ووقع فى هذا الإسناد خطأ فى المطبوع « حدثنا مصعب » ، وصوابه من المخطوطة « حدثنا محمد بن مصعب » ، وهو القرقسانى ، كما مضى فى الإسناد ١٥٤ .

(٤) الخبر ١٥٩ ـ إسناده حسن كالذى قبله . وأبو أحمد الزبيرى : هو محمد بن عبد الله ابن الزبير الأسدى ، من الثقات الكبار ، من شيوخ أحمد بن حنبل وغيره من الحفاظ . وقيس : هو ابن الربيع . وهذه الأخبار الثلاثة ١٥٧ ـ ١٥٩ ، ولفظها واحد ، ذكرها ابن كثير ١ : ٤٤ خبراً واحداً دون إسناد . وذكرها السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٣ خبراً واحداً ونسبه إلى « الفريابى ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وصححه ، عن ابن عباس »

١٦٠– حدثني أحمد بن عبد الرحيم البرقي ، قال : حدثني ابن أبي مريم ، عن ابن لَهِيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير ، قوله : { رَبِّ العالمين } ، قال : ابن آدم والجنّ والإنس ، كل أمة منهم عالمٌ على حِدَته[1] .

٤٩/١

١٦١– حدثني محمد بن حُميد ، قال : حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن مجاهد : { الحمد لله ربِّ العالمين } ، قال : الإنس والجنّ[2] .

١٦٢– حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازي ، قال حدثنا أبو أحمد الزبيري ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد بمثله[3] .

١٦٣– حدثنا بشر بن معاذ العَقَدي ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، عن سعيد ، عن قتادة : { ربِّ العالمين } ، قال : كلّ صنف عالم[4] .

---

(١) الأثر ١٦٠ – أحمد بن عبد الرحيم البرقي : اشتهر بهذا ، منسوباً إلى جده ، وكذلك أخوه « محمد » . وهو : أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم . وقد مضت رواية الطبري عنه أيضاً برقم ٢٢ باسم « ابن البرقي » . ابن أبي مريم : هو سعيد . ابن لهيعة : هو عبد الله . عطاء بن دينار المصري : ثقة ، وثقه أحمد بن حنبل وأبو داود وغيرهما ، وروى ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٣ / ١ / ٣٣٢ وفي المراسيل : ٥٨ عن أحمد بن صالح ، قال : « عطاء بن دينار ، هو من ثقات أهل مصر ، وتفسيره – فيما يروى عن سعيد بن جبير : صحيفة ، وليست له دلالة على أنه سمع من سعيد بن جبير » . وروى في الجرح عن أبيه أبي حاتم ، قال : « هو صالح الحديث ، إلا أن التفسير أخذه من الديوان ، فإن عبدالملك ابن مروان كتب يسأل سعيد بن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن ، فكتب سعيد بن جبير بهذا التفسير إليه ، فوجده عطاء بن دينار في الديوان ، فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير » .

(٢) الأثر ١٦١ – إسناده إلى مجاهد ضعيف . لأن سفيان ، وهو الثوري ، لم يسمع من مجاهد . لأن الثوري ولد سنة ٩٧ ، ومجاهد مات سنة ١٠٠ أو بعدها بقليل ، والظاهر عندي أن هذه الرواية من أغلاط مهران بن أبي عمر ، راويها عن الثوري . فإن رواياته عن الثوري فيها اضطراب ، كما بينا في إسناد الحديث الماضي ١١ .

وهذا الأثر ذكره ابن كثير ١ : ٤٤ دون نسبة ولا إسناد . وذكره السيوطي في الدر المنثور ١ : ١٣ ، ونسبه أيضاً لعبد بن حميد .

(٣) الأثر ١٦٢ – إسناده ضعيف ، لإبهام الرجل راويه عن مجاهد . وهو يدل على غلط مهران في الإسناد قبله ، إذ جعله عن الثوري عن مجاهد مباشرة ، دون واسطة .

(٤) الأثر ١٦٣ – سعيد : هو ابن أبي عروبة . وقد مضى أثر آخر عن قتادة بهذا الإسناد ١١٩ . وهذا الأثر ذكره السيوطي في الدر المنثور ١ : ١٣ ، وفي نسبته هناك خطأ مطبعي : « ابن جريج » بدل « ابن جرير » . وكلام ابن جريج سيأتي ١٦٥ مرويا عنه لا راوياً .

١٦٤— حدثني أحمد بن حازم الغِفَاري، قال حدثنا عُبيد الله بن موسى، عن أبي جعفر، عن ربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿ رَبِّ العالمين ﴾، قال: الإنس عالَمٌ، والجنّ عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعةَ عشر ألف عالم — هو يشكّ — من الملائكة على الأرض. وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلافِ عالم، وخمسمائة عالَمٍ، خلقهم لعبادته [1].

١٦٥— حدثنا القاسم بن الحسن، قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: حدثنا حجاج، عن ابن جُريج، في قوله: ﴿ رَبِّ العالمين ﴾ قال: الجن والإنس [2].

* * *

القول في تأويل قوله ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

قال أبو جعفر: قد مضى البيانُ عن تأويل قوله « الرحمن الرحيم » في تأويل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

ولم نَحتجْ إلى الإبانة عن وجه تكرير ذلك في هذا الموضع، إذْ كنا لا نرى أن « بسم الله الرحمن الرحيم » من فاتحة الكتاب — آيةٌ، فيكونَ علينا لسائلٍ مسئلةٌ بأن يقول: ما وجه تكرير ذلك في هذا الموضع، وقد مضى وصفُ الله عزّ وجلّ به نفسه في قوله « بسم الله الرحمن الرحيم »، مع قرب مكان إحدى الآيتين من الأخرى، ومجاورتها صاحِبتَها؟ بل ذلك لنا حُجة على خطأ دعوى من ادّعى أن

---

(١) الأثر ١٦٤ — أبو جعفر: هو الرازي التميمي، وهو ثقة، تكلم فيه بعضهم، وقال ابن عبد البر: «هو عندهم ثقة، عالم بتفسير القرآن». وله ترجمة وافية في تاريخ بغداد ١١: ١٤٣ — ١٤٧. وهذا الأثر عن أبي العالية ذكره ابن كثير ١: ٤٥ والسيوطي ١: ١٣ بأطول مما هنا قليلا، ونسباه أيضاً لابن أبي حاتم، وقال ابن كثير: «وهذا كلام غريب، يحتاج مثله إلى دليل صحيح». وهذا حق.

(٢) الأثر ١٦٥ — سبق الكلام على هذا الإسناد ١٤٤. وهذا الأثر ذكره ابن كثير ١: ٤٤ دون نسبة ولا إسناد.

« بسم الله الرحمن الرحيم » من فاتحة الكتاب آية. إذ لو كان ذلك كذلك، لكان ذلك إعادةَ آية بمعنى واحد ولفظ واحدٍ مرتين من غير فَصْل يَفصِل بينهما . وغيرُ موجودٍ فى شيء من كتاب الله آيتان مُتجاورتان مكرّرتان بلفظ واحد ومعنى واحد، لا فصلَ بينهما من كلام يُخالف معناه معناهما . وإنما يُؤتى بتكرير آية بكمالها فى السورة الواحدة ، مع فُصولٍ تفصِل بين ذلك ، وكلامٍ يُعترضُ به بغير معنى الآيات المكررات أو غير ألفاظها ، ولا فاصِلَ بين قول الله تبارك وتعالى اسمه « الرحمن الرحيم » من « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وقولِ الله: « الرحمن الرحيم » من « الحمدُ لله ربّ العالمين » .

فإن قال : فإن ﴿ الحمدُ لِله ربِّ العالَمين ﴾ فاصل من ذلك[1] .

قيل: قد أنكر ذلك جماعة من أهل التأويل ، وقالوا : إن ذلك من المؤخَّر الذى معناه التقديم ، وإنما هو: الحمد لله الرحمن الرحيم رَبّ العالمين مَلِك يوم الدين . واستشهدوا على صحة ما ادعوا من ذلك بقوله «مَلِكِ يوم الدين» ، فقالوا: إن قوله « ملِكِ يوم الدين » تعليم من الله عبدَه ، أنْ يصفَه بالمُلْك فى قراءة من قرأ « ملِك » وبالمِلْك فى قراءة من قرأ « مالك » . قالوا: فالذى هو أولى أن يكونَ مجاورَ وصفه بالمُلْك أو المِلْك ، ما كان نظيرَ ذلك من الوصف ، وذلك هو قوله: «ربّ العالمين» ، الذى هو خبر عن مِلْكه جميع أجناس الخلق ؛ وأن يكون مجاورَ وصفه بالعظمة والألُوهة ، ما كان له نظيراً فى المعنى من الثناء عليه ، وذلك قوله: « الرحمن الرحيم ». فزعموا أنّ ذلك لهم دليلٌ على أن قوله « الرحمن الرحيم » ، بمعنى التقديم قبل « رب العالمين» ، وإن كان فى الظاهر مؤخراً . وقالوا : نظائرُ ذلك — من التقديم الذى هو بمعنى التأخير ، والمؤخَّر الذى هو بمعنى التقديم — فى كلام العرب أفشى ، وفى منطقها أكثر ، من أن يُحصى . من ذلك قول جرير بن عطية :

---

(١) فى المطبوعة : « فاصل بين ذلك » ، والذى فى المخطوطة عربية جيدة .

طَافَ الْخَيَالُ — وأَيْنَ مِنْكَ؟ — لِمَامَا فَارْجِعْ لِزَوْرِكَ بالسَّلام سَلاما[١]

بمعنى : طاف الخيال لماماً ، وأين هو منك ؟ وكما قال جل ثناؤه فى كتابه :

١/٥٠ ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً ﴾ [سورة الكهف : ١] بمعنى[٢] : الحمدُ لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيِّماً ولم يجعل له عوجاً ، وما أشبه ذلك . ففى ذلك دليل شاهدٌ على صحة قول من أنكر أن تكون — ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من فاتحة الكتاب — آيةً[٣] .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

قال أبو جعفر : القرَّاء مختلفون فى تلاوة ﴿ ملك يَوْمِ الدِّين ﴾ . فبعضهم يتلوه ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ ، وبعضهم يتلوه ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، وبعضهم يتلوه ﴿ مَلِكَ يَوْمِ الدِّين ﴾ بنصب الكاف . وقد استقصينا حكاية الرواية عمن رُوى عنه فى ذلك قراءةٌ فى « كتاب القراآت » ، وأخبرنا بالذى نختار من القراءة فيه ، والعلةِ الموجبة صحّة ما اخترنا من القراءة فيه . فكرهنا إعادة ذلك فى هذا الموضع ، إذ كان الذى قَصَدْنا له ، فى كتابنا هذا ، البيانَ عن وجوه تأويل آيِ القرآن ، دون وجوه قراءتها .

ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب ، أن المَلِك من « المُلْك »

---

(١) ديوانه : ٥٤١ ، والنقائض : ٣٨ . طاف الخيال : ألم بك فى الليل ، واللمام : اللقاء اليسير . والزور : الزائر ، يقال للواحد والمثنى والجمع : زور . « فارجع لزورك » ، يقول : رد عليه السلام كما سلم عليك .

(٢) فى المطبوعة : « المعنى : الحمد لله . . . »

(٣) وهكذا ذهب أبو جعفر رحمة إلى أن « بسم الله الرحمن الرحيم » ليست آية من الفاتحة ، واحتج لقوله بما ترى . وليس هذا موضع بسط الخلاف فيه ، والدلالة على خلاف ما قال ابن جرير . وقد حققت هذه المسئلة ، وأقمت الدلائل الصحاح — فى نظرى وفقهى — على أنها آية من الفاتحة — : فى شرحى لسنن الترمذى ٢ : ١٦ — ٢٥ . وفى الإشارة إليه غنية هنا . أحمد محمد شاكر .

مشتق، وأنّ المالك من « المِلْك » مأخوذٌ. فتأويل قراءةِ من قرأ ذلك ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، أن لله المُلْك يوم الدين خالصاً دون جميع خلقه ، الذين كانوا قبل ذلك فى الدنيا ملوكاً جبابرة ينازعونه الملك ، ويدافعونه الانفرادَ بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية[1]. فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرَة الأذِلّة[2]، وأنّ له — من دُونهم ، ودون غيرهم — المُلك والكبرياء ، والعزة والبهاء ، كما قال جلّ ذكره وتقدست أسماؤه فى تنزيله : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [سورة غافر : ١٦] . فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالمُلك دون ملوك الدنيا، الذين صارُوا يوم الدّين من مُلكهم إلى ذِلّة وصَغار ، ومن دُنياهم فى المعاد إلى خسار .

وأما تأويلُ قراءة من قرأ « مالك يوم الدين » ، فما : —

١٦٦— حدثنا به أبو كُرَيب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عُمارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، يقول: لا يملك أحدٌ فى ذلك اليوم معه حُكماً كمِلْكِهم فى الدنيا. ثم قال: ﴿ لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [سورة النبأ: ٣٨] . وقال: ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ ﴾ [سورة طه: ١٠٨]. وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [3] [سورة الأنبياء : ٢٨] .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالآية ، وأصحُّ القراءتين فى التلاوة عندى ،

---

(١) الجبرية والجبروت واحد ، وهو من صفات الله العلى . الجبار : القاهر فوق عباده ، يقهرهم على ما أراد من أمر ونهى ، سبحانه وتعالى .

(٢) الصغرة جمع صاغر : وهو الراضى بالذل المقر به . والأذلة جمع ذليل .

(٣) الخبر ١٦٦ — سبق الكلام مفصلا فى ضعف هذا الإسناد ١٣٧ . وهذا الخبر ، مع باقيه الآتى ١٦٧ نقله ابن كثير ١ : ٤٦ دون إسناد ولا نسبة ، ونقله السيوطى ١ : ١٤ ونسبه أيضاً لابن أبى حاتم . وقال ابن كثير : « وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف . وهو ظاهر » .

التأويلُ الأول، وهى قراءةُ من قرأ ﴿مَلِكِ﴾ بمعنى المُلك. لأن فى الإقرار له بالانفراد بالمُلك، إيجاباً لانفراده بالمِلْك، وفضيلةَ زيادة المِلك على المالك[1]، إذْ كان معلوماً أن لا مَلِك إلا وهو مالكٌ، وقد يكون المالكُ لا ملكاً.

وبعدُ، فإن الله جلّ ذكره، قد أخبر عبادَه فى الآية التى قبل قوله ﴿ملِكِ يوم الدين﴾ أنه مالكُ جميع العالمين، وسيِّدهم، ومُصلحُهم، والناظرُ لهم، والرحيم بهم فى الدنيا والآخرة، بقوله: ﴿الحمد لله ربِّ العالمين * الرحمٰن الرحيم﴾.

وإذْ كان جلّ ذكره قد أنبأهم عن مِلْكه إيَّاهم كذلك بقوله ﴿ربِّ العالمين﴾، فأولى الصِّفات من صفاته جل ذكره أن يَتْبَع ذلك، ما لم يحْوِه قوله ﴿ربِّ العالمين الرَّحمن الرحيم﴾، مع قرب ما بين الآيتين من المواصَلة والمجاورة، إذْ كانت حكمتُه الحكمةَ التى لا تشبهها حِكمةٌ، وكان فى إعادة وصفه جلّ ذكره بأنه ﴿مالِكِ يوم الدين﴾، إعادةُ ما قد مضى من وصفه به فى قوله ﴿ربِّ العالمين﴾، مع تقارب الآيتين وتجاور الصفتين. وكان فى إعادة ذلك تكرارُ ألفاظ مختلفة بمعان متفقة، لا تفيد سامع ما كُرِّر منه فائدةً به إليها حاجة. والذى لم يحْوِه من صفاته جلّ ذكره ما قبل قوله «مالك يوم الدين»، المعنى الذى فى قوله «مَلِك يوم الدين»، وهو وصْفه بأنه المالِك.

فبيِّنٌ إذاً أن أوْلى القراءتين بالصواب، وأحقَّ التأويلين بالكتاب، قراءة من قرأه ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّين﴾، بمعنى إخلاص المُلك له يوم الدين، دون قراءة من قرأ «مالك يوم الدين» الذى بمعنى أنه يملك الحكمَ بينهم وفصلَ القضاء، متفرِّداً به دون سائر خلقه.

١/٥١ فإن ظنّ ظانّ أنّ قوله ﴿رَبِّ العَالمين﴾ نبأ عن ملكه إياهم فى الدنيا دون الآخرة، يوجبُ وصْلَ ذلك بالنبأ عن نفسه أنه: مَنْ مَلَكهم فى الآخرة على نحو مِلْكه

---

(١) فى المخطوطة: «الملك على الملك»، وهما سواء.

إياهم فى الدنيا بقوله « مالك يوم الدين » — فقد أغفلَ وظنّ خطأ[١] .

وذلك أنه لو جاز لِظانٍّ أنْ يظنّ أن قوله ﴿ ربّ العالمين ﴾ محصورٌ معناه على الخبر عن ربوبيَّة عالم الدنيا دونَ عالم الآخرة، مع عدم الدلالة على أن معنى ذلك كذلك فى ظاهر التنزيل، أو فى خبرٍ عن الرسول صلى الله عليه وسلم به منقولٍ، أو بحجّة موجودة فى المعقول — لجاز لآخر أن يظنّ أن ذلك محصور على عالم الزمان الذى فيه نَزل قوله ﴿ رب العالمين ﴾، دون سائر ما يحدث بعدَه فى الأزمنة الحادثة من العالمين . إذْ كان صحيحاً بما قد قدّمنا من البيان ، أنّ عالمَ كل زمان غير عالم الزمان الذى بعده .

فإن غَبِيَ — عن علم صحة ذلك بما قد قدمنا — ذو غباء، فإنّ فى قول الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٦] دلالةً واضحةً على أنّ عالم كلّ زمان، غيرُ عالم الزمان الذى كان قَبله، وعالم الزمان الذى بعدَه، إذْ كان الله جلّ ثناؤه قد فضّل أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم الخالية، وأخبرهم بذلك فى قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآية [سورة آل عمران : ١١٠] . فمعلومٌ بذلك أن بَنى إسرائيل فى عصر نبينا لم يكونوا — مع تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم — أفضلَ العالمين، بل كانَ أفضلَ العالمين فى ذلك العصر وبعدَه إلى قيام الساعة، المؤمنون به المتَّبِعون منهاجهُ، دون من سِواهم من الأمم المكذِّبة الضالة عن منهاجه .

وإذْ كان بيِّناً فساد تأويل متأوِّلٍ لو تأوّل قوله ﴿ ربّ العالمين ﴾ أنه معنىٌّ به

---

(١) قوله « أغفل » ، فعل لازم غير متعد . ومعناه : دخل فى الغفلة والنسيان ووقع فيهما ، وهى عربية معرقة ، وإن لم توجد فى المعاجم ، وهى كقولهم : أنجد ، دخل نجداً ، وأشباهها . وحسبك بها عربية أنها لغة الشافعى ، أكثر من استعمالها فى الرسالة والأم . من ذلك قوله فى الرسالة : ٤٢ رقم ١٣٦ : « وبالتقليد أغفل من أغفل منهم » .

أن الله ربُّ عالَمِي زَمن نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ، دون عالَمي سائر الأزمنة غيره — كان واضحاً فساد قول من زعم أنّ تأويلَه : ربُّ عالَمِ الدنيا دُونَ عالَمِ الآخرة ، وأنّ « مالك يوم الدين » استحقّ الوصلَ به ليُعلَمَ أنه في الآخرة من مِلْكهم ورُبُوبيتهم بمثل الذى كان عليه في الدنيا .

ويُسأل زاعمُ ذلك ، الفرقَ بينه وبين متحكمٍ مثله — في تأويل قوله ﴿رب العالمين﴾ ، تحكَّم فقال : إنه إنما عنى بذلك أنه ربّ عالَمي زمان محمدٍ صلى الله عليه ، دون عالَمي غيره من الأزمان الماضية قبله ، والحادثة بعده ، كالذى زعم قائل هذا القول : أنه عَنى به عالَمي الدنيا دُون عالَمي الآخرة — من أصل أو دلالة(١) . فلن يقول في أحدهما شيئاً إلا ألزم في الآخر مثله .

وأما الزاعم أن تأويل قوله ﴿ مالك يوم الدين ﴾ أنه الذى يملكُ إقامةَ يوم الدين ، فإن الذى ألزمْنا قائلَ هذا القول الذى قبله — له لازمٌ . إذْ كانت إقامةُ القيامة ، إنما هى إعادة الخلق الذين قد بادوا لهيئاتهم التى كانوا عليها قبل الهلاك ، في الدار التى أعَدّ لهم فيها ما أعدّ . وُهمُ العالَمون الذين قد أخبر جلّ ذكره عنهم أنه ربُّهم في قوله ﴿ ربّ العالمين ﴾ .

وأما تأويل ذلك في قراءة من قرأ ﴿ مَالِكَ يَوم الدِّين ﴾ ، فإنه أراد : يا مالك يوم الدين ، فنصَبه بنيّة النداء والدعاء ، كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا ﴾ [سورة يوسف : ٢٩] بتأويل : يا يوسف أعرضْ عن هذا ، وكما قال الشاعر من بنى أسد ، وهو شعر — فيما يقال — جاهلى :

إنْ كُنْتَ أزْنَنْتَنِى بِهَا كَذِباً جَزْءُ ، فلاقَيْتَ مِثْلَهَا عَجِلَا(٢)

---

(١) سياق العبارة : « ويسأل زاعم ذلك ، الفرق .... من أصل أو دلالة » ، وما بينهما فصل .

(٢) الشعر لجاهلى مخضرم هو حضرمى بن عامر الأسدى ، وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من بنى أسد فأسلموا جميعاً . وسبب قوله هذا الشعر : أن إخوته كانوا تسعة ، فجلسوا على بئر فانخسفت بهم ، فورثهم ، فحسده ابن عمه جزء بن مالك بن مجمع ، وقال له : من مثلك ؟ مات إخوتك فورثتهم ، فأصبحت ناعماً جذلا . وما كاد ، حتى جلس جزء وإخوة له تسعة على بئر فانخسفت بإخوته

يريد : يا جزءُ ، وكما قال الآخر :

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لا تَنْكِحُونها، بَنِى شَابَ قَرْناها تَصُرُّ وتَحْلُبُ[(١)]

يريد : يا بنى شابَ قرْناها . وإنما أوْرطه فى قراءة ذلك — بنصب الكاف من « مالك » ، على المعنى الذى وصفتُ — حيرتهُ فى توجيه قوله : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ وِجْهتَه، مع جر ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وخفضِه . فظنّ أنه لا يصحّ معنى ذلك بعد جرّه ﴿ مالكِ يوم الدين ﴾ ، فنصب « مالكَ يوم الدين » ليكون « إياك نعبد » له خطاباً . كأنه أراد : يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين . ولو كان عَلِم تأويل أول السورة ، وأن « الحمدُ لله ربّ العالمين » ٥٢/١ أمرٌ من الله عبدَه بقِيل ذلك — كما ذكرنا قبلُ من الخبر عن ابن عباس : أن جبريلَ قال للنبى صلى الله عليهما وسلم عن الله تعالى ذكره : قل يا محمد ، « الحمدُ لله رب العالمين الرحمن الرحيم مَالكِ يوم الدين » ، وقل أيضاً يا محمد : « إياك نَعبد وإياك نستعين[(٢)] » — وكان عَقَل[(٣)] عن العرب أنّ من شأنها إذا حكَت أو أمرت بحكاية خبرٍ يتلو القولَ ، أن تخاطب ثم تخبر عن غائب ، وتخبرَ عن غائب ثم تعودَ إلى الخطاب ، لما فى الحكاية بالقول من معنى الغائب والمخاطب ، كقولهم للرجل : قد قلتُ لأخيك : لو قمتَ لقمتُ ، وقد قلتُ لأخيك : لو قام لقمتُ — [(٤)]لسهُل عليه مخرجُ ما استصعب عليه وِجهتُه من جر « مالك يوم الدين » .

ونجا هو ، فبلغ ذلك حضرمياً فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، كلمة وافقت قدراً وأبقت حقداً . يعنى قوله لجزء : « فلاقيت مثلها عجلا » . وأزننته بشىء : اتهمته به . انظر أمالى القالى ١ : ٦٧ ، والكامل ١ : ٤١ — ٤٢ وغيرهما .

(١) نسبه فى اللسان (قرن) ومجاز القرآن : ١٠٠ إلى رجل من بنى أسد والبيت فى سيبويه ١ : ٢/٢٥٩ : ٦٥، ٧ ، وهو شاهد مشهور . « وبنى شاب قرناها » ، يعنى قوماً ، يقول : بنى التى يقال لها : شاب قرناها ، أى يا بنى العجوز الراعية ، لا هم لها إلا أن تصر ، أى تشد الصرار على الضرع حتى تجتمع الدرة ، ثم تحلب . وذلك ذم لها . والقرن : الضفيرة .

(٢) انظر : ١٥١ ، ١٥٥ .

(٣) عطف على قوله : « ولو كان علم . . . . » .

(٤) جواب « لو كان علم . . . وكان عقل » .

ومن نظير «مالك يوم الدين» مجروراً ، ثم عَوْده إلى الخطاب بـ «إياك نعبد» ، كما ذكرنا قبل — البيتُ السائرُ من شعر أبي كبير الهُذَلى :

يَا لَهْفَ نَفْسى كان جِـدَّةُ خَالِدٍ وَبَيَاضُ وَجْهِكَ للتُّرابِ الأَعْفَرِ[1]

فرجعَ إلى الخطاب بقوله «وبياضُ وَجْهِك» ، بعد ما قد مضى الخبرُ عن خالد على معنى الخبر عن الغائب .

ومنه قول لبيد بن ربيعة :

بَاتَتْ تَشَكَّى إلىَّ النَّفسُ مُجْهِشَةً وقد حَمَلْتُكِ سَبْعًا بَعْدَ سَبْعِينَا[2]

فرجع إلى مخاطبة نفسه ، وقد تقدم الخبر عنها على وجه الخبر عن الغائب .

ومنه قول الله ، وهو أصدق قيلٍ وأثبتُ حجةٍ : ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [سورة يونس : ٢٢] ، فخاطب ثم رجع إلى الخبر عن الغائب ، ولم يقل : وَجرَين بكم . والشواهدُ من الشعر وكلام العرب فى ذلك أكثر من أن تُحصى ، وفيما ذكرنا كفاية لمن وُفِّق لفهمه .

فقراءة «مالكَ يوم الدين» محظورة غير جائزة ، لإجماع جميع الحجة من القرّاء وعلماء الأمة على رَفض القراءة بها .

* * *

(١) ديوان الهذليين ٢ : ١٠١ . فى المطبوعة : «جلدة» وهو خطأ وقوله «جدة» يعنى شبابه الجديد . والجدة : نقيض البلى . والتراب الأعفر : الأبيض ، قل أن يطأه الناس لجدبه . وخالدَ : صديق له من قومه ، يرثيه .

(٢) القسم الثانى من ديوانه : ٤٦ ، وقال ابن سلام فى طبقات فحول الشعراء : ص ٥٠ وذكر البيت وبيتاً معه ، أنهما قد رويا عن الشعبى (ابن سعد ٦ : ١٧٨) ، وهما يحملان على لبيد ، ثم قال : «ولا اختلاف فى أن هذا مصنوع تكثر به الأحاديث ، ويستعان به على السهر عند الملوك ، والملوك لا تستقصى» . أجهش بالبكاء : تهيأ له وخنقه بكاؤه .

القول فى تأويل قوله ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

قال أبو جعفر : والدين فى هذا الموضع ، بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال ، كما قال كعب بن جُعَيْل :

إذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُم ودِنَّاهُمُ مِثْلَ ما يُقْرِضُونَا[1]

وكما قال الآخر :

وَاعْلَمْ وأيْقِنْ أنَّ مُلْكَكَ زائلٌ واعلمْ بأنَّكَ مَا تدِينُ تُدَانُ[2]

يعنى : ما تَجزِى تُجازى .

ومن ذلك قول الله جل ثناؤه ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ — يعنى : بالجزاء — ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ [سورة الانفطار : ٩ ، ١٠] يُحصون ما تعملون من الأعمال ، وقوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [سورة الواقعة : ٨٦] ، يعنى غير مجزيِّين بأعمالكم ولا مُحاسَبين .

وللدين معانٍ فى كلام العرب ، غير معنى الحساب والجزاء ، سنذكرها فى أماكنها إن شاء الله .

---

(١) الكامل للمبرد ١ : ١٩١ ، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ١ : ٥٢ ، المخصص ١٧ : ١٥٥ .

(٢) الكامل ١ : ١٩٢ منسوباً إلى يزيد بن الصعق الكلابى ، وكذلك فى جمهرة الأمثال للعسكرى : ١٦٩ ، والمخصص ١٧ : ١٥٥ ، وفى اللسان (زنأ) و (دان) منسوبين إلى خويلد بن نوفل الكلابى ، وفى الخزانة ٤ : ٢٣٠ إلى بعض الكلابيين. يقولون : إن الحارث بن أبى شمر الغسانى كان إذا أعجبته امرأة من قيس عيلان بعث إليها واغتصبها ، فأخذ بنت يزيد بن الصعق الكلابى ، وكان أبوها غائباً ، فلما قدم أخبر . فوفد إليه فوقف بين يديه وقال :

يَا أَيُّهَا المَلِكُ المُقِيتُ ! أمَا تَرَى لَيْلًا وصُبْحًا كَيْفَ يَخْتَلِفَانِ ؟
هَلْ تستَطِيعُ الشَّمْسَ أن تَأْتِى بِهَا لَيْلًا ؟ وهل لكَ بِالْمَلِيكِ يَدَانِ ؟
يَا حَارِ ، أيْقِنْ أنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ . . . .

وبما قُلنا فى تأويل قوله « يوم الدين »، جاءت الآثار عن السلف من المفسِّرين، مع تصحيح الشواهد تأويلَهم الذى تأوّلوه فى ذلك.

١٦٧ــ حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عُمارة، قال حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك، عن عبد الله ابن عباس: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: يوم حساب الخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم، إن خيراً فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا، إلا من عفا عنه، فالأمرُ أمرُه. ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤][1].

١٦٨ــ حدثنى موسى بن هرون الهَمْدانى، قال: حدثنا عمرو بن حماد القَنَّاد، قال: حدثنا أسباط بن نصر الهمدانى، عن إسمعيل بن عبد الرحمن السُّدّى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس ــ وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ــ وعن ناس أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، هو يوم الحساب[2].

١٦٩ــ حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا

---

(١) الخبر ١٦٧ ــ سبق تخريجه فى الخبر ١٦٦.

(٢) الخبر ١٦٨ ــ هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دوراناً فى تفسير الطبرى، إن لم يكن أكثرها، فلا يكاد يخلو تفسير آية من رواية بهذا الإسناد. وقد عرض الطبرى نفسه فى (ص ١٢١ بولاق، سطر: ٢٨ وما بعده)، فقال، وقد ذكر الخبر عن ابن مسعود وابن عباس بهذا الإسناد: « فإن كان ذلك صحيحاً، ولست أعلمه صحيحاً، إذ كنت بإسناده مرتاباً .... ». ولم يبين علة ارتيابه فى إسناده، وهو مع ارتيابه قد أكثر من الرواية به. ولكنه لم يجعلها حجة قط.

بيد أنى أراه إسنادا يحتاج إلى بحث دقيق. ولأئمة الحديث كلام فيه وفى بعض رجاله. وقد تتبعت ما قالوا وما يدعو إليه بحثه، ما استطعت، وبدا لى فيه رأى، أرجو أن يكون صواباً، إن شاء الله. وما توفيقى إلا بالله:

أما شيخ الطبرى، وهو « موسى بن هرون الهمدانى »: فما وجدت له ترجمة، ولا ذكراً فى شىء مما بين يدى من المراجع، إلا ما يرويه عنه الطبرى أيضاً فى تاريخه، وهو أكثر من خمسين موضعاً فى الجزءين الأول والثانى منه. وما بنا من حاجة إلى ترجمته من جهة الجرح والتعديل، فإن هذا التفسير الذى يرويه عن عمرو بن حماد، معروف عند أهل العلم بالحديث. وما هو إلا رواية كتاب، لا رواية حديث بعينه.

و « عمرو بن حماد »: هو عمرو بن حماد بن طلحة القناد، وقد ينسب إلى جده، فيقال « عمرو بن طلحة »، وهو ثقة، روى عنه مسلم فى صحيحه، وترجمه ابن سعد فى الطبقات ٦: ٢٨٥، وقال:

. . . .

« وكان ثقة إن شاء الله » . مات سنة ٢٢٢ . وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٣ / ١ / ٢٢٨ ، وروى عن أبيه ويحيى بن معين أنهما قالا فيه : « صدوق » .

أسباط بن نصر الهمداني : مختلف فيه ، وضعفه أحمد ، وذكره ابن حبان في الثقات : ٤١٠ ، وترجمه البخاري في الكبير ١ / ٢ / ٥٣ فلم يذكر فيه جرحاً ، وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١ / ١ / ٣٣٢ ، وروى عن يحيى بن معين قال : « أسباط بن نصر ثقة » . وقد رجحنا توثيقه في شرح المسند ، في الحديث ١٢٨٦ .

إسمعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي : هو السدي الكبير ، قرشي بالولاء ، مولى زينب بنت قيس بن مخرمة ، من بني عبد مناف ، كما نص على ذلك البخاري في تاريخيه : الصغير : ١٤١ — ١٤٢ ، والكبير ١ / ١ / ٣٦١ ، وهو تابعي ، سمع أنساً ، كما نص على ذلك البخاري أيضاً ، وروى عن غيره من الصحابة ، وعن كثير من التابعين . وهو ثقة . أخرج له مسلم في صحيحه ، وثقه أحمد بن حنبل ، فيما روى ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١ / ١ / ١٨٤ ، وروى أيضاً عن أحمد ، قال : « قال لي يحيى بن معين يوماً عند عبد الرحمن بن مهدي : السدي ضعيف ، فغضب عبد الرحمن ، وكره ما قال » : وفي الميزان والتهذيب « أن الشعبي قيل له : إن السدي قد أعطى حظاً من علم القرآن ، فقال : قد أعطى حظاً من جهل بالقرآن ! » . وعندي أن هذه الكلمة من الشعبي قد تكون أساساً لقول كل من تكلم في السدي بغير حق . ولذلك لم يعبأ البخاري بهذا القول من الشعبي ، ولم يروه ، بل روى في الكبير عن مسدد عن يحيى قال : « سمعت ابن أبي خالد يقول : السدي أعلم بالقرآن من الشعبي » . وروى في تاريخيه عن ابن المديني عن يحيى ، وهو القطان ، قال : « ما رأيت أحداً يذكر السدي إلا بخير ، وما تركه أحد » . وفي التهذيب : « قال العجلي : ثقة عالم بالتفسير راوية له » . وقد رجحنا توثيقه في شرح المسند ٨٠٧ . وتوفي السدي سنة ١٢٧ .

و « السدي » : بضم السين وتشديد الدال المهملتين ، نسبة إلى « السدة » ، وهي الباب ، لأنه كان يجلس إلى سدة الجامع بالكوفة ، ويبيع بها المقانع .

أبو مالك : هو الغفاري ، واسمه غزوان . وهو تابعي كوفي ثقة . ترجمه البخاري في الكبير ٤ / ١ / ١٠٨ ، وابن سعد في الطبقات ٦ : ٢٠٦ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٥٥ ، وروى توثيقه عن يحيى بن معين .

أبو صالح : هو مولى أم هانىء بنت أبي طالب ، واسمه باذام ، ويقال باذان . وهو تابعي ثقة ، رجحنا توثيقه في شرح المسند ٢٠٣٠ ، وترجمه البخاري في الكبير ١ / ٢ / ١٤٤ ، وروى عن محمد ابن بشار ، قال : « ترك ابن مهدي حديث أبي صالح » . وكذلك روى ابن أبي حاتم في ترجمته في الجرح والتعديل ١ / ١ / ٤٣١—٤٣٢ عن أحمد بن حنبل عن ابن مهدي . ولكنه روى أيضاً عن يحيى بن سعيد القطان ، قال : « لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانىء ، وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً ، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبدالله بن عثمان » . وروى أيضاً عن يحيى بن معين ، قال : « أبو صالح مولى أم هانىء ليس به بأس ، فإذا روى عنه الكلبي فليس بشيء ، وإذا روى عنه غير الكلبي فليس به بأس ، لأن الكلبي يحدث به مرة من رأيه ، ومرة عن أبي صالح ، ومرة عن أبي صالح عن ابن عباس » . يعني بهذا أن الطعن فيما يروى عنه إنما هو في رواية الكلبي ، كما هو ظاهر .

. . . .

هذا عن القسم الأول من هذا الإسناد . فإنه فى حقيقته إسنادان أو ثلاثة . أولهما هذا المتصل بابن عباس .

والقسم الثانى ، أو الإسناد الثانى : « وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود » . والذى يروى عن مرة الهمدانى : هو السدى نفسه .

ومرة : هو ابن شراحيل الهمدانى الكوفى ، وهو تابعى ثقة ، من كبار التابعين ، ليس فيه خلاف بينهم .

والقسم الثالث ، أو الإسناد الثالث : « وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » .

وهذا أيضاً من رواية السدى نفسه عن ناس من الصحابة .

فالسدى يروى هذه التفاسير لآيات من القرآن : عن اثنين من التابعين عن ابن عباس ، وعن تابعى واحد عن ابن مسعود ، ومن رواية نفسه عن ناس من الصحابة .

وللعلماء الأئمة الأقدمين كلام فى هذا التفسير ، بهذه الأسانيد ، قد يوهم أنه من تأليف مَن دون السدى من الرواة عنه ، إلا أنى استيقنت بعدُ ، أنه كتاب ألفه السدى .

فمن ذلك قول ابن سعد فى ترجمة « عمرو بن حماد القناد » ٦ : ٢٨٥ : « صاحب تفسير أسباط ابن نصر عن السدى » . وقال فى ترجمة «أسباط بن نصر» ٦ : ٢٦١ : « وكان راوية السدى ، روى عنه التفسير » . وقال قبل ذلك فى ترجمة « السدى » ٦ : ٢٢٥ : « إسمعيل بن عبد الرحمن السدى ، صاحب التفسير » . وقال قبل ذلك أيضاً ، فى ترجمة « أبى مالك الغفارى » ٦ : ٢٠٦ : « أبو مالك الغفارى صاحب التفسير ، وكان قليل الحديث » .

ولكن الذى يرجح أنه كتاب ألفه السدى ، جمع فيه التفسير ، بهذه الطرق الثلاث ، قول أحمد بن حنبل فى التهذيب ١ : ٣١٤ ، فى ترجمة السدى : « إنه ليحسن الحديث ، إلا أن هذا التفسير الذى يجىء به ، قد جعل له إسناداً ، واستكلفه » . وقول الحافظ فى التهذيب أيضاً ١ : ٣١٥ : « قد أخرج الطبرى وابن أبى حاتم وغيرهما ، فى تفاسيرهم ، تفسير السدى ، مفرقاً فى السور ، من طريق أسباط ابن نصر عنه » . وقول السيوطى فى الإتقان ٢ : ٢٢٤ فيما نقل عن الخليلى فى الإرشاد : « وتفسير إسمعيل السدى ، يورده بأسانيد إلى ابن مسعود وابن عباس . وروى عن السدى الأئمة ، مثل الثورى وشعبة . ولكن التفسير الذى جمعه ، رواه أسباط بن نصر . وأسباط لم يتفقوا عليه . غير أن أمثل التفاسير تفسير السدى » . ثم قال السيوطى : « وتفسير السدى ، [الذى] أشار إليه ، يورد منه ابن جرير كثيراً ، من طريق السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، و [عن] ناس من الصحابة . هكذا . ولم يورد منه ابن أبى حاتم شيئاً ، لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد . والحاكم يخرج منه فى مستدركه أشياء ، ويصححه ، لكن من طريق مرة عن ابن مسعود وناس ، فقط ، دون الطريق الأول ، وقد قال ابن كثير : إن هذا الإسناد يروى به السدى أشياء فيها غرابة » .

وأول ما نشير إليه فى هذه الأقوال : التناقض بين قولى الحافظ ابن حجر والسيوطى ، فى أن ابن أبى حاتم أخرج تفسير السدى مفرقاً فى تفسيره ، كما صنع الطبرى ، فى نقل الحافظ ، وأنه أعرض عنه ، فى نقل السيوطى . ولست أستطيع الجزم فى ذلك بشىء ، إذ لم أر تفسير ابن أبى حاتم . ولكنى أميل إلى ترجيح نقل ابن حجر ، بأنه أكثر تثبتاً ودقة فى النقل من السيوطى .

ثم قد صدق السيوطى فيما نقل عن الحاكم . فإنه يروى بعض هذا التفسير فى المستدرك ، بإسناده ،

. . . .

إلى أحمد بن نصر : «حدثنا عمرو بن طلحة القناد حدثنا أسباط بن نصر ، عن إسمعيل بن عبد الرحمن السدى ، عن مرة الهمدانى ، عن عبد الله بن مسعود ، وعن أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » . ثم يصححه على شرط مسلم ، ويوافقه الذهبى فى تلخيصه . من ذلك فى المستدرك ٢ : ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٣٢١ . والحاكم فى ذلك على صواب ، فإن مسلماً أخرج لجميع رجال هذا الإسناد . من عمرو بن حماد بن طلحة القناد إلى مرة الهمدانى . ولم يخرج لأبى صالح باذام ولا لأبى مالك الغفارى ، فى القسم الأول من الإسناد الذى روى به السدى تفاسيره .

أما كلمة الإمام أحمد بن حنبل فى السدى « إلا أن هذا التفسير الذى يجىء به ، قد جعل له إسناداً واستكلفه » — فإنه لا يريد بها ما قد يفهم من ظاهرها : أنه اصطنع إسناداً لا أصل له ؛ إذ لو كان ذلك ، لكان — عنده — كذاباً وضاعاً للرواية . ولكنه يريد — فيما أرى ، والله أعلم — أنه جمع هذه التفاسير ، من روايته عن هؤلاء الناس : عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة ، ثم ساقها كلها مفصلة ، على الآيات التى ورد فيها شىء من التفسير ، عن هذا أو ذاك أو أولئك ، وجعل لها كلها هذا الإسناد ، وتكلف أن يسوقها به مساقاً واحداً .

أعنى : أنه جمع مفرق هذه التفاسير فى كتاب واحد ، جعل له فى أوله هذه الأسانيد . يريد بها أن ما رواه من التفاسير فى هذا الكتاب ، لا يخرج عن هذه الأسانيد . ولا أكاد أعقل أنه يروى كل حرف من هذه التفاسير عنهم جميعاً . فهو كتاب مؤلف فى التفسير ، مرجع ما فيه إلى الرواية عن هؤلاء ، فى الجملة ، لا فى التفصيل .

إنما الذى أوقع الناس فى هذه الشبهة ، تفريق هذه التفاسير فى مواضعها ، مثل صنيع الطبرى بين أيدينا ، ومثل صنيع ابن أبى حاتم ، فيما نقل الحافظ ابن حجر ، ومثل صنيع الحاكم فى المستدرك . فأنا أكاد أجزم أن هذا التفريق خطأ منهم ، لأنه يوهم القارىء أن كل حرف من هذه التفاسير مروى بهذه الأسانيد كلها ، لأنهم يسوقونها كاملة عند كل إسناد ، والحاكم يختار منها إسناداً واحداً يذكره عند كل تفسير منها يريد روايته . وقد يكون ما رواه الحاكم — مثلا — بالإسناد إلى ابن مسعود ، ليس مما روى السدى عن ابن مسعود نصاً . بل لعله مما رواه من تفسير ابن عباس ، أو مما رواه عن ناس من الصحابة ، روى عن كل واحد منهم شيئاً ، فأسند الجملة ، ولم يسند التفاصيل .

ولم يكن السدى ببدع فى ذلك ، ولا يكون هذا جرحاً فيه ولا قدحاً . إنما يريد إسناد هذه التفاسير إلى الصحابة ، بعضها عن ابن عباس ، وبعضها عن ابن مسعود ، وبعضها عن غيرهما منهم . وقد صنع غيره من حفاظ الحديث وأئمته نحواً مما صنع ، فما كان ذلك بمطعن فيهم ، بل تقبلها الحفاظ بعدهم ، وأخرجوها فى دواوينهم . ويحضرنى الآن من ذلك صنيع معاصره : ابن شهاب الزهرى الإمام . فقد روى قصة حديث الإفك ، فقال : « أخبرنى سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن حديث عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوا . وكلهم حدثنى طائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً ، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذى حدثنى ، وبعض حديثهم يصدق بعضاً » ، إلخ . فذكر الحديث بطوله . وهو فى صحيح مسلم ٢ : ٣٣٣ — ٣٣٥ . وسيأتى فى تفسير الطبرى (١٨ : ٧١ — ٧٤ بولاق) . ورواه الإمام أحمد والبخارى فى صحيحه ، كما فى تفسير ابن كثير ٦ : ٦٨ — ٧٣ . ثم قال ابن كثير : « وهكذا رواه ابن إسحق عن الزهرى كذلك ، قال : « وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله

معمر، عن قتادة فى قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: يوم يَدينُ الله العبادَ بأعمالهم[١].

١٧٠– حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، « مالك يوم الدين » قال : يوم يُدان الناس بالحساب[٢].

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

قال أبوجعفر : وتأويل قوله ﴿ إِيَّاكَ نعبُد﴾ : لكَ اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقراراً لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك.

١٧١– كما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمَارة قال: حدثنا أبو رَوق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: قال جبريلُ لمحمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد ﴿ إِيَّاكَ نَعبُد ﴾ ، إياكَ نُوحِّد ونخاف ونرجو يا ربَّنا لا غيرك[٣].

ابن الزبير عن أبيه عن عائشة ، وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة عن عائشة » . وإسناد ابن إسحق الأخير فى الطبرى أيضاً . والإسنادان كلاهما رواهما ابن إسحق عن الزهرى ، فى السيرة (ص ٧٣١ من سيرة ابن هشام) .

والمثل على ذلك كثيرة ، يعسر الآن تتبعها .

وقد أفادنا هذا البحث أن تفسير السدى من أوائل الكتب التى ألفت فى رواية الأحاديث والآثار . وهو من طبقة عالية ، من طبقة شيوخ مالك من التابعين .

وبعد : فأما هذا الخبر بعينه ، فقد رواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٥٨ ، بالإسناد الذى أشرنا إليه، من رواية السدى عن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة . وقال: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه » . وافقه الذهبى . ونقله السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٤ عن « ابن جرير والحاكم ، وصححه ، عن ابن مسعود وناس من الصحابة » .

(١) الأثر ١٦٩ — نقله السيوطى ١ : ١٤ ، ونسبه لعبد الرزاق وعبد بن حميد . وهو ظاهر فى رواية الطبرى هذه — أنه من مصنف عبد الرزاق . ونسبه للشوكانى ١ : ١٢ لهما وللطبرى .

(٢) الأثر ١٧٠ — مضى الكلام على هذا الإسناد : ١٤٤ . وأما لفظه فلم يذكره أحد منهم .

(٣) الخبر ١٧١ — إسناده ضعيف ، بيناه فى : ١٣٧ . وهذا الخبر والذى بعده ١٧٢ جمعهما السيوطى ١ : ١٤ ، ونسبهما أيضاً لابن أبى حاتم .

وذلك من قول ابن عباس بمعنى ما قلنا . وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نَخشع ونذِلّ ونستكينُ ، دون البيان عنه بأنه بمعنى نرجو ونَخاف — وإن كان الرّجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة — لأنّ العبودية ، عندَ جميع العرب ، أصلُها الذلّة ، وأنها تسمى الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام ، وذلّلته السابلة : معبَّداً . ومن ذلك قولَ طَرَفَة بن العَبْد :

تُبَارِي عِتاقاً نَاجياتٍ ، وأَتْبَعَت وَظِيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ[1]

يعنى بالمَوْر : الطريق . وبالمعبَّد : المذلَّل الموطوء[2] . ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالركوب فى الحوائج : معبَّد . ومنه سمى العبْدُ عبداً لذلّته لمولاه . والشواهد على ذلك — من أشعار العرب وكلامها — أكثرُ من أن تُحصى ، وفيما ذكرناه كفاية لمن وُفّق لفهمه إن شاء الله تعالى .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

قال أبو جعفر : ومعنى قوله ﴿ وإياك نستعين ﴾ : وإياك ربّنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك فى أمورنا كلها — لا أحداً سواك ، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين فى أمورِه معبودَه الذى يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين فى جميع أمورنا مخلصين لك العبادة .

١٧٢— كالذى حدثنا أبو كريب ،قال : حدّثنا عثمان بن سعيد ، قال :

---

(١) ديوان الستة الجاهليين : ٣١ . يصف ناقته . تبارى : تجاريها وتسابقها . والعتاق جمع عتيق : وهو الكريم المعرق فى كرم الأصل . وناجيات : مسرعات فى السير ، من النجاء ، وهو سرعة السير . والوظيف : من رسغى البعير إلى ركبتيه فى يديه ، وأما فى رجليه فمن رسغيه إلى عرقوبيه . وعنى بالوظيف هنا : الخف .

(٢) فى المخطوطة : « الموطن » ، وهو قريب المعنى .

حدثني بشر بن عُمارة ، قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن عبد الله ابن عباس : ﴿ وإيَّاكَ نَستعين ﴾ ، قال : إياك نستَعِينُ على طاعتك وعلى أمورنا كلها[١] .

فإن قال قائل : وما معنى أمرِ الله عبادَه بأن يسألوه المعونةَ على طاعته ؟ أوَ جائزٌ ، وقد أمرهم بطاعته ، أن لا يعينهم عليها ؟ أم هل يقول قائل لربه : إياك نستعينُ على طاعتك ، إلا وهو على قوله ذلك مُعانٌ ؟ وذلك هو الطاعة . فما وجهُ مسألة العبد ربَّه ما قد أعطاه إياه ؟

قيل : إن تأويلَ ذلك على غير الوجه الذى ذهبتَ إليه ، وإنما الداعى ربَّه من المؤمنين أن يعينه على طاعته إياه ، داعٍ أن يعينه فيما بقى من عُمره على ما كلّفه من طاعته ، دون ما قد تَقضَّى وَمضى من أعماله الصالحة فيما خلا من عمره . وجازت مسألةُ العبد ربَّه ذلك ، لأن إعطاء الله عبدَه ذلك — مع تمكينه جوارَحه لأداء ما كلَّفه من طاعته ، وافترض عليه من فرائضه — فضلٌ منه جل ثناؤه تفضّل به عليه ، ولُطْفٌ منه لَطَفَ له فيه . وليس فى تَركه التفضُّلَ على بعض عبيده بالتوفيق — مع اشتغال عبده بمعصيته ، وانصرافه عن محبّته ، ولا فى بَسطه فضلَه على بعضهم ، مع إجهاد العبد نفسه فى مَحبته ، ومسارعته إلى طاعته — فسادٌ فى تدبير ، ولا جَور فى حكم ، فيجوز أن يجهلَ جاهل موضع حُكم الله فى أمرِ عبدَه بمسألته عَونَه على طاعته[٢] .

وفى أمر الله جلّ ثناؤه عبادَه أن يقولوا : ﴿ إيّاكَ نعبدُ وإياكَ نَسْتعين ﴾ ، بمعنى مسألتهم إياه المعونةَ على العبادة ، أدلُّ الدليل على فساد قول القائلين بالتَّفويض من أهل القدر[٣] ، الذين أحالوا أن يأمُرَ الله أحداً من عباده بأمرٍ ، أو يكلّفه ٥٤/١

(١) الخبر ١٧٢ — هو بالإسناد الضعيف قبله . وأشرنا إليه هناك .

(٢) فى المطبوعة : « حكم الله وأمره عبده » ، وفى المخطوطة : «حكم الله أمره» بغير واو . والذى أثبتناه أصوب . والحكم : الحكمة ، كما مر مراراً .

(٣) أهل القدر : هم نفاة القدر لا مثبتوه . والقائلون بالتفويض هم القدرية والمعتزلة والإمامية .

فرضَ عمل ، إلا بعدَ إعطائه المعونة على فعلِه وعلى تركِه . ولوكانَ الذى قالوا من ذلك كما قالوا ، لبطلت الرَّغبة إلى الله فى المعونة على طاعته . إذ كان — على قولهم ، مع وجود الأمر والنهى والتكليف — حقًّا واجباً على الله للعبد إعطاؤه المعونة عليه ، سأله ذلك عبدُه أو تركَ مسألة ذلك . بل تَرك إعطائه ذلك عندهم منه جَورٌ . ولو كان الأمر فى ذلك على ما قالوا ، لكان القائل : ﴿ إيّاكَ نَعبُد و إيّاكَ نستعين ﴾ ، إنما يسأل ربَّه أن لا يجور .

وفى إجماع أهل الإسلام جميعاً — على تصويب قول القائل : « اللهم إنا نستعينك » ، وتخطئَتِهم قول القائل : « اللهم لا تَجُرْ علينا » — دليل واضحٌ على خطأ ما قال الذين وصفتُ قولهم . إذْ كان تأويلُ قول القائل عندهم : اللهم إنّا نستعينك — اللهم لا تترك مَعونتنا التى تركُكَها جَوْرٌ منك .

فإن قال قائل : وكيف قيل : « إياك نعبدُ وإياك نستعين » ، فقُدِّم الخبرُ عن العِبادة ، وأخِّرتْ مسألةُ المعونة عليها بعدَها؟ وإنما تكون العِبادة بالمعونة ، فمسألةُ المعونة كانت أحقَّ بالتقديم قبلَ المُعَان عليه من العمل ، والعبادةُ بها .

قيل : لمَّا كان معلوماً أن العبادة لا سبيلَ للعبد إليها إلا بمعونة من الله جلَّ ثناؤه ، وكان محالاً أن يكون العبْد عابداً إلا وهو على العبادة مُعان ، وأن يكون مُعاناً عليها إلا وهو لها فاعل — كان سواءً تقديمُ ما قُدمَ منهما على صاحبه . كما سواءٌ قولك للرجل إذا قضى حاجتَك فأحسن إليك فى قضائها : «قضيتَ حاجتى فأحسنتَ إلىَّ » ، فقدَّمت ذكر قضائه حاجتَك ، أو قلتَ : « أحسنتَ إلىَّ فقضيتَ حاجتى » ، فقدَّمتَ ذكر الإحسان على ذكر قضاء الحاجة . لأنه لا يكون قاضياً حاجتَك إلا وهو إليك محسن ، ولا محسناً إليك إلا وهو لحاجتك قاضٍ . فكذلك سواءٌ قول القائل : اللهم إنّا إياك نعبُدُ فأعِنَّا على عبادتك ، وقوله : اللهم أعنَّا على عبادتك فإنّا إياك نعبُدُ .

يزعمون أن الأمر فوض إلى الإنسان (أى رد إليه) ، فإرادته كافية فى إيجاد فعله ، طاعة كان أو معصية ، وهو خالق لأفعاله ، والاختيار بيده .

قال أبو جعفر : وقد ظنّ بعض أهل الغفلة أنّ ذلك من المقدّم الذى معناه التأخيرُ ، كما قال امرؤ القيس :

وَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفانى، ولم أطلُبْ ، قليلٌ من المالِ (١)

يريد بذلك : كفانى قليلٌ من المال ولم أطلب كثيراً . وذلك — من معنى التقديم والتأخير ، ومن مشابهة بيت امرئ القيس — بمعزِل . من أجل أنّه قد يكفيه القليلُ من المال ويطلُب الكثيرَ، فليس وُجودُ ما يكفيه منه بموجبٍ له تركَ طلب الكثير ، فيكونَ نظيرَ العبادة التى بوُجودها وجود المعونة عليها ، وبوجود المعونة عليها وُجُودها ، فيكونَ ذكرُ أحدِهما دالاًّ على الآخر ، فيعتدلَ فى صحة الكلام تقديمُ ما قُدِّم منهما قبلَ صاحبه ، أن يكونَ موضوعاً فى درجته ومرتَّباً فى مرتَبته .

فإن قال : فما وجْه تكراره « إياك » مع قوله : نستعين » ، وقد تقدَّم ذلك قبْل «نعبد »؟ وهلاَّ قيل: « إياك نعبُدُ ونستعين» ، إذ كان المخبَرُ عنه أنه المعبودُ ، هو المخبر عنه أنه المستعانُ ؟

قيل له : إن الكاف التى مع « إيَّا » ، هى الكاف التى كانت تتصل بالفعل— أعنى بقوله « نعبد »— لو كانت مؤخرةً بعدَ الفعل . وهى كنايةُ اسم المخاطبِ المنصوب بالفعل فكُثِّرت بـ « إيّا» متقدِّمةً ، إذْ كانت الأسماء إذا انفردتْ بأنفسِها لا تكون فى كلام العرب على حرف واحد .

فلمّا كانت الكاف من « إياكَ » هى كنايةَ اسم المخاطَب التى كانت تكون كافاً وحدها متصلةً بالفعل إذا كانتْ بعد الفعل، ثم كان حظُّها أن تعادَ مع كلّ فعل اتصلتْ به ، فيقال : « اللهم إنا نعبدكَ ونستعينكَ ونحمدكَ ونشكرك» ، وكان ذلك أفصحَ فى كلام العرب ، من أن يقال : « اللهم إنا نعبدك ونستعين ونحمد» — كان كذلك، إذا قدِّمت كنايةُ اسم المخاطب قبل الفعل موصولةً بـ « إيّا» ، كان الأفصح إعادتَها مع كل فعل . كما كان الفصيحُ من الكلام إعادتَها مع ١/٥٥

(١) ديوانه ١ : ٧١ .

كل فعل ، إذا كانت بعد الفعل متصلةً به ، وإن كان تركُ إعادتها جائزاً .

وقد ظنّ بعضُ من لم يُنعم النظر[١] أنّ إعادة « إياك » مع « نستعين » ، بعد تقدّمها فى قوله « إياك نعبد » ، بمعنى قول عدى بن زيد العِبَادىّ :

وجَاعِلِ الشَّمس مِصْراً لاَ خَفَاء بهِ ... بَيْنَ النَّهارِ وبَيْنَ اللَّيل قد فَصَلَا[٢]

وكقول أعشى هَمْدان :

بَيْنَ الأَشَجِّ وَبَيْنَ قَيْسٍ باذخٌ ... بَخْ بَخْ لوَالِدِهِ وللمَولُودِ[٣]

وذلك من قائله جهل ، من أجل أن حظ « إيّاك » أن تكون مكررة مع كل فعل ، لما وصفنا آنفاً من العلة ، وليس ذلك حُكم « بين » ، لأنها لاتكون — إذ اقتضت اثنين — إلا تكريراً إذا أعيدت ، إذْ كانت لا تنفَرد بالواحد . وأنها لو أفرِدت بأحد الاسمين ، فى حال اقتضائها اثنين ، كان الكلام كالمستحيل . وذلك أنّ قائلا لو قال : « الشمس قد فَصلَت بين النهار » ، لكان من الكلام خَلْفاً[٤] ، لنُقصان الكلام عما به الحاجة إليه ، من تمامه الذى يقتضيه « بين » .

ولو قال القائل : « اللهمّ إياك نعبد » ، لكان ذلك كلاماً تامًّا . فكان معلوماً بذلك أنّ حاجةَ كلِّ كلمةٍ — كانت نظيرةَ « إياك نعبد » — إلى « إياك » كحاجة

---

(١) فى المطبوعة : « لم يمعن النظر » ، بدلوها ، كما فعلوا فى ص : ٥٥ ، تعليق : ٣ .

(٢) فى اللسان (مصر) منسوباً إلى أمية بن أبى الصلت . واستدركه ابن برى ونسبه لعدى بن زيد . والمصر : الحاجز والحد بين الشيئين . يقول : جعل الشمس حدا وعلامة بين الليل والنهار .

(٣) ديوان الأعشين : ٣٢٣ ، والأغانى ٦ : ٤٦ ، ٦١ . وأعشى همدان هو عبد الرحمن بن عبد الله الهمدانى أبو مصبح ، كان أحد الفقهاء القراء ، ثم ترك ذلك وقال الشعر . يمدح عبد الرحمن بن الأشعث ابن قيس الكندى ، وكان خرج على الحجاج ، فخرج معه الفقهاء والقراء ، فلما أسر الحجاج الأعشى ، قال له : ألست القائل : وأنشده البيت — والله لا تبخبخ بعدها أبداً ! وقتله . الأشج : هو الأشعث والد عبد الرحمن ، وقيس جده . و بخ بخ : كلمة التعظيم والتفخيم . وهذا البيت والذى سبقه شاهدان على صحة تكرار « بين » ، مع غير الضمير المتصل ، ومثلهما كثير . وأهل عصرنا يخطئون من يقوله ، وهم فى شرك الخطأ .

(٤) الخلف (بفتح فسكون) : الردىء من القول . يقال : هذا خلف من القول ، أى ردىء . وفى المثل : « سكت ألفاً ونطق خلفاً » ، يقال للرجل يطيل الصمت ، فإذا تكلم تكلم بالخطأ . أى سكت دهراً طويلا ، ثم تكلم بخطأ . كنى بالألف عن الزمن الطويل ، ألف ساعة مثلا .

« نَعْبد » إليها[1] ، وأنّ الصواب أن تكونَ معها « إياك » ، إذْ كانت كل كلمة منها جملةَ خبرِ مبتدأ ، وبيّناً حُكم مخالفة ذلك حُكم « بين » ، فيما وَفّق بينهما الذى وصفنا قوله .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ اهْدِنَا ﴾ .

قال أبو جعفر : ومعنى قوله ﴿ اهدِنَا الصراطَ المستقيم ﴾ ، فى هذا الموضع عندنا : وَفّقْنا للثبات عليه ، كما رُوِى ذلك عن ابن عباس : —

١٧٣ — حدثنا أبو كُريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال حدثنا بشر ابن عمارة ، قال حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ، قال : قال جبريل لمحمد صلى الله عليه : «قل ، يا محمد ، اهدنا الصراط المستقيمَ» . يقول : ألهمنا الطريق الهادى[2] .

وإلهامه إياه ذلك ، هو توفيقه له ، كالذى قلنا فى تأويله . ومعناه نظيرُ معنى قوله « إياك نستعين » ، فى أنه مَسألةُ العبد ربَّه التوفيقَ للثبات على العمل بطاعته ، وإصابةِ الحق والصواب فيما أمرَه به ونهاه عنه ، فيما يَستَقبِلُ من عُمُره ، دون ما قد مضى من أعماله ، وتقضَّى فيما سَلف من عُمُره . كما قوله « إياك نستعين » ، مسألةٌ منه ربَّه المعونةَ على أداء ما قد كلَّفه من طاعته ، فيما بقى من عُمُره .

فكانَ معنى الكلام : اللهمّ إياك نعبدُ وحدَك لا شريك لك ، مخلصين لك العبادةَ دونَ ما سِواك من الآلهة والأوثان ، فأعِنّا على عبادتك ، ووفّقنا لما

---

(١) يعنى أن حاجة الأولى منها كحاجة الثانية ، فلذلك وجب تكرارها . سياق العبارة : « فكان معلوماً أن حاجة كل كلمة . . . وكان معلوماً أن الصواب أن تكون معها . . . وكان بيناً . . . » إلى آخر الفقرة .

(٢) يأتى بتمامه وتخريجه برقم ١٧٩ .

وفَّقت له مَن أنعمتَ عليه من أنبيائك وأهل طاعتك ، من السبيل والمنهاج .

فإن قال قائل : وأنّى وَجدتَ الهدايةَ في كلام العرب بمعنى التّوفيق ؟

قيل له : ذلك في كلامها أكثرُ وأظهر من أن يُحصى عددُ ما جاء عنهم في ذلك من الشواهد . فمن ذلك قول الشاعر :

لاَ تَحْرِمَنِّي ، هَدَاكَ اللهُ ، مَسْأَلتِي وَلاَ أَكُونَنْ كمن أَوْدَى به السَّفَرُ[1]

يعني به : وفَّقك الله لقضاء حاجتي . ومنه قول الآخر :

ولاَ تُعْجِلَنِّي هَدَاكَ المليكُ ، فإنَّ لِكلِّ مَقامٍ مَقَالاَ[2]

فمعلوم أنه إنما أراد : وفقك الله لإصابة الحق في أمري .

ومنه قول الله جل ثناؤه : ﴿ وَاللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمينَ ﴾ في غير آية من تنزيله . وقد عُلم بذلك، أنه لم يَعْنِ أنه لا يُبيِّنُ للظالمين الواجبَ عليهم من فرائضه . وكيف يجوزُ أن يكونَ ذلك معناه ، وقد عمَّ بالبيان جميع المكلَّفين من خلقه ؟ ولكنه عَنى جلَّ وعزَّ أنه لا يُوفِّقهم ، ولا يشرَحُ للحق والإيمان صدورَهم . ٥٦/١

وقد زعم بعضهم أن تأويل قوله ﴿ اهدِنا ﴾ : زِدْنا هدايةً .

وليس يخلُو هذا القولُ من أحدِ أمرين : إما أن يكون ظنَّ قائلُه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أُمِر بمسألة ربِّه الزيادة في البيان، أو الزيادةَ في المعونة والتوفيق .

فإن كان ظن أنه أُمِر بمسألة الزيادة في البيان ، فذلك ما لا وجه له . لأن الله جلَّ ثناؤه لا يكلِّف عبداً فرضاً من فرائضه ، إلا بعد تبيينه له وإقامةِ الحجة عليه به . ولو كان مَعنى ذلك معنى مسألتِه البيانَ ، لكانَ قد أمِر أن يدعو ربَّه أن يبين له ما فَرض عليه ، وذلك من الدعاء خَلفٌ[3] ، لأنه لا يفرض فرضاً إلا مبيَّناً

---

(١) لم أعرف نسبة البيت ، وأخشى أن يكون من أبيات ودقة الأسدى يقولها لمعن بن زائدة . أمالي المرتضى ١ : ١٦٠ .

(٢) نسبه المفضل بن سلمة في الفاخر : ٢٥٣ ، وقال : «أول من قال ذلك طرفة بن العبد، في شعر يعتذر فيه إلى عمرو بن هند» ، وليس في ديوانه ، وانظر أمثال الميداني ٢ : ١٢٥ .

(٣) أي رديء من القول . انظر ما سلف ص ١٦٥ رقم : ١ .

لمن فرضَه عليه. أو يكون أمِر أن يدعوَ ربَّه أن يفرض عليه الفرائضَ التى لم يفرضْها. وفى فساد وَجه مسألة العبد ربَّه ذلك ، ما يوضِّح عن أن معنى ﴿ اهدِنَا الصِّراطَ المستقيم ﴾ ، غير معنى : بيِّن لنا فرائضَك وحدودَك .

أو يكون ظنَّ أنه أمِر بمسألة ربه الزيادةَ فى المعونة والتوفيق . فإن كان ذلك كذلك ، فلن تخلوَ مسألتُه تلك الزيادةَ من أن تكون مسألةً للزيادة فى المعونة على ما قد مضى من عمله ، أو على ما يحدُث . وفى ارتفاع حاجةِ العبد إلى المعونة على ما قد تقضَّى من عمله[1] ، ما يُعلِم أنَّ معنى مسألة تلك الزيادة إنما هو مسألتُه الزيادةَ لما يحدث من عمله . وإذْ كانَ ذلك كذلك ، صارَ الأمر إلى ما وصفنا وقلنا فى ذلك : من أنه مسألة العبد ربَّه التوفيقَ لأداء ما كُلِّف من فرائضه ، فيما يَستقبل من عُمُره .

وفى صحة ذلك ، فسادُ قول أهل القدَر الزاعمين أنَّ كل مأمور بأمرٍ أو مكلَّف فرضاً ، فقد أعطى من المعونة عليه ، ما قد ارتفعت معه فى ذلك الفرض حاجتُه إلى ربِّه[2] . لأنه لو كان الأمرُ على ما قالوا فى ذلك ، لبطَلَ معنى قول الله جل ثناؤه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. وفى صحة معنى ذلك ، على ما بيَّنا ، فسادُ قولهم .

وقد زعم بعضُهم أنَّ معنى قوله ﴿ اهدنا الصِّراطَ المستقيم ﴾ : أسْلِكنا طريق الجنة فى المعاد ، أىْ قدِّمنا له وامض بنا إليه ، كما قال جلَّ ثناؤه : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة الصافات : ٢٣] ، أى أدخلوهم النار ، كما تُهدَى المرأة إلى زوجها ، يُعنى بذلك أنها تُدخَل إليه ، وكما تُهدَى الهديَّة إلى الرجل ، وكما تَهدِى الساقَ القدمُ ، نظيرَ قول طَرفة بن العبد :

---

(١) ارتفع الأمر : زال وذهب ، كأنه كان موضوعاً حاضراً ثم ارتفع . ومنه : ارتفع الخلاف بينهما .

(٢) انظر ص : ١٦٢ التعليق رقم : ٢ .

لَعبتْ بَعْدِى السُّيُولُ بهِ وجَرَى فى رَوْنَقٍ رِهمُهْ[1]

لِلفَتَى عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ حَيْثُ تَهْدِى سَاقَه قَدَمُهْ[2]

أى تَرِدُ به الموارد.

وفى قول الله جل ثناؤه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نستعين ﴾ ما ينبىء عن خطأ هذا التأويل، مع شهادة الحجة من المفسِّرين على تخطئته. وذلك أنّ جميع المفسرين من الصحابة والتابعين مجمِعُون على أنّ معنى « الصراط » فى هذا الموضع، غيرُ المعنى الذى تأوله قائل هذا القول، وأن قوله: « إياك نستعينُ » مسألةُ العبدِ ربَّه المعونةَ على عبادته. فكذلك قوله « اهْدِنا » إنما هو مسألةُ الثباتِ على الهدى فيما بقى من عُمُرِه.

والعربُ تقول: هديتُ فلاناً الطريقَ، وهديتُه للطريق، وهديتُه إلى الطريق، إذا أرشدتَه إليه وسدَّدته له. وبكل ذلك جاء القرآن، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣]، وقال فى موضع آخر: ﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة النحل: ١٢١]، وقال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

وكل ذلك فاش فى منطقها، موجودٌ فى كلامها، من ذلك قول الشاعر:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ، رَبَّ العِباد، إليهِ الوَجْهُ والعَمَلُ[3]

(١) ديوان الستة الجاهليين: ٢٣٤، ٢٣٧، والبيت الأول فى فاتحة الشعر، والأخير خاتمته. والضمير فى قوله: « لعبت » للربع، فى أبيات سلفت. والرونق السيف والشباب والنبات: صفاؤه وحسنه وماؤه. ويروى: « فى ريق ». وريق الشباب: أوله والتماعه ونضرته. وعنى نباتاً نضيراً كأنه يقول: فى ذى رونق، أو فى ذى ريق. والرهم — بكسر الراء — جمع رهمة: وهى المطرة الضعيفة المتتابعة، وهى مكرمة للنبات. يقول: أعشبت الأرض، وجرى ماء السماء فى النبت يترقرق. والضمير فى « رهمه » عائد على الغيث، غائب كمذكور.

(٢) يقول: حيث سار الفتى عاش بعقله وتدبيره واجتهاده.

(٣) يأتى فى تفسير آية سورة آل عمران: ١٢١، وآية سورة القصص: ٨٨. وسيبويه ١: ١٧، والخزانة ١: ٤٨٦، وهو من أبيات سيبويه الخمسين التى لا يعرف قائلها. قال الشنتمرى:

يريد : أستغفر الله لذنْب ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِك ﴾ [سورة غافر : ٥٥].

ومنه قول نابغة بنى ذُبْيان :

٥٧/١ فَيَصِيدُنَا العَيْرَ المُدِلَّ بِحُضْرِهِ قَبْلَ الوَنَى ، وَالأَشْعَبَ النَّبَّاحَا (١)

يريد : فيصيدُ لنا . وذلك كثير فى أشعارهم وكلامهم ، وفيما ذكرنا منه كفاية .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ .

قال أبو جعفر : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن « الصراط المستقيم » ، هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه . وكذلك ذلك فى لغة جميع العرب ، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفى :

أميرُ المؤمنين عَلَى صِرَاطٍ — إذا اعوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ (٢)

يريد : على طريق الحق . ومنه قول الهُذلى أبى ذُؤَيْب :

صَبَحْنَا أَرْضَهُمْ بالخَيْلِ حَتّى تركْنَاها أَدَقَّ مِنَ الصِّرَاطِ (٣)

« أراد من ذنب ، فحذف الجار وأوصل الفعل فنصب . والذنب هنا اسم جنس بمعنى الجمع . فلذلك قال : « لست محصيه » . والوجه : القصد والمراد ، وهو بمعنى التوجه » .

(١) البيت ليس فى ديوانه . ومن القصيدة أبيات فيه : ٢٣ ، (مطبوعة محمد جمال) ، والمجتنى لابن دريد : ٢٣ ، يصف فرساً . والعير : حمار الوحش . والحضر : العدو الشديد ، وحمار الوحش شديد العدو . والونى : التعب والفترة فى العدو أو العمل . والأشعب : الظبى تفرق قرناه فانشعبا وتباينا بينونة شديدة . ونبح الكلب والظبى والتيس ينبح نباحاً ، فهو نباح ، إذا كثر صياحه ، من المرح والنشاط . والظبى إذا أسن ونبتت لقرونه شعب ، نبح (الحيوان ١ : ٣٤٩) . يصف فرسه بشدة العدو ، يلحق العير المدل بحضره ، والظبى المستحكم السريع ، فيصيدها قبل أن يناله تعب.

(٢) ديوانه : ٥٠٧ ، يمدح هشام بن عبد الملك . والموارد جمع موردة : وهى الطرق إلى الماء . يريد الطرق التى يسلكها الناس إلى أغراضهم وحاجاتهم ، كما يسلكون الموارد إلى الماء .

(٣) ليس فى ديوانه ، ونسبه القرطبى فى تفسيره ١ : ١٢٨ لعامر بن الطفيل ، وليس فى ديوانه ،

ومنه قول الراجز :

* فَصُدَّ عَنْ نَهْجِ الصِّراطِ القَاصِدِ[1] *

والشواهد على ذلك أكثرُ من أن تُحصى ، وفيما ذكرنا غنًى عما تركنا .

ثم تستعيرُ العرب « الصراط » فتستعمله فى كل قولٍ وعملٍ وُصِف باستقامة أو اعوجاج ، فتصفُ المستقيمَ باستقامته ، والمعوجَّ باعوجاجه .

والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى ، أعنى : ﴿ اهدِنا الصِّراطَ المستقيم ﴾ ، أن يكون معنيًّا به : وَفّقنا للثبات على ما ارتضيتَه ووفّقتَ له مَنْ أنعمتَ عليه من عبادِك ، من قولٍ وعملٍ ، وذلك هو الصِّراط المستقيم . لأن من وُفّق لما وُفّق له من أنعم الله عليه من النبيِّين والصديقين والشهداء ، فقد وُفّق للإسلام ، وتصديقِ الرسلِ ، والتمسكِ بالكتاب ، والعملِ بما أمر الله به ، والانزجار عمّا زَجره عنه ، واتّباع منهج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومنهاج أبى بكر وعمر وعثمان وعلى . وكلّ عبدٍ لله صالحٍ ، وكل ذلك من الصراط المستقيم .

وقد اختلفتْ تراجمةُ القرآن فى المعنىّ بالصراط المستقيم[2] . يشملُ معانىَ جميعهم فى ذلك ، ما اخترنا من التأويل فيه .

ومما قالته فى ذلك ، ما رُوِى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال ، وذكر القرآن ، فقال : هو الصراط المستقيم .

١٧٤– حدثنا بذلك موسى بن عبد الرحمن المسروقى ، قال : حدثنا حسين الجُعْفى ، عن حمزة الزيات ، عن أبى المختار الطائى ، عن ابن أخى الحارث ، عن الحارث ، عن علىّ ، عن النبى صلى الله عليه وسلم[3] .

فإن يكن هذليا ، فاطه من شعر المتنخل ، وله قصيدة فى ديوان الهذليين ٢ : ١٨ – ٢٨ ، على هذه القافية . ولعمرو بن معد يكرب أبيات مثلها رواها القالى فى النوادر ٣ : ١٩١ .

(١) رواه القرطبى فى تفسيره ١ : ١٢٨ « الصراط الواضح » .

(٢) تراجمة القرآن ، جمع ترجمان : وأراد المفسرين ، وانظر ما مضى : ٧٠ تعليق : ١

(٣) الحديث ١٧٤ – إسناده ضعيف جدا . موسى بن عبد الرحمن المسروق : ثقة ، روى عنه

١٧٥ـ وحُدِّثْتُ عن إسمعيل بن أبي كريمة، قال: حدثنا محمد بن سَلمة، عن أبي سِنان، عن عمرو بن مُرّة، عن أبي البَخْتَرِيّ، عن الحارث، عن عليّ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، مثله[1].

الترمذي، والنسائي، وابن خزيمة، وغيرهم. مات سنة ٢٥٨، مترجم في التهذيب. حسين الجعفي: هو حسين بن علي بن الوليد، ثقة معروف، روى عنه أحمد، وابن معين، وغيرهم، بل روى عنه ابن عيينة وهو أكبر منه. وأخرج له أصحاب الكتب الستة. حمزة الزيات: هو حمزة بن حبيب، القارىء المعروف. وتكلم في روايته بعضهم، والحق أنه ثقة، وأخرج له مسلم في صحيحه. أبو المختار الطائي: قيل اسمه: سعد، وهو مجهول، جهله المديني وأبو زرعة. ابن أخي الحارث الأعور: أشد جهالة من ذاك، لم يسم هو ولا أبوه. عمه الحارث: هو ابن عبد الله الأعور الهمداني، وهو ضعيف جدا. وقد اختلف فيه العلماء اختلافاً كثيراً، حتى وصفه الشعبي وغيره بأنه «كان كذاباً»، وقد رجحت في شرح الحديث ٥٦٥ وغيره من المسند أنه ضعيف جدا.

وأما متن الحديث: فقد رواه ـ بمعناه ـ ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة عن يحيى بن يمان عن حمزة الزيات، بهذا الإسناد، فيما نقل ابن كثير ١: ٥٠ ووقع فيه تحريف في الإسناد هناك. وهو جزء من حديث طويل، في فضل القرآن ـ رواه الترمذي (٤: ٥١ ـ ٥٢ من تحفة الأحوذي)، عن عبد بن حميد عن حسين الجعفي، بهذا الإسناد. وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال». كذلك رواه الدارمي في سننه ٢: ٤٣٥ عن محمد بن يزيد الرفاعي عن حسين الجعفي. ونقله السيوطي ١: ١٥ ونسبه أيضاً لابن أبي شيبة وابن الأنباري في المصاحف والبيهقي في شعب الإيمان. وأشار إليه الذهبي في الميزان ٣: ٣٨٠ في ترجمة أبي المختار الطائي، قال: «حديثه في فضائل القرآن منكر». ونقله ابن كثير في الفضائل: ١٤ ـ ١٥ عن الترمذي، ونقل تضعيفه إياه، ثم قال: «لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد ابن إسحق عن محمد بن كعب القرظي عن الحارث الأعور. فبرئ حمزة من عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام في القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما أنه تعمد الكذب في الحديث ـ فلا. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح».

وسيأتي ١٧٥، ١٧٦ بإسنادين آخرين، موقوفاً، من كلام علي رضي الله عنه.

ورواية ابن إسحق ـ التي أشار إليها ابن كثير ـ هي حديث أحمد في المسند: ٥٦٥. عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن ابن إسحق. وقد ضعفنا إسناده هناك، بالحارث الأعور، وبانقطاعه بين ابن إسحق ومحمد بن كعب. وليس فيه الحرف الذي هنا، في تفسير «الصراط المستقيم».

(١) الحديث ١٧٥ ـ هو الحديث السابق بإسناد آخر. وهذا الإسناد جيد إلى الحارث الأعور، ثم يضعف به الحديث جدا، كما قلنا من قبل.

ومحمد بن سلمة: هو الباهلي الحراني، وهو ثقة، روى عنه أحمد بن حنبل وغيره، وأخرج له مسلم في صحيحه، مات سنة ١٩١. وشيخه أبو سنان: وهو سعيد بن سنان الشيباني، وهو ثقة، ومن تكلم فيه إنما يكون من جهة خطئه بعض الخطأ، وقال أبو داود: «ثقة من رفعاء الناس»، وأخرج له مسلم في الصحيح. وعمرو بن مرة: هو المرادي الجملي، ثقة مأمون بلا خلاف، قال مسعر: «عمرو

١٧٦ــ حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزُّبيرى ، قال : حدثنا حمزة الزيات ، عن أبي المختار الطائى ، عن ابن أخى الحارث الأعور ، عن الحارث ، عن علىّ ، قال : الصِّراطُ المستقيم : كتاب الله تعالى ذكره[1] .

١٧٧ــ حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان ــ ح ــ وحدثنا محمد بن حُميد الرازى ، قال : حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن منصور ، عن أبي وائل ، قال : قال عبدالله : « الصِّراطُ المستقيم » كتابُ الله[2] .

١٧٨ــ حدثني محمود بن خِداش الطالَقانى ، قال : حدثنا حُميد بن عبدالرحمن الرُّؤاسِى ، قال : حدثنا على والحسن ابنا صالح ، جميعاً ، عن عبد الله بن محمد ابن عَقيل ، عن جابر بن عبد الله : « اهدنا الصراط المستقيم » قال : الإسلام ، قال : هو أوسع مما بين السماء والأرض[3] .

من معادن الصدق » . وأبو البخترى ــ بفتح الباء الموحدة والتاء المثناة بينهما خاء معجمة ساكنة : هو سعيد بن فيروز الطائى الكوفى ، تابعى ثقة معروف .

(١) الخبر ١٧٦ ــ هو الحديث السابق بالإسنادين قبله ، بمعناه . ولكنه هنا موقوف على على ابن أبي طالب . والإسناد إليه منهار انهيار الإسناد ١٧٤ ، من أجل الحارث الأعور وابن أخيه . أما من دونهما ، فأبو المختار الطائى وحمزة مضيا فى ١٧٤ ، وأبو أحمد الزبيرى وأحمد بن إسحق مضيا فى ١٥٩ .

(٢) الخبر ١٧٧ ــ هذا موقوف من كلام عبد الله بن مسعود . وقد رواه الطبرى بإسنادين إلى سفيان ، وهو الثورى . أما أولهما : أحمد بن إسحق عن أبي أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى ــ فإسناده صحيح ، لا كلام فيه . وأما ثانيهما : محمد بن حميد الرازى عن مهران ، وهو ابن أبي عمر العطار ــ فقد بينا فى الإسناد ١١ أن فى رواية مهران عن الثورى اضطراباً ، ولكنه هنا تابعه عن روايته حافظ ثقة ، هو أبو أحمد الزبيرى . وقد رواه الثورى عن منصور ، وهو ابن المعتمر الكوفى ، وهو ثقة ثبت حجة ، لا يختلف فيه أحد . وأبو وائل : هو شقيق بن سلمة الأسدى ، من كبار التابعين الثقات ، قال ابن معين : « ثقة لا يسأل عن مثله » .

وهذا الخبر ، رواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٥٨ من طريق عمر بن سعد أبي داود الحفرى عن الثورى ، بهذا الإسناد . وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى . وذكره السيوطى ١ : ١٥ ، والشوكانى ١ : ١٣ .

(٣) الخبر ١٧٨ ــ وهذا موقوف على جابر بن عبد الله . وإسناده صحيح : محمود بن خداش بكسر الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة وآخره شين معجمة ــ الطالقانى : ثقة من أهل الصدق ، مات يوم الأربعاء ١٤ شعبان سنة ٢٥٠ ، كما فى التاريخ الصغير للبخارى : ٢٤٧ . وحميد بن عبد الرحمن الرؤاسى :

١٧٩— حدثنا أبوكريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمَارة ، قال : حدثنا أبو رَوق ، عن الضحّاك، عن عبد الله بن عباس ، قال : قال جبريل لمحمد : قل يا محمد ﴿ اهدِنا الصراط المستقيم ﴾ يقول : ألهمنا الطريقَ الهادى ، وهو دين الله الذى لا عوج له[1] .

١٨٠— حدثنا موسى بن سهل الرازى ، قال : حدثنا يحيى بن عوف ، عن الفُرَات بن السائب ، عن ميمون بن مِهْران ، عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ اهدِنا الصِّراطَ المُستقيم ﴾ قال : ذلك الإسلام[2] . ٥٨/١

١٨١— حدثنى محمود بن خِدَاش ، قال: حدثنا محمد بن ربيعة الكِلابى ، عن إسمعيل الأزرق ، عن أبى عُمَر البزّار ، عن ابن الحنفية ، فى قوله

ثقة ثبت عاقل ، روى عنه أحمد وغيره من الحفاظ . والحسن وعلى ابنا صالح بن صالح بن حى : ثقتان ، وهما أخوان توأم . ومن تكلم فى الحسن تكلم بغير حجة ، وقد وثقناه فى المسند : ٢٤٠٣ . وأخاه فيه : ٢٢٠ . وعبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب ، وأمه زينب الصغرى بنت على بن أبى طالب : تابعى ثقة ، ولا حجة لمن تكلم فيه .

والخبر رواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٥٨ — ٢٥٩ ، من طريق أبى نعيم عن الحسن بن صالح — وحده — بهذا الإسناد . وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى . وذكره ابن كثير ١ : ٥٠ ، والسيوطى ١ : ١٥ ، والشوكانى ١ : ١٣ .

(١) الحديث ١٧٩ — إسناده ضعيف ، سبق بيان ضعفه : ١٣٧ . وهذا اللفظ نقله ابن كثير ١ : ٥٠ دون إسناد ولا نسبة . ونقله السيوطى ١ : ١٤ مختصراً ، ونسبه للطبرى فقط .

(٢) الخبر ١٨٠ — إسناده ضعيف جدا ، على ما فيه من جهلنا بحال بعض رجاله : فموسى ابن سهل الرازى ، شيخ الطبرى : لم نجزم بأى الرجال هو ؟ ولعله « موسى بن سهل بن قادم ، ويقال ابن موسى ، أبو عمر الرملى ، نسائى الأصل » . فهو شيخ للطبرى مترجم فى التهذيب ١٠ : ٣٤٧ ، ولكنه لم ينسب « رازيا » . وكتب فى المخطوطة : « سهل بن موسى » ! ولم نجد هذه الترجمة أيضاً ، ونرجح أنه خطأ من الناسخ . . ويحيى بن عوف : لم نجد ترجمة بهذا الاسم قط فيما لدينا من مراجع . وأما علة الإسناد ، فهو « الفرات بن السائب الجزرى » ، وهو ضعيف جدا ، قال البخارى فى الكبير ٤ / ١ / ١٣٠ : « تركوه ، منكر الحديث » ، وكذلك قال الأئمة فيه ، وقال ابن حبان فى المجروحين (فى الورقة ١٨٧) : « كان ممن يروى الموضوعات عن الأثبات ، ويأتى بالمعضلات عن الثقات ، لا يجوز الاحتجاج به ، ولا الرواية عنه ، ولا كتبة حديثه إلا على سبيل الاختبار » . وأما ميمون بن مهران فتابعى ثقة معروف ، فقيه حجة .

وهذا الخبر نقله ابن كثير ١ : ٥٠ مجهلا بلفظ «وقيل : هو الإسلام » . ونقله السيوطى ١ : ١٥ منسوباً لابن جرير فقط ، على خطأ مطبعى فيه « ابن جريج » !

﴿ اهدنا الصراطَ المستقيم ﴾ قال : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيرَه[١] .

١٨٢ — حدثنى موسى بن هرون الهمدانى ، قال : حدّثنا عَمرو بن طلحة القنَّاد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّىّ — فى خبر ذكره — عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهمدانى ، عن ابن مسعود — وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ﴿ اهدنا الصراطَ المستقيم ﴾ قال : هو الإسلام[٢] .

١٨٣ — حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جُريج ، قال : قال ابن عباس فى قوله : ﴿ اهدنا الصراطَ المستقيم ﴾ ، قال : الطريق[٣] .

١٨٤ — حدثنا عبد الله بن كثير أبو صديف الآمُلى ، قال : حدثنا هاشم بن القاسم ، قال : حدثنا حمزة بن المغيرة ، عن عاصم ، عن أبى العالية ، فى قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » ، قال : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر . قال : فذكرتُ ذلك للحسن فقال : صدَق أبو العالية ونصح[٤] .

---

(١) الأثر ١٨١ — ابن الحنفية : هو محمد بن على بن أبى طالب ، والحنفية أمه ، وهى خولة بنت جعفر من بنى حنيفة ، عرف بالنسبة إليها . وهذا الإسناد إليه ضعيف : محمد بن ربيعة الكلابى الرؤاسى : ثقة من شيوخ أحمد وابن معين . وإسمعيل الأزرق : هو إسمعيل بن سلمان ، وهو ضعيف ، قال ابن معين : «ليس حديثه بشىء» ، وقال ابن نمير والنسائى : « متروك » ، وقال ابن حبان فى كتاب المجروحين (ص ٧٨ رقم ٣٥) : «ينفرد بمناكير يرويها عن المشاهير» . وأبو عمر البزار : هو دينار بن عمر الأسدى الكوفى الأعمى ، وهو ثقة . والأثر ذكره ابن كثير ١ : ٥١ دون نسبة ولا إسناد .

(٢) الخبر ١٨٢ — هذا من تفسير السدى ، وقد سبق شرح إسناده ١٦٨ . وقد نقله ابن كثير ١ : ٥٠ والسيوطى ١ : ١٥ .

(٣) الخبر ١٨٣ — نقله السيوطى ١ : ١٤ منسوباً للطبرى وابن المنذر . وقد سبق أول هذا الإسناد : ١٤٤ ، وهو هنا منقطع ، لأن ابن جريج لم يدرك ابن عباس ، إنما يروى عن الرواة عنه .

(٤) الأثر ١٨٤ — عبد الله بن كثير أبو صديف الآملى ، شيخ الطبرى : لم أعرف من هو ، ولم أجد له ذكراً ، وأخشى أن يكون فيه تحريف . هاشم بن القاسم : هو أبو النضر — بالنون والضاد

١٨٥- حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال حدثنا ابن وهب، قال : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : «اهدنا الصراط المستقيم» ، قال : الإسلام(١) .

١٨٦- حدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثني معاوية بن صالح ، أنّ عبد الرحمن بن جُبير حدّثه ، عن أبيه ، عن نوّاس بن سمعان الأنصارى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ضرب الله مثلا صراطاً مستقيماً ، والصِّراط : الإسلامُ .

١٨٧- حدثنا المثنى قال : حدثنا آدم العسقلانى ، قال : حدثنا الليث ، عن معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نُفير ، عن أبيه ، عن نوّاس ابن سمعان الأنصارى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بمثله(٢) .

المعجمة - الحافظ الخراسانى الإمام ، شيخ الأئمة : أحمد وابن راهويه وابن المدينى وابن معين وغيرهم . حمزة بن المغيرة بن نشيط - بفتح النون وكسر الشين المعجمة - الكوفى العابد : ثقة ، مترجم فى التهذيب ، وترجمه البخارى فى الكبير ٢/١/٤٤ ، وابن أبى حاتم ١/٢/ ٢١٤ - ٢١٥ ، وذكره ابن حبان فى الثقات ٤٤٣ ، قال : «حمزة بن المغيرة العابد ، من أهل الكوفة . يروى عن عاصم الأحول عن أبى العالية (اهدنا الصراط المستقيم) ، قال : هو النبى صلى الله عليه وسلم وصاحباه . روى عنه أبو النضر هاشم بن القاسم» . ووقع هنا : فى الأصول «حمزة بن أبى المغيرة» . وهو خطأ من الناسخين . عاصم : هو ابن سليمان الأحول ، تابعى ثقة ثبت . أبو العالية : هو الرياحى - بكسر الراء وتخفيف الياء ، واسمه : رفيع - بالتصغير - بن مهران ، من كبار التابعين الثقات ، مجمع على توثيقه .

وهذا الأثر ذكره ابن كثير ١ : ٥١ ونسبه أيضاً لابن أبى حاتم . والسيوطى ١ : ١٥ وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن عدى وابن عساكر . وأبو العالية لم يقله من قبل نفسه : فقد رواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٥٩ من طريق أبى النضر بهذا الإسناد إلى «أبى العالية عن ابن عباس» . وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه» . ووافقه الذهبى . واختصره السيوطى ونسبه للحاكم فقط .

(١) الأثر ١٨٥ - هذا من كلام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقد نقله ابن كثير ١ : ٥١ دون نسبة . وعبد الرحمن بن زيد : متأخر ، من أتباع التابعين ، مات سنة ١٨٢ . وهو ضعيف جدا ، بينت ضعفه فى حديث المسند : ٥٧٢٣ ، ويكفى منه قول ابن خزيمة : «ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه ، لسوء حفظه ، وهو رجل صناعته العبادة والتقشف ، ليس من أحلاس الحديث» .

(٢) الحديث ١٨٦ ، ١٨٧ - رواه الطبرى عن شيخه «المثنى» بإسنادين ، أولهما أعلى من الثانى درجة : بين المثنى وبين معاوية بن صالح فى أولهما شيخ واحد ، وفى ثانيهما شيخان .

أما المثنى شيخ الطبرى : فهو المثنى بن إبراهيم الآملى ، يروى عنه الطبرى كثيراً فى التفسير والتاريخ . وأبو صالح ، فى الإسناد الأول : هو عبد الله بن صالح المصرى ، كاتب الليث بن سعد ، صحبه عشرين سنة . وهو ثقة ، ومن تكلم فيه ، فى بعض حديثه عن الليث ، تكلم بغير حجة . وله ترجمة فى

قال أبو جعفر : وإنما وصفه الله بالاستقامة ، لأنه صواب لا خطأ فيه . وقد زعم بعض أهل الغباء ، أنه سمّاه الله مستقيماً ، لاستقامته بأهله إلى الجنة . وذلك تأويلٌ لتأويل جميع أهل التفسير خلافٌ ، وكفى بإجماع جميعهم على خلافه دليلا على خطئه .

* * *

القول في تأويل قوله : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وقوله ﴿ صِرَاط الذين أنعمْتَ عليهم ﴾ ، إبانةٌ عن الصراط المستقيم ، أىُّ الصراط هو ؟ إذْ كان كلّ طريق من طرُق الحق صراطاً مستقيماً . فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : قُلْ يا محمد : اهدنا يا ربنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك ، من مَلائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين . وذلك نظير ما قال ربنا جلّ ثناؤه فى تنزيله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ۞ وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ۞ وَلَهَدَيْنَاهُمْ

التهذيب جُيدة ، وكذلك فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/٢/٨٦ – ٨٧ ، وتذكرة الحفاظ ١ : ٣٥١ – ٣٥٣ . ولد عبد الله بن صالح سنة ١٣٧ ومات سنة ٢٢٢ . ووقع تاريخ مولده فى التهذيب (١٧٣) وهو خطأ مطبعى ، صوابه فى تذكرة الحفاظ . وآدم العسقلانى ، فى الإسناد الثانى : هو آدم ابن أبى إياس ، وهو ثقة مأمون متعبد ، من خيار عباد الله ، كما قال أبو حاتم . الليث : هو ابن سعد ، إمام أهل مصر . معاوية بن صالح ، فى الإسنادين : هو الحمصى ، أحد الأعلام وقاضى الأندلس ، ثقة ، من تكلم فيه أخطأ . عبد الرحمن بن جبير بن نفير – بالتصغير فيهما – الحضرمى الحمصى : تابعى ثقة . وأبوه : من كبار التابعين ، أدرك زمن النبى صلى الله عليه وسلم . وهو ثقة مشهور بالعلم ، وذكره الطبرى فى طبقات الفقهاء . النواس – بفتح النون وتشديد الواو – بن سمعان الكلابى : صحابى معروف .

وهذا الحديث مختصر من حديث طويل ، رواه أحمد فى المسند : ١٧٧١١ (ج ٤ ص ١٨٢ حلبى) عن الحسن بن سوار عن الليث بن سعد عن معاوية بن صالح ، به . ونقله ابن كثير ١ : ٥١ من رواية المسند ، قال : « وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث الليث بن سعد ، به . ورواه الترمذى والنسائى جميعاً عن على بن حنجر عن بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان ، به . وهو إسناد حسن صحيح » . ونسبه السيوطى ١ : ١٥ ، والشوكانى ١ : ١٣ أيضاً للحاكم « وصححه » ، ولغيره .

صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا • وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [سورة النساء : ٦٦ - ٦٩] .

قال أبو جعفر : فالذى أمر محمدٌ صلى الله عليه وسلم وأمتُه أن يسألوا ربَّهم من الهداية للطريق المستقيم ، هى الهداية للطريق الذى وَصف الله جلّ ثناؤه صفتَه . وذلك الطريق ، هو طريق الذين وَصفهم الله بما وصفهم به فى تنزيله ، ووعد من سَلكه فاستقام فيه طائعاً لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يُورده مواردهم ، والله لا يخلف الميعاد .

وبنحو ما قلنا فى ذلك رُوِى الخبر عن ابن عباس وغيره : —

١٨٨— حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمَارة ، قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « صراطَ الذين أنعمت عليهم » يقول : طَريقَ من أنعمتَ عليهم بطاعتك وعبادتك من الملائكة والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين أطاعوك وعبَدُوك[1] .

١/٥٩

١٨٩— حدثنى أحمد بن حازم الغفارى ، قال : أخبرنا عبيد الله بن موسى ، عن أبى جعفر ، عن ربيع : « صراط الذين أنعمتَ عليهم » ، قال : النبيّون[2] .

١٩٠— حدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : « أنعمت عليهم » قال : المؤمنين[3] .

١٩١— حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : قال وكيع : « أنعمت عليهم » ، المسلمين[4] .

---

(١) الخبر ١٨٨ — ضعف هذا الإسناد مفصل فى : ١٣٧ . وهذا الخبر نقله ابن كثير ١ : ٥٢ . وانظر أيضاً : ١٧٩ .

(٢) الأثر ١٨٩ — ربيع : هو ابن أنس البكرى . وسبق شرح هذا الإسناد إليه : ١٦٤ . والأثر نقله ابن كثير ١ : ٥٣ ، والسيوطى ١ : ١٦ .

(٣) الخبر ١٩٠ — هذا كالخبر ١٨٣ منقطع بين ابن جريج وابن عباس . وقد نقله ابن كثير ١ : ٥٢ ، والسيوطى ١ : ١٦ ، ولكن وقع فيه « ابن حميد » بدل « ابن جرير » .

(٤) الأثر ١٩١ — وهذا نقله ابن كثير أيضاً ١ : ٥٣ .

١٩٢ـ حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد في قول الله « صراط الذين أنعمت عليهم » ، قال : النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن معه[1] .

قال أبو جعفر : وفي هذه الآية دليلٌ واضح على أنّ طاعةَ الله جلّ ثناؤه ، لا ينالها المُطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم ، وتوفيقه إياهم لها . أوَ لا يسمعونه يقول : « صراط الذين أنعمت عليهم » ، فأضاف كلّ ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعام منه عليهم ؟

فإن قال قائل : وأين تمام هذا الخبر ؟ وقد علمتَ أنّ قول القائل لآخر : « أنعمت عليك » مقتضٍ الخبرَ عمّا أنعمَ به عليه ، فأين ذلك الخبرُ في قوله « صراط الذين أنعمت عليهم » ؟ وما تلك النعمة التي أنعمها عليهم ؟

قيل له : قد قدّمنا البيان ــ فيما مضى من كتابنا هذا ــ عن اجتزاء العرب في منطقها ببعضٍ من بعض ، إذا كان البعضُ الظاهر دالاً على البعض الباطن وكافياً منه . فقوله « صراط الذين أنعمتَ عليهم » من ذلك . لأن أمرَ الله جل ثناؤه عبادَه بمسألته المعونةَ ، وطلبهم منه الهدايةَ للصراط المستقيم ، لمّا كان متقدّماً قولَه « صراطَ الذين أنعمت عليهم » ، الذي هو إبانةٌ عن الصراط المستقيم وإبدالٌ منه ــ كان معلوماً أن النعمة التي أنعم الله بها على من أمَرنا بمسألته الهدايةَ لطريقهم ، هو المنهاجُ القويمُ والصراطُ المستقيم ، الذي قد قدّمنا البيان عن تأويله آنفاً . فكان ظاهرُ ما ظهر من ذلك ــ مع قرب تجاور الكلمتين ــ مغنياً عن تكراره .

كما قال نابغة بني ذبيان :

كَأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْشٍ ... يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنِّ[2]

---

(١) الأثر ١٩٢ ــ مضى هذا الإسناد : ١٨٥ . وأما نص الأثر ، فهو عند ابن كثير ١ : ٥٣ . وقال بعد هذه الروايات : « والتفسير المتقدم عن ابن عباس أعم وأشمل » . يعني الخبر ١٨٨ .

(٢) ديوانه : ٥٨ ، سيبويه ١ : ٣٧٥ ، مجاز القرآن : ١٠١ الخزانة ٢ : ٣١٤ ، وهذا الشعر يقوله النابغة لعيينة بن حصن الفزاري . بنو أقيش : هم بنو أقيش بن منقر بن عبيد . وقيل :

يريد : كأنك من جمال أقيش ، جملٌ يُقعقع خلف رجليه بشنّ ، فاكتفى بما ظهر من ذكر « الجمال » الدال على المحذوف ، من إظهار ما حذف .

وكما قال الفرزدق بن غالب :

تَرَى أَرْبَاقَهُمْ مُتَقَلِّدِيهَا إِذَا صَدِئَ الحَدِيدُ عَلَى الكُمَاةِ[١]

يريد : متقلديها هم ، فحذف « هم » ، إذ كان الظاهرُ من قوله أرباقَهم ، دالاًّ عليها . والشواهد على ذلك من شعر العرب وكلامها أكثر من أن تحصى . فكذلك ذلك في قوله « صراط الذين أنعمت عليهم » .

• • •

القول في تأويل قوله : ﴿ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ .

قال أبو جعفر : والقَرَأَةُ مجمعةٌ على قراءة « غير » بجر الراء منها[٢] . والخفضُ يأتيها من وجهين :

أحدهما : أن يكون « غير » صفة لـ« الذين » ونعتاً لهم فتخفضها . إذ كان « الذين » خفضاً . وهي لهم نعتٌ وصفةٌ . وإنما جاز أن يكون « غير » نعتاً لـ« الذين » ، و « الذين » ، معرفة و « غير » نكرة ، لأن « الذين » بصلتها ليست بالمعرفة الموقتة كالأسماء

فخذ من أشجع . وقيل : حي من اليمن في إبلهم نفار شديد . وقيل : هم حي من الجن يزعمون . وقعقع : حرك شيئاً يابساً فتسمع له صوت . والشن : القربة البالية . يصف عيينة بالجبن والخور وشدة الفزع ، كأنه جمل شديد النفار ، إذا سمع صوت شن يقعقع به .

(١) ديوانه : ١٣١ والنقائض : ٧٧٣ ، ويأتي في تفسير آيه سورة الشعراء : ٤ (١٩ : ٣٨ بولاق) ، وهو هناك « على الكتاب » ، وهو خطأ . يهجو جريراً وقومه بني كليب بن يربوع . الأرباق : جمع ربق ، والربق جمع ربقة : وهو الحبل تشد به الغنم الصغار لئلا ترضع . وتقلد السيف : وضع نجاده على منكبه . والكماة ، جمع كمي : وهو البطل الشديد البأس . يصف بني كليب بأنهم رعاء أخساء بخلاء ، لا هم لهم إلا رعية الغنم ، والأبطال في الحرب يصلون حرها الأيام الطوال حتى يصدأ حديد الدروع على أبدانهم من العرق .

(٢) في المطبوعة « والقراء مجمعة » ، والقرأة : جمع قارئ . انظر ما مضى : ٥١ في التعليق ، و ٦٤ تعليق : ٤ و : ١٠٩ تعليق : ١ .

التي هي أماراتٌ بين الناس، مثل زيد وعمرو وما أشبه ذلك[١]، وإنما هي كالنكرات المجهولات، مثل الرجل والبعير وما أشبه ذلك. فلما كان «الذين» كذلك صفتُها، وكانت «غير» مضافةً إلى مجهول من الأسماء، نظيرَ «الذين»، في أنه معرفة غير موقتة، كما «الذين» معرفة غير موقتة — جاز من أجل ذلك أن يكون «غير المغضوب عليهم» نعتاً لِـ«الذين أنعمت عليهم» كما يقال: «لا أجلس إلا إلى العالم غير الجاهل»، يراد: لا أجلس إلا إلى مَن يعلم، لا إلى مَن يجهل.

ولو كان «الذين أنعمت عليهم» مَعرفة موقتة، كان غير جائز أن يكون «غير المغضوب عليهم» لها نعتاً. وذلك أنه خطأ في كلام العرب — إذا وصفت معرفة موقّتة بنكرة — أن تُلْزِم نَعتَها النكرةَ إعرابَ المعرفة المنعوت بها، إلا على نية تكرير ما أعربَ المنعوتَ بها. خطأ في كلامهم أن يقال: «مررت بعبد الله غيرِ العالم»، فتخفض «غير»، إلا على نية تكرير الباء التي أعربَتْ عبد الله. فكان معنى ذلك لو قيل كذلك: مَرَرتُ بعبد الله، مررت بغيرِ العالم. فهذا أحد وجهي الخفض في «غير المغضوب عليهم». ١/٦٠

والوجهُ الآخر من وجهي الخفض فيها: أن يكون «الذين» بمعنى المعرفة الموقتة. وإذا وُجِّه إلى ذلك، كانت «غير» مخفوضةً بنية تكرير «الصراط» الذي خُفِض «الذين» عليها، فكأنك قلت: صراطَ الذين أنعمت عليهم، صراطَ غير المغضوب عليهم.

وهذان التأويلان في «غير المغضوب عليهم»، وإن اختلفا في اختلاف مُعرِبَيْهما، فإنهما يتقارب معناهما. من أجل أنّ من أنعم الله عليه فهداه لدينه الحق، فقد سلم من غض[illegible]به، ونجا من الضلال في دينه.

فسواءٌ — إذْ كان سَ[illegible]له «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت

---

(١) يعني بقوله «المعرفة الموقتة» المعرفة المحددة، وهو العلم الشخصي الذي يعين مسماه تعيينا مطلقاً غير مقيد. فقولك «زيد» يعين م[illegible] تعييناً مطلقاً أو محدداً. والمعرف بالألف واللام إنما يعين مسماه ما دامت فيه «أل»، فإذا فارقته فار[illegible] التعيين. وانظر معاني الفراء ١ : ٧.

عليهم » غيرَ جائزٍ أن يرتاب ، مع سماعه ذلك من تاليه ، فى أن الذين أنْعم الله عليهم بالهداية للصِّراط غيرُ غاضب ربُّهم عليهم ، مع النعمة التى قد عظمت مِنَّته بها عليهم فى دينهم ؛ ولا أن يكونوا ضُلاَّلاً وقد هداهم الحقَّ ربُّهم. إذْ كان مستحيلا فى فِطَرِهم اجتماعُ الرضَى من الله جلّ ثناؤه عن شخص والغضب عليه فى حال واحدة ، واجتماعُ الهدى والضلال له فى وقت واحد — أوُصِف[1] القوم ؛ معَ وَصْف الله إياهم بما وصفهم به من توفيقه إياهم وهدايته لهم ، وإنعامه عليهم بما أنعم الله به عليهم فى دينهم ، بأنهم غيرُ مغضوب عليهم ولا هم ضَالُّون ؛ أم لم يوصفوا بذلك . لأن الصِّفة الظاهرة التى وُصفوا بها ، قد أنبأت عنهم أنهم كذلك ، وإن لم يصرِّح وصفَهُم به .

هذا ، إذا وجَّهنا « غير » إلى أنها مخفوضة على نية تكرير « الصراطِ » الخافضِ « الذين » ، ولم نجعل « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » من صفة « الذين أنعمت عليهم » ، بل إذا جعلناهم غيرَهم . وإن كان الفريقان لا شك مُنْعَماً عليهما فى أدْيانهما .

فأمّا إذا وجهنا « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » إلى أنها من نَعت « الذين أنعمت عليهم » ، فلا حاجة بسامعه إلى الاستدلال ، إذْ كان الصريحُ من معناه قد أغنى عن الدليل .

وقد يجوز نصب « غير » فى « غير المغضوب عليهم » ، وإن كنتُ للقراءة بها كارهاً لشذوذها عن قراءة القُرّاء . وإنّ ما شذ من القراآت عما جاءت به الأمة نقلا ظاهراً مستفيضاً ، فرأىٌ للحق مخالف . وعن سبيل الله وسبيل رسوله صلى الله عليه وسلم وسبيل المسلمين مُتجانفٌ . وإن كان له — لو كان جائزاً القراءةُ به[2] — فى الصواب مخرجٌ .

---

(١) سياق العبارة : « سواء . . . أوصف القوم ... أم لم يوصفوا » ، وما بين هذين فصل طويل كدأب أبى جعفر فى بيانه .

(٢) فى المطبوعة : « لو كانت القراءة جائزة به » ، بدلوه ليوافق عبارتهم ، دون عبارة الطبرى .

وتأويل وجه صوابه إذا نصبتَ: أن يوجَّه إلى أن يكون صفةً للهاء والميم اللتين في «عليهم»، العائدة على «الذين». لأنها وإن كانت مخفوضة بِـ«على» فهي في محل نصب بقوله «أنعمت». فكان تأويل الكلام - إذا نصبت «غير» التي مع «المغضوب عليهم» -: صراطَ الذين هدَيتهم إنعاماً منك عليهم، غيرَ مَغضوبِ عليهم، أي لا مغضوباً عليهم ولاضالين. فيكون النصب في ذلك حينئذ، كالنصب في «غير» في قولك: مررت بعبد الله غيرَ الكريم ولا الرشيدِ، فتقطع «غيرَ الكريم» من «عبد الله»، إذْ كان «عبدُ الله» معرفة موقتة، و«غير الكريم» نكرة مجهولة.

وقد كان بعضُ نحويِّي البصريين يزعم أنّ قراءة مَنْ نصب «غير» في «غير المغضوب عليهم»، على وَجه استثناءٍ «غير المغضوب عليهم» من معاني صفة «الذين أنعمت عليهم»، كأنه كان يرى أنّ معنى الذين قرأوا ذلك نصباً: اهدنا الصراط المستقيم، صراطَ الذين أنعمتَ عليهم، إلا المغضوبَ عليهم - الذين لم تُنعم عليهم في أديانهم ولم تَهْدهم للحق - فلا تجعلنا منهم. وكما قال نابغة بني ذبيان:

وَقَفْتُ فِيهَا أُصَيْلَالاً أُسَائِلُهَا عَيَّتْ جَوَاباً، ومَا بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ[1] ٦١/١

إلاَّ أَوَارِيَّ لَأْياً مَا أُبَيِّنُهَا والنُّؤْيُ كَالحَوْضِ بالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ[2]

---

(١) ديوانه: ٢٣، ويأتي في تفسير آية البقرة: ٣٥ (١: ١٨٦ بولاق)، وآية النساء: ١١٤ (٥: ١٧٨)، وآية يونس: ٩٨ (١١: ١١٧) وآية سورة الليل: ٢٠ (٣٠: ١٤٦).
يقال: لقيته أصيلالا وأصيلاناً، إذا لقيته بالعشي. وذلك أن الأصيل هو العشي، وجمعه أصل (بضمتين) وأصلان (بضم فسكون)، ثم صغروا الجمع فقالوا: أصيلان، ثم أبدلوا من النون لاماً. فعلوا ذلك اقتداراً على عربيتهم، ولكثرة استعمالهم له حتى قل من يجهل أصله ومعناه. وعي في منطقه: عجز عن الكلام.

(٢) أواري جمع آرى (مشدد الياء): وهو محبس الدابة ومأواها ومربطها، من قولهم: تأرى بالمكان أقام وتحبس. ولأيا: بعد جهد ومشقة وإبطاء. والنؤى: حفرة حول الخباء تعلى جوانبها بالتراب، فتحجز الماء لا يدخل الخباء، والمظلومة: يعني أرضاً مروا بها في برية فتحوضوا حوضاً سقوا فيه إبلهم، وليس بموضع تحويض لبعدها عن مواطىء السابلة. فلذلك سماها مظلومة، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه. والجلد: الأرض الصلبة، يعني أنها لا تنبت شيئاً فلا يرعاها أحد.

والأواريُّ معلومٌ أنها ليست من عِداد « أحد » فى شىء . فكذلك عنده ، استثنى « غير المغضوب عليهم » من « الذين أنعمت عليهم » ، وإن لم يكونوا من معانيهم فى الدين فى شىء .

وأما نحويُّو الكوفيين ، فأنكروا هذا التأويل واستخفُّوه[1] . وزعموا أن ذلك لو كان كما قاله الزاعم من أهل البصرة ، لكان خطأ أن يقال « ولا الضالين » ، لأن « لا » نفى وجحد ، ولا يعطف بجحد إلا على جحد . وقالوا : لم نجد فى شىء من كلام العرب استثناءً يُعطف عليه بجحد ، وإنما وجدناهم يعطفون على الاستثناء بالاستثناء وبالجحد على الجحد ، فيقولون فى الاستثناء : قام القومُ إلا أخاك وإلا أباك . وفى الجحد : ما قام أخوك ولا أبوك . وأما : قام القومُ إلا أباك ولا أخاك . فلم نجده فى كلام العرب . قالوا : فلما كان ذلك معدوماً من كلام العرب ، وكان القرآن بأفصح لسان العرب نزولُه ، علمنا — إذ كان قولُه « ولا الضالين » معطوفاً على قوله « غير المغضوب عليهم » — أن « غير » بمعنى الجحد لا بمعنى الاستثناء ، وأن تأويل من وجَّهها إلى الاستثناء خطأ .

فهذه أوجه تأويل « غير المغضوب عليهم » ، باختلاف أوجه إعراب ذلك .

وإنما اعترضْنا بما اعترضنا فى ذلك من بَيان وُجوه إعرابه — وإن كان قصدُنا فى هذا الكتاب الكشفَ عن تأويل آى القرآن — لما فى اختلاف وجوه إعراب ذلك من اختلاف وجوه تأويله . فاضطرّتنا الحاجة إلى كشف وجوه إعرابه ، لتنكشف لطالب تأويله وُجوه تأويله ، على قدر اختلاف المختلفة فى تأويله وقراءته .

والصَّوابُ من القول فى تأويله وقراءته عندنا ، القول الأول ، وهو قراءةُ ﴿ غيرِ المغضوب عليهم ﴾ بخفض الراء من « غير » ، بتأويل أنها صفة لِـ « الذين أنعمت عليهم » ونعتٌ لهم — لما قد قدمنا من البيان — إن شئتَ ، وإن شئت فبتأويلِ تكرير « صراط » . كلٌّ ذلك صوابٌ حَسنٌ .

---

(١) فى المطبوعة : « واستخطئوه » ، واستخفوه : رأوه خفيفاً لا وزن له .

فإن قال لنا قائل : فمَنْ هؤلاء المغضوبُ عليهم ، الذين أمرنا الله جل ثناؤه بمسألته أن لا يجعلنا منهم ؟

قيل : هم الذين وصفهم الله جلّ ثناؤه فى تنزيله فقال : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ ، مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٠] . فأعلمنا جلّ ذكره ثَمَّة[١] ، ما أحلّ بهم من عقوبته بمعصيتهم إياه . ثم علمنا ، منّةً منه علينا ، وجه السبيل إلى النجاة من أن يَحِلّ بنا مثل الذى حلّ بهم من المَثُلات ، ورأفة منه بنا[٢] .

فإن قال : وما الدليلُ على أنهم أولاء الذين وصفَهم الله وذكر نبأهم فى تنزيله ، على ما وصفت ؟

قيل :

١٩٣ــ حدثنى أحمد بن الوليد الرملى ، قال : حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن الشعبى ، عن عدىّ ابن حاتم ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : المغضوبُ عليهم ، اليهود[٣] .

١٩٤ــ حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب ، قال : سمعت عبّاد بن حُبيش يحدث ، عن عدى ابن حاتم ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ المغضوبَ عليهم اليهود[٤] .

---

(١) بدلوها فى المطبوعة إلى « بمنه » ؛ وثَمّ وثَمّة (بفتح الثاء) : إشارة للبعيد بمنزلة « هنا » للقريب

(٢) المثلات جمع مثلة (بفتح فضم ففتح) : وهى العقوبة والتنكيل .

(٣) الحديث ١٩٣ – هذا إسناد صحيح ، وسيأتى بعض هذا الحديث أيضاً بهذا الإسناد ٢٠٧ . وتخريجه سيأتى فى ١٩٥ .

(٤) الحديث ١٩٤ – وهذا إسناد صحيح أيضاً . عباد بن حبيش ، بضم الحاء المهملة وفتح الباء الموحدة وآخره شين معجمة ، الكوفى ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وابن أبى حاتم ٧٨/١/٣ . وبعض الحديث سيأتى أيضاً ٢٠٨ بهذا الإسناد .

١٩٥– حدثني علي بن الحسن، قال: حدثنا مسلم بن عبد الرحمن، قال: حدثنا محمد بن مصعب، عن حماد بن سلمة، عن سماك بن حرب، عن مُرِّيّ ابن قَطَرِيّ، عن عدي بن حاتم، قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله جلّ وعزّ «غير المغضوب عليهم» قال: هم اليهود[1].

١٩٦– حدثنا حُميد بن مَسْعَدَة السَّامي، قال: حدثنا بشر بن المفضَّل، قال: حدثنا الجُرَيْري، عن عبد الله بن شَقِيق: أنّ رُجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصرٌ واديَ القُرَى، فقال: مَنْ هؤلاء الذين تحاصرُ يا رسول الله؟ قال: هؤلاء المغضوب عليهم، اليهود[2].

١/٦٢

(١) الحديث ١٩٥ – وهذا إسناد صحيح أيضاً. مري بن قطري الكوفي: ذكره ابن حبان في الثقات، وترجمه البخاري في الكبير ٥٧/٢/٤، وقال: «سمع عدي بن حاتم، روى عنه سماك بن حرب، يعد في الكوفيين». و «مري»: بضم الميم وتشديد الراء المكسورة مع تشديد الياء. و «قطري»: بفتح القاف والطاء وبعد الراء ياء مشددة. وبعضه سيأتي أيضاً بالإسناد نفسه ٢٠٩.

وهذا الحديث عن عدي بن حاتم: أصله قصة مطولة في إسلامه. فرواه – بطوله – أحمد في المسند ٤: ٣٧٨ – ٣٧٩ عن محمد بن جعفر عن شعبة، بالإسناد السابق ١٩٤.. ورواه الترمذي ٤: ٦٧ من طريق عمرو بن أبي قيس عن سماك عن عباد بن حبيش عن عدي. وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب. وروى شعبة عن سماك بن حرب عن عباد بن حبيش عن عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم – الحديث بطوله». وروى بعضه الطيالسي في مسنده: ١٠٤٠ عن عمرو بن ثابت «عمن سمع عدي بن حاتم». وقد تبين لنا من روايات الطبري هنا أن سماك بن حرب سمعه من عباد بن حبيش ومن مري بن قطري، كلاهما عن عدي، وأن سماك بن حرب لم ينفرد بروايته أيضاً، إذ رواه إسمعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن عدي. وأن لم يعرفه الترمذي إلا من حديث سماك – لا ينفي أن يعرفه غيره من وجه آخر. وذكره ابن كثير ١: ٥٤ من رواية أحمد في المسند، وأشار إلى رواية الترمذي، وإلى روايات الطبري هنا، ثم قال: «وقد روى حديث عدي هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها». وذكره الحافظ في الإصابة، في ترجمة عدي ٢: ٢٢٩ من رواية أحمد والترمذي. وذكر السيوطي منه ١: ١٦ تفسير الحرفين، ونسبه أيضاً لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه. وكذلك صنع الشوكاني ١: ١٥.

(٢) الحديث ١٩٦ – حميد بن مسعدة السامي، شيخ الطبري: هو «السامي» بالسين المهملة، نص على ذلك الحافظ ابن حجر في التقريب. وهو نسبة إلى «سامة بن لؤي بن غالب». ووقع في نسخ الطبري – هنا وفيما يأتي ٢١٠ – «الشامي» بالمعجمة، وهو تصحيف. و «الجريري»، بضم الجيم: هو سعيد بن إياس البصري. و «عبد الله بن شقيق العقيلي»، بضم العين وفتح القاف: تابعي كبير ثقة. وهذا الإسناد مرسل، لقول عبد الله بن شقيق: «أن رجلا». وسيأتي مرسلا أيضاً ١٩٧، ١٩٩. ولكنه سيأتي موصولا ١٩٨

١٩٧– حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال : حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن سعيد الجُرَيْرى ، عن عروة ، عن عبد الله بن شَقيق : أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه .

١٩٨– حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزّاق، قال : أخبرنا معمر ، عن بُدَيْل العقيلي ، قال: أخبرني عبد الله بن شَقيق: أنه أخبره من سمع النبي صلى الله عليه وسلم – وهو بوادى القُرَى ، وهو عَلى فَرسه ، وسأله رجل من بنى القَين فقال : يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ – قال : المغضوبُ عليهم . وأشار إلى اليهود[1] .

١٩٩– حدثنا القاسم بن الحسن، قال : حدثنا الحسين ، قال حدثنا خالد الواسطى ، عن خالد الحَذّاء ، عن عبد الله بن شقيق : أنّ رجلاسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه .

٢٠٠– حدثنا أبو كريب ،قال حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر ابن عُمارة ، قال : حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك ، عن ابن عباس: «غير المغضوب عليهم » ، يعنى اليهودَ الذين َغضب الله عليهم[2] .

---

(١) الحديث ١٩٨ – بديل ، بضم الباء الموحدة وفتح الدال المهملة : هو ابن ميسرة العقيلي ، وهو تابعى ثقة . وهذه الرواية متصلة بإسناد صحيح . لأن عبد الله بن شقيق صرح فيها بأنه أخبره « من سمع النبي صلى الله عليه وسلم » ، وجهالة الصحابي لا تضر ، كما هو معروف . والوصل بذكر الصحابي المبهم – زيادة من الثقة ، فهى مقبولة .

وقد ذكر ابن كثير ١ : ٥٤ – ٥٥ هذه الرواية الموصولة ، ثم أشار إلى الروايات الثلاث المرسلة ، ثم قال : « ووقع فى رواية عروة تسمية : عبد الله بن عمرو ، فالله أعلم » . ولكنه لم يذكر من خرج رواية عروة التى يشير إليها . ثم قال ابن كثير : « وقد روى ابن مردويه من حديث إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم ، قال : اليهود ، قلت : الضالين ؟ قال : النصارى » . وأشار الحافظ فى الفتح ٨ : ١٢٢ إلى رواية ابن مردويه هذه عن أبي ذر « بإسناد حسن» . وذكر أيضاً أن رواية عبد الله بن شقيق الموصولة « أنه أخبره من سمع النبي صلى الله عليه وسلم » – رواها أحمد . وهذه الروايات أيضاً عند السيوطى ١ : ١٦ ، والشوكانى ١ : ١٤ – ١٥ . وسيأتى تفسير (الضالين) بهذه الأسانيد ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ . وسيأتى فى ٢١١ بيان من عروة الذى فى الإسناد ١٩٧ .

(٢) الأثر ٢٠٠ – أثر الضحاك عن ابن عباس لم يخرجوه . وسيأتى باقيه ٢١٥ .

٢٠١ــ حدثني موسى بن هرون الهمداني، قال : حدثنا عمرو بن طلحة، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدّيّ في خبر ذكره ، عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ــ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ــ وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : «غير المغضوب عليهم» ، هم اليهود[1] .

٢٠٢ــ حدثنا ابن حميد الرازي ، قال: حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن مجاهد ، قال : «غير المغضوب عليهم» قال : هم اليهود .

٢٠٣ــ حدثنا أحمد بن حازم الغفاري، قال : حدثنا عبد الله، عن أبي جعفر ، عن ربيع : «غير المغضوب عليهم» ، قال : اليهود .

٢٠٤ــ حدثنا القاسم ، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : «غير المغضوب عليهم» قال : اليهود .

٢٠٥ــ حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد : «غير المغضوب عليهم» ، اليهود .

٢٠٦ــ حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثني ابن زيد ، عن أبيه ، قال : المغضوب عليهم ، اليهود[2] .

قال أبو جعفر : واختُلِف في صفة الغضب من الله جلّ ذكره :

فقال بعضهم : غضبُ الله على من غضب عليه من خلقه ، إحلالُ عقوبته بمن غَضبَ عليه، إمّا في دنياه وإمّا في آخرته، كما وصف به نفسه جلّ ذكره في كتابه فقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الزخرف : ٥٥] . وكما قال : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ

---

(١) الخبر ٢٠١ – ابن كثير ١ : ٥٥ ، والدر المنثور ١ : ١٦ ، والشوكاني ١ : ١٥ . وسيأتي باقيه : ٢١٧ .

(٢) الآثار ٢٠٢ – ٢٠٦ : في ابن كثير ، والدر المنثور ، الشوكاني كالذي مضى . وسيأتي باقيها : ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ .

وَغَضِبَ عَلَيْهِ وجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِير ﴾ [سورة المائدة : ٦٠] .

وقال بعضهم : غضبُ الله على من غَضب عليه من عباده ، ذمٌّ منه لهم ولأفعالهم ، وشَتْم لهم منهُ بالقول .

وقال بعضهم : الغضَبُ منه معنى مفهومٌ كالذى يُعرف من معانى الغضب ، غيرَ أنه — وإن كان كذلك من جهة الإثبات[1] — فمخالفٌ معناه منه مَعنى ما يكون من غَضب الآدميين الذين يُزعجهم ويحركهم ويَشُقّ عليهم ويؤذيهم . لأن الله جل ثناؤه لا تحلّ ذاتَه الآفاتُ ، ولكنه له صفةٌ ، كما العلم له صفةٌ ، والقدرة له صفة ، على ما يُعْقَل من جهة الإثبات ، وإن خالفت مَعانى ذلك مَعانىَ عُلوم العباد ، التى هى معارف القلوب ، وقواهم التى توجد مع وجود الأفعال وتُعْدَم مع عَدَمها[2] .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

قال أبو جعفر : كان بعضُ أهل البصرة يزعم أن : « لا » مع « الضالين » أدخلت تتميما للكلام ، والمعنى إلغاؤها ، ويستشهد على قِيله ذلك ببيت العجاج :

---

(١) الإثبات : مذهب أهل السنة فى إثبات الصفات لله تعالى كما وصف نفسه ، وإثبات القدر بلا تأويل ، خلافاً لأهل القدر ، وهم نفاته ، والجهمية والمعطلة للصفات .

(٢) بعد هذا الموضع من نسخة دار الكتب المصرية رقم : ١٠٠ تفسير ، ما نصه :

« وصلى الله على محمد النبي الأمى وعلى آله وسلم تسليما كثيراً .

— على الأصل المنقول منه —

سمعت وأحمد ومحمد والحسن بنى عبد الله بن أحمد الفرغانى فى يوم الخميس لسبع بقين من شهر رمضان سنة ست وأربعين وثلثمئة . ومحمد بن محمد الطوسى » .

في بِئْرِ لاَ حُورٍ سَرَى وَمَا شَعَرْ[١]

ويتأوله بمعنى : فى بئرِ حُورٍ سَرى ، أى فى بئر هلكة ، وأنّ « لا » بمعنى الإلغاء والصلة . ويعتلُّ أيضاً لذلك بقول أبي النجم :

فَمَا أَلومُ البِيضَ أَنْ لاَ تَسْخَرَا لَمَّا رَأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا[٢]

١/٦٣ وهو يريد : فما ألوم البيض أن تسخر . وبقول الأحوص :

وَيَلْحَيْنَنِي فِي اللَّهْوِ أَنْ لاَ أُحِبَّهُ وَلِلَّهْوِ دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلِ[٣]

يريد: وَيلحينني فى اللهو أن أحبه ، وبقوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ لاَ تَسْجُدَ﴾ [سورة الأعراف : ١٢] ، يريد أن تسجد . وحُكى عن قائل هذه المقالة أنه كان يتأول « غير » ، التى مع « المغضوب عليهم » ، أنها بمعنى سوى[٤] . فكأنّ معنى الكلام كانَ عنده : اهدنا الصراط المستقيمَ ، صراط الذين أنعمتَ عليهم ، الذين همُ سوى المغضوب عليهم والضالين .

وكان بعضُ نحويِي الكوفيين يستنكر ذلك من قوله[٥] ، ويزعمُ أن « غير »

---

(١) ديوانه : ١٦ ، ومعانى القرآن للفراء ١ : ٨ ، ومجاز القرآن لأبى عبيدة : ٢٥ والخزانة ٢ : ٩٥ ، وأمالى الشجرى ٢ : ٢٣١ ، والأضداد لابن الأنبارى : ١٨٦ . والقائل بأنها زائدة من البصريين هو أبو عبيدة .

(٢) نسبه شارح القاموس عن الصاغانى لأبى النجم وقال : روايته :

« إذا رأت ذا الشيبة القفندرا »

وضبطوا « الشمط » بفتح الميم ، أى الشيب ، وجائز أن يكون أبو النجم قاله « الشمط » بكسر الميم على أنه فرح ، طرح ألف « أشمط » ، كما فعلوا فى أشعث وشعث . وأحدب وحدب ، وأتعس وتعس ، وأحول وحول ، فى الصفات المشبهة من العيوب الظاهرة والحلى. وانظر الفائق للزمخشرى ٢ : ٣٢٦ فقد عدد ألفاظاً غيرها . وكأن الصاغانى أبى من رواية « الشمط » بفتحتين ، لأن القفندر : هو الصغير الرأس القبيح المنظر .

والبيت برواية الطبرى فى مجاز القرآن لأبى عبيدة : ٢٦ ، والأضداد لابن الأنبارى: ١٨٥ ، واللسان (قفندر) ، ثم انظر أمالى الشجرى ٢ : ٢٣١ ، وغيرها .

(٣) الكامل ١ : ٤٩ ، والأضداد لابن الأنبارى : ١٨٦ ، ولحاه يلحاه لحياً : عذله ولامه .

(٤) هو أبو عبيدة كما أسلفنا فى أول هذه الفقرة . وأشار إليه الفراء فى معانى القرآن : ٨ بقوله : « وقد قال بعض من لا يعرف العربية ... » ، وكذلك فعل الطبرى من قبل فى مواضع. وانظر اللسان (غير) .

(٥) يعنى الفراء الكوفى فى كتابه معانى القرآن : ٨ ، أو غيره من كتبه .

التى مع « المغضوب عليهم » ، لو كانت بمعنى سوى ، لكان خطأ أن يعطف عليها بـ « لا » ، إذْ كانت « لا » لا يعطف بها إلا على جحد قد تقدمها . كما كان خطأ قول القائل: «عندى سِوَى أخيك ولا أبيك » ، لأن سِوَى ليست من حروف النفى والجحود . ويقول : لما كان ذلك خطأ فى كلام العرب ، وكان القرآن بأفصح اللغات من لغات العرب ، كان معلوماً أن الذى زعَمه القائل : أن « غير » مع « المغضوب عليهم » بمعنى سوى المغضوب عليهم ، خطأ . إذ كان قد كرّ عليه الكلامَ بـ « لا » . وكان يزعم أن « غير » هنالك ، إنما هى بمعنى الجحد . إذْ كان صحيحاً فى كلام العرب ، وفاشياً ظاهراً فى منطقها ، توجيه « غير » إلى معنى النفى ، ومستعملا فيهم : « أخوك غير مُحسِن ولا مُجْمِل » يراد بذلك: أخوك لا محسن ولا مجمل . ويَستنكرُ أن تأتى « لا » بمعنى الحذف فى الكلام مُبتدأً ، ولمّا يتقدمها جحد . ويقول : لو جاز مجيئها بمعنى الحذف مُبتدأ ، قبل دلالة تدلّ على ذلك من جحد سابق ، لصحّ قول قائل قال : « أردْتُ أن لا أكرم أخاك » ، بمعنى : أردت أن أكرم أخاك . وكان يقول : ففى شهادة أهل المعرفة بلسان العرب على تخطئة قائل ذلك ، دلالةٌ واضحة على أنّ « لا » لا تأتى مبتدأة بمعنى الحذف ، ولمّا يتقدّمها جحد . وكان يتأوّل فى « لا » التى فى بيت العجاج ، الذى ذكرنا أن البصْرىّ استشهد به ، بقوله: إنها جحدٌ صحيح ، وأنّ معنى البيت : سَرَى فى بئر لا تُحيرُ عليه خيراً ، ولا يتبيَّن له فيها أثرُ عملٍ ، وهو لا يشعُر بذلك ولا يدرى به[1] . من قولهم : « طحنت الطّاحنة فما أحارت شيئاً » ، أى لم يتبيَّن لها أثرُ عملٍ . ويقول فى سائر الأبيات الأخر ، أعنى مثل بَيت أبى النجم :

فما أَلُوم البيضَ أن لا تسخَرَا

إنما جازَ أن تكون « لا » بمعنى الحذف ، لأن الجحد قد تقدمها فى أول الكلام ، فكان الكلام الآخر مُواصِلاً للأول ، كما قال الشاعر :

---

(١) عبارة الفراء فى معانى القرآن : « كأنك قلت : إلى غير رشد توجه وما درى » .

مَا كانَ يَرْضَى رَسُولُ اللهِ فعلَهُمُ والطَّيِّبان أبو بَكْرٍ ولا عُمَرُ[١]

فجازَ ذلك ، إذْ كان قد تقدَّم الجحدُ فى أوّل الكلام .

قال أبو جعفر : وهذا القولُ الآخر أولى بالصواب من الأول ، إذ كان غيرَ موجودٍ فى كلام العرب ابتداءُ الكلام من غير جحد تقدَّمه بـ « لا » التى معناها الحذف ، ولا جائزٍ العطفُ بها على «سوى» ، ولا على حرف الاستثناء . وإنما لـ«غير» فى كلام العرب معان ثلاثة ، أحدها : الاستثناء ، والآخر : الجحد ، والثالث : سوى . فإذا ثبت خطأ أن تكون «لا» بمعنى الإلغاء مُبتدأ[٢] ، وفسدَ أن يكون عطفاً على « غير » التى مع « المغضوب عليهم » ، لو كانت بمعنى « إلا » التى هى استثناء ، ولم يَجز أيضاً أن يكون عطفاً عليها لو كانت بمعنى « سوى » ، وكانت « لا » موجودة عطفاً بالواو التى هى عاطفة لها على ما قَبلها — صحَّ[٣] وثبت أن لا وجهَ لـ « غير » ، التى مع « المغضوب عليهم » ، يجوز توجيهها إليه على صحّة ، إلا بمعنى الجحد والنفى ، وأن لا وَجه لقوله « ولا الضالين » إلا العطف على « غير المغضوب عليهم » .

فتأويلُ الكلام إذاً — إذْ كان صحيحاً ما قلنا بالذى عليه استشهدنا — اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، لا المغضوب عليهم ولا الضالين .

فإن قال لنا قائل : ومَن هؤلاء الضَّالُّون الذين أمرنا اللهُ بالاستعاذة بالله أن يَسلُكَ بنا سبيلهم ونَضِلَّ ضلالهم ؟

قيل : هم الذين وصَفهم الله فى تنزيله فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ١/٦٤

(١) الشعر لجرير يهجو الأخطل ، ديوانه : ٢٦٣ ، ونقائض جرير والأخطل : ١٧٤ ، وأضداد ابن الأنبارى : ١٨٦ ، ثم تفسير آية سورة البقرة : ١٥٨ .

(٢) فى المخطوطة : « فإذا ىب حط أن لا يكون بمعنى الإلغاء » غير منقوطة ، ولم يحسن طابعو المطبوعة قراءتها فجعلوها : « فإذا بطل حظ لا أن تكون بمعنى الإلغاء » . وقد صححنا ما فى المخطوطة من تقديم « لا » على « يكون » .

(٣) جواب قوله « فإذا ثبت خطأ . . . » .

وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

فإن قال : وما برهانك على أنهم أولاء ؟

قيل :

٢٠٧ـ حدثنا أحمد بن الوليد الرملى ، قال : حدثنا عبد الله بن جعفر ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن الشَّعبى ، عن عدى بن حاتم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولا الضالين » ، قال : النصارى[1] .

٢٠٨ـ حدثنا محمد بن المثنى ، أنبأنا محمد بن جعفر ، أنبأنا شعبة ، عن سِمَاك ، قال : سمعت عبّاد بن حُبيش يحدث ، عن عدى بن حاتم ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الضَّالين ، النَّصارى .

٢٠٩ـ حدثنى على بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم بن عبد الرحمن ، قال : حدثنا محمد بن مُصْعَب ، عن حماد بن سلمة ، عن سماك بن حرب ، عن مُرِّىّ ابن قَطَرِىّ ، عن عدى بن حاتم ، قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله : « ولا الضالين » ، قال : النصارى هم الضالون .

٢١٠ـ حدثنا حُميد بن مسعدة السَّامى ، قال : حدثنا بشر بن المفضَّل ، قال : حدثنا الجريرى ، عن عبد الله بن شقيق أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصرٌ وادىَ القُرَى ، قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الضَّالون ، النصارى .

٢١١ـ حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن عُليَّة ، عن سعيد الجُرَيرى ، عن عروة ـ يعنى ابن عبد الله بن قيس ـ ، عن عبد الله بن شقيق ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه[2] .

---

(١) هذه الأحاديث والأخبار والآثار ٢٠٧ ـ ٢٢٠ ، فى تفسير (الضالين) ، سبقت أوائلها فى تفسير (المغضوب عليهم) ، مع تخريجها ، فى الأرقام ١٩٣ ـ ٢٠٦ ، مع شىء من التقديم والتأخير .

(٢) الحديث ٢١١ ـ سبق هذا الإسناد ١٩٧ ولم ينسب فيه « عروة » هذا ، وفى التعليق على الحديث ١٩٨ إشارة ابن كثير إلى رواية « عروة » ، ولم يذكر نسبه أيضاً . وقد بين الطبرى هنا أنه

٢١٢ــ حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن بُدَيْل العُقَيلي ، قال : أخبرني عبد الله بن شقيق : أنه أخبره من سمع النبي صلى الله عليه وسلم ــ وهو بوادي القرى ، وهو على فرسه ، وسأله رجل من بني القَيْن ، فقال : يارسولَ الله ، من هؤلاء؟ ــ قال : هؤلاء الضَّالون ، يعني النصارى.

٢١٣ــ حدثنا القاسم ، قال حدثنا الحسين ، قال : حدثنا خالد الواسطي ، عن خالد الحذاء ، عن عبد الله بن شقيق : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم وهو محاصِرٌ وادي القُرى ، وهو على فرس : من هؤلاء ؟ قال : الضالّون . يعني النصارى .

٢١٤ــ حدثنا محمد بن حميد : قال : حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن مجاهد : « ولا الضالين » ، قال : النصارى .

٢١٥ــ حدثنا أبو كريب قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عُمارة قال : حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « ولا الضالين » قال : وَغير طريقِ النَّصارى الذين أضلَّهم الله بفِرْيَتهم عليه . قال : يقول : فألهِمنا دينك الحق ، وهو لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، حتى لا تغضَبَ علينا كما غضبتَ على اليهود ، ولا تضلَّنا كما أضللتَ النصارى ، فتعذّبنا بما تعذِّبهم به . يقول : امنعْنا من ذلك برفْقِك ورَحمتك وقدرتك .

٢١٦ــ حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : الضالين ، النصارى .

« عروة بن عبد الله بن قيس » . وأنا أرجح أن كلمة « قيس » محرفة من الناسخين عن كلمة « قشير » . فإني لم أجد في التراجم قط من يسمى « عروة بن عبد الله بن قيس » ، ويبعد جدا أن لا يذكروه ، وهو يروي عن رجل من كبار التابعين . والذي في هذه الطبقة ، هو « عروة بن عبد الله بن قشير أبو مهل الكوفي » ، مترجم في التهذيب ٧ : ١٨٦ ، والتاريخ الكبير للبخاري ٤/١/٣٤ ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/١/٣٩٧ ، والثقات لابن حبان : ٥٧٤ ، والكنى للدولابي ٢ : ١٣٥ . وذكر الأخيران قولا آخر في اسم جده ، أنه « بشير » . و « أبو مهل » : بفتح الميم والهاء ، كما ذكره الذهبي في المشتبه : ٥٠٨ .

٢١٧– حدثني موسى بن هرون الهمداني ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن إسمعيل السدّيّ في خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس – وعن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود – وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : «ولا الضالين» ، هم النصارى .

٢١٨– حدثني أحمد بن حازم الغِفاري ، قال : أخبرنا عُبيد الله بن موسى ، عن أبي جعفر ، عن ربيع : «ولا الضالين» ، النصارى .

٢١٩– حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد : «ولا الضالين» ، النصارى .

٢٢٠– حدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنا عبد الرحمن ابن زيد ، عن أبيه ، قال : الضالين ، النصارى .

* * *

قال أبو جعفر : فكلّ حائدٍ عن قَصْد السبيل ، وسالكٍ غيرَ المنهج القويم ، فضَال عند العرب ، لإضلاله وَجهَ الطريق . فلذلك سمى الله جل ذكره النصارَى ضُلاّلاً ، لخطئهم في الحقّ مَنهجَ السبيل ، وأخذهم من الدّين في غير الطريق المستقيم .

فإن قال قائل : أوَليس ذلك أيضاً من صفة اليهود ؟

قيل : بلى !

فإن قال : كيف خَصّ النصارَى بهذه الصفة ، وخَصّ اليهودَ بما وصفَهم به من أنهم مغضوب عليهم ؟ ١/٦٥

قيل : كلا الفريقين ضُلاَّل مغضوبٌ عليهم ، غيرَ أن الله جلّ ثناؤه وَسم كل فريق منهم من صِفَته لعباده بما يعرفونه به ، إذا ذكرهُ لهم أو أخبرهم عنه . ولم يسمّ واحداً من الفريقين إلا بما هو له صفةٌ على حقيقته ، وإن كان له من صفاتِ الذمّ زياداتٌ عليه .

فيظنّ بعض أهل الغباء من القدريّة أن في وصف الله جلّ ثناؤه النصارى

بالضّلال، بقوله «ولا الضالين»، وإضافته الضّلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلى نفسه، وتركه وصفهم بأنهم المضلَّلون، كالذى وَصف به اليهود أنهم المغضوبُ عليهم — دلالةً على صحة ما قاله إخوانُه من جهلة القدرية، جهلاً منه بسَعَة كلام العرب وتصاريف وُجوهه.

ولو كان الأمر على ما ظنّه الغبي الذى وصفنا شأنه، لوجب أن يكونَ شأنُ كلِّ موصوفٍ بصفةٍ أو مضافٍ إليه فعلٌ، لا يجوزُ أن يكون فيه سببٌ لغيره، وأنْ يكون كلُّ ما كان فيه من ذلك لغيره سببٌ، فالحقُّ فيه أن يكون مضافاً إلى مُسبِّبه. ولو وَجب ذلك، لوجبَ أن يكون خطأً قولُ القائل: «تحركت الشجرةُ»، إذْ حرَّكتها الريح؛ و«اضطربت الأرض»، إذْ حرَّكتها الزلزلة، وما أشبهَ ذلك من الكلام الذى يطولُ بإحصائه الكتاب.

وفى قول الله جلّ ثناؤه: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [سورة يونس: ٢٢] — بإضافته الجريَ إلى الفلك، وإن كان جريها بإجراء غيرِها إيّاها — ما دلّ على خطأ التأويل الذى تأوله من وصفنا قوله فى قوله «ولا الضالين»، وادّعائه أنّ فى نسبة الله جلّ ثناؤه الضلالةَ إلى من نَسبها إليه من النصارى، تصحيحاً لما ادَّعى المنكرون: أن يكون لله جلّ ثناؤه فى أفعال خلقه سببٌ من أجله وُجدت أفعالهم، مع إبانة الله عزّ ذكره نصًّا فى آيٍ كثيرة من تنزيله، أنه المضلُّ الهادى، فمن ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣]. فأنبأ جلّ ذكره أنه المضلّ الهادى دون غيره.

ولكنّ القرآن نزلَ بلسان العرب على ما قدّمنا البيان عنه فى أول الكتاب، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وُجد منه — وإن كان مسبِّبُه غيرَ الذى وُجِد

منه ـــ أحياناً ، وأحياناً إلى مسبِّبه ، وإن كان الذى وجد منه الفعل غيرُه . فكيف بالفعل الذى يكتسبه العبد كسباً ، ويُوجِده الله جلّ ثناؤه عَيْناً مُنْشَأةً ؟ بل ذلك أحرى أن يُضاف إلى مكتسبه، كسباً له، بالقوة منه عليه ، والاختيار منه له ــ وإلى الله جلّ ثناؤه ، بإيجاد عينِه وإنشائها تدبيراً .

﴿ مسألة يَسأل عنها أهل الإلحاد الطَّاعنون فى القرآن ﴾

إن سألَنا منهم سائل فقال : إنك قد قدَّمتَ فى أول كتابك هذا فى وصْف البيان : بأنَّ أعلاه درجة وأشرفَه مرتبة ، أبلغُه فى الإبانة عن حاجة المُبين به عن نفسه ، وأبينُه عن مُراد قائله ، وأقربُه من فهم سامعه . وقلتَ ، مع ذلك : إنَّ أوْلى البيان بأن يكون كذلك ، كلامُ الله جل ثناؤه ، لِفَضْله على سائر الكلام بارتفاع دَرَجته على أعلى درجات البيان(1) ، فما الوجه — إذْ كان الأمرُ على ما وصفتَ — فى إطالة الكلام بمثل سُورة أم القرآن بسبعِ آيات؟ وقد حوَت معانىَ جميعِها منها آيتان ، وذلك قوله ﴿ مَلكِ يومِ الدين إيَّاكَ نَعبد وَإياكَ نَستعين ﴾ ، إذْ كان لا شك أنَّ من عَرف مَلك يوم الدين ، فقد عَرَفه بأسمائه الحسنى وصفاته المُثلى . وأنَّ من كان لله مطيعاً ، فلا شك أنه لسبيل من أنعم الله عليه فى دينه مُتَّبع ، وعن سبيل من غَضِب عليه وضَلَّ مُنْعَدِل . فما فى زيادة الآيات الخمس الباقية ، من الحكمة التى لم تَحْوِها الآيتان اللتان ذكرنا ؟

قيل له : إنَّ الله تعالى ذكرُه جمَع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولأمته — بما أنزل إليه من كتابه — معانىَ لم يجمعْهُنَّ بكتاب أنزله إلى نبيّ قبله ، ولا لأمَّة من الأمم قبلهم . وذلك أنَّ كُلَّ كتاب أنزله جلَّ ذكرُه على نبيّ من أنبيائه قبله ، فإنما أنزله ببعض المعانى التى يحوى جميعَها كتابُه الذى أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . كالتَّوراة التى هى مواعظ وتفصيل ، والزَّبُور الذى هو تحميد وتمجيد ، والإنجيل الذى هو مواعظ وتذكير — لا مُعجزةَ فى واحد منها تشهد لمن أنزِل إليه بالتصديق . والكتابُ الذى أنزِل على نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ، يحوى معانى ذلك كله ، ويزيد عليه كثيراً من المعانى التى سائرُ الكتب غيرِه منها خالٍ .

(1) انظر ما مضى : 9 — 11 .

وقد قدَّمنا ذكرها فيما مضى من هذا الكتاب [١].

ومن أشرفِ تلك المعانى التى فَضَل بها كتابُنا سائرَ الكتب قبله، نظْمُه العجيبُ ورصْفُه الغريب [٢] وتأليفُه البديع؛ الذى عجزتْ عن نظم مثْلِ أصغرِ سورة منه الخطباء، وكلَّت عن وَصْف شكل بعضه البلغاء، وتحيَّرت فى تأليفه الشُّعراء، وتبلَّدت — قصورًا عن أن تأتىَ بمثله — لديه أفهامُ الفُهماء، فلم يجدوا له إلا التسليمَ والإقرار بأنه من عند الواحد القهار. مع ما يحوى، مَع ذلك، من المعانى التى هى ترغيب وترهيب، وأمرٌ وزجرٌ، وقَصَص وَجدَل ومَثَل، وما أشبهَ ذلك من المعانى التى لم تجتمع فى كتاب أنزِل إلى الأرض من السماء.

فهما يكن فيه من إطالة، على نحو مَا فى أمِّ القرآن [٣]، فلِما وصفتُ قبلُ من أن الله جل ذكره أرادَ أن يجمعَ — برَصْفه العجيب ونظْمه الغريب، المنعدِلِ عن أوزان الأشعار وسجْع الكُهَّان وخطب الخطباء ورَسائل البلغاء، العاجز عن رَصْف مثله جميع الأنام، وعن نظم نظيره كل العباد — الدلالةَ [٤] على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ وبما فيه من تحميد وتمجيد وثناء عليه — تنبيهَ [٥] العباد على عَظمته وسلطانه وقدرته وعِظم مَملكته، ليذكرُوه بآلائه، ويحمدوه على نعمائه، فيستحقّوا به منه المزيدَ، ويستوجبوا عليه الثوابَ الجزيل؛ وبما فيه من نَعْتِ من أنعم عليه بمعرفته، وتفضَّل عليه بتوفيقه لطاعته — تعريفَ [٥] عباده أن كل ما بهم من نعمة، فى دينهم ودنياهم، فمنه، ليصرفوا رَغبتهم إليه، ويبتغوا حاجاتهم من عنده دُون ما سواهُ من الآلهة والأنداد؛ وبما فيه من ذكره ما أحلَّ بمن عَصاه من مَثُلاته، وأنزل بمن خالف أمره من عقوباته — ترهيبَ [٥] عباده عن ركوب

---

(١) انظر ما مضى: ٧١.

(٢) فى المطبوعة «ووصفه». ورصف الشىء ضم بعضه إلى بعض ونظمه حتى يكون مستوياً محكماً منضداً.

(٣) فى المخطوطة: «آنه القرآن» غير منقوطة.

(٤) «الدلالة» مفعول «أن يجمع ...»، ثم عطف عليها بعد، ما سننبه له.

(٥) هذه جميعاً معطوفة على قوله «الدلالة»، كما ذكرنا آنفاً.

معاصيه، والتعرُّضِ لما لاقِبَل لهم به من سَخَطه، فيسلكَ بهم فى النكال والنَّقِمات سبيلَ من ركب ذلك من الهُلاَّك.

فذلك وَجْه إطالة البيان فى سورة أم القرآن، وفيما كان نظيراً لها من سائر سور الفرقان. وذلك هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة.

* * *

٢٢١ — حدثنا أبوكريب، قال: حدثنا المحاربى، عن محمد بن إسحق، قال: حدثنى العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبى السائب مولى زُهْرة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا قال العبد: «الحمد لله ربِّ العالمين»، قال الله: «حمدنى عبدى». وإذا قال: «الرحمن الرحيم»، قال: «أثنى علىَّ عبدى». وإذا قال: «مالكِ يوم الدين»، قال: «مجَّدنى عبدى. فهذا لى». وإذا قال: «إيَّاكَ نَعبدُ وإيَّاكَ نَستعين» إلى أن يختم السورة، قال: «فذاكَ لهُ»[1].

٢٢٢ — حدثنا أبوكريب، قال: حدثنا عبدة، عن ابن إسحق، عن العلاء ابن عبد الرحمن، عن أبى السائب، عن أبى هريرة، قال: إذا قال العبد: «الحمد لله»، فذكر نحوه، ولم يرفعه[2].

٢٢٣ — حدثنا أبوكريب، قال: حدثنا أبوأسامة، قال: حدثنا الوليد بن كَثير، قال: حدثنى العلاء بن عبد الرحمن مولى الحُرَقَة، عن أبى السائب، عن أبى هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثله[3].

٢٢٤ — حدثنى صالح بن مسمار المروزى، قال: حدثنا زيد بن الحُباب،

---

(١) الحديث ٢٢١ — المحاربى: هو عبد الرحمن بن محمد بن زياد، وهو ثقة، أخرج له الجماعة. محمد بن إسحق: هو ابن يسار، صاحب السيرة، ثقة معروف، تكلم فيه بعضهم بغير حجة وبغير وجه. العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة — بضم الحاء وفتح الراء —: تابعى ثقة. أبو السائب مولى زهرة: تابعى ثقة، قال ابن عبد البر: «أجمعوا على أنه ثقة مقبول النقل». والحديث رواه الطبرى بعد هذا موقوفاً بإسنادين. وسنذكر تخريجه فى آخرهما: ٢٢٣.

(٢) الحديث ٢٢٢ — عبدة: هو ابن سليمان الكلابى، من شيوخ أحمد وإسحق، قال أحمد: «ثقة ثقة وزيادة، مع صلاح فى بدنه».

(٣) الحديث ٢٢٣ — أبو أسامة: هو حماد بن أسامة. الوليد بن كثير المخزومى: ثقة ثبت أخرج له الجماعة.

قال : حدثنا عَنْبسة بن سعيد ، عن مُطَرِّف بن طَرِيف ، عن سعد بن إسحق ابن كعب بن عُجْرة ، عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجلّ : «قَسَمتُ الصلاة بيني وبين عبدى نِصْفين ، وله ما سَأل» . فإذا قال العبد : «الحمدُ لله ربِّ العالمين» قال الله : «حمدَنى عَبدى» ، وإذا قال : «الرحمن الرحيم» ، قال : «أثنى علىّ عَبدى» وإذا قال : «مالكِ يَوم الدين» قال : «مجَّدنى عَبدى» قال : «هذا لى ، وله ما بقى»[1] .

٦٧/١

«آخرُ تفسيرِ سُورَةِ فَاتِحةُ الكتابِ»

وهذا الحديث — بإسناديه الموقوفين — مرفوع حكماً ، وإن كان فى هاتين الروايتين موقوفاً لفظاً . فإن هذا مما لا يعلم بالرأى ، ولا يدخل فيه مناط الاجتهاد .

ثم إن الرفع زيادة من الثقة ، وهى مقبولة . وفوق هذا كله ، فإنه لم ينفرد برفعه راويه فى الإسناد الأول ، وهو المحاربى ، بل ورد بأسانيد أخر مرفوعاً .

وهو قطعة من حديث طويل ، رواه مالك فى الموطأ : ٨٤ — ٨٥ عن العلاء بن عبد الرحمن ، بهذا الإسناد ، مرفوعاً . وكفى بمالك حجة فى التوثق من رفعه لفظاً فوق رفعه حكماً . وكذلك رواه مسلم ١ : ١٦٦ (٤ : ١٠١ — ١٠٤ من شرح النووى) ، من طريق مالك ، ومن طريق سفيان بن عيينة ، ومن طريق ابن جريج ، ومن طريق أبى أويس — كلهم عن العلاء عن أبى السائب ، به مرفوعاً . وزاد أبو أويس عن العلاء قال : «سمعت من أبى ومن أبى السائب ، وكانا جليسى أبى هريرة . . . » ، فذكره مرفوعاً .

ونسبه السيوطى ١ : ٦ لسفيان بن عيينة فى تفسيره ، وأبى عبيدة فى فضائله ، وابن أبى شيبة ، وأحمد ، والبخارى فى جزء القراءة ، وأصحاب السنن الأربعة ، وابن حبان ، وغيرهم . وذكر ابن كثير ١ : ٢٤ — ٢٥ بعض طرقه مفصلة .

(١) الحديث ٢٢٤ — هذا إسناد جيد صحيح . صالح بن مسمار السلمى المروزى : ثقة ، روى عنه مسلم فى صحيحه ، وقال أبو حاتم : «صدوق» ، كما فى كتاب ابنه ٤١٥/١/٢ ، وذكره ابن حبان فى الثقات . عنبسة بن سعيد بن الضريس الرازى قاضى الرى : ثقة ، وثقه ابن معين وأبو زرعة وأبو داود وغيرهم ، وصرح البخارى فى الكبير ٤ / ١ / ٣٥ بأنه يروى عن مطرف . و «الضريس» : بضم الضاد المعجمة وآخره سين مهملة ، كما ضبطه الحافظ فى التقريب . مطرف بن طريف : ثقة ثبت ، أخرج له الجماعة . سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة : ثقة لا يختلف فيه ، كما قال ابن عبد البر ، وهو من شيوخ مالك . وروايته عن جابر متصلة ، لأنه يروى عن أبيه «إسحق بن كعب» المقتول يوم الحرة سنة ٦٣ ، وقد عاش جابر بعدها أكثر من عشر سنين .

والحديث ذكره السيوطى ١ : ٦ ونسبه لابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما . وذكره ابن كثير ١ : ٢٥ عن هذا الموضع من الطبرى — ووقع فى إسناده غلط مطبعى — وقال : «وهذا غريب من هذا الوجه» ! ولعله يريد أنه لم يروه أحد من حديث جابر إلا بهذا الإسناد . وليس من ذلك بأس ، وقد ثبت معناه من حديث أبى هريرة ، فهو شاهد قوى لصحته .



تفسير
سورة البقرة



بسم الله الرحمن الرحيم

رب أعن

﴿القول في تفسير السورة التي يُذْكر فيها البقرة﴾

القول في تأويل قول الله جل ثناؤه: ﴿ألم﴾

قال أبو جعفر: اختلفت تراجمة القرآن في تأويل قول الله تعالى ذكره[1]: «ألم» فقال بعضُهم: هو اسم من أسماء القرآن. ذكرُ من قال ذلك:

٢٢٥ — حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزّاق، قال، أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: «ألم»، قال: اسم من أسماء القرآن.

٢٢٦ — حدثني المثنى بن إبراهيم الآملي، قال: حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: «ألم»، اسم من أسماء القرآن.

٢٢٧ — حدثنا القاسم بن الحسن، قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: حدثني حجاج، عن ابن جُريج، قال: «ألم»، اسم من أسماء القرآن.

وقال بعضُهم: هو فواتحُ يفتح الله بها القرآن. ذكر من قال ذلك:

٢٢٨ — حدثني هرون بن إدريس الأصم الكوفي، قال: حدثنا عبد الرحمن ابن محمد المحاربي، عن ابن جريج، عن مجاهد، قال: «ألم»، فواتح يفتح الله بها القرآن.

(١) تراجمة القرآن: مفسروه، كما مر آنفاً: ١٧٠، تعليق: ٤ وما قبلها ٧٠، تعليق: ١٠

٢٢٩ — حدثنا أحمد بن حازم الغِفَاري ، قال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا سفيان ، عن مجاهد ، قال : « الم » ، فواتح .

٢٣٠ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن يحيي ابن آدم ، عن سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : « الم » ، و « حم » ، و « المص » ، و « ص » ، فواتحُ افتتح الله بها[1] .

٢٣١ — حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثلَ حديث هرون بن إدريس .

وقال آخرون : هو اسم للسورة . ذكرُ من قال ذلك :

٢٣٢ — حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا عبد الله بن وهب ، قال : سألت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن قول الله : « الم ذلك الكتاب » ، و « الم تَنزيل » ، و « المر تلك » ، فقال : قال أبي : إنما هي أسماء السُّوَر .

وقال بعضهم : هو اسم الله الأعظم . ذكر من قال ذلك :

٢٣٣ — حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا شعبة ، قال : سألت السُّدِّى عن « حم » و « طسم » و « الم » ، فقال : قال ابن عباس : هى اسْم الله الأعظم .

٢٣٤ — حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثني أبو النعمان ، قال : حدثنا شعبه ، عن إسمعيل السُّدِّى ، عن مُرَّة الهمدانى ، قال : قال عبدُ الله : فذكر نحوه .

٢٣٥ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عُبيد الله بن موسى ، عن إسمعيل ، عن الشعبي ، قال : فواتح السور من أسماء الله .

وقال بعضهم : هو قسمٌ أقسمَ الله به ، وهو من أسمائه . ذكر من قال ذلك :

---

(١) الأثر ٢٣٠ — إسحق بن الحجاج : هو الطاحونى المقرئ ، ترجمه ابن أبي حاتم فى الجرح والتعديل ١/١/٢١٧ ، وقال : « سمعت أبا زرعة يقول : كتب عبد الرحمن الدشتكى تفسير عبد الرزاق عن إسحق بن الحجاج » .

٢٣٦ — حدثني يحيى بن عثمان بن صالح السهمي ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثني معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، قال : هو قَسَمٌ أقسمَ الله به ، وهو من أسماء الله .

٢٣٧ — حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن عُلَيَّة ، قال : حدثنا خالد الحذّاء ، عن عكرمة ، قال : « الم » ، قسم[1] .

وقال بعضهم : هو حُرُوف مقطّعةٌ من أسماءٍ وأفعالٍ ، كلٌّ حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر . ذكر من قال ذلك :

٢٣٨ — حدثنا أبو كريب قال حدثنا وكيع — وحدثنا سفيان بن وكيع قال : حدثنا أبي عن شريك ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الضُّحَى ، عن ابن عباس : « الم » قال : أنا الله أعلم[2] .

٢٣٩ — حُدِّثتُ عن أبي عُبيد ، قال : حدثنا أبو اليقظان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، قال : قوله : « الم » ، قال : أنا الله أعلم .

٢٤٠ — حدثني موسى بن هرون الهمداني ، قال : حدثنا عمرو بن حماد القنّاد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن إسمعيل السُّدّي في خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهمداني ، عن ابن مسعود — وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « الم » قال : أما « الم » فهو حرف اشتُقَّ من حروف هجاء أسماء الله جل ثناؤه .

١/٦٨

٢٤١ — حدثنا محمد بن مَعْمَر ، قال : حدثنا عباس بن زياد الباهلي ، قال : حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : « الم » و « حم » و « ن » ، قال : اسم مُقَطَّع[3] .

---

(١) الأثر ٢٣٧ — يعقوب بن إبراهيم بن كثير بن زيد بن أفلح : هو الدورقي الحافظ البغدادي.

(٢) الخبر ٢٣٨ — رواه الطبري عن شيخين عن وكيع : عن أبي كريب ، وعن سفيان بن وكيع ، كلاهما عن وكيع عن شريك ، وهو ابن عبد الله النخعي القاضي . وجاء الإسناد الثاني منهما في مطبوعة بولاق محرفاً : « سفيان بن وكيع قال حدثنا ابن أبي شريك » . وصحح من المخطوطة .

(٣) الخبر ٢٤١ — محمد بن معمر بن ربعي ، شيخ الطبري : هو المعروف بالبحراني ، وهو

وقال بعضهم هى حروفُ هجاءٍ موضوعٍ . ذكر من قال ذلك :

٢٤٢ ـ حُدِّثتُ عن منصور بن أبي نُوَيرة، قال: حدثنا أبوسعيد المؤدِّب، عن خُصَيْف ، عن مجاهد ، قال: فواتح السور كلها « ق » و « ص » و « حم » و « طسم » و « ألر » وغير ذلك ، هجاء موضوع .

وقال بعضهم : هى حروف يشتمل كل حرفٍ منها على معان شتى مختلفة . ذكر من قال ذلك :

٢٤٣ ـ حدثنى المثنى بن إبراهيم الطبرى ، قال: حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبي جعفر الرازى ، قال : حدثنى أبى ، عن الربيع بن أنس ، فى قول الله تعالى ذكره: « ألم » ، قال : هذه الأحرف ، من التسعة والعشرين حرفاً ، دارت فيها الألسُن كلها. ليس منها حرف إلا وهو مِفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو فى آلائه وَبلائه ، وليس منها حرف إلاّ وهو فى مدّةِ قوم وآجالهم . وقال عيسى بن مريم : « وعجيبٌ ينطقون فى أسمائه ، ويعيشون فى رزقه ، فكيف يكفرون؟» . قال : الألف مفتاح اسمه : « الله » ، واللام مفتاح اسمه : « لطيف » ، والميم مفتاح اسمه: « مجيد » . الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم مجده . الألف سنةٌ ، واللام ثلاثون سنة ، والميم أربعون سنة .

٢٤٤ ـ حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا حَكام، عن أبي جعفر، عن الربيع بنحوه[1]

وقال بعضُهم: هى حُروف من حساب الجُمَّل ـ كرهنا ذكْر الذى حُكِى ذلك عنه ، إذْ كان الذى رواه ممن لا يُعتمد على روايته ونقله . وقد مضت الروايةُ بنظير ذلك من القول عن الربيع بن أنس[2] .

ثقة ، روى عنه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، وهو متأخر الوفاة ، مات فى العام الذى مات فيه البخارى سنة ٢٥٦ ، كما ذكر الذهبى فى تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٩ ، وأما شيخه « عباس بن زياد الباهلى » فلم أجد له ترجمة قط .

(١) الأخبار ٢٢٥ — ٢٤٤ : ذكرها ابن كثير ١ : ٦٥ — ٦٦ ، بعضها بالإسناد ، وبعضها دون إسناد ، وسردها السيوطى ١ : ٢٢ — ٢٣ مع غيرها من الروايات . ونقل الشوكانى بعضها ١ : ٢١ .

(٢) يشير إلى الروايتين السابقتين : ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

وقال بعضهم : لكل كتاب سرٌّ ، وسرُّ القرآن فواتحه .

* * *

وأمَّا أهل العربية ، فإنهم اختلفوا فى معنى ذلك . فقال بعضهم : هى حروف من حُرُوف المعجم ، استُغْنِىَ بذكر ما ذُكر منها فى أوائل السور عن ذكر بَواقيها ، التى هى تتمة الثمانية والعشرين حرفاً ؛ كما استغنى المُخبرُ – عمن أخبرَ عنه أنه فى حروف المعجم الثمانية والعشرين حرفاً – بذكر « أ ب ت ث » ، عن ذكر بواقى حروفها التى هى تتمة الثمانية والعشرين : قال . ولذلك رُفع ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ ، لأنّ معنى الكلام : الألف واللام والميم من الحروف المقطعة ، ذلك الكتابُ الذى أنزلته إليك مجموعاً لا ريب فيه .

فإن قال قائل : فإن « أ ب ت ث » ، قد صارتْ كالاسم فى حروف الهجاء ، كما كان « الحمدُ » اسماً لفاتحة الكتاب .

قيل له : لما كان جائزاً أن يقول القائل : ابنى فى « ط ظ » ، وكان معلوماً بقيله ذلك لو قاله أنَّه يريد الخبر عن ابنه أنَّه فى الحروف المقطَّعة – عُلم بذلك أنّ « أ ب ت ث » ليس لها باسْم ، وإن كان ذلك آثَرَ فى الذكر من سائرها [١] .

قال : وإنما خُولف بين ذكر حُرُوف المعجم فى فواتح السور ، فذُكِرت فى أوائلها مختلفةً ، وذِكْرِها إذا ذُكرت بأوائلها التى هى « أ ب ت ث » ، مؤتلفةً ، ليفصل بين الخبر عنها إذا أريد – بذكر ماذكر منها مختلفاً – الدلالةُ على الكلام المتصل ؛ وإذا أريد – بذكر ما ذكر منها مؤتلفاً – الدلالةُ على الحروف المقطعة بأعيانها . واستشهدوا – لإجازة قول القائل : ابنى فى « ط ظ » وما أشبه ذلك ، من الخبر عنه أنه فى حرُوف المعجم ، وأن ذلك من قيله فى البيان يَقوم مقام قوله : ابنى فى « أ ب ت ث » – برجز بعض الرُّجّاز من بنى أسد :

لَمَّا رَأَيْتُ أَمرَهَا فى حُطِّى وفَنَكَتْ فى كَذِبٍ ولَطِّ

---

(١) فى المطبوعة : « يؤثر فى الذكر » . وآثر : يؤثره الناس ويقدمونه .

أَخذْتُ منها بقُرُونٍ شُمْطِ فلم يَزَلْ صَوْبِي بها ومَعْطِى
حَتى علَا الرأسَ دَمٌ يُغَطِّى[1]

١/٦٩ فزعم أنه أراد بذلك الخبر عن المرأة أنها فى « أبى جاد » ، فأقام قوله : « لما رأيت أمرها فى حُطِّى » مقامَ خبرِه عنها أنها فى « أبى جاد » ، إذْ كان ذاك من قوله ، يدلُّ سامعَه على ما يدلُّه عليه قوله : لما رأيت أمرَها فى « أبى جاد » .

• • •

وقال آخرون: بل ابتدئت بذلك أوائل السُّوَر ليفتح لاستماعه أسماعَ المشركين — إذ تواصَوْا بالإعراض عن القرآن — حتى إذا استمعوا له، تُلى عليهم المؤلَّفُ منه .

وقال بعضهم : الحروفُ التى هى فواتح السُّور حروفٌ يستفتحُ الله بها كلامه .

فإن قيل : هل يكون من القرآن ما ليس له معنى ؟

قيل[2] : معنى هذا أنه افتتح بها ليُعْلَم أن السورة التى قبلها قد انقضت ، وأنه قد أخذ فى أخرى ، فجعل هذا علامةَ انقطاعِ ما بينهما . وذلك فى كلام العرب ، ينشد الرجل منهم الشعر فيقول :

بل • وبلدةٍ مَا الإنسُ من آهَالِها[3]

ويقول :

لا بَل • مَاهاج أحزاناً وشَجْوًا قد شَجَا[4]

و« بل » ليست من البيت ولا تعدّ فى وزنه ، ولكن يقطع بها كلاماً ويستأنفُ الآخر .

---

(١) أولها فى اللسان (فنك) . فنك فى الكذب : مضى فيه ولج ومحك . ولط الحق : جحده ومنعه وخاصم فأحمى الخصومة . والقرون ، جمع قرن : وهو الضفيرة . وشمط ، جمع أشمط : وهو الذى اشتعل رأسه شيباً . صاب يصوب صوباً : انحدر من علو إلى سفل . وفى المطبوعة : « ضربى » . والمعط : المد والجذب ، وعنى بذلك إصعاده بها وهو يجذب ضفائرها ، وذلك فى انحداره بها وصعوده .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « فإن قيل : هل يكون من القرآن ما ليس له معنى ؟ فإن معنى هذا ... » ، وهو كلام مضطرب ، والصواب ما أثبتناه .

(٣) اللسان (أهل) غير منسوب ، وكأنه لأبى النجم فيما أذكر .

(٤) هو العجاج ، ديوانه : ٧ ، ويأتى بعد قليل فى : ٢١٢ أيضاً و : ٢٢٣ .

قال أبو جعفر : ولكل قول من الأقوال التى قالها الذين وصفنا قولهم فى ذلك ، وجهٌ معروفٌ .

فأما الذين قالوا : « الم » ، اسم من أسماء القرآن ، فلقولهم ذلك وجهان :

أحدهما : أن يكونوا أرادوا أن « الم » اسم للقرآن ، كما الفُرقان اسم له . وإذا كان معنى قائل ذلك كذلك ، كان تأويل قوله ﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ ، على معنى القسم. كأنه قال : والقرآنِ ، هذا الكتابُ لا ريب فيه .

والآخر منهما : أن يكونوا أرادوا أنه اسمٌ من أسماء السورة التى تُعرف به ، كما تُعرَّف سائر الأشياء بأسمائها التى هى لها أمارات تعرف بها ، فيَفهم السامع من القائل يقول : — قرأت اليوم « المص » و« ن » — ، أىُّ السُّوَر التى قرأها من سُوَر القرآن[1] ، كما يفهم عنه — إذا قال : لقيتُ اليوم عمراً وزيداً ، وهما بزيد وعمرو عارفان — مَن الذى لقى من الناس .

وإن أشكل معنى ذلك على امرئ فقال : وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك ، ونظائر « الم » « الر » فى القرآن جماعةٌ من السُّور ؟ وإنما تكون الأسماء أماراتٍ إذا كانت مميِّزةً بين الأشخاص ، فأما إذا كانت غير مميزة فليست أمارات .

قيل : إن الأسماء — وإن كانت قد صارت ، لاشتراك كثير من الناس فى الواحد منها ، غيرَ مميِّزة إلا بمعانٍ أخرَ معها من ضَمٍّ نسبة المسمَّى بها إليها أو نعته أو صفته ، بما يفرِّق بينه وبين غيره من أشكالها — فإنها وُضعت ابتداءً للتمييز لا شَكَّ . ثم احتيج ، عند الاشتراكِ ، إلى المعانى المفرِّقة بين المسمَّيْن بها[2] . فكذلك ذلك فى أسماء السور . جُعل كلُّ اسم — فى قول قائل هذه المقالة — أمارةً للمسمى به من السُّور . فلما شارك المسمَّى به فيه غيرَه من سور القرآن ، احتاج المخبر عن

---

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « أى السورة التى قرأها . . . . » .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « بين المسمى بها » .

سورةٍ منها أن يضمّ إلى اسمها المسمَّى به من ذلك، ما يفرِّق به السامع بين الخبر عنها وعن غيرها، من نعتٍ وصفةٍ أو غير ذلك. فيقول المخبر عن نفسه أنه تلا سورة البقرة، إذا سماها باسمها الذى هو «ألم»: قرأتُ «ألم البقرة». وفى آل عمران: قرأت «ألم آل عمران»، و«ألم ذلك الكتاب»، و«ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم». كما لو أراد الخبر عن رَجلين، اسم كل واحد منهما «عمرو»، غير أنّ أحدهما تميمى والآخر أزدىٌّ، للزمه أن يقول لمن أراد إخباره عنهما: لقيت عمراً التميمى وعمراً الأزدىَّ، إذْ كان لا يفرُقُ بينهما وبين غيرهما ممن يُشاركهما فى أسمائهما، إلا نسبتهما كذلك. فكذلك ذلك فى قول من تأوَّل فى الحروف المقطعة أنها أسماءٌ للسُّور.

وأما الذين قالوا: ذلك فواتحُ يفتتح الله عز وجل بها كلامه، فإنهم وجهوا ذلك إلى نحو المعنى الذى حكيناعمَّن حكينا ذلك عنهُ من أهل العربية، أنه قال: ذلك أدِلَّةٌ على انقضاء سُورة وابتداءٍ فى أخرى، وعلامةٌ لانقطاع ما بينهما، كما جعلت «بل» فى ابتداء قصيدةٍ دلالةً على ابتداء فيها، وانقضاءِ أخرى قبلَها. كما ذكرنا عن العرب إذا أرادوا الابتداءَ فى إنشاد قصيدة قالوا:

بل * ما هاجَ أحْزَاناً وشجوًا قد شَجا

١/٧٠ و«بل» ليست من البيت ولا داخلةٌ فى وزنه، ولكن ليَدُلَّ به على قطع كلام وابتداء آخر.

وأما الذين قالوا: ذلك حروف مقطَّعة بعضها من أسماء الله عز وجل، وبعضُها من صفاته، ولكل حرف من ذلك معنى غيرُ معنى الحرف الآخر، فإنهم نَحَوْا بتأويلهم ذلك نحو قول الشاعر:

قُلْنَا لها: قِفِى لنا، قالت: قافْ لَا تَحْسَبى أَنَّا نَسِينا الإيجافْ[1]

---

(١) الرجز للوليد بن عقبة. الأغانى ٥ : ١٣١، شرح شواهد الشافية : ٢٧١، ومشكل القرآن: ٢٣٨. الإيجاف: حيث الدابة على سرعة السير، وهو الوجيف.

يعنى بقوله : « قالت قاف » ، قالت : قد وقفتُ . فدلت بإظهار القاف من « وقفت » ، على مرادها من تمام الكلمة التى هى « وقفت » . فصرفوا قوله « الم » وما أشبه ذلك ، إلى نحو هذا المعنى . فقال بعضهم : الألف ألف « أنا » ، واللام لام «الله» ، والميم ميم « أعلم » ، وكلٌّ حرف منها دال على كلمة تامة . قالوا : فجملة هذه الحروف المقطَّعة إذا ظهر مع كل حرفٍ منهن تَمام حروف الكلمة ، « أنا الله أعلم » . قالوا : وكذلك سائر جميع ما فى أوائل سُور القرآن من ذلك ، فعلى هذا المعنى وبهذا التأويل . قالوا: ومستفيضٌ ظاهرٌ فى كلام العرب أن ينقُصَ المتكلم منهم من الكلمةِ الأحرفَ ، إذا كان فيما بقى دلالة على ما حذف منها — ويزيدَ فيها ما ليس منها ، إذا لم تكن الزيادة مُلبِّسةً معناها على سامعها — كحذفهم فى النقص فى الترخيم من « حارثٍ » الثاءَ ، فيقولون : يا حارِ ، ومن « مالك » الكافَ ، فيقولون : يا مالِ ، وما أشبه ذلك ، وكقول راجزهم :

مَا لِلظَّلِيم عَالَ ؟ كَيْفَ لا يَا يَنْقَدُّ عنه جِلْدُه إذا يَا[(١)]

كأنه أراد أن يقول : إذا يَفعل كذا وكذا ، فاكتفى بالياء من « يفعل » ، وكما قال آخر منهم :

بالخيرِ خيراتٍ وإنْ شرًّا فَا

يريد : فشرًّا .

ولَا أُرِيد الشرَّ إلَّا أنْ تَا[(٢)]

يريد : إلا أن تَشاء ، فاكتفى بالتاء والفاء فى الكلمتين جَميعاً ، من سائر حروفهما ، وما أشبهَ ذلك من الشواهد التى يَطول الكتاب باستيعابه .

---

(١) شرح شواهد الشافية : ٢٦٧. عال : دعاء عليه ، من قولهم « عال عوله » أى ثكلته أمه ، فاختصر . و« يا » فى البيت الأول كأنه أراد أن يقول « ينقد عنه . . . » فوقف ، ثم عاد يقول : « ينقد » ، و « يا » فى الآخر : أى إذا يعدو هذا العدو .

(٢) سيبويه ٢ : ٦٢ ، الكامل ١ : ٢٤٠ ، والموشح : ١٢٠ ، وشرح شواهد الشافية : ٢٦٢ ، ونسبه فى ٢٦٤ للقيم بن أوس .

٢٤٥ — وكما حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال : حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، وابن عون، عن محمد، قال : لما مات يزيدُ بن معاوية قال لى عَبْدَة : إنى لا أراها إلا كائنةً فتنةً، فافزع من ضَيْعَتِكَ والحقْ بأهلك. قلت: فما تأمرنى ؟ قال: أحَبُّ إلىَّ لك أنْ تا — قال أيوبُ وابن عون بيده تحت خدِّه الأيمن، يصف الاضطجاع — حتى ترى أمراً تعرفه[1].

قال أبو جعفر : يعنى بـ « تا » تضطجع، فاجتزأ بالتاء من تضطجع. وكما قال الآخر فى الزيادة على الكلام[2]، على النحو الذى وصفت :

أَقُول إذْ خَرَّتْ على الكَلْكالِ يَا نَاقَتِي ما جُلْتِ من مَجَالِ[3]

يريد : الكلكل، وكما قال الآخر :

إنّ شَكْلِي وَإن شَكْلَكِ شَتَّى فَالْزَمِي الخُصَّ واخْفِضِي تَبْيَضِضِّي[4]

فزاد ضاداً، وليست فى الكلمة.

قالوا : فكذلك ما نقصَ من تمام حُروف كل كلمة من هذه الكلمات التى ذكرنا أنها تتمة حروف « الم » ونظائرها — نظيرُ ما نقص من الكلام الذى حكيناهُ عن العرب فى أشعارها وكلامها.

وأما الذين قالوا : كل حرف من « الم » ونظائرها، دالٌّ على معان شتى —

---

(١) الأثر ٢٤٥ — محمد : هو ابن سيرين. وعبدة : لم أوفق من هو ولم أرجح. بل أكاد أوقن أن هذا تحريف، صوابه « عبيدة » بفتح العين وكسر الباء الموحدة وآخره هاء. وهو عبيدة بن عمرو — أو ابن قيس — السلمانى، من كبار التابعين، من طبقة الصحابة، أسلم قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يلقه. وكان ابن سيرين من أروى الناس عنه. وهو مترجم فى التهذيب، وفى ابن سعد ٦ : ٦٢ — ٦٤، وعند ابن أبى حاتم ٩١/١/٣. وأما يزيد : فهو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، مات سنة ٦٤. وقوله : « قال أيوب . . . »، أى أشار.

(٢) فى المطبوعة : « فى الكلام ».

(٣) اللسان (كلل)، ومشكل القرآن : ٢٣٥. والكلكل : الصدر من البعير وغيره.

(٤) اللسان (بيض) (خفض)، ومشكل القرآن : ٢٣٤. يقوله لامرأته. والخص : البيت من قصب. وقوله « اخفضى » من الخفض : وهو الدعة ولين العيش. يقول لها : نحن مختلفان، فالزمى بيتك وعيشى فى دعة وخفض، يزدك لين العيش بياضاً ونعمة. أما أنا فالرحلة دأبى، تشقينى وتلوحنى.

نحو الذى ذكرنا عن الربيع بن أنس — فإنهم وَجَّهوا ذلك إلى مثل الذى له وَجَّهه إليه من قال : هو بتأويل « أنا الله أعلم » ، فى أن كلَّ حرف منه بعضُ حروفِ كلمةٍ تامة ، استُغْنِىَ بدلالته عَلى تمامه عن ذكر تمامه — وإن كانوا له مخالفين فى كلِّ حرف من ذلك : أهو من الكلمة التى ادَّعى أنه منها قائلو القول الأول ، أم من غيرها ؟ فقالوا : بل الألف من « ألم » من كلمات شتى ، هى دالةٌ على معانى جميع ذلك وعلى تمامه . قالوا : وإنما أفرِد كلُّ حرف من ذلك ، وقصَّر به عن تمام حروف الكلمة ، أن جميعَ حروف الكلمة لو أظهِرت ، لم تدلَّ الكلمة التى تُظهر — التى بعضُ هذه الحروف المقطعة بعضٌ لها — إلاَّ على معنى واحد لا على معنيين وأكثر منهما . قالوا : وإذْ كان لا دلالة فى ذلك ، لو أظهر جميعها ، إلاّ على معناها الذى هو معنى واحدٌ ، وكان الله جل ثناؤه قد أراد الدلالة بكلّ حرف منها على معان كثيرة لشىء واحد — لم يَجُزْ إلاّ أن يُفرَد الحرفُ الدالُّ على تلك المعانى ، ليعلمَ المخاطبون به أنّ الله عز وجل لم يقصد قصد مَعنًى واحدٍ ودلالةٍ على شىء واحد بما خاطبهم به ، وأنه إنما قصد الدلالةَ به على أشياء كثيرة . قالوا : فالألف من « ألم » مقتضيةٌ معانىَ كثيرةً ، منها تمامُ اسم الربّ الذى هو « الله » ، وتمامُ اسم نعماء الله التى هى آلاء الله ، والدلالةَ على أجَلِ قومٍ أنه سنة ، إذ كانت الألف فى حساب الجُمَّل واحداً . واللام مقتضيةٌ تمامَ اسم الله الذى هو لطيف ، وتمامَ اسم فَضْله الذى هو لُطفٌ ، والدلالةَ على أجَلِ قوم أنه ثلاثون سنة . والميم مقتضيةٌ تمامَ اسم الله الذى هو مَجيد ، وتمامَ اسم عظمته التى هى مَجْد ، والدلالةَ على أجَلِ قوم أنه أربعون سنة . فكان معنى الكلام — فى تأويل قائلى القول الأول — أنّ الله جل ثناؤه افتتح كلامه بوَصْف نفسه بأنه العالِمُ الذى لا يخفى عليه شىء ، وَجعل ذلك لعباده مَنهجاً يسلكونه فى مُفتتح خطبهم ورسائلهم ومُهِمِّ أمورهم ، وابتلاءً منه لهم به ليستوجبوا به عظيمَ الثواب فى دار الجزاء ، كما افتتح بـ ﴿ الحمدُ لِله رَبِّ العالمين ﴾ ، و ﴿ الحمدُ لِله الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضَ ﴾ ، [سورة الأنعام : ١]

١/٧١

وما أشبه ذلك من السُّور التى جعل مفاتحها الحمدَ لنفسه ، وكما جعل مفاتحَ بَعضها تعظيمَ نفسه وإجلالها بالتسبيح ،كما قال جل ثناؤه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [سورة الإسراء : ١] ، وما أشبه ذلك من سائر سور القرآن ، التى جعل مفاتحَ بعضها تحميدَ نفسه ، ومفاتحَ بعضها تمجيدَها ، ومفاتح بعضها تعظيمَها وتنزيهها. فكذلك جَعل مفاتحَ السور الأخَر التى أوائلها بعضُ حروف المعجم ، مدائحَ نفسه ، أحياناً بالعلم ، وأحياناً بالعدل والإنصاف ، وأحياناً بالإفضال والإحسان ، بإيجاز واختصار ، ثم اقتصاصَ الأمور بعدَ ذلك .

وعلى هذا التأويل يجبُ أن يكون الألف واللام والميم فى أماكن الرفع ، مرفوعاً بعضُها ببعض ، دون قوله ﴿ذلك الكتاب﴾ ، ويكون « ذلك الكتاب » خبراً مبتدأ مُنقطِعاً عن مَعنى « ألم ». وكذلك « ذلك » فى تأويل قول قائل هذا القول الثانى ، مرفوعٌ بعضه ببعض ، وإن كان مخالفاً معناهُ معنى قول قائلى القول الأول .

وأما الذين قالوا : هنّ حروفٌ من حروف حساب الجُمَّل دون ما خالف ذلك من المعانى ، فإنهم قالوا : لا نعرف للحروف المقطَّعة معنًى يُفهم سوى حساب الجُمَّل ، وسوى تَهجِّى قول القائل : « ألم ». قالوا : وغيرُ جائز أن يخاطبَ الله جلّ ثناؤه عبادَه إلا بما يفهمون ويعقلون عنه . فلما كان ذلك كذلك — وكان قوله « ألم » لا يُعقَل لها وجهٌ تُوجَّه إليه ، إلا أحدِ الوجهين اللذين ذكرنا ، فبطل أحدُ وَجهيه، وهو أن يكون مُراداًبها تهجِّى « ألم » —صحّ وثبت أنه مرادٌبه الوجه الثانى ، وهو حساب الجُمَّل ، لأن قول القائل: « ألم » لا يجوز أن يليَه من الكلام « ذلك الكتاب » ، لاستحالة معنى الكلام وخرُوجه عن المعقول ،إنْ وَلِىَ « ألم » « ذلك الكتاب » .

واحتجوا لقولهم ذلك أيضاً بما : —

٢٤٦ — حدثنا به محمد بن حُميد الرازى ، قال : حدثنا سَلَمة بن الفضل ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، قال : حدثنى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، عن جابر بن عبد الله بن رِئاب ، قال : مرَّ

أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ، فأتى أخاه حُيَيَّ بنَ أخطب من يهودَ فقال : تعلمون والله[1] ، لقد سمعتُ محمداً يتلو فيما أنزل الله عز وجل عليه ﴿الم ذلك الكتاب﴾ فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم ! قال : فمشى حُيَيٌّ بن أخطبَ فى أولئك النَّفر من يهودَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد، ألمْ يذكَرْ لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك « الم ذلك الكتاب » ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ! فقالوا : أجاءك بهذا جبريلُ من عند الله ؟[2] قال : نعم ! قالوا : لقد بعث الله جل ثناؤه قبلك أنبياء ، ما نعلمه بيَّن لنبىٍّ منهم ، ما مدَّةُ ملكه وما أكْلُ أمَّته غيرَك ![3] فقال : حُيَيَّ بن أخطب ، وأقبلَ على من كان معه فقال لهم : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدَى وسبعون سنة . أفتدخلون فى دين نبىَّ إنما مدَّة مُلكه وأكْلُ أمَّته إحدى وسبعون سنة[4] ؟ قال : ثم أقبلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، هل مع هذا غيرُه ؟ قال : نعم ! قال : ماذا ؟ قال : ﴿المص﴾ . قال : هذه أثقلُ وأطولُ ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه مئة وإحدى وستون سنة . هل مَع هذا يا محمَّد غيره ، قال : نعم ! قال : ماذا ؟ قال : ﴿الر﴾ . قال : هذه والله أثقلُ وأطولُ . الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مئتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومئتا سنة ، فقال : هل مع هذا غيرُه يا محمد ؟ قال : نعم ، ﴿المر﴾ ، قال : فهذه

٧٢/١

---

(١) هكذا فى المطبوعة والمخطوطة : «تعلمون» ، ونص محمد بن إسحاق ، سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٤ . « تعلموا » بتشديد اللام ، أى اعلموا . وهى كثيرة الورود فى سيرة ابن هشام وغيره .

(٢) الذى فى سيرة ابن هشام : « أجاءك بها جبريل من عند الله » .

(٣) فى المطبوعة ، وفى سائر الكتب التى خرجت الخبر عن الطبرى : « ما أجل » .

(٤) فى المطبوعة « قال ، فقال لهم : أتدخلون . . . » و « أجل أمته » والتصحيح من المخطوطة وابن هشام . والأكل (بضم فسكون) : الرزق . يقال : هو عظيم الأكل فى الدنيا ، أى واسع الرزق ، وهو الحظ من الدنيا ، كأنه يؤكل . ويراد به : مدة العمر التى يعيشها الناس فى الدنيا يأكلون ما رزقهم الله . فيقال للميت : انقطع أكله ، بمعنى : انقضى عمره .

والله أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مئتان ، فهذه إحدى وسبعون ومئتا سنة . ثم قال : لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمد ، حتى ما ندرى أقليلا أعطيتَ أم كثيراً ؟ ثم قاموا عنه . فقال أبو ياسر لأخيه حُيي بن أخطب، ولمن معه من الأحبار : ما يُدْريكم لعلَّه قد جُمِع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومئة ، ومئتان وإحدى وثلاثون ، ومئتان وإحدى وسبعون ، فذلك سبعمئة سنة وأربع وثلاثون ! فقالوا : لقد تشابه علينا أمره ! ويزعمون أنّ هؤلاء الآيات نزلت فيهم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[1] [سورة آل عمران : ٧] .

---

(١) الحديث ٢٤٦ — هذا حديث ضعيف الإسناد ، رواه محمد بن إسحق بهذا الإسناد الضعيف ، وبأسانيد أخر ضعاف :

فرواه فى السيرة ، التى هذبها عبد الملك بن هشام النحوى البصرى ، ورواها عن زياد بن عبد الله البكائى عن ابن إسحق ، وعرفت واشتهرت بأنها « سيرة ابن هشام » . وابن هشام هذا : ثقة، وثقه ابن يونس وغيره ، مات سنة ٢١٨ . وشيخه زياد البكائى : ثقة، من شيوخ أحمد . و« البكائى » ، بفتح الباء وتشديد الكاف : نسبة إلى « البكاء » ، وهو : ربيعة بن عامر بن صعصعة .

فقال ابن هشام ٢ : ١٩٤ — ١٩٥ (٢ : ٣٥ — ٣٧ من الروض الأنف شرح السيرة) : قال ابن إسحق : وكان ممن نزل فيه القرآن بخاصة من الأحبار وكفار يهود ، الذين كانوا يسألونه ويتعنتونه ، ليلبسوا الحق بالباطل ، فيما ذكر لى عن عبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله بن رئاب : أن أبا ياسر ابن أخطب مر برسول الله صلى الله عليه وسلم . . . . » .

فهذا إسناد ضعيف ، جهله ابن إسحق ، فجاء به معلقاً بصيغة التمريض . وفيه أن الرواية عن ابن عباس وجابر ، معاً .

ورواه البخارى فى التاريخ الكبير ، فى ترجمة « جابر بن عبد الله بن رئاب » ١ / ٢ / ٢٠٧ — ٢٠٨ بثلاثة أسانيد ، بعادته الدقيقة المتقنة ، فى الإيجاز والإشارة إلى الأسانيد وعللها :

وأولها : « حدثنى عمرو بن زرارة ، قال : حدثنا زياد : قال ابن إسحق : حدثنى مولى لزيد بن ثابت عن سعيد بن جبير وعكرمة ، عن عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله : أن أبا ياسر بن أخطب مر بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يتلو (الم . ذلك الكتاب) » .

فهذه هى إشارة البخارى إلى الإسناد الأول من الثلاثة الأسانيد .

و « زياد » فى هذا الإسناد : هو البكائى . فهذا إسناد صحيح إلى ابن إسحق . ولكن فيه الضعف بجهالة أحد رواته « مولى لزيد بن ثابت » . وهو كإسناد السيرة : عن ابن عباس وجابر معاً . ولعل عمرو ابن زرارة — شيخ البخارى — روى السيرة عن البكائى ، كما رواها عنه ابن هشام .

وثانيها : « وقال سلمة : حدثنى ابن إسحق ، قال : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو

. . . .

سعيد ، عن ابن عباس : (الم . ذلك الكتاب) — بطوله » .

وهذه إشارة البخارى إلى الإسناد الثانى . يريد أنه رواه سلمة — وهو ابن الفضل الذى فى إسناد الطبرى هنا — عن ابن إسحق . ولم يذكر لفظ الحديث ، اكتفاء بهذه الإشارة إليه .

وابن إسحق — فى هذا الإسناد — يرويه عن « محمد بن أبى محمد » ، وهو الأنصارى المدنى ، مولى زيد بن ثابت . زعم الذهبى فى الميزان أنه « لا يعرف » ! وهو معروف ، ترجمه البخارى فى الكبير ١/١/٢٢٥ فلم يذكر فيه جرحاً ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وكفى بذلك معرفة وتوثيقاً . ولعله هو « مولى زيد بن ثابت » الذى أبهم فى الإسناد الأول . ولكن اضطرب هذا الإسناد على ابن إسحق ، أو على سلمة بن الفضل — فكانت الرواية فيه : عن عكرمة ، أو سعيد ، يعنى ابن جبير ، على الشك . ثم كانت عن ابن عباس ، دون ذكر « جابر بن عبدالله بن رئاب » .

ثالثها : « وعن ابن إسحق : كان مما نزل فيه القرآن من الأحبار ، فيما حدثنى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، عن جابر بن عبد الله بن رئاب : مر أبو ياسر بن أخطب بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يتلو (الم) ، بطوله — فى الحساب » .

وهذه الرواية الثالثة ، بالإسناد الذى عند الطبرى هنا . تابعة للرواية الثانية ، عن سلمة بن الفضل ، عطفها عليها بقوله « وعن ابن إسحق » ، ليست تعليقاً جديداً .

وأشار البخارى — بصنيعه هذا — إلى اضطراب الرواية على سلمة بن الفضل ، بين هذا وذاك . ولذلك ذهب إلى جرح « سلمة » بهذا الاضطراب ، فقال عقب ذلك : « قال على [يريد به شيخه على بن المدينى ، إمام الجرح والتعديل] : ما خرجنا من الرى حتى رمينا بحديث سلمة » .

وقال فى ترجمة سلمة ٢ / ٢ / ٨٥ : « سلمة بن الفضل أبو عبد الله الأبرش الرازى الأنصارى ، سمع محمد بن إسحق ، روى عنه عبد الله بن محمد الجعفى . عنده مناكير . يقال : مولاهم . مات بعد التسعين. وهنه على » ، يعنى شيخه ابن المدينى . ويعنى أن سلمة مات بعد سنة ١٩٠ . وقال فى التاريخ الصغير ص ٢١٧ : « مات سلمة بن الفضل أبو عبد الله الأبرش الرازى الأنصارى بعد تسعين ومائة . قال على [يعنى ابن المدينى] : رمينا بحديثه قبل أن نخرج من الرى . وضعفه إسحق بن إبراهيم » . وقال فى ترجمته أيضاً ، فى كتاب الضعفاء (ص ١٦) : « سمع محمد بن إسحق ، روى عنه عبد الله بن عمر بن أبان ومحمد بن حميد . ولكن عنده مناكير . وفيه نظر » .

وأنا أذهب إلى توثيق سلمة بن الفضل ، فقد وثقه ابن معين ، فيما رواه ابن أبى حاتم فى كتابه ، وله عنده ترجمة جيدة وافية ٢/١/١٦٨ — ١٦٩ . وروى أيضاً عن جرير ، قال : « ليس من لدن بغداد إلى أن تبلغ خراسان أثبت فى ابن إسحق — من سلمة بن الفضل » . وقد رجحت توثيقه أيضاً فى شرح المسند : ٨٨٦ .

وعندى أن هذا الاضطراب إنما هو من ابن إسحق ، أو لعله رواه بهذه الأسانيد كما سمعه . وكلها ضعيف مضطرب . وأشدها ضعفاً الرواية التى هنا ، والتى أشار إليها البخارى : من رواية الكلبى عن أبى صالح .

ولله در الحافظ ابن كثير ، فقد وضع الحق موضعه ، حين قال فى التفسير ١ : ٦٩ — ٧٠ : « وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم — فقد ادعى ما ليس له ، وطار فى غير مطاره ! وقد ورد فى ذلك حديث ضعيف ، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا

قالوا : فقد صرّح هذا الخبر بصحة ما قلنا فى ذلك من التأويل ، وفساد ما قاله مخالفونا فيه .

والصواب من القول عندى فى تأويل مفاتيح السور ، التى هى حروف المعجم : أنّ الله جلّ ثناؤه جعلَها حروفاً مقطّعة ولم يصِل بعضَها ببعض — فيجعلها كسائر الكلام المتّصِل الحروف — لأنه عز ذكره أراد بلفظِه الدلالةَ بكل حرف منه على معان كثيرة ، لا على معنى واحد ، كما قال الربيعُ بن أنس . وإن كان الربيع قد اقتصَرَ به على معانٍ ثلاثةٍ ، دون ما زاد عليها .

والصوابُ فى تأويل ذلك عندى : أنّ كلّ حرف منه يحوى ما قاله الربيع ، وما قاله سائر المفسرين غيرُه فيه — سوى ما ذكرتُ من القول عمَّن ذكرت عنه من أهل العربية : أنه كان يوجِّه تأويلَ ذلك إلى أنّه حروف هجاء ، استُغنى

المسلك من التمسك به على صحته » . ثم نقل هذا الحديث من هذا الموضع من الطبرى — ثم قال : « فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبى ، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به ، ثم كان مقتضى هذا المسلك — إن كان صحيحاً : أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التى ذكرناها . وذلك يبلغ منه جملة كثيرة . وإن حسبت مع التكرار ، فأطم وأعظم ! ! » .

ومحمد بن السائب الكلبى : ضعيف جدا ، رمى بالكذب ، بل روى ابن أبى حاتم فى الجرح ٣/١/ ٢٧٠ — ٢٧١ فى ترجمته ، عن أبى عاصم النبيل ، قال : « زعم لى سفيان الثورى قال : قال لنا الكلبى : ما حدثت عنى عن أبى صالح عن ابن عباس ، فهو كذب ، فلا ترووه » . وقال أبو حاتم : « الناس مجتمعون على ترك حديثه ، لا يشتغل به ، هو ذاهب الحديث » .

والطبرى نفسه قد ضعفه جدا ، فيما مضى : ٦٦ إذ أشار إلى رواية عن ابن عباس : « روى جميع ذلك عن ابن عباس ، وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله » ، ثم ذكر أن الذى روى ذلك « الكلبى عن أبى صالح » . ووصف الحديث : ٧٢ الذى رواه من طريقه ، بأنه « خبر فى إسناده نظر » .

فكان عجباً منه بعد هذا ، أن يحتج بهذه الروايات المتهافتة ، ويرضى هذا التأويل المستنكر ، بحساب الجمل ! إذ يختار فيما سيأتى (هذه الصفحة سطر : ٨ وما بعدها) ، أن هذه الأحرف تحوى سائر المعانى التى حكاها إلا قولا واحداً غير هذا المعنى المنكر . بل هو يصرح بعد ذلك ص : ٢٢٢ سطر : ٨ أن من المعانى التى ارتضاها : أنهن « من حروف حساب الجمل » ! !

وقد نقل السيوطى هذا الحديث فى الدر المنثور ١ : ٢٢ ، و ٢ : ٤ — ٥ ، ووصفه فى الموضع الأول بالضعف . وكذلك نقله الشوكانى ١ : ٢٠ ، وضعفه .

وقوله فى آخره : « ويزعمون أن هؤلاء الآيات . . . » — هو من تتمة الرواية . وهو من كلام ابن إسحق حكاية عمن روى عنهم .

يذكر ما ذُكر منه فى مفاتيح السور ، عن ذكر تتمة الثمانية والعشرون حرفاً من حروف المعجم ، بتأويل: أن هذه الحروف ، ذلك الكتاب ، مجموعة ، لاريب فيه — فإنه قول خطأ فاسدٌ ، لخروجه عن أقوال جميع الصحابة والتابعين وَمن بَعدَهم من الخالفين منْ أهل التفسير والتأويل[1] . فكفى دلالة على خطئه ، شهادةُ الحجة عليه بالخطأ ، مع إبطال قائل ذلك قولَه الذى حكينا عنه — إذ صار إلى البيان عن رفع « ذلك الكتاب » — بقوله مرّة إنه مرفوعٌ كلٌّ واحد منهما بصاحبه ، ومرة أخرى إنه مرفوعٌ بالرّاجع من ذكره فى قوله « لا ريب فيه » ، ومرة بقوله « هدى للمتقين » . وذلك تركٌ منه لقوله : إن « ألم » رافعةٌ « ذلك الكتاب » ، وخروجٌ من القول الذى ادّعاه فى تأويل « ألم ذلك الكتاب » ، وأنّ تأويل ذلك : هذه الحروف ذلك الكتاب .

فإن قال لنا قائل : وكيفَ يجوز أن يكون حرفٌ واحدٌ شاملاً الدلالةَ على معانٍ كثيرة مختلفة ؟

قيل : كما جاز أن تكون كلمة واحدةٌ تشتمل على معانٍ كثيرة مختلفةٍ ، ٧٣/١ كقولهم للجماعة من الناس : أمّة ، وللحين من الزمان: أمّة ، وللرجل المتعبِّد المطيع لله : أمّة ، وللدين والملة : أمّة . وكقولهم للجزاء والقصاص : دِين ، وللسلطان والطاعة : دين ، وللتذلل : دين ، وللحساب: دِينٌ ، فى أشباهٍ لذلك كثيرةٍ يطول الكتاب بإحصائها — مما يكون من الكلام بلفظ واحد ، وهو مشتمل على معانٍ كثيرةٍ . وكذلك قول الله جل ثناؤه : « ألم » و « ألر » و« ألمص » وما أشبه ذلك من حروف المعجم التى هى فواتح أوائل السور ، كلّ حرفٍ منها دالّ على معانٍ شتى ، شاملٌ جميعُها من أسماء الله عزّ وجل وصفاته ما قاله المفسِّرُون من الأقوال التى ذكرنا عنهم . وهنّ ، مع ذلك ، فواتح السور ، كما قاله من قال ذلك . وليسَ

---

(١) الخالفين جمع خالف . خلف قوم بعد قوم يخلفون خلفاً فهم خالفون : جاءوا بعدهم وتبعوهم على آثارهم . تقول : أنا خالِفه وخالِفته : أى جئت بعده .

كونُ ذلك من حُروف أسماء الله جل ثناؤه وصفاتِه ، بمانعها أنْ تكون للسُّور فواتح . لأن الله جلّ ثناؤه قد افتتح كثيراً من سوَر القرآن بالحمد لنفسه والثناءِ عليها ، وكثيراً منها بتمجيدها وتعظيمها ، فغيرُ مستحيل أن يبتدئ بعض ذلك بالقسم بها .

فالتى ابتُدِئ أوائلُها بحرُوف المعجم، أحدُ مَعانى أوائلها : أنهنّ فواتحُ ما افتتَح بهنّ من سُور القرآن . وهنّ مما أقسم بهن ، لأن أحدَ معانيهن أنّهنّ من حروف أسماء الله تعالى ذكرُه وصفاتِه، على ما قدّمنا البيان عنها ، ولا شك فى صحة معنى القسَم بالله وأسمائه وصفاته . وهنّ من حروف حساب الجُمَّل . وهنّ للسُّور التى افتتحت بهنّ شعارٌ وأسماء . فذلك يحوى مَعانىَ جميع ما وصفنا ، مما بيَّنا ، من وجوهه . لأن الله جلّ ثناؤه لو أراد بذلك ، أو بشىء منه ، الدلالةَ على معنًى واحد مما يحتمله ذلك [1] ، دون سائر المعانى غيره ، لأبان ذلك لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إبانةً غيرَ مشكلةٍ . إذْ كان جلّ ثناؤه إنما أنزل كتابه على رسوله صلى الله عليه وسلم ليُبيِّن لهم ما اختلفوا فيه . وفى تركه صلى الله عليه وسلم إبانةَ ذلك — أنه مرادٌ به من وُجوه تأويله البعضُ دون البعض — أوضحُ الدليل على أنه مُرادٌ به جميعُ وجوهه التى هو لها محتمل . إذ لم يكن مستحيلا فى العقل وجهٌ منها أن يكون من تأويله ومعناه ، كما كان غير مستحيل اجتماعُ المعانى الكثيرة للكلمة الواحدة ، باللفظ الواحد ، فى كلام واحد .

ومن أبىَ ما قلناه فى ذلك ، سُئِل الفرقَ بين ذلك ، وبين سائر الحروف التى تأتى بلفظ واحد ، مع اشتمالها على المعانى الكثيرة المختلفة ، كالأمّة والدين وما أشبه ذلك من الأسماء والأفعال . فلن يقول فى واحدٍ منْ ذلك قولا إلاّ ألزم فى الآخر مثله .

وكذلك يُسأل كلّ من تأوّل شيئاً من ذلك — على وجهٍ دُون الأوجه الأخَر

---

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « مما لا يحتمله ذلك » ، وهو محيل لمعناه .

التى وصفنا — عن البرهان على دَعْواه، من الوَجه الذى يجب التسليم له . ثم يُعارَض بقول مُخالفه فى ذلك ، ويسأل الفرقَ بينه وبينه : من أصْل ، أو مما يدل عليه أصْل . فلن يقولَ فى أحدهما قولا إلاّ أُلزم فى الآخر مثله .

وأما الذى زعم من النحويين : أنّ ذلك نظيرُ « بل » فى قول المنشد شعراً :

بل * ماهَاج أحزانًا وشجواً قد شَجَا

وأنه لا معنى له ، وإنما هو زيادة فى الكلام معناه الطَّرْح — فإنه أخطأ من وُجوه شَتَّى[1] :

أحدها : أنه وَصفَ اللهَ تعالى ذكره بأنه خاطب العرب بغير ما هوَ من لغتها ، وغير ما هو فى لغة أحد من الآدميين . إذْ كانت العربُ — وإن كانت قد كانتْ تفتتح أوائل إنشادها ما أنشدت من الشعر بـ « بل » — فإنه معلوم منها أنها لم تكن تبتدئُ شيئاً من كلامها بـ « الم » و « الر » و « المص » ، بمعنى ابتدائها ذلك بـ « بل » . وإذْ كان ذلك ليس من ابتدائها — وكان الله جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم من القرآن ، بما يعرفون من لغاتهم ، ويستعملون بينهم من منطقهم ، فى جميع آيه — فلا شك أن سبيل ما وصفنا من حروف المعجم ، التى افتُتِحت بها أوائل السور ، التى هنّ لها فواتح ، سَبيلُ سائر القرآن ، فى أنه لم يعدلْ بها عن لغاتِهم التى كانوا بها عارفين ، ولها بينهم فى منطقهم مستعملين . لأن ذلك لو كان معدولاً به عن سبيل لغاتِهم ومنطقهم ، كان خارجاً عن معنى الإبانة التى وصف الله عزّ وجل بها القرآن ، فقال تعالى ذكره : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [سورة الشعراء : ١٩٣ – ١٩٥] . وأنَّى يكون مُبيناً ما لا يعقله ولا يفهمه أحد من العالمين[2] ، فى قول قائل هذه المقالة ، ولا يُعْرَف فى منطق أحد من المخلوقين ، فى قوله ؟ وفى إخبار الله جَلّ ثناؤه عنه أنه عربى مبين ، ما يُكذِّب هذه المقالة ، وينبئ عنه أنّ العربَ كانوا به

١/٧٤

(١) انظر ما مضى : ٢١٠ .

(٢) فى المطبوعة : « ما لا يعقله ولا يفقهه » .

عالمين ، وهو لها مُستبينٌ . فذلك أحدُ أوجه خطئه .

والوجه الثانى من خطئه فى ذلك : إضافته إلى الله جلّ ثناؤه أنه خاطب عباده بما لا فائدة لهم فيه ولا معنى له ، من الكلام الذى سواءٌ الخطابُ فيه به وترك الخطاب به . وذلك إضافة العبث الذى هو منفىٌّ فى قول جميع الموحِّدين عن الله — إلى الله تعالى ذكره .

والوجهُ الثالث من خطئه : أن «بل» فى كلام العرب مفهومٌ تأويلها ومعناها ، وأنها تُدْخلها فى كلامها رجوعاً عن كلامٍ لها قد تَقضَّى ، كقولهم : ما جاءنى أخوك بل أبوك ، وما رأيتُ عمراً بل عبد الله ، وما أشبه ذلك من الكلام ، كما قال أعشى بنى ثعلبة :

وَلأَشْرَبَنَّ ثَمَانِيـــاً وثَمانِياً ... وثَلاثَ عَشْرَةَ واثْنَتَيْنِ وأَرْبَعَا[1]

ومضَى فى كلمته حتى بلغ قوله :

بالجُلَّســانِ ، وطَيِّبٌ أَرْدَانُهُ ... بِالوَنِّ يَضْرِبُ لِى يَكُرُّ الإِصْبَعَا[2]

ثم قال :

بَلْ عَدِّ هٰذا ، فِى قَرِيضٍ غَيْرِهِ ... وَاذْكُرْ فَتًى سَمْحَ الخَلِيقَةِ أَرْوَعَا

فكأنه قال : دَعْ هذا وخذ فى قريض غيره . فـ « بل » إنما يأتى فى كلام العرب على هذا النحو من الكلام ، فأما افتتاحاً لكلامها مُبتدأ بمعنى التطوّل والحذف[3] ، من غير أن يدلّ على معنى ، فذلك مما لا نعلم أحداً ادعاه من أهل المعرفة بلسان العرب ومنطقها ، سوى الذى ذكرتُ قوله ، فيكون ذلك أصلا يشبَّه به حُرُوف المعجم التى هى فواتح سور القرآن التى افتتحت بها — لو كانت له مُشبهةً — فكيف وهى من الشبه به بعيد ؟

---

(١) ديوان الأعشى ، زيادات : ٢٤٨ ، باختلاف فى الرواية . وانظر مراجعه هناك .

(٢) الجلسان : قبة أو بيت ينثر فيه الورد والريحان للشرب . وقوله : « وطيب أردانه » يعنى قينة تغنيهم وتعزف لهم ، طيبة الريح ، تضمخت وتزينت . والأردان جمع ردن (بضم فسكون) : وهو مقدم كم القميص . والون : صنج يضرب بالأصابع . وقوله « يكر » أى يرد إصبعه مرة بعد مرة فى ضربه بالصنج ، وأراد به سرعة حركة أصابعها بالصنج . وفى المطبوعة « يكد » بالدال ، وهو خطأ .

(٣) انظر ما مضى : ١٨ تعليق : ٢ ، وعنى بالتطول : الزيادة .

* * *

القول فى تأويل قوله جَلّ ثناؤه : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ ﴾

قال عامّة المفسرين : تأويل قول الله تعالى ﴿ ذلك الكتاب ﴾ : هذا الكتاب .

ذكر من قال ذلك :

٢٤٧ — حدثني هرون بن إدريس الأصم الكوفيّ ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ، عن ابن جُريج ، عن مجاهد : «ذلك الكتاب» قال : هو هذا الكتاب .

٢٤٨ — حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن عُلَيّة ، قال : أخبرنا خالد الحذّاء ، عن عكرمة ، قال : «ذلك الكتاب» : هذا الكتاب .

٢٤٩ — حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا الحَكَم بن ظُهَير ، عن السُّدّى ، فى قوله «ذلك الكتاب» قال : هذا الكتاب [١] .

٢٥٠ — حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود . قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جُريج ، قوله : «ذلك الكتاب» : هذا الكتاب . قال : قال ابن عباس : «ذلك الكتاب» : هذا الكتاب [٢] .

فإن قال قائل : وكيف يجوزُ أن يكون «ذلك» بمعنى «هذا» ؟ و «هذا» لا شكّ إشارة إلى حاضر مُعايَن ، و«ذلك» إشارة إلى غائب غير حاضر ولا مُعايَن ؟

---

(١) الأثر ٢٤٩ — الحكم بن ظهير — بضم الظاء المعجمة — الفزارى ، أبو محمد بن أبى ليلى الكوفى : ضعيف جداً ، رمى بوضع الحديث . قال البخارى فى الكبير ١ /٢/٣٤٢ — ٣٤٣ : «تركوه منكر الحديث» . وقال ابن أبى حاتم فى الجرح ١/ ٢/ ١١٨—١١٩ عن أبى زرعة : «واهى الحديث» . وقال ابن حبان فى كتاب المجروحين ، رقم ٢٣٩ : «كان يشتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، يروى عن الثقات الأشياء الموضوعات» .

(٢) هذه الآثار جميعاً ٢٤٧ — ٢٥٠ ذكرها ابن كثير فى تفسيره ١ : ٧٠ ، والدر المنثور ١ : ٢٤ ، والشوكانى ١ : ٢١ .

قيل : جاز ذلك ، لأن كل ما تَقضَّى ، بقُرْبِ تَقضّيه من الإخبار[١] ، فهو — وإن صار بمعنى غيرِ الحاضر — فكالحاضر عند المخاطب . وذلك كالرجل يحدِّث الرجلَ الحديثَ فيقول السامع : « إن ذلك والله لكما قلت » ، و « هذا والله كما قلتَ » ، و « هو والله كما ذكرت » ، فيخبرُ عنه مَرَّة بمعنى الغائب ، إذْ كان قد تَقضَّى ومضى ، ومرة بمعنى الحاضر ، لقُرْب جوابه من كلام مخبره ، كأنه غير مُنْقَضٍ . فكذلك «ذلك» فى قوله ﴿ ذلك الكتاب ﴾ لأنه جلّ ذكره لما قدم قبلَ « ذلك الكتاب » « الم » ، التى ذكرنا تصرُّفَها فى وجُوهها من المعانى على ما وصفنا ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، هذا الذى ذكرته وبيَّنْتُه لك ، الكتابُ . ولذلك حَسن وضع « ذلك » فى مكان « هذا » ، لأنه أشير به إلى الخبر عما تضمنَّهُ قوله « الم » من المعانى ، بعد تقضّى الخبر عنه بـ « الم » ، فصار لقرب الخبر عنه من تقضّيه ، كالحاضر المشار إليه ، فأخبر به بـ « ذلك » لانقضائه ، ومصير الخبر عنه كالخبر عن الغائب ، وترجمهُ المفسِّرون[٢] : أنه بمعنى « هذا » ، لقرب الخبر عنه من انقضائه ، فكانَ كالمشاهَد المشار إليه بـ « هذا » ، نحو الذى وصفناه من الكلام الجارى بين الناس فى محاوراتهم ، وكما قال جل ذكره : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ * هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ [سورة ص : ٤٨ ، ٤٩] فهذا ما فى « ذلك » إذا عنى بها « هذا » .

وقد يحتمل قوله جل ذكره ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ، أن يكون معنيًّا به السُّوَرُ التى نزلت قبل سورة البقرة بمكة والمدينة ، فكأنه قال جلّ ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، اعلم أنّ ما تضمنَّتْه سُوَرُ الكتاب التى قد أنزلتها إليك ، هو الكتابُ الذى لا ريبَ فيه. ثم ترجمه المفسرون[٢] بأن معنى « ذلك » « هذ الكتاب» ،

---

(١) فى المطبوعة « وقرب تقضيه » . يريد : أن ذكر ما انقضى ، وانقضاؤه قريب من إخبارك عنه .

(٢) ترجمه : أى فسره المفسرون وبينوه بوضع حرف مكان حرف . انظر ما مضى ٧٠ تعليق ١ / ٩٣ : ٤ / ومواضع أخر .

إذْ كانت تلك السُّور التى نزلت قبل سورة البقرة ، من جملة جميع كتابنا هذا ، الذى أنزله الله عزّ وجل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان التأويل الأول أولى بما قاله المفسرون ، لأنّ ذلك أظهرُ معانى قولهم الذى قالوه فى « ذلك » .

وقد وَجَّه معنى « ذلك » بعضُهم ، إلى نظير معنى بيت خُفَاف بن نُدبة السُّلمىّ :

فَإن تَكُ خَيْلى قد أُصِيبَ صَمِيمُها فَعَمْدًا على عَيْنٍ تَيَمَّمْتُ مَالِكَا[1]

أقولُ له ، والرُّمحُ يأطِرُ مَتْنَــهُ : تأمَّل خُفَافًا ، إننى أنا ذلِكَا[2]

كأنه أراد : تأملنى أنا ذلك . فزعم أنّ « ذلك الكتاب » بمعنى « هذا » ، نظيرُه[3] . أظهر خفافٌ من اسمه على وجه الخبر عن الغائب ، وهو مخبر عن نفسه . فكذلك أظهر « ذلك » بمعنى الخبر عن الغائب[4] ، والمعنى فيه الإشارة إلى الحاضر المشاهَد .

والقول الأول أولى بتأويل الكتاب ، لماذا ذكرنا من العلل .

وقد قال بعضهم : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ، يعنى به التوراة والإنجيل ، وإذا وُجّه

---

(١) الأغانى ٢ : ١٣/٣٢٩ : ١٣٤ ، ١٦/١٣٥ : ١٣٤ ، والخزانة ٢ : ٤٧٠ ، وغيرهما ، ويأتى فى الطبرى ١ : ٣١٤ ، ٤٣٧ . يقول الشعر فى مقتل ابن عمه معاوية بن عمرو أخى الخنساء . ومالك ، هو مالك بن حِمَار الشمخى الفزارى . والخيل هنا : هم فرسان الغارة ، وكان معاوية وخفاف غزوَا بنى مرة وفزارة . والصميم : الخالص المحض من كل شىء . وأراد معاوية ومقتله يومئذ . ويقال : « فعلت هذا الأمر عمد عين ، وعمداً على عين » ، إذا تعمدته مواجهة بجد ويقين . وتيمم : قصد وأمّ .

(٢) « أقول له » ، يعنى لمالك بن حِمَار . وأطر الشىء يأطره أطراً : هو أن تقبض على أحد طرف الشىء ثم تعوجه وتعطفه وتثنيه . وأراد أن حر الطعنة جعله يتثنى من ألمها ، ثم ينحنى ليهوى صريعاً إذ أصاب الرمح مقتله . وأرى أن الإشارة فى هذا البيت إلى معنى غائب ، كأنه قال : « أنا ذلك الذى سمعت به وببأسه » . وهذا المعنى يخرج البيت عن أن يكون شاهداً على ما أراد الطبرى .

(٣) فى المطبوعة : « كأنه أراد : تأملنى أنا ذلك ، فرأى أن « ذلك الكتاب » بمعنى « هذا » نظير ما أظهر خفاف من اسمه . . . » ، وهو تغيير لا خير فيه .

(٤) فى المطبوعة : « فلذلك أظهر ذلك . . . » .

تأويل « ذلك » إلى هذا الوجه ، فلا مؤونة فيه على متأوِّله كذلك ، لأن « ذلك » يكون حينئذ إخباراً عن غائب على صحةٍ .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

وتأويل قوله : « لا ريب فيه » « لا شك فيه » . كما : —

٢٥١ — حدثنى هرون بن إدريس الأصم ، قال : حدثنا عبد الرحمن المحاربى عن ابن جُريج ، عن مجاهد : لا ريب فيه ، قال : لا شك فيه .

٢٥٢ — حدثنى سَلاَّم بن سالم الخزاعى ، قال : حدثنا خَلَف بن ياسين الكوفى ، عن عبد العزيز بن أبى رَوَّاد ، عن عطاء ، « لا ريب فيه » : قال : لا شك فيه[1] .

٢٥٣ — حدثنى أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا الحَكم بن ظُهَير ، عن السُّدِّىّ ، قال : « لا ريب فيه » ، لا شك فيه.

٢٥٤ — حدثنى موسى بن هرون الهَمْدانى ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرَّة الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ريب فيه » ، لا شك فيه .

٢٥٥ — حدثنا محمد بن حميد ، قال حدثنا سَلَمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ،

---

(١) الأثر ٢٥٢ — سلام ، شيخ الطبرى : لم أجد له ترجمة إلا فى تاريخ بغداد ٩ : ١٩٨ قال : « سلام بن سالم أبو مالك الخزاعى الضرير : حدث عن يزيد بن هرون ، وعمر بن سعيد التنوخى ، وموسى بن إبراهيم المروزى ، والفضل بن جبير الوراق . روى عنه الحسين بن إسمعيل المحاملى » . ليس غير . وأما شيخ سلام فى هذا الإسناد «خلف بن ياسين الكوفى» : فلم أجد إلا ترجمة فى الميزان ١ : ٢١١ ولسان الميزان ٢ : ٤٠٥ لراو اسمه « خلف بن ياسين بن معاذ الزيات » ، وهو رجل سخيف كذاب ، لا يشتغل به . لا أدرى أهو هذا أم غيره ؟

عن ابن عباس : « لا ريبَ فيه »، قال : لا شكَّ فيه .

٢٥٦ ــ حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : « لا ريب فيه »، يقول : لا شك فيه .

٢٥٧ ــ حدثنا الحسن بن يحيي ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة : « لا ريب فيه »، يقول : لا شك فيه .

٢٥٨ ــ حُدِّثت عن عمّار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : قوله « لا ريب فيه »، يقول : لا شك فيه[1] .

وهو مصدر من قول القائل : رابنى الشيء يَريبنى رَيباً . ومن ذلك قول ساعدة بن جُؤَيَّة الهذلىّ : ١/٧٦

فقالوا : تركْنَا الحيَّ قد حَصِرُوا به ، فلا رَيْبَ أنْ قد كان ثَمَّ لَحِيمُ[2]

ويروى : « حَصَرُوا » و« حَصِرُوا » والفتحُ أكثر، والكسر جائز . يعنى بقوله « حصروا به » : أطافوا به . ويعنى بقوله « لا ريب » . لا شك فيه . وبقوله « أن قد كان ثَمَّ لَحِيم »، يعنى قتيلا ، يقال : قد لُحِم ، إذا اقْتُل .

والهاء التى فى « فيه » عائدة على الكتاب ، كأنه قال : لا شك فى ذلك الكتاب أنه من عند الله هُدًى للمتقين .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ هُدًى ﴾

٢٥٩ ــ حدثنى أحمد بن حازم الغفارى ، قال : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا

---

(١) هذه الآثار جميعاً ٢٥١ – ٢٥٨ ساقها ابن كثير ١ : ٧١ ، وبعضها فى الدر المنثور ١ : ٢٤ ، والشوكانى ١ : ٢٢ . وقال ابن كثير بعد سياقتها : « قال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى هذا خلافاً » .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٢٣٢ ، واللسان (حصر) .

سفيان ، عن بيان ، عن الشعبى ، « هدًى » قال : هدًى من الضلالة[١] .

٢٦٠ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط بن نصر ، عن إسمعيل السدّى ، فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس وعن مرة الهمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، « هدى للمتقين » ، يقول : نور للمتقين[٢] .

والهدى فى هذا الموضع مصدرٌ من قولك : هديتُ فلاناً الطريق — إذا أرشدتَه إليه ، ودللتَه عليه ، وبينتَه له — أهديه هدًى وهداية .

فإن قال لنا قائل : أوَ ما كتابُ الله نوراً إلا للمتّقين ، ولا رَشاداً إلا للمؤمنين ؟

قيل : ذلك كما وصفه ربّنا عزّ وجل . ولو كان نوراً لغير المتقين ، ورشاداً لغير المؤمنين ، لم يخصُصِ الله عز وجل المتقين بأنه لهم هدًى ، بل كان يعُمّ به جميع المنذَرين . ولكنه هدًى للمتقين ، وشفاءٌ لما فى صدور المؤمنين ، ووَقْرٌ فى آذان المكذبين ، وعمًى لأبصار الجاحدين ، وحجةٌ لله بالغةٌ على الكافرين . فالمؤمن به مُهتدٍ ، والكافر به محجوجٌ[٣] .

وقوله « هدى » يحتمل أوجهاً من المعانى :

أحدُها : أن يكون نصباً ، لمعنى القطع من الكتاب ، لأنه نكرة والكتاب معرفة[٤] . فيكون التأويل حينئذ : ألم ذلك الكتاب هادياً للمتقين . و « ذلك » مرفوع بـ « ألم » ، و « ألم » به ، والكتابُ نعت لـ « ذلك » .

وقد يحتمل أن يكون نصباً ، على القطع من رَاجع ذكر الكتاب الذى فى

---

(١) الأثر ٢٥٩ — بيان ، بفتح الباء الموحدة والياء التحتية المخففة : هو ابن بشر الأحمسى ، ثقة من الثقات ، كما قال أحمد . وسفيان ، الراوى عنه : هو الثورى . وهذا الأثر نقله السيوطى ١ : ٢٤ ، ونسبه لوكيع والطبرى .

(٢) الخبر ٢٦٠ — نقله ابن كثير ١ : ٧١ ، ونقله السيوطى ١ : ٢٤ ، والشوكانى ١ : ٢٢ مع الخبر الآتى ٢٦٣ ، جعلاه خبراً واحداً ، وذكراه عن ابن مسعود فقط .

(٣) حجه يحجه فهو محجوج : غلبه بالحجة فهو مغلوب .

(٤) يريد بقوله « لمعنى القطع » ، أن يقطع عن نعت الكتاب ، ويصير حالا .

« فيه » ، فيكونُ معنى ذلك حينئذ : ألم الذى لا ريب فيه هادياً .

وقد يحتمل أن يكون أيضاً نصباً على هذين الوجهين ، أعنى على وجه القطع من الهاء التى فى « فيه »، ومن « الكتاب »، على أن « ألم » كلام تام، كما قال ابن عباس إنّ معناه: أنا الله أعلم. ثم يكون «ذلك الكتاب» خبراً مستأنفاً ، فيرفع حينئذ «الكتاب» بـ «ذلك»، و «ذلك» بـ «الكتاب»، ويكون «هُدًى» قطعاً من «الكتاب»، وعلى أن يرفع « ذلك » بالهاء العائدة عليه التى فى « فيه » ، و « الكتاب » نعتٌ له ؛ والهدى قطع من الهاء التى فى « فيه » . وإن جُعِل الهدى فى موضع رفع ، لم يجز أن يكون « ذلك الكتاب » إلا خبراً مستأنفاً ، و « ألم » كلاماً تامًّا مكتفياً بنفسه ، إلا من وجهٍ واحد، وهو أن يُرفع حينئذ «هُدًى» بمعنى المدح، كما قال الله جل وعز : ﴿ألم • تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ • هُدًى ورَحْمَةٌ للْمُحْسِنِين﴾ [سورة لقمان: ١-٣] فى قراءة من قرأ « رحمةٌ » . بالرفع ، على المدح للآيات .

والرفع فى « هدى » حينئذ يجوز من ثلاثة أوجه : أحدُها ما ذكرنا من أنه مَدْحٌ مستأنفٌ . والآخر : على أن يُجعل مُرافِعَ « ذلك »، و « الكتاب » نعتٌ «لذلك» . والثالث : أن يُجعل تابعاً لموضع «لا ريب فيه»، ويكون « ذلك الكتاب » مرفوعاً بالعائد فى « فيه » . فيكون كما قال تعالى ذكره : ﴿وهَذَا كِتَابٌ أنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [سورة الأنعام : ٩٢].

وقد زعم بعض المتقدّمين فى العلم بالعربية من الكوفيين ، أنّ «ألم» مرافعُ « ذلك الكتاب » بمعنى : هذه الحروف من حروف المعجم، ذلك الكتابُ الذى وعدتُك أن أوحيَه إليك[1] . ثم نقض ذلك من قوله فأسْرع نَقْضَه ، وهَدَم ما بنى فأسرع هَدْمَه ، فزعم أن الرفع فى «هُدًى» من وجهين ، والنصبَ من وجهين. وأنّ أحد وَجهى الرفع : أن يكون « الكتابُ » نعتاً لِـ «ذلك» و «الهدى» فى موضع رفعٍ خبرٌ لِـ «ذلك» .

---

(١) يعنى بصاحب هذا القول ، الفراء فى كتابه معانى القرآن ١ : ١٠ .

١/٧٧ كأنك قلت : ذلك هدًى لا شكَّ فيه[١] . قال : وإن جعلتَ « لا ريب فيه » خبرَه ، رفعتَ أيضاً « هدى » ، بجعله تابعاً لموضع « لا ريب فيه » ، كما قال الله جل ثناؤه : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ ، كأنه قال : وهذا كتابٌ هدًى من صفته كذا وكذا . قال : وأما أحدُ وجهي النَّصْب فأن تَجعَل الكتابَ خبراً لـ « ذلك » ، وتنصبَ «هدى » على القطع ، لأن « هدى » نكرة اتصلت بمعرفة ، وقد تمَّ خبرُها فنصبْتَها[٢] ، لأن النكرة لا تكون دليلا على معرفة. وإن شئت نصبت « هدى » على القطع من الهاء التي في « فيه » كأنك قلت : لا شك فيه هادياً[٣] .

قال أبو جعفر : فترك الأصل الذي أصَّله في « ألم » وأنها مرفوعة بـ « ذلك الكتاب » ، ونبذه وراء ظهرِه . واللازم كان له على الأصل الذي أصَّله ، أن لا يجيز الرَّفع في « هدى » بحالٍ إلا من وَجْه واحدٍ ، وذلك من قِبَلِ الاستئناف ، إذ كان مَدْحاً . فأما على وجه الخبر « لذلك » ، أو على وجه الإتباع لموضع « لا ريب فيه » ، فكان اللازم له على قوله أن يكون خطأ . وذلك أن « ألم » إذا رافعت « ذلك الكتاب » ، فلا شك أن « هدى » غيرُ جائز حينئذٍ أن يكون خبراً « لذلك » ، بمعنى المرافع له ، أو تابعاً لموضع « لا ريب فيه » ، لأن موضعه حينئذ نصبٌ ، لتمام الخبر قبلَه ، وانقطاعه — بمخالفته إيَّاه — عنه .

* * *

القول في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

٢٦١ — حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، عن سفيان ، عن رجل ، عن الحسن ، قوله : «للمتقين» قال : اتَّقَوْا ما حُرِّم عليهم ، وأدَّوا ما افتُرِض عليهم.

---

(١) في المطبوعة والمخطوطة « ذلك لا شك فيه » ، والتصحيح من معاني القرآن للفراء ١ : ١١ .

(٢) في المطبوعة « فتنصبها » ، والتصحيح من المخطوطة ومعاني القرآن للفراء .

(٣) انظر معاني القرآن للفراء ١ : ١١ — ١٢ .

٢٦٢ — حدثنا محمد بن حُميد ، قال : حدثنا سلَمة بن الفضل ، عن محمد ابن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « للمتقين » ، أي الذين يحذَرُون من الله عز وجل عقوبتَه في تَرْك ما يعرفون من الهُدى ، ويرجون رحمَته بالتَّصديق بما جاء به.

٢٦٣ — حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّي في خبر ذكره ، عن أبي مالك، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهَمْداني ، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « هدًى للمتقين » ، قال : هم المؤمنون .

٢٦٤ — حدثنا أبو كُريب ، قال : حدثنا أبو بكر بن عيّاش ، قال : سألني الأعمش عن « المتقين » ، قال : فأجبتُه ، فقال لي : سل عنها الكلْبِيّ . فسألتُه ، فقال : الذين يَجتنِبُون كبائرَ الإثم. قال : فرجَعْت إلى الأعمش ، فقال : نُرَى أنه كذلك . ولم ينكره .

٢٦٥ — حدثني المثنى بن إبراهيم الطبري ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ، قال حدثنا عمر أبو حفص ، عن سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة : « هدى للمتقين » ، هم مَنْ نعتَهم ووصفَهم فأثبت صفتهم ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾.

٢٦٦ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمَارة ، عن أبي رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « للمتقين » قال : للمؤمنين الذين يتَّقُون الشِّرك بي ، ويعملون بطاعتي[1] .

وأَوْلى التأويلات بقول الله جل ثناؤه ﴿ هدى للمتقين ﴾ ، تأويلُ من وصَف القومَ بأنهم الذين اتَّقوُا اللهَ تبارك وتعالى في ركوب ما نَهاهم عن ركوبه ، فتجنبوا

---

(١) الآثار ٢٦١ — ٢٦٦ ساقها جميعاً ابن كثير في تفسيره ١ : ٧١ — ٧٢ ، وبعضها في الدر المنثور ١ : ٢٤ ، والشوكاني ١ : ٢٢ .

معاصيَه ، واتَّقوْه فيما أمرهم به من فرائضه ، فأطاعوه بأدائها . وذلك أنّ الله عزّ وجلّ وصَفهم بالتقوَى ، فلم يحصُرْ تقواهم إياه على بعضٍ ما هو أهلٌ له منهم دون بعض[1] . فليس لأحد من الناس أن يحصُر معنى ذلك، على وَصْفهم بشيء من تَقوى الله عز وجل دون شيء ، إلا بحجة يجبُ التسليمُ لها . لأن ذلك من صفة القوم - لو كان محصوراً على خاصّ من معانى التقوى دون العامّ منها - لم يدعِ الله جل ثناؤه بيانَ ذلك لعباده : إما فى كتابه ، وإما على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذْ لم يكن فى العقل دليلٌ على استحالة وصفهم بعموم التقوى .

١/٧٨ فقد تبيّن إذاً بذلك فسادُ قول من زعم أن تأويل ذلك إنما هو : الذين اتَّقَوُا الشرك وبرئوا من النِّفاق . لأنه قد يكون كذلك ، وهو فاسقٌ غيرُ مستَحِق أن يكون من المتقين ، إلا أن يكون - عند قائل هذا القول - معنى النفاق : ركوبُ الفواحش التى حرَّمها الله جل ثناؤه ، وتضييعُ فرائضه التى فرضها عليه . فإن جماعةً من أهل العلم قد كانت تسمِّى من كان يفعل ذلك منافقاً . فيكون - وإن كان مخالفاً فى تسميته من كان كذلك بهذا الاسم - مصيباً تأويلَ قول الله عز وجل « للمتقين » .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾

٢٦٧ - حدثنا محمد بن حُميد الرازى ، قال : حدثنا سَلَمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « الذين يؤمنون » ، قال : يصدِّقون .

٢٦٨ - حدثنى يحيى بن عثمان بن صالح السَّهمى ، قال : حدثنا أبو صالح ،

---

(١) فى المطبوعة : « وذلك أن الله عز وجل إنما وصفهم » ، ولا فائدة من زيادة « إنما » . ثم جاء فى المخطوطة والمطبوعة : « فلم يحصر تقواهم إياه على بعضها من أهل منهم دون بعض » ؛ وهو كلام مختلط ، وصوابه ما أثبته ، وهو معنى الكلام كما ترى بعد .

قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « يؤمنون » : يصدّقون[١] .

٢٦٩ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « يؤمنون » : يخشَوْنَ .

٢٧٠ — حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، عن مَعْمَر ، قال : قال الزهرى : الإيمانُ العملُ[٢] .

٢٧١ — حُدِّثْتُ عن عمّار بن الحسن قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن العلاء بن المسيَّب بن رافع ، عن أبى إسحق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، قال : الإيمان التَّصْديق[٣] .

ومعنى الإيمان عند العرب : التصديق ، فيُدْعَى المصدِّق بالشىء قولا ، مؤمناً به ، ويُدْعى المصدِّق قولَه بفِعْله ، مؤمناً . ومن ذلك قول الله جل ثناؤه : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [سورة يوسف : ١٧] ، يعنى : وما أنت بمصدِّق لنا فى قولنا . وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان ، الذى هو تصديق القولِ بالعمل. والإيمان كلمة جامعةٌ الإقرارَ بالله وكتُبه ورسلِه ، وتصديقَ الإقرار بالفعل . وإذْ كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بتأويل الآية ، وأشبه بصفة القوم : أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغَيْبِ قولاً واعتقاداً وعملاً ، إذ كان جلّ ثناؤه لم يحصُرْهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى ، بل أجمل وصْفهم به ، من غير خُصوصِ شىء من معانيه أخرجَهُ من صفتهم بخبرٍ ولا عقلٍ .

---

(١) الأثر ٢٦٧ — سيأتى باقيه بهذا الإسناد : ٢٧٢ . ونقلهما ابن كثير ١ : ٧٣ مفرقين . ونقل ٢٦٨ مع أولهما . ونقل السيوطى ١ : ٢٥ الثلاثة مجتمعة .

(٢) الأثران ٢٦٩ — ٢٧٠ : ذكرهما ابن كثير ١ : ٧٣ .

(٣) الخبر ٢٧١ — عبد الله : هو ابن مسعود . وقد نقل ابن كثير هذا الخبر وحده ١ : ٧٣ ، ثم نقل الخبر الآتى ٢٧٣ وحده . وفصل إسناد كل واحد منهما . أما السيوطى ١ : ٢٥ فقد جمع اللفظين دون بيان ، وأدخل معهما لفظ الخبر ٢٧٧ ! وهو تصرف غير سديد ، لاختلاف الإسنادين أولا ، ولأن ٢٧٣ ، ٢٧٧ ليسا عن ابن مسعود وحده ، كما ترى .

* * *

القول فى تأويل قول الله جل ثناؤه : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾

٢٧٢ — حدثنا محمد بن حُميد الرازى ، قال : حدثنا سَلَمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « بالغيب » ، قال : بما جاء منه ، يعنى : من الله جل ثناؤه .

٢٧٣ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّىّ فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، « بالغيب » : أما الغيْبُ فما غابَ عن العباد من أمر الجنة وأمرِ النار ، وما ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن . لم يكن تصديقهُم بذلك — يعنى المؤمنين من العرب — من قِبَل أصْل كتابٍ أو عِلْم كان عندَهم .

٢٧٤ — حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزّبيرى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عاصم ، عن زِرّ ، قال : الغيبُ القرآن[1] .

٢٧٥ — حدثنا بشر بن مُعَاذ العَقَدى ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، عن سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة فى قوله « الذين يُؤمنون بالغيب » ، قال : آمنوا بالجنّة والنار ، والبَعْث بعدَ الموت ، وبيوم القيامة ، وكلُّ هذا غيبٌ[2] .

٢٧٦ — حُدِّثت عن عمّار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ،

---

(١) الأثر ٢٧٤ — سفيان : هو الثورى ، عاصم : هو ابن أبى النجود — بفتح النون — القارىء . زر ، بكسر الزاى وتشديد الراء : هو ابن حبيش ، بضم الحاء . وهو تابعى كبير إمام . وهذا الأثر عند ابن كثير ١ : ٧٣ — ٧٤ .

(٢) الأثر ٢٧٥ — ذكره ابن كثير والسيوطى أيضاً .

عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، « الذين يؤمنون بالغيب » : آمنوا بالله وملائكته ورُسُلِه واليومِ الآخِر ، وجَنّته وناره ولقائه ، وآمنوا بالحياة بعد الموت . فهذا كله غيب"[1] .

وأصل الغيب : كُلّ ما غاب عنك من شيءٍ . وهو من قولك : غاب فُلان يغيبُ غيباً .

٧٩/١

وقد اختلفَ أهلُ التأويل فى أعيان القوم الذين أنزل الله جل ثناؤه هاتين الآيتين من أول هذه السورة فيهم ، وفى نَعْتهم وصِفَتهم التى وَصَفهم بها ، من إيمانهم بالغيب ، وسائر المعانى التى حوتها الآيتان من صفاتهم غيرَه .

فقال بعضُهم : هم مؤمنو العربِ خاصة ، دون غيرهم من مؤمنى أهل الكتاب .

واستدَلُّوا على صحّة قولهم ذلك وحقيقة تأويلهم ، بالآية التى تتلو هاتين الآيتين ، وهو قول الله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ . قالوا : فلم يكن للعرب كتابٌ قبل الكتاب الذى أنزله الله عزّ وجلّ على محمد صلى الله عليه وسلم ، تَدينُ بتصديقِه والإقرارِ والعملِ به . وإنما كان الكتابُ لأهل الكتابين غيرِها . قالوا : فلما قصّ الله عز وجل نبأ الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبله — بعد اقتصاصه نبأ المؤمنين بالغيب — علمنا أن كلَّ صِنفٍ منهم غيرُ الصنف الآخر ، وأن المؤمنين بالغيب نوعٌ غيرُ النوع المصدِّق بالكتابين اللذين أحدهما مُنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم ، والآخرُ منهما على مَنْ قَبْلَ رسول الله[2] .

---

(١) الأثر ٢٧٦ — ذكره ابن كثير ١ : ٧٣ هكذا : « قال أبو جعفر الرازى عن الربيع ابن أنس عن أبى العالية . . . » . وذكره السيوطى ١ : ٢٥ هكذا : « وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية . . . » . فأخشى أن يكون ذكر « عن أبى العالية » سقط من الإسناد من نسخ الطبرى ، لثبوته عند هذين الناقلين عنه .

(٢) فى المخطوطة : « والآخر منهما على من قبله رسول الله » ، والظاهر أن صوابها : « على من قبل رسول الله » ، كما أثبتناها . وأما المطبوعة ففيها : « على من قبله من رسل الله تعالى ذكره » .

قالوا : وإذْ كان ذلك كذلك ، صحّ ما قلنا من أن تأويل قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ، إنما هم الذين يؤمنون بما غاب عنهم من الجنّة والنار ، والثّواب والعقاب والبعثِ ، والتصديقِ بالله وملائكته وكُتُبه ورسله ، وجميع ما كانت العرب لا تدينُ به في جاهليّتها ، مما أوجب الله جل ثناؤه على عِبَاده الدَّيْنُونة به — دون غيرهم .

ذكر من قال ذلك :

٢٧٧ — حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حمّاد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّيّ في خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهمداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أما ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ، فهم المؤمنون من العرب ، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ . أما الغَيْبُ فما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار ، وما ذكر الله في القرآن . لم يكن تصديقهم بذلك من قِبَل أصْلِ كتابٍ أو علمٍ كان عندهم . ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب[1] .

وقال بعضهم : بل نَزَلَتْ هذه الآيات الأربعُ في مؤمني أهل الكتاب خاصّةً . لإيمانهم بالقرآن عند إخبار الله جل ثناؤه إيّاهم فيه عن الغيوب التي كانوا يخفونها بينهم ويُسِرُّونها ، فعلموا عند إظهار الله جلّ ثناؤه نبيَّه صلى الله عليه وسلم على ذلك منهم في تنزيله ، أنه من عند الله جلّ وعز ، فآمَنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وصدّقوا بالقرآن وما فيه من الإخبار عن الغيوب التي لا علم لهم بها ، لِمَا استقرَّ عندهم — بالحجة التي احتج الله تبارك وتعالى بها عليهم في كتابه ، من الإخبار فيه عمّا كانوا يكتمونه من ضمائرهم — أنّ جميع ذلك من عند الله .

(١) الخبر ٢٧٧ — سبق أوله بهذا الإسناد : ٢٧٣ . ولم يذكره ابن كثير بهذا اللفظ المطول . وقد مضى في شرح ٢٧١ أن السيوطي جمع الألفاظ الثلاثة : ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ في سياقة واحدة !

وقال بعضهم : بل الآيات الأربعُ من أول هذه السورة ، أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم بوصفِ جميع المؤمنين الذين ذلك صِفَتُهم من العرب والعجم ، وأهل الكتابين وسِوَاهم[1] . وإنما هذه صفة صِنْفٍ من الناس ، والمؤمنُ بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزِل من قبله ، هو المؤمن بالغيب .

قالوا : وإنما وصَفهم الله بالإيمان بما أنزِل إلى محمد وبما أنزل إلى مَنْ قبله ، بعد تقضِّى وصفِهِ إياهم بالإيمان بالغيب ، لأنَّ وصفه إياهم بما وصَفهم به من الإيمان بالغيب ، كان معنيًّا به أنهم يؤمنون بالجنَّة والنار والبعث وسائر الأمور التى كلّفهم الله جل ثناؤه الإيمانَ بها ، مما لم يَرَوْه ولم يأت بعدُ مما هو آتٍ ، دون الإخبار عنهم أنّهم يؤمنون بما جاء به محمّدٌ صلى الله عليه وسلم ومَنْ قَبله من الرُّسل ومن الكتب . ٨٠/١

قالوا : فلما كان معنى قوله تعالى ذكره : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ غير موجود فى قوله ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ــ كانت الحاجة من العباد إلى معرفتهم صِفَتَهم بذلك ليعرفُوهم ، نظيرَ حاجتهم إلى معرفتهم بالصفة التى وُصِفوا بها من إيمانهم بالغيب ، ليعلموا ما يَرْضَى اللهُ من أفعالِ عِباده ويُحِبّه من صفاتهم ، فيكونوا به ــ إن وفّقهم له ربُّهم ــ [مؤمنين][2] .

ذكر من قال ذلك :

٢٧٨ ــ حدثنى محمد بن عمرو بن العباس الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مَخْلد ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون المكى ، قال : حدثنا عبد الله ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، قال : أربعُ آيات من سورة البقرة فى نعت المؤمنين ،

---

(١) فى المطبوعة والمخطوطة « وأهل الكتابين سواهم » ، والصواب أن يقال « وسواهم » . فقد ذكر الطبرى ثلاثة أقوال : أما الأول : فهو أن المعنى به العرب خاصة ، والثانى : أن المعنى به أهل الكتاب خاصة ، فيكون الثالث : أن يعنى به الصنفين جميعاً وسواهم من الناس .

(٢) هذه الزيادة بين القوسين واجبة لتمام المعنى . وليست فى المطبوعة ولا المخطوطة .

وآيتان فى نعت الكافرين ، وثلاثَ عَشْرَةَ فى المنافقين[١] .

٢٧٩ — حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، بمثله[٢] .

٢٨٠ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا موسى بن مسعود ، قال : حدثنا شِبْل ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، مثله[٣] .

٢٨١ — حُدِّثتُ عن عمّار بن الحسن قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : أربعُ آياتٍ من فاتحة هذه السورة — يعنى سورة البقرة — فى الذين آمنوا ، وآيتان فى قادة الأحزاب .

وأوْلى القولين عندى بالصواب ، وأشبههما بتأويل الكتاب ، القولُ الأول ، وهو : أنّ الذين وَصَفهم الله تعالى ذِكره بالإيمان بالغيب ، وبما وصفهم به جَلّ ثناؤه فى الآيتين الأوّلتَيْن[٤] ، غير الذين وصفهم بالإيمان بالذى أنزِل على محمد والذى أنزل على مَنْ قبله من الرسل ، لما ذكرت من العلل قبلُ لمن قال ذلك .

ومما يدلّ أيضاً مع ذلك على صحّة هذا القول ، أنه جنَّسَ — بعد وصف المؤمنين بالصِّفتين اللتين وَصَف ، وبعد تصنيفه كلّ صنف منهما على ما صنَّف الكفار —

---

(١) الأثر ٢٧٨ — أبو عاصم : هو النبيل ، الحافظ الكبير . عيسى بن ميمون المكى : هو المعروف بابن داية ، قال ابن عيينة : « كان قارئاً للقرآن . قرأ على ابن كثير » . وثقه أبو حاتم وغيره .

(٢) الأثر ٢٧٩ — هذا إسناد ضعيف ، بضعف سفيان بن وكيع ، ولإبهام الرجل الذى روى عنه سفيان الثورى . ولكن الأثر موصول بالإسنادين اللذين قبله وبعده .

(٣) الأثر ٢٨٠ — موسى بن مسعود : هو أبو حذيفة النهدى ، وهو ثقة ، روى عنه البخارى فى صحيحه ، ووثقه ابن سعد والعجلى . وترجمه البخارى فى الكبير ٤ / ١ / ٢٩٥ . شبل : هو ابن عباد المكى القارىء ، وهو ثقة ، وثقه أحمد وابن معين وغيرهما .

وهذا الأثر ، بأسانيده الثلاثة ، ذكره ابن كثير ١ : ٨٠ دون تفصيلها ، قال : « والظاهر قول مجاهد — فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد ، ورواه غير واحد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، أنه قال ... » .

(٤) الأولة : الأولى ، وليست خطأ .

جِنْسَيْن(١) : فجعل أحدهما مطبوعاً على قلبه ، مختوماً عليه ، مأيوساً من إيابه(٢) ، والآخرَ منافقاً ، يُرائى بإظهار الإيمان فى الظاهر ، ويستسرُّ النفاق فى الباطن . فصيَّر الكفار جنسَيْن ، كما صيَّر المؤمنين فى أول السورة جِنْسين. ثم عرَّف عباده نَعْتَ كلِّ صنف منهم وصِفَتَهم ، وما أعدَّ لكلِّ فريق منهم من ثواب أو عقاب ، وَذمَّ أهل الذّم منهم ، وشكرَ سَعْىَ أهل الطاعة منهم .

• • •

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَيُقِيمُونَ ﴾

وإقامتُها : أداؤها — بحدودها وفروضها والواجب فيها — على ما فُرِضَتْ عليهم . كما يقال : أقام القومُ سُوقَهم ، إذا لم يُعَطِّلوها من البَيع والشراء فيها ، وكما قال الشاعر :

أَقَمْنَا لِأَهْلِ العِرَاقَيْنِ سُوقَ الـ ... ـضِّرَابِ فَخَامُوا وَوَلَّوْا جَمِيعاً(٣)

٢٨٢ — وكما حدثنا محمد بن حميد، قال : حدثنا سَلَمة بن الفضل، عن محمد ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، « ويقيمون الصلاة » ، قال : الذين يقيمون الصلاةَ بفرُوضها .

٢٨٣ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عُمارة، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، «ويقيمون الصلاة» قال : إقامة

(١) سياقه : « جنَّس . . . جنسين » ، وما بينهما فصل ، وجنس الشىء : جعله أجناساً ، كصنفه أصنافاً .

(٢) فى المطبوعة : « إيمانه » ، وهى صحيحة المعنى أيضاً . والإياب : الرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة . ومنه قوله تعالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ »

(٣) فى المطبوعة « فحاسوا » ، وفى المخطوطة « مجآمرا » . وخام فى الحرب عن قرنه يخيم خيماً : جبن ونكص وانكسر . ولم أعرف قائل البيت .

الصلاة تمامُ الرُّكوع والسُّجود ، والتِّلاوةُ والخشوعُ ، والإقبالُ عليها فيها[١] .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ الصَّلَوٰةَ ﴾

٢٨٤ — حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا جُوَيْبر ، عن الضحاك فى قوله : «الذين يقيمون الصلاة» : يعنى الصلاة المفروضة[٢] .

وأما الصلاةُ فإنها فى كلام العرب الدُّعاءُ ، كما قال الأعشى :

لَهَا حَارِسٌ لا يبرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا وَإنْ ذُبِحَتْ صَلَّى عليْهَا وزَمْزَمَا[٣]

يعنى بذلك : دعا لها ، وكقول الأعشى أيضاً[٤] :

وَقَابَلَهَا الرِّيحَ فى دَنِّهَا وصَلَّى عَلَى دَنِّهَا وَارْتَسَمْ[٥]

(١) الخبران ٢٨٢ ، ٢٨٣ — فى تفسير ابن كثير ١ : ٧٧ ، والدر المنثور ١ : ٢٧ ، والشوكانى ١ : ٢٥ .

(٢) الأثر ٢٨٤ — إسناده ضعيف جداً . يحيى بن أبى طالب جعفر بن الزبرقان : قال الذهبى : « محدث مشهور . . . وثقه الدارقطنى وغيره . . . والدارقطنى من أخبر الناس به » . مات سنة ٢٧٥ عن ٩٥ سنة . يزيد : هو ابن هرون ، أحد الحفاظ الأعلام المشاهير ، من شيوخ الأئمة أحمد وابن معين وابن راهويه وابن المدينى . جويبر — بالتصغير : هو ابن سعيد الأزدى البلخى ، ضعيف جداً ، ضعفه يحيى القطان ، فيما روى عنه البخارى فى الكبير ١/٢/٢٥٦ ، والصغير : ١٧٦ ، وقال النسائى فى الضعفاء : ٨ « متروك الحديث » ، وفى التهذيب ٢ : ١٢٤ « قال أبو قدامة السرخسى : قال يحيى القطان : تساهلوا فى أخذ التفسير عن قوم لا يوثقونهم فى الحديث . ثم ذكر الضحاك وجويبراً ومحمد بن السائب . وقال : هؤلاء لا يحتمل حديثهم ، ويكتب التفسير عنهم » .

(٣) ديوانه : ٢٠٠ ، يذكر الخمر فى دنها . وزمزم العلج من الفرس : إذا تكلف الكلام عند الأكل وهو مطبق فمه بصوت خفى لا يكاد يفهم . وفعلهم ذلك هو الزمزمة . « ذبحت » أى بزلت وأزيل ختمها . وعندئذ يدعو مخافة أن تكون فاسدة ، فيخسر .

(٤) فى المطبوعة والمخطوطة : « وكقول الآخر أيضاً » ، والصواب أنه الأعشى ، وسبق قلم الناسخ .

(٥) ديوان الأعشى : ٢٩ . وقوله « وقابلها الريح » أى جعلها قبالة مهب الريح ، وذلك عند بزلها وإزالة ختمها . ويروى : « فأقبلها الريح » وهو مثله . وارتسم الرجل : كبر ودعا وتعوذ ، مخافة أن يجدها قد فسدت ، فتبور تجارته .

وأرى أن الصلاة المفروضة سُمِّيت «صلاة» ، لأنّ المصلِّى متعرِّض لاستنجاح ٨١/١
طَلِبَتِه من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل رَبَّه من حاجاته ، تعرُّضَ الداعى بدعائه
ربَّه استنجاحَ حاجاته وسؤلَه .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ﴿٣﴾

اختلف المفسرون فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم بما :—

٢٨٥ — حدثنا به ابن حُميد ، قال : حدثنا سَلَمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، « ومما رزقناهم ينفقون » ، قال : يؤتون الزكاة احتساباً بها .

٢٨٦ — حدثنى المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، « ومما رزقناهم ينفقون » ، قال : زكاةَ أموالهم[1] .

٢٨٧ — حدثنى يحيى بن أبى طالب ، قال : حدثنا يزيد ، قال : أخبرنا جُوَيْبر ، عن الضحاك ، «ومما رزقناهم يُنفقون» ، قال : كانت النفقات قُرُبات يتقرَّبون بها إلى الله على قدر ميسورهم وجُهْدهم ، حتى نَزَلت فرائضُ الصدقات : سبعُ آيات فى سورة براءة ، مما يذكر فيهنّ الصدقات ، هنّ المُثْبَتات الناسخات[2] .

وقال بعضهم بما :—

٢٨٨ — حدثنى موسى بن هرون قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرَّة الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب

---

(١) الخبر ٢٨٦ — فى المخطوطة « ابن المثنى » ، وهو خطأ . والخبر ذكره ابن كثير ١ : ٧٧ .

(٢) الأثر ٢٨٧ — ذكره ابن كثير ١ : ٧٧ ، والسيوطى ١ : ٢٧ ، والشوكانى ١ : ٢٥ . وقوله « المثبتات » : بفتح الباء ، أى التى أثبت حكمها ولم ينسخ ، ويجوز كسرها ، بمعنى أنها أثبتت الفريضة بعد نسخها ما سبقها فى النزول . وبدلها عند السيوطى والشوكانى « الناسخات المبينات » . وليس بشىء .

النبي صلى الله عليه وسلم ، « ومما رَزقناهم ينفقون»: هى نفقةُ الرّجل على أهله. وهذا قبل أن تنزِل الزكاة[1] .

وأوْلى التأويلات بالآية وأحقُّها بصفة القوم : أن يكونوا كانوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم ، مؤدِّين ، زكاةً كان ذلك أو نفقةَ مَنْ لزمتْه نفقتُه ، من أهل وعيال وغيرهم، ممن تجب عليهم نفقتُه بالقرابة والمِلك وغير ذلك . لأن الله جل ثناؤه عمّ وصفهم إذْ وصَفهم بالإنفاق مما رزقهم ، فمدحهم بذلك من صفتهم. فكان معلوماً أنه إذ لم يخصُصْ مدْحَهم ووصفَهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبُها دونَ نوعٍ بخبر ولا غيره — أنهم موصوفون بجميع معانى النفقات المحمودِ عليها صاحبُها من طيِّب ما رزقهم ربُّهم من أموالهم وأملاكهم، وذلك الحلالُ منه الذى لم يَشُبْهُ حرامٌ .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

قد مضى البيان عن المنعوتين بهذا النعت ، وأى أجناس الناس هم[2] : غيرَ أنَّا نذكر ما رُوى فى ذلك عمن روى عنه فى تأويله قولٌ :

٢٨٩ — فحدثنا ابن حُميد، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس، « والذين يؤمنون بما أنزِل إليك وما أنزل من قبلك » : أى يصدّقونك

---

(١) الخبر ٢٨٨ — نقله ابن كثير أيضاً . ونقله السيوطى مختصراً ، وجعله من كلام ابن مسعود وحده . وقلده الشوكانى دون بحث .

(٢) انظر ٢٣٧-٢٤١ .

بما جئت به من الله جلّ وعز وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين ، لا يفرّقون بينهم ، ولا يجْحَدون ما جاؤهم به من عند ربهم[١] .

٢٩٠ — حدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّىّ فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » : هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب[٢] .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤)

قال أبو جعفر : أما الآخرةُ فإنها صفة للدار ، كما قال جل ثناؤه ﴿ وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٦٤] . وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخرةً لأولى كانت قبلها ، كما تقول للرجل : « أنعمتُ عليك مرّة بعد أخرى ، فلم تشكر لى الأولى ولا الآخرة » ، وإنما صارت آخرة للأولى ، لتقدُّم الأولى أمامها . فكذلك الدارُ الآخرة ، سُمِّيت آخرةً لتقدُّم الدار الأولى أمامها ، فصارت التاليةُ لها آخرةً . وقد يجوز أن تكون سُمِّيت آخرةً لتأخُّرها عن الخلق ، كما سميت الدنيا « دنيا » لِدُنُوِّها من الخلق .

٨٢/١

(١) الخبر ٢٨٩ — ذكره ابن كثير ١ : ٧٩ مع باقيه الآتى : ٢٩١ . وذكره السيوطى ١ : ٢٧ ، والشوكانى ١ : ٢٥ بزيادة أخرى على الروايتين ، منسوباً لابن إسحق وابن جرير وابن أبى حاتم .

(٢) الخبر ٢٩٠ — وهذا ذكره ابن كثير أيضاً ، لكن بالإشارة إليه دون سياقة لفظه . وقلده الشوكانى .

وعلى الأصل المخطوط بعد هذا ما نصه

سمع أحمد ومحمد والحسن ، بنو عبد الله بن أحمد الفرغانى جميعه .

سمع محمد بن محمد الطرسوسى والحسن بنو محمد بن عبدان ، والحسن بن إبراهيم الحماس جميعه . والحمد لله كثيراً .

وأما الذى وَصَف الله جل ثناؤه به المؤمنين — بما أنزل إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إلى مَن قبله من المرسلين — من إيقانهم به من أمر الآخرة ، فهو إيقانهم بما كان المشركون به جاحدين : من البَعْث والنُّشور والثواب والعقاب والحساب والميزان ، وغير ذلك مما أعد الله لخلقه يومَ القيامة . كما :—

٢٩١— حدثنا به محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ : أى بالبَعْث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان ، أىْ ، لا هؤلاء الذين يزعمون أنَّهم آمنوا بما كان قبلك ، ويكفرون بما جاءك من ربك[1] .

وهذا التأويل من ابن عباس قد صرَّح عن أنّ السورة من أولها — وإن كانت الآيات التى فى أولها من نعت المؤمنين — تعريضٌ من الله عزّ وجل بذمّ كُفّار أهلِ الكتاب ، الذين زعموا أنّهم — بما جاءت به رُسُل الله عز وجل الذين كانوا قبل محمد صلوات الله عليهم وعليه — مُصدّقون ، وهم بمحمد صلى الله عليه مكذّبون ، ولما جاء به من التنزيل جاحدون ، ويدّعون مع جحودهم ذلك أنهم مهتدون ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . فأكذبَ الله جل ثناؤه ذلك من قيلهم بقوله : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ . وأخبر جل ثناؤه عبادَه : أن هذا الكتاب هُدًى لأهل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، المصدّقين بما أنزل إليه وإلى من قبله من رسله من البينات والهدى — خاصّةً ، دون من كذّب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وادّعى أنه مصدّقٌ بمَن قَبل محمد صلى الله عليه وسلم من الرُّسل

(١) الخبر ٢٩١ — هو تتمة الخبر السابق ٢٨٩ وقد أشرنا إليه هناك .

وبما جاء به من الكتب. ثم أكَّدَ جل ثناؤه أمرَ المؤمنين من العرب ومن أهل الكتاب المصدِّقين بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل إليه وإلى مَنْ قبله من الرسل — بقوله : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فأخبر أنهم هم أهل الهُدَى والفلاح خاصة دون غيرهم ، وأن غيرهم هم أهل الضَّلال والخَسَار .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل فيمن عَنَى الله جل ثناؤه بقوله : « أولئكَ على هُدًى من رَبهم » :

فقال بعضهم : عَنَى بذلك أهلَ الصِّفتين المتقدمتين ، أعنى : المؤمنين بالغيب من العرب ، والمؤمنين بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإلى مَن قَبله من الرسل . وإياهم جميعاً وَصَف بأنهم على هُدًى منه ، وأنهم هم المفلحون .

ذكر من قال ذلك من أهل التأويل :

٢٩٢ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدِّىّ فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرَّة الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، أما « الذين يؤمنون بالغيب » ، فهم المؤمنون من العرب ، « والذين يؤمنون بما أنزل إليك » ، المؤمنون من أهل الكتاب . ثم جمع الفريقين فقال : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »[1] .

وقال بعضهم : بل عنَى بذلك المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، وهم الذين يؤمنون

---

(١) الخبر ٢٩٢ — نقله ابن كثير ١ : ٨١ ، والشوكانى ١ : ٢٦ . ونقله السيوطى ١ : ٢٥ مطولا ، جمع معه الأخبار الماضية : ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، جعلها سياقاً واحداً ، عن ابن مسعود وحده ، ونسبه للطبرى .

بما أنزِل إلى محمد ، وبما أنزل إلى مَن قبله من الرسل .

وقال آخرون : بل عنَى بذلك الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبما أنزل إلى مَن قبله ، وهم مُؤمنو أهل الكتاب الذين صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وكانوا مؤمنين من قبلُ بسائر الأنبياء والكُتُب . ٨٣/١

وعلى هذا التأويل الآخر يُحتمل أن يكون ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ فى محل خفضٍ ، ومحلّ رفع .

فأما الرّفع فيه فإنه يأتيها من وجهين : أحدهما : من قبل العطف على ما فى « يؤمنون بالغيب » من ذكر « الذين » ، والثانى : أن يكون خبرَ مبتدأ ، أو يكون « أولئك على هدى من ربهم » ، مُرافعها .

وأما الخفض فعلى العطف على « المتقين » ، وإذا كانت معطوفة على « الذين » اتّجه لها وجهان من المعنى : أحدهما : أن تكون هى و «الذين» الأولى، من صفة المتّقين . وذلك على تأويل من رَأى أن الآيات الأربع بعد «الم»، نزلت فى صنف واحد من أصناف المؤمنين . والوجه الثانى : أن تكون « الذين » الثانية معطوفة فى الإعراب على « المتقين » بمعنى الخفض ، وهم فى المعنى صنفٌ غيرُ الصنف الأول . وذلك على مذهب من رَأى أنّ الذين نزلت فيهم الآيتان الأوّلتان من المؤمنين بعد قوله « الم » ، غيرُ الذين نزلت فيهم الآيتان الآخرتان اللتان تليان الأوّلتين .

وقد يُحتمل أن تكون «الذين» الثانية مرفوعةً فى هذا الوجه بمعنى الائتناف[1] ، إذ كانت مبتدأً بها بعد تمام آيةٍ وانقضاء قِصَّةٍ . وقد يجوز الرفعُ فيها أيضاً بنيّة الائتناف ، إذ كانت فى مبتدأ آية ، وإن كانت من صفة المتقين .

فالرفع إذاً يصحّ فيها من أربعةِ أوجه ، والخفضُ من وجهين .

وأولى التأويلات عندى بقوله ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ ما ذكرت من قول ابن مسعود وابن عباس ، وأنْ تكون « أولئك » إشارةً إلى الفريقين ، أعنى :

(١) فى المطبوعة : « الاستئناف » فى هذا الموضع والذى يليه . وهما بمعنى .

المتّقين، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وتكونَ « أولئك» مرفوعة بالعائد من ذكرهم في قوله « على هدى من ربهم » ؛ وأن تكون « الذين » الثانيةُ معطوفةً على ما قبلُ من الكلام ، على ما قد بيَّنَّاه .

وإنما رأينا أنّ ذلك أولى التأويلات بالآية ، لأن الله جل ثناؤه نعتَ الفريقين بنعتِهم المحمود ، ثم أثنى عليهم . فلم يكن عزّ وجل ليخصَّ أحد الفريقين بالثناء، مع تساويهما فيما استحقّا به الثناءَ من الصفات . كما غيرُ جائز في عدله أن يتساويا فيما يستحقان به الجزاءَ من الأعمال ، فيخصَّ أحدَهما بالجزاء دون الآخر ، ويحرِمَ الآخر جزَاءعمله . فكذلك سبيلُ الثناء بالأعمال ، لأن الثّناء أحد أقسام الجزاء .

وأما معنى قوله ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نورٍ من ربِّهم وبرهانٍ واستقامة وَسدادٍ ، بتسديد الله إيّاهم ، وتوفيقه لهم . كما :—

٢٩٣ — حدثني ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، « أولئك على هدى من ربهم » : أي على نور من ربِّهم ، واستقامة على ما جاءهم[1] .

* * *

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥)

وتأويل قوله : « وأولئك هم المفلحون» أي أولئك هم المُنْجِحُون المُدْرِكون ما طَلَبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورُسله، من الفَوْز بالثواب، والخلود في الجِنَان ، والنَّجاةِ مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب . كما :—

٢٩٤ — حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا ابن إسحق،

---

(١) الخبر ٢٩٣ – ذكره ابن كثير ١ : ٨١ مع تتمته الآتية : ٢٩٤ .

عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أوعن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي الذين أدْركوا ما طلبوا ، ونجَوْا من شرّ ما منه هَرَبُوا .

ومن الدلالة على أن أحد معاني الفلاح ، إدراكُ الطَّلِبة والظفر بالحاجة ، قول لبيد بن ربيعة :

اِعْقِلِي ، إنْ كُنْتِ لمَّا تَعْقِلِي ، ولَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ عَقَلْ[١]

١/٨٤ يعني ظَفِر بحاجته وأصابَ خيراً ، ومنه قول الراجز :

عَدِمتُ أمًّا ولَدتْ رِياحَا جَاءتْ بِهِ مُفَرْكَحاً فِرْكاحَا[٢]

تحْسِبُ أنْ قد وَلَدتْ نَجَاحَا ! أشْهَدُ لا يزِيدُها فَلاحَا

يعني : خيراً وقرباً من حاجتها . والفلاحُ مصدر من قولك : أفلح فلان يُفلح إفلاحاً وفلاحاً وفَلَحاً . والفلاح أيضاً : البقاءُ ، ومنه قول لبيد :

نَحُلُّ بلاداً ، كُلُّهَا حُلَّ قَبْلَنا ونَرْجُو الفَلاَحَ بَعْدَ عادٍ وحِمْيَرِ[٣]

يريد : البقاء ، ومنه أيضاً قول عَبيد :

أَفْلِحَ بِما شِئْتَ، فَقَدْ يُدْرَكُ بِالضَّ عْفِ ، وقد يُخْدَعُ الأرِيبُ[٤]

يريد : عش وابقَ بما شئت ، وكذلك قول نابغة بني ذبيان :

وكُلُّ فَتًى سَتَشْعَبُهُ شَعُوبٌ وإن أثْرَى ، وإن لاقَى فَلاَحَا[٥]

أي نجاحاً بحاجته وبَقاءً .

---

(١) ديوانه ٢ : ١٢ ، والخطاب في البيت لصاحبته .

(٢) البيت الثاني في اللسان (فركح) . والفركحة : تباعد ما بين الأليتين . والفركاح والمفركح منه ، يعني به الذم وأنه لا يطيق حمل ما يحمَّل في حرب أو مأثرة تبق .

(٣) ديوانه القصيدة رقم : ١٤ ، يرثي من هلك من قومه .

(٤) ديوانه : ٧ ، وفي المطبوعة والديوان « فقد يبلغ » ، وهما روايتان مشهورتان .

(٥) من قصيدة ليست في زيادات ديوانه منها إلا أبيات ثلاثة ، ليس هذا أحدها . وشعوب : اسم المنية والموت ، غير مصروف ، لأنها تشعب الناس ، أي تصدعهم وتفرقهم . وشعبته شعوب : أي حطمته من آلافه فذهبت به وهلك .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦)

اختلف أهل التأويل فيمن عُنِى بهذه الآية ، وفيمن نزلت . فكان ابن عباس يقول ، كما :–

٢٩٥– حدثنا به محمد بن حميد ، قال حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : «إن الذين كفروا» ، أى بما أنزِل إليك من ربِّك ، وإن قالوا إنا قد آمنا بما قد جاءنا من قبلك[1] .

وكان ابن عباس يرى أنّ هذه الآية نزلتْ فى اليهود الذين كانوا بنَواحى المدينةِ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توبيخاً لهم فى جُحودهم نبوّةَ محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبِهم به ، مع علمهم به ومعرفتِهم بأنّه رسولُ الله إليهم وإلى الناس كافّة .

٢٩٦ – وقد حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سَلَمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد ابن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن صَدر سورة البقرة إلى المئة منها ، نزل فى رجال سَمَّاهم بأعيانهم وأنسَابهم من أحبار يهود ، من المنافقين من الأوس والخزرج ، كرِهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم[2] .

---

(١) الخبر ٢٩٥ – ذكره ابن كثير ١ : ٨٢ مع باقيه الآتى : ٢٩٩ . وساقه السيوطى ١ : ٢٩ بأطول من ذلك ، زاد فيه ما يأتى : ٣٠٧ ، ٣١١ ، ونسبه أيضاً لابن إسحق وابن أبى حاتم ، وكذلك نسبه الشوكانى ١ : ٢٨ دون الزيادة الأخيرة .

(٢) الخبر ٢٩٦ – ذكره ابن كثير ١ : ٨٦ بنحوه ، من رواية ابن إسحق . ونقله السيوطى ١ : ٢٩ بلفظ الطبرى ، عنه وعن ابن إسحق . ونقله الشوكانى موجزاً ١ : ٢٩ . ومن الواضح أن قوله

وقد رُوِى عن ابن عباس فى تأويل ذلك قول آخر ، وهو ما :—

٢٩٧ — حدثنا به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرِص أن يؤمن جميعُ الناس ويُتابعوه على الهدى ، فأخبره الله جل ثناؤه أنه لا يؤمنُ إلا من سبق له من الله السعادةُ فى الذِّكْر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاءُ فى الذِّكر الأول[1] .

وقال آخرون بما :—

٢٩٨ — حُدِّثت به عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : آيتان فى قادةِ الأحزاب : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، قال : وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩] ، قال : فهم الذين قُتلوا يوم بدر[2] .

وأولى هذه التأويلات بالآية تأويلُ ابن عباس الذى ذكره محمد بن أبى محمد، عن عكرمة ، أوعن سعيد بن جبير عنه . وإنْ كان لكلٍّ قول مما قاله الذين ذكرنا قولهم فى ذلك مذهب .

---

* كرهنا تطويل الكتاب . . . » من كلام الطبرى نفسه . وانظر ما يأتى : ٣١٢ .

(١) الخبر ٢٩٧ — هو فى ابن كثير ١ : ٨٢ ، والسيوطى ١ : ٢٨ — ٢٩ ، والشوكانى ١ : ٢٨ ، ونسباه أيضاً لابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى .

(٢) الأثر ٢٩٨ — هكذا هو فى الطبرى ، من قول الربيع بن أنس . وذكره ابن كثير ١ : ٨٢ — ٨٣ مختصراً من رواية الربيع بن أنس عن أبى العالية ، ولم يذكر من خرجه . ونقله السيوطى ١ : ٢٩ ، والشوكانى ١ : ٢٨ ، بأطول مما هنا بذكر الأثر : ٣٠٩ معه ، من قول أبى العالية أيضاً ، ونسباه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . فالظاهر أن الطبرى قصر بإسناده أو قصر به شيخه المبهم .

فأما مذهب من تأوّل فى ذلك ما قاله الربيع بن أنس ، فهو أنّ الله تعالى ذكره لمّا أخبرَ عن قوم من أهل الكفر بأنهم لا يؤمنون ، وأن الإنذارَ غيرُ نافعهم ، ثم كانَ من الكُفّار من قد نَفَعه الله بإنذار النبى صلى الله عليه وسلم إيّاه ، لإيمانه بالله وبالنبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله بعد نزول هذه السورة[1] — لم يَجُز أن تكون الآية نزلت إلا فى خاصٍّ من الكفار وإذ كان ذلك كذلك — وكانت قادةُ الأحزاب لا شك أنّهم ممن لم ينفعه الله عز وجل بإنذار النبى صلى الله عليه وسلم إياه ، حتّى قتلهم الله تبارك وتعالى بأيدى المؤمنين يوم بدرٍ — عُلم أنهم ممّن عنَى الله جل ثناؤه بهذه الآية . ١/٨٥

وأمّا عِلّتُنا فى اختيارنا ما اخترنا من التأويل فى ذلك، فهى أنّ قول الله جل ثناؤه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، عَقِيبَ خبر الله جل ثناؤه عن مؤمنى أهل الكتاب ، وعَقِيبَ نعتهم وصِفتهم وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله. فأولى الأمور بحكمة الله ، أن يُتلِيَ ذلك الخبرَ عن كُفّارهم ونُعُوتهم، وذمّ أسبابهم وأحوالهم[2] ، وإظهارَ شَتْمهم والبراءةَ منهم . لأن مؤمنيهم ومشركيهم — وإن اختلفت أحوالهم فى اختلاف أديانهم — فإن الجنس يجمع جميعَهم بأنهم بنو إسرائيل .

وإنما احتجّ الله جلّ ثناؤه بأوّل هذه السورة لنبيّه صلى الله عليه وسلم على مشركى اليهود من أحبار بنى إسرائيل، الذين كانوا مع علمهم بنبوّته مُنكِرين نبوّته — بإظهار نبيّه صلى الله عليه وسلم على ما كانت تُسِرُّه الأحبار منهم وتكتُمه ، فيجهلُه عُظْمُ اليهود وتعلمُه الأحبار منهم[3] — ليعلموا أن الذى أطلعه على علم ذلك، هو الذى أنزل الكتابَ على موسى . إذْ كان ذلك من الأمور التى لم يكنْ محمد

---

(١) سياق عبارته « فهو أن الله تعالى ذكره لما أخبر عن قوم . . . . لم يجز . . . »
(٢) الأسباب جمع سبب : وأراد بها الطرق والوسائل .
(٣) عظم اليهود : معظمهم وأكثرهم .

صلى الله عليه وسلم ولا قومُه ولا عشيرتُه يعلمونه ولا يعرفونه من قبل نزول الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم، فيمكنَهم ادّعاء اللَّبس فى أمره عليه السلام أنه نبيٌّ ، وأنّ ما جاء به فمن عند الله[1] . وأنّى يُمكنُ ادّعاء اللَّبس فى صدق أمّيٍّ نشأ بين أمّيِّين لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسُب ، فيقال قرأ الكتب فعَلِم ، أو حَسَب[2] فنجَّم ؟ انبعثَ على أحْبارٍ قُرَّاءٍ كَتَبَة[3] — قد دَرَسوا الكتب ورَأسوا الأمم — يخبِرهم عن مستور عُيوبهم ، ومَصُون علومهم ، ومكتوم أخبارهم ، وخفيّات أمورهم التى جهلها من هو دونهم من أحبارهم . إنّ أمرَ من كان كذلك لغَيرُ مُشْكِلٍ ، وإنّ صدقَه لبَيِّن .

ومما ينبئ عن صحة ما قُلنا — من أنّ الذين عَنى الله تعالى ذكره بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هُم أحبارُ اليهود الذين قُتلوا على الكفرِ وماتوا عليه — اقتصاصُ الله تعالى ذكره نَبأهم ، وتذكيرُه إياهم ما أخَذ عليهم من العهود والمواثيق فى أمر محمدٍ عليه السلام ، بَعْد اقتصاصه تعالى ذكرُه ما اقتصَ من أمر المنافقين ، واعتراضِه بين ذلك بما اعترضَ به من الخبر عن إبليسَ وآدمَ — فى قوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات [سورة البقرة : ٤٠ وما بعدها] ، واحتجاجُه لنبيِّه عليهم ، بما احتجَّ به عليهم فيها بعد جُحُودهم نبوّته . فإذْ كان الخبر أوّلاً عن مُؤمِنِى أهل الكتاب ، وآخراً عن مشركيهم ، فأولى أن يكون وَسطاً :— عنهم . إذْ كان الكلامُ بعضُه لبعض تَبَعٌ ، إلا أن تأتيهم دلالةٌ واضحةٌ بعُدول بعض ذلك عما ابتَدأ به من معانيه ، فيكونَ معروفاً حينئذ انصرافه عنه .

---

(١) فى المطبوعة : « من عند الله » .

(٢) يعنى بالحساب هنا : حساب سير الكواكب وبروجها ، وبها يعرف المنجم أخبار ما يدّعى من علم الغيب .

(٣) فى المطبوعة : « وانبعث على أحبار » ، كأنه معطوف على كلام سابق . وليس صحيحاً ، بل هو استئناف كلام جديد .

وأما معنى الكفر فى قوله « إن الذين كفروا » فإنه الجُحُود . وذلك أن الأحبار من يَهودِ المدينة جَحدوا نبوّةَ محمدصلى الله عليه وسلم، وستَروه عن الناس وكتمُوا أمره ، وهُمْ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وأصْلُ الكفر عند العرب : تَغطيةُ الشىء، ولذلك سمَّوُا الليل « كافراً » ، لتغطية ظُلْمته ما لبِستْه ، كما قال الشاعر :

فَتذَكَّرَا ثَقَلاً رَثِيداً ، بَعْدَمَا   أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا فى كافِرِ[1]

٨٦/١

وقال لبيدُ بن ربيعة :

* فِى لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا[2] *

يعنى غَطَّاها. فكذلك الأحبارمن اليهود غَطَّوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكَتَمُوه الناسَ — مع علمهم بنبوّته، ووُجُودِهم صِفتَه فى كُتُبهم — فقال الله جل ثناؤه فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٩]، وهم الذين أنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

* * *

---

(١) الشعر لثعلبة بن صعير المازنى ، شرح المفضليات : ٢٥٧ . والضمير فى قوله « فتذكرا » للنعامة والظليم . والثقل : بيض النعام المصون ، والعرب تقول لكل شىء نفيس خطير مصون : ثقل . ورثد المتاع وغيره فهو مرثود و رثيد : وضع بعضه فوق بعض ونضده . وعنى بيض النعام، والنعام تنضده وتسويه بعضه إلى بعض . وذكاء : هى الشمس .

(٢) معلقته المشهورة ، ويأتى فى تفسير آية سورة المائدة : ١٢ (٦ : ٩٨ بولاق) . ويروى « ظلامها » . وصدره :

« يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِراً »

يعنى البقرة الوحشية ، قد ولجت كناسها فى أصل شجرة ، والرمل يتساقط على ظهرها .

القول في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦﴾

وتأويل « سواءٌ » : معتدل . مأخوذ من التَّساوى ، كقولك : « مُتَساوٍ هذان الأمران عندى » ، و « هما عِندى سَوَاءٌ » ، أى هما متعادلان عندى ، ومنه قول الله جل ثناؤه : ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [سورة الأنفال : : ٥٨] ، يعنى : أَعْلمهم وآذِنْهم بالحرب ، حتى يَستوى علمُك وعلمُهم بما عليه كلُّ فريقٍ منهم للفريقِ الآخر . فكذلك قوله « سَواءٌ عليهم » : معتدلٌ عندهم أىّ الأمرين كان منك إليهم ، الإنذار أم ترك الإنذار لأنهم لا يؤمنون[1] ، وقد خَتمتُ على قلوبهم وسمعهم . ومن ذلك قول عبد الله بن قيس الرُّقَيَّات :

تُغِذُّ بِىَ الشَّهْبَاءُ نَحْوَ ابْنِ جَعْفَرٍ سَوَاءٌ عَلَيْهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا[2]

يعنى بذلك : معتدلٌ عندها فى السير الليلُ والنهارُ ، لأنه لا فُتُورَ فيه . ومنه قول الآخر[3] :

وَلَيْلٍ يَقُولُ المَرْءُ مِنْ ظُلُمَاتِهِ سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ العُيُونِ وَعُورُهَا

لأن الصحيح لا يبصر فيه إلا بصراً ضعيفاً من ظُلْمته .

وأما قوله : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، فإنه ظهرَ به الكلام ظهورَ الاستفهام وهو خبرٌ ، لأنه وَقعَ موقعَ « أىّ » كما تقول : « لا نُبالى أقمتَ أم

---

(١) فى المطبوعة « كانوا لا يؤمنون » .

(٢) ديوانه : ١٦٣ ، والكامل للمبرد ١ : ٣٩٨ ، ٣٩٩ . يمدح عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . أغذ السير وأغذ فيه . أسرع . ورواية ديوانه ، والكامل « تقدت » . وتقدى به بعيره : أسرع على سنن الطريق . والشهباء : فرسه ، للونها الأشهب ، وهو أن يشق سوادها أو كُمتها شعرات بيض حتى تكاد تغلب السواد أو الكمة .

(٣) الشعر لمضرس بن ربعى الفقعسى . حماسة ابن الشجرى : ٢٠٤ .

قعدت »، وأنت مخبرٌ لا مستفهم ، لوقوع ذلك موقع « أى » . وذلك أنّ معناه إذا قلتَ ذلك : ما نبالى أىّ هذين كان منك . فكذلك ذلك فى قوله : «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » ، لمّا كان معنى الكلام: سواءٌ عليهم أىُّ هذين كان منك اليهم — حسُن فى موضعه مع سواءٌ: « أفعلتَ أم لم تفعل » .

وكان بعضُ نحويِّى البصرة يزعمُ أنّ حرفَ الاستفهام إنما دَخَل مع «سواء»، وليس باستفهام، لأن المستفهِم إذا استفهَم غيرَه فقال : «أزيد عندك أم عمرو؟» مستثبتٌ صاحبه أيُّهما عنده . فليس أحدُهما أحقٌ بالاستفهام من الآخر . فلما كان قوله: «سَواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرهم » بمعنى التسوية ، أشبه ذلك الاستفهامَ ، إذ أشبهه فى التَّسوية . وقد بينّا الصَّوابَ فى ذلك .

فتأويل الكلام إذاً: معتدلٌ يامحمد — على هؤلاء الذين جحدوا نبوّتك من أحبار يهود المدينة بعد علمهم بها ، وكتموا بيان أمرك للناس بأنك رسولى إلى خلقى ، وقد أخذتُ عليهم العهدَ والميثاقَ أن لا يكتموا ذلك، وأن يبيِّنوه للناس، ويُخبرُوهم أنهم يجدُون صِفتَك فى كتبهم — أأنذرتهم أم لم تنذرهم ، فإنهم لا يؤمنون، ولا يرجعون إلى الحق ، ولا يصدقونَ بك وبما جئتَهم به . كما :—

٢٩٩ — حدثنا محمد بن حميد قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد ابن إسحق، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، أى أنهم قد كفروا بما عندهم من العِلْم من ذكرِ، وجحدوا ما أخِذ عليهم من الميثاق لك ، فقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك ، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً ، وقد كفروا بما عندهم من علمك ؟[1]

• • •

(١) الخبر ٢٩٩ — سبق تخريجه مع الخبر ٢٩٥ .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾

قال أبو جعفر : وأصلُ الختم : الطَّبْع. والخاتَم هو الطَّابع . يقال منه : ختمتُ الكتابَ ، إذا طبَعْتَه .

فإن قال لنا قائل: وكيف يختِمُ على القلوبِ ، وإنما الختمُ طبعٌ على الأوعية والظروف والغلف[1] ؟ ١/٨٧

قيل : فإن قلوبَ العباد أوعيةٌ لما أُودِعت من العلوم ، وظروفٌ لما جُعل فيها من المعارف بالأمور[2] . فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع — التى بها تُدرَك المسموعات ، ومن قِبَلها يوصَل إلى معرفة حقائق الأنباء عن المُغَيَّبات — نظيرُ معنى الختم على سائر الأوعية والظروف .

فإن قال : فهل لذلك من صفةٍ تصفُها لنا فنفهمَها؟ أهى مثل الختم الذى يُعْرَف لما ظَهَر للأبصار ، أم هى بخلاف ذلك ؟

قيل : قد اختلف أهل التأويل فى صفة ذلك ، وسنخبر بصفته بعد ذكرنا قولهم :

٣٠٠ — فحدثنى عيسى بن عثمان بن عيسى الرَّمْلى ، قال: حدثنا يحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، قال: أرانا مُجاهدٌ بيَدِه فقال: كانوا يُرَوْنَ أنّ القلبَ فى مثل هذا — يعنى الكفَّ — فإذا أذنبَ العبد ذنباً ضُمَّ منه — وقال بإصبعه الخنصر هكذا[3] — فإذا أذنب ضُمَّ — وقال بإصبع أخرى — فإذا أذنب ضُمَّ — وقال بإصبع أخرى هكذا ، حتى ضم أصابعَه كلَّها ، قال : ثم يُطبع عليه بطابَعٍ . قال

(١) الغلف جمع غلاف : وهو الصوان الذى يشتمل على ما أوعيت فيه .
(٢) فى المخطوطة : « من المعارف بالعلوم » .
(٣) قال بإصبعه : أشار بإصبعه .

مُجاهد : وكانوا يُرَوْن أنّ ذلك : الرَّيْنُ[1].

٣٠١ — حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن مجاهد، قال : القلبُ مثلُ الكفّ ، فإذا أذنب ذنباً قبض أصبعاً حتى يقبض أصابعه كلها — وكان أصحابنا يُرون أنه الرّان[2] .

٣٠٢ — حدثنا القاسم بن الحسن، قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: حدثني حجاج، قال : حدثنا ابن جُريج، قال : قال مجاهد : نُبِّئت أنّ الذنوبَ على القلب تحفُّ به من نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤُها عليه، الطَّبعُ، والطبعُ : الختْم . قال ابن جريج : الختْم ، الختْم على القَلْب والسَّمع[3] .

٣٠٣ — حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال : حدثني حجاج، عن ابن جُريج، قال: حدثني عبد الله بن كَثير، أنه سمع مجاهداً يقول : الرّانُ أيسَرُ من الطَّبْع، والطَّبْع أيسر من الأقْفَال، والأقفال أشدُّ ذلك كله[4] .

---

(١) الأثر ٣٠٠ — عيسى بن عثمان بن عيسى بن عبد الرحمن ، التميمي النهشلي : قال النسائي : « صالح » . وهو من شيوخ الترمذي وابن مندة وغيرهما ، مات سنة ٢٥١ ، وروى عنه البخاري أيضاً في التاريخ الصغير : ٢٢٤ في ترجمة عمه . وعمه « يحيى بن عيسى » . وثقه أحمد والعجلي وغيرهما ، وترجمه البخاري في الصغير ، قال : « حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى ، قال : مات يحيى بن عيسى أبو زكريا التميمي سنة ٢٠١ أو نحوها . كوفي الأصل ، وإنما قيل : الرملي ، لأنه حدث بالرملة ومات فيها » ، وترجمه في الكبير أيضاً ٤/٢ : ٢٩٦ « يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن الرملي ، سمع الأعمش ، وهو التميمي أبو زكريا الكوفي ، سكن الرملة . . . » . ولم يذكر فيه جرحاً .

وهذا الأثر ، سيأتي بهذا الإسناد في تفسير آية سورة المطففين : ١٤ (٣٠ : ٦٣ بولاق) . وذكره ابن كثير ١ : ٨٢ ، والسيوطي ٦ : ٣٢٦ .

(٢) الأثر ٣٠١ — سيأتي أيضاً (٣٠ : ٦٣ بولاق) . وأشار إليه ابن كثير ١ : ٨٣ دون أن يذكر لفظه . وكذلك السيوطي ٦ : ٣٢٥ .

(٣) الأثر ٣٠٢ — هذا من رواية ابن جريج عن مجاهد ، والظاهر أنه منقطع ، لأن ابن جريج يروى عن مجاهد بالواسطة ، كما سيأتي في الأثر بعده . وهذا الأثر ذكره ابن كثير ١ : ٨٣ ، ولكنه محرف فيه من الناسخ أو الطابع .

(٤) الأثر ٣٠٣ — عبد الله بن كثير : هو الداري المكي ، أحد القراء السبعة المشهورين ، وهو ثقة . وقد قرأ القرآن على مجاهد . وقد خلط ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/٢ : ١٤٤ بينه وبين « عبد الله بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة السهمي » . ويظهر من كلام الحافظ في التهذيب ٥ : ٣٦٨ أن هذا الوهم كان من البخاري نفسه ، فلعل ابن أبي حاتم تبعه في وهمه دون تحقيق .

وهذا الأثر ذكره ابن كثير ١ : ٨٣ ، وكذلك السيوطي ٦ : ٣٢٦ ، وزاد نسبته إلى البيهقي .

وقال بعضهم : إنما معنى قوله « ختم الله على قُلوبهم » إخبارٌ من الله جل ثناؤه عن تكبرهم ، وإعراضهم عن الاستماع لِمَا دُعُوا إليه من الحق ، كما يقال : « إنّ فلاناً لأصَمُّ عن هذا الكلام » ، إذا امتنع من سَماعه ، ورفع نفسه عن تفهُّمه تكبراً .

قال أبو جعفر : والحق فى ذلك عندى ما صَحَّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما :—

٣٠٤ — حدثنا به محمد بن بشار قال : حدثنا صفوان بن عيسى ، قال : حدثنا ابن عَجْلان ، عن القَعْقَاع ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ المؤمنَ إذا أذنب ذنباً كانت نُكْتَةٌ سوداءُ فى قلبه ، فإن تاب ونَزَع واستغفر ، صَقَلَت قلبه ، فإن زاد زادت حتى تُغْلَق قلبه ، فذلك « الرَّانُ » الذى قال الله جل ثناؤه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] [سورة المطففين : ١٤] .

---

(١) الحديث ٣٠٤ — سيأتى فى الطبرى بهذا الإسناد ٣٠ : ٦٢ بولاق . ورواه هناك بإسناد آخر قبله ، وبإسنادين آخرين بعده : كلها من طريق محمد بن عجلان عن القعقاع .

محمد بن بشار : هو الحافظ البصرى ، عرف بلقب « بندار » بضم الباء وسكون النون . روى عنه أصحاب الكتب الستة وغيرهم من الأئمة . ووقع فى المطبوعة هنا « محمد بن يسار » ، وهو خطأ . ابن عجلان ، بفتح العين وسكون الجيم : هو محمد بن عجلان المدنى ، أحد العلماء العاملين الثقات . القعقاع بن حكيم الكنانى المدنى : تابعى ثقة . أبو صالح : هو السمان ، واسمه « ذكوان » . تابعى ثقة ، قال أحمد : « ثقة ثقة ، من أجل الناس وأوثقهم » .

والحديث رواه أحمد فى المسند ٧٩٣٩ (٢ : ٢٩٧ حلبى) عن صفوان بن عيسى ، بهذا الإسناد . ورواه الحاكم ٢ : ٥١٧ من طريق بكار بن قتيبة القاضى عن صفوان . وقال : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى . ورواه الترمذى ٤ : ٢١٠ ، وابن ماجة ٢ : ٢٩١ ، من طريق محمد بن عجلان . قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

وذكره ابن كثير ١ : ٨٤ من رواية الطبرى هذه ، ثم قال : هذا الحديث من هذا الوجه ، قد رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة عن الليث بن سعد ، وابن ماجة عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسمعيل والوليد ابن مسلم — ثلاثتهم عن محمد بن عجلان ، به . وقال الترمذى : « حسن صحيح » ، ثم ذكره مرة أخرى ٩ : ١٤٣ من رواية هؤلاء ومن رواية أحمد فى المسند . وذكره السيوطى ٦ : ٣٢٥ ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن حبان ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان .

وفى متن الحديث هنا ، فى المطبوعة « كان نكتة . . . صقل قلبه . . . حتى يغلف قلبه » . وهو فى رواية الطبرى الآتية ، كما فى المخطوطة ، إلا قوله « حتى تغلق قلبه » ، فهى هناك « حتى تعلو قلبه » .

فأخبر صلى الله عليه وسلم أنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتْها ، وإذا أغلقتْها أتاها حينئذ الخَتْمُ من قبل الله عز وجلّ والطبع[1] ، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلك ، ولا للكفر منها مَخْلَص ، فذلك هو الطَّبع . والختم الذى ذكره الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ ، نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف ، التى لا يوصَل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلّها . فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وَصَف الله أنه ختم على قلوبهم ، إلا بعد فضّه خاتمَه وحلّه رباطَه عنها .

ويقال لقائلى القول الثانى ، الزاعمين أنّ معنى قوله جل ثناؤه « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » ، هو وَصْفُهم بالاستكبار والإعراض عن الذى دُعوا إليه من الإقرار بالحق تكبُّراً : أخبرونا عن استكبار الذين وَصَفهم الله جل ثناؤه بهذه الصفة ، وإعراضِهم عن الإقرار بما دُعوا إليه من الإيمان وسائر المعانى اللَّواحق به — أفعلٌ منهم ، أم فعلٌ من الله تعالى ذكرُه بهم ؟

فإن زعموا أنّ ذلك فعلٌ منهم — وذلك قولهم — قيل لهم : فإنّ الله تبارك وتعالى قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وسمعهم . وكيف يجوز أن يكون إعراضُ ١/٨٨ الكافرِ عن الإيمان ، وتكبُّره عن الإقرار به — وهو فعله عندكم — خَتماً من الله على قلبه وسمعه ، وختمهُ على قلبه وسَمْعه ، فعلُ الله عز وجل دُونَ الكافر ؟

فإن زعموا أن ذلك جائز أن يكون كذلك — لأن تكبُّرَه وإعراضه كانا عن ختم الله على قلبه وسمعه ، فلما كان الختمُ سبباً لذلك ، جاز أن يسمى مُسَبَّبُه به — تركوا قولَهم ، وأوجبوا أنّ الختمَ من الله على قلوب الكفار وأسماعهم ، معنًى غيرُ كفرِ الكافرِ ، وغيرُ تكبره وإعراضه عن قبول الإيمان والإقرار به . وذلك الدخولُ فيما أنكروه[2] .

---

(١) فى المطبوعة : « أغلقتها » فى الموضعين ، والتصحيح من المخطوطة وابن كثير .

(٢) فى المطبوعة : « وذلك دخول فيما أنكروه » .

وهذه الآية من أوْضحِ الدليل على فساد قول المنكرين تكليفَ ما لا يُطاق إلا بمعونة الله ، لأن الله جل ثناؤه أخبرَ أنه ختم على قلوب صِنْف من كُفَّار عباده وأسماعهم ، ثم لم يُسقط التكليف عنهم ، ولم يَضَعْ عن أحدٍ منهم فرائضَه ، ولم يعذِرْهُ في شيء مما كان منه من خلاف طاعته بسبب ما فعل به من الختم والطبع على قلبه وسمعه — بَلْ أخبر أن لجميعهم منه عذاباً عظيما على تركهم طاعتَه فيما أمرهم به ونهاهم عنه من حدوده وفرائضه ، مع حتْمه القضاءَ عليهم مع ذلك ، بأنهم لا يؤمنون .

* * *

القول في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾

قال أبو جعفر : وقوله ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ خبرٌ مبتدأ بعد تمام الخبر عمَّا ختم الله جلَّ ثناؤه عليه من جوارح الكفَّار الذين مضت قِصَصهم . وذلك أن « غِشاوةٌ » مرفوعة بقوله « وعلى أبصارهم » ، فذلك دليل على أنه خبرٌ مبتدأ ، وأن قوله « ختم الله على قلوبهم » ، قد تناهى عند قوله « وعلى سمْعهم » .

وذلك هو القراءة الصحيحة عندنا لمعنيين :

أحدهما : اتفاق الحجة من القُرَّاء والعلماء على الشهادة بتصحيحها ، وانفرادُ المخالف لهم في ذلك ، وشذوذه عمَّا هم على تخطئته مجمعون . وكفى بإجماع الحجة على تخطئة قراءته شاهداً على خطئها .

والثاني : أنَّ الختمَ غيرُ موصوفةٍ به العيونُ في شيء من كتاب الله ، ولا في خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا موجودٍ في لغة أحد من العرب . وقد قال تبارك وتعالى في سورة أخرى : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَجَعَلَ

---

(١) في المطبوعة : « من أوضح الأدلة . . . » .

عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [سورة الجاثية : ٢٣] ، فلم يدخل البصرَ فى معنى الختْم .
وذلك هو المعروف فى كلام العرب ، فلم يَجُزْ لنا، ولا لأحدٍ من الناس ، القراءةُ
بنصب الغِشاوة، لما وصفتُ من العلّتين اللتين ذكرت،وإن كان لنَصْبها مخرجٌ
معروفٌ فى العربية .

وبما قلنا فى ذلك من القولِ والتأويلِ ، رُوِى الخبر عن ابن عباس :

٣٠٥ — حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى الحسين
ابن الحسن ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس : « ختَم الله على قلوبهم وعلى
سمعهم » ، والغشاوة على أبصارهم[1] .

---

(١) الخبر ٣٠٥ — هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دوراناً فى تفسير الطبرى ،وقد مضىأول مرة ١١٨ ، ولم أكن قد اهتديت إلى شرحه. وهو إسناد مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة ، إن صح هذا التعبير ! وهومعروف عند العلماء بـ « تفسير العوفى » ، لأن التابعى — فى أعلاه — الذى يرويه عن ابن عباس ، هو « عطية العوفى » ، كما سنذكر . قال السيوطى فى الإتقان ٢ : ٢٢٤ : « وطريق العوفى عن ابن عباس ، أخرج منها ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، كثيراً . والعوفى ضعيف ، ليس بواه ، وربما حسن له الترمذى » . وسنشرحه هنا مفصلا ، إن شاء الله :

محمد بن سعد ، الذى يروى عنه الطبرى : هو محمد بن سعد بن محمد بن الحسن بن عطية بن سعد بن جنادة العوفى ، من « بنى عوف بن سعد » فخذ من « بنى عمرو بن عياذ بن يشكر بن بكر بن وائل » . وهو لين فى الحديث ، كما قال الخطيب . وقال الدارقطنى : « لا بأس به ». مات فى آخر ربيع الآخر سنة ٢٧٦ . ترجمه الخطيب فى تاريخ بغداد ٥ : ٣٢٢ — ٣٢٣ . والحافظ فى لسان الميزان ٥ : ١٧٤ . وهو غير « محمد بن سعد بن منيع » كاتب الواقدى ، وصاحب كتاب الطبقات الكبير ، فهذا أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرين ، قديم الوفاة ، مات فى جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ .

أبوه «سعد بن محمد بن الحسن العوفى»: ضعيف جداً ، سئل عنه الإمام أحمد ، فقال : «ذاك جهمى »، ثم لم يره موضعاً للرواية ولو لم يكن ، فقال : « لو لم يكن هذا أيضاً لم يكن ممن يستأهل أن يكتب عنه ، ولا كان موضعاً لذاك » . وترجمته عند الخطيب ٩ : ١٢٦ — ١٢٧ ، ولسان الميزان ٣ : ١٨ — ١٩ .

عن عمه : أى عم سعد ، وهو « الحسين بن الحسن بن عطية العوفى » . كان على قضاء بغداد ، قال ابن معين : « كان ضعيفاً فى القضاء . ضعيفاً فى الحديث » . وقال ابن سعد فى الطبقات : « وقد سمع سماعاً كثيراً ، وكان ضعيفاً فى الحديث » . وضعفه أيضاً أبوحاتم والنسائى . وقال ابن حبان فى المجروحين : « منكر الحديث . . . ولا يجوز الاحتجاج بخبره » . وكان طويل اللحية جدا ، روى الخطيب من أخبارها طرائف ، مات سنة ٢٠١ . مترجم فى الطبقات ٧/٢/٧٤ ، والجرح والتعديل ١/٢/٤٨ ، وكتاب المجروحين لابن حبان، رقم ٢٢٨ ص ١٦٧ ، وتاريخ بغداد ٨ : ٢٩ — ٣٢ ، ولسان الميزان ٢ : ٢٧٨ .

عن أبيه : وهو « الحسن بن عطية بن سعد العوفى » ، وهوضعيف أيضاً ، قال البخارى فى الكبير : « ليس بذاك » ، وقال أبو حاتم : « ضعيف الحديث » . وقال ابن حبان : « يروى عن أبيه ،

فإن قال قائل : وما وجهُ مخرج النَّصْب فيها ؟

قيل له : أن تنصبها بإضمار «جعل»[1] ، كأنه قال : وجعل على أبصارهم غِشَاوةً ، ثم أسقط «جعل» ، إذْ كان فى أول الكلام ما يدُلُّ عليه . وقد يحتمل نَصبُها على إتباعها موضعَ السمع ، إذ كان موضعه نصباً ، وإن لم يكن حَسَناً إعادةُ العامل فيه على «غشاوة» ، ولكن على إتباع الكلام بعضِه بعضاً ، كما قال تعالى ذكره: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ ، ثم قال: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۞ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ وحُورٍ عِينٍ﴾ [سورة الواقعة: ١٧-٢٢]، فخفَضَ اللحمَ والحورَ على العطف به على الفاكهة ، إتباعاً لآخر الكلام أوّله . ومعلومٌ أن اللحمَ لا يطاف به ولا بالحور العين ، ولكن كما قال الشاعر يصف فرسه :

عَلَفْتُهَا تِبْناً ومَاءً بارِدًا حَتَّى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا[2]

روى عنه ابنه محمد بن الحسن ، منكر الحديث ، فلا أدرى : البلية فى أحاديثه منه ، أو من أبيه ، أو منهما معاً ؟ لأن أباه ليس بشىء فى الحديث ، وأكثر روايته عن أبيه ، فمن هنا اشتبه أمره ، ووجب تركه » . مترجم فى التاريخ الكبير ١/٢/٢٩٩ ، وابن أبى حاتم ١/٢/٢٦ ، والمجروحين لابن حبان ، رقم ٢١٠ ص ١٥٨ ، والتهذيب .

عن جده : وهو « عطية بن سعد بن جنادة العوفى » ، وهو ضعيف أيضاً ، ولكنه مختلف فيه ، فقال ابن سعد : « كان ثقة إن شاء الله ، وله أحاديث صالحة . ومن الناس من لا يحتج به » ، وقال أحمد : « هو ضعيف الحديث . بلغنى أن عطية كان يأتى الكلبى فيأخذ عنه التفسير . وكان الثورى وهشيم يضعفان حديث عطية » . وقال أبو حاتم : «ضعيف الحديث ، يكتب حديثه » . وسئل يحيى بن معين : « كيف حديث عطية ؟ قال : صالح » . وقد رجحنا ضعفه فى شرح حديث المسند : ٣٠١٠ ، وشرح حديث الترمذى : ٥٥١ ، وإنما حسن الترمذى ذاك الحديث لمتابعات ، ليس من أجل عطية . وقد ضعفه النسائى أيضاً فى الضعفاء : ٢٤ . وضعفه ابن حبان جداً ، فى كتاب المجروحين ، قال : « . . . فلا يحل كتبة حديثه إلا على وجه التعجب » ، الورقة : ١٧٨ . وانظر أيضاً : ابن سعد ٦ : ٢١٢ - ٢١٣ والكبير البخارى ٤/١/٨ - ٩ . والصغير ١٢٦ . وابن أبى حاتم ٣/١/٣٨٢ - ٣٨٣ . والتهذيب .

والخبر نقله ابن كثير ١ : ٨٥ ، والسيوطى فى الدر المنثور ١ : ٢٩ ، وزاد نسبته لابن أبى حاتم . وكذلك صنع الشوكانى ١ : ٢٨ .

(١) فى المطبوعة : « إن نصبها . . . »

(٢) لا يعرف قائله ، وأنشده الفراء فى معانى القرآن ١ : ١٤ وقال : « أنشدنى بعض بنى أسد يصف فرسه » ، وفى الخزانة ١ : ٤٩٩ : « رأيت فى حاشية صحيحة من الصحاح أنه لذى الرمة ، ففتشت ديوانه فلم أجده » . وسيأتى فى تفسير آية سورة المائدة : ١٠٩ (٧ : ٨١ بولاق) . وقوله « شتت »

ومعلومٌ أن الماء يُشرَب ولا يعلف به ، ولكنه نَصب ذلك على ما وصفتُ قبلُ ، وكما قال الآخر :

ورأيتُ زَوْجَكِ فِي الوَغَى مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا[1]

وكان ابن جُريج يقول — فى انتهاء الخبر عن الختم إلى قوله « وعلى سَمْعهم » ، وابتداءِ الخبر بعده — بمثل الذى قلنا فيه ، ويتأوّل فيه من كتاب الله ﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ [سورة الشورى : ٢٤]. ٨٩/١

٣٠٦ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : حدثنا ابن جُريج ، قال : الختمُ على القلب والسمع ، والغشاوة على البَصَر ، قال الله تعالى ذكره : ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ[2] ﴾ ، وقال : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [سورة الجاثية : ٢٣].

والغشاوة فى كلام العرب : الغطاءُ ، ومنه قول الحارث بن خالد بن العاص :

تَبِعْتُكَ إذْ عَيْنِى عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِى أَلُومُهَا[3]

ومنه يقال : تغشّاه الهم ، إذا تجلّله وركبه ، ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

من شتا بالمكان : أقام فيه زمن الشتاء ، وهو زمن الجدب ، وهمالة : تهمل دمعها أى تسكبه وتصبه من شدة البرد .

(١) مضى تخريج هذا البيت فى ص ١٤٠ .

(٢) الأثر ٣٠٦ — ساقه ابن كثير فى تفسيره ١ : ٨٥ ، والشوكانى ١ : ٢٨ .

(٣) الشاعر هو الحارث بن خالد المخزومى ، ويأتى البيت فى تفسير آية سورة الأعراف : ١٨ (٨ : ١٠٣ بولاق) ، وروايته هناك : «صحبتك إذ عينى . . . أذيمها» ، شاهداً على «الذام» ، وهو أبلغ فى العيب من الذم ، ثم قال أبو جعفر : « وأكثر الرواة على إنشاده : ألومها » ، وخبر البيت : أن عبد الملك بن مروان لما ولى الخلافة حج البيت ، فلما انصرف رحل معه الحارث إلى دمشق ، فظهرت له منه جفوة ، وأقام ببابه شهراً لا يصل إليه ، فانصرف عنه وقال البيت الشاهد وبعده :

وما بِيَ إن أقْصَيْتَنِي من ضَرَاعةٍ وَلاَ افْتَقَرَتْ نَفْسِي إلى مَنْ يَضِيمُها

(انظر الأغانى ٣ : ٣١٧) ، وبلغ عبد الملك شعره ، فأرسل إليه من رده إليه .

هَلّا سَأَلْتِ بَنِي ذُبْيَانَ مَا حَسَبِي إِذَا الدُّخَانُ تَغَشَّى الأَشْمَطَ البَرَمَا[1]

يعنى بذلك : تجلّله وخالطه .

وإنما أخبر الله تعالى ذكره نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم عن الذين كفروا به من أحبار اليهود، أنه قد ختم على قلوبهم وطبع عليها — فلا يعقلون لله تبارك وتعالى موعظةً وعظهم بها ، فيما آتاهم من علم ما عندهم من كتبه ، وفيما حدّد فى كتابه الذى أوحاه وأنزله إلى نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم — وعلى سمعهم ، فلا يسمعون من محمد صلى الله عليه وسلم نبيّ الله تحذيراً ولا تذكيراً ولا حجةً أقامها عليهم بنبوّته ، فيتذكروا ويحذروا عقاب الله عز وجلّ فى تكذيبهم إياه ، مع علمهم بصدقه وصحّة أمره . وأعلمه مع ذلك أنّ على أبصارهم غشاوةً عن أن يبصروا سبيل الهُدَى ، فيعلموا قُبْحَ ما هم عليه من الضلالة والرَّدَى .

وبنحو ما قلنا فى ذلك ، رُوى الخبر عن جماعة من أهل التأويل :

٣٠٧ — حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق، عن محمد ابن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ ، أىْ عن الهدى أن يُصيبوه أبداً بغير ما كذبوك به من الحقّ الذى جاءك من ربّك ، حتى يؤمنوا به ، وإن آمنوا بكل ما كان قبلك[2] .

٣٠٨ — حدثنى موسى بن هرون الهمدانى، قال: حدثنا عمرو بن حماد ، قال: حدثنا أسباط ،عن السُّدّىّ فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول

---

(١) ديوانه : ٥٢ . والأشمط : الذى شاب رأسه من الكبر ، والبرم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر . قال ابن قتيبة فى المعانى الكبير ٤١٠ ، ١٢٣٨ : «وإنما خص الأشمط ، لأنه قد كبر وضعف ، فهو يأتى مواضع اللحم» .

(٢) الخبر ٣٠٧ — ذكره السيوطى ١ : ٢٩ متصلا بما مضى : ٢٩٥ ، ٢٩٩ وبما يأتى : ٣١١ . ساقها سياقاً واحداً .

الله صلى الله عليه وسلم : «ختَم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » يقول : فلا يعقلون ولا يَسْمعون . ويقول : « وَجعل على أبصارهم غشاوة » يقول : على أعينهم فلا يُبصرون[١] .

وأما آخرون ، فإنهم كانوا يتأولون أنّ الذين أخبر الله عنهم من الكفّار أنه فعل ذلك بهم ، هم قادة الأحزاب الذين قتلوا يوم بدر .

٣٠٩ — حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : هاتان الآيتان إلى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هم ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨] ، وهمُ الذين قُتلوا يوم بدر ، فلم يدخل من القادة أحدٌ في الإسلام إلا رجلان : أبو سفيان بن حَرْب ، والحَكَم بن أبي العاص[٢] .

٣١٠ — وحدثت عن عمار بن الحسن ، قال حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، قال : أما القادةُ فليس فيهم مُجيبٌ ولا ناجٍ ولا مُهْتَدٍ .

وقد دللنا فيما مضى على أوْلى هذين التأويلين بالصواب ، كرهنا إعادته .

* * *

القول في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧)

وتأويلُ ذلك عندي ، كما قاله ابن عباس وتأوّله :

---

(١) الخبر ٣٠٨ — ساقه ابن كثير ١ : ٨٥ . وذكره السيوطي ١ : ٢٩ ، والشوكاني ١ : ٢٨ عن ابن مسعود فقط .

(٢) الأثر ٣٠٩ — هو تتمة الأثر الماضي : ٢٩٨ ، كما ساقه السيوطي ١ : ٢٩ ، والشوكاني ١ : ٢٨ . وقد أشرنا إليه هناك .

٣١١ — حدثنا ابنُ حميد ، قال : حدثنا سلمة، عن ابن إسحق ، عن محمد ابن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ولهم بما هُمْ عليه من خلافك عذابٌ عظيم . قال : فهذا في الأحبار من يهود، فيما كذَّبوكِ به من الحق الذي جاءك من ربِّك بعد معرفتهم[١] . ١/٩٠

• • •

القول في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨)

قال أبو جعفر : أما قوله : « ومن الناس »، فإن في « الناس » وجهين :

أحدهما : أن يكون جمعاً لا واحدَ له من لَفْظِه ، وإنما واحدهم « إنسانٌ »، وواحدتهم « إنسانة »[٢] .

والوجه الآخر : أن يكون أصله « أُناس» أسقِطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها، ثم دخلتها الألف واللام المعرِّفتان ، فأدغِمت اللام — التي دخلت مع الألف فيها للتعريف — في النون ، كما قيل في ﴿ لَـكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾ [سورة الكهف : ٣٨]، على ما قد بينا في « اسم الله » الذي هو الله[٣] . وقد زعم بعضهم أن « الناس » لغة غير « أناس»، وأنه سمع العرب تصغره « نُوَيْس» من الناس، وأن الأصل لو كان أناس لقيل في التصغير : أُنَيس ، فرُدَّ إلى أصله .

وأجمعَ جميع أهل التأويل على أنَّ هذه الآية نزلت في قوم من أهلِ النِّفاق ، وأن هذه الصِّفة صِفتُهم .

---

(١) الخبر ٣١١ — هو تتمة الأخبار : ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ساقها السيوطي ١ : ٢٩ مساقاً واحداً ، كما أشرنا من قبل . ولكنه حذف من آخره ما بعد قوله « فهذا في الأحبار من يهود » . لعله ظنه من كلام الطبري . والسياق واضح أنه من تتمة الخبر .

(٢) في المطبوعة : « واحده إنسان ، وواحدته إنسانة » .

(٣) انظر ما مضى ص ١٢٥ — ١٢٦ .

ذكر من قال ذلك من أهل التأويل بأسمائهم :

٣١٢ـ حدثنا محمد بن حميد، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يعني المنافقين من الأوْس والخزْرج ومَنْ كان على أمرهم .

وقد سُمِّى في حديث ابن عباس هذا أسماؤهم عن أبيّ بن كعب، غير أني تركت تسميتهم كراهة إطالة الكتاب بذكرهم[1] .

٣١٣ ـ حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزّاق، قال : أنبأنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ قال : هذه في المنافقين[2] .

٣١٤ ـ حدثنا محمد بن عمرو الباهلي ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، قال : هذه الآية إلى ثلاثَ عشرة ، في نَعت المنافقين .

٣١٥ ـ حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حُذيفة ، قال : حدثنا شِبْل ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، مثله .

٣١٦ ـ حدثنا سفيان ، قال : حدثنا أبي ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

---

(١) الخبر ٣١٢ ـ مضى نحو معناه : ٢٩٦ ، وأشرنا إلى هذا هناك .
وأسماء المنافقين ، من الأوس والخزرج ، الذين كره الطبري إطالة الكتاب بذكرهم ـ حفظها علينا ابن هشام ، في اختصاره سيرة ابن إسحق ، بتفصيل واف : ٣٥٥ـ٣٦١ (طبعة أوربة) ، ٢ : ١٦٦ ـ ١٧٤ (طبعة الحلبي) ، ٢ : ٢٦ ـ ٢٩ (الروض الأنف) .

(٢) الأثر ٣١٣ ـ الحسن بن يحيى ، شيخ الطبري ؛ وقع في الأصول هنا « الحسين » ، وهو خطأ . وقد مضى مثل هذا الإسناد على الصواب ، رقم : ٢٥٧ .

٣١٧ — حدثني موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن إسمعيل السدىّ في خبر ذكره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس — وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ هم المنافقون.

٣١٨ — حدثني المثنى، قال: حدثنا إسحق، عن ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿ومن الناس مَنْ يقول آمنا بالله و باليوم الآخر﴾ إلى ﴿فزادهم الله مَرَضاً ولهم عَذاب أليم﴾، قال: هؤلاء أهلُ النفاق.

٣١٩ — حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج، في قوله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ قال: هذا المنافقُ، يخالفُ قولُه فعلَه، وسرُّه علانيتَه، ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه[1].

وتأويل ذلك: أنّ الله جل ثناؤه لما جمع لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أمرَهُ في دار هجرته، واستقرَّ بها قرارُه، وأظهرَ الله بها كلمتَه، وفشا في دور أهلها الإسلام، وقَهرَ بها المسلمون مَنْ فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان، وذلّ بها مَن فيها من أهل الكتاب — أظهر أحبارُ يَهودها لرسول الله صلى الله عليه وسلم الضّغائن، وأبدوا له العداوة والشنآنَ، حسداً وبَغياً[2]، إلا نفراً منهم هداهم الله للإسلام فأسلموا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩]، وطابقَهم سرًّا على مُعاداة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

(١) الروايات ٣١٤ — ٣١٩: ساق بعضها ابن كثير ١: ٨٦ بين نص و إشارة. وساق بعضها أيضاً السيوطي ١: ٢٩. والشوكاني ١: ٢٩.

(٢) في المخطوطة «العداوة والشنار»، وهو خطأ. والشنآن والشناءة: البغض يكشف عنه الغيظ الشديد. شنئ الشيء يشنؤه: أبغضه بغضاً شديداً.

٩١/١

وبَغيْهِم الغوائل ، قومٌ — من أراهط الأنصار الذين آوَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونَصَروه (١) — وكانوا قد عَسَوْا في شركهم وجاهليّتِهم (٢) قد سُمُّوا لنا بأسمائهم ، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم وأنسابهم ، وظاهروهم على ذلك في خفاءٍ غير جِهارٍ ، حذارَ القتل على أنفسهم ، والسِّباءِ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام . فكانوا إذا لَقُوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به من أصحابه قالوا لهم — حذاراً على أنفسهم — : إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبَعْث ، وأعطَوْهم بألسنتهم كلمةَ الحقّ ، ليدرأوا عن أنفسهم حُكم الله فيمن اعتقدَ ما هم عليه مقيمون من الشرك ، لو أظهروا بألسنتهم ما هم معتقدوه من شركهم . وإذا لقُوا إخوانَهم من اليهود وأهل الشّركِ والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، فخلَوْا بهم ﴿ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ . فإياهم عَنَى جلّ ذكره بقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يعني بقوله تعالى خبراً عنهم : آمنّا بالله — : وصدّقنا بالله (٣) .

وقد دللنا على أنّ معنى الإيمان : التصديق ، فيما مضى قبل من كتابنا هذا (٤) .

وقوله : ﴿ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ، يعني : بالبعث يوم القيامة ، وإنما سُمّي يومُ القيامة « اليومَ الآخر » ، لأنه آخر يوم ، لا يومَ بعده سواه .

فإن قال قائل : وكيف لا يكون بعده يوم ، ولا انقطاعَ للآخرة ولا فناء ولا زوال ؟

---

(١) الغوائل جمع غائلة : وهي : النائبة التي تغول وتهلك . وأراهط جمع رهط ، والرهط : عدد يجمع من الثلاثة إلى العشرة ، لا يكون فيهم امرأة . وعنى بهم العدد القليل من بطون الأنصار .

(٢) في المطبوعة : « عتوا في جاهليتهم » وكلتاهما صواب . عسا الشيء يعسو : اشتد وصلب وغلظ من تقادم العهد عليه ، وعسا الرجل : كبر . والعاسي : هو الجافي ، ومثله العاتي . وعتا يعتو ، في معناه . وانظر ما مضى ص : ٣٦ ، تعليق .

(٣) في المطبوعة « وصدقنا بالله » ، وزيادة الواو خطأ .

(٤) انظر ما مضى ص : ٢٣٤ — ٢٣٥ .

قيل : إن اليومَ عند العرب إنما سُمّى يوماً بليلته التى قبله، فإذا لم يتقدم النهارَ ليلٌ لم يسمّ يوماً . فيوم القيامة يوم لا ليلَ بعده ، سوى الليلة التى قامت فى صبيحتها القيامة ، فذلك اليوم هو آخر الأيام . لذلك سمّاه الله جل ثناؤه « اليوم الآخر » ، ونعتَه بالعَقيم . ووصفه بأنه يوم عَقيم ، لأنه لا ليل بعده[1] .

وأما تأويل قوله : « وما هم بمؤمنين » ، ونفيُه عنهم جلّ ذكره اسمَ الإيمان ، وقد أخبرَ عنهم أنهم قد قالوا بألسنتهم : آمنّا بالله وباليوم الآخر — فإن ذلك من الله جل وعزّ تكذيبٌ لهم فيما أخبَرُوا عن اعتقادهم من الإيمان والإقرار بالبعث ، وإعلامٌ منه نبيَّه صلى الله عليه وسلم أنّ الذى يُبْدونه له بأفواههم خلافُ ما فى ضمائر قلوبهم ، وضِدٌ ما فى عزائم نفوسهم .

وفى هذه الآية دلالةٌ واضحة على بُطول ما زَعَمتْه الجهمية : من أنّ الإيمان هو التصديق بالقول ، دون سائر المعانى غيره. وقد أخبر الله جل ثناؤه عن الذين ذكرهم فى كتابه من أهل النفاق، أنهم قالوا بألسنتهم : « آمنا بالله وباليوم الآخر » ، ثم نفَى عنهم أن يكونوا مؤمنين ، إذْ كان اعتقادهم غيرَ مُصَدِّقٍ قِيلَهُم ذلك.

وقوله « وما هم بمؤمنين » ، يعنى بمصدِّقين » فيما يزعمون أنهم به مُصَدِّقون .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾

قال أبو جعفر : وخداعُ المنافق ربَّه والمؤمنينَ ، إظهارُه بلسانه من القول والتصديق ، خلافَ الذى فى قلبه من الشكّ والتكذيب ، ليدْرَأ عن نفسه، بما أظهر بلسانه ، حكمَ الله عز وجلّ — اللازمَ مَن كان بمثل حاله من التكذيب، لو لم يُظْهِرْ

(١) وذلك قول ربنا سبحانه فى سورة الحج : ٥٥ : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾.

بلسانه ما أظهرَ من التصديق والإقرار — من القَتْل والسِّباء . فذلك خِداعُه ربَّه وأهلَ الإيمان بالله .

فإن قال قائل : وكيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مُخادِعاً ، وهو لا يظهر بلسانه خلافَ ما هو له معتقدٌ إلا تَقِيَّةً ؟

قيل : لا تمتنعُ العربُ من أنْ تُسمِّى من أعطى بلسانه غيرَ الذى هو فى ضميره تَقِيَّةً لينجو مما هو له خائف ، فنجا بذلك مما خافه — مُخادِعاً لمن تخلص منه بالذى أظهر له من التَّقِيَّة . فكذلك المنافق ، سمى مخادعاً لله وللمؤمنين ، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقيَّةً ، مما تخلَّص به من القتل والسِّباءِ والعذاب العاجل ، وهو لغير ما أظهر مستبطِنٌ . وذلك من فعلِه — وإن كان خِداعاً للمؤمنين فى عاجل الدنيا — فهو لنفسه بذلك من فعله خادعٌ ، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها ، أنه يُعطيها أمنيَّتها ، ويُسقيها كأس سُرورها ، وهو مُورِدُها بهحياض عَطَبِها ، ومجرِّعها به كأس عذابها ، ومُزِيرُها من غَضَب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به[1] . فذلك خديعتُه نفسه ، ظنًّا منه — مع إساءته إليها فى أمر معادها — أنه إليها محسن ، كما قال جل ثناؤه : « وما يخدَعُون إلا أنفسهم وما يشعُرُون » . إعلاماً منه عبادَه المؤمنين أنَّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفُسهم فى إسخاطهم ربَّهم بكُفْرهم وشكِّهم وتكذيبهم — غيرُ شاعرين ولا دارين ، ولكنهم على عَمْيَاء من أمرِهم مُقيمون .

١٢/١

وبنحو ما قلنا فى تأويل ذلك ، كان ابن زيد يقول .

٣٢٠ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألت عبد الرحمن بن زيد عن قول الله جل ذكره : ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى

---

(١) فى المطبوعة : « ومذيقها من غضب الله » ، وفى المخطوطة : « ومر بدها . . . » ، وفى تفسير ابن كثير ١ : ٨٧ « ومز برها . . . » ، والصواب ما أثبتناه ، وأزاره : حمله على الزيارة . وفى حديث طلحة : « . . . حتى أزرته شعوب » ، وشعوب هى المنية ، أى أوردته المنية فزارها . وجعلها زيارة ، وهى هلاك . سخرية بهم واستهزاء ، لقبح غرورهم بربهم ، وفرحهم بما مد لهم من العمر والمال والمتاع .

آخر الآية ، قال : هؤلاء المنافِقُون ، يخادعون الله ورسولَه والذين آمنوا ، أنهم مؤمنون بما أظهروا[١] .

وهذه الآية من أوضح الدليل على تكذيب الله جلّ ثناؤه الزاعمين : أن الله لا يُعذِّب من عباده إلا من كَفَرَ به عناداً ، بعد علمه بوحدانيته ، وبعد تقرُّر صحّة ما عاندَ ربَّه تبارك وتعالى عليه من توْحيده ، والإقرار بكتبه ورُسله — عنده . لأن الله جلّ ثناؤه قد أخبرَ عن الذين وَصفهم بما وصفهم به من النفاق ، وخِداعهم إياه والمؤمنين — أنهم لا يشعرون أنهم مُبْطلون فيما هم عليه من الباطل مُقيمون ، وأنّهم بخداعهم — الذى يحسبون أنهم به يُخادعون ربهم وأهلَ الإيمان به — مخدوعون . ثم أخبر تعالى ذكره أنّ لهم عذاباً أليماً بتكذيبهم بما كانوا يكذّبون من نبوة نبيّه ، واعتقاد الكفر به ، وبما كانوا يَكذِبون فى زعمهم أنهم مؤمنون ، وهم على الكفر مُصِرُّون .

فإن قال لنا قائل : قد علمت أن « المُفاعلة » لا تكون إلا من فاعلَيْن ، كقولك : ضاربتُ أخاك ، وجالست أباك — إذا كان كل واحد مجالسَ صاحبه ومضاربه . فأما إذا كان الفعلُ من أحدهما ، فإنما يقال : ضربتُ أخاك ، وجلست إلى أبيك . فمَنْ خادع المنافق فجاز أن يُقال فيه : خادع الله والمؤمنين ؟

قيل : قد قال بعضُ المنسوبين إلى العلم بلغات العرب[٢] : إنّ ذلك حرفٌ جاء بهذه الصورة أعنى « يُخادِع » بصورة « يُفاعل » ، وهو بمعنى « يَفْعَل » ، فى حروفٍ أمثالها شاذةٍ من منطقِ العرب ، نظيرَ قولهم : قاتَلكَ الله ، بمعنى قتَلكَ الله .

وليس القول فى ذلك عندى كالذى قال ، بل ذلك من « التفاعل » الذى لا يكون إلا من اثنين ، كسائر ما يُعرف من معنى « يفاعل ومُفاعل » فى كل كلام العرب . وذلك : أن المنافق يُخادع الله جل ثناؤه بكَذِبه بلسانه — على ما قد تقدّم

---

(١) الأثر ٣٢٠ — فى الدر المنثور ١ : ٣٠ ، والشوكانى ١ : ٣٠ بتمامه ، ويأتى تمامه فى تفسير بقية الآية برقم : ٣٢١ .

(٢) يعنى أبا عبيدة فى كتابه « مجاز القرآن » : ٣١ .

وصفه — والله تبارك اسمه خادِعُه، بخذلانه عن حسن البصيرة بما فيه نجاةُ نفسه في آجل مَعادِه، كالذي أخبر في قوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٨] ، وبالمعنى الذي أخبرَ أنه فاعلٌ به في الآخرة بقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحديد : ١٣]، فذلك نظيرُ سائر ما يأتي من معاني الكلام بـ « يُفاعِل ومُفاعِل ».

وقد كان بعض أهل النحو من أهل البصرة يقول : لا تكون المفاعلة إلا من شيئين، ولكنه إنما قيل : « يُخادِعون الله » عند أنفسهم، بظنّهم أن لا يعاقَبُوا، فقد علموا خلافَ ذلك في أنفسهم، بحجة الله تبارك اسمه الواقعة على خلقه بمعرفته، وما يخدعون إلا أنفسهم. قال : وقد قال بعضُهم : « وما يخدعون »، يقول : يخدَعُون أنفسهم بالتَّخْلية بها[1] . وقد تكون المفاعلة من واحد في أشياء كثيرة .

• • •

القول في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾

إن قال قائل : أو ليس المنافقون قد خدعُوا المؤمنين — بما أظهرُوا بألسنتهم من قيل الحق — عن أنفسهم وأموالِهم وذَرَاريهم حتى سلمت لهم دنياهم، وإن

---

(١) يعني بقوله « بالتخلية بها » ، أي بالانفراد بها وإخفاء ما يبطنون من الكفر . كأن أراد أن يجعل اشتقاق « يخدعون » من المخدع ، وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير ، وأراد الستر الشديد لما يبطنون . وأخل بفلان يخل به إخلاء : انفرد به في مكان خال . واستعمل « التخلية » بمعنى أنه حمل على الخلوة ، كأنه حمل نفسه على الخلوة بها والانفراد ، ليخفي ما فيها . وهذا الذي ذكره شرح لبقية الآية الذي سيأتي بعد .

١/٩٢ كانوا قد كانوا مخدوعين فى أمر آخرتهم ؟

قيل : خطأٌ أن يقال إنهم خدعوا المؤمنين. لأنَّا إذا قلنا ذلك، أوجبنا لهم حقيقةَ خدعةٍ جازت لهم على المؤمنين[١] . كما أنَّا لو قلنا: قتل فلان فلاناً، أوجبنا له حقيقةَ قتلٍ كان منه لفلان. ولكنا نقول: خادَعَ المنافقون ربَّهم والمؤمنين ، ولم يَخْدَعوهم بَل خدعوا أنفسهم، كما قال جل ثناؤه ، دون غيرها ، نظيرَ ما تقول فى رجل قاتَلَ آخر ، فقتَل نفسَه ولم يقتُل صاحبه : قاتَل فلان فلاناً فلم يقتل إلا نفسه ، فتوجبُ له مقاتَلةَ صاحبه، وتنفى عنه قتلَه صاحبَه، وتوجب له قتل نفسه.

فكذلك تقول : « خادَعَ المنافقُ ربَّه والمؤمنين فلم يخدعْ إلا نفسه »، فتثبت منه مخادعةَ ربه والمؤمنين ، وتنفى عنه أن يكون خدَع غيرَ نفسه ، لأن الخادعَ هو الذى قد صحّت الخديعة له ، ووَقع منه فعلُها. فالمنافقون لم يخدَعوا غيرَ أنفسهم، لأنّ ما كان لهم من مال وأهلٍ ، فلم يكن المسلمون مَلَكوه عليهم — فى حال خِداعهم إياهم عنه بنفاقهم وَلا قبلَها — فيستنقِذُوه بخداعهم منهم، وإنما دافعوا عنه بكذبهم وإظهارهم بألسنتهم غيرَ الذى فى ضمائرهم، ويحكُم الله لهم فى أموالهم وأنفسهم وذراريهم فى ظاهر أمورِهم بحُكْم ما انتسبوا إليه من الملّة، والله بما يُخْفون من أمورِهم عالم. وإنما الخادع من ختَل غيرَهُ عن شيئه، والمخدوعُ غير عالم بموضع خديعةِ خادِعه. فأما والمخادَع عارفٌ بخداعِ صاحبه إياه = غير لاحقِه من خداعه إيّاه مكروهٌ، بل إنما يَتجافى للظَّانّ به أنه له مُخادِع ، استدراجاً، ليبلغ غايةً يتكامل له عليه الحُجّةُ للعقوبة التى هو به مُوقِع عندبلوغه إياها[٢] ، والمُسْتَدْرَج غيرُ عالم بحال نفسه عند مستدرِجه، ولا عارفٍ باطّلاعه على ضميره ، وأنّ إمهالَ مستدرِجه إياه، تركه معاقبته على جرمه[٣] ، ليبلغ المخاتِل المخادِعُ — من استحقاقه عقوبةَ مستدرِجه ،

---

(١) فى المطبوعة : « جاءت لهم على المؤمنين » ، وهو خطأ .

(٢) فى المطبوعة : « التى هو بها موقع » ، وعنى : العقوبة التى هو موقعها به . . .

(٣) فى المطبوعة : « وأن إمهال مستدرجه ، وتركه إياه معاقبته على جرمه » ، وهو خطأ مفسد المعنى .

بكثرة إساءته ، وطول عِصيانه إياه، وكثرة صفح المستدرِج ، وطول عفوه عنه — أقصى غاية[1] = فإنما هو خادع نفسه لا شك ، دون من حدَّثته نفسه أنه له مخادعٌ . ولذلك نَفى الله جل ثناؤه عن المنافق أن يكون خَدَعَ غيرَ نفسه، إذ كانت الصِّفةُ التي وَصَفنا صفتَه .

وإذ كان الأمر على ما وصفنا من خِداع المنافق ربَّه وأهلَ الإيمان به، وأنه غير صائر بخداعه ذلك إلى خديعةٍ صحيحة إلا لنفسه دون غيرها، لما يُوَرِّطها بفعله من الهلاك والعطب — فالواجب إذاً أن يكون الصحيح من القراءة : ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ دون ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ﴾ لأن لفظ «المخادع» غير مُوجب تثبيتَ خديعةٍ على صحَّة ، ولفظ « خادع » موجب تثبيت خديعة على صحة . ولا شك أن المنافق قد أوْجبَ خديعة الله عز وجل لِنَفْسه بما رَكِبَ من خداعه ربَّه ورسولَه والمؤمنين — بنفاقه، فلذلك وجبَت الصِّحةُ لقراءة من قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

ومن الدلالة أيضاً على أن قراءة من قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ أولى بالصحة من قراءة من قرأ: ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ﴾ ، أن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم يُخادعون الله والمؤمنين فى أول الآية ، فمحال أن يَنفى عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه، لأن ذلك تضادٌ فى المعنى ، وذلك غير جائزٍ من الله جلَّ وعزَّ .

* * *

القول فى تأويل قول الله جل ثناؤه : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)

يعني بقوله جل ثناؤه « وما يَشعرون »، وما يَدْرُون . يقال : ما شَعَرَ فلانٌ بهذا الأمر، وهو لا يشعر به — إذا لم يَدْرِ ولم يَعْلم — شِعراً وشعوراً. وقال الشاعر :

(١) سياق هذه العبارة : « ليبلغ المخاتل المخادع ... أقصى غاية » ، وسياق الذى يليها من صدر الجملة : « فأما والمخادع عارف . . . فإنما هو خادع نفسه . . . » ، وما بينهما فصل طويل .

عَقُّوا بِسَهمٍ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ ثُمَّ اسْتَفَاؤُوا وَقَالُوا: حَبَّذَا الوَضَحُ[1]

يعنى بقوله : لم يَشعر به ، لم يدر به أحد ولم يعلم . فأخبر الله تعالى ذكره عن المنافقين : أنهم لا يشعرون بأن الله خادِعُهم ، بإملائه لهم واستدراجِه إياهم ، الذى هو من الله جل ثناؤه إبلاغٌ إليهم فى الحجة والمعذرة ، ومنهم لأنفسهم خديعةٌ ، ولها فى الآجل مَضرّة ، كالذى — :

٣٢١ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سألت ابن زيد عن قوله : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، قال : ما يشعرون أنهم ضرُّوا أنفسهم ، بما أسَرُّوا من الكفر والنِّفاق . وقرأ قول الله تعالى ذكره : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ﴾ ، قال : هم المنافقون حتى بلغ ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَىْءٍ ﴾ [سورة المجادلة : ١٨] ، قد كان الإيمان ينفعهم عندكم[2] .

١ / ٩٤

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾

قال أبو جعفر : وأصل المرَض : السَّقم ، ثم يقال ذلك فى الأجساد والأديان . فأخبر الله جلّ ثناؤه أن فى قلوب المنافقين مَرضاً ، وإنما عنى تبارك وتعالى بخبره

---

(١) الشعر للمتنخل الهذلى ، ديوان الهذليين ٢ : ٣١ ، وأمالى القالى ١ : ٢٤٨ ، وسمط اللآلى ٥٦٣ . عقى بالسهم : رمى به فى السماء لا يريد به شيئاً ، وأصله فى الثأر والدية ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون إلى أولياء المقتول بدية مكملة ، ويسألونهم قبول الدية . فإن كانوا أقوياء أبوا ذلك ، وإلا أخذوا سهماً ورموا به فى السماء ، فإن عاد مضرجاً بدم ، فقد زعموا أن ربهم نهاهم عن أخذ الدية . وإن رجع كما صعد ، فقد زعموا أن ربهم أمرهم بالعفو وأخذ الدية . وكل ذلك أبطل الإسلام . وفاء واستفاء : رجع . والوضح : اللبن . يهجوهم بالذلة والدناءة ، فأهدروا دم قتيلهم ، ورموا بالسهم الذى يزعمونه يأمرهم وينهاهم ، ورجعوا عن طلب الترة إلى قبول الدية ، وآثروا إبل الدية وألبانها على دم قاتل صاحبهم ، وقالوا فى أنفسهم : اللبن أحب إلينا من القود وأنفع .

(٢) الأثر ٣٢١ — هو تمام الأثر الذى سلف : ٣٢٠ .

عن مرض قلوبهم ، الخبرَ عن مرض ما فى قلوبهم من الاعتقاد = ولكن لمّا كان معلوماً بالخبَر عن مرض القلب ، أنّه معنىٌّ به مرضُ ما هم معتقدُوه من الاعتقاد — استغنى بالخبَر عن القلب بذلك = والكفاية عن تصريح الخبَر عن ضمائرهم واعتقاداتهم[١] ، كما قال عُمر بن لَجَأ :

وَسَبَّحَتِ الْمَدِينَةُ ، لا تَلُمْهَا ، رَأَتْ قَمَراً بِسُوقِهِمُ نَهَارَا[٢]

يريد : وسبّح أهل المدينة ، فاستغنى بمعرفة السامعين خبَرَه بالخبَرِ عن المدينة ، عن الخبر عن أهلها . ومثله قول عنترة العبسى :

هَلَّا سَأَلْتِ الْخَيْلَ يَاٱبْنَةَ مَالِكٍ؟ إنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِى[٣]

يريد : هلا سألتِ أصحاب الخيل ؟ ومنه قولهم : « يا خَيْلَ الله اركبى » ، يراد : يا أصحاب خيل الله اركبُوا . والشواهد على ذلك أكثر من أن يُحصيها كتاب ، وفيما ذكرنا كفاية لمن وُفّق لفهمه .

فكذلك معنى قول الله جل ثناؤه : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ إنما يعنى : فى اعتقاد قلوبهم الذى يعتقدونه فى الدين ، والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله — مرَض وسُقْم . فاجترأ بدلالة الخبَر عن قلوبهم على معناه ، عن تصريح الخبر عن اعتقادهم .

والمرضُ الذى ذكر الله جل ثناؤه أنّه فى اعتقاد قلوبهم الذى وصفنا : هو شكُّهم فى أمر محمد وما جاء به من عند الله ، وتحيُّرُهم فيه ، فلاهم به موقنون إيقان إيمان ، ولا هم له منكرون إنكارَ إشراك ، ولكنهم ، كما وصفهم الله عز وجل ، مُذَبْذَبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء[٤] ، كما يقال : فلان يُمرِّضُ فى هذا الأمر ،

(١) فى المطبوعة : « والكناية عن تصريح الخبر . . . » ، وقوله : « والكفاية عن تصريح الخبر . . . » معطوف على قوله « الخبر عن مرض ما فى قلوبهم . . . » .

(٢) يأتى البيت فى تفسير آية البقرة : ١١٠ (١ : ٣٩١ بولاق) .

(٣) فى معلقته المشهورة .

(٤) تضمين آية سورة النساء : ١٤٣ .

أي يُضَعِّف العزمَ ولا يصحِّح الرويَّة فيه .

وبمثل الذى قلنا فى تأويل ذلك ، تظاهر القول فى تفسيره من المفسِّرين .

ذكر من قال ذلك :

٣٢٢ - حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أوعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « فى قلوبهم مرضٌ » ، أى شكٌّ .

٣٢٣ - وحدِّثت عن المِنْجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : المرض : النفاق .

٣٢٤ - حُدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّىّ فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس - وعن مُرّة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « فى قلوبهم مرضٌ » يقول : فى قلوبهم شكّ .

٣٢٥ - حُدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد ، فى قوله : « فى قلوبهم مَرَضٌ » ، قال : هذا مرض فى الدِّين ، وليس مَرَضاً فى الأجساد ، قال : وهم المنافقون .

٣٢٦ - حدثنى المثنّى بن إبراهيم ، قال : حدثنا سُوَيد بن نصر ، قال : أخبرنا ابنُ المبارك قراءةً ، عن سعيد ، عن قتادة ، فى قوله « فى قلوبهم مَرَض » قال : فى قلوبهم ريبة وشك فى أمر الله جل ثناؤه .

٣٢٧ - وحدِّثت عن عمّار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « فى قلوبهم مَرَضٌ » قال : هؤلاء أهلُ النفاق ، والمرضُ الذى فى قلوبهم : الشك فى أمر الله تعالى ذكره .

٣٢٨ - حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ حتى بلغ ﴿ فِى

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال : المرض : الشكّ الذى دخلهم فى الإسلام[١].

• • •

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾

١/٩٥ قد دللنا آنفاً على أن تأويل المرض الذى وصَف الله جل ثناؤه أنه فى قلوب المنافقين ، هو الشكُّ فى اعتقادات قلوبهم وأديانهم ، وما هم عليه — فى أمر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر نبوته وما جاء به — مقيمون.

فالمرض الذى أخبرَ الله جل ثناؤه عنهم أنّه زادهم على مرضهم ، نظيرُ ما كان فى قلوبهم من الشّكّ والحيْرة قبل الزيادة ، فزادهم الله بما أحدث من حدوده وفرائضِه — التى لم يكن فرضَها قبلَ الزيادة التى زادها المنافقين — من الشك والحيرة ، إذْ شكّوا وارتابوا فى الذى أحدَث لهم من ذلك —[٢] إلى المرض والشك الذى كان فى قلوبهم فى السّالف ، من حدوده وفرائضه التى كان فرَضها قبل ذلك . كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذى كانوا عليه قبل ذلك ، بالذى أحدث لهم من الفرائض والحدود إذْ آمنوا به ، إلى إيمانهم بالسالف من حُدُوده وفرائضه — إيماناً. كالذى قال جل ثناؤه فى تنزيله : ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِى

---

(١) الأخبار : ٣٢٢ — ٣٢٨ ، نقلها ابن كثير ١ : ٨٨ ، والسيوطى ١ : ٣٠ ، والشوكانى ١ : ٣٠ — مع تتمتها الآتية فى تفسير بقية الآية ، بالأرقام : ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ — على هذا التوالى . ولكن ٣٣٦ لم يذكر فيه « عن ابن عباس » .

و« المنجاب » فى ٣٢٣ ، ٣٣٦ : هو ابن الحارث بن عبد الرحمن التميمى ، من شيوخ مسلم ، روى عنه فى صحيحه ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، وهو بكسر الميم وسكون النون وفتح الجيم وآخره باء موحدة .

(٢) سياق العبارة : « فزادهم الله بما أحدث من حدوده . . . من الشك والحيرة . . . إلى المرض والشك الذى كان فى قلوبهم . . . » .

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥]. فالزيادة التى زِيدَها المنافقون من الرَّجاسة إلى رَجاستهم ، هو ما وصفنا. والتى زِيدَها المؤمنون إلى إيمانهم ، هو ما بيّنا . وذلك هو التأويل المجمَعُ عليه .

ذِكْرُ بعض من قال ذلك من أهل التأويل :

٣٢٩ — حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « فزادهم الله مَرَضاً » ، قال : شكًّا

٣٣٠ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : أخبرنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدِّىّ ، فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « فزادَهُم الله مَرَضاً » ، يقول : فزادهم الله رِيبَةً وشكًّا .

٣٣١ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك قراءةً ، عن سعيد ، عن قتادة : « فزادهم الله مرضاً » ، يقول : فزادهم الله ريبةً وشكًّا فى أمْر الله .

٣٣٢ — حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قول الله : « فى قلوبهم مَرَضٌ فزادهم الله مَرَضاً » ، قال : زادهم رِجْساً ، وقرأ قول الله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ قال : شرًّا إلى شرِّهم ، وضلالةً إلى ضلالتهم .

٣٣٣ — وحُدِّثت عن عمّار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « فزادهم الله مَرَضاً » ، قال : زادهم الله شكًّا[1] .

---

(١) الأخبار : ٣٢٩ — ٣٣٣ : هى تمام الآثار السالفة : ٣٢٢ — ٣٢٨ .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قال أبو جعفر : والأليم : هو المُوجِعُ . ومعناه : ولهم عذاب مؤلم . بصرف « مؤلم » إلى « أليم »[1] ، كما يقال : ضَرْبٌ وجيعٌ بمعنى مُوجع ، والله بَديع السموات والأرض ، بمعنى مُبْدِع . ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعى السَّمِيعُ يُؤَرِّقُنى وأَصْحَابِى هُجُوعُ[2]

بمعنى المُسْمِع . ومنه قول ذى الرمة :

وَتَرْفَعُ مِنْ صُدُورِ شَمَرْدَلَاتٍ يَصُدُّ وُجُوهَهَا وَهَجٌ أَلِيمُ[3]

ويروى « يَصُكُّ » ، وإنما الأليم صفةٌ للعذاب ، كأنه قال : ولهم عذاب مؤلم . وهو مأخوذ من الألم ، والألم : الوَجَعُ . كما -- :

٣٣٤ -- حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : الأليم ، المُوجع .

٣٣٥ -- حدثنا يعقوب ، قال : حدثنا هُشيم ، قال : أخبرنا جُوَيْبر ، عن الضحاك ، قال : الأليمُ ، الموجع[4] .

---

(١) فى المطبوعة : « فصرف مؤلم . . . » .

(٢) الأصمعيات : ٤٣ ، ويأتى فى تفسير آية سورة يونس : ١ (١١ : ٥٨ بولاق) . وريحانة : هى بنت معديكرب ، أخت عمرو بن معديكرب ، وهى أم دريد بن الصمة ، وكان أبو الصمة ، سباها وتزوجها . (الأغانى ١٠ : ٤) .

(٣) ديوانه : ٥٩٢ . وقوله « وترفع من صدور . . . » أى نستحثها فى السير ، والإبل إذا أسرعت رفعت من صدورها . وشمردلات جمع شمردلة : وهى الناقة الحسنة الجميلة الخلق الفتية السريعة. وقوله « يصد وجوهها » أى يستقبل وجوهها ويضربها وهج أليم ، فتصد وجوهها أى تلويها كالمعرضة عن لذعته . ورواية ديوانه : « يصك » ، وصكه صكة : ضربه ضربة شديدة. والوهج : حرارة الشمس، أو حرارة النار من بعيد .

(٤) الأثر ٣٣٥ -- يعقوب : هو ابن إبراهيم الدورقى الحافظ. هشيم -- بضم الهاء : هو ابن بشير ، بفتح الباء وكسر الشين المعجمة ، بن القاسم ، أبو معاوية الواسطى ، إمام حافظ كبير ، روى عنه

٣٣٦ — وحدِّثت عن المِنْجاب بن الحارث ، قال : حدثنا بشْر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، في قوله « أليم » ، قال : هو العذاب المُوجع . وكل شيء في القرآن من الأليم فهو الموجع[1] .

* * *

١/٩٦

القول في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١٠)

اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك[2] ، فقرأه بعضهم : ﴿ بِمَا كانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ مُخَفَّفة الذّال مفتوحة الياء ، وهي قراءة عُظْم قَرَأة أهل الكوفة . وقرأه آخرون : ﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ بضم الياء وتشديد الذال ، وهي قراءة عُظْم قَرَأة أهل المدينة والحجاز والبصرة[3] .

وكأنّ الذين قرأوا ذلك ، بتشديد الذال وضم الياء ، رأوا أن الله جل ثناؤه إنما أوجب للمنافقين العذابَ الأليم بتكذيبهم نبيَّه صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وأن الكذِبَ لولا التكذيبُ لا يُوجب لأحدٍ اليَسير من العذاب ، فكيف بالأليم منه ؟

وليس الأمر في ذلك عندي كالذي قالوا . وذلك : أنّ الله عز وجل أنبأ عن المنافقين في أول النبأ عنهم في هذه السورة ، بأنهم يَكذِبون بدَعْواهم الإيمانَ ، وإظهارهم ذلك بألسنتهم ، خِداعاً لله عز وجلّ ولرسوله وللمؤمنين ، فقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾

الأئمة : أحمد وابن المديني وغيرهما ، وقال عبد الرحمن بن مهدي : « كان هشيم أحفظ للحديث من سفيان الثوري » . ومعنى هذا الأثر مضمن في الذي بعده : ٣٣٦ .

(١) الأثر ٣٣٦ — ذكره السيوطي ١ : ٣٠ . وأشار إليه الشوكاني ١ : ٣٠ .

(٢) في المطبوعة : « اختلفت القراء » ، والقرأة : جمع قارئ ، وانظر ما مضى ، ٥١ تعليق ، وص ٦٤ تعليق : ٤ ، وص ١٠٩ تعليق : ١ .

(٣) في المطبوعة : « قراءة معظم أهل الكوفة » ، و « قراءة معظم أهل المدينة . . . » ، وعظم الناس : معظمهم وأكثرهم . وانظر التعليق السالف ، ثم ص ١٠٩ تعليق : ١ .

بذلك من قيلهم، مع استسرارهم الشكّ والريبة ، ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ ﴾ بصنيعهم ذلك ﴿ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ دون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ بموضع خديعتهم أنفسَهم، واستدراج الله عزوجل إيّاهم بإملائه لهم، ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ شك النفاق وريبتُه[1] والله زائدهم شكًّا وريبة بما كانوا يكذِّبون الله ورسوله والمؤمنين بقولهم بألسنتهم آمنّا بالله وباليوم الآخر ، وهم في قيلهم ذلك كَذَبة ، لاستسرارهم الشّكّ والمرض في اعتقادات قلوبهم في أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم . فأولى في حكمة الله جل جلاله ، أن يكون الوعيد منه لهم على ما افتتح به الخبَر عنهم من قبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم، دون ما لم يَجْرِ له ذكر من أفعالهم . إذْ كان سائرُ آيات تنزيله بذلك نَزَل ، وهو : أن يَفتتح ذكر محاسن أفعالِ قوم ، ثم يختم ذلك بالوعد على ما افتتح به ذِكره من أفعالهم ،ويفتتح ذِكْر مساوى أفعالِ آخرين ، ثم يختم ذلك بالوعيدِ على ما ابتدأ به ذكرَه من أفعالهم .

فكذلك الصحيح من القول — في الآيات التي افتتح فيها ذِكر بعض مساوىء أفعال المنافقين— أنْ يختم ذلك بالوعيد على ما افتتح به ذِكرَه من قبائح أفعالهم. فهذا هذا[2] ، مع دلالة الآية الأخرى على صحة ما قلنا،وشهادتـها بأن الواجب من القراءة ما اخترنا ، وأنّ الصواب من التأويل ما تأوّلنا ، من أنّ وعيد الله المنافقين في هذه الآية العذابَ الأليمَ على الكذب الجامع معنى الشكّ والتكذيب ، وذلك قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ١ ، ٢]. والآية

---

(١) في المطبوعة : « في قلوبهم شك ، أي نفاق وريبة » . والذي في المخطوطة أصح .

(٢) في المطبوعة : « فهذا مع دلالة الآية الأخرى. . . » ، ولم يأت في الجملة خبر قوله « فهذا » ، والذي في المخطوطة هو الصواب .

الأخرى فى المجادلة: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [سورة المجادلة : ١٦]. فأخبر جل ثناؤه أنّ المنافقين — بقيلهم ما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع اعتقادهم فيه ما هم معتقدون — كاذبون . ثم أخبر تعالى ذكره أنّ العذابَ المُهينَ لهم ، على ذلك من كذبهم . ولو كان الصحيح من القراءة على ما قرأه القارِئون فى سورة البقرة: «ولهم عذاب أليم بما كانوا يُكَذِّبون» لكانت القراءةُ فى السورة الأخرى : « والله يشهدُ إن المنافقين » لمكذّبون ، ليكون الوعيدُ لهم الذى هو عَقِيب ذلك وعيداً على التكذيب لا على الكذب. وفى إجماع المسلمين على أنّ الصواب من القراءة فى قوله: « والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون » بمعنى الكذب — وأن إيعاد الله تبارك وتعالى فيه المنافقين العذابَ الأليمَ على ذلك من كذبهم — أوضحُ الدّلالة على أن الصحيح من القراءة فى سورة البقرة : « بما كانوا يَكْذِبون » بمعنى الكذِب ،وأن الوعيدَ من الله تعالى ذِكره للمنافقين فيها على الكذب — حقٌّ — لا على التكذيب الذى لم يجر له ذِكر — نظيرَ الذى فى سورة المنافقين سواءً. ٩٧/١

وقد زعم بعضُ نحويِّى البصرة أن « ما » من قول الله تبارك اسمه « بما كانوا يكذبون » ،اسم للمصدر ، كما أنّ «أنْ» و «الفعل» اسمان للمصدر فى قولك: أحب أن تأتينى ، وأن المعنى إنما هو بكَذِبهم وتَكْذِيبهم. قال: وأدخل « كان » ليخبر أنه كان فيما مضى ، كما يقال : ما أحسن ما كان عبدُ الله ، فأنت تعجَبُ من عبد الله لا من كونه ، وإنما وَقع التعجُّب فى اللفظ على كوْنه . وكان بعض نحويِّى الكوفة يُنكر ذلك من قوله ويستخطئه ،ويقول: إنما ألغِيَت « كان » فى التعجُّب، لأن الفعل قد تقدَّمها ، فكأنه قال : «حَسَناً كان زيد» و«حَسَن كان زَيْدٌ» يُبْطِلُ « كان » ، ويُعْمِل مع الأسماء والصِّفات التى بألفاظ الأسماء ، إذا جاءت قبل « كان »، ووقعت « كان » بينها وبين الأسماء . وأما العِلَّة فى إبطالها إذا أبطِلت فى هذه الحال، فَلِشَبَه الصِّفات والأسماء بـ «فعل» و«يفعل » اللتين لا يظهرُ عمل

« كان » فيهما . ألا ترى أنك تقول : « يقوم كان زيد » ولا يظهر عمل « كان » فى « يقوم » ، وكذلك « قام كان زيد » . فلذلك أبطل عملها مع « فاعل » تمثيلا بـ « فعل » و « يفعل » ، وأعملت مع « فاعل » أحياناً لأنه اسم ، كما تعمل فى الأسماء . فأما إذا تقدمت « كان » الأسماءَ والأفعالَ ، وكان الاسم والفِعْلُ بعدها ، فخطأ عنده أن تكون « كان » مبطلة . فلذلك أحال قول البصرىّ الذى حكيناه ، وتأوّل قول الله عز وجل « بما كانوا يكذبون » أنه بمعنى : الذى يكذبونه .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ ﴾

اختلف أهلُ التأويل فى تأويل هذه الآية :

فرُوى عن سَلْمان الفارسىّ أنه كان يقول : لم يجئْ هؤلاء بعدُ .

٣٣٧ – حدثنا أبو كُرَيب ، قال : حدثنا عَثّامُ بن على ، قال : حدثنا الأعمش ، قال : سمعت المِنْهال بن عمرو يُحدِّث ، عن عَبَّاد بن عبد الله ، عن سَلْمان ، قال : ما جاء هؤلاء بعدُ ، الّذين ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [١]

---

(١) الخبر ٣٣٧ – عثام – بفتح العين المهملة وتشديد الثاء المثلثة – بن على العامرى : ثقة ، وثقه أبو زرعة وابن سعد وغيرهما . ترجمه ابن سعد ٦ : ٢٧٣ ، والبخارى فى الكبير ٩٣/١/٤ ، وابن أبى حاتم ٤٤/٢/٣ . المنهال بن عمرو الأسدى : ثقة ، رجحنا توثيقه فى المسند : ٧١٤ ، وقد جزم البخارى فى الكبير ١٢/٢/٤ أن شعبة روى عنه ، ورواية شعبة عنه ثابتة فى المسند : ٣١٣٣ . عباد ابن عبدالله : هو الأسدى الكوفى ، قال البخارى : « فيه نظر » ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، وضعفه ابن المدينى ، وذكر ابن أبى حاتم ٨٢/١/٣ أنه « سمع عليا » . وقد بينت فى شرح المسند : ٨٨٣ أن حديثه حسن . وسلمان : هو سلمان الخير الفارسى الصحابى ، رضى الله عنه . وهذا الخبر نقله ابن كثير ١ : ٩١ ، والسيوطى ١ : ٣٠ ، ونسبه أيضاً لوكيع وابن أبى حاتم ، وذكره الشوكانى ١ : ٣١ ونسبه لابن إسحق وابن جرير وابن أبى حاتم ، ولم أجد نسبته لابن إسحق عند غيره .

٣٣٨– حدثنى أحمد بن عثمان بن حكيم، قال: حدثنا عبد الرحمن بن شريك، قال : حدثنا أبى ، قال : حدثنى الأعمش ، عن زيد بن وهب وغيره ، عن سلمان ، أنه قال فى هذه الآية ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ، قال : ما جاء هؤلاء بعدُ[1] .

وقال آخرون بما — :

٣٣٩ — حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّىّ فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ، هم المنافقون . أما « لا تفسدوا فى الأرض » ، فإن الفساد، هو الكفر والعملُ بالمعصية.

٣٤٠— وحُدِّثت عن عمّار بن الحسن، قال: حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : ﴿ وإذا قيل لهمْ لا تفسدوا فى الأرض ﴾ يقول : لا تعصُوا فى الأرض ﴿ قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ، قال: فكان فسادُهم ذلك معصيةَ الله جل ثناؤه، لأن من عَصَى الله فى الأرض أو أمر بمعصيته ، فقد أفسدَ فى الأرض ، لأن إصلاحَ الأرض والسماء بالطاعة[2] .

---

(١) الخبر ٣٣٨ — أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى : ثقة ، وثقه النسائى والبزار وغيرهما ، روى عنه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، وهو من الشيوخ القلائل الذين روى عنهم البخارى وهم أحياء ، فإنه مات سنة ٢٦٠ أو ٢٦١ ، والبخارى مات سنة ٢٥٦ . عبد الرحمن بن شريك بن عبد الله النخعى : ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال أبو حاتم : « واهى الحديث » .

وإسناده عندى حسن ، وقد مضى قبله بإسناد آخر حسن . فكل منهما يقوى الآخر ، وقد نقله ابن كثير ١ : ٩١ عن الطبرى بهذا الإسناد .

(٢) الأثر ٣٤٠ — قوله : « قالوا إنما نحن مصلحون » ، من المخطوطة ، وليس فى المطبوعة ، وفى المطبوعة والمخطوطة : « فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله . . . » ، و « على أنفسهم » كأنها زيادة من الناسخ ، وليست فيما نقله ابن كثير عن الطبرى .

وأولى التأويلين بالآية تأويل من قال : إن قولَ الله تبارك اسمه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ، نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان معنيًّا بها كُلُّ من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدَهم إلى يوم القيامة .

وقد يَحتمِل قولُ سلمان عند تلاوة هذه الآية : « ما جاء هؤلاء بعدُ » ، أن يكون قاله بعد فناء الذين كانوا بهذه الصفّة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبراً منه عمَّن هو جاء منهم بَعدَهم ولَمَّا يجئْ بعدُ[1] ، لا أنَّه عنَى أنه لم يمضِ ممّن هذه صفته أحدٌ . ١/٩٨

وإنما قلنا أولى التأويلين بالآية ما ذكرنا ، لإجماع الحجّة من أهل التأويل على أنّ ذلك صفةُ من كان بين ظَهرانَيْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — من المنافقين ، وأنّ هذه الآيات فيهم نَزلَتْ . والتأويل المجمع عليه أولى بتأويل القرآن ، من قولٍ لا دلالةَ على صحته من أصل ولا نظير .

والإفساد فى الأرض ، العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنه ، وتضييعُ ما أمر الله بحفظه ، فذلك جملة الإفساد ، كما قال جل ثناؤه فى كتابه مخبراً عن قِيلِ ملائكته : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٠] ، يعنون بذلك : أتجعل فى الأرض من يَعصيكَ ويُخالف أمرك ؟ فكذلك صفة أهل النفاق : مُفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربَّهم ، وركوبهم فيها ما نَهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضَه ، وشكِّهم فى دين الله الذى لا يقبَلُ من أحدٍ عملا إلا بالتَّصديق به والإيقان بحقيقته[2] ، وكذبِهم المؤمنين بدَعواهم غير ما هم عليه مقيمُون من الشّك والرَّيب ، وبمظاهرتهم أهلَ التكذيب بالله وكُتُبه ورسله على أولياء الله ، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا . فذلك إفساد المنافقين فى أرض الله ، وهم

---

(١) فى المطبوعة : « عمن جاء منهم بعدهم » ، وهو محيل للمعنى ، والصواب من المخطوطة .
(٢) فى المطبوعة : « بحقيقه » ، والصواب من المخطوطة وابن كثير .

يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها . فلم يسقط الله جل ثناؤه عنهم عقوبتَه ، ولا خفّف عنهم أليمَ ما أعدّ من عقابه لأهل معصيته — بحُسبانهم أنهم فيما أتَوْا من معاصي الله مصلحون — بل أوجبَ لهم الدَّرْكَ الأسفل من ناره ، والأليمَ من عذابه ، والعارَ العاجلَ بسَبِّ الله إياهم وشَتْمِه لهم، فقال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .وذلك من حكم الله جل ثناؤه فيهم، أدلّ الدليل على تكذيبه تعالى قولَ القائلين : إن عقوباتِ الله لا يستحقها إلا المعاند ربَّه فيما لزمه من حقُوقه وفروضه ، بعد علمه وثُبوت الحجّة عليه بمعرفته بلزوم ذلك إيّاه .

• • •

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١)

وتأويل ذلك كالذى قالهُ ابن عباس ، الذى — :

٣٤١ — حدثنا به محمد بن حميد ، قال :حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ،أى قالوا: إنما نريد الإصلاحَ بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب .

وخالفه فى ذلك غيره .

٣٤٢ — حدثنا القاسم بن الحسن، قال : حدثنا الحسين بن داود، قال : حدثنى حجّاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾، قال: إذا رَكِبُوا معصيةَ الله فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى ، مصلحون[١] .

---

(١) الخبران ٣٤١، ٣٤٢ — ساقهما ابن كثير ١ : ٩١ ، والسيوطى ١ : ٣٠ والشوكانى ١ : ٣٠ .

قال أبو جعفر : وأىُّ الأمرين كان منهم فى ذلك ، أعنى فى دعواهم أنهم مُصلحون ، فهم لا شك أنهم كانوا يحسبون أنهم فيما أتوا من ذلك مصلحون . فسواءٌ بين اليهود والمسلمين كانت دعواهم الإصلاحَ ، أو فى أديانهم ، وفيما ركبوا من معصية الله، وكذِبهم المؤمنينَ فيما أظهروا لهم من القول وهم لغير ما أظهرُوا مُستبطِنون ؛ لأنهم كانوا فى جميع ذلك من أمرهم عند أنفسهم محسنين ، وهم عند الله مُسيئون، ولأمر الله مخالفون. لأن الله جل ثناؤه قد كان فرض عليهم عداوةَ اليهودِ وحربَهم مع المسلمين،وألزمهم التصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله، كالذى ألزم من ذلك المؤمنين. فكان لقاؤهم اليهودَ — على وجه الولاية منهم لهم، وشكُّهم فى نبوَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به أنه من عند الله — أعظمَ الفساد ، وإن كان ذلك كان عندهم إصلاحاً وهُدًى: فى أديانهم أو فيما بين المؤمنين واليهود ، فقال جل ثناؤه فيهم : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون﴾ دون الذين ينهونهم من المؤمنين عن الإفساد فى الأرض، ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ ٩٩/١

• • •

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢)

وهذا القول من الله جل ثناؤه تكذيبٌ للمنافقين فى دعواهم . إذا أمِروا بطاعة الله فيما أمرَهم الله به ، ونُهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه ، قالوا : إنما نحن مصلحون لا مفسدون،ونحن على رُشْدٍ وهُدًى — فيما أنكرتموه علينا — دونكم لا ضالُّون. فكذَّبهم الله عز وجل فى ذلك من قيلِهم فقال : ألا إنهم هم المفسدون المخالفون أمرَ الله عز وجل، المتعدُّون حُدُودَه، الراكبون معصيتَه، التاركُون فروضَه، وهم لا يشعُرون ولا يَدرُون أنهم كذلك — لا الذين يأمرونهم بالقسط من المؤمنين ،

وينهَوْنَهُم عن معاصى الله فى أرضه من المسلمين .

* * *

القول فى تأويل قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءامِنُوا كَمَا ءامَنَ النَّاسُ ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل قوله : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ﴾ يعنى : وإذا قيل لهؤلاء الذين وَصَفهم الله ونعتَهم بأنهم يقولون:﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ : صَدِّقوا بمحمد وبما جاء به من عند الله، كما صدّق به الناس . ويعنى بـ« الناس » : المؤمنين الذين آمنوا بمحمد ونبوته وما جاء به من عند الله ، كما — :

٣٤٣ — حدثنا أبو كريب، قال : حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عُمارة، عن أبى رَوق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ ، يقول: وإذا قيل لهم صدِّقوا كما صدّق أصحاب محمد، قولوا : إنّه نبيٌّ ورسول ، وإنّ ما أنزل عليه حقّ ، وصدِّقوا بالآخرة ، وأنّكم مبعوثون من بعد الموت [١] .

وإنما أدخِلت الألف واللام فى « الناس » ، وهم بعضُ الناس لا جميعُهم ، لأنهم كانوا معروفين عند الذين خُوطبوا بهذه الآية بأعيانهم، وإنما معناه : آمِنُوا كما آمَن الناس الذين تعرفونهم من أهل اليقين والتصديق بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر . فلذلك أدخِلت الألف واللام فيه ، كما أدخِلَتا فى قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

(١) الخبر ٣٤٣ — نقله السيوطى ١ : ٣٠ ، والشوكانى ١ : ٣١ ، ويأتى تمامه فى تفسير بقية الآية ، برقمى : ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

فَاخْشَوْهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٣] ، لأنه أشير بدخولها إلى ناس معروفين عند من خُوطب بذلك .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾

قال أبو جعفر : والسفهاء جمع سَفِيه ، كما العلماء جمع عليم[1] ، والحكماء جمعُ حكيم . والسفيه : الجاهل ، الضعيفُ الرأى ، القليلُ المعرفة بمواضع المنافع والمضارّ . ولذلك سمى الله عز وجل النِّساء والصبيانَ سفهاء ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [سورة النساء : ٥] ، فقال عامة أهل التأويل: هم النساء والصبيان، لضعف آرائهم ، وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضارّ التى تصرف إليها الأموال .

وإنما عَنَى المنافقون بقيلهم : أنؤمن كما آمَنَ السُّفهاء — إذْ دُعوا إلى التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله ، والإقرار بالبعث فقيل لهم : آمنوا كما آمن [الناس][2] — أصحابَ محمدٍ وأتباعَه من المؤمنين المصدِّقين به ، من أهل الإيمان واليقين ، والتصديقِ بالله ، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وفى كتابه ، وباليوم الآخر. فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم : أنؤمن كما آمَنَ أهل الجهل ، ونصدِّق بمحمد صلى الله عليه وسلم كما صدّق به هؤلاء الذين لا عقولَ لهم ولا أفهام ؟ كالذى — :

٣٤٤ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدِّىّ فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن

---

(١) فى المطبوعة : « كالعلماء . . . »

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « فقال لهم آمنوا كما آمن أصحاب محمد. . . » ، وهو كلام مضطرب والصواب ما أثبتناه . وقوله : « أصحاب محمد » مفعول قوله : « وإنما عنى المنافقون بقيلهم . . . » .

عباس — وعن مُرّة الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ، يعنون أصحابَ النبى صلى الله عليه وسلم .

٣٤٥ — حدثنى المثنّى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . ١/١٠٠

٣٤٦ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : « قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء » ، قال : هذا قول المنافقين ، يريدون أصحابَ النبى صلى الله عليه وسلم .

٣٤٧ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عُمارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يقولون : أنقول كما تقولُ السفهاء ؟ يعنون أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم ، لخلافهم لدينهم[١] .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣)

قال أبو جعفر : وهذا خبرٌ من الله تعالى عن المنافقين الذين تقدم نعتُه لهم ، ووصفُه إياهم بما وصفهم به من الشك والتكذيب — أنّهم هم الجُهّال فى أديانهم ،

---

(١) الأخبار ٣٤٤ – ٣٤٧ : أشار إليها ابن كثير ١ : ٩٢ والسيوطى ١ : ٣٠ والشوكانى ١ : ٣١ والأخير منها من تتمة الخبر : ٣٤٣ .

الضعفاء الآراء فى اعتقاداتهم واختياراتهم التى اختاروها لأنفسهم ، من الشكّ والريْب فى أمر الله وأمر رسوله وأمر نبوته ، وفيما جاء به من عند الله ، وأمر البعث ، لإساءتهم إلى أنفسهم بما أتَوْا من ذلك وهم يحسبون أنّهم إليها يُحْسِنون. وذلك هو عَيْنُ السَّفه، لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلح، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ ، فكذلك المنافق : يَعصى رَبّه من حيث يرى أنه يطيعهُ، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يؤمن به ، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها، كما وصفهم به ربنا جلّ ذكره، فقال: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾، وقال : ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ — دون المؤمنين المصدّقين بالله وبكتابه ، وبرسوله وثوابه وعقابه — ﴿ولكن لا يعلمون﴾ . وكذلك كان ابن عباس يتأول هذه الآية .

٣٤٨— حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عُمارة، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس يقول الله جل ثناؤه: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء﴾، يقول: الجهال، ﴿ولكن لا يعلمون﴾ ، يقول : ولكن لا يعقلون[١] .

وأما وَجْهُ دخول الألف واللام فى « السُّفهاء »، فشبيه بوجه دخولهما فى « الناس » فى قوله : ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾، وقد بيّنا العلة فى دخولهما هنالك، والعلةُ فى دخولهما فى « السفهاء » نظيرتها فى دخولهما فى « الناس » هنالك ، سواء .

والدلالةُ التى تدل عليه هذه الآية من خطأ قول من زعم أن العقوبةَ من الله لا يستحقّها إلا المعاند ربّه، بعد علمه بصحة ما عانده فيه — نظيرُ دلالة الآيات الأُخَر التى قد تقدم ذكرنا تأويلَها فى قوله « ولكن لا يشعرون »، ونظائر ذلك[٢] .

* * *

(١) الخبر ٣٤٨ — هو تتمة الخبرين : ٣٤٣ ، ٣٤٧ .

(٢) فى المطبوعة : « مع علمه بصحة ما عاند فيه »، وفيها أيضاً : « . . . ونظير ذلك » .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : وهذه الآية نظيرة الآية الأخرى التى أخبر الله جلّ ثناؤه فيها عن المنافقين بخداعهم الله ورسولَه والمؤمنين، فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ . ثم أكذَبهم تعالى ذكره بقوله : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وأنهم بقيلهم ذلك يُخادعون الله والذين آمنوا . وكذلك أخبر عنهم فى هذه الآية أنهم يقولون — للمؤمنين المصدِّقين بالله وكتابه ورسوله — بألسنتهم : آمنا وصدّقنا بمحمد وبما جاء به من عند الله، خِداعاً عن دمائهم وأموالهم وذَرَاريهم ، ودرءاً لهم عنها، وأنهم إذا خَلَوْا إلى مَرَدَتهم وأهل العُتُوّ والشر والخُبث منهم ومن سائر أهل الشرك[1] ، الذين هم على مثل الذى هم عليه من الكُفر بالله وبكتابه ورسوله — وهم شياطينهم ، وقد دللنا فيما مضى من كتابنا على أن شياطينَ كل شىء مَرَدَتُه — قالوا لهم : « إنا معكم »، أى إنا معكم على دينكم ، وظُهراؤكم على من خالفكُم فيه، وأولياؤكم دون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، « إنما نحن مستهزِئون » بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه ، كالذى — :

٣٤٩ — حدثنا محمد بن العلاء[2] ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد، قال : حدثنا بِشْر بن عُمارة، عن أبى رَوْق، عن الضحاك، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ ، قال : كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أو بعضهم ، قالوا : إنا على دينكم . وإذا خلوا إلى أصحابهم ، وهم شياطينُهم ، قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . ١/١٠١

(١) فى المخطوطة : « وأنهم إذا خلوا إلى أهل مودتهم » ، والذى فى المطبوعة أصح فى سياق تفسيره .

(٢) « محمد بن العلاء » ، هو « أبو كريب » ، الذى أكثر الرواية عنه فيما مضى وفيما يستقبل .

٣٥٠ — حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ قال : إذا خلوا إلى شياطينهم من يهودَ ، الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﴿ قالوا إنا معكم ﴾ ، أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ .

٣٥١ — حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّيّ في خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة الهَمْداني ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ ، أما شياطينهم ، فهم رءوسهم في الكُفر .

٣٥٢ — حدثنا بشر بن معاذ العَقَدي[1] ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ أي رؤسائهم في الشرّ ﴿ قالوا إنما نحنُ مستهزئون ﴾ .

٣٥٣ — حدثنا الحسن بن يحيي ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا معمر عن قتاده في قوله ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ ، قال : المشركون .

٣٥٤ — حدثني محمد بن عمرو الباهلي ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي نَجيح ، عن مجاهد في قول الله عز وجل : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ ، قال : إذا خلا المنافقون إلى أصحابهم من الكفّار .

٣٥٥ — حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حُذيفة ، عن شِبْل ابن عبّاد ، عن عبد الله بن أبي نَجيح ، عن مجاهد : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ ، قال : أصحابهم من المنافقين والمشركين .

٣٥٦ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبي

(١) بشر بن معاذ العقدي : ثقة معروف ، روى عنه الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم . و « العقدي » : بالعين المهملة والقاف المفتوحتين ، نسبة إلى « العقد » : بطن من بجيلة .

جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ ، قال : إخوانهم من المشركين ، ﴿ قالو إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ .

٣٥٧ـــ حدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جريج فى قوله : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ ، قال : إذا أصاب المؤمنين رخاءٌ قالوا : إنا نحن معكم ، إنما نحن إخوانكم ، وإذا خلوا إلى شياطينهم استهزأوا بالمؤمنين .

٣٥٨ـــ حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : وقال مجاهد : شياطينُهم : أصحابُهم من المنافقين والمشركين[1] .

فإن قال لنا قائل : أرأيتَ قولَه ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ ؟ فكيف قيل : ﴿ خلوا إلى شياطينهم ﴾ ، ولم يقل خَلَوْا بشياطينهم؟ فقد علمتَ أنّ الجارىَ بين الناس فى كلامهم : « خلوتُ بفلان » أكثر وأفشَى من : « خلوتُ إلى فلان » ؛ ومن قولك : إن القرآن أفصح البيان !

قيل : قد اختلف فى ذلك أهل العلم بلغة العرب . فكان بعض نحويِّى البصرة يقول : يقال «خلوتُ إلى فلان» إذا أُريدَ به : خلوتُ إليه فى حاجة خاصة . لا يحتَمِل — إذا قيل كذلك — إلا الخلاءَ إليه فى قضاء الحاجة . فأما إذا قيل : « خلوت به » احتمل معنيين : أحدهما الخلاء به فى الحاجة ، والآخَر فى السخرية به . فعلى هذا القول ، ﴿ وَإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ ، لا شكّ أفصحُ منه لو قيل « وإذا خلوا بشياطينهم» ، لما فى قول القائل : « إذا خلوا بشياطينهم » من التباس المعنى على سامعيه ، الذى هو مُنتفٍ عن قوله : « وإذا خلوا إلى شياطينهم» . فهذا أحد الأقوال .

والقول الآخر : فأن تُوَجِّه معنى[2] قوله ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ ، « وإذا

(١) هذه الآثار السالفة : ٣٤٩ — ٣٥٨ : ذكر أكثرها ابن كثير فى تفسيره ١ : ٩٣ ، والسيوطى ١ : ٣١ ، والشوكانى ١ : ٣٣ .

(٢) فى المطبوعة : « والقول الآخر : أن توجيه معنى قوله » .

خلوا مع شياطينهم » ، إذْ كانت حروف الصِّفات يُعاقِبُ بعضُها بعضاً[١] ، كما قال الله مخبراً عن عيسى ابن مريم أنه قال للحواريين : ﴿ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ﴾ [سورة الصف : ١٤] ، يريد : مع الله . وكما توضع « على » فى موضع « من » ، و« فى » و « عن » و « الباء » ، وكما قال الشاعر :

إِذَا رَضِيَتْ عَلَىَّ بنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِى رِضَاهَا[٢] ١٠٢/١

بمعنى عنِّى .

وأما بعض نحويى أهل الكوفة ، فإنه كان يتأوَّل أن ذلك بمعنى : وإذا لَقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا صرَفوا خلاءهم إلى شياطينهم — فيزعم أن الجالبَ لـ « إلى » ، المعنى الذى دلّ عليه الكلامُ : من انصرافِ المنافقين عن لقاء المؤمنين إلى شياطينهم خالين بهم ، لا قوله « خَلَوْا » . وعلى هذا التأويل لا يصلح فى موضع « إلى » غيرُها ، لتغير الكلام بدخول غيرها من الحروف مكانها .

وهذا القول عندى أولى بالصواب ، لأن لكل حرف من حُرُوف المعانى وجهاً هو به أولى من غيره[٣] ، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها . ولـِ « إلى » فى كل موضع دخلت من الكلام حُكْم ، وغيرُ جائز سلبُها معانيَها فى أماكنها .

* * *

---

(١) حروف الصفات : هى حرف الجر ، وسميت حروف الجر ، لأنها تجر ما بعدها ، وسميت حروف الصفات ، لأنها تحدث فى الاسم صفة حادثة ، كقولك : « جلست فى الدار » ، دلت على أن الدار وعاء للجلوس . وقيل : سميت بذلك ، لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات . ويسميها الكوفيون أيضاً : حروف الإضافة ، لأنها تضيف الاسم إلى الفعل ، أى توصله إليه وتربطه به . (همع الهوامع ٢ : ١٩) وتسمى أيضاً حروف المعانى ، كما سيأتى بعد قليل . والمعاقبة : أن يستعمل أحدهما مكان الآخر بمثل معناه .

(٢) الشعر للقحيف العقيلى ، يمدح حكيم بن المسيب القشيرى . نوادر أبى زيد : ١٧٦ ، خزانة الأدب ٤ : ٢٤٧ ، وغيرهما كثير .

(٣) حروف المعانى ، هى حروف الصفات ، وحروف الجر ، كما مضى آنفاً ، تعليق : ١

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١٤)

أجمع أهل التأويل جميعاً – لا خلاف بينهم – على أن معنى قوله : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ : إنما نحن ساخرون . فمعنى الكلام إذاً : وإذا انصرف المنافقون خالين إلى مَرَدَتهم من المنافقين والمشركين قالوا : إنا معكم على ما أنتم عليه من التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، ومعاداته ومعاداة أتباعه ، إنما نحن ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، بقيلنا لهم إذا لقيناهم : آمنَّا بالله وباليوم الآخر[1] ، كما – :

٣٥٩– حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عُمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : قالوا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

٣٦٠– حدثنا ابن حُميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ ، أى : إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعبُ بهم .

٣٦١– حدثنا بشر بن معاذ العَقَدى ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد ، عن قتادة : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ ، إنما نستهزئ بهؤلاء القوم ونَسخَر بهم .

٣٦٢– حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ ، أى نستهزئ بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم[2] .

* * *

---

(١) فى المطبوعة : « فى قيلنا لهم إذا لقيناهم » .
(٢) هذه الآثار تتمة الآثار السالفة فى تفسير أول الآية .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾

قال أبو جعفر : اختُلِف فى صفة استهزاءِ الله جلّ جلاله ، الذى ذَكر أنه فاعله بالمنافقين ، الذين وَصَف صفتهم . فقال بعضهم : استهزاؤه بهم ، كالذى أخبرنا تبارك اسمه أنه فاعلٌ بهم يوم القيامة فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [سورة الحديد : ١٣ ، ١٤]. الآية. وكالذى أخبرنا أنّه فعَل بالكفار بقوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٨] . فهذا وما أشبهه من استهزاء الله جلّ وعزّ وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به — عند قائلى هذا القول ، ومتأوّل هذا التأويل .

وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم ، توبيخُه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصى الله والكفر به ، كما يقال : « إن فلاناً ليُهزَأ منه منذ اليوم ، ويُسخر منه » ، يُراد به توبيخُ الناس إياه ولومهم له ، أو إهلاكه إياهم وتدميرُه بهم[١] ، كما قال عَبيد ابن الأبرص :

سَائِلْ بِنَا حُجْرَ ابْنَ أُمِّ قَطَامِ ، إِذْ ظَلَّتْ بِهِ السُّمْرُ النَّوَاهِلُ تَلْعَبُ[٢]

---

(١) الضمير لله سبحانه وتعالى ، وهو معطوف على قوله « توبيخه إياهم . . . » .

(٢) ديوانه : ١٦ ، وأمالى المرتضى ١ : ٤١ ، وحجر ، أبو امرئ القيس ، وكانت قتلته بنو أسد رهط عبيد بن الأبرص . وأم قطام ، هى أم حجر ملك كندة . والنواهل جمع ناهل وناهلة : والناهل : العطشان ، توصف به الرماح ، كأنها تعطش إلى الدم ، فإذا شرعت فى الدم رويت .

فزعموا أن السُّمر — وهي القَنَا — لا لعب منها ، ولكنها لما قتلتْهم وشرَّدتْهم ، جَعَل ذلك مِنْ فعلها لعباً بمن فعلت ذلك به . قالوا : فكذلك استهزاءُ الله جل ثناؤه بمن استهزأ به من أهل النفاق والكفر به : إمّا إهلاكه إياهم وتدميرُه بهم، وإمّا إملاؤهُ لهم ليأخذهم في حال أمنهم عند أنفسهم بغتةً ، أو توبيخه لهم ولائمته إياهم. قالوا : وكذلك معنى المكر منه والخديعة والسُّخرية .

١ / ١٠٣

وقال آخرون قوله: ﴿ يخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ[1] ﴾ [سورة النساء : ١٤٢] على الجواب ، كقول الرجل لمن كان يَخْدَعه إذا ظفر به: « أنا الذى خدعتُك » ، ولم تكن منه خديعة ، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه . قالوا : وكذلك قوله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٤] ، و « الله يستهزئ بهم » ، على الجواب . والله لا يكونُ منه المكرُ ولا الهُزْء ، والمعنى أن المكرَ والهُزْءَ حاق بهم .

وقال آخرون : قوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [سورة النساء : ١٤٢] ، وقوله : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٧٩] ، ﴿ وَنَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٦٧] ، وما أشبه ذلك ، إخبارٌ من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ، ومعاقبهم عقوبةَ الخداع . فأخرج خبرَه عن جزائه إياهم وعقابه لهم ، مُخْرَجَ خبره عن فعلهم الذى عليه استحقُّوا العقاب فى اللفظ ، وإن اختلف المعنيان . كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [سورة الشورى : ٤٠] ، ومعلومٌ أن الأولى من صاحبها سيئة ، إذْ كانت منه لله تبارك وتعالى معصية ، وأن الأخرى عَدلٌ ، لأنها من الله جزاءٌ

---

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم » ، وهى آية سورة البقرة : ٩ ، ولم يرد الطبرى إلا آية سورة النساء ، كما يدل عليه سياق كلامه ، وكما ستأتى الآية بعد أسطر .

للعاصى على المعصية ، فهما – وإن اتفق لفظاهما – مختلفتا المعنى. وكذلك قوله : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٤] ، فالعدوان الأول ظلم ، والثانى جزاءٌ لا ظلم ، بل هو عدل، لأنه عقوبة للظالم على ظلمه، وإن وافق لفظه لفظ الأول .

وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما فى القرآن من نظائر ذلك ، مما هو خبرٌ عن مكر الله جل وعزّ بقومٍ ، وما أشبه ذلك .

وقال آخرون : إنّ معنى ذلك : أن الله جل وعز أخبر عن المنافقين أنهم إذا خَلَوْا إلى مَرَدَتهم قالوا : إنا معكم على دينكم فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم – من قولنا لهم : صدقنا بمحمد عليه السلام وما جاء به – مستهزئون . يعنون : إنا نُظهر لهم ما هو عندنا باطل لا حقٌّ ولا هُدًى . قالوا : وذلك هو معنى من معانى الاستهزاء ، فأخبر الله أنه « يستهزئ بهم » ، فيظهر لهم من أحكامه فى الدنيا خلافَ الذى لهم عنده فى الآخرة ، كما أظهروا للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى الدين ما هم على خلافه فى سرائرهم .

والصواب فى ذلك من القول والتأويل عندنا : أن معنى الاستهزاء فى كلام العرب : إظهارُ المستهزِئ للمستهزَإ به من القول والفعل ما يُرضيه[1] ظاهراً ، وهو بذلك من قِيله وفِعْله به مُورِثه مَساءة باطناً[2] . وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر.

فإذا كان ذلك كذلك = وكان الله جل ثناؤه قد جعل لأهل النفاق فى الدنيا من الأحكام – بما أظهروا بألسنتهم ، من الإقرار بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله ، المُدْخِلِهم فى عداد من يشمله اسمُ الإسلام[3] ، وإن كانوا لغير ذلك

---

(١) فى المطبوعة : « ما يرضيه و يوافقه ظاهراً » .

(٢) فى المخطوطة : « مورطه مساءة باطناً » .

(٣) فى المطبوعة : « المدخل لهم فى عداد . . . » ، وقوله : « المدخلهم » نعت لقوله : « من الإقرار » .

مستبطنين —[١] أحكامَ المسلمين المصدِّقين إقرارَهم بألسنتهم بذلك ، بضمائر قلوبهم، وصحائح عزائمهم ، وحميدِ أفعالهم المحققة لهم صحة إيمانهم — معَ علم الله عز وجل بكذبهم، واطلاعِه على خُبثِ اعتقادهم، وشكِّهم فيما ادَّعوا بألسنتهم أنهم به مصدِّقون[٢] ، حتى ظنُّوا فى الآخرة إذْ حشروا فى عِداد من كانوا فى عِدادهم فى الدنيا، أنَّهم وارِدُون مَوْرِدَهم. وداخلون مدخلهم. والله جل جلاله — مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكام المُلْحِقَتِهم فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه ، وتفريقِه بينهم وبينهم —[٣] معدٌّ لهم من أليم عقابهْ ونَكال عذابه ، ما أعدَّ منه لأعدى أعدائه وشر عباده ، حتى ميز بينهم وبين أوليائه ، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدَّرك الأسفل= [٤] كان معلوماً أنه جل ثناؤه بذلك

١٠٤/١ من فعلِه بهم — وإن كان جزاءً لهم على أفعالهم ، وعدلاً ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له — كان بهم — بما أظهرَ لهم من الأمور التى أظهرها لهم : من إلحاقه أحكامهم فى الدنيا بأحكام أوليائِه وهم له أعداء، وحشرِه إياهم فى الآخرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين — إلى أن ميَّز بينهم وبينهم — مستهزئاً، وبهم ساخراً، ولهم خادعاً، وبهم ماكراً[٥] . إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل ، دون أن يكون ذلك معناه فى حالٍ فيها المستهزئ بصاحبه له ظالم ، أو عليه فيها غير عادل ، بل ذلك معناه فى كل أحواله ، إذا وُجدت الصفات التى قدَّمنا ذكرها فى معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره .

---

(١) فى المطبوعة : « من أحكام المسلمين. . . » ، وهى زيادة خطأ ، وقوله « أحكام » منصوب بقوله « قد جعل لأهل النفاق فى الدنيا من الأحكام » . . . « أحكام » ، وما بينهما فصل .

(٢) فى المطبوعة : « أنهم مصدقون » .

(٣) سياق العبارة : « والله جل جلاله . . . معد لهم . . . » .

(٤) قوله : « كان معلوماً » جواب قوله « فإذا كان ذلك كذلك . . . » ، فى أول هذه الفقرة .

(٥) أكثر الطبرى الفصل بين الكلام فى هذه الفقرة ، وسياق العبارة هو كما يلى : « . . . كان معلوماً أنه جل ثناؤه بذلك من فعله بهم . . . كان بهم . . . مستهزئاً ، وبهم ساخراً . . . » ، وما بين الكلام فى هذين الموضعين فصل للبيان .

وبنحو ما قلنا فيه رُوى الخبر عن ابن عباس :

٣٦٣ - حدثنا أبو كُرَيب قال : حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر ابن عُمَارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس، فى قوله : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ، قال : يسخر بهم للنقمة منهم[1] .

* * *

وأما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره: « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم »، إنما هو على وجه الجواب ، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكرٌ ولا خديعة ، فنافُون عن الله عز وجل ما قد أثبته الله عز وجل لنفسه ، وأوجبه لها . وسواءٌ قال قائل : لم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخريةٌ بمن أخبر أنه يستهزئ ويسخر ويمكر به، أو قال : لم يخسف الله بمن أخبر أنه خَسَفَ به من الأمم ، ولم يُغرق من أخبر أنه أغرقه منهم .

ويقال لقائل ذلك: إن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكرَ بقوم مضَوْا قبلنا لم نَرَهُم، وأخبر عن آخرين أنه خَسَفَ بهم، وعن آخرين أنه أغرقهم، فصدَّقْنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك، ولم نُفرِّق بين شىء منه . فما برهانُك على تفريقك ما فرَّقت بينه ، بزعمك: أنه قد أغرقَ وخَسَف بمن أخبر أنه أغرقه وخسف به ، ولم يمكُرْ بمن أخبر أنه قد مكر به ؟

ثم نعكس القول عليه فى ذلك، فلن يقول فى أحدهما شيئاً إلا ألزِم فى الآخَر مثلَه .

فإن لجأ إلى أن يقول: إن الاستهزاء عبثٌ ولعبٌ ، وذلك عن الله عز وجل منفىٌّ .

قيل له : إن كان الأمر عندك على ما وصفتَ من معنى الاستهزاء ، أفلست

---

(١) الخبر ٣٦٣ - ساقه ابن كثير فى تفسيره ١ : ٩٤ ، والسيوطى ١ : ٣١ ، والشوكانى ١ : ٣٣ .

تقول : « الله يستهزئ بهم »، و« سَخِر الله منهم » ، و « مكر الله بهم » ، وإن لم يكنْ من الله عندك هزء ولا سخرية ؟

فإن قال : « لا »، كذّب بالقرآن ، وخرج عن ملة الإسلام .

وإن قال : « بلى »، قيل له : أفتقول من الوجه الذى قلت : « الله يستهزئ بهم » و« سخر الله منهم» — « يلعب الله بهم » و « يعبث » — ولا لعبَ من الله ولا عبث ؟

فإن قال : « نعم » ! وَصَف الله بما قد أجمع المسلمون على نفيه عنه ، وعلى تخطئة واصفه به ، وأضاف إليه ما قد قامت الحجة من العقول على ضلال مضيفه إليه .

وإن قال : لا أقول: « يلعب الله بهم » ولا « يعبث » ،وقد أقول « يستهزئ بهم » و « يسخر منهم » .

قيل : فقد فرقت بين معنى اللعب والعبث، والهزء والسخرية ، والمكر والخديعة . ومن الوجه الذى جازَ قِيلُ هذا ، ولم يَجُزْ قِيلُ هذا ، افترق معنياهُما . فعُلم أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر .

وللكلام فى هذا النوع موضع غير هذا ، كرهنا إطالة الكتاب باستقصائه . وفيما ذكرنا كفاية لمن وُفق لفهمه .

• • •

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : ﴿ ويمدهم ﴾ ، فقال بعضهم بما — :

٣٦٤ — حدثنى به موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّىّ فى خبر ذكره، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس —

وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « يَمُدُّهُمْ » ، يملى لهم .

وقال آخرون بما - :

٣٦٥- حدثنى به المثنى بن إبراهيم، قال : حدثنا سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن ابن جريج قراءةً عن مجاهد : « يمدّهم » ، قال : يزيدُهم[1] .

وكان بعضُ نحويّ البصرة يتأوّل ذلك أنه بمعنى: يَمُدُّ لَهُم، ويزعم أن ذلك نظيرُ قول العرب : الغلامُ يلعَبُ الكِعَابَ ، يراد به يَلعب بالكعاب. قال : وذلك أنَّهم قد يقولون : « قد مَددت له وأمددتُ له » فى غير هذا المعنى ، وهو قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ [سورة الطور : ٢٢] ، وهذا من : « مددناهم »[2] .

١٠٥/١

قال : ويقال : قد « مَدَّ البحر فهو مادٌّ » و « أمَدَّ الجرح فهو مُمِدٌّ » .

وحكى عن يونس الجَرْمىّ أنه كان يقول : ما كان من الشر فهو « مدَدْت » ، وما كان من الخير فهو « أمْدَدت » . ثم قال : وهو كما فسرت لك ، إذا أردت أنك تركته فهو « مَدَدت له » ، وإذا أردت أنك أعطيته قلت : « أمْددت » .

وأما بعضُ نحويى الكوفة فإنه كان يقول : كل زيادة حدثت فى الشىء من نفسه فهو « مَدَدت » بغير ألف، كما تقول: « مدَّ النهر، ومدَّه نهرٌ آخر غيره » ، إذا اتصل به فصار منه، وكلّ زيادة أحدِثتْ فى الشىء من غيره فهو بألف ، كقولك : « أمدَّ الجرحُ » ، لأن المدّة من غير الجرح، وأمدَدتُ الجيش بمَدَدٍ .

وأولى هذه الأقوال بالصواب فى قوله: « وَيَمُدُّهُمْ » : أن يكون بمعنى يزيدهم، على وجه الإملاء والترك لهم فى عُتوِّهم وتمردهم ، كما وصف ربُّنا أنه فعل بنظرائهم فى قوله

---

(١) الخبران ٣٦٤ ، ٣٦٥ - ساقهما ابن كثير ١ : ٣١ ، والسيوطى ١ : ٣١ ، والشوكانى ١ : ٣٣.

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة: « وهذا من أمددناهم » ، ولعل الصواب ما أثبتناه . وعنى أن قوله تعالى (ويمدهم فى طغيانهم) من « مددت له » التى هى مثل « أمددت له » ، بعد طرح حرف الجر ، كما مثل فى قول العرب « الغلام يلعب الكعاب » أى « يلعب بالكعاب » .

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٠] ، يعنى نذرُهم ونتركهم فيه ، ونملى لهم ليزدادوا إثماً إلى إثمهم .

ولا وجه لقول من قال : ذلك بمعنى « يَمُدُّ لهم » ، لأنه لا تدافُع بين العرب وأهل المعرفة بلغتها(١) ، أن يستجيزوا قول القائل : « مدَّ النهرَ نهرٌ آخر » ، بمعنى : اتصل به فصار زائداً ماءُ المتَّصَل به بماء المتَّصِل — من غير تأوُّل منهم . وذلك أن معناه : مدَّ النهرَ نهرٌ آخر . فكذلك ذلك فى قول الله : « وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾

قال أبو جعفر : و« الطُّغيان » « الفُعْلان » ، من قولك : « طَغَى فلان يطغَى طُغياناً » . إذا تجاوز فى الأمر حده فبغَى . ومنه قول الله : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [سورة العلق : ٦ ، ٧] ، أى يتجاوز حدَّه . ومنه قول أمية بن أبى الصَّلْت :

وَدَعَا اللهَ دَعْوَةً لَاتَ هَنَّا بَعْدَ طُغْيَانِهِ ، فَظَلَّ مُشِيرَا(٢)

وإنما عنى الله جل ثناؤه بقوله « وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ » ،

---

(١) فى المخطوطة : « لأنه لا تتدافع العرب » ، وهما سواء فى المعنى .

(٢) ديوانه : ٣٤ مع اختلاف فى الرواية . والضمير فى قوله « ودعا الله » إلى فرعون حين أدركه الغرق . والهاء فى قوله « طغيانه » إلى فرعون ، أو إلى الماء لما طغا وأطبق عليه . وقوله « لات هنا » ، كلمة تدور فى كلامهم يريدون بها : « ليس هذا حين ذلك » ، والتاء فى قولهم « لات » صلة وصلت بها « لا » ، أصلها « لا هنا » أى ليس هنا ما أردت ، أى مضى حين ذلك . و « هنا » مفتوحة الهاء مشددة النون ، مثل « هنا » مضمومة الهاء مخففة النون . وقوله : « مشيراً » ، أى مشيراً بيده فى دعاء ربه أن ينجيه من الغرق .

أنه يُملى لهم ، ويَذَرُهم يبغون فى ضلالهم وكفرهم حيارى يترددون . كما — :

٣٦٦ — حُدِّثت عن المِنْجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » ، قال : فى كفرهم يترددون .

٣٦٧ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدِّىّ فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرَّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « فى طُغيانهم » ، فى كفرهم .

٣٦٨ — حدثنا بشر بن مُعاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد ، عن قتادة ، « فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » ، أى فى ضلالتهم يعمهون .

٣٦٩ — حُدِّثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « فى طغيانهم » ، فى ضلالتهم .

٣٧٠ — وحدثنا يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله « فى طغيانهم » ، قال : طغيانهم ، كفرهم وضلالتهم[1] .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ (١٥)

قال أبو جعفر : والعَمَهُ نفسُه : الضَّلال . يقال منه : عَمِه فلان يَعْمه عَمَهاناً وعُمُوهاً ، إذا ضل[2] . ومنه قول رؤبة بن العجاج يصف مَضَلَّة من المهامه :

وَمَخْفَقٍ من لُهْلُهٍ ولُهْلُهِ مِنْ مَهْمَهٍ يَجْتَبْنَهُ فى مَهْمَهِ

(١) الأخبار ٣٦٦ — ٣٧٠ : ساقها ابن كثير ١ : ٩٥ ، والسيوطى ١ : ٣١ ، والشوكانى ١ : ٣٣ .

(٢) فى ابن كثير ١ : ٩٥ « عمها وعموها » ، والذى فى الطبرى صحيح : « عمها وعموها وعموهة وعمهاناً » .

أَعْمَى الهُدَى بِالجَاهِلِينَ العُمَّهِ (١)

و « العُمَّه » جمع عامِهٍ ، وهم الذين يضلّون فيه فيتحيرون . فمعنى قوله إذاً : « فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » : فى ضلالهم وكفرهم الذى قد غمرهم دنسُه، وعلاهم رِجْسُه ، يترددون حيارى ضُلاّلا ،لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا ، لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها ، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رُشْداً ولا يهتدون سبيلا .

وبنحو ما قلنا فى « العَمَه » جاء تأويل المتأولين .

١٠٦/١ ٣٧١ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدِّىّ ، فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : «يَعْمَهُونَ » ، يتمادَوْن فى كفرهم .

٣٧٢— وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : «يَعْمَهُونَ » ، قال : يتمادَوْن .

٣٧٣ — حُدِّثت عن المِنْجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : «يَعْمَهُونَ » ، قال : يتردَّدون .

٣٧٤ — وحدثنا القاسم، قال : حدثنا الحسين، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جُريج ، قال : قال ابن عباس : « يَعْمَهُونَ » : المتلدِّد (٢) .

---

(١) ديوانه : ١٦٦ . والخفق : الأرض الواسعة المستوية التى يخفق فيها السراب ، أى يضطرب . والمله : أرض واسعة يضطرب فيها السراب ، والجمع لماله . والمهمه : الفلاة المقفرة ليس بها ماء ولا أنيس . وجاب المفازة واجتابها : قطعها سيراً . وقوله « فى مهمه » : أى يقطعنه ويدخلن فى مهمه آخر موغلين فى الصحراء .

(٢) تلدد الرجل فهو متلدد : إذا لبث فى مكانه حائراً متبلداً يتلفت يميناً وشمالا .

٣٧٥ـ حدثنا محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال حدثنا ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله : « فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » ، قال : يترددون .

٣٧٦ـ وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، مثله .

٣٧٧ـ حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبى ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

٣٧٨ـ حدثنى المثنى ، قال : حدثنا سويد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن ابن جريج قراءة ، عن مجاهد ، مثله .

٣٧٩ـ حُدِّثت عن عمار ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، « يَعْمَهُونَ » ، قال : يترددون[1] .

• • •

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾

قال أبو جعفر : إن قال قائل : وكيف اشترى هؤلاء القومُ الضلالةَ بالهدى ، وإنما كانوا منافقين لم يتقدم نفاقَهم إيمانٌ فيقال فيهم : باعوا هداهم الذى كانوا عليه بضلالتهم التى استبدلوها منه ؟ وقد علمتَ أن معنى الشراء المفهوم : اعتياضُ شىء ببذل شىء مكانه عِوَضاً منه ، والمنافقون الذين وصفهم الله بهذه الصفة ، لم يكونوا قط على هُدًى فيتركوه ويعتاضوا منه كفراً ونفاقاً ؟

---

(١) الأخبار : ٣٧٢ - ٣٧٩ : ساقها السيوطى ١ : ٣١ ، والشوكانى ١ : ٣٣ ، وخرجا أثر مجاهد فى تفسير الآية : « أى يلعبون ويترددون فى الضلالة » .

قيل : قد اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك ، فنذكر ما قالوا فيه ، ثم نبين الصحيحَ من التأويل فى ذلك إن شاء الله :

٣٨٠ــ حدثنا محمد بن حميد، قال: حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس : « أولَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالهُدَى »، أى الكفرَ بالإيمان .

٣٨١ــ وحدثنى موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدِّىّ ، فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح، عن ابن عباس ــ وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « أولئك الذين اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بالهُدَى » ، يقول : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى .

٣٨٢ــ حدثنا بشر بن مُعاذ ، قال: حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة: « أولَئِكَ الذين اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بالهُدَى »، استحبوا الضلالة على الهدى .

٣٨٣ــ حدثنى محمد بن عمرو ، قال: حدثنا أبو عاصم، قال : حدثنا عيسى ابن ميمون ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد فى قوله : « أولئك الذين اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالهُدَى» ، آمنوا ثم كفروا .

٣٨٤ــ حدثنا المثنى ،قال :حدثنا أبو حُذَيفة، قال : حدثنا شِبْل، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله[١] .

قال أبو جعفر : فكأنَّ الذين قالوا فى تأويل ذلك : « أخذوا الضلالة وتركوا الهدى» ــ وجّهوا معنى الشراء إلى أنه أخذُ المشترَى مكانَ الثمن المشترَى به، فقالوا : كذلك المنافق والكافر ، قد أخذا مكانَ الإيمان الكفرَ، فكان ذلك منهما شراءً

---

(١) الأخبار: ٣٨٠ ــ ٣٨٤ : ساقها ابن كثير فى تفسيره ١ : ٩٥ ، ٩٦، والسيوطى ١ : ٣١، ٣٢ ، والشوكانى ١ : ٣٣ ، ٣٤ .

للكفر والضلالة اللذيْن أخذاهما بتركهما ما تركا من الهدى، وكان الهدى الذى تركاه هو الثمن الذى جعلاه عوضاً من الضلالة التى أخذاها .

وأما الذين تأوّلوا أن معنى قوله « اشترَوْا »: «استحبُّوا »، فإنهم لما وجدوا الله جل ثناؤه قد وصف الكفّار فى موضع آخر ، فنسبهم إلى استحبابهم الكفرَ على الهدى، فقال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [سورة فصلت: ١٧] ، ١/١٠٧ صرفوا قوله «اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى » إلى ذلك . وقالوا : قد تدخل « الباء » مكان « على » ، و «على» مكان « الباء »، كما يقال : مررت بفلان ، ومررت على فلان ، بمعنى واحد ، وكقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ [سورة آل عمران : ٧٥]، أى على قنطار. فكان تأويل الآية على معنى هؤلاء : أولئك الذين اختارُوا الضلالةَ على الهدى . وأراهم وجّهوا معنى قول الله جل ثناؤه « اشترَوا » إلى معنى اختاروا ، لأن العرب تقول : اشتريت كذا على كذا ، واسْتَرَيْتُه — يعْنُون اخترتُه عليه .

ومن الاستراء قول أعشى بنى ثعلبة[1] :

فَقَدْ أُخْرِجُ الْكَاعِبَ الْمُسْتَرَا ةَ مِنْ خِدْرِهَا وأُشِيعَ القِمَارَ[2]

يعنى بالمستراة : المختارة .

وقال ذو الرُّمة ، فى الاشتراء بمعنى الاختيار :

يَذُبُّ الْقَصَايَا عَنْ شَرَاةٍ كَأَنَّهَا جَمَاهِيرُ تَحْتَ الْمُدْجِنَاتِ الْهَوَاضِبِ[3]

يعنى بالشّراة : المختارة .

---

(١) فى المطبوعة « الاشتراء » بالشين المعجمة ، وهو خطأ ، صوابه بالسين المهملة .

(٢) ديوانه : ٣٥ ، وطبقات فحول الشعراء : ٣٦ ، واللسان (سرا) . وفى المطبوعة : «المشتراة» فى الموضعين ، والصواب ما أثبتناه. والكاعب : التى كعب ثديها ، أى نهد ، يعنى أنها غريرة منعمة محجوبة . وخدر الجارية : سترها الذى يمد لها لتلزمه بعد البلوغ ، وأشاع المال بين القوم : فرقه فيهم . وأراد بالقمار : لعب الميسر ، وعنى نصيب الفائز فى الميسر من لحم الجزور ، يفرقه فى الناس من كرمه .

(٣) ديوانه : ٦٢ . والضمير فى قوله « يذب » لفحل الإبل . ويذب : يدفع ويطرد . والقصايا ،

وقال آخر فى مثل ذلك :

إنَّ الشَّراةَ رُوقَةُ الأموالِ وحَزْرَةُ القَلْبِ خِيَارُ المَالِ[1]

قال أبو جعفر : وهذا ، وإن كان وجهاً من التأويل ، فلستُ له بمختار . لأن الله جل ثناؤه قال : «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهم» ، فدل بذلك على أن معنى قوله «أولئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالهُدَى » ، معنى الشراء الذى يتعارفه الناس ، من استبدال شىء مكان شىء ، وأخذِ عِوَض على عوض .

وأما الذين قالوا : إنّ القوم كانوا مؤمنين وكفروا ، فإنه لا مؤونة عليهم ، لو كان الأمر على ما وصفوا به القوم . لأن الأمر إذا كان كذلك ، فقد تركوا الإيمان ، واستبدلوا به الكفرَ عوضاً من الهدى . وذلك هو المعنى المفهوم من معانى الشراء والبيع ، ولكن دلائل أوّل الآيات فى نعوتهم إلى آخرها ، دالّةٌ على أن القوم لم يكونوا قط استضاءوا بنور الإيمان ، ولا دخلوا فى ملّة الإسلام . أوَما تسمعُ الله جل ثناؤه من لَدُنِ ابتدأ فى نعتهم ، إلى أن أتى على صفتهم ، إنما وصفهم بإظهار الكذب بألسنتهم : بدعواهم التصديق بنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، خداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين عند أنفسهم ، واستهزاءً فى نفوسهم بالمؤمنين ، وهم لغير ما كانوا يظهرون مستبطنون . يقول الله جل جلاله[2] : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ، ثم اقتص قَصَصهم إلى قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

جمع قصية : وهى من الإبل رذالتها ، ضعفت فتخلفت . وجماهير ، جمع جمهور : وهو رملة مشرفة على ما حولها ، تراكم رملها وتعقد . والمدجنات ، من قولهم « سحابة داجنة ومدجنة » ، وهى : المطبقة الكثيفة المطر . والمواضب : التى دام مطرها وعظم قطرها . شبه الإبل فى جلالة خلقها وضخامتها بجماهير الرمل المتلبدة فى رأى العين من بعيد .

(١) البيت الثانى فى اللسان (حزر) . وروقة الناس : خيارهم وأبهاهم منظراً . ويقال : هذا الشىء حزرة نفسى وقلبى : أى خير ما عندى ، وما يتعلق به القلب لنفاسته .

(٢) فى المطبوعة : « لقول الله . . . » .

اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ ؟ فأين الدلالة على أنهم كانوا مؤمنين فكفروا ؟

فإن كان قائل هذه المقالة ظن أنّ قوله: « أولئك الذين اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدى» هو الدليل على أنّ القوم قد كانوا على الإيمان فانتقلوا عنه إلى الكفر ، فلذلك قيل لهم « اشتروا » — فإن ذلك تأويل غير مسلَّم له ، إذْ كان الاشتراء عند مخالفيه قد يكون أخذَ شيء بترك آخرَ غيره، وقد يكون بمعنى الاختيار ، وبغير ذلك من المعانى . والكلمة إذا احتملت وجوهاً ، لم يكن لأحد صرفُ معناها إلى بعض وجوهها دون بعضٍ ، إلا بحجة يجب التسليم لها .

قال أبو جعفر : والذى هو أولى عندى بتأويل الآية ، ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود من تأويلهما قوله: « اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بِالهُدى»: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . وذلك أن كل كافر بالله فإنه مستبدلٌ بالإيمان كفراً ، باكتسابه الكفرَ الذى وُجد منه ، بدلاً من الإيمان الذى أمر به . أوَمَا تسمعُ الله جل ثناؤه يقول فيمن اكتسب كفراً به مكان الإيمان به وبرسوله: ﴿ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٨] ؟ وذلك هو معنى الشراء ، لأن كلَّ مشترٍ شيئاً فإنما يستبدل مكانَ الذى يُؤخذ منه من البدل آخرَ بديلاً منه . فكذلك المنافقُ والكافر ، استبدلا بالهدى الضلالةَ والنفاق ، فأضلهما الله ، وسلبهما نورَ الهدى ، فترك جميعَهم فى ظلمات لا يبصرون .

١٠٨/١

• • •

القول فى تأويل قوله : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك أنّ المنافقين — بشرائهم الضلالةَ بالهدى — خسروا ولم يربحوا ، لأن الرابح من التجّار : المستبدلُ من سلعته المملوكة عليه

بدلاً هو أنفسَ من سلعته المملوكة أو أفضلَ من ثمنها الذى يبتاعها به . فأما المستبدِلُ من سلعته بدلاً دُونها ودونَ الثمن الذى ابتاعها به[١] ، فهو الخاسر فى تجارته لا شكّ . فكذلك الكافر والمنافق، لأنهما اختارا الحيرة والعمى على الرشاد والهدى ، والخوفَ والرعبَ على الحفظ والأمن ، واستبدلا فى العاجل : بالرَّشاد الحيرة، و بالهُدى الضلالةَ ، وبالحفظ الخوفَ، وبالأمن الرعبَ — مع ما قد أعدّ لهما فى الآجل من أليم العقاب وشديد العذاب ، فخابا وخَسِرا، ذلك هو الخسران المبين .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك كان قتادة يقول .

٣٨٥ — حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، عن سعيد ، عن قتادة ، «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم وما كانُوا مُهْتَدين » : قد واللهِ رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفُرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السُّنة إلى البدعة[٢] .

قال أبو جعفر : فإن قال قائل : فما وجه قوله: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهمْ»؟ وهل التجارة مما تَرْبَح أو تُوكس ، فيقال : رَبِحت أو وُضِعَت[٣] ؟

قيل : إن وجه ذلك على غير ما ظننتَ . وإنما معنى ذلك : فما ربحوا فى تجارتهم — لا فيما اشتَرَوْا،ولا فيما شرَوْا . ولكن الله جل ثناؤه خاطب بكتابه عَرَباً فسَلَكَ فى خطابه إياهم وبيانه لهم ، مَسلكَ خطاب بعضِهم بعضاً ، وبيانهم المستعمل بينهم[٤]. فلما كان فصيحاً لديهم قول القائل لآخر : خاب سعيُك ، ونام ليلُك،وخسِر بيعُك، ونحو ذلك من الكلام الذى لا يخفى على سامعه ما يريد قائله — خاطبهم بالذى هو فى منطقهم من الكلام ، فقال : « فَمَا رَبِحَتْ

---

(١) فى المطبوعة : « يبتاعها » .

(٢) الأثر ٣٨٥ — فى ابن كثير ١ : ٩٦ ، والسيوطى ١ : ٣٢ ، والشوكانى ١ : ٣٤ .

(٣) وضع فى تجارته يوضع وضيعة : غبن فيها وخسر ، ومثله : وكس .

(٤) فى المخطوطة : « المستعلم بينهم » ، ولعلها سبق قلم .

تِجارتُهم ، إذ كان معقولا عندهم أن الربح إنما هو فى التجارة ، كما النومُ فى الليل . فاكتفى بفهم المخاطبين بمعنى ذلك ، عن أن يقال : فما ربحوا فى تجارتهم ، وإنْ كان ذلك معناه ، كما قال الشاعر :

وشَرُّ المَنَايا مَيِّتٌ وَسْطَ أَهْلِهِ كَهُلْكِ الفَتَاةِ أَسْلَمَ الحَيَّ حَاضِرُهْ[1]

يعنى بذلك : وشر المنايا منيَّة ميت وَسط أهله، فاكتفى بفهم سامع قِيله مرادَه من ذلك ، عن إظهار ما ترك إظهارَه ، وكما قال رؤبة بن العَجّاج :

حَارِثُ ! قد فَرَّجْتَ عَنِّى هَمِّى فنامَ لَيْلِى وتَجَلَّى غَمِّى[2]

فوَصف بالنوم الليل ، ومعناه أنه هو الذى نام ، وكما قال جرير ابن الخَطَفَى :

وأَعْوَرَ من نَبْهَانَ أَمَّا نَهَارُهُ فأَعْمَى ، وأما ليلُه فبَصِيرُ[3]

فأضاف العمى والإبصار إلى الليل والنهار ، ومرادُه وصفَ النبهانىّ بذلك .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٦)

يعنى بقوله جل ثناؤه « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » : ما كانوا رُشداءَ فى اختيارهم الضلالةَ على الهدى ، واستبدالهم الكفرَ بالإيمان ، واشترائهم النفاقَ بالتصديق والإقرار .

---

(١) هو للحطيئة ، من أبيات ليست فى ديوانه ، بل فى طبقات فحول الشعراء : ٩٥ ، وسيبويه ١ : ١٠٩ وأمالى الشريف المرتضى ١ : ٣٨ ، مع اختلاف فى بعض الرواية ، ورواية الطبقات أجودهن . « أيقظ الحى » ، يعنى أيقظ الحى حاضر الموت ، فقامت البواكى ترن وتندب ، وكأن رواية من روى « أسلم الحى » ، تعنى أسلمهم للبكاء .

(٢) ديوانه : ١٤٢ ، يمدح الحارث بن سليم ، من آل عمرو بن سعد بن زيد مناة .

(٣) ديوانه : ٢٠٦ ، والنقائض : ٣٥ ، والمؤتلف والمختلف : ٣٩ ، ١٦١ ، ومعجم الشعراء ٢٥٣ ، من شعر فى هجاء الأعور النبهانى ، وكان هجا جريراً ، فأكله جرير . قال أبو عبيدة : « أى هو أعور النهار عن الخيرات ، بصير الليل بالسوءات ، يسرق ويزنى » .

• • •

القول فى تأويل قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

قال أبو جعفر: إن قال لنا قائل: وكيف قيل «مَثَلُهُم كَمَثَلِ الذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا» ، وقد علمتَ أن «الهاء والميم» من قوله «مثلهم» كناية جِمَاعٍ — من الرجال أو الرجال والنساء — و« الذى » دلالة على واحد من الذكور؟ فكيف جعَل الخبر عن واحد مَثلاً لجماعة؟ وهلا قيل : مثلهم كمثل الذين استوقدوا ناراً؟ وإن جاز عندك أن تمثِّلَ الجماعةَ بالواحد ، فتجيز لقائل رأى جماعة من الرجال فأعجبته صُوَرهم وتمامُ خلقهم وأجسامهم ، أن يقول : كأنَّ هؤلاء ، أو كأنَّ أجسامَ هؤلاء ، نخلةٌ؟

١٠٩/١ قيل : أما فى الموضع الذى مثَّل ربُّنا جل ثناؤه جماعةً من المنافقين ، بالواحد الذى جعله لأفعالهم مثلا ، فجائز حسنٌ ، وفى نظائره[1] ، كما قال جل ثناؤه فى نظير ذلك: ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [سورة الأحزاب: ١٩]، يعنى كدَوَرَانِ عينِ الذى يُغشى عليه من الموت — وكقوله: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [سورة لقمان : ٢٨] بمعنى : إلا كبَعْث نفسٍ واحدة .

وأما فى تمثيل أجسام الجماعة من الرجال ، فى الطول وتمام الخلق ، بالواحدة من النخيل ، فغير جائز ، ولا فى نظائره ، لفرق بينهما .

فأما تمثيلُ الجماعة من المنافقين بالمستوقِدِ الواحد ، فإنما جاز ، لأن المرادَ من

---

(١) « وفى نظائره » ، أى هو فى نظائره جائز حسن أيضاً . ومثلها ما يأتى بعد أسطر فى قوله « ولا فى نظائره » ، حذف فيهما جميعاً .

الخبر عن مَثَل المنافقين ، الخبرُ عن مَثَل استضاءتهم بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار وهم لغيره مستبطنون — من اعتقاداتهم الرَّديئة ، وخلطهم نفاقَهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر. والاستضاءةَ — وإن اختلفت أشخاص أهلها — معنًى واحد، لا معانٍ مختلفة . فالمثل لها فى معنى المثَل للشخص الواحد، من الأشياء المختلفة الأشخاص .

وتأويل ذلك : مَثلُ استضاءة المنافقين بما أظهروه من الإقرار بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، قولاً ، وهُم به مكذبون اعتقاداً، كمثَل استضاءة المُوقِد ناراً . ثم أسقط ذكر الاستضاءة، وأضيف المثَلُ إليهم ، كما قال نابغةُ بنى جَعْدَة :

وكَيفَ تُوَاصِلُ من أصْبَحَتْ خِلاَلَتُه كأبى مَرْحَبِ [1]

يريد : كخلالة أبى مَرْحب ، فأسقط « خلالة » ، إذ كان فيما أظهرَ من الكلام ، دلالةٌ لسامعيه على ما حذف منه . فكذلك القول فى قوله : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذى اسْتَوْقَدَ نَارًا » ، لما كان معلوماً عند سامعيه بما أظهرَ من الكلام ، أنّ المثلَ إنما ضُرِب لاستضاءة القوم بالإقرار دون أعيان أجسامهم — حَسُن حذفُ ذكر الاستضاءة، وإضافة المثل إلى أهله . والمقصود بالمثل ما ذكرنا. فلما وَصفنا ، جاز وحَسُنَ قوله : « مَثَلُهُم كَمَثَلِ الذى اسْتَوقَد نَاراً » ، ويشبه مثل الجماعة فى اللفظ بالواحد ، إذ كان المراد بالمثل الواحد فى المعنى .

وأما إذا أريدَ تشبيهُ الجماعة من أعيان بنى آدم — أو أعيان ذوى الصور والأجسام ، بشىء — فالصَّواب من الكلام تشبيهُ الجماعة بالجماعة ، والواحدُ بالواحد ، لأن عينَ كل واحد منهم غيرُ أعيان الآخرين .

ولذلك من المعنى ، افترق القولُ فى تشبيه الأفعال والأسماء . فجاز تشبيهُ أفعال الجماعة من الناس وغيرهم — إذا كانت بمعنى واحدٍ — بفعل الواحد ،

---

(١) الشعر للنابغة الجعدى . اللسان (رحب) و (خلل) . والخلة والخلالة : الصداقة المختصة التى ليس فى علاقتها خلل . وأبو مرحب : كنية الظل ، يريد أنها تزول كما يزول الظل ، لا تبقى له مودة .

ثم حذف أسماء الأفعال وإضافة المثَل والتشبيه إلى الذين لهم الفعل . فيقال : ما أفعالكم إلا كفعل الكلب ، ثم يحذف فيقال : ما أفعالكم إلا كالكلب أو كالكلاب ، — وأنت تعنى : إلا كفعل الكلب ، وإلا كفعل الكلاب . ولم يَجُزْ أن تقول : ما هم إلا نخلة ، وأنت تريد تشبيه أجسامهم بالنخل فى الطُّول والتمام .

وأما قوله : « استوْقَدَ نارًا » ، فإنه فى تأويل : أوقدَ ، كما قال الشاعر :

وَدَاعٍ دَعَا : يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْه عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ(١)

يريد : فلم يُجبه . فكان معنى الكلام إذًا : مَثَلُ استضاءة هؤلاء المنافقين — فى إظهارهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بألسنتهم ، من قولهم : آمنَّا بالله وباليوم الآخر ، وصدَّقنا بمحمد وبما جاء به ، وهم للكفر مستبطنون — فيما الله فاعل بهم(٢) ، مثل استضاءة موقِد نارٍ بناره ، حتى أضاءت له النارُ ما حوله ، يعنى : ما حول المستوقِد .

وقد زعم بعضُ أهل العربية من أهل البصرة : أن « الذى » فى قوله : « كمثل الذى استوْقدَ نارًا » بمعنى الذين ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣] ، وكما قال الشاعر : ١١٠/١

فَإِنَّ الَّذِى حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ القومُ كُلُّ القَوْمِ يَاأُمَّ خَالِدِ(٣)

قال أبو جعفر : والقول الأول هو القول ، لما وصفنا من العِلة . وقد أغفل قائل

---

(١) الشعر لكعب بن سعد الغنوى . الأصمعيات : ١٤ ، وأمالى القالى ٢ : ١٥١ ، وهى من حسان قصائد الرثاء .

(٢) سياق عبارته : « مثل استضاءة هؤلاء . . . فيما الله فاعل بهم ، مثل استضاءة . . . » .

(٣) الشعر للأشهب بن رميلة . الخزانة ٢ : ٥٠٧ — ٥٠٨ ، والبيان ٤ : ٥٥ ، وسيبويه ١ : ٩٦ ، والمؤتلف والمختلف للآمدى : ٣٣ ، وذكر البغدادى أن أبا تمام أنشد البيت فى أبيات لحريث ابن محفض ، فى كتابه « مختار أشعار القبائل » . وروايته : « وإن الألى » . ولا شاهد فيه . وهم يقولون إن النون حذفت من « الذين » ، فصارت « الذى » لطول الكلام والتخفيف ، وهى بمعنى الجمع لا المفرد . وفلج : واد بين البصرة وحمى ضرية ، كانت فيه هذه الوقعة التى ذكرها

ذلك فرقَ ما بين « الذى » فى الآيتين وفى البيت. لأن « الذى » فى قوله: « والذى جاء بالصدق » ، قد جاءت الدّلالة على أن معناها الجمع ، وهو قوله: « أولئكَ هُمُ المتقونَ » ، وكذلك « الذى » فى البيت ، وهو قوله « دماؤهم » . وليست هذه الدلالة فى قوله : « كمثل الذى استوْقَدَ نارًا » . فذلك فَرْق ما بين « الذى » فى قوله: « كمثل الذى استوْقَدَ نارًا » ، وسائر شواهده التى استشهد بها على أنّ معنى « الذى » فى قوله: « كمثل الذى استوْقَدَ نَاراً » بمعنى الجِماع . وغير جائز لأحد نقل الكلمة — التى هى الأغلب فى استعمال العرب على معنى — إلى غيره ، إلا بحجة يجب التسليم لها.

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك . فرُوِى عن ابن عباس فيه أقوال :

أحدها : ما —

٣٨٦ — حدثنا به محمد بن حُميد ، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ضرب الله للمنافقين مَثلاً فقال : « مَثلهمْ كمثل الذى استوْقدَ نَارًا فلما أضاءتْ ما حوله ذهبَ اللهُ بنُورهمْ وتركهمْ فى ظُلماتٍ لا يُبصرُونَ » أى يُبصرون الحق ويقولون به ، حتى إذا خرجوا به من ظُلمة الكفر أطفئوه بكُفرهم به ونفاقِهم فيه ، فتركهم فى ظلمات الكفر ، فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق .

والآخر : ما —

٣٨٧ — حدثنا به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثنا معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: « مَثلهمْ كمثل الذى استوقدَ نارًا » إلى آخر الآية : هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزّون بالإسلام ، فيناكحُهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء ، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العزّ ، كما سلب صاحب النار ضوءَه . ﴿ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ ﴾ يقول : فى عذاب .

والثالث : ما —

٣٨٨ — حدثني به موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو ، قال: حدثنا أسباط ، عن السُّدّى ، فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح، عن ابن عباس — وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « مَثلهمْ كمثل الذى استوْقدَ نارًا فلما أضاءتْ ما حولهُ ذَهبَ اللهُ بنورهمْ وتركهمْ فى ظُلمات لا يُبصرُونَ » ، زَعم أنّ أناساً دخلوا فى الإسلام مَقدَم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، ثم إنهم نافقوا ، فكان مثلهم كمثل رجُل كان فى ظلمة فأوقد ناراً فأضاءت له ما حوله من قَذًى أو أذًى فأبصره حتى عرف ما يتَّقى . فبينا هو كذلك ، إذْ طَفِئَت ناره ، فأقبل لا يدرى ما يتَّقى من أذًى . فكذلك المنافق : كان فى ظلمة الشرك فأسلم ، فعرف الحلالَ من الحرام ، والخير من الشر ، فبينا هو كذلك إذْ كفَر ، فصار لا يعرف الحلال من الحرام ، ولا الخير من الشرّ . وأما النُّور ، فالإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت الظلمة نفاقهم .

والآخر : ما — .

٣٨٩ — حدثني به محمد بن سعد، قال: حدثني أبى سعد بن محمد[1]، قال: حدثني عمى ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس : قوله : «مَثلهمْ كمثل الذى استوْقدَ ناراً » إلى « فهم لا يرجعون » ، ضرَبه الله مثلا للمنافق . وقوله : « ذَهبَ اللهُ بنورهمْ » قال : أما النور ، فهو إيمانهم الذى يتكلمون به . وأما الظلمة، فهى ضلالتهُم وكفرهم يتكلمون به ، وهم قوم كانوا على هدًى ثم نُزِع منهم ، فعتَوْا بعد ذلك .

وقال آخرون : بما —

٣٩٠ — حدثني به بِشر بن معاذ ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، قوله: « مَثلهمْ كمثل الذى استوْقدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حولهُ ذَهبَ اللهُ بنورهمْ وتركهمْ فى ظُلمات لا يُبصرُونَ » ، وأن المنافقَ تكلم

---

(١) فى المطبوعة « محمد بن سعيد » ، « سعيد بن محمد » . وهو خطأ ، صوابه من المخطوطة ، ومن مراجع التراجم . وانظر شرح هذا السند مفصلا : ٣٠٥ .

بلا إله إلا الله، فأضاءت له فى الدنيا ، فناكَح بها المسلمين ، وغازَى بها المسلمين[1]، ووارثَ بها المسلمين ، وحقن بها دمه وماله . فلما كان عند الموت ، سُلبها المنافق ، لأنه لم يكن لها أصل فى قلبه ، ولاحقيقة فى علمه . ١١١/١

٣٩١ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال: أخبرنا عبد الرزّاق ، قال: أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله » هى : لا إله إلا الله ، أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا ، وأمنوا فى الدنيا ، ونكحوا النساء ، وحقنوا بها دماءهم ، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايُبصرون .

٣٩٢ — حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين ، قال: حدثنى أبو تُميلة ،عن عُبيد بن سليمان[2] ، عن الضحاك بن مزاحم ، قوله : « كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله» ، قال : أما النّور ، فهو إيمانهم الذى يتكلمون به ، وأما الظلمات، فهى ضلالتهم وكفرهم .

وقال آخرون بما : —

٣٩٣ — حدثنى به محمد بن عمرو الباهلى، قال: حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال : حدثنا ابن أبى نَجيح ،عن مجاهد،فى قول الله: «مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءتْ ما حوله»، قال : أما إضاءة النار ، فإقبالهم إلى المؤمنين والهدَى؛ وذهابُ نورهم ، إقبالهم إلى الكافرين والضلالة .

---

(١) فى المطبوعة : « وعاد بها المسلمين » ، والصواب من المخطوطة وابن كثير فى تفسيره ، والدر المنثور ، كما سيأتى فى التخريج .

(٢) أبو تميلة ، بضم التاء المثناة وفتح الميم : هو يحيى بن واضح الأنصارى المروزى الحافظ ، من شيوخ أحمد وإسحق وغيرهما من الأئمة ، وهو ثقة ، وثقه ابن معين وابن سعد وأبو حاتم وغيرهم ، ووهم أبو حاتم ، إذ نسب إلى البخارى أنه ذكره فى الضعفاء . وما كان ذلك ، والبخارى ترجمه فى الكبير ٤ / ٢ / ٣٠٩ ، فلم يذكر فيه جرحاً ، ولم يذكره فى كتاب الضعفاء الصغير . وقال الذهبى فى الميزان ٣ : ٣٠٥ حين ذكر كلام أبى حاتم : « فلم أر ذلك ، ولا كان ذلك . فإن البخارى قد احتج به ». ووقع فى مطبوعة الطبرى هنا « أبو نميلة » بالنون ، وهو خطأ مطبعى . و « عبيد بن سليمان » : هو الباهلى الكوفى أبو الحارث ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وذكر ابن أبى حاتم ٢ / ٢ / ٤٠٨ أنه سأل عنه أباه ، فقال : « لا بأس به » .

٣٩٤ - حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال: حدثنا أبو حذيفة ، عن شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : «مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله» ، أما إضاءة النار ، فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى ؛ وذهابُ نورهم ، إقبالهم إلى الكافرين والضلالة .

٣٩٥ - حدثني القاسم، قال : حدثني الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

٣٩٦ - حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : ضرب مثلَ أهل النفاق فقال: «مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً» ، قال: إنما ضوءُ النار ونورُها ما أوقدتها ، فإذا خمدت ذهب نورُها . كذلك المنافق ، كلما تكلّم بكلمة الإخلاص أضاءَ له ، فإذا شك وقع فى الظلمة .

٣٩٧ - حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال: حدثني عبد الرحمن بن زيد، فى قوله : «كمثل الذى استوقد ناراً» إلى آخر الآية ، قال : هذه صفة المنافقين . كانوا قد آمنوا حتى أضاءَ الإيمانُ فى قلوبهم ، كما أضاءت النارُ لهؤلاء الذين استوقدوا ، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه ، كما ذهب بضوء هذه النار ، فتركهم فى ظلمات لا يبصرون[1].

وأولى التأويلات بالآية ما قاله قتادة ، والضحاك ، وما رواه على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس . وذلك : أن الله جلّ ثناؤه إنما ضرب هذا المثل للمنافقين - الذين وصف صفتهم وقص قصصهم ، من لدن ابتدأ بذكرهم بقوله : «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هُمْ بمؤمنين» - لا المعلنين بالكفر المجاهرين

---

(١) الأخبار ٣٨٦ - ٣٩٧ : هذه الآثار السالفة جميعاً ، وما سيأتى إلى قوله تعالى (فهم لا يرجعون) بالأرقام ٣٩٨ - ٤٠٤ ساقها ابن كثير ١ : ٩٧ - ٩٩ ، والدر المنثور ١ : ٣٢ - ٣٣ ، وفتح القدير ١ : ٣٥ .

بالشركْ[١]. ولو كان المثل لمن آمنَ إيماناً صحيحاً ثم أعلن بالكفر إعلانا صحيحاً ــ على ما ظنّ المتأول قولَ الله جل ثناؤه: «كمثل الذى استوقدَ ناراً فلما أضاءَتْ ما حولهَ ذهبَ الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون» : أن ضوءَ النار مثلٌ لإيمانهم الذى كان منهم عندَهُ على صحة ، وأن ذهاب نورهم مثلٌ لارتدادهم وإعلانهم الكفر على صحة ــ لم يكن[٢] هناك من القوم خداعٌ ولا استهزاءٌ عند أنفسهم ولا نفاقٌ . وأنّى يكون خداعٌ ونفاقٌ ممن لم يُبد لك قولاَ ولا فعلاَ إلا ما أوجبَ لك العلم بحاله التى هو لك عليها ، وبعزيمة نفسه التى هو مقيم عليها ؟ إنّ هذا بغير شَكّ من النفاق بعيدٌ ، ومن الخداع بريءٌ . وإذْ كان القومُ لم تكن لهم إلا حالتان[٣] : حالُ إيمان ظاهر ، وحالُ كفر ظاهر ، فقد سقط عن القوم اسمُ النفاق . لأنهم فى حال إيمانهم الصحيح كانوا مؤمنين ، وفى حال كفرهم الصحيح كانوا كافرين . ولا حالةَ هناك ثالثةَ كانوا بها منافقين .

وفى وَصْف الله جل ثناؤه إياهم بصفة النفاق ، ما ينبئ عن أن القول غيرُ القول الذى زعمه من زَعم : أن القوم كانوا مؤمنين ، ثم ارتدوا إلى الكفر فأقاموا عليه ، إلا أنْ يكون قائلُ ذلك أراد أنهم انتقلوا من إيمانهم الذى كانوا عليه ، إلى الكفر الذى هو نفاق . وذلك قولٌ إن قاله ، لم تُدرَك صحته إلا بخبر مستفيض ، أو ببعض المعانى الموجبة صحتَه . فأما فى ظاهر الكتاب فلا دلالة على صحته، لاحتماله من التأويل ما هو أولى به منه . ١١٢/١

فإذْ كان الأمر على ما وصفنا فى ذلك ، فأولى تأويلات الآية بالآية : مثل استضاءَة المنافقين ــ بما أظهروا بألسنتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الإقرار به، وقولهم له وللمؤمنين : آمنّا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، حتى حُكم لهم بذلك

---

(١) فى المطبوعة : «أى ، لا المعلنين» ، وفى المخطوطة : «المعالنين بالكفر» ، وسياق عبارته «إنما ضرب الله هذا المثل للمنافقين . . . لا المعلنين بالكفر» .

(٢) السياق : «ولو كان المثل لمن آمن إيماناً صحيحاً . . . لم يكن هنالك من القوم . . . » .

(٣) فى المطبوعة : «فإن كان القوم . . .» ، وهو خطأ.

فى عاجل الدنيا بحكم المسلمين : فى حقن الدماء والأموال ، والأمن على الذرية من السِّباء ، وفى المناكحة والموارثة — كمثل استضاءة الموقِد النارَ بالنار ، حتى إذا ارتفق بضيائها ، وأبصر ما حوله مُستضيئاً بنوره من الظلمة ، خمدت النارُ وانطفأت ، [١] فذهب نورُه ، وعاد المستضىء به فى ظلمة وحَيْرة .

وذلك أن المنافق لم يزل مستضيئاً بضوء القول الذى دافع عنه فى حياته القتلَ والسِّباءَ ، مع استبطانه ما كان مستوجباً به القتلَ وسلبَ المال لو أظهره بلسانه — تُخيِّل إليه بذلك نفسُه أنه بالله ورسوله والمؤمنين مستهزئ مخادعٌ ، حتى سوّلت له نفسُه — إذْ وَرَد على ربه فى الآخرة — أنه ناج منه بمثل الذى نجا به فى الدنيا من الكذب والنفاق . أوَ ما تسمع الله جل ثناؤه يقول إذْ نعتهم ، ثم أخبر خبرَهم عند ورودهم عليه : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَىْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [سورة المجادلة : ١٨] ، ظنًّا من القوم أن نجاتهم من عذاب الله فى الآخرة ، فى مثل الذى كان به نجاؤهم من القتل والسباء وسلب المال فى الدنيا [٢] : من الكذب والإفك ، وأنّ خداعهم نافعُهم هنالك نفعَه إياهم فى الدنيا ، حتى عاينوا من أمر الله ما أيقنوا به أنهم كانوا من ظنونهم فى غرور وضلال ، واستهزاء بأنفسهم وخداع ، إذْ أطفأ الله نورَهم يوم القيامة ، فاستنظروا المؤمنين ليقتبسوا من نورهم فقيل لهم : ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً واصلوْا سعيراً . فذلك حينَ ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، كما انطفأتْ نار المستوقِد النارَ بعد إضاءتها له ، فبقى فى ظلمته حيران تائهاً ، يقول الله جلَّ ثناؤه : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ

---

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « حتى ارتفق بضيائها وأبصر ما حوله . . . حتى خمدت النار » ، وهى عبارة مختلة ، صوابها ما أثبتناه .

(٢) فى المطبوعة : « كان به نجاتهم من القتل » ، وهما سواء فى المعنى .

مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة الحديد: ١٣ - ١٥] .

فإن قال لنا قائل : إنك ذكرتَ أنّ معنى قول الله تعالى ذكره « كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله » : خَمدتْ وانطفأتْ ، وليس ذلك بموجود فى القرآن . فما دلالتك على أنّ ذلك معناه ؟

قيل : قد قلنا إنّ من شأن العرب الإيجاز والاختصار ، إذا كان فيما نطقت به الدلالةُ الكافية على ما حذفتْ وتركتْ ، كما قال أبو ذؤيب الهذلى :

عَصَيْتُ إليهاَ القَلْبَ ، إنِّى لأمرِهَا سَمِيعٌ ، فمَا أَدْرِى أَرُشْدٌ طِلَابها ![1]

يعنى بذلك : فما أدرى أرشدٌ طِلابُها أم غىٌّ ، فحذف ذكر « أم غىٌّ » ، إذ كان فيما نطق به الدلالة عليها ، وكما قال ذو الرمة فى نعت حمير :

فَلَمَّا لَبِسْنَ اللَّيلَ ، أوحِينَ ، نَصَّبَتْ لهُ مِن خَذَا آذَانِهاَ وَهْو جَانِحُ[2]

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٧١ ، وسيأتى فى تفسير آية آل عمران : ١١٣ (٤ : ٣٤ بولاق) ورواية الطبرى للبيت فى الموضعين لا يستقيم بها معنى ، ورواية ديوانه :

« عَصَانِى إليهاَ القَلْبُ إنِّى لأمرِهِ »

ويروى « دعانى إليها . . » ، وهما روايتان صحيحتان . وتمام معنى البيت فى الذى يليه :

فقُلْتُ لقَلْبِى : يالكَ الخيرُ ! إنَّمَا يُدَلِّيكَ للموت الجديد حِبَابُها

فهو يؤامر قلبه ، ولكنه أطاعه .

(٢) ديوانه : ١٠٨ وسيأتى فى تفسير آية يونس : ٧٧ (١١ : ١٠١ بولاق) ، وآية سورة

يعنى : أو حين أقبل الليل ، فى نظائر لذلك كثيرة ، كرهنا إطالة الكتاب بذكرها. فكذلك قوله: «كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءتْ ما حوله» ، لمّا كان فيه وفيما بعدَه من قوله: «ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون» دلالةٌ على المتروك كافيةٌ من ذكره — اختصرَ الكلامَ طلبَ الإيجاز . ١١٣/١

وكذلك حذفُ ما حذفَ واختصارُ ما اختصرَ من الخبر عن مَثل المنافقين بعدَه ، نظير ما اختصرَ من الخبر عن مَثَل المستوقد النارَ . لأن معنى الكلام : فكذلك المنافقون ذهبَ الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون — بعد الضياء الذى كانوا فيه فى الدنيا بما كانوا يظهرون بألسنتهم من الإقرار بالإسلام وهم لغيره مستبطنون — كما ذهب ضَوء نار هذا المستوقد ، بانطفاء ناره وخمودها ، فبقى فى ظلمة لا يُبصر .

و «الهاء والميم» فى قوله «ذهب الله بنورهم» ، عائدة على «الهاء والميم» فى قوله «مثَلهم» .

• • •

القول فى تأويل قول الله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٨)

قال أبو جعفر : وإذْ كانَ تأويل قول الله جلَّ ثناؤه : «ذهبَ الله بنورهم

النبأ : ١٠ (٣٠ : ٣ بولاق) . يصف عانة حمر ، وقفت ترقب مغيب الشمس ، حتى إذا غربت انطلقت مسرعة إلى مورد الماء الذى تنوى إليه. وقوله : «لبسن الليل» يعنى الحمر ، حين غشيبن الليل وهن مترقبات مغيب الشمس . ونصبت : رفعت وأقامت آذانها . وخذيت الأذن خذاً : استرخت من أصلها مقبلة على الخدين ، وذلك يصيب الحمر فى الصيف من حر الشمس والظمأ . ونصبت خذا آذانها ، استعداداً للعدو إلى الماء . وجنح الليل فهو جانح : أقبل ، وهو من جنح الطائر : إذا كسر من جناحيه ثم أقبل كالواقع اللاجئ إلى موضع . وهو وصف جيد لإقبال الظلام من جانب الأفق . وأراد الطبرى أن ذا الرمة أراد أن يقول : أو حين أقبل الليل ، نصبت له من خذا آذانها ، وهو جانح . ولا ضرورة توجب ما قال به من الحذف فى هذا البيت .

وتَرَكهم فى ظلمات لا يبصرون »، هو ما وصفنا — من أنّ ذلك خبر من الله جل ثناؤه عما هو فاعل بالمنافقين فى الآخرة ، عند هتك أستارهم ، وإظهاره فضائح أسرارهم، وَسلبه ضياءَ أنوارهم ، من تركهم فى ظُلَم أهوال يوم القيامة يترددون ، وفى َحنادسها لايُبصرون — فبيّن ٌ أنّ قولهجل ثناؤه: «صم ٌ بكم عمى ٌ فهم لايرجعون » من المؤخّر الذىمعناه التقديم ، وأنّ معنى الكلام : أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدىفما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، ُصم ٌ بكم ٌ ُعمى ٌ فهم لايرجعون ، َمثلهم كمثل الذى استوقدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حوْله ذهبَ الله بنورهم وتركهم فى َظلمات لا يبصرون ، أو كمثل صيِّب من السماء .

وإذْ كان ذلك معنى الكلام : فمعلوم ٌ أن قوله: « ُصم ٌ بكم ٌ ُعمى ٌ »، يأتيه الرفع من وجهين، والنصب من وجهين :

فأما أحدُ وجهى الرفع : فعلى الاستئناف ، لما فيه من الذم . وقد تفعل العرب ذلك فى المدح والذم ، فتنصِب وتَرفع ، وإن كان خبراً عن معرفة ، كما قال الشاعر :

لاَ يَبْعَدَنْ قَومِى الَّذِينَ هُمُ ... سَمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الجُزْرِ (١)

النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبِينَ مَعَاقِدَ الأُزْرِ (٢)

فيروى : « النازلون » و « النازلين » ، وكذلك « الطيِّبُون » و « الطيِّبين » ، على ما وصفتُ من المدح .

---

(١) الشعر للخرنق بنت بدر بن هفان ، أخت طرفة لأمه ، أمهما وردة، ديوانها : ١٠، ترثى زوجها بشر بن عمرو بن مرثد . وسيأتى فى تفسير آية سورة غافر : ٣ (٢٤ : ٢٧ بولاق) ، وفى سيبويه ١ : ١٠٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، وخزانة الأدب ٢ : ٣٠١ . وقولها « لا يبعدن قومى » : أى لا يهلكن قومى ، تدعو لهم. وفعله : بعد يبعد بعداً (من باب فرح): هلك . والعداة جمع عاد ، وهو العدو . والجزر جمع جزور : وهى الناقة التى تنحر . وآفة الجزر : علة هلاكها ، لا يبقون على أموالهم من الكرم .

(٢) المعترك : موضع القتال حيث يعتركون ، يطحن بعضهم بعضاً . وإذا ضاق المعترك نزل الفرسان ، وتطاعنوا واقتربوا حتى يعتنق بعضهم بعضاً إذا حمس القتال . والأزر جمع إزار : وهو ما ستر النصف الأسفل ، والرداء : ما ستر الأعلى . ومعاقد الأزر : حيث يعقد لئلا تسقط . وكنت بذلك عن عفتهم وطهارتهم ، لا يقربون فاحشة فيحلون معاقد الأزر .

والوجهُ الآخر : على نية التكرير من « أولئك »، فيكون المعنى حينئذ : أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، أولئك صُمٌّ بكم عمى فهم لا يرجعون .

وأمّا أحد وَجهى النصب : فأن يكون قطعاً مما فى « مهتدين » من ذكر « أولئك » ،[1] لأن الذى فيه من ذكرهم معرفة ، والصُّم نكرة .

والآخر : أن يكون قطعاً من «الذين» ، لأن «الذين» معرفة و « الصم » نكرة[1].

وقد يجوز النصبُ فيه أيضاً على وجه الذم ، فيكون ذلك وجهاً من النصب ثالثاً .

فأما على تأويل ما روينا عن ابن عباس من غير وَجه رواية على بن أبى طلحة عنه ، فإنه لا يجوز فيه الرفع إلا من وجه واحد ، وهو الاستئناف . وأما النصب فقد يجوز فيه من وجهين : أحدهما : الذم ، والآخرُ : القطع من «الهاء والميم» اللتين فى « تركهم » ، أو من ذكرهم فى « لا يبصرون » .

وقد بيّنا القولَ الذى هو أولى بالصواب فى تأويل ذلك . والقراءةُ التى هى القراءةُ ، الرفعُ دونَ النصب[2]. لأنه ليس لأحد خلافُ رسوم مَصاحف المسلمين. وإذا قُرِئَ نصباً كانتْ قراءةً مخالفة رسم مصاحفهم .

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه عن المنافقين : أنهم باشترائهم الضلالة بالهدى لم يكونوا للهدى والحقّ مهتدين ، بل هم صُمٌّ عنهما فلا يسمعونهما ، لغلبة خِذلان الله عليهم ، بُكمٌ عن القيل بهما فلا ينطقون بهما — والبُكم : الخُرْسُ ، وهو جِماعُ أبكم — عُميٌ عن أن يبصرُوهما فيعقلوهما ، لأن الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا يهتدون . ١/١١٤

وبمثل ما قلنا فى ذلك قال علماء أهل التأويل :

٣٩٨ — حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ،

---

(١) قطعاً : أى حالا ، وانظر ما سلف : ٢٣٠ تعليق: ٤ .

(٢) فى المطبوعة : « والقراءة التى هى قراءة الرفع . . . » ، وهو خطأ محض .

عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « صمٌّ بكمٌ عُميٌ » ، عن الخير .

٣٩٩ — حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدّثني معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : « صم بكم عُمي » ، يقول : لا يسمعون الهدى ولا يُبصرونه ولا يعقلونه .

٤٠٠ — حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّي في خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « بكم » ، هم الخُرْس .

٤٠١ — حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد ، عن قتادة ، قوله « صم بكْم عُمْي » : صمٌّ عن الحق فلا يسمعونه ، عمي عن الحق فلا يبصرونه ، بُكم عن الحق فلا ينطقون به[1] .

* * *

القول في تأويل قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١٨)

قال أبو جعفر : وقوله « فهم لا يرجعون » ، إخبارٌ من الله جل ثناؤه عن هؤلاء المنافقين — الذين نعتهم الله باشترائهم الضلالة بالهدّى ، وَصممِهم عن سماع الخير والحق ، وَبكَمَهم عن القيل بهما ، وعَماهم عن إبصارهما —[2] أنهم لا يرجعون إلى الإقلاع عن ضلالتهم ، ولا يتوبون إلى الإنابة من نفاقهم . فآيَس المؤمنين من أن يبصرَ هؤلاء رشداً ، أوْ يقولوا حقّاً ، أو يَسمعوا داعياً إلى الهدى ، أو أن يَذّكّروا فيتوبوا من ضلالتهم ، كما آيس من تَوبة قادة كفّار أهل الكتاب

---

(١) هذه الأخبار ٣٩٨ — ٤٠١ : تتمة ما مضى في تفسير صدر الآية ، بالأرقام : ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ .

(٢) سياقه : « إخبار من الله عز وجل . . . أنهم لا يرجعون . . . » .

والمشركين وأحبارهم، الذين وَصَفهم بأنه قد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وغشّى على أبصارهم.

وبمثل الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك :

٤٠٢ — حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة: «فهم لا يَرجعون»، أى: لا يتوبون ولا يذّكّرون.

٤٠٣ — وحدثنى موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السُّدّى فى خبر ذكره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس — وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم: «فهم لا يَرْجعون»: فهم لا يرجعون إلى الإسلام.

وقد رُوى عن ابن عباس قولٌ يخالف معناه معنى هذا الخبر، وهو ما: —

٤٠٤ — حدثنا به ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحق، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «فهم لا يَرْجعون»، أى: فلا يرجعون إلى الهدَى ولا إلى خير، فلا يصيبون نَجاةً مَا كانوا على مَا هم عليه[1].

وهذا تأويلٌ ظاهرُ التلاوة بخلافه. وذلك أن الله جلّ ثناؤه أخبرَ عن القوم أنهم لا يَرجعون — عن اشترائهم الضلالة بالهدى — إلى ابتغاء الهدى وإبصار الحق، من غير حَصْرٍ منه جلّ ذكره ذلك من حالهم على وقت دون وقت[2] وحال دون حال. وهذا الخبر الذى ذكرناه عن ابن عباس، يُنبئ أنّ ذلك من صفتهم محصورٌ على وقت[3]، وهو ما كانوا على أمرهم مقيمين، وأنّ لهم السبيلَ إلى الرجوع

---

(١) هذه الأخبار ٤٠٢ — ٤٠٤: تتمة مامضى فى تفسير صدر الآية. بالأرقام: ٤٠١، ٤٠٠، ٣٩٨

(٢) فى المطبوعة: «إلى وقت دون وقت»، وهو خطأ.

(٣) فى المطبوعة: «ينبئ عن أن ....».

عنه . وذلك من التأويل دعوى باطلة[1] ، لا دلالة عليها من ظاهر ولا من خبر تقوم بمثله الحجة فيسلم لها .

• • •

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾

قال أبو جعفر : والصَّيِّب الفَيْعِل من قولك : صَاب المطر يَصوب صَوْباً ، إذا انحدَر ونزَل ، كما قال الشاعر :

فَلَسْتَ لإِنْسِيٍّ وَلٰكِنْ لِمَلْأَكٍ تَنَزَّلَ مِن جَوِّ السَّمَاء يَصُوبُ[2]

وكما قال علقمة بن عَبَدَة :

١١٥/١

كأنَّهمُ صَابَتْ عليهم سَحَابَةٌ صَواعِقُها لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ[3]

---

(١) فى المخطوطة « دعوى باطل » ، وصوابها « دعوى باطل » بالإضافة .

(٢) ينسب هذا البيت لعلقمة بن عبدة ، وليس له ، ولا هو فى ديوانه . وسيأتى فى تفسير آية سورة البقرة ٣٠ (١ : ١٥٥ بولاق) ، وبغير هذه الرواية ، وهو من أبيات سيبويه ١ : ٣٧٩ وشرح شواهد الشافية : ٢٨٧ ، واللسان (ألك) وغيرها ، غير منسوب . ويقال إنه لرجل من عبد القيس جاهلى يمدح النعمان . وحكى السيرافى أنه لأبى وجزة السعدى ، يمدح عبدالله بن الزبير . وجاء فى المخطوطة « ولكن ملأكا » . وقبل البيت :

تعاليتَ أن تُعْزَى إلى الإنس خَلّةً ، وللإنسِ من يعزُوك ، فهو كذوبُ

(٣) ديوانه : البيت الأول : ٣٤ ، والثانى قبله : ١٩ ، وشرح المفضليات : ٧٨٤ ، ٧٦٩ ، يمدح بها الحارث بن جبلة بن أبى شمر الغسانى ، وكان أسر أخاه شأساً ، فرحل إليه يطلب فكه . ويذكر فى هذا البيت يوم عين أباغ ، وفيه غزا الحارث الغسانى ، المنذر بن المنذر بن ماء السماء ، فالتقوا بعين أباغ ، فهزم جيش المنذر ، وقتل المنذر يومئذ . وقوله « كأنهم » يعنى جيش المنذر . وصاب المطر : انحدر وانصب . وكان وصف الجيش المنهزم فى البيت الذى قبله ، بين ساقط قد صرع ، وبين قتيل قد هلك . فشبههم بطير أصابها المطر الغزير وأخذتها الصواعق ، ففزعت ، ولم تستطع أن تنهض فتطير ، فهى تدب تطلب النجاة . والضمير فى قوله : « لطيرهن » للصواعق ، أى لطير الصواعق ، وأراد الطير التى أفزعتها الصواعق ، ولبدها المطر .

فَلَا تَعدِلِى بَينِى وَبينَ مُغَمَّرٍ، سُقِيتِ رَوَايَا المُزْنِ حِين تَصُوبُ[(١)]

يعنى : حين تنحدر . وهو فى الأصل «صَيْوِب»، ولكن الواو لما سبقتها ياء ساكنة، صيرتا جميعاً ياءً مشددةً، كما قيل : سيّد، من ساد يسود، وجيّد، من جاد يجود . وكذلك تفعل العربُ بالواو إذا كانت متحركة وقبلها ياء ساكنة، تصيّرهما جميعاً ياءً مشددةً .

وبما قلنا من القول فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

٤٠٥ — حدثنى محمد بن إسمعيل الأحْمَسِى، قال : حدثنا محمد بن عُبيد، قال : حدثنا هرون بن عنترة، عن أبيه[(٢)]، عن ابن عباس فى قوله «أو كصيّب من السماء»، قال : القطر .

٤٠٦ — حدثنى عباس بن محمد، قال : حدثنا حجاج، قال : قال ابن جُرَيج، قال لى عطاء : الصيّب، المطرُ .

٤٠٧ — حدثنى المثنى، قال : حدثنا أبو صالح، قال : حدثنى معاوية ابن صالح، عن على، عن ابن عباس قال : الصيّبُ، المطرُ .

٤٠٨ — حدثنى موسى، قال : حدثنا عمرو، قال : حدثنا أسباط، عن

(١) هذا البيت فى صدر القصيدة . يخاطب صاحبته، وفى المطبوعة «معمر» وهو خطأ . والمغمر والغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور، كأن الجهل غمره وطغا عليه . والشطر الثانى دعاء لها بالخصب والنعمة . والروايا جمع راوية : وهى الدابة التى تحمل مزاد الماء . والمزن : السحاب الأبيض، شبهه بالروايا حاملات الماء . ورواية ديوانه والمفضليات «سقتك» .

(٢) الإسناد ٤٠٥ — محمد بن إسمعيل بن سمرة الأحمسى — شيخ الطبرى : ثقة، روى عنه الترمذى، والنسائى، وابن ماجة، وغيرهم . له ترجمة فى التهذيب . وترجمه ابن أبى حاتم ٣ / ٢ / ١٩٠ . محمد بن عبيد : هو الطنافسى الأحدب، وهو ثقة معروف، روى عنه أحمد، وإسحق، وابن معين، وغيرهم . هرون بن عنترة بن عبد الرحمن : ثقة، وثقه أحمد وابن سعد وغيرهما . وترجمه البخارى فى الكبير ٤ / ٢ / ٢٢١، فلم يذكر فيه جرحاً، وابن سعد ٦ : ٢٤٣ . أبوه : هو عنترة بن عبد الرحمن، وكنيته «أبو وكيع»، وهو تابعى، قال البخارى فى الكبير ٤ / ١ / ٨٤ «رأى : علياً»، روى عنه ابنه هرون، «وأبو سنان»، وترجمه ابن سعد فى الطبقات ٦ : ١٦٣، وابن أبى حاتم ٣ / ٢ / ٣٥، وذكر أنه روى عن عثمان، وعلى، وابن عباس، وأن أبا زرعة سئل عنه فقال : «كوفى ثقة» .

السُّدِّىّ فى خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة عن ابن مسعود ، وعن ناسٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : الصيّب ، المطرُ

٤٠٩ — حدثني محمد بن سعد ، قال : حدثني أبي سعدٌ ، قال : حدثني عمّى الحسين ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس ، مثله .

٤١٠ — حدثنا بشر بن مُعاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : « أو كصيِّب » ، يقول : المطر .

٤١١ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أنبأنا مَعمر ، عن قتادة ، مثله .

٤١٢ — حدثني محمد بن عمرو الباهلي ، وعمرو بن علي ، قالا : حدّثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : الصيِّب ، الربيعُ[1] .

٤١٣ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو حُذيفة ، قال : حدثنا شِبْل ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد : الصيِّب ، المطرُ .

٤١٤ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، عن ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : الصيِّبُ ، المطرُ .

٤١٥ — حُدِّثت عن المِنجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : الصيِّبُ ، المطر .

٤١٦ — حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد : « أو كصيِّب من السماء » قال : أو كغَيْثٍ من السماء .

٤١٧ — حدثنا سَوّار بن عبد الله العنبرى ، قال : قال سفيان : الصَّيِّب ، الذى فيه المطر .

---

(١) فى المطبوعة : « الصيب : المطر » . والربيع : المطر فى أول الربيع .

٤١٨ — حدثنا عمرو بن علي، قال : حدثنا أبو معاوية، قال : حدثنا ابن جُريج، عن عطاء، في قوله : «أو كصيِّب من السماء»، قال : المطر[١] .

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك : مَثَلُ استضاءةِ المنافقين بضوء إقرارهم بالإسلام، مع استسرارهم الكفر، مَثَلُ إضاءة موقد نارٍ بضوء ناره، على ما وصف جل ثناؤه من صفته، أو كمَثَل مَطرٍ مُظلمٍ وَدْقُه تحدَّر من السماء[٢]، تحمله مُزنة ظلماء في ليلة مُظلمة. وذلك هو الظلمات التي أخبر الله جل ثناؤه أنها فيه.

فإن قال لنا قائل : أخبرنا عن هذين المثَلين : أهما مثَلان للمنافقين، أو أحدُهما؟ فإن يكونا مثلَيْن للمنافقين، فكيف قيل : «أو كصيِّب»، و «أو» تأتي بمعنى الشك في الكلام، ولم يقل «وكصيب» بالواو التي تُلحِق المثَلَ الثاني بالمثَل الأول؟ أو يكون مَثل القوم أحدهما، فما وجه ذكر الآخر بِـ «أو»؟ وقد علمت أنَّ «أو» إذا كانت في الكلام فإنما تدخل فيه على وجه الشكِّ من المخبِر فيما أخبر عنه، كقول القائل : «لقيني أخوك أو أبوك» وإنما لقيه أحدُهما، ولكنه جهل عَيْنَ الذي لقيه منهما، مع علمه أنَّ أحدهما قد لقيه. وغير جائز في الله جل ثناؤه أن يُضاف إليه الشك في شيء، أو عُزُوب عِلم شيء عنه، فيما أخبرَ أو تَرَك الخبر عنه.

١١٦/١ قيل له : إنَّ الأمرَ في ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه. و «أو» — وإن كانت في بعض الكلام تأتي بمعنى الشكِّ — فإنها قد تأتي دالة على مثل ما تدلُّ عليه الواو، إما بسابق من الكلام قبلها، وإما بما يأتي بعدَها، كقول تَوْبة ابن الحُمَيِّر :

وقد زَعمتْ لَيلى بِأَنِّيَ فاجرٌ ... لِنفسي تُقاها أوْ عَليها فجُورُها[٣]

(١) الأخبار ٤٠٥ – ٤١٨ : ساقها مختصرة ابن كثير ١ : ٩٩، والدر المنثور ١ : ٣٣.

(٢) الودق : المطر يخرج من خلل السحاب مسترخياً.

(٣) من قصيدة له، أمالي القالي ١ : ٨٨، ١٣١، وأمالي الشريف المرتضى ٣ : ١٤٦، وأمالي الشجري ٢ : ٣١٧، والأضداد لابن الأنباري : ٢٤٣، وغيرها كثير.

ومعلوم أنّ ذلك من توبة على غير وجه الشكّ فيما قال ، ولكن لمّا كانت « أو » فى هذا الموضع دالّةً على مثل الذى كانت تدل عليه « الواو » لو كانت مكانها ، وضَعها موضعَها ، وكذلك قولُ جرير :

نال الخلافة أو كانتْ له قَدَراً ، كما أتى ربَّه مُوسَى عَلَى قَدَرِ [١]

وكما قال الآخر :

فَلَوْ كانَ البُكاءُ يَرُدُّ شيْئاً بكيتُ عَلَى بُجَيْرٍ أوْ عِفَاقِ [٢]

عَلَى المرْأيْنِ إذْ مَضَيا جَمِيعاً لشَأنِهما ، بحُزنٍ واشْتِياقِ [٣]

فقد دلّ بقوله « على المرأين إذْ مضَيا جميعاً » أنّ بكاءه الذى أراد أن يبكيه لم يُرد أن يقصدَ به أحدَهما دونَ الآخر ، بل أراد أن يبكيهما جميعاً . فكذلك ذلك فى قول الله جل ثناؤه « أو كصيِّب من السماء » . لمّا كان معلوماً أن « أو » دالة فى ذلك على مثل الذى كانت تدل عليه « الواو » لو كانت مكانها — كان سواءً نطق فيه بـ « أو » أو بـ « الواو » . وكذلك وجه حذف « المثل » من قوله « أو كصيب » . لما كان قوله : « كمثل الذى استوقد ناراً » دالاً على أن معناه : كمثل صيب ، حذفَ « المثَل » ، واكتفى — بدلالة ما مضى من الكلام فى قوله :

---

(١) ديوانه : ٢٧٥ ، وسيأتى فى تفسيرة آية البقرة : ٧٤ (١ : ٢٨٧ بولاق) ، وآية طه : ٤٠ (١٦ : ١٢٨ بولاق) ، وأمالى الشجرى ١ : ٣١٧ ، يقولها فى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز . وروايته « إذ كانت » ، وفى المطبوعة : « جاء الخلافة » ، وهى رواية سقيمة .

(٢) البيتان لمتمم بن نويرة اليربوعى . اللسان (عفق) ، أمالى الشجرى ، ٢ : ٣١٨ ، أمالى المرتضى ٣ : ١٤٧ ، الأضداد لابن الأنبارى : ٢٤٣ . وفى المطبوعة والمخطوطة « على جبير » ، وهو خطأ محض ، وفى المطبوعة : « عناق » ، وهو خطأ أيضاً . وهذا الشعر يقوله متمم بن نويرة فى رثاء بجير بن عبد الله بن الحارث اليربوعى ، وهو بجير بن أبى مليل ، وأخوه عفاق بن أبى مليل . قتل أولهما يوم قشاوة ، قتله لقيط بن أوس (النقائض : ٢٠) ، وقتل عفاق يوم الغطالى ، قتله الدعاء ، وقيل قتله الفريس بن مسلمة (النقائض : ٥٨٣) .

(٣) يروى « بحزن واحتراق » و « بشجو واشتياق » . وقوله : «مضيا لشأنهما» أى ، هلكا ولقيا ما يلقى كل حى .

« كمثل الذى استوقد ناراً » على أن معناه : أو كمثل صيِّب — من إعادة ذكر المثل ، طلبَ الإيجاز والاختصار .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾

قال أبو جعفر : فأما الظلمات ، فجمعٌ ، واحدها ظُلمة .

أما الرَّعد ، فإنَّ أهل العلم اختلفوا فيه :

فقال بعضهم : هو مَلك يَزجُر السحابَ . ذكر من قال ذلك :

٤١٩ — حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شُعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، قال : الرعد ، مَلك يَزجُر السحاب بصوته .

٤٢٠ — حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا ابن أبي عَدىّ ، عن شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، مثله .

٤٢١ — حدثنى يحيى بن طلحة اليربوعى ، قال : حدثنا فُضَيْل بن عياض ، عن ليث ، عن مجاهد ، مثله[1] .

٤٢٢ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هُشيم ، قال : أنبأنا إسمعيل ابن سالم ، عن أبي صالح ، قال : الرَّعد ، مَلك من الملائكة يُسبِّح[2] .

---

(١) الإسناد ٤٢١ — يحيى بن طلحة اليربوعى : روى عنه الترمذى وغيره ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وضعفه النسائى ، فقال فى الضعفاء : ٣٢ : « ليس بشىء » .

(٢) الإسناد ٤٢٢ — إسمعيل بن سالم الأسدى : ثقة ، روى عنه الثورى وأبو عوانة ، قال ابن سعد ٧ / ٢ / ٦٧ : « كان ثقة ثبتاً » . وأبو صالح : هو السمان .

٤٢٣ — حدثني نَصر بن عبد الرحمن الأزدي، قال: حدثنا محمد بن يَعْلَى، عن أبي الخطاب البصري، عن شَهر بن حَوشب، قال: الرَّعد، مَلك موكَّل بالسحاب يَسوقه، كما يسوق الحادي الإبل، يُسبّح. كلما خالفتْ سحابةٌ سحابةً صاح بها، فإذا اشتد غضبه طارت النارُ من فيه، فهي الصواعقُ التي رأيتم[1].

٤٢٤ — حدثت عن المنجاب بن الحارث، قال: حدثنا بشر بن عُمارة، عن أبي رَوْق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: الرَّعد، مَلَك من الملائكة اسمه الرعد، وهو الذي تسمعون صوته.

٤٢٥ — حُدِّثنا أحمد بن إسحق الأهوازي، قال: حدثنا أبو أحمد، قال: حدثنا عبد الملك بن حسين، عن السُّدّيّ، عن أبي مالك، عن ابن عباس، قال: الرعد، مَلَكٌ يزجُر السحاب بالتسبيح والتكبير[2].

٤٢٦ — وحدثنا الحسن بن محمد، قال: حدثنا علي بن عاصم، عن ابن جُريج، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: الرعد اسم مَلك، وصوتهُ هذا تسبيحه، فإذا اشتد زَجْرُه السحابَ، اضطرب السحابُ واحتكَّ. فتخرج الصَّواعق من بينه.

١١٧/١

٤٢٧ — حدثنا الحسن، قال: حدثنا عفان، قال: حدثنا أبو عَوانة، عن

---

(١) الإسناد ٤٢٣ — نصر بن عبد الرحمن بن بكار الناجي، شيخ الطبري: ثقة، روى عنه الترمذي وابن ماجة وغيرهما، مترجم في التهذيب، وقال «ويقال: الأزدي»، فكذلك نسب هنا، وكذلك روى عنه الطبري في التاريخ ٢ : ١٢٨، ونسبه «الأزدي»، ووقع في المطبوعة «الأودي» بالواو بدل الزاي، وهو تصحيف. محمد بن يعلى: هو السلمي الكوفي، ولقبه «زنبور»، وهو ضعيف، وقال البخاري «يتكلمون فيه». أبو الخطاب البصري: لم أعرف من هو؟ ولكن ذكر الدولابي في الكنى ١ : ١٦٧ «أبو الخطاب عبدالله»، ثم قال: «وروى محمد بن عبد الله بن عمار عن المعافى بن عمران عن عبدالله أبي الخطاب عن شهر بن حوشب» فذكر حديثاً. ولم يبين أكثر من ذلك، ولم أجد ترجمته.

(٢) الإسناد ٤٢٥ — عبد الملك بن حسين: هو أبو مالك النخعي الواسطي، اشتهر بكنيته وبها ترجم في التهذيب ١٢ : ٢١٩، وترجمه ابن أبي حاتم باسمه ٢ / ٢ / ٣٤٧. وهو ضعيف ليس بشيء.

موسى البزار ، عن شهر بن حَوْشب ، عن ابن عباس ، قال : الرعدُ مَلَكٌ يسوق السحاب بالتسبيح ، كما يسوق الحادى الإبل بحُدَائه .

٤٢٨ — حدثنا الحسن بن محمد، قال: حدثنا يحيى بن عَبَّاد ، وشَبابة ، قالا : حدثنا شعبة ، عن الحكَم ،عن مجاهد ، قال : الرَّعد مَلكٌ يزجر السحاب.

٤٢٩ — حدثنا أحمد بن إسحق، قال: حدثنا أبو أحمد الزُّبيرى ، قال: حدثنا عتَّاب بن زياد ، عن عكرمة ، قال: الرعد مَلك فى السحاب ، يَجمع السحابَ كما يَجمع الراعى الإبل .

٤٣٠ — وحدثنا بشر ، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ، قال: الرعد خَلْقٌ من خَلق الله جل وعز ، سامعٌ مطيعٌ لله جل وعز.

٤٣١ — حدثنا القاسم بن الحسن، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جُريج ، عن عكرمة ، قال : إن الرعد مَلكٌ يُؤمر بإزجاء السحاب فيؤلِّف بينه ، فذلك الصوت تسبيحه .

٤٣٢ — وحدثنا القاسم، قال حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جُريج ،.عن مجاهد ، قال : الرعد مَلك .

٤٣٣ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا الحجاج بن المنهال ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن المغيرة بن سالم ، عن أبيه ، أو غيره ، أن على بن أبى طالب قال: الرعد مَلك .

٤٣٤ — حدثنا المثنى ، قال : حدثنا حجاج ، قال : حدثنا حماد ، قال: أخبرنا موسى بن سالم أبو جَهْضم ، مولى ابن عباس ، قال : كتب ابن عباس إلى أبى الجَلْد يَسألهُ عن الرعد ، فقال : الرعد مَلك[1] .

---

(١) الخبر ٤٣٤ — هذا إسناد منقطع : موسى بن سالم أبو جهضم : ثقة ، ولكن روايته عن ابن عباس مرسلة . « أبو الجلد » : بفتح الجيم وسكون اللام وآخره دال مهملة ، ووقع فى الأصول هنا ، وفى الروايات التالية « أبو الخلد » بالخاء بدل الجيم ، وهو تصحيف . وأبو الجلد : هو جيلان — بكسر الجيم — بن أبى فروة ، ويقال : ابن فروة الأسدى البصرى ، كما ذكر البخارى فى ترجمته فى الكبير ١ / ٢ / ٢٥٠ . وقال ابن أبى حاتم ١ / ١ / ٥٤٧ : « صاحب كتب التوراة ونحوها » . ثم روى عن أحمد بن حنبل أنه وثقه . وترجمه ابن سعد ٧ / ١ / ١٦١ ، وقال : « أبو الجلد الجونى ، حى من

٤٣٥ — حدثنا المثنى ، قال : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : حدثنا عمر بن الوليد الشَّنِّى ، عن عكرمة ، قال : الرعدُ ملكٌ يسوق السحاب كما يسوق الراعى الإبل[1] .

٤٣٦ — حدثنى سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، قال : حدثنا حفص بن عمر ، قال : حدثنا الحكَم بن أبان ، عن عكرمة ، قال : كان ابن عباس إذا سمع الرعد قال : سُبحان الذى سَبَّحتَ له . قال : وكان يقول : إن الرَّعد مَلكٌ يَنعَق بالغيث كما ينعَقُ الراعى بغنمه[2] .

وقال آخرون : إن الرعد ريح تختنق تحت السحاب فتصَّاعد ، فيكون منه ذلك الصوت .

ذكر من قال ذلك :

٤٣٧ — حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزُّبيرى ، قال : حدثنا بِشر بن إسمعيل ، عن أبى كثير ، قال : كنت عند أبى الجَلْد ، إذْ جاءه رسول ابن عباس بكتاب إليه ، فكتب إليه : « كتبتَ تسألنى عن الرَّعد ، فالرعد الريح[3] »

٤٣٨ — حدثنى إبراهيم بن عبد الله ، قال : حدثنا عِمْران بن مَيسرة ، قال : حدثنا ابن إدريس ، عن الحسن بن الفُرات ، عن أبيه[4] ، قال : كتب ابن عباس

الأزد ، واسمه : جيلان بن فروة ، وكان ثقة » . وذكره ابن حبان فى الثقات : ١٥٧ ، والدولابى فى الكنى ١ : ١٣٩ ، والزبيدى فى شرح القاموس (جلد) و (جيل) . وذكره الحافظ فى لسان الميزان فى الأسماء ٢ : ١٤٤ ، ووعد بترجمته فى الكنى « أبو الجلد » ، ثم لم يفعل ، وروى عنه الطبرى أثراً فى التاريخ ٢ : ٢٠٣ . وسيأتى فى الخبر : ٤٤٥ أنه « رجل من أهل هجر » .

(١) عمر بن الوليد الشنى أبو سلمة العبدى : ثقة ، وثقه أحمد وابن معين وغيرهما ، وقال أبو حاتم : « ما أرى بحديثه بأساً » . وهو مترجم فى التعجيل : ٣٠٤ ، وابن أبى حاتم ٣ / ١ / ١٣٩ . « الشنى » : بفتح الشين المعجمة ، كما فى المشتبه : ٢٧٩ . ووقع فى المطبوعة بالمهملة ، وهو تصحيف .

(٢) الإسناد ٤٣٦ — سعد بن عبد الله بن عبد الحكم : لم أجد له ترجمة إلا فى كتاب ابن أبى حاتم ٢ / ١ / ٩٢ ، وقال : « سمعت منه بمكة وبمصر ، وهو صدوق » .

(٣) الإسناد ٤٣٧ — هو إسناد مشكل . ما وجدت ترجمة « بشر بن إسمعيل » ، وما عرفت من هو . ثم لم أعرف من « أبو كثير » الراوى عن أبى الجلد . وسيأتى هذا الإسناد مرة أخرى : ٤٤٣ .

(٤) الإسناد ٤٣٨ — عمران بن ميسرة المنقرى : ثقة ، من شيوخ البخارى وأبى داود وأبى زرعة وأبى حاتم . ابن إدريس : هو عبد الله بن إدريس الأودى : ثقة مأمون حجة . الحسن بن الفرات : ثقة ، أخرج له مسلم فى صحيحه . أبوه : فرات بن أبى عبد الرحمن القزاز التميمى ، ثقة ، أخرج له أصحاب الكتب الستة ، ولكن روايته عن ابن عباس منقطعة ، إنما هو يروى عن التابعين .

إلى أبي الجَلْد يسأله عن الرعد ، فقال : الرعد ريح[1] .

قال أبو جعفر : فإن كان الرّعد ما ذكره ابن عباس ومجاهد ، فمعنى الآية : أو كصيِّبٍ من السماء فيه ظلمات وصَوتُ رَعد. لأن الرعد إن كان مَلَكاً يسوق السَّحاب ، فغير كائن في الصيِّب ، لأن الصيِّب إنما هو ما تحدَّر من صَوْب السحاب ، والرعد إنما هو في جو السماء يَسوق السحاب. على أنه لو كان فيه ثَمّ لم يكن له صوت مسموع ، لم يكن هنالك رُعب يُرْعَب به أحد[2] . لأنه قد قيل : إنّ مع كل قطرةٍ من قطر المطر مَلَكاً ، فلا يعدُو الملكُ الذى اسمه « الرعد » ، لوكان مع الصيِّب ، إذا لم يكن مسموعاً صوته ، أن يكون كبعض تلك الملائكة التى تنزل مع القطر إلى الأرض ، فى أن لا رُعب على أحد بكونه فيه . فقد عُلم — إذ كان الأمر على ما وصفنا من قول ابن عباس — أنّ معنى الآية : أو كمثَل غَيثٍ تحدَّر من السماء فيه ظلماتٌ وصوتُ رعدٍ ، إن كان الرعد هو ما قاله ابن عباس ، وأنه استغنى بدلالة ذكر الرعد باسمه على المراد فى الكلام مِنْ ذكر صوته . وإن كان الرعد ما قاله أبو الجَلْد، فلا شيء فى قوله « فيه ظلماتٌ ورَعدٌ » متروك . لأن معنى الكلام حينئذ : فيه ظلمات ورعدٌ الذى هو ما وصفنا صفته .

١/١١٨

وأما البَرْق ، فإن أهل العلم اختلفوا فيه : فقال بعضهم بما : —

٤٣٩ — حدثنا مَطرُ بن محمد الضَّبّى ، قال : حدثنا أبو عاصم، — ح — وحدثنى محمد بن بشار ، قال : حدثنى عبد الرحمن بن مهدى ، — ح — وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال: حدثنا أبو أحمد الزُّبيرى ، قالوا جميعاً : حدثنا سفيان الثورى ، عن سَلمة بن كُهيل ، عن سعيد بن أشْوَعَ ، عن ربيعة

(١) الأخبار ٤١٩ — ٤٣٨ جميعاً : لم يذكرها ابن كثير ولا السيوطى فى الدر المنثور ، وذكر البغوى فى تفسيره ١ : ٩٩ — ١٠٠ ، بعضها ، والقرطبى ١ : ١٨٧ وما بعدها .

(٢) فى المطبوعة : « على أنه لو كان فيه يمر ، لم يكن له صوت مسموع ، فلم يكن هناك رعب » وهو من تبديل النساخ .

ابن الأبيض ، عن على ، قال : البرق مخاريقُ الملائكة(١) .

٤٤٠ — حدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا عبد الملك بن الحسين ، عن أبى مالك ، عن السُّدّىّ ، عن ابن عباس : البرقُ مخاريقُ بأيدى الملائكة ، يزْجرون بها السحاب .

٤٤١ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا الحجاج ، قال : حدثنا حماد ، عن المغيرة بن سالم ، عن أبيه ، أو غيره ، أن على بن أبى طالب قال : الرّعد الملَك ، والبرق ضَرْبه السحابَ بمخراق من حديد .

وقال آخرون : هو سَوطٌ من نور يُزجى به الملكُ السحابَ .

ذكر من قال ذلك :

٤٤٢ — حدثت عن المنجاب بن الحارث ، قال : حدثنا بشر بن عُمارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، بذلك .

وقال آخرون : هو ماء .

ذكر من قال ذلك :

٤٤٣ — حُدِّثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا بِشر بن إسمعيل ، عن أبى كثِير ، قال : كنت عند أبى الجَلْد ، إذ جاء رسول ابن عباس بكتاب إليه ، فكتب إليه : « كتبت إلىّ تسألنى عن البرق ، فالبرق الماء » .

٤٤٤ — حدثنا إبراهيم بن عبد الله ، قال : حدثنا عمران بن مَيسرة ، قال : حدثنا ابن إدريس ، عن الحسن بن الفرات ، عن أبيه ، قال : كتب ابن عباس إلى أبى الجَلد يسأله عن البرق ، فقال : البرق ماء .

---

(١) الإسناد ٤٣٩ — سلمة بن كهيل الحضرمى : ثقة معروف ، سعيد بن أشوع : هو سعيد ابن عمرو بن أشوع الكوفى القاضى ، نسب إلى جده . وهو ثقة ، أخرج له الشيخان فى الصحيحين ، ربيعة بن الأبيض — الذى روى عن على — لم أجد له ترجمة إلا فى كتاب الثقات لابن حبان : ١٨٤ . قال : « ربيعة بن الأبيض ، يروى عن على بن أبى طالب ، روى عنه ابن أشوع » .

المخاريق جمع مخراق : وهو منديل أو نحوه يلوى فيضرب به ، ويلف فيفزع به ، وهو من لعب الصبيان ، ومنه سمى السيف مخراقاً .

٤٤٥ — حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن رجل ، من أهل البصرة من قُرّائهم ، قال : كتب ابن عباس إلى أبي الجلد — رجل من أهل هَجَر — يسأله عن البرق ، فكتب إليه : «كتبت إليّ تسألني عن البرق، وإنه من الماء».

وقال آخرون : هو مَصْع مَلَك[1] .

٤٤٦ — حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، قال : حدثنا سفيان ، عن عثمان بن الأسود ، عن مجاهد ، قال : البرق ، مَصْع مَلَك[2] .

٤٤٧ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق، قال : حدثنا هشام ، عن محمد ابن مُسلم الطائفي ، قال : بلغني أن البرق مَلَكٌ له أربعة أوجه ، وجهُ إنسان ، ووجه ثور ، ووجه نَسر ، ووجه أسد ، فإذا مَصَع بأجنحته فذلك البرق[3] .

٤٤٨ — حدثنا القاسم ، قال: حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جُريج ، عن وهب بن سليمان ، عن شُعيب الجَبَّائي قال : في كتاب الله : الملائكة حَمَلة العرش ، لكل مَلَك منهم وَجه إنسان وثور وأسد ، فإذا حركوا أجنحتهم فهو البرق[4] .

---

(١) المصع : الضرب بالسيف أو السوط أو غيرها . والمصاع : المجالدة بالسيف . يعني أن الملك يضرب السحاب بمخراقه .

(٢) الإسناد ٤٤٦ — عثمان بن الأسود بن موسى المكي : ثقة ثبت كثير الحديث ، يروي عن مجاهد ، ويروي عنه سفيان الثوري .

(٣) الإسناد ٤٤٧ — محمد بن مسلم بن سوسن الطائفي : وثقه ابن معين ، وقال ابن مهدي : « كتبه صحاح » ، وضعفه أحمد بن حنبل ، وأخرج له مسلم في صحيحه حديثاً واحداً متابعة .

(٤) الأثر ٤٤٨ — وهب بن سليمان الجندي — بفتح الجيم والنون — اليماني ، قال البخاري في الكبير ٤ / ٢ / ١٦٩ — ١٧٠ : « عن شعيب الجبائي ، قوله ، روى عنه ابن جريج » . ولم أجد له ترجمة عند غيره . شعيب الجبائي : بفتح الجيم والباء الموحدة مخففة ، نسبة إلى « جبأ » ، بوزن « جبل » ، وهو جبل في اليمن قرب الجند ، كما قال ياقوت وغيره . وشعيب هذا ترجمه البخاري في الكبير ٢/٢/٢١٩ . وترجمه ابن أبي حاتم ٢ / ١ / ٣٥٢ ، قال : « شعيب الجبائي : يماني ، يروي عن الكتب [يريد الكتب المنسوبة لأهل الكتاب من الأساطير] ، روى عنه سلمة بن وهرام » ، ثم جزم ابن أبي حاتم بأنه

وقال أمية بن أبي الصلت :

رَجُلٌ وثورٌ تحتَ رِجْلِ يَمِينِه والنَّسرُ للأخرى ، ولَيْثٌ مُرْصِدُ [١]

٤٤٩ — حدثنا الحسين بن محمد ، قال: حدثنا على بن عاصم ، عن ابن جُريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : البرق ملك .

٤٥٠ — وقد حدثنا القاسم ،قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جُريج ،قال: الصواعق ملَك يضربُ السحابَ بالمخاريق ، يُصيب منه من يشاء[٢] .

قال أبو جعفر : وقد يحتمل أن يكون ما قاله على بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد بمعنى واحد . وذلك أن تكون المخاريقُ التى ذكر علىٌّ رضى الله عنه أنها هى البرق ، هى السياط التى هى من نور ، التى يُزجى بها الملك السحاب ، كما قال ابن عباس . ويكون إزجاء الملك بها السحاب ، مَصْعَه إياه[٣] . وذلك أن المِصَاعَ عند العرب ، أصله : المجالَدَةُ بالسيوف ، ثم تستعمله فى كل شىء جُولد به فى حرب وغير حرب ، كما قال أعشى بنى ثعلبة ، وهو يصف جوارىَ يلعبن بِحَلْيهنّ ويُجالدْن به[٤] :

١١٩/١

« شعيب بن الأسود » ، ثم روى بإسناده عن زمعة ، عن شعيب بن الأسود ، قال : أجد فى كتاب الله » . وله ترجمة فى لسان الميزان ٣ : ١٥٠ وقال : « أخبارى متروك » . ثم ذكر شيئاً مما لا يقبله العقل من كلامه ، وقال : « ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان قد قرأ الكتب » .

(١) ديوانه : ٢٥ ، وسيأتى فى تفسير آية الرعد : ٣٥ (١٣ : ١٠٩ بولاق) . ورواية ديوانه : « تحت يمنى رجله، والنسر لليسرى » . قال الطبرى فى الموضع الآخر : «كأنه قال : تحت رجله ، أو تحت رجله اليمنى » . والتفسير فى قوله : « رجله » ، يعنى به إسرافيل ، وذكره فى شعره قبل . وفى ديوانه ، وفى الموضع الآخر من الطبرى : « زحل » ، كأنه يعنى البروج ، ولكن استدلال الطبرى هنا واضح ، دال على أن روايته « رجل » .

(٢) الأخبار ٤٣٩ — ٤٥٠ : لم تذكر فى ابن كثير ، ولا فى الدر المنثور . وانظر البغوى ١ : ٩٩ — ١٠٠ ، والقرطبى ١ : ١٨٨ .

(٣) فى المطبوعة : « إزجاء الملك السحاب ، مصعه إياه بها » .

(٤) المجالدة : المضاربة بالسيوف وغيرها فى المصارعة والقتال ، من الجلد .

إِذَا هُنَّ نَازَلْنَ أَقْرَانَهُنَّ وَكَانَ المِصَاعُ بِمَا فِي الجُوَنْ[(١)]

يقال منه: ماصَعه مِصاعاً. وكأن مجاهداً إنما قال: «مَصْعُ ملك»، إذْ كان السحاب لا يماصع الملك، وإنما الرعد هو المماصع له، فجعله مصدراً من مَصَعه يَمصَعه مَصْعاً.

وقد ذكرنا ما في معنى «الصاعقة» — ما قال شَهر بن حَوشب فيما مضى.

وأما تأويل الآية، فإن أهل التأويل مُختلفون فيه:

فرُوي عن ابن عباس في ذلك أقوال: أحدها: ما —

٤٥١ — حدثنا به محمد بن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد ابن إسحق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس: «أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورَعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت»: أي هم من ظُلمات ما هم فيه من الكفر والحذَر من القتل — على الذي هم عليه من الخلاف والتخوف منكم — على مِثل ما وصف، من الذي هو في ظلمة الصيب، فجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حَذَرَ الموت، يكاد البرق يخطفُ أبصارهم — أي لشدة ضوء الحق — كلما أضاءَ لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين[(٢)].

والآخر: ما —

(١) ديوانه: ١٥، وزعم الطبري كما ترى أنه أراد جواري يلعبن بحليهن ويجالدن بها. وقد أخطأ المعنى. وإنما أراد الأعشى ما هو أبلغ. وذلك أن الأقران جمع قرن: وهو الذي يقارنك في القوة والشجاعة، وأراد به الرجال، ويناز لن: أراد ما يكون بينهن من المداعبة والممارسة إرادة الغلبة على عقول الرجال وعزائمهم. والجون، جمع جونة: وهي سلة صغيرة مستديرة مغشاة بالأدم يكون فيها الطيب. ويقال أيضاً: «جؤنة وجؤن» بالهمز. وذكر الأعشى المعركة القديمة الدائرة بين الرجال والنساء، يتخذن الزينة والطيب سلاحاً، فيتصدين الرجال ابتغاء الظفر والغلبة، والفتنة التي تصرع الألباب والعزائم، فيقع الرجال أسرى في أيديهن.

(٢) الخبر ٤٥١ — ذكره السيوطي في الدر المنثور بتمامه ١: ٣٢ — ٣٣، ونسبه أيضاً لابن إسحق، وابن أبي حاتم. وفيه وفي المخطوطة «من الخلاف والتخويف منكم» ونقل ابن كثير بعضه ١: ١٠٠.

٤٥٢ — حدثني به موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو، قال: حدثنا أسباط، عن السُّدِّيّ في خبر ذكره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس — وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، «أو كصيِّب من السماء فيه ظُلماتٌ ورَعدٌ وبرق» إلى «إنّ الله عَلى كل شيء قدير»، أما الصيب فالمطر[1]. كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هَرَبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله، فيه رعدٌ شديد وصواعقُ وبرقٌ، فجعلا كلّما أضاء لهما الصواعقُ جعلا أصابعَهما في آذانهما، من الفَرَق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما. وإذا لمع البرق مَشيا في ضوئه[2]، وإذا لم يلمع لم يبصرا وقاما مكانهما لا يمشيان[3]، فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتيَ محمداً فنضعَ أيدينا في يده. فأصبحا، فأتياه فأسلما، ووضعا أيديهما في يده، وحَسُن إسلامهما. فضرب الله شأن هذين المنافقيْن الخارجيْن مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة. وكان المنافقون إذا حضروا مجلسَ النبي صلى الله عليه وسلم جعلوا أصابعهم في آذانهم، فَرَقاً من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، أن ينزل فيهم شيء أو يُذكَروا بشيء فيقتَلوا، كما كان ذانك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما، وإذا أضاء لهم مشوا فيه. فإذا كثُرت أموالهم، ووُلد لهم الغلمان[4]، وأصابوا غنيمةً أو فتحاً، مشوْا فيه، وقالوا: إن دين محمد صلى الله عليه وسلم دينُ صدق. فاستقاموا عليه، كما كان ذانك المنافقان يمشيان، إذا أضاء لهم البرق مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا[5]. فكانوا

(١) في المطبوعة: «وأما الصيب والمطر»، وهو خطأ.

(٢) في الأصول: «مشوا»، وصححناه من الدر المنثور والشوكاني.

(٣) في الأصول: «قاما مكانهما» بغير واو، وفي إحدى النسخ المخطوطة: «فقاما مكانهما»، واتفقت سائر الأصول وما نقل في الدر المنثور والشوكاني على حذف الفاء، والجملة لا تستقيم، فجعلناها «وقاما»، وهو صواب العبارة.

(٤) في الدر المنثور: «وولدهم، وأصابوا ...»، وفي الشوكاني: «وأولادهم وأصابوا ...»

(٥) في المخطوطة: «إذا أضاء لهما مشيا، وإذا أظلم عليهما قاما». وفي الدر المنثور: «يمشيان

إذا هلكت أموالهم ، ووُلد لهم الجوارى ، وأصابهم البلاء[١] ، قالوا : هذا من أجل دين محمد . فارتدوا كفاراً ، كما قام ذانك المنافقان حين أظلم البرق عليهما[٢].

موالثالث : ما —

٤٥٣ — حدثنى به محمد بن سعد، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنى عمى ،عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس : « أو كصيِّب من السماء »، كمطر ، « فيه ظلمات ورعدٌ وبرقٌ » إلى آخر الآية ، هو مَثل المنافق فى ضوء ما تكلّم بما معه من كتاب الله وعمل ، مُراءَاةً للناس ، فإذا خلا وحده عَمِل بغيره . فهو فى ظلمة ما أقام على ذلك . وأما الظلماتُ فالضلالةُ ، وأما البرقُ فالإيمان، وهم أهل الكتاب.

إذا أضاء بهما البرق ، وإذا أظلم عليهم قاموا » ، وفى الشوكانى : « يمشيان إذا أضاء لهم البرق ، وإذا أظلم عليهم قاموا » ، وأجودهن ما فى المخطوطة ، وما فى المطبوعة .

(١) فى الدر المنثور والشوكانى : « إذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء » .

(٢) الحديث ٤٥٢ — نقل فى الدر المنثور ١ : ٣٢ ، والشوكانى ١ : ٣٦ — ٣٧ ، وسيأتى فى ص ٣٥٤ قول الطبرى عن هذا الحديث وعن إسناده : « ولست أعلمه صحيحاً ، إذ كنت بإسناده مرتاباً . » وانظر ما كتبه أخى السيد أحمد محمد شاكر فى هذا الإسناد فيما مضى فى الخبر رقم : ١٦٨.

ويقول أحمد محمد شاكر عفا الله عنه : وحق لأبى جعفر رحمه الله أن يرتاب فى إسناده . فإن هذا الإسناد فيه تساهل كثير ، من جهة جمع مفرق التفاسير عن الصحابة فى سياق واحد ، تجمعه هذه الأسانيد، كما بينا آنفاً . فإذا كان الأمر فى تفسير معنى آية ، كان سهلا ميسوراً قبوله ، إذ يكون رأياً أو آراء لبعض الصحابة فى معنى الآية ، وما فى ذلك بأس . أما إذا ارتفع الخبر إلى درجة الحديث ، بالإخبار عن واقعة معينة أو وقائع ، كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أسباب لنزول بعض الآيات، أو نحو ذلك ، مما يلحق بالحديث المرفوع لفظاً أو حكماً — كان قبول هذا الإسناد — إسناد تفسير السدى — محل نظر وارتياب . إذ هى رواية غير معروف مصدرها معرفة محددة : أىّ هؤلاء الذى قال هذا ؟ وأيهم الذى عبر عنه باللفظ الذى جاء به ؟ نعم ، إن ظاهره أنه عن الصحابة : إما ابن عباس ، وإما ابن مسعود ، وإما «ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » — فقد يقول قائل : إن مرجع الرواية فيه إلى الصحابة ، وسواء أعرف الصحابى الراوى أم أبهم اسمه ، فإن ذلك لا يخرجه عن رواية الصحابة ، وجهالة الصحابى لا تضر ؟ ولكن سياق هذه الروايات المطولة المفصلة ، فى التفسير وفى الحوادث المتعلقة بأسباب النزول ، مثل الرواية التى هنا فى هذا الموضع ، مع إعراض أئمة الحديث ، الذين خرجوا الروايات الصحيحة ، والروايات المقبولة مما هو دون الصحيح — عن إخراج هذه الرواية ونحوها ، وإعراض مؤرخى السيرة عن روايتها أيضاً ، كل أولئك يوجب الريبة فى اتصال مثل هذه الرواية ، وفى الجزم بنسبتها إلى الصحابة . إذ لعلها مما أدرج فى الرواية أثناء الحديث بها . والاحتياط فى نسبة الحديث المرفوع وما فى حكمه واجب .

وإذا أظلم عليهم ، فهو رجلٌ يأخذ بطرف الحق لا يستطيع أن يُجاوزه[١] . ١٢٠/١

والرابع : ما —

٤٥٤ — حدثني به المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : « أو كصيِّب من السماء » ، وهو المطر ، ضرب مَثله في القرآن يقول : « فيه ظلمات » ، يقول : ابتلاء ، «ورعد» يقول : فيه تخويف ، « وبرق» ، « يكاد البرق يخطف أبصارهم »[٢] ، يقول : يكاد محكم القرآن يَدُلُّ على عورات المنافقين ، «كلما أضاء لهم مَشوا فيه » . يقول : كلما أصابَ المنافقون من الإسلام عِزًّا اطمأنوا ، وإن أصابَ الإسلام نكبةٌ قاموا ليرجعوا إلى الكفر[٣] ، يقول : « وإذا أظلم عَليهم قاموا » ، كقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنيَا وَالآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [سورة الحج : ١١][٤] .

ثم اختلف سائر أهل التأويل بعدُ في ذلك ، نظيرَ ما روى عن ابن عباس من الاختلاف :

٤٥٥ — فحدثني محمد بن عمرو الباهلي ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ابن مَيمون ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، قال : إضاءة البرق وإظلامُه ، على نحو ذلك المثَل .

٤٥٦ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو حُذيفة ، قال : حدثنا شِبْل ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، مثلَه .

---

(١) الخبر ٤٥٣ — في الدر المنثور ١ : ٣٢ ، والشوكاني ١ : ٣٧ ، مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٢) في الدر المنثور والشوكاني : « رعد وبرق — تخويف » .

(٣) في المطبوعة : « قالوا رجعوا إلى الكفر » ، وهو خطأ محض .

(٤) الخبر ٤٥٤ — في الدر المنثور ١ : ٣٢ ، والشوكاني ١ : ٣٦ ، وبعضه في تفسير ابن كثير ١ : ١٠٠ .

٤٥٧ — حدثنا عمرو بن على ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد . مثله .

٤٥٨ — وحدثنا بشر بن معاذ ، قال حدثنا يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد ، عن قتادة ، في قول الله : «فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ» إلى قوله «وإذا أظلم عليهم قاموا» ، فالمنافق إذا رأى في الإسلام رخاءً أو طمأنينة أو سَلوة من عَيش قال : أنا معكم وأنا منكم ، وإذا أصابته شَديدةٌ حَقحقَ والله عندها ، فانقُطِعَ به ، فلم يصبر على بلائها ، ولم يَحتسب أجرَها ، ولم يَرْجُ عاقبتها[1] .

٤٥٩ — وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا مَعمر ، عن قتادة : « فيه ظلمات ورعد وبرق » ، يقول : أجبنُ قوم[2] ، لا يسمعون شيئاً إلا إذا ظنوا أنهم هالكون فيه حَذراً من الموت ، والله مُحيطٌ بالكافرين . ثم ضرب لهم مَثلا آخر فقال : « يكادُ البرقُ يخطف أبصارَهم كلما أضاء لهم مشوا فيه » ، يقول : هذا المنافق ، إذا كثر ماله ، وكثرت ماشيته ، وأصابته عافية قال : لم يُصبني منذُ دخلت في ديني هذا إلاّ خيرٌ . « وإذا أظلم عليهم قاموا » يقول : إذا ذهبت أموالهم ، وهلكت مواشيهم ، وأصابهم البلاءُ ، قاموا متحيرين[3] .

٤٦٠ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، عن عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « فيه ظلمات ورعد وبرق » ، قال : مَثَلُهم

---

(١) الأثر ٤٥٨ — في الدر المنثور ١ : ٣٣ ، وهو جزء من أثر قتادة بتمامه ، ونصه هناك : « فإذا رأى المنافق من الإسلام طمأنينة وعافية ورخاء وسلوة عيش ، قالوا : إنا معكم ومنكم . وإذا رأى من الإسلام شدة وبلاء ، فقحقح عند الشدة ، فلا يصبر لبلائها ، ولم يحتسب أجرها ، ولم يرج عاقبتها » . وقوله في الدر المنثور « فقحقح » ، أظنه خطأ ، وإنما هو حقحق كما في أصول الطبري . والحقحقة : أرفع السير وأتعبه للظهر . يريد أنه يسرع إسراعاً في حيرته حتى يهلكه التعب ، وذلك أن المنافق لا يصبر على البلوى صبر المؤمن الراضي بما شاء الله وقدر . وقوله « فانقطع به » بالبناء للمجهول يقال للدابة وللرجل « قطع به وانقطع به » بالبناء للمجهول ، إذا عجز فلم ينهض ، وأتاه أمر لا يقدر على أن يتحرك معه ، وانقطع رجاؤه . وفي المخطوطة « فتقطع به » وليست بشيء . وفي المطبوعة : « وإذا أصابته شدة » .

(٢) في المطبوعة : « أخبر عن قوم » ، وهو كلام بلا معنى .

(٣) الأثر ٤٥٩ — لم أجده بلفظه ، وأثر قتادة في الدر المنثور ١ : ٣٣ شبيه به في المعنى دون اللفظ .

كمثل قوم ساروا فى ليلة مظلمة، ولها مطر ورَعد وبرق على جادّة ، فلما أبرقت أبصرُوا الجادّة فمضوا فيها ، وإذا ذهب البرق تحيّروا . وكذلك المنافق ، كلما تكلم بكلمة الإخلاص أضاء له،فإذا شك تحيّر ووقع فى الظلمة ، فكذلك قوله: « كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » ، ثم قال : فى أسماعهم وأبصارهم التى عاشوا بها فى الناس ، « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » .

قال أبو جعفر :

٤٦١ — حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين ، قال : حدثنا أبو تميلة، عن عُبيد بن سليمان الباهلى ، عن الضحاك بن مُزَاحم ،« فيه ظلمات »،قال : أما الظلمات فالضلالة ، والبرق الإيمان[1] .

٤٦٢ — حدثنى يونس، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال حدثنى عبد الرحمن ابن زيد ، فى قوله: « فيه ظلمات ورَعد وبرق »،فقرأ حتى بلغ : « إنّ الله على كل شىء قدير » ،قال: هذا أيضاً مَثلٌ ضربه الله للمنافقين ، كانوا قد استناروا بالإسلام، كما استنارَ هذا بنور هذا البرق .

٤٦٣ — حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال : قال ابن جُريج : ليس فى الأرض شىء سمعه المنافق إلا ظنّ أنه يُراد به ، وأنه الموتُ ، كراهيةً له — والمنافق أكرهُ خلق الله للموت — كما إذا كانوا بالبَراز فى المطر ، فرُّوا من الصواعق[2] .

٤٦٤ — حدثنا عمرو بن على، قال: حدثنا أبو معاوية ،قال : حدثنا ابن جُريج، عن عطاء، فى قوله : « أو كصَيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » ، قال : مثَل ضُربَ للكافر[3] . ١٢١/١

---

(١) الأثر ٤٦١ — فى الأصول « أبو نميلة » بالنون ، وهو خطأ ، والصواب « أبو تميلة » بالتاء مصغراً ، وهو يحيى بن واضح ، كما مضى فى : ٣٩٢ .

(٢) فى المخطوطة: « كما إذ كانوا بالبر فى المطر . . . » ، وهو شبيه بالصواب . والبراز : الفضاء من الأرض البعيد الواسع ، ليس به شجر ولا غيره مما يستَتر به .

(٣) الآثار ٤٦٠ — ٤٦٤ : لم أجدها فى مكان

وهذه الأقوال التي ذكرنا عمن رويناها عنه ، فإنها — وإن اختلفت فيها ألفاظ قائليها — متقاربات المعاني ، لأنها جميعاً تنبئ عن أن الله ضرب الصيب لظاهر إيمان المنافق مثلا ، ومثل ما فيه من ظلمات لضلالته ، وما فيه من ضياء برق لنور إيمانه[1] ؛ واتقاءه من الصواعق بتصيير أصابعه في أذنيه ، لضعف جنانه ونخب فؤاده من حلول عقوبة الله بساحته[2] ؛ ومشيه في ضوء البرق لاستقامته على نور إيمانه ؛ وقيامه في الظلام ، لحيرته في ضلالته وارتكاسه في عمهه[3] .

فتأويل الآية إذاً — إذ كان الأمر على ما وصفنا — : أو مثل ما استضاء به المنافقون — من قيلهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بألسنتهم : آمنا بالله وباليوم الآخر وبمحمد وما جاء به ، حتى صار لهم بذلك في الدنيا أحكام المؤمنين ، وهم — مع إظهارهم بألسنتهم ما يظهرون — بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر ، مكذبون ، ولخلاف ما يظهرون بالألسن في قلوبهم معتقدون ، على عمى منهم ، وجهالة بما هم عليه من الضلال ، لا يدرون أي الأمرين اللذين قد شرعا لهم [فيه] الهداية[4] : أفي الكفر الذي كانوا عليه قبل إرسال الله محمداً صلى الله عليه وسلم بما أرسله به إليهم ، أم في الذي أتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربهم ؟ فهم من وعيد الله إياهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وجلون ، وهم مع وجلهم من ذلك في حقيقته شاكون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً . كمثل غيث سرى ليلاً في مزنة ظلماء

---

(١) في المخطوطة : « بضلالته . . . بنور إيمانه » .

(٢) في المطبوعة : « وتحير فؤاده » . والنخب : الجبن وضعف القلب . ورجل نخب ونخيب ومنخوب الفؤاد : جبان لا خير فيه ، كأنه منتزع الفؤاد ، فلا فؤاد له .

(٣) في المطبوعة : « باستقامته . . . بحيرته في ضلالته . . . . » .

(٤) في المخطوطة : « سرعا » غير واضحة ولا منقوطة . ولعل الصواب « شرعا » من قولهم شرعت الإبل الماء : أي دخلته وخاضت فيه لتشرب منه . والمنافق يخوض في الإيمان بلسانه وفي الكفر بقلبه . وزدت ما بين القوسين ليستقيم المعنى . وفي المطبوعة بعد : « الهداية في الكفر الذي كانوا عليه » ، بغير ألف الاستفهام ، وهو خطأ لا يستقيم .

بليلة مظلمة[1] ، يحدوها رعدٌ ، ويستطير فى حافاتها برقٌ شديد لمعانه[2] ، كثير خَطرانه[3] ، يكاد سنا برقه يَذهب بالأبصار ويختطفها من شدة ضيائه ونور شعاعه ، وينهبط منها تارات صواعقُ ، تكاد تَدَع النفوس من شدة أهوالها زَواهق .

فالصيِّب مَثلٌ لظاهر ما أظهر المنافقون بألسنتهم من الإقرار والتصديق ، والظلمات التى هى فيه لظُلمات ما هم مستبطنون من الشك والتكذيب ومرض القلوب . وأما الرعدُ والصواعق ، فلِما هم عليه من الوَجَل من وعيد الله إياهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فى آى كتابه ، إما فى العاجل وإما فى الآجل ، أنْ يحلّ بهم ، مع شكهم فى ذلك : هل هو كائن أم غير كائن ؟ وهل له حقيقة أم ذلك كذبٌ وباطلٌ ؟ — مَثلٌ[4] . فهم من وَجلهم ، أن يَكون ذلك حَقًّا ، يتقونه بالإقرار بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بألسنتهم ، مخافةً على أنفسهم من الهلاك ونزول النَّقِمات[5] . وذلك تأويل قوله جل ثناؤه « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت » ، يعنى بذلك : يتقون وَعيدَ الله الذى أنزله فى كتابه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، بما يبدونه بألسنتهم من ظاهر الإقرار ، كما يتَّقى الخائف أصواتَ الصواعق بتغطية أذنيه وتصيير أصابعه فيها ، حَذَراً على نفسه منها .

وقد ذكرنا الخبرَ الذى رُوِى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما كانا يقولان : إن المنافقين كانوا إذا حضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخلوا أصابعهم

---

(١) فى المطبوعة : « وليل مظلمة » ، وهو خطأ بين .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « يجلوها » بالذال المعجمة ، وهو خطأ . وإنما هو من حداء السائق بإبله : وهو غناؤه لها وزجره إياها ، وهو يسوقها . جعل صوت الرعد حداء للسحاب . واستطار البرق : سطع وشق السحاب وانتشر فى جوانب الغمام .

(٣) فى المخطوطة : « خطوانه » غير منقوطة ، وهو تحريف . من قولهم خطر بسيفه أو سوطه يخطر خطراناً : إذا رفعه مرة ووضعه أخرى ، شبه شقائق البرق بالسوط يلمع مرة ويخفى أخرى .

(٤) قوله « مثل » خبر مبتدأ محذوف ، فسياق الجملة كما ترى : أما الرعد والصواعق ، فمثل لما هم عليه من الوجل . . .

(٥) النقمات : جمع نقمة مثل كلمات وكلمة ، وهى العقوبات .

فى آذانهم فَرَقاً من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل فيهم شىء ، أوْ يذكروا بشىء فيقتلوا . فإنْ كان ذلك صحيحاً — ولست أعلمه صحيحاً ، إذ كنت بإسناده مُرتاباً — فإنّ القولَ الذى رُوِى عنهما هو القول[1] . وإن يكن غيرَ صحيح ، فأولى بتأويل الآية ما قلنا ، لأن الله إنما قصَّ علينا من خبَرهم فى أول مُبتدأ قصتهم[2] : أنهم يُخادعون الله ورسوله والمؤمنين بقولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر ، مع شكِّ قلوبهم ومَرَض أفئدتهم فى حقيقة ما زَعموا أنهم به مؤمنون ، مما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند ربهم . وبذلك وَصَفهم فى جميع آى القرآن التى ذُكِرَ فيها صفتهم . فكذلك ذلك فى هذه الآية .

١٢٢/١

وإنما جَعل اللهُ إدخالَهم أصابعهم فى آذانهم مثلاً لاتِّقائهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما ذكرنا أنهم يَتَّقونهم به ، كما يتَّقى سامعُ صوتِ الصاعقة بإدخال أصابعه فى أذنيه . وذلك من المثَل نظيرُ تمثيل الله جل ثناؤه ما أنزل فيهم من الوعيد فى آى كتابه بأصوات الصواعق. وكذلك قوله «حَذَرَ الموت» ، جعله جلَّ ثناؤه مثلا لخوفهم وإشفاقهم من حلول عاجل العقاب المهلِكهم الذى تُوُعِّدوه بساحتهم[3] ، كما يجعل سامعُ أصوات الصواعق أصابعه فى أذنيه ، حَذَرَ العطب والموت على نفسه ، أنْ تزهق من شدتها .

وإنما نصَب قوله «حَذَرَ الموت» على نحو ما تنصب به التكرمة فى قولك: «زُرْتك تكرمةً لك» ، تريد بذلك: من أجل تكرمتك ، وكما قال جلَّ ثناؤه، ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [سورة الأنبياء : ٩٠] على التفسير للفعل[4] .

وقد رُوِى عن قتادة أنه كان يتأول قوله: «حَذَرَ الموت» ، حذراً من الموت .

---

(١) انظر الحديث رقم : ٤٥٢ والتعليق عليه .

(٢) فى المطبوعة : «قصصهم» ، ولا بأس بها . وبعد ذلك فى المخطوطة : «أنهم عارفون يخادعون الله . . .» ، ولا معنى لإقحام قوله : «عارفون» .

(٣) فى المطبوعة : «العقاب المهلك . . .» بدلوا لفظ الطبرى ، ليوافق ما اعتادوه من الكلام .

(٤) قوله «على التفسير للفعل» ، أى أنه مفعول لأجله .

٤٦٥ — حدثنا بذلك الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا مَعْمَر ، عنه .

وذلك مذهب من التأويل ضعيف ، لأن القوم لم يجعلوا أصابعهم فى آذانهم حَذَرًا من الموت ، فيكون معناه ما قال إنه يراد به[1] : حَذَرًا من الموت ، وإنما جعلوها من حِذَار الموت فى آذانهم .

وكان قتادةُ وابنُ جُريج يتأوّلان قوله : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حَذَر الموت » ، أن ذلك من الله جلّ ثناؤه صفةٌ للمنافقين بالهلع وضعف القلوب وكراهة الموت ، ويتأولان فى ذلك قوله : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة المنافقون : ٤] .

وليس الأمر فى ذلك عندى كالذى قالا . وذلك أنه قد كان فيهم من لا تُنكر شجاعته ولا تُدفع بسالته ، كقُزْمان ، الذى لم يَقم مقامه أحدٌ من المؤمنين بأحُد ، أو دونه[2] . وإنما كانت كراهتُهم شُهود المشاهدِ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتركُهم مُعاونته على أعدائه ، لأنهم لم يكونوا فى أديانهم مُستبصرين ، ولا برسول الله صلى الله عليه وسلم مصدِّقين ، فكانوا للحضور معه مَشاهدَه كارهين ، إلا بالتخذيل عنه[3] . ولكن ذلك وَصفٌ من الله جل ثناؤه لهم بالإشفاق من حُلول عقوبة الله بهم على نفاقهم ، إما عاجلا وإما آجلاً . ثم أخبر جل ثناؤه أنّ

---

(١) فى المطبوعة « مراد به » ، وهما سواء .

(٢) هذه الجملة فى المخطوطة هكذا : « كقزمان الذى لم يقم مقامه من المؤمنين كثير أحد ودونه » . وهى عبارة مبهمة . وقد أثبت ما فى المطبوعة ، وجعلت « ودونه » ، « أو دونه » ليستقيم المعنى . ويدل على ذلك أن عدة الذين قتلوا يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلا ، قتل قزمان وحده منهم عشرة ، وقتل على بن أبى طالب أربعة ، وقتل حمزة بن عبد المطلب ثلاثة ، وقتل عاصم ابن ثابت بن الأقلح رجلين ، وقتل سعد بن أبى وقاص رجلا واحداً . وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل رجلا صبراً ، وقتل آخر بيده صلى الله عليه وسلم . وقزمان حليف بنى ظفر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه لمن أهل النار . فلما أبلى يوم أحد ، قيل له : أبشر ! قال : بماذا أبشر ؟ فوالله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى ! ولولا ذلك ما قاتلت . ولما اشتدت به جراحته وآذته ، أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه .

(٣) التخذيل : حمل الرجل على خذلان صاحبه ، وتثبيطه عن نصرته .

المنافقين — الذين نعتهم الله النعتَ الذى ذكر ، وضرب لهم الأمثال التى وَصَف ، وإن اتقوْا عقابه ، وأشفقوا عذابه إشفاق الجاعل فى أذنيه أصابعه حِذَارَ حلول الوعيد الذى توعدهم به فى آى كتابه — غيرُ مُنْجيهم ذلك من نزوله بعَقْوَتهم[1] ، وحُلوله بساحتهم ، إما عاجلاً فى الدنيا ، وإما آجلاً فى الآخرة ، للذى فى قلوبهم من مَرَضها ، والشكِّ فى اعتقادها ، فقال : « والله مُحيطٌ بالكافرين » ، بمعنى جامِعُهم ، فمُحِلٌّ بهم عُقوبته .

وكان مجاهدٌ يتأول ذلك كما : —

٤٦٦ — حدثنى محمد بن عمرو الباهلى ، قال : حدثنا أبو عاصم . عن عيسى ابن ميمون ، عن عبد الله بن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله : « والله محيط بالكافرين » ، قال : جامعهم فى جهنم[2] .

وأما ابن عباس فروى عنه فى ذلك ما : —

٤٦٧ — حدثنى به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد ابن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « والله مُحيط بالكافرين » ، يقول : الله منزلٌ ذلك بهم من النِّقمة[3] .

٤٦٨ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، فى قوله : « والله محيط بالكافرين » ، قال : جامِعُهم .

١٢٣/١ ثم عاد جل ذكره إلى نعت إقرار المنافقين بألسنتهم ، والخبر عنه وعنهم وعن نفاقهم ، وإتمام المثل الذى ابتدأ ضربَه لهم ولشكِّهم ومَرَض قلوبهم ، فقال : « يكاد البرق » ، يعنى بالبرق ، الإقرارَ الذى أظهروه بألسنتهم بالله وبرسوله وما جاء به من عند ربهم . فجعل البرقَ له مثلاً ، على ما قدَّمنا صفته .

---

(١) فى المطبوعة : « بعقوبتهم » ، وفى بعض المخطوطات : « بعقولهم » ، وكلتاهما خطأ محض . والعقوة : ساحة الدار ، وما كان حولها وقريباً منها .

(٢) الأثر ٤٦٦ — من تمام أثر فى الدر المنثور ١ : ٣٣ .

(٣) الخبر ٤٦٧ — من تمام خبر فى الدر المنثور ١ : ٣٢ — ٣٣ .

« يَخطفُ أبصارَهم » ، يعني : يذهب بها ويستلبُها ويلتمعها من شدة ضيائه ونُور شُعاعه .

٤٦٩ـ كما حُدِّثت عن المنجاب بن الحارث ، قال : حدثنا بشر بن عُمارة ، عن أبي رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، في قوله : « يكاد البرقُ يخطف أبصارهم » ، قال : يلتمِعُ أبصارَهم ولمَّا يفعل(١) .

قال أبو جعفر : والخطف السلب ، ومنه الخبر الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الخطْفة ، يعني بها النُّهبة(٢) . ومنه قيل للخُطّاف الذي يُخرج به الدلو من البئر خُطّاف ، لاختطافه واستلابه ما عَلِق به ، ومنه قول نابغة بني ذُبيان :

خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فِي حِبَالٍ متينةٍ تَمُدُّ بها أيدٍ إلَيْك نَوَازِعُ(٣)

---

(١) الخبر ٤٦٩ — لم أجده . والتمع البصر أو غيره : اختلسه واختطفه وذهب به . ومنه الحديث : « إذا كان أحدكم في الصلاة ، فلا يرفع بصره إلى السماء يلتمع بصره » ، أي يختلس .

(٢) الذي ذكره ابن الأثير في النهاية أن الخطفة : ما اختطف الذئب من أعضاء الشاة وهي حية ، لأن كل ما أبين من حي فهو ميت ، وذلك أن النهي عن الخطفة كان لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، رأى الناس يجبون أسنمة الإبل وأليات الغنم ويأكلونها . قال : والخطفة المرة الواحدة من الخطف ، فسمى بها العضو المختطف ، وأما النهبة والنهبى ، فاسم لما ينهب ، وجاء بيانها في حديث سنن أبي داود ٣ : ٨٨ « فأصاب الناس غنيمة فانتهبوها ، فقام عبد الرحمن بن سمرة خطيباً ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن النهبى » . وفي الباب نفسه من سنن أبي داود عن رجل من الأنصار قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد ، وأصابوا غنماً فانتهبوها ، فإن قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي على قوسه ، فأكفأ قدورنا بقوسه ، ثم جعل يرمل اللحم بالتراب ثم قال : إن النهبة ليست بأحل من الميتة » .

(٣) ديوانه : ٤١ ، وقبله البيت المشهور :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

خطاطيف : جمع خطاف . وحجن : جمع أحجن ، وهو المعوج الذي في رأسه عقافة . وقال « تمد بها » ولم يقل : تمدها ، لأنه لم يرد مد الحبال ذوات الخطاطيف ، وإنما أراد اليد التي تمتد بها وفيها الخطاطيف ، لأن اليد هي الذي تتبع الشيء حيث ذهب (انظر ما سيأتي من إدخال الباء على مثل هذا الفعل ص ٣٦٠ س : ٦ — ٩) وقوله « إليك » متعلق بقوله « نوازع » . ونوازع جمع نازع ونازعة ، من قولهم نزع الدلو من البئر ينزعها : جذبها وأخرجها . أي أن هذه الأيدي تجذب ما تشاء إليك ، وترده عليك . والبيت متصل بالذي قبله ،

فجعل ضَوْءَ البرق وشدة شُعاع نوره ، كضوء إقرارهم بألسنتهم بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله واليوم الآخر وشُعاعِ نوره ، مثلاً .

ثم قال تعالى ذكره : «كلما أضاء لهم» ، يعني أن البرق كلما أضاء لهم ، وجعل البرق لإيمانهم مَثلاً . وإنما أراد بذلك : أنهم كلما أضاء لهم الإيمان ، وإضاءتُه لهم : أن يروْا فيه ما يُعجبهم في عاجل دنياهم ، من النُّصرة على الأعداء ، وإصابةِ الغنائم في المغازي ، وكثرة الفتوح ومنافعِها ، والثراء في الأموال ، والسلامةِ في الأبدان والأهل والأولاد — فذلك إضاءتُه لهم ، لأنهم إنما يُظهرون بألسنتهم ما يُظهرونه من الإقرار ، ابتغاءَ ذلك ، ومدافعةً عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذَراريهم ، وهم كما وصفهم الله جلّ ثناؤه بقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [سورة الحج : ١١]

ويعني بقوله «مشوا فيه» ، مشوا في ضوء البرق . وإنما ذلك مَثلٌ لإقرارهم على ما وصفنا . فمعناه : كلما رأوا في الإيمان ما يُعجبهم في عاجل دنياهم على ما وصفنا ، ثبتوا عليه وأقاموا فيه ، كما يمشي السائر في ظُلمة الليل وظُلمة الصيِّب الذي وصفه جل ثناؤه ، إذا برقت فيها بارقةٌ أبصرَ طريقه فيها .

«وإذا أظلم» ، يعني : ذهب ضوءُ البرق عنهم .

ويعني بقوله «عليهم» ، على السائرين في الصيِّب الذي وَصف جل ذكره . وذلك للمنافقين مثَل . ومعنى إظلام ذلك : أنّ المنافقين كلما لم يَروْا في الإسلام ما يعجبهم في دنياهم — عند ابتلاء الله مؤمني عباده بالضرّاء ، وتمحيصه إياهم بالشدائد والبلاء ، من إخفاقهم في مَغزاهم ، وإدالة عدوّهم منهم[1] ، أو إدبارٍ من

وبيان لقوله «فإنك كالليل الذي هو مدركي» ، أراد تهويل الليل وما يرى فيه ، تتيمه حيث ذهب خطاطيف حجن لا مهرب له منها .

(١) في المطبوعة «وإزالة عدوهم» ، وهو خطأ . والإدالة : الغلبة ، وهي من الدولة في الحرب ، وهو أن يهزم الجيش مرة ، ويهزمه الجيش الآخر تارة أخرى . يقال : اللهم أدلنا من عدونا ! أي اللهم اجعل لنا الدولة عليه وانصرنا .

دنياهم عنهم — أقاموا على نفاقهم[١]، وثبتوا على ضلالتهم ، كما قام السائر فى الصيِّب الذى وصف جل ذكره[٢] ، إذا أظلم وخفتَ ضوء البرق ، فحارَ فى طريقه ، فلم يعرف مَنهجه .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾

قال أبو جعفر : وإنما خَصّ جل ذكره السمعَ والأبصارَ — بأنه لو شاء أذهبَها من المنافقين دون سائر أعضاء أجسامهم[٣]— للذى جرَى من ذكرها فى الآيتين ، أعنى قوله : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق» ، وقوله: « يكادُ البرق يَخطَفُ أبصارهم كلما أضاء لهم مَشوْا فيه» ، فجرى ذكرها فى الآيتين على وجه المثَل . ثم عَقّب جل ثناؤه ذكر ذلك ،بأنه لو شاء أذْهبه من المنافقين عقوبةً لهم على نفاقهم وكفرهم ، وعيداً من الله لهم ، كما توعّدهم فى الآية التى قبلها بقوله: « والله مُحيط بالكافرين » ، واصفاً بذلك جل ذكره نفسَه ، أنه المقتدر عليهم وعلى جمعهم ، لإحلال سَخَطه بهم ، وإنزال نِقْمته عليهم ، ومُحذّرَهم بذلك سَطوته ، ومخوِّفَهم به عقوبته ، ليتقوا بأسَه ، ويُسارعوا إليه بالتوبة . ١٢٤/١

٤٧٠ — كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « ولو شاء

---

(١) فى المطبوعة : « قاموا على نفاقهم » . وهذه أجود .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « كما قام السائرون فى الصيب » ، وهو خطأ ، صوابه من مخطوطة أخرى .

(٣) فى المخطوطة : « دون سائر أجسامهم » .

الله لذَهب بسمعهم وأبصارهم »، لِمَا تركوا من الحق بعد معرفته[١] .

٤٧١ — وحدثني المثنى، قال : حدثنا إسحق، قال: حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : ثم قال — يعني قال الله — في أسماعهم ، يعني أسماعَ المنافقين ، وأبصارِهم التي عاشوا بها في الناس: « ولو شاءَ الله لذَهب بسمعهم وأبصارهم »[٢] .

قال أبو جعفر : وإنما معنى قوله : « لذهب بسمعهم وأبصارهم »، لأذهب سَمعَهم وأبصارَهم. ولكن العرب إذا أدخلوا الباء في مثل ذلك قالوا: ذهبتُ ببصره، وإذا حذفوا الباء قالوا: أذهبتُ بصره . كما قال جل ثناؤه: ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ [سورة الكهف : ٦٢] ، ولو أدخلت الباء في الغداء لقيل : ائتنا بغدَائنا[٣] .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : وكيف قيل: « لذهب بسمعهم » فوحَّد، وقال : « وأبصارهم » فجمع ؟ وقد علمتَ أن الخبر في السمع خبرٌ عن سَمْع جماعة[٤] ، كما الخبر عن الأبصار خبرٌ عن أبصار جماعة ؟[٥]

قيل : قد اختلف أهل العربية في ذلك ، فقال بعض نحويي الكوفة : وحَّد السمعَ لأنه عَنَى به المصدرَ وقصَد به الخَرْق، وجمع الأبصار لأنه عَنَى به الأعينَ. وكان بعض نحويي البصرة يزعم : أنّ السمع وإن كان في لفظ واحد ، فإنه بمعنى جماعة[٦]. ويحتج في ذلك بقول الله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٣] ، يريد : لا ترتد إليهم أطرافهم ، وبقوله : ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[سورة القمر : ٤٥] ،

---

(١) الخبر ٤٧٠ — من تمام الخبر الذي ساقه في الدر المنثور ١ : ٣٢-٣٣ ، وقد مضى صدره آنفاً : ٤٥١ ، ٤٦٧ .

(٢) الأثر ٤٧١ — هو من الأثر السالف رقم : ٤٦٠ .

(٣) انظر معاني القرآن للفراء ١ : ١٩ . وانظر ما مضى ص ٣٥٧ تعليق : ٣

(٤) في المخطوطة: « أن الخبر بالسمع » ، وهذه أجود ، وأجودهن « الخبر عن السمع » كما سيأتي في الذي يلي .

(٥) في المطبوعة : « كما الخبر في الأبصار » ، والذي في المخطوطة أجود .

(٦) في المخطوطة: « لمعنى جماعة » ، وهي صواب جيد .

يراد به أدبارُهم . وإنما جاز ذلك عندى، لأن فى الكلام ما يَدُلّ على أنه مُرادٌ به الجمع ، فكان فى دلالته على المراد منه ، وأداء معنى الواحد من السمع عن معنى جماعة، مُغنياً عن جِماعه[1] . ولو فعل بالبصر نظيرَ الذى فعل بالسمع ، أو فعل بالسمع نظير الذى فعل بالأبصار — من الجمع والتوحيد — كان فصيحاً صحيحاً ، لما ذكرنا من العلة ، كما قال الشاعر :

كُلُوا فِى بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا فَإِنَّ زَمَانَنَا زَمَنٌ خَمِيصُ[2]

فوحّد البطن ، والمرادُ منه البطون ، لما وصفنا من العلة .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٠)

قال أبو جعفر : وإنما وَصف الله نفسه جلّ ذكره بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع ، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم مُحيطٌ ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قَديرٌ . ثم قال : فاتقونى أيُّها المنافقون، واحذرُوا خِداعى وخداعَ رسولى وأهلِ الإيمان بى ، لا أُحِلَّ بكم نقمتى ، فإنى على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير . ومعنى « قدير » قادر ، كما معنى « عليم » عالم ، على ما وصفتُ

---

(١) فى المطبوعة : « فكان فيه دلالة على المراد منه ، وأدى معنى الواحد من السمع عن معنى جماعة، مغنياً عن جماعة » ، وهو كلام لا معنى له . وفى المخطوطة : « ... على المراد منه واوا معنى الواحد ... » ، وقد صححت قراءتها كما ترى . وقوله « مغنياً عن جماعه » أى عن جمعه ، والطبرى يكثر استعمال « جماع » مكان جمع ، كما مضى وكما سيأتى .

(٢) البيت من أبيات سيبويه التى لا يعلم قائلها ، سيبويه ١ : ١٠٨ ، والخزانة ٣ : ٣٧٩ — ٣٨١ ، وانظر أمالى ابن الشجرى ١ : ٣١١ ، ٢ : ٢٥ ، ٣٨ ، ٣٤٣ ، وروايته : « فى نصف بطنكم » . وفى المخطوطة : « تعيشوا » ، مكان « تعفوا » ، وهى رواية ذكرها صاحب الخزانة . وروايتهم جميعاً « فإن زمانكم . . . . » .

فيما تقدم من نظائره ، من زيادة معنى فعيل على فاعل فى المدح والذم[١] .

* * *

القول فى تأويل قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : فأمرَ جل ثناؤه الفريقين — اللذين أخبرَ الله عن أحدهما أنه سواءٌ عليهم أأنذروا أم لم يُنذروا أنهم لا يؤمنون[٢] ، لطبْعِه على قلوبهم وعلى سمعهم[٣] ، وعن الآخرِ أنه يُخادع اللهَ والذين آمنوا بما يبدى بلسانه من قيله : آمنّا بالله وباليوم الآخر ، مع استبطانه خلافَ ذلك ، ومرض قلبه ، وشكّه فى حقيقة ما يُبدى من ذلك ؛ وغيرهم من سائر خلقه المكلَّفين — بالاستكانة ، والخضوع له بالطاعة ، وإفراد الربوبية له والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة. ١٢٥/١ لأنه جلّ ذكره هو خالقهم وخالقُ مَنْ قبلهم من آبائهم وأجدادهم ، وخالقُ أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم . فقال لهم جل ذكره : فالذى خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائرَ الخلق غيرَكم ، وهو يقدرُ على ضرّكم ونفعكم — أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضرّ[٤] .

وكان ابن عباس ، فيما رُوى لنا عنه ، يقول فى ذلك نظيرَ ما قلنا فيه ، غيرَ أنه ذُكر عنه أنه كان يقول فى معنى « اعبُدوا ربكم » : وحِّدوا ربكم . وقد دللنا — فيما مضى من كتابنا هذا — على أن معنى العبادة : الخضوعُ لله بالطاعة ،

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى : « الرحيم » ، فيما مضى : ص ١٢٦ .

(٢) فى المخطوطة : « أأنذرتهم أم لم تنذرهم » ، وهما سواء فى المعنى .

(٣) فى المطبوعة : « . . . وعلى سمعهم وأبصارهم » ، والصواب حذف « وأبصارهم » ، لأنها غير داخلة فى معنى الطبع ، كما مضى فى تفسير الآية .

(٤) فى المخطوطة : « على ضرر ولا نفع » ، وهما سواء .

والتذلل له بالاستكانة[١]. والذى أراد ابن عباس — إن شاء الله — بقوله فى تأويل قوله : «اعبدوا ربكم» وحِّدوه ، أى أفردُوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه[٢].

٤٧٢ — حدثنا محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال الله : «يا أيها الناسُ اعبدُوا ربَكم » ، للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين ، أى وَحِّدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم[٣].

٤٧٣ — وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، عن أسباط ، عن السُّدّىّ فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : «يا أيها الناس اعبدُوا ربّكم الذى خَلقكم والذين منْ قبلكم » يقول : خَلقكم وَخلق الذين من قبلكم[٤].

قال أبو جعفر : وهذه الآيةُ من أدلّ دليل على فساد قول من زعم : أنّ تكليف ما لا يطاق إلا بمعونة الله غيرُ جائز ، إلا بَعد إعطاء الله المكلف المعُونةَ على ما كلَّفه. وذلك أنّ الله أمرَ من وَصفنا ، بعبادته والتوبة من كفره ، بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون ، وأنهم عن ضَلالتهم لا يَرْجعون .

* * *

(١) مضى فى تفسير قوله تعالى «إياك نعبد» ص : ١٦٠ .

(٢) فى المخطوطة «وحدوه له أفردوا . . . » ، وليس لها معنى .

(٣) الخبر ٤٧٢ — فى الدر المنثور ١ : ٣٣ ، وابن كثير ١ : ١٠٥ ، والشوكانى ١ : ٣٨ . وفى الدر والشوكانى : «من الكفار والمؤمنين» ، ووافق ابن كثير أصول الطبرى .

(٤) الخبر ٤٧٣ — فى الدر المنثور ١ : ٣٣ ، ولم ينسب إخراجه لابن جرير . وفى المخطوطة : «خلقكم والذين . . . » .

القول فى تأويل قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١)

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك : لعلكم تتقون بعبادتكم ربَّكم الذى خلقكم ، وطاعتِكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه ، وإفرادكُم له العبادة[1] لتتقوا سَخَطه وغضَبه أن يَحلَّ عليكم ، وتكونوُا من المتقين الذين رضى عنهم ربهم .

وكان مجاهدٌ يقولُ فى تأويل قوله: « لعلكم تتقون » : تُطيعون .

٤٧٤ — حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنى أبى ، عن سفيان ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، فى قوله: « لعلكم تتقون » ، قال : لعلكم تطيعون[2] .

قال أبو جعفر : والذى أظن أنّ مجاهداً أراد بقوله هذا : لعلكم أنْ تَتقوا رَبَّكم بطاعتكم إياه ، وإقلاعِكم عن ضَلالتكم .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل: فكيف قال جل ثناؤه: « لعلكم تتقون » ؟ أو لم يكن عالماً بما يصيرُ إليه أمرُهم إذا هم عبدوه وأطاعُوه،حتى قال لهم: لعلكم إذا فعلتم ذلك أن تتقوا، فأخرج الخبر عن عاقبة عبادتهم إياه مخرج الشكّ ؟

قيل له : ذلك على غير المعنى الذى توهَّمتَ ، وإنما معنى ذلك : اعبدُوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ، لتتقوه بطاعته وتوحيده وإفراده بالربوبية والعبادة[3] ، كما قال الشاعر :

وَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الحروبَ ، لَعَلَّنا نَكُفُّ ! وَوَثَّقْتُمْ لَنا كُلَّ مَوْثِقِ[4]

فَلَمَّا كَفَفْنَا الحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُكُمْ كَلَمْحِ سَرَابٍ فِى الفَلا مُتَأَلِّقِ[5]

---

(١) فى المطبوعة : « له بالعبادة » وهو خطأ .

(٢) الأثر ٤٧٤ — فى الدر المنثور ١ : ٣٤ .

(٣) يريد الطبرى أن العرب تستعمل « لعل » مجردة من الشك ، بمعنى لام كى ، كما قال ابن الشجرى فى أماليه ١ : ٥١ .

(٤) لم أعرف قائلهما ، ورواهما ابن الشجرى نقلا عن الطبرى، فيما أرجح ، فى أماليه ١ : ٥١ .

(٥) رواية ابن الشجرى « فى الملا » . والفلا جمع فلاة : وهى الأرض المستوية ليس فيها شىء والصحراء الواسعة . والملا : الصحراء والمتسع من الأرض — فهما سواء فى المعنى .

يريد بذلك : قلتم لنا كُفُّوا لنكفّ . وذلك أن « لعل » فى هذا الموضع لو كان شكًّا ، لم يكونوا وثقوا لهم كل موثق.

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾

وقوله : « الذى جعل لكم الأرض فِراشاً » مردود على « الذى » الأولى فى قوله « اعبدُوا ربكم الذى خلقكم » ، وهما جميعاً من نعت « ربكم » ، فكأنه قال : اعبدُوا ربكم الخالقكُم ، والخالقَ الذين من قبلكم ، الجاعلَ لكم الأرض فراشاً. ١/١٢٦

يعنى بذلك أنه جعل لكم الأرض مهاداً مُوَطَّأً[1] وقَراراً يُستقرّ عليها. يُذكِّرُ ربّنا جلّ ذكره — بذلك من قِيله — عبادَهُ نعمَه عندهم وآلاءه لديهم[2]، ليذْكروا أياديَه عندهم ، فينيبوا إلى طاعته — تعطُّفاً منه بذلك عليهم، ورأفةً منه بهم ، ورحمةً لهم ، من غير ما حاجة منه إلى عبادتهم ، ولكن ليُتمّ نعمته عليهم ولعلهم يهتدون.

٤٧٥ — كما حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرّة[3] ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » فهى فراشٌ يُمشى عليها ، وهى المهاد والقرار[4] .

٤٧٦ — حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُريع ، عن سعيد ، عن قتادة : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » ، قال : مهاداً لكم .

٤٧٧ — حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، عن عبد الله بن أبى جعفر ،

---

(١) فى المطبوعة : « مهاداً وموطئاً » ، وفى المخطوطة « مهاداً توتطا » ، وكأن الصواب ما أثبتناه . والموطأ : المهيأ الملين الممهد . وسيأتى أن الفراش هو المهاد .

(٢) فى المطبوعة « زيادة نعمه عندهم ، وآلائه لديهم » ، والصواب ما فى المخطوطة . وقوله « عباده » مفعول : « يذكر ربنا . . . » .

(٣) قوله « وعن مرة » ، ساقطة من المطبوعة ، وهذا هو الصواب .

(٤) الخبر ٤٧٥ — فى الدر المنثور ١ : ٣٤ ، والشوكانى ١ : ٣٨ .

عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » ، أى مهاداً .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ والسَّماءَ بِنَاءً ﴾

قال أبو جعفر : وإنما سُميت السماءُ سماءً لعلوها على الأرض وعلى سُكانها من خلقه ، وكل شىء كان فوق شىء آخرَ فهو لما تحته سَماءٌ . ولذلك قيل لسقف البيت : سَماوةٌ[1] ، لأنه فوقه مرتفعٌ عليه . ولذلك قيل : سَمَا فلان لفلان ، إذا أشرف له وقَصَد نحوه عالياً عليه ، كما قال الفرزدق :

سَمَوْنَا لِنَجْرَانَ الْيَمَانِى وَأَهْلِهِ ... وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيَّثْ مَقَاوِلُهْ[2]

وكما قال نابغة بنى ذُبيانَ :

سَمَتْ لِى نَظْرَةٌ ، فرأيتُ منها ... تُحَيْتَ الخِدْرِ وَاضِعَةَ القِرَامِ[3]

يريد بذلك : أشرفتْ لى نظرةٌ وبدت . فكذلك السماء سُميت للأرض : سماءً ، لعلوها وإشرافها عليها .

---

(١) فى المطبوعة « سماؤه » ، وكلتاهما صواب ، سماء البيت ، وسماوته : سقفه .

(٢) ديوانه : ٧٣٥ ، والنقائض : ٦٠٠ . ونجران : أرض فى مخاليف اليمن من ناحية مكة . وذكر نجران، على لفظه وأصل معناه، والنجران فى كلام العرب : الخشبة التى يدور عليها رتاج الباب. وديث البعير : ذلله بعض الذل حتى تذهب صعوبته . والمقاول : جمع مقول . والمقول والقيل : الملك من ملوك حمير . يقول : هى أرض عز عزيز ، لم يلق ملوكها ضيما يذلهم ويحنى هاماتهم .

(٣) ديوانه : ٨٦ ، وروايته : « صفحت بنظرة » . وقوله « صفحت » ، أى تصفحت الوجوه بنظرة ، أو رميت بنظرة متصفحاً . والقرام : ستر رقيق فيه رقم ونقوش . والخدر : خشبات تنصب فوق قتب البعير مستورة بثوب ، وهو الهودج . ووضع الشىء : ألقاه . وتحيت : تصغير « تحت » ، وصغر « تحت » ، لأنه أراد أن ستر الخدر بعد وضع القرام لا يبدى منها إلا قليلا ، وهذا البيت متعلق بما قبله وما بعده . وقبله :

فلو كانتْ غَدَاةَ البَيْنِ مَنَّتْ ... وقد رَفَعُوا الخُدُورَ على الخِيامِ

صَفَحْتُ بنظرةٍ . . . .

ترائبَ يستضىء الحلْىُ فيها ... كجَمْرِ النارِ بُذِّرَ فى الظلامِ

يريد بذلك : قلّم لنا كُفُّوا لنكفَّ . وذلك أن « لعل » فى هذا الموضع لو كان شكًّا ، لم يكونوا وثقوا لهم كل موثق .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾

وقوله : « الذى جعل لكم الأرض فِراشاً » مردود على « الذى » الأولى فى قوله « اعبدُوا ربكم الذى خلقكم » ، وهما جميعاً من نعت « ربكم » ، فكأنه قال : اعبدُوا ربكم الخالقكُم ، والخالقَ الذين من قبلكم ، الجاعلَ لكم الأرض فراشاً . يعنى بذلك أنّه جعل لكم الأرض مهاداً مُوَطَّأ[1] وقَراراً يُستقرّ عليها . يُذكِّرُ ربّنا جلّ ذكره — بذلك من قِيله — عبادَهُ نعمَه عندهم وآلاءه لديهم[2] ، ليذكروا أياديَه عندهم ، فينيبوا إلى طاعته — تعطُّفاً منه بذلك عليهم ، ورأفةً منه بهم ، ورحمةً لهم ، من غير ما حاجة منه إلى عبادتهم ، ولكن ليُتمّ نعمته عليهم ولعلهم يهتدون .

٤٧٥ — كما حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرّة[3] ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » فهى فراشٌ يُمشى عليها ، وهى المهاد والقرار[4] .

٤٧٦ — حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُريع ، عن سعيد ، عن قتادة : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » ، قال : مهاداً لكم .

٤٧٧ — حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، عن عبد الله بن أبى جعفر ،

١ / ١٢٦

---

(١) فى المطبوعة : « مهاداً وموطئاً » ، وفى المخطوطة « مهاداً توتطا » ، وكأن الصواب ما أثبتناه . والموطأ : المهيأ الملين الممهد . وسيأتى أن الفراش هو المهاد .

(٢) فى المطبوعة « زيادة نعمه عندهم ، وآلائه لديهم » ، والصواب ما فى المخطوطة . وقوله « عباده » مفعول : « يذكر ربنا . . . » .

(٣) قوله « وعن مرة » ، ساقطة من المطبوعة ، وهذا هو الصواب .

(٤) الخبر ٤٧٥ — فى الدر المنثور ١ : ٣٤ ، والشوكانى ١ : ٣٨ .

عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » ، أى مهاداً .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾

قال أبو جعفر : وإنما سُميت السماءُ سماءً لعلوها على الأرض وعلى سُكانها من خلقه ، وكل شىء كان فوق شىء آخرَ فهو لما تحته سَماءٌ . ولذلك قيل لسقف البيت : سَماوةٌ[1] ، لأنه فوقه مرتفعٌ عليه . ولذلك قيل : سَمَا فلان لفلان ، إذا أشرف له وقَصَد نحوه عالياً عليه ، كما قال الفرزدق :

سَمَوْنَا لِنَجْرَانَ الْيَمَانِى وَأَهْلِهِ ... وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيَّثْ مَقَاوِلُهْ[2]

وكما قال نابغة بنى ذُبيانَ :

سَمَتْ لِى نَظْرَةٌ ، فرأيتُ منها ... تُحَيْتَ الخِدْرِ وَاضِعَةَ القِرَامِ[3]

يريد بذلك : أشرفتْ لى نظرةٌ وبدت . فكذلك السماء سُميت للأرض : سماءً ، لعلوها وإشرافها عليها .

---

(١) فى المطبوعة « سماؤه » ، وكلتاهما صواب ، سماء البيت ، وسماوته : سقفه .

(٢) ديوانه : ٧٣٥ ، والنقائض : ٦٠٠ . ونجران : أرض فى مخاليف اليمن من ناحية مكة . وذكر نجران ، على لفظه وأصل معناه ، والنجران فى كلام العرب : الخشبة التى يدور عليها رتاج الباب . وديث البعير : ذلله بعض الذل حتى تذهب صعوبته . والمقاول : جمع مقول . والمقول والقيل : الملك من ملوك حمير . يقول : هى أرض عز عزيز ، لم يلق ملوكها ضيما يذلهم ويحنى هاماتهم .

(٣) ديوانه : ٨٦ ، وروايته : « صفحت بنظرة » . وقوله « صفحت » ، أى تصفحت الوجوه بنظرة ، أو رميت بنظرة متصفحاً . والقرام : ستر رقيق فيه رقم ونقوش . والخدر : خشبات تنصب فوق قتب البعير مستورة بثوب ، وهو الهودج . ووضع الشىء : ألقاه . وتحيت : تصغير « تحت » ، وصغر « تحت » ، لأنه أراد أن ستر الخدر بعد وضع القرام لا يبدى منها إلا قليلا ، وهذا البيت متعلق بما قبله وما بعده . وقبله :

فلو كانتْ غَدَاةَ البَيْنِ مَنَّتْ ... وقد رَفَعُوا الخُدُورَ على الخِيامِ

صَفَحْتُ بنظرةٍ . . . .

ترائبَ يستضىء الحَلْىُ فيها ... كجَمْرِ النارِ بُذِّرَ فى الظلامِ

٤٧٨ – كما حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال حدثنا أسباط ، عن السُّدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس – وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « والسّماء بناء » ، فبناءُ السماء على الأرض كهيئة القبة ، وهى سقف على الأرض[1] .

٤٧٩ – حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة فى قول الله : « والسماءَ بناءً » ، قال : جعل السماء سَقفاً لكَ .

وإنما ذكر تعالى ذكره السماءَ والأرض فيما عدّد عليهم من نعمه التى أنعمها عليهم ، لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم ، وبهما قوامُ دنياهم . فأعلمهم أن الذى خَلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هم فيه من النعم ، هو المستحقّ عليهم الطاعةَ ، والمستوجبُ منهم الشكرَ والعبادةَ ، دون الأصنام والأوثان ، التى لا تضرُّ ولا تنفع .

* * *

القول فى تأويل قول الله جلّ ثناؤه : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾

يعنى تعالى ذكره بذلك أنّه أنزل من السماء مطراً ، فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه فى الأرض من زرعهم وغَرْسهم ثمرات[2] – رزقاً لهم ، غذاءً وأقواتاً . فنبههم بذلك على قدرته وسُلطانه ، وذكّرهم به آلاءَه لديهم ، وأنه هو الذى خلقهم ، وهو الذى يَرزقهم ويكفُلُهم ، دون من جعلوه له نِدًّا وعِدْلاً من الأوثان والآلهة .

---

(١) الخبر ٤٧٨ – فى الدر المنثور ١ : ٣٤ ، جمعه مع الخبر : ٤٧٥ خبراً واحداً .

(٢) فى المخطوطة : « زرعهم وغروسهم » ، وهما سواء .

ثم زَجرَهم عن أن يجعلوا له ندًّا ، مع علمهم بأن ذلك كما أخبرهم ، وأنه لا نِدٌّ له ولا عِدْلٌ ، ولا لهم نافعٌ ولا ضارٌّ ولا خالقٌ ولا رازقٌ سواه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾

١٢٧/١ قال أبو جعفر : والأنداد جمع نِدّ ، والنِّدّ : العِدْلُ والمِثل ، كما قال حسان ابن ثابت :

أتهجُوه ولَستَ له بِنِدّ ؟ فَشَرُّكُما لخيرِكُما الفِدَاء[1]

يعنى بقوله : « ولستَ له بند » ، لست له بمثْلٍ ولا عِدْلٍ . وكل شىء كان نظيراً لشىء وله شبيهاً فهو له ند[2] .

٤٨٠ — كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : « فلا تجعلوا لله أنداداً » ، أى عُدَلاء .

٤٨١ — حدثنى المثنى ، قال : حدثنى أبو حُذيفة ، قال : حدثنا شِبل ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : « فلا تجعلوا لله أنداداً » ، أى عُدَلاء[3] .

٤٨٢ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّى ، فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « فلا تجعلوا لله أنداداً » ، قال : أكفاءٌ من الرجال تطيعونهم فى معصية الله[4] .

---

(١) ديوانه : ٨ ، روايته « بكفء » ، وكذلك فى رواية الطبرى الآتية (١٨ : ٦٩ — ٧٠ بولاق) وقصيدة حسان هذه ، يهاجى بها أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، قبل إسلامه ، وكان هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى المطبوعة : « كان نظيراً لشىء وشبيهاً » .

(٣) الأثر ٤٨١ — فى الدر المنثور ١ : ٣٥ ، والعدلاء : جمع عديل ، وهو النظير والمثيل ، كالعدل .

(٤) الخبر ٤٨٢ — فى الدر المنثور ١ : ٣٤ — ٣٥ ، والشوكانى ١ : ٣٩ .

٤٨٣ — حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد[١] في قول الله : « فلا تجعلوا لله أنداداً » ، قال: الأنداد : الآلهة التي جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له .

٤٨٤ — حُدِّثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بِشر ، عن أبي رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، في قوله: « فلا تجعلوا لله أنداداً » ، قال : أشباهاً[٢] .

٤٨٥ — حدثني محمد بن سِنان ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن شَبيب ، عن عكرمة : « فلا تجعلوا لله أنداداً » ، أنْ تقولوا: لولا كلبنا لَدَخل علينا اللصُّ الدارَ ، لولا كلبنا صَاح في الدار ، ونحو ذلك[٣] .

فنهاهم الله تعالى أن يُشركوا به شيئاً ، وأن يعبدوا غيرَه ، أو يتخذوا له نِدًّا وَعِدْلاً في الطاعة ، فقال : كما لا شريك لي في خلقكم ، وفي رزقكم الذي أرزقكم وملكي إياكم ، ونعمى التي أنعمتُها عليكم[٤] — فكذلك فأفردوا ليَ الطاعة ،

---

(١) في المطبوعة : « ابن يزيد » ، وهو خطأ .

(٢) الخبر ٤٨٤ — في الدر المنثور ١ : ٣٤ ، والشوكاني ١ : ٣٩ .

(٣) الأثر ٤٨٥ — جاء مثله في خبر عن ابن عباس في ابن كثير ١ : ١٠٥ ، والشوكاني ١ : ٣٩ . وفي المطبوعة : « أي تقولوا : لولا كلبنا. . . » ، وليست بشيء . وفي المخطوطة « ونحو هذا » مكان « ونحو ذلك » . والخبر الذي في ابن كثير ، ساقه مطولا بالإسناد من تفسير ابن أبي حاتم ، من طريق الضحاك بن مخلد ، وهو أبو عاصم النبيل الذي في هذا الإسناد ، عن شبيب ، وهو ابن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، ولعل الطبري قصر بهذا الإسناد ، لأنه يروى مثل هذه الروايات ، بهذا الإسناد إلى عكرمة ، عن ابن عباس ، كما مضى برقم : ١٥٧ . ومن ذلك إعراض ابن كثير عن نقل رواية الطبري ، واختياره رواية ابن أبي حاتم . وسياق رواية ابن أبي حاتم — عن ابن عباس— فيها فوائد جمة . ولفظها : « قال : الأنداد ، هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل . وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها "فلان" . هذا كله به شرك » . ثم قال ابن كثير : « وفي الحديث : أن رجلا قال لرسول صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ! قال : أجعلتني لله نداً ؟ ! » . والحديث الذي يشير إليه ابن كثير ، رواه أحمد في المسند بأسانيد صحاح ، عن ابن عباس : ١٨٣٩ ، ١٩٦٤ ، ٢٥٦١ ، ٣٢٤٧ . وكذلك رواه البخاري في الأدب المفرد ص : ١١٦ ونسبه الحافظ ابن حجر في الفتح ١١ : ٤٧٠ للنسائي وابن ماجة .

(٤) في المطبوعة : « ونعمتي » بالإفراد .

وأخلصُوا لىَ العبادة ، ولا تجعلوا لى شريكاً ونِداًّ من خلقى، فإنكم تعلمون أن كلَّ نعمةٍ عليكم فمنّى[١] .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٢)

اختلف أهل التأويل فى الذين عُنُوا بهذه الآية :

فقال بعضهم : عَنَى بها جميع المشركين من مُشركى العرب وأهل الكتاب.

وقال بعضهم : عنى بذلك أهلَ الكتابين ، أهلَ التوراة والإنجيل[٢] .

ذكر من قال : عنى بها جميعَ عَبدَةَ الأوثان من العرب وكفار أهل الكتابين :

٤٨٦ — حدثنا محمد بن حميد ، قال :حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس، قال: نَزَل ذلك فى الفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين. وإنما عَنى تعالى ذكره بقوله : « فلا تَجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »، أى لا تشركوا بالله غيرَه من الأنداد التى لا تَنفع ولا تضرّ ، وأنتم تعلمون أنه لاربَّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه[٣] .

٤٨٧— حدثنا بشر، قال :حدثنا يزيد،عن سعيد ، عن قتادة فى قوله : « وأنتمْ تعلمون » أى تعلمون أنّ الله خَلقكم وخلق السموات والأرض ، ثم تجعلون له أنداداً[٤] .

---

(١) فى المطبوعة : « . . . كل نعمة عليكم منى » . وهذه أجود .

(٢) فى المطبوعة : « أهل الكتابين التوراة والإنجيل » .

(٣) الخبر ٤٨٦ — مضى صدره فى رقم : ٤٧٢ ، وتمامه فى ابن كثير ١ : ١٠٥ ، والدر المنثور ١ : ٣٤ ، والشوكانى ١ : ٣٩ .

(٤) الأثر ٤٨٧ — فى الدر المنثور ١ : ٣٥ .

ذكر من قال : عنى بذلك أهلَ الكتابين :

٤٨٨ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد: « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »، أنه إله واحدٌ فى التوراة والإنجيل.

٤٨٩ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا قَبيصة ، قال : حدثنا سفيان ، عن مجاهد ، مثله[1] .

٤٩٠ — حدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حُذيفة ، قال: حدثنا شِبْل ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد: « وأنتم تعلمون »، يقول: وأنتم تعلمون أنّه لا ندّ له فى التوراة والإنجيل[2] .

قال أبو جعفر : وأحسَب أنّ الذى دَعا مجاهداً إلى هذا التأويل، وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دُون غيرهم — الظنُّ منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أنّ اللهَ خالقها ورازقها ، بجحودها وحدانيةَ ربِّها، وإشراكها معه فى العبادة غيره . وإنّ ذلك لَقولٌ ! ولكنّ الله جلّ ثناؤه قد أخبرَ فى كتابه عنها أنها كانت تُقر بوحدانيته ، غير أنها كانت تُشرك فى عبادته ما كانت تُشرك فيها ، فقال جل ثناؤه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [سورة الزخرف : ٨٧] ، وقال : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ ، أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة يونس : ٣١].

١٢٨/١

---

(١) الإسناد ٤٨٩ — قبيصة ، بفتح القاف : هو ابن عقبة بن محمد السوائى الكوفى ، وهو ثقة معروف ، من شيوخ البخارى ، وأخرج له أصحاب الكتب الستة ، تكلم بعضهم فى روايته عن سفيان الثورى ، بأنه يخطئُ فى بعض روايته ، بأنه سمع من الثورى صغيراً ، ولكن لم يجرحه البخارى فى الكبير ٤ / ١ / ١٧٧ ، وقال ابن سعد فى الطبقات ٦ : ٢٨١ : « كان ثقة صدوقاً ، كثير الحديث عن سفيان الثورى » . وسأل ابن أبى حاتم (الجرح ٣ / ٢ / ١٢٦) أباه عن قبيصة وأبى حذيفة ، فقال : « قبيصة أجل عندى ، وهو صدوق . لم أر أحداً من المحدثين يأتى بالحديث على لفظ واحد لا يغيره ، سوى قبيصة بن عقبة ، وعلى بن الجعد ، وأبى نعيم — فى الثورى » .

(٢) الأثر ٤٩٠ — ذكره ابن كثير ١ : ١٠٥ ، والدر المنثور ١ : ٣٥ ، بنحوه .

فالذى هو أولى بتأويل قوله: « وأنتم تعلمون » — إذْ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانيَّة الله ، وأنه مُبدعُ الخلق وخالقهم ورازقهم ، نظيرَ الذى كان من ذلك عند أهل الكتابين ، ولم يكن فى الآية دلالة على أنّ الله جل ثناؤه عنى بقوله: « وأنتم تعلمون » أحدَ الحزبين ، بل مُخرَّج الخطاب بذلك عامٌّ للناس كافةً لهم ، لأنه تحدَّى الناس كلهم بقوله: « يا أيها الناس اعبدُوا ربكم » — أن يكون تأويلُهُ ما قاله ابنُ عباس وقتادة ، من أنه يعنى بذلك كل مكلف ، عالم بوحدانية الله[1] ، وأنه لاشريكَ له فى خلقه ، يُشرِكُ معه فى عبادته غيرَه ، كائناً من كان من الناس ، عربيًّا كان أو أعجميًّا ، كاتباً أو أميًّا ، وإن كان الخطابُ لكفار أهل الكتابِ الذين كانوا حَوالىْ دَار هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل النفاق منهم ، وممن بينَ ظَهرانيهم ممّن كان مشركاً فانتقل إلى النفاق بمقدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾

قال أبو جعفر : وهذا من الله عز وجل احتجاجٌ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على مشركى قومه من العرب ومنافقيهم ، وكفار أهل الكتاب وضُلاَّلهم ، الذين افتتح بقصَصهم قولَه جل ثناؤه: « إنّ الذين كفروا سَواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » ، وإياهم يخاطب بهذه الآيات ، وضُرباءَهم يَعنى بها[2] ، قال الله جلّ

(١) فى المخطوطة : « من أنه معنى بذلك . . . » ، وهما سواء .

(٢) فى المطبوعة : « وأخبر بأهم نعوتها » ، وهى فى المخطوطة « وحرباهم نعى بها » غير منقوطة ولا بينة ، فاختار المصححون لها قراءة لا تحمل معنى ! والضرباء : جمع ضريب ؛ فلان ضريب فلان : نظيره أو مثله .

ذكر من قال : عنى بذلك أهلَ الكتابين :

٤٨٨ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد: « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » ، أنه إله واحدٌ في التوراة والإنجيل.

٤٨٩ — حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا قَبيصة ، قال : حدثنا سفيان ، عن مجاهد ، مثله[1] .

٤٩٠ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو حُذيفة ، قال: حدثنا شِبْل ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد: « وأنتم تعلمون » ، يقول: وأنتم تعلمون أنّه لا ندّ له في التوراة والإنجيل[2] .

قال أبو جعفر : وأحسَب أنّ الذى دَعا مجاهداً إلى هذا التأويل، وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دُون غيرهم — الظنُّ منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أنّ اللهَ خالقها ورازقها ، بجحودها وحدانيةَ ربِّها، وإشراكها معه في العبادة غيره . وإنّ ذلك لَقولٌ ! ولكنّ الله جلّ ثناؤه قد أخبرَ في كتابه عنها أنها كانت تُقر بوحدانيته ، غير أنها كانت تُشرك في عبادته ما كانت تُشرك فيها ، فقال جل ثناؤه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [سورة الزخرف : ٨٧] ، وقال : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ ، أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [سورة يونس : ٣١].

١٢٨/١

---

(١) الإسناد ٤٨٩ — قبيصة ، بفتح القاف : هو ابن عقبة بن محمد السوائي الكوفي ، وهو ثقة معروف ، من شيوخ البخاري ، وأخرج له أصحاب الكتب الستة ، تكلم بعضهم في روايته عن سفيان الثوري ، بأنه يخطئ في بعض روايته ، بأنه سمع من الثوري صغيراً ، ولكن لم يجزمه البخاري في الكبير ٤ / ١ / ١٧٧ ، وقال ابن سعد في الطبقات ٦ : ٢٨١ : « كان ثقة صدوقاً ، كثير الحديث عن سفيان الثوري » . وسأل ابن أبي حاتم (الجرح ٣ / ٢ / ١٢٦) أباه عن قبيصة وأبي حذيفة ، فقال : « قبيصة أجل عندي ، وهو صدوق . لم أر أحداً من المحدثين يأتي بالحديث على لفظ واحد لا يغيره ، سوى قبيصة بن عقبة ، وعلي بن الجعد ، وأبي نعيم — في الثوري » .

(٢) الأثر ٤٩٠ — ذكره ابن كثير ١ : ١٠٥ ، والدر المنثور ١ : ٣٥ ، بنحوه .

فالذى هو أولى بتأويل قوله: « وأنتم تعلمون » — إذْ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانيَّة الله ، وأنه مُبدعُ الخلق وخالقهم ورازقهم ، نظيرَ الذى كان من ذلك عند أهل الكتابين ، ولم يكن فى الآية دلالة على أنّ الله جل ثناؤه عنى بقوله: « وأنتم تعلمون » أحدَ الحزبين ، بل مُخرَجُ الخطاب بذلك عامٌّ للناس كافةً لهم ،لأنه تحدَّى الناس كلهم بقوله: « يا أيها الناس اعبدُوا ربكم » — أن يكون تأويلُهُ ما قاله ابنُ عباس وقتادة ، من أنه يعنى بذلك كل مكلف ، عالم بوحدانية الله[1] ،وأنه لا شريكَ له فى خلقه ، يُشرِكُ معه فى عبادته غيرَه ، كائناً من كان من الناس، عربيًّا كان أو أعجميًّا ، كاتباً أو أميًّا، وإن كان الخطابُ لكفار أهل الكتابِ الذين كانوا حَوالَىْ دارهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل النفاق منهم ، وممن بينَ ظَهرانيهم ممّن كان مشركاً فانتقل إلى النفاق بمقدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾

قال أبو جعفر : وهذا من الله عز وجل احتجاجٌ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على مشركى قومه من العرب ومنافقيهم ، وكفار أهل الكتاب وضُلاَّلهم، الذين افتتح بقصَصهم قولَه جل ثناؤه: « إنّ الذين كفروا سَواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تنذرهم »، وإياهم يخاطب بهذه الآيات ،وضُرباءَهم يَعنى بها[2]،قال الله جلّ

(١) فى المخطوطة : « من أنه معنى بذلك . . . » ، وهما سواء .

(٢) فى المطبوعة : « وأخبر بأمر نعوتها » ، وهى فى المخطوطة « وحرباهم نعى بها » غير منقوطة ولا بينة، فاختار المصححون لها قراءة لا تحمل معنى ! والضرباء : جمع ضريب ؛ فلان ضريب فلان : نظيره أو مثله .

ثناؤه لهم : وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفارُ من أهل الكتابين ، فى شك — وهو الريب — مما نزّلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان : أنه من عندى ، وأنّى الذى أنزلته إليه ، فلم تُؤمنوا به ولم تصدّقوه فيما يقول ، فأتوا بحجة تدفع حُجته ، لأنكم تعلمون أن حجة كلّ ذى نبوّة على صدقه فى دعواه النبوة : أن يأتى ببرهان يَعجز عن أن يأتىَ بمثله جميعُ الخلق . ومن حجة محمد صلى الله عليه وسلم على صدقه ، وبُرْهانه على حقيقة نبوته[1] ، وأنّ ما جاء به من عندى — عَجزُ جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم ، عن أن تأتوا بسورةٍ من مثله. وإذا عَجزتم عن ذلك — وأنتم أهل البراعة فى الفصاحة والبلاغة والذَّرابة[2] — فقد علمتم أن غيركم عما عَجزتم عنه من ذلك أعْجزُ . كما كانَ برهانُ من سَلف من رُسلى وأنبيائى على صدْقه ، وحُجتهُ على نبوته من الآيات ، ما يَعجز عن الإتيان بمثله جميعُ خلقى . فيتقرر حينئذ عندكم أنّ محمداً لم يتقوَّله ولم يختلقْه ، لأنّ ذلك لوكان منه اختلاقاً وتقوُّلاً لم تعجزوا وجميع خلقى عن الإتيان بمثله . لأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يَعْدُ أن يكون بَشراً مثلكم ، وفى مثل حالكم فى الجسم وبَسطة الخلق وذرابة اللسان — فيمكن أن يُظنّ به اقتدارٌ على ما عَجزْتم عنه ، أو يتوهم منكم عجزٌ عما اقتدر عليه .

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : « فأتوا بسورَة من مثله » .

٤٩١ — فحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : « فأتوا بسورة من مثله » ، يعنى : من مثل هذا القرآن حَقًّا وصدْقاً ، لا باطل فيه ولا كذب . ١٢٩/١

٤٩٢ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا

---

(١) فى المطبوعة : « وبرهانه على نبوته » .

(٢) فى المطبوعة : « والدراية » ، ولا معنى لها هنا ، وستأتى بعد أسطر على الصواب . والذرابة : الحدة فى كل شىء ، وحدة اللسان وفصاحته ولدده . ذرب الرجل يذرب ذرباً وذرابة : فصح وصار حديد اللسان ، فهو ذرب اللسان (بفتح الذال وكسر الراء) .

معمر، عن قتادة فى قوله: «فأتوا بسورة من مثله»، يقول: بسورة مثلِ هذا القرآن[١].

٤٩٣ـ حدثنى محمد بن عمرو الباهلى، قال: حدثنا أبو عاصم، عن عيسى ابن ميمون، عن عبد الله بن أبى نَجيح، عن مجاهد: «فأتوا بسورة من مثله»، مثلِ القرآن.

٤٩٤ـ حدثنا المثنى، قال: حدثنا أبو حُذيفة، قال: حدثنا شِبل، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، مثله.

٤٩٥ـ حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنى حجاج، عن ابن جُريج، عن مجاهد: «فأتوا بسورة مِن مثله»، قال: «مثله» مثلِ القرآن[٢].

فمعنى قول مجاهد وقتادة الذى ذكرنا عنهما[٣]: أن الله جلّ ذكره قال لمن حاجَّه فى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار: فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيتها العرب، كما أتى به محمد بلغاتكم ومعانى منطقكم.

وقد قال قوم آخرون: إن معنى قوله: «فأتُوا بسورة من مثله»، من مثل محمد من البشر، لأن محمداً بشر مثلكم[٤].

قال أبو جعفر: والتأويل الأول، الذى قاله مجاهد وقتادة، هو التأويل الصحيح. لأن الله جل ثناؤه قال فى سورة أخرى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ [سورة يونس: ٣٨]، ومعلومٌ أنّ السورة ليست لمحمد بنظير ولا شبيه، فيجوزَ أنْ يقال: فأتُوا بسورة مثل محمد.

فإن قال قائل: فإنك ذكرتَ أن الله عنى بقوله[٥]: «فأتوا بسورة من مثله»،

---

(١) الأثر ٤٩٢ ـ فى الدر المنثور ١: ٣٥، والشوكانى ١: ٤٠.

(٢) الآثار ٤٩٣ ـ ٤٩٥ فى الدر المنثور ١: ٣٥، والشوكانى ١: ٤٠، وابن كثير ١: ١٠٨.

(٣) فى المطبوعة: «اللذين ذكرنا عنهما».

(٤) يعنى فأتوا بسورة من عند بشر مثل محمد.

(٥) فى المطبوعة: «إنك ذكرت»، بغير فاء.

من مثل هذا القرآن ، فهل للقرآن من مثل فيقال : ائتوا بسورة من مثله ؟

قيل : إنه لم يعنِ به : ائتوا بسورة من مثله فى التأليف والمعانى التى باينَ بها سائرَ الكلام غيرَه ، وإنما عنى : ائتوا بسورة من مثله فى البيان ، لأنّ القرآن أنزله الله بلسان عربىّ ، فكلام العرب لا شك له مثلٌ فى معنى العربية . فأمّا فى المعنى الذى باين به القرآن سائرَ كلام المخلوقين ، فلا مثلَ له من ذلك الوجه ولا نظيرَ ولا شبيه .

وإنما احتجّ الله جلّ ثناؤه عليهم لنبيه صلى الله عليه وسلم بما احتج به لهُ عليهم من القرآن[1] ، إذْ ظهر عجز القوم عن أن يأتوا بسورة من مثله فى البيان ، إذْ كان القرآن بياناً مثلَ بيانهم ، وكلاماً نزل بلسانهم ، فقال لهم جلّ ثناؤه : وإن كنتم فى رَيب من أنّ ما أنزلتُ على عَبدى من القرآن من عندى ، فأتوا بسورة من كلامكم الذى هو مثلُه فى العربية ، إذْ كنتم عرباً ، وهو بيانٌ نظيرُ بيانكم ، وكلامٌ شبيهُ كلامِكم . فلم يكلفهم جل ثناؤه أن يأتوا بسورة من غير اللسان الذى هو نظيرُ اللسان الذى نزل به القرآن ، فيقدِرُوا أن يقولُوا : كلفتنا ما لو أحسنَّاه أتينا به ، وإنا لا نقدر على الإتيان به لأنا لسنا من أهل اللسان الذى كلفتنا الإتيان به ، فليس لك علينا بهذا حجة[2]. لأنا — وإن عَجزنا عن أن نأتى بمثله من غير ألسنتنا لأنّا لسنا من أهله[3]— ففى الناس خلقٌ كثير من غير أهل لساننا يقدرُ على أن يأتىَ بمثله من اللسان الذى كلفتنا الإتيان به . ولكنه جل ثناؤه قال لهم : ائتوا بسورة من مثله ، لأن مثله من الألسن ألسنكم[4]. وأنتم — إن كان محمدٌ اختلقه وافتراه ، إذا اجتمعتم وتظاهرتُم على الإتيان بمثل سورة منه من لسانكم وبيانكم —

---

(١) فى المطبوعة : « بما احتج له عليهم » ، أسقط « به » .

(٢) فى المطبوعة : « حجة بهذا » على التأخير .

(٣) فى المطبوعة : « لسنا بأهله » .

(٤) فى المطبوعة : « ألسنتكم » .

أقدرُ على اختلاقه ورَصْفِه وتأليفه من محمد صلى الله عليه وسلم[1]، وإن لم تكونوا أقدرَ عليه منه ، فلن تعجزوا — وأنتم جميعٌ — عما قدَر عليه محمدٌ من ذلك وهو وحيدٌ[2] ، إن كنتم صادقين فى دعواكم وزعمكم أنّ محمداً افتراه واختلقه ، وأنه من عند غيرى .

* * *

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : ﴿ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فقال ابن عباس بما :

١٣٠/١

٤٩٦ — حدثنا به محمد بن حميد، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ، عن ابن عباس : « وَادعوا شُهداءكم من دون الله »، يعنى أعوانكم على ما أنتم عليه ، إن كنتم صادقين .

٤٩٧ — حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : « وادعوا شُهداءَكم »، ناس يَشهدون .

٤٩٨ — حدثنى المثنى ، قال: حدثنا أبو حذيفة ، قال: حدثنا شبل ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، مثله .

٤٩٩ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، قال : قوم يشهدون لكم .

---

(١) يقول : «وأنتم . . . أقدر على اختلاقه . . . » ، مبتدأ وخبر ، وما بينهما فصل . وفى المطبوعة مكان « ورصفه » ، « ووضعه » . والرصف : ضم الشىء بعضه إلى بعض ونظمه وإحكامه حتى يستوى . ومنه : كلام رصيف : أى محكم لا اختلاف فيه .

(٢) فى المطبوعة « وهو وحده » ، وهذه أجود .

٥٠٠ — حدثنا القاسم، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جُريج ، عن مجاهد : « وادعوا شهداءكم » ، قال : ناس يشهدون . قال ابن جُريج : « شهداءكم » عليها إذا أتيتم بها — أنها مثلُه ، مثل القرآن[١] .

وذلك قول الله لمن شكَّ من الكفار فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله « فادعوا » ، يعني : استنصروا واستغيثوا[٢] ، كما قال الشاعر :

فَلَمَّا التقت فُرْسانُنَا ورجالُهُم دَعَوْا: يا لَكَعْبٍ! واعتَزَيْنا لِعَامِرِ[٣]

يعني بقوله : « دعوْا يالكعب » ، استنصرُوا كعباً واستغاثوا بهم[٤] .

وأما الشهداء ، فإنها جمعُ شهيد ، كما الشركاء جمع شريك[٥] ، والخطباء جمع خطيب . والشهيد يسمى به الشاهدُ على الشيء لغيره بما يحقِّق دعواه . وقد يسمَّى به المشاهِدُ للشيء ، كما يقال : فلان جليسُ فلان — يعني به مُجالسَه ، ونديمه — يعني به منادِمَه ، وكذلك يقال : شهيده — يعني به مُشاهِدَه .

فإذا كانت « الشهداء » محتملةً أن تكون جمعَ « الشهيد » الذي هو منصرف للمعنيين اللذين وصفتُ ، فأولى وجهيه بتأويل الآية ما قاله ابن عباس ، وهو أن يكون معناه : واستنصروا على أن تأتوا بسورة من مثله أعوانَكم وشُهداءَكم الذين يُشاهدونكم ويُعاونونكم على تكذيبكم الله ورسوله ، ويُظاهرونكم على كفركم ونفاقكم ، إن كنتم مُحقِّين في جُحودكم أنّ ما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم اختلاق وافتراء ، لتمتحنوا أنفسكم وغيرَكم : هل تقدرون على أن تأتوا بسورة من

---

(١) الآثار ٤٩٦ — ٥٠٠ : في ابن كثير ١ : ١٠٨ بعضها ، والدر المنثور ١ : ٣٥ ، والشوكاني ١ : ٤٠ ، وفي المخطوطة في بعض المواضع : « أناس » مكان « ناس » ، وهما سواء .

(٢) في المطبوعة : « واستعينوا » ، وهما متقاربتان ، والأولى أجود ، وهي كذلك في معاني القرآن للفراء ١ : ١٩ .

(٣) البيت للراعي النميري ، اللسان (عزا) . واعتزى : انتسب ، ودعا في الحرب بمثل قوله : يا لفلان ، أو يا للمهاجرين ، أو يا للأنصار ، والاسم العزاء والعزوة ، وهي دعوى المستغيث .

(٤) في المطبوعة : « واستعانوا » ، كما سلف في أختها قبل .

(٥) في المطبوعة : « كالشركاء » .

مثله ، فيقدرَ محمد على أن يأتى بجميعه من قِبَل نفسه اختلاقاً ؟

وأما ما قاله مجاهد وابن جُريج فى تأويل ذلك ، فلا وجه له . لأن القوم كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصنافاً ثلاثة : أهل إيمان صحيح ، وأهل كفر صحيح ، وأهلَ نفاق بين ذلك . فأهل الإيمان كانوا بالله وبرسوله مؤمنين ، فكان من المحال أن يدّعى الكفار أن لهم شُهداء — على حقيقة ما كانوا يأتون به ، لو أتوا باختلاق من الرسالة ، ثم ادّعوا أنه للقرآن نَظير — من المؤمنين [١]. فأما أهلُ النفاق والكفر ، فلا شكّ أنهم لو دُعُوا إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق لتتارعوا إليه مع كفرهم وضَلالهم [٢] ، فمن أى الفريقين كانت تكون شُهداؤهم لو ادعوْا أنهم قد أتوْا بسورة من مثل القرآن [٣] ؟

ولكنْ ذلك كما قال جل ثناؤه : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٨٨] ، فأخبر جل ثناؤه فى هذه الآية ، أنّ مثل القرآن لا يأتى به الجنّ والإنس ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيان به ، وتحدّاهم بمعنى التوبيخ لهم فى سورة البقرة فقال تعالى : « وإنْ كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إنْ كنتم صادقين » . يعنى بذلك : إن كنتم فى شكّ فى صدق محمد فيما جاءكم به من عندى أنه من عندى ، فأتوا بسورة ١٣١/١

(١) قوله « من المؤمنين » متعلق بقوله آنفاً « أن لهم شهداء . . . » ، يعنى شهداء من المؤمنين . ثم فصل ، لأن قوله « على حقيقة ما كانوا يأتون به . . . » متعلق أيضاً ، بشهداء .

(٢) فى المطبوعة : « لسارعوا إليه مع كفرهم وضلالهم » . وتترع إلى الشيء : تسرع إليه ، يقال فى التسرع إلى الشر وما لا ينبغى . وما فى المخطوطة « تتارعوا » صحيح فى اشتقاق العربية ، وإن لم تذكره المعاجم ، وهو مثل تسرع وتسارع ، سواء .

(٣) فى المطبوعة « فمن أى الفرق . . . » ، وكلام الطبرى استفهام واستنكار . لأن من المحال أن يشهد المؤمنون على هذا الباطل ، والكفار وأهل النفاق يتسرعون إلى الشهادة بالباطل لإبطال الحق ، فكان محالا أن يكون معنى « الشهداء » هنا : الذين يشهدون لهم ، أن ما جاءوا به نظير ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى . وصار حتما أن يكون معنى « الشهداء » : الذين يظاهرونهم ويعاونونهم ، كما جاء فى الآية التالية .

من مثله ، وليستنصر بعضُكم بعضاً على ذلك إن كنتم صادقين فى زعمكم ، حتى تعلموا أنكم إذْ عَجزتم عن ذلك — أنّه لا يقدر على أن يأتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا من البشر أحدٌ ، ويَصحَّ عندكم أنه تنزيلى وَوحيى إلى عبدى .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾

قال أبو جعفر: يعنى تعالى ذكره بقوله: « فإن لم تفعلوا »، إن لم تأتوا بسورة من مثله، فقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم[1]، فتبين لكم بامتحانكم واختباركم عَجزكم وَعجزُ جميع خلقى عنه ، وعلمتم أنه من عندى، ثم أقمتم على التكذيب به .

وقوله: « ولن تفعلوا »، أى لن تأتوا بسورة من مثله أبداً .

٥٠١ — كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال: حدثنا يزيد، عن سعيد ، عن قتادة: « فإن لم تفعلوا ولنْ تفعلوا » ، أى لا تقدرون على ذلك ولا تطيقونه[2] .

٥٠٢ — حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد ابن أبى محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » ، فقد بين لكم الحق[3] .

---

(١) فى المطبوعة : « وقد تظاهرتم » ، وما فى المخطوطة أجود ، وسيأتى بعد قليل بيان ذلك .

(٢) الأثر ٥٠١ — ذكره السيوطى ١ : ٣٥ بنحوه ، ونسبه لعبد بن حميد وابن جرير . وكتب فيه خطأً مطبعياً « ابن جريج » .

(٣) الأثران ٥٠١ ، ٥٠٢ — فى الدر المنثور ١ : ٣٥ ، والشوكانى ١ : ٤٠ . ولفظ الطبرى فى تفسير هذه الآية وفى التى تليها ، وما استدل به من الأثر الأخير ، يدل على أنه يرى أن جواب الشرط محذوف ، لأنه معلوم قد دل عليه السياق ؛ وجواب الشرط « فقد بين لكم الحق ، وأقمتم على التكذيب به وبرسولى » ، ثم قال مستأنفاً : « فاتقوا أن تصلوا النار بتكذيبكم رسولى ، أنه جاءكم بوحيى وتنزيلى ، بعد أن تبين لكم أنه كتابى ومن عندى » .

و لم أجد من تنبه لهذا غير الزمخشرى ، فإنه قال فى تفسير الآية من كتابه « الكشاف » ما نصه : « فإن قلت : ما معنى اشتراطه فى اتقاء النار ، انتفاء إتيانهم بسورة من مثله ؟ قلت : إنهم إذا لم يأتوا بها ،

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله « فاتقوا النار » ، يقول : فاتقوا أن تَصْلَوُا النار بتكذيبكم رسولى بما جاءكم به من عندى أنه من وحيى وتنزيلى ، بعدَ تبيُّنكم أنه كتابى ومن عندى ، وقيام الحجة عليكم بأنه كلامى ووحيى ، بعجزكم وعجز جميع خلقى عن أن يأتوا بمثله .

ثم وصف جل ثناؤه النارَ التى حذرهم صِلِيَّها فأخبرهم أنّ الناس وَقودها ، وأن الحجارة وَقُودها ، فقال : « التى وَقودها الناس والحجارة » ، يعنى بقوله : « وَقُودُها » حطبها ، والعرب تجعله مصدراً وهو اسم ، إذا فتحت الواو ، بمنزلة الحطب . فإذا ضَمت الواو من « الوقود » كان مصدراً من قول القائل : وَقَدَت النارُ فهى تَقِد وُقوداً وقِدَة ووَقَداناً وَوَقْداً ، يراد بذلك أنها التهبتْ .

فإن قال قائل : وكيف خُصَّت الحجارة فقرنت بالناس ، حتى جعلت لنار جهنم حطباً ؟

وتبين عجزهم عن المعارضة ، صح عندهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا صح عندهم صدقه ، ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا ، استوجبوا العقاب بالنار . فقيل لهم : إن استبنتم العجز فاتركوا العناد . فوضع « فاتقوا النار » موضعه ، لأن اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد ، من حيث إنه من نتائجه . لأن من اتقى النار ترك المعاندة . ونظيره أن يقول الملك لحشمه : « إن أردتم الكرامة عندى ، فاحذروا سخطى » . يريد : فأطيعونى واتبعوا أمرى ، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط . وهو من باب الكناية التى هى شعبة من شعب البلاغة . وفائدته : الإيجاز ، الذى هو حلية القرآن ، وتهويل شأن العناد ، بإنابة اتقاء النار منابه ، وإبرازه فى صورته ، مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها » .

فقد تبين بهذا مراد الطبرى ، وأنه أراد أن يبين أن اتقاء النار غير داخل فى الشرط ، ولا هو من جوابه ، ليخرج بذلك من أن يكون معنى الكلام : قصر اتقائهم النار ، على عجزهم عن الإتيان بمثله . وتفسير الآتى دال على هذا المعنى تمام الدلالة . وهو من دقيق نظر الطبرى رحمه الله وغفر للزمخشرى .

قيل : إنها حجارةُ الكبريت ، وهى أشد الحجارة — فيما بلغنا — حرًّا إذا أحميت .

٥٠٣ — كما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن مسعر ، عن عبد الملك بن مَيسرة الزرّاد ، عن عبد الرحمن بن سَابط ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ، فى قوله : « وقُودها الناس والحجارة » ، قال : هى حجارة من كبريت ، خَلقها الله يومَ خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا ، يُعدّها للكافرين .

٥٠٤ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزّاق ، قال : أنبأنا ابن عُيينة ، عن مِسعر ، عن عبد الملك الزرّاد ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن مسعود فى قوله : « وقودها الناسُ والحجارة » ، قال : حجارة الكبريت ، جعلها الله كما شاء[1] .

---

(١) الخبر ٥٠٣ ، ٥٠٤ — مسعر ، بكسر الميم وسكون السين وفتح العين المهملتين : هو ابن كدام — بكسر الكاف وتخفيف الدال ، وهو ثقة معروف ، أحد الأعلام . عبد الملك بن مَيسرة الهلالى الكوفى الزراد ، نسبة إلى عمل الزرود : ثقة كثير الحديث ، من صغار التابعين . عبد الرحمن بن سابط الجمحى المكى : تابعى ثقة . عمرو بن ميمون الأودى : من كبار التابعين المخضرمين ، كان مسلماً فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يره .

وهذا الخبر رواه الطبرى بهذين الإسنادين وبالإسناد الآتى : ٥٠٧ . وفى الأول والثالث أن عبد الملك ابن ميسرة يرويه عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون ، وفى الثانى : ٥٠٤ « عبد الملك الزراد عن عمرو بن ميمون » مباشرة ، بحذف « عبد الرحمن بن سابط » . ولو كان هذا الإسناد وحده لحمل على الاتصال ، لوجود المعاصرة ، فإن عبد الملك الزراد يروى عن ابن عمر المتوفى سنة ٧٤ ، وعمرو بن ميمون مات سنة ٧٤ أو ٧٥ . ولكن هذين الإسنادين : ٥٠٣ ، ٥٠٤ دلا على أنه إنما رواه عن عبدالرحمن ابن سابط عن عمرو بن ميمون .

والخبر رواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٦١ ، من طريق محمد بن عبيد عن مسعر عن عبد الملك الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود . فهذه طريق ثالثة تؤيد الطريقين اللذين فيهما زيادة عبد الرحمن فى الإسناد . وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى . وذكره ابن كثير ١ : ١١٠ — ١١١ من رواية الطبرى ، ونسبه لابن أبى حاتم والحاكم ، ونقل تصحيحه إياه ولم يتعقبه . وذكره السيوطى ١ : ٣٦ وزاد نسبته إلى : عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، والفريابى ، وهناد بن السرى فى كتاب الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى الشعب .

٥٠٥ — حدثني موسى بن هرون، قال : حدثنا عمرو بن حماد، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّي في خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار التي وَقودُها الناس والحجارة »، أما الحجارة ، فهي حجارةٌ في النار من كِبْريت أسوَد ، يُعذبون به مع النار[1] .

٥٠٦ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جُريج في قوله : « وقودها الناس والحجارة »، قال : حجارة من كبريت أسودَ في النار ، قال : وقال لي عمرو بن دينار : حجارةٌ أصلب من هذه وأعظم[2] .

٥٠٧ — حدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، عن مسعر ، عن عبد الملك ابن مَيسرة ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : حجارةٌ من الكبريت خَلقها الله عنده كيفَ شاء وكما شاء[3] .

* * *

القول في تأويل قوله : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)

١٣٢/١ قد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا ، على أن « الكافر » في كلام العرب ، هو الساتر شيئاً بغطاء[4] ، وأن الله جل ثناؤه إنما سمى الكافر كافراً، لجحوده آلاءه عنده ، وتغطيته نَعماءَه قِبَلَه .

فمعنى قوله إذاً: « أعدت للكافرين »، أعدّت النارُ للجاحدين أنّ الله رَبَّهم المتوحِّدُ بخلقهم وخلق الذين من قبلهم، الذي جَعل لهم الأرض فراشاً ، والسماء

(١) الخبر ٥٠٥ — ذكره ابن كثير ١ : ١١١ دون أن ينسبه ، والسيوطي ١ : ٣٦ ، ونسبه لابن جرير وحده .
(٢) الأثر ٥٠٦ — في ابن كثير ١ : ١١١ دون نسبة .
(٣) الخبر ٥٠٧ — سبق تفصيل إخراجه مع ٥٠٣ ، ٥٠٤ .
(٤) انظر ما مضى : ٢٥٥ .

بناءً ، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم — المشركينَ معه فى عبادته الأندادَ والآلهة[١] ، وهو المتفرد لهم بالإنشاء ، والمتوحِّد بالأقوات والأرزاق[٢] .

٥٠٨ — كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ، عن ابن عباس : « أعدت للكافرين » ، أى لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر[٣] .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾

قال أبو جعفر : أما قوله تعالى : « وبشِّر » ، فإنه يعنى : أخبرهم . والبشارة أصلها الخبرُ بما يُسَرُّ به المخبَرُ ، إذا كان سابقاً به كل مخبِرٍ سواه .

وهذا أمر من الله تعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم بإبلاغ بشارته خلقَه الذين آمنوا به وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند ربه ، وصدّقوا إيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة ، فقال له : يا محمد ، بشِّرْ من صدّقك أنك رسولى — وأن ما جئتَ به من الهدى والنور فمن عندى ، وحقّق تصديقَه ذلك قولاً بأداء الصالح من الأعمال التى افترضتُها عليه ، وأوجبتُها فى كتابى على لسانك عليه — أنّ له جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خاصةً ، دُون من كذّب بك وأنكرَ ما جئته به من الهدى من عندى وعاندك[٤] ، ودون من أظهر تصديقك[٥] ، وأقرّ

---

(١) قوله « المشركين » من صفة قوله آنفاً : « للجاحدين » .

(٢) فى المخطوطة : « بالأشياء » ، وهو خطأ .

(٣) الخبر ٥٠٨ — فى ابن كثير ١ : ١١١ ، والدر المنثور ١ : ٣٦ ، والشوكانى ١ : ٤١ .

(٤) فى المطبوعة : « ما جئت به من الهدى » .

(٥) فى المخطوطة : « دون من أظهر . . . » بحذف الواو ، وهو قريب فى المعنى .

أنّ ما جئته به فمن عندي قولاً ، وجحده اعتقاداً ، ولم يحققه عملاً . فإن لأولئك النارَ التي وقُودها الناسُ والحجارة ، مُعدةٌ عندي .

والجنات : جمع جنة ، والجنة : البستان .

وإنما عَنى جلّ ذكره بذكر الجنة : ما في الجنة من أشجارها وثمارها وغروسها ، دون أرضها — ولذلك قال عز ذكره[1] : « تجري من تحتها الأنهار » . لأنه معلومٌ أنه إنما أراد جل ثناؤه الخبرَ عن ماء أنهارها أنه جارٍ تحت أشجارها وغروسها وثمارها ، لا أنه جارٍ تحت أرضها . لأن الماء إذا كان جارياً تحت الأرض ، فلا حظّ فيها لعيون مَنْ فوقها إلا بكشف الساتر بينها وبينه . على أنّ الذى تُوصف به أنهارُ الجنة ، أنها جارية في غير أخاديد .

٥٠٩ — كما حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا الأشجعي ، عن سفيان ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي عُبيدة ، عن مسروق ، قال : نخل الجنة نَضيدٌ من أصلها إلى فرعها ، وثمرها أمثالُ القِلال ، كلما نُزعت ثمرة عادتْ مكانها أخرى ، وماؤها يجري في غير أخدود[2] .

٥١٠ — حدثنا مجاهد [بن موسى] ،[3] قال : حدثنا يزيد ، قال : أخبرنا مِسعر بن كدام ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي عُبيدة ، بنحوه .

٥١١ — وحدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا ابن مهدي ، قال : حدثنا سفيان ، قال : سمعت عمرو بن مرة يحدث ، عن أبي عبيدة — فذكر مثله — قال : فقلت لأبي عُبيدة : من حدّثك ؟ فغضب ، وقال : مسروق .

---

(١) في المطبوعة : « فلذلك قال . . . » ، وما في المخطوطة أجود .

(٢) الأثر ٥٠٩ — في الدر المنثور ١ : ٣٨ . وقال ابن كثير في تفسيره ١ : ١١٣ : « وقد جاء في الحديث أن أنهارها تجري في غير أخدود » ، ولم يبين ، وانظر ما سيأتي رقم : ٥١٧

(٣) الإسناد ٥١٠ — الزيادة بين القوسين من المخطوطة ، وهو مجاهد بن موسى بن فروخ الخوارزمي ، أبو علي الختلي (بضم ففتح) ، وثقه ابن معين والنسائي وغيرهما . مترجم في التهذيب ، وترجمه البخاري في الكبير ٤ / ١ / ٤١٣ ، والصغير : ٢٤٥ ، والخطيب في تاريخ بغداد ١٣ : ٢٦٥ — ٢٦٦ وابن الأثير في اللباب ١ : ٣٤٥ . مات مجاهد هذا في رمضان سنة ٢٤٤ . وشيخه يزيد : هو يزيد بن هرون.

فإذا كان الأمر كذلك ، فى أنّ أنهارَها جارية فى غير أخاديد ، فلا شكّ أنّ الذى أريدَ بالجنات : أشجارُ الجنات وغروسها وثمارها دون أرضها ، إذ كانت أنهارُها تجرى فوق أرضها وتحتَ غروسها وأشجارها ، على ما ذكره مسروق . وذلك أولى بصفة الجنة من أن تكون أنهارها جاريةً تحت أرضها .

وإنما رغَّب الله جل ثناؤه بهذه الآية عبادَه فى الإيمان ، وحضّهم على عبادته بما أخبرهم أنه أعدّه لأهل طاعته والإيمان به عنده ، كما حذّرهم فى الآية التى قبلها بما أخبر من إعداده ما أعدّ — لأهل الكفر به ، الجاعلين معه الآلهةَ والأنداد — من عقابه عن إشراك غيره معه ، والتعرّض لعقوبته بركوب معصيته وتَرك طاعته[1] . ١٣٣/١

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَٰبِهًا ﴾

قال أبو جعفر : يعنى تعالى ذكره بقوله : « كلما رُزقوا منها » : من الجنات ، والهاء راجعةٌ على الجنات ، وإنما المعنىّ أشجارها ، فكأنه قال : كلما رُزقوا — من أشجار البساتين التى أعدّها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جناته — من ثمرة من ثمارها رزقاً قالوا : هذا الذى رُزقنا من قبل .

ثم اختلف أهلُ التأويل فى تأويل قوله: « هذا الذى رُزقنا من قَبل » .

فقال بعضهم : تأويل ذلك : هذا الذى رُزقنا من قبل هذا فى الدنيا .

ذكر من قال ذلك :

٥١٢ — حدثنى موسى بن هرون، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا

---

(١) فى المخطوطة : « والتفريق لعقوبته » ، ولا معنى لها .

أسباط ، عن السُّدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، قالوا: «هذا الذى رُزقنا من قبل» ، قال: إنهم أتوا بالثمرة فى الجنة، فلما نظروا[1] إليها قالوا : هذا الذى رزقنا من قبلُ فى الدنيا .

٥١٣ — حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُريع ، عن سعيد ، عن قتادة : «قالوا هذا الذى رُزقنا من قبل» ، أى فى الدنيا .

٥١٤ — حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : «قالوا هذا الذى رزقنا من قبل» ، يقولون : ما أشبهه به .

٥١٥ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

٥١٦ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد : «قالوا هذا الذى رزقنا من قَبل» ، فى الدنيا ، قال: «وأتوا به مُتشابهاً» ، يعرفونه[2] .

قال أبو جعفر : وقال آخرون : بل تأويلُ ذلك : هذا الذى رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا ، لشدة مشابهة بعض ذلك فى اللون والطعم بعضاً . ومن علة قائلى هذا القول : أن ثمار الجنة كلما نزع منها شىءٌ عاد مكانه آخرُ مثله .

٥١٧ — كما حدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا ابن مهدى ، قال: حدثنا سفيان ، قال : سمعت عمرو بن مُرّة يحدث ، عن أبى عُبيدة ، قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرُها مثل القلال ، كلما نُزعت منها ثمرةٌ عادتْ مكانها أخرى[3] .

---

(١) فى الدر المنثور : «فينظروا» ، وفى الشوكانى : «فنظروا» ، وكذلك فى المخطوطة .

(٢) الآثار ٥١٢ — ٥١٦ : فى تفسير ابن كثير ١ : ١١٣ — ١١٤ ، والدر المنثور ١ : ٣٨ ، والشوكانى ١ : ٤٢ .

(٣) انظر الآثار السالفة رقم: ٥٠٩ — ٥١١ . وفى المخطوطة : «أمثال القلال» كما مر آنفاً .

قالوا : فإنما اشتبهت عند أهل الجنة ، لأن التي عادت ، نظيرةُ التي نُزعت فأكِلت ، في كل معانيها. قالوا : ولذلك قال الله جل ثناؤه : « وأتوا به متشابهاً » ، لاشتباه جميعه في كل معانيه .

وقال بعضهم : بل قالوا : « هذا الذي رزقنا من قبل » ، لمشابهته الذي قبله في اللون ، وإن خالفه في الطعم .

ذكر من قال ذلك :

٥١٨ — حدثنا القاسم بن الحسين ، قال : حدثنا الحسين بن داود ، قال : حدثنا شيخ من المِصِّيصة ، عن الأوزاعي ، عن يحيي بن أبي كثير ، قال : يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها ، ثم يؤتى بأخرى فيقول : هذا الذي أتينا به من قبل . فيقول الملَك : كُلْ ، فاللونُ واحد والطعمُ مختلف[1] .

وهذا التأويل مذهب من تأوّل الآية . غير أنه يدفَع صحته ظاهرُ التلاوة . والذي يدل على صحته ظاهرُ الآية ويحقق صحته ، قول القائلين : إن معنى ذلك : هذا الذي رزقنا من قبلُ في الدنيا . وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال : « كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً » ، فأخبر جل ثناؤه أنّ مِنْ قِيل أهل الجنة كلما رزقوا من ثمر الجنة رزقاً ، أن يقولوا : هذا الذي رُزقنا من قبلُ . ولم يخصص بأن ذلك من قِيلهم في بعض ذلك دون بعض . فإذْ كان قد أخبر جلّ ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم في كل ما رزقوا من ثمرها ، فلا شكّ أن ذلك من قيلهم ١٣٤/١ في أول رزق رُزقوه من ثمارها أتُوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها ، الذي لم يتقدّمه عندهم من ثمارها ثمرة . فإذْ كان لا شك أنّ ذلك من قَيلهم في أوله ، كما هو من قيلهم في أوْسطه ومَا يَتلوه[2] — فمعلومٌ أنه مُحال أن يكون من قيلهم لأول رزق رُزقوه من ثمار الجنة : هذا الذي رُزقنا من قبل هذا من ثمار

---

(١) الأثر ٥١٨ — في ابن كثير ١ : ١١٤ ، والدر المنثور ١ : ٣٨ .

(٢) في المطبوعة : « في وسطه » .

الجنة ! وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق رُزقوه من ثمارها ولمَّا يتقدمه عندهم غيره: هذا هو الذى رُزقناه من قبل ؟ إلا أن ينسُبهم ذو غَبيَّة وضَلال إلى قيل الكذب الذى قد طهرهم الله منه[1] ، أو يدفعَ دافعٌ أن يكونَ ذلك من قيلهم لأول رزق رُزقوه منها من ثمارها ، فيدفعَ صحة ما أوجب الله صحّته بقوله : « كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً » ، من غير نَصْب دلالة على أنه معنىّ به حالٌ من أحوالهم دون حال .

فقد تبيّن بما بيّنا أنّ معنى الآية : كلما رُزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ثمرة من ثمار الجنة فى الجنة رزقاً قالوا : هذا الذى رُزقنا من قبل هذا فى الدنيا[2] .

فإن سألنا سائل ، فقال : وكيف قال القوم : هذا الذى رُزقنا من قبل ، والذى رُزقوه من قبل قد عُدم بأكلهم إياه ؟ وكيف يجوز أن يقول أهل الجنة قولاً لا حقيقة له ؟

قيل : إنّ الأمر على غير ما ذهبتَ إليه فى ذلك . وإنما معناه : هذا من النوع الذى رُزقناه من قَبل هذا ، من الثمار والرزق . كالرجل يقول لآخر : قد أعدّ لك فلانٌ من الطعام كذا وكذا من ألوان الطبيخ والشواء والحلوى . فيقول المقول له ذاك : هذا طعامى فى منزلى . يعنى بذلك : أن النوع الذى ذكر له صاحبه أنه أعدّه له من الطعام هو طعامُه ، لا أنّ أعيانَ ما أخبره صاحبه أنه قد أعده له ، هو طعامه . بل ذلك مما لا يجوز لسامع سَمعه يقول ذلك ، أن يتوهم أنه أراده أو قصدَه ، لأن ذلك خلافُ مَخرَج كلام المتكلم . وإنما يوجَّه كلام كلّ متكلم إلى المعروف فى الناس من مخارجه ، دون المجهول من معانيه . فكذلك ذلك فى قوله : « قالوا هذا الذى رُزقنا من قبل » ، إذ كان ما كانوا رُزقوه من قبل قد فنى وعُدِم . فمعلوم أنهم عَنَوْا بذلك : هذا من النوع الذى رُزقناه من قبل ، ومن جنسه

(١) فى المطبوعة مكان قوله : « ذو غبية » ، « ذو غرة » ، وفى المخطوطة : « ذو عته » . والعته : نقص العقل ، أو الجنون ، وأجودهن ما أثبته عن كتاب حادى الأرواح لابن قيم الجوزية ١ : ٢٦٨ ، حيث نقل نص الطبرى .

(٢) هذا التفصيل الذى ذكره الطبرى من جيد النظر فى معانى الكلام .

فى السِّمات والألوان(١) — على ما قد بينا من القول فى ذلك فى كتابنا هذا(٢) .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَٰبِهًا ﴾ .

قال أبو جعفر : والهاء فى قوله : « وأتـوا به مُتشابهاً » عائدة على الرزق، فتأويله : وأتوا بالذى رُزقوا من ثمارها متشابهاً .

وقد اختلفَ أهلُ التأويل فى تأويل « المتشابه » فى ذلك :

فقال بعضهم : تشابهه أنَّ كله خيار لا رَذْلَ فيه .

ذكر من قال ذلك :

٥١٩ — حدثنا خلاد بن أسلم ، قال : أخبرنا النضر بن شُميل، قال : أخبرنا أبو عامر ، عن الحسن فى قوله: « متشابهاً » قال : خياراً كُلُّها لا رَذل فيها .

٥٢٠ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابنعُلَيَّة، عنأبى رَجاء: قرأ الحسنُ آيات من البقرة، فأتى على هذه الآية: « وأتُوا به مُتشابهاً » قال : ألم تَروْا إلى ثمار الدنيا كيف تُرذِلُون بعضَه ؟ وإن ذلك ليس فيه رَذْل .

٥٢١ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبدالرزاق، قال: أخبرنا معمر، قال : قال الحسن : «وأتوا به متشابهاً» قال: يشبه بعضه بعضاً، ليس فيه من رَذْل(٣) . ١٣٥/١

٥٢٢ — حدثنا بشر، قال : حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة : « وأتوا به

---

(١) فى المطبوعة : « فى التسميات والألوان » ، وهو خطأ .

(٢) يعنى بذلك الذى تقدم ، معنى قوله : « وإنما يوجه كلام كل متكلم إلى المعروف فى الناس من مخارجه ، دون المجهول من معانيه » ، وقد مضى ذكر ذلك فى ص ٣٨٨ هذا ، وقد وقع فى المطبوعة خطأ بين ، فقد وضع فى هذا المكان ما نقلناه إلى حق موضعه فى ص ٣٩٤ من أول قوله : « وقد زعم بعض أهل العربية . . . » إلى قوله : « بخروجه عن قول جميع أهل العلم ، دلالة على خطئه » .

(٣) فى المطبوعة : « ليس فيه مرذول » .

متشابهاً » ، أي خياراً لا رَذلَ فيه ، وإن ثمار الدنيا يُنقَّى منها ويُرْذَل منها ، وثمار الجنة خيارٌ كله ، لا يُرْذَل منه شيء .

٥٢٣ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جُريج . قال : ثمر الدنيا منه ما يُرْذَل ، ومنه نَقاوَةٌ ، وثمرُ الجنة نقاوة كله ، يشبه بعضُه بعضاً في الطيب ، ليس منه مرذول[1] .

* * *

وقال بعضهم : تشابُهه في اللون وهو مختلف في الطعم .

ذكر من قال ذلك :

٥٢٤ — حدثني موسى ، قال حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السُّدّي في خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « وأتوا به متشابهاً » في اللَّوْن والمرْأى ، وليس يُشبه الطعمَ .

٥٢٥ — حدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « وأتوا به متشابهاً » مِثلَ الخيار .

٥٢٦ — حدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبو حُذيفة ، قال : حدثنا شِبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : وأتوا به متشابهاً لونه مختلفاً طعمُه ، مثلَ الخيار من القِثّاء .

٥٢٧ — حُدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « وأتوا به متشابهاً » ، يشبه بعضه بعضاً ويختلف الطعم .

٥٢٨ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أنبأنا الثوري ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله : متشابهاً ، قال : مشتبهاً في اللون ، ومختلفاً في الطعم .

---

(١) الآثار : ٥١٩ — ٥٢٣ بعضها في الدر المنثور ١ : ٣٨ ، وبعضها في الشوكاني ١ : ٤٢ .

٥٢٩ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : « وأتوا به متشابهاً » ، مثل الخيار[1] .

* * *

وقال بعضهم : تشابُهه في اللون والطعم .

ذكر من قال ذلك :

٥٣٠ — حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، قوله : « متشابهاً » قال : اللونُ والطعمُ .

٥٣١ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، ويحيى بن سعيد : « متشابهاً » قالا : في اللون والطعم .

* * *

وقال بعضهم : تشابهه ، تشابه ثمر الجنة وثمر الدنيا في اللون ، وإن اختلف طعومهما .

ذكر من قال ذلك :

٥٣٢ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة : « وأتوا به متشابهاً » قال : يشبه ثمر الدنيا ، غيرَ أن ثمر الجنة أطيب .

٥٣٣ — حدثنا المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : قال حفص بن عمر ، قال : حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة في قوله : « وأتوا به متشابهاً » ، قال : يشبه ثمر الدنيا ، غير أن ثمر الجنة أطيبُ .

* * *

وقال بعضهم : لا يُشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا ، إلا الأسماء .

ذكر من قال ذلك :

٥٣٤ — حدثني أبو كريب ، قال : حدثنا الأشجعيّ — ح — وحدثنا محمد

---

(١) الآثار : ٥٢٤ — ٥٢٩ بعضها في ابن كثير ١ : ١١٤ — ١١٥ ، والدر المنثور ١ : ٣٨ ، والشوكاني ١ : ٤٢ .

ابن بشار ، قال ، حدثنا مؤمَّل ، قالاجميعاً : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى ظَبْيَان ، عن ابن عباس — قال أبو كريب فى حديثه عن الأشجعى — : لا يشبه شىءٌ مما فى الجنة ما فى الدنيا ، إلا الأسماء . وقال ابن بشار فى حديثه عن مؤمل ، قال : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء .

٥٣٥ — حدثنا عباس بن محمد ، قال : حدثنا محمد بن عُبيد ، عن الأعمش ، عن أبى ظبيان ، عن ابن عباس ، قال : ليس فى الدنيا من الجنة شىء إلا الأسماء .

٥٣٦ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال : أنبأنا ابن وهب ، قال : قال عبد الرحمن بن زيد ، فى قوله : « وأتوا به متشابهاً » ، قال : يعرفون أسماءه كما كانوا فى الدنيا ، التُّفاح بالتفاح والرُّمان بالرمان ، قالوا فى الجنة : « هذا الذى رزقنا من قبل » فى الدنيا ، « وأتوا به متشابهاً » يعرفونه ، وليس هو مثله فى الطعم[1] .

١٣٦/١ قال أبو جعفر : وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية ، تأويلُ من قال : وأتوا به متشابهاً فى اللون والمنظر ، والطعمُ مختلف . يعنى بذلك اشتباهَ ثمر الجنة وثمر الدنيا فى المنظر واللون ، مختلفاً فى الطعم والذوق ، لما قدّمنا من العلة فى تأويل قوله : « كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رُزقنا من قبل » وأن معناه : كلما رُزقوا من الجِنان من ثمرة من ثمارها رزقاً قالوا : هذا الذى رُزقنا من قبل هذا فى الدنيا : فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا ذلك ، ومن أجل أنهم أتُوا بما أتوا به من ذلك فى الجنة متشابهاً ، يعنى بذلك تشابهَ ما أتوا به فى الجنة منه ، والذى كانوا رُزقوه فى الدنيا ، فى اللون والمرأى والمنظر ، وإن اختلفا فى الطعم والذوق ، فتباينا ، فلم يكن لشىء مما فى الجنة من ذلك نظير فى الدنيا .

وقد دللنا على فساد قول من زعم أنّ معنى قوله : « قالوا هذا الذى رزقنا من قبل » ، إنما هو قول من أهل الجنة فى تشبيههم بعضَ ثمر الجنة ببعض[2] . وتلك الدّلالة

---

(١) الآثار : ٥٣٠ — ٥٣٦ بعضها فى الدر المنثور ١ : ٣٨ ، والشوكانى ١ : ٤٢ .

(٢) انظر ما مضى ص ٣٨٧ وما بعدها .

على فساد ذلك القول ، هى الدلالة على فساد قول من خالف قولنا فى تأويل قوله : « وأتوا به متشابهاً » ، لأن الله جل ثناؤه إنما أخبر عن المعنى الذى من أجله قال القوم : « هذا الذى رُزقنا من قبل » بقوله : « وأتوا به متشابهاً » .

ويُسأل من أنكر ذلك[1] ، فزعم أنه غير جائز أن يكون شىء مما فى الجنة نظيراً لشىء مما فى الدنيا بوجه من الوجوه ، فيقال له : أيجوز أن يكون أسماءُ ما فى الجنة من ثمارها وأطعمتها وأشربتها نظائرَ أسماء ما فى الدنيا منها ؟

فإن أنكر ذلك خالف نصَّ كتاب الله ، لأن الله جل ثناؤه إنما عرّف عبادَه فى الدنيا ما هو عنده فى الجنة بالأسماء التى يسمى بها ما فى الدنيا من ذلك .

وإن قال : ذلك جائز ، بل هو كذلك .

قيل : فما أنكرتَ أن يكون ألوانُ ما فيها من ذلك ، نظيرَ ألوان ما فى الدنيا منه[2] ، بمعنى البياض والحمرة والصفرة وسائر صنوف الألوان ، وإن تباينت فتفاضلت بفضل حسن المَرآة والمنظر ، فكان لما فى الجنة من ذلك من البهاء والجمال وحسن المَرآة والمنظر ، خلافُ الذى لما فى الدنيا منه ، كما كان جائزاً ذلك فى الأسماء مع اختلاف المسميات بالفضْل فى أجسامها ؟ ثم يُعكس عليه القول فى ذلك ، فلن يقول فى أحدهما شيئاً إلا ألزم فى الآخر مثله .

وكان أبو موسى الأشعرى يقول فى ذلك بما :

٥٣٧ — حدثنى به ابن بشار ، قال : حدثنا ابن أبى عدىّ ، وعبد الوهاب ، ومحمد بن جعفر ، عن عوف ، عن قَسَامةَ ، عن الأشعرى ، قال : إن الله لما أخرج آدم من الجنة زوّده من ثمار الجنة ، وعلّمه صَنعةَ كل شىء ، فثمارُكم هذه من ثمار الجنة ، غيرَ أن هذه تَغيَّرُ وتلك لا تَغيَّرُ[3].

---

(١) فى المطبوعة : « وسئل من أنكر . . . » ، وهو خطأ بين .

(٢) فى المطبوعة : « نظائر ألوان » .

(٣) الحديث ٥٣٧ — هذا إسناد صحيح . وهو وإن كان موقوفاً لفظاً فإنه مرفوع حكماً ، لأنه إخبار عن غيب لا يعلم بالرأى ولا القياس . والأشعرى : هو أبو موسى ، ولم يكن من يحكى عن

[1]وقد زعم بعض أهل العربية أنّ معنى قوله: «وأتوا به متشابهاً»، أنه متشابهٌ في الفضل، أي كل واحد منه له من الفضْل في نحوه، مثلُ الذى للآخر في نحوه.

قال أبو جعفر: وليس هذا قولاً نستجيز التشاغلَ بالدلالة على فساده، لخروجه عن قول جميع علماء أهل التأويل. وحسبُ قولٍ - بخروجه عن قول جميع أهل العلم - دلالةً على خطئه.

* * *

الكتب القديمة. عوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي، وهو ثقة ثبت، أخرج له أصحاب الكتب الستة. قسامة - بفتح القاف وتخفيف السين المهملة: هو ابن زهير المازني التميمي البصري، وهو ثقة تابعي قديم، بل ذكره بعضهم في الصحابة فأخطأ. وله ترجمة في الإصابة ٥ : ٢٧٦ وابن سعد ١١٠/١/٧، وقال: «كان ثقة إن شاء الله، وتوفي في ولاية الحجاج على العراق»، وابن أبي حاتم ١٤٧/٢/٣، وروى توثيقه عن ابن معين.

والحديث ذكره ابن كثير في التاريخ ١ : ٨٠، من رواية عبد الرزاق عن معمر عن عوف، بهذا الإسناد. وذكره ابن القيم في حادي الأرواح ١ : ٢٧٣ (ص ١٢٥ من الطبعة الثانية، طبعة محمود ربيع سنة ١٣٥٧) من رواية عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن عقبة بن مكرم العمي الحافظ، عن ربعي بن إبرهيم بن علية عن عوف، بهذا الإسناد، مرفوعاً صراحة: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم». وكذلك ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ : ١٩٧ - ١٩٨ «عن أبي موسى رفعه»، وقال: «رواه البزار، والطبراني، ورجاله ثقات». وذكره ابن القيم في حادي الأرواح قبل ذلك (ص ٣٠ - ٣١)، من رواية «هوذة بن خليفة عن عوف» بهذا الإسناد، موقوفاً لفظاً. ورواية هوذة بن خليفة: رواها الحاكم في المستدرك ٢ : ٥٤٣، ولكن إسنادها عندي أنه مغلوط، والظاهر أنه غلط من الناسخين. لأن الذي فيه: «هوذة بن خليفة حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري، قال: إن الله لما أخرج آدم» إلخ. ثم قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي! ولا يمكن - فيما أعرف وأعتقد - أن يصحح الحاكم هذا الإسناد، ثم يوافقه الذهبي، إن كان على هذا الوجه، لأن أبا بكر بن أبي موسى الأشعري تابعي ثقة، فلو كان الإسناد هكذا كان الحديث مرسلا لا حجة فيه، سواء أرفعه أم قاله من قبل نفسه، فالظاهر أن الناسخين القدماء للمستدرك أخطئوا في زيادة «أبي بكر بن»، وأن صوابه: «عن أبي موسى الأشعري»، كما تبين من نقل ابن القيم رواية هوذة، وكما تبين من الروايات الأخر التي سقناها. والحمد لله على التوفيق.

(١) هذه الفقرة كلها من أول قوله: «وقد زعم بعض أهل العربية ...» كانت في المطبوعة في الموضع الذي أشرنا إليه آنفاً ص ٣٨٩.

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾

قال أبو جعفر : والهاء والميم اللتان فى « لهم » عائدتان على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والهاء والألف اللتان فى « فيها » عائدتان على الجنات . وتأويل ذلك : وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات فيها أزواجٌ مطهرة .

والأزواج جمع زَوْج ، وهى امرأة الرجل . يقال : فلانة زَوْجُ فلان وزوجته .

وأما قوله: « مطهَّرة » فإن تأويله أنهن طُهِّرن من كل أذًى وقَذًى وريبة ، مما يكون فى نساء أهل الدنيا ، من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبُصاق والمنىّ ، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره .

٥٣٨ — كما حدثنا به موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد ، قال: حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : أما أزواجٌ مطهرة، فإنهن لا يحضْن ولا يُحْدِثن ولا يتنخَّمن .

٥٣٩ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، ١٣٧/١ قال : حدثنا معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله : « أزْواج مطهرة » . يقول : مطهرة من القذَر والأذى .

٥٤٠ — حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا يحيى القطان[1]، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « ولهم فيها أزواجٌ مطهرة » قال : لا يبلن ولا يتغوّطن ولا يَمذِين .

٥٤١ — حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال: حدثنا أبو أحمد الزُّبيرى ، قال : حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، نحوه — إلا أنه زَاد فيه : ولا يُمنِين ولا يحضْنَ .

---

(١) فى المخطوطة : « يحيى العطار » ، وهو خطأ .

٥٤٢ — حدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله تعالى ذكره : « ولهم فيها أزواج مطهرة » قال : مطهرة من الحيض والغائط والبول والنخام والبُزاق والمنيّ والولد .

٥٤٣ — حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا سويد بن نصر ، قال : حدثنا ابنُ المبارك ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، مثله .

٥٤٤ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا الثوري ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : لا يَبُلْنَ ولا يتغوّطن ولا يحضْنَ ولا يلدن ولا يُمْنِين ولا يبزُقنَ .

٥٤٥ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، نحوَ حديث محمد بن عمرو ، عن أبي عاصم .

٥٤٦ — حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُريع ، عن سعيد ، عن قتادة : « ولهم فيها أزواج مطهرة » ، إى والله من الإثم والأذى .

٥٤٧ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله : « ولهم فيها أزواجٌ مطهرة » ، قال : طهّرهن اللهُ من كل بول وغائط وقذَر ، ومن كل مأثم .

٥٤٨ — حُدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثني ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن قتادة ، قال مطهرة من الحيض والحبَل والأذى .

٥٤٩ — حُدثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : المطهرة من الحيض والحبَل .

٥٥٠ — حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد : « ولهم فيها أزواجٌ مطهَّرة » قال : المطهَّرة التي لا تحيض . قال : وأزواج الدنيا ليست بمطهرة ، ألا تراهنّ يدمَيْنَ ويتركن الصلاة والصيامَ ؟ قال ابن زيد : وكذلك خُلقت حواء حتى عصَتْ ، فلما عصَتْ قال الله : إنى خلقتك مطهَّرة

وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة[1] .

٥٥١ — حُدثت عن عمار ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن الحسن فى قوله : « ولهم فيها أزواج مطهرة » ، قال يقول : مطهَّرة من الحيض .

٥٥٢ — حدثنا عمرو بن على ، قال : حدثنا خالد بن يزيد ، قال : حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن فى قوله : « ولهم فيها أزواجٌ مطهرة » ، قال : من الحيض .

٥٥٣ — حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أبو معاوية ، قال : حدثنا ابن جريج ، عن عطاء ، قوله : « ولهم فيها أزواج مطهرة » ، قال : من الولد والحيض والغائط والبول ، وذكر أشياءَ من هذا النحو[2] .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٥)

قال أبو جعفر : يعنى تعالى ذكره بذلك : والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنات خالدون . والهاء والميم من قوله « وهم » ، عائدة على الذين آمنوا وعملوا

---

(١) فى المخطوطة : « كما دميت » بتشديد الميم ، وهما سواء ، ويعنى بذلك دم الحيض . وهذا الأثر نقله ابن كثير ١ : ١١٥ عن هذا الموضع ، وفيه « أدميت » ، كما فى المطبوعة هنا . وقال ابن كثير بعد سياقه : « وهذا غريب » .

(٢) الآثار ٥٣٨ — ٥٥٣ : بعضها فى ابن كثير ١ : ١١٥ ، والدر المنثور ١ : ٣٩ ، والشوكانى ١ : ٤٢ وكرهنا الإطالة بتفصيل مراجعها واحداً واحداً . ونقل ابن كثير ١ : ١١٥ — ١١٦ حديثاً مرفوعاً بهذا المعنى : يعنى مطهرة « من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق » ، من تفسير ابن مردويه بإسناده — من طريق محمد بن عبيد الكندى عن عبد الرزاق بن عمر البزيعى عن عبد الله ابن المبارك عن شعبة عن قتادة عن أبى نضرة عن أبى سعيد ، مرفوعاً . وقال : «هذا حديث غريب» . ثم نقل عن الحاكم أنه رواه فى المستدرك ، من هذا الوجه ، وأنه صححه على شرط الشيخين . ثم قال : « وهذا الذى ادعاه فيه نظر ، فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعى هذا — قال فيه أبو حاتم بن حبان البستى : لا يجوز الاحتجاج به . قلت : والأظهر أن هذا من كلام قتادة ، كما تقدم » . وهو كما قال ابن كثير . انظر الميزان ٢ : ١٢٦ .

الصالحات . والهاء والألف فى « فيها » على الجنات . وخلودهم فيها دوام بقائهم فيها على ما أعطاهم الله فيها من الحَبْرَةِ والنعيم المقيم[1].

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ .

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى أنزل الله جل ثناؤه فيه هذه الآية وفى تأويلها .

فقال بعضهم بما :

١٣٨/١ ٥٥٤ — حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى ، فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : لمّا ضرَب الله هذين المثلين للمنافقين — يعنى قوله : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً » وقوله : «أو كصيّب من السماء» ، الآيات الثلاث — قال المنافقون : الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله: « إن الله لا يستحيي أنْ يضرب مثَلاً ما بعوضةً » إلى قوله : « أولئك همُ الخاسرُون » .

وقال آخرون بما :

٥٥٥ — حدثنى به أحمد بن إبراهيم ، قال حدثنا قُرَاد ، عن أبى جعفر الرازى ، عن الرّبيع بن أنس ، فى قوله تعالى : « إن الله لا يستحيي أن يضرب

---

(١) فى الدر المنثور ١ : ٤١ ، والشوكانى ١ : ٤٢ ، أن ابن جرير أخرج عن ابن عباس فى قوله « وهم فيها خالدون » — « أى خالدون أبداً ، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له »

وهذا الخبر سيأتى عند تفسير الآية : ٨٢ من هذه السورة (١ : ٣٠٧ بولاق) . فنقله السيوطى إلى هذا الموضع ، وتبعه الشوكانى .

مثلاً ما بعوضةً فما فوقها » . قال : هذا مثل ضربه الله للدنيا ، إن البعوضة تحيا ما جاعتْ ، فإذا سمنت ماتتْ . وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل فى القرآن : إذا امتلأوا من الدنيا رِيًّا أخذَهم الله عند ذلك . قال : ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَاهُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٤] (١)

٥٥٦ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس بنحوه — إلا أنه قال : فإذا خلتْ آجالهم وانقطعت مُدَّتهم (٢) ، صاروا كالبعوضة تحيا ما جاعت ، وتموت إذا رَويت ، فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل ، إذا امتلئوا من الدنيا رِيًّا أخذهم الله فأهلكهم . فذلك قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَاهُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٤] .

وقال آخرون بما :

٥٥٧ — حدثنا به بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد عن سعيد ، عن قتادة ، قوله : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها » ، أى إن الله لا يستحى من الحق أن يذكرَ منه شيئاً ما قلَّ منه أو كثر (٣) . إن الله حين ذكر فى كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة : ما أراد الله من ذكر هذا ؟ فأنزل الله :

---

(١) الأثر ٥٥٥ — « قراد » بضم القاف وفتح الراء مخففة : لقب له ، واسمه « عبد الرحمن ابن غزوان بفتح الغين المعجمة وسكون الزاى ، الخزاعى » ، وهو ثقة ، وقال أحمد : « كان عاقلا من الرجال » . وترجمه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ٢/٢/٢٧٤ .

(٢) فى المطبوعة : « خلى آجالهم » ، وفى المخطوطة « خلا » ، والصواب ما أثبته . وخلا العصر يخلو خلوا : مضى وانقضى .

(٣) فى المخطوطة : « شيئاً قل منه أو كثر » بحذف « ما » ، وفى ابن كثير « مما قل أو كثر » وكلها متقاربة .

« إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها » .

٥٥٨ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : لما ذكر الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »[1] .

وقد ذهب كلُّ قائل ممن ذكرنا قوله فى هذه الآية ، وفى المعنى الذى نزلت فيه ، مذهباً ؛ غير أنَّ أولى ذلك بالصواب وأشبهه بالحقِّ ، ما ذكرنا من قول ابن مسعود وابن عباس .

وذلك أنَّ الله جلَّ ذكره أخبر عباده أنه لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها ، عَقِيب أمثالٍ قد تقدمت فى هذه السورة ، ضربها للمنافقين ، دون الأمثال التى ضربها فى سائر السور غيرها . فلأن يكون هذا القول — أعنى قوله : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما » — جواباً لنكير الكفار والمنافقين ما ضرب لهم من الأمثال فى هذه السورة ، أحقُّ وأولى من أن يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال فى غيرها من السور .

فإن قال قائل : إنما أوْجبَ أن يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرَب من الأمثال فى سائر السور ، لأن الأمثال التى ضربها الله لهم ولآلهتهم فى سائر السور أمثالٌ موافقة المعنى لما أخبر عنه : أنه لا يستحى أن يضربه مثلاً ، إذ كان بعضها تمثيلاً لآلهتهم بالعنكبوت ، وبعضها تشبيهاً لها فى الضّعف والمهانة بالذباب .

١/١٣٩ وليس ذكر شىء من ذلك بموجود فى هذه السورة ، فيجوزَ أنْ يقال : إن الله لا يستحى أن يضربه مثلا[2] .

---

(١) الآثار : ٥٥٤ — ٥٥٨ أكثرها فى ابن كثير ١ : ١١٧ ، وبعضها فى الدر المنثور ١ : ٤١ ، والشوكانى ١ : ٤٥ .

(٢) فى المطبوعة : « أن يضرب مثلا ما » ، وليست بشىء .

فإن ذلك بخلاف ما ظنّ. وذلك أنّ قول الله جلّ ثناؤه: « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »، إنما هو خبرٌ منه جلّ ذكره أنه لا يستحى أن يضرب فى الحقّ من الأمثال صغيرِها وكبيرِها ، ابتلاءً بذلك عبادَه واختباراً منه لهم ، ليميز به أهل الإيمان والتصديق به من أهل الضلال والكفر به ، إضلالاً منه به لقوم ، وهدايةً منه به لآخرين .

* * *

٥٥٩ — كما حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله: « مثلا ما بعوضة » ، يعنى الأمثال صغيرَها وكبيرَها ، يؤمن بها المؤمنون ، ويعلمون أنها الحق من ربهم ، ويهديهم الله بها ويُضل بها الفاسقين . يقول: يعرفه المؤمنون فيؤمنون به ، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به .

٥٦٠ — حدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

٥٦١ — حدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جُريج عن مجاهد ، مثله[1].

* * *

قال أبو جعفر : — لا أنه جلّ ذكره قصَد الخبرَ عن عين البعوضة أنه لا يستحى من ضرْب المثل بها ، ولكن البعوضة لما كانت أضعف الخلق —

٥٦٢ — كما حدثنا القاسم ، قال: حدثنا الحسين ، قال: حدثنا أبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : البعوضة أضعفُ ما خلق الله .

٥٦٣ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، بنحوه[2] .

---

(١) الآثار : ٥٥٩ — ٥٦١ ، وهى واحد كلها ، فى الدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٥ ، وسيأتى برقم : ٥٦٦ .

(٢) الأثر : ٥٦٢ فى الدر المنثور ١ : ٤١ .

— [1]خصها الله بالذكر فى القِلة ، فأخبر أنه لا يستحى أن يضرب أقلّ الأمثال فى الحق وأحقرَها وأعلاها إلى غير نهاية فى الارتفاع ، جواباً منه جل ذكره لمن أنكر من منافقى خلقه ما ضرَب لهم من المثل بمُوقِد النار والصيِّب من السماء ، على ما نَعَتَهما به من نَعْتِهما .

فإن قال لنا قائل : وأين ذكر نكير المنافقين الأمثالَ التى وصفتَ ، الذى هذا الخبر جوابه ، فنعلم أنّ القول فى ذلك ما قلت ؟

قيل : الدلالة على ذلك بينة فى قول الله تعالى ذكره [2] : « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا » . وإن القوم الذين ضرَب لهم الأمثال فى الآيتين المقدَّمتين — اللتين مثَّل ما عليه المنافقون مقيمون فيهما[3] : بمُوقِد النار والصيِّب من السماء[4]، على ما وصف من ذلك قبل قوله : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا » — قد أنكروا المثل وقالوا : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ فأوضح لهم تعالى ذكره خطأ قِيلهم ذلك ، وقبّح لهم ما نطقوا به ، وأخبرهم بحكمهم فى قيلهم ما قالوا منه ، وأنه ضلال وفسوق ، وأن الصواب والهدى ما قاله المؤمنون دون ما قالوه .

وأما تأويل قوله : « إن الله لا يستحيي » ، فإن بعض المنسوبين إلى المعرفة بلغة العرب كان يتأول معنى « إن الله لا يستحيي » : إن الله لا يخشى أن يضرب مثلاً ، ويستشهدُ على ذلك من قوله بقول الله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٧] ، ويزعم أن معنى ذلك : وتستحى الناسَ والله أحقّ أن تستحيه — فيقول : الاستحياء بمعنى الخشية ، والخشية بمعنى الاستحياء[5] .

---

(١) قوله : « خصها . . . » جواب قوله آنفاً : « . . . لما كانت أضعف الخلق » .

(٢) فى المطبوعة : « الدلالة على ذلك بينها جل ذكره فى قوله » .

(٣) قوله : « فيهما » متعلق بقوله « مثل » ، أى : اللتين مثل فيهما — ما عليه المنافقون مقيمون — بموقد النار . . .

(٤) فى المطبوعة : « وبالصيب من السماء » .

(٥) لم أعرف قائل هذا القول من المنسوبين إلى المعرفة بلغة العرب ، ولكنى رأيت أبا حيان

وأما معنى قوله : « أن يضرب مثلاً » ، فهو أن يبيِّن ويصف ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سورة الروم : ٢٨]، بمعنى وصف لكم ، وكما قال الكُمَيْت :

وذَلكَ ضَرْبُ أَخْمَاسٍ أُرِيدَتْ لأَسْدَاسٍ ، عَسَى أنْ لَا تَكُونَا[1]

بمعنى : وصف أخماس .

والمَثَل : الشبه ، يقال : هذا مَثَل هذا ومِثْله ، كما يقال : شَبَهُه وشِبْهه ، ومنه قول كعب بن زهير :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لها مَثَلاً وَمَا مَوَاعِيدُها إلاّ الأباطِيلُ[2] ١٤٠/١

يعني شَبَهاً ، فمعنى قوله إذاً : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً » : إن

يقول في تفسيره ١ : ١٢١ ، يزعم أن هذا المعنى هو الذي رجحه الطبري ، ومن البين أنه أخطأ فيما توهمه ، فإن لفظ الطبري دال على أنه لم يحقق معناه ، ولم يرضه ، ولم ينصره . هذا على أني أظن أن مجاز اللفظ يجيز مثل هذا الذي قاله المنسوب إلى المعرفة بلغة العرب ، وإن كنت أكره أن أحمل هذه الآية على هذا المعنى .

(١) هذا بيت استرقه الكميت استراقاً ، على أنه مثل اجتلبه . وأصله : أن شيخاً كان في إبله ، ومعه أولاده ، حالا يرعونها ، قد طالت غربتهم عن أهلهم . فقال لهم ذات يوم : « ارعوا إبلكم ربعا » (بكسر فسكون : وهو أن تحبس عن الماء ثلاثاً ، وترد في اليوم الرابع) ، فرعوا ربعاً نحو طريق أهلهم . فقالوا : لو رعيناها خمساً ! (بكسر فسكون : أن تحبس أربعاً وترد في الخامس) فزادوا يوماً قبل أهلهم . فقالوا : لو رعيناها سدساً ! (أن تحبس خمساً وترد في السادس) . ففطن الشيخ لما يريدون ، فقال : ما أنتم إلا ضرب أخماس لأسداس ، ما همتكم رعيها ، إنما همتكم أهلكم ! وأنشأ يقول :

وَذَلكَ ضَرْبُ أَخْمَاسٍ أُرَاهُ ، لأَسْدَاسٍ ، عَسَى أَنْ لَا تَكُونَا

فصار قولهم : « ضرب أخماس لأسداس » مثلا مضروباً للذي يراوغ ويظهر أمراً وهو يريد غيره .

وحقيقة قوله « ضرب : بمعنى وصف » ، أنه من ضرب البعير أو الدابة ليصرف وجهها إلى الوجه الذي يريد ، يسوقها إليه لتسلكه . فقولهم : ضرب له مثلا ، أي ساقه إليه ، وهو يشعر بمعنى الإبانة بالمثل المسوق . وهذا بين .

(٢) ديوانه : ٨ ، وفي المخطوطة : « وما مواعيده » ، وعرقوب — فيما يزعمون — : هو عرقوب ابن نصر ، رجل من العمالقة ، نزل المدينة قبل أن تنزلها يهود بعد عيسى ابن مريم عليه السلام . وكان يحتال في إخلاف المواعيد بالمماطلة ، كما هو معروف في قصته .

الله لا يخشى أن يصف شيئاً لما شبّه به(١).

وأما « ما » التي مع « مثل » ، فإنها بمعنى « الذي » ، لأن معنى الكلام : إن الله لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضةً في الصغر والقِلة فما فوقها — مثلا .

فإن قال لنا قائل: فإن كان القول في ذلك ما قلت(٢)، فما وجه نصب البعوضة، وقد علمتَ أنّ تأويل الكلام ما تأوّلت(٣) : أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا الذي هو بعوضة ؛ فالبعوضةُ على قولك في محل الرفع ؟ فأنّى أتاها النصب ؟

قيل : أتاها النصب من وجهين : أحدُهما ، أن « ما » لما كانت في محل نصْب بقوله « يضرب »، وكانت البعوضة لها صلة، عُرِّبت بتعريبها(٤) ، فألزمت إعرابها ، كما قال حسان بن ثابت :

وَكَفَى بِنَا فَضْلاً على مَنْ غيرِنَا   حُبُّ النّبِيِّ محمدٍ إيّانَا(٥)

فعُرِّبت « غيرُ » بإعراب « من » . والعرب تفعل ذلك خاصة في « من » و « ما »(٦) ، تعرب صِلاتهما بإعرابهما، لأنهما يكونان معرفة أحياناً ، ونكرة أحياناً .

---

(١) هذا بقية تفسير الكلمة على مذهب من قال إن الاستحياء بمعنى الخشية ، لا ما أخذ به الطبري ، وتفسير الطبري صريح بين في آخر تفسير الآية .

(٢) في المطبوعة : «كما قلت» .

(٣) في المطبوعة : «على ما تأولت» ، وليست بجيدة .

(٤) في المطبوعة «أعربت بتعريبها» . وقوله «عربت» : أي أجريت مجراها في الإعراب ، وهذا هو معنى «التعريب» في اصطلاح قدماء النحاة ، وستمر بك كثيراً فاحفظها ، وهي أوجز مما اصطلح عليه المحدثون منهم .

(٥) ليس في ديوانه ، ويأتي في الطبري ٤ : ٩٩ غير منسوب ، وفي الخزانة ٢ : ٥٤٥ — ٥٤٦ أنه لكعب بن مالك ، ونسب إلى حسان بن ثابت ولم يوجد في شعره . ونسب لبشير بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، ونسب أيضاً لعبد الله بن رواحة . وذكره السيوطي في شرح شواهد المغني : ١١٦ ، ٢٥٢ ، وأثبت بيتاً قبله :

نَصَرُوا نَبِيَّهُمُ بِنَصْرِ وَلِيِّهِ   فاللهُ، عزَّ، بِنَصْرِهِ سَمَّانَا

قال : يعني أن الله عز وجل سماهم «الأنصار» ، لأنهم نصروا النبي صلى الله عليه وسلم ومن والاه . والباء في «بنصر وليه» ، بمعنى «مع» .

(٦) في المطبوعة : «فالعرب تفعل . . . » .

وأما الوجه الآخر ، فأن يكون معنى الكلام : إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها ، ثم حذف ذكر « بين » و« إلى »، إذ كان في نصب البعوضة ودخول الفاء في « ما » الثانية، دلالة عليهما، كما قالت العرب : « مُطِرنا ما زُبالة فالثَّعْلَبِيَّة»، و« له عشرون ما ناقة فجملاً »، و«هي أحسنُ الناس ما قرناً فقدماً » ، يعنون : ما بين قرنها إلى قدمها[١] . وكذلك يقولون في كل ما حسُن فيه من الكلام دخول: « ما بين كذا إلى كذا »، ينصبون الأول والثاني، ليدلَّ النصبُ فيهما على المحذوف من الكلام[٢] . فكذلك ذلك في قوله: « ما بعوضة فما فوقها»[٣].

وقد زعم بعضُ أهل العربية أنَّ « ما » التي مع المثَل صلةٌ في الكلام بمعنى التطوُّل[٤] ، وأن معنى الكلام : إن الله لا يستحيي أن يضربَ بعوضةً مثلاً فما فوقها. فعلى هذا التأويل، يجب أن تكون « بعوضةً » منصوبةً بـ « يضرب»، وأن تكون « ما » الثانية التي في « فما فوقها » معطوفة على البعوضة لا على « ما » .

وأما تأويل قوله « فما فوقها » : فما هو أعظم منها[٥] — عندي — لما ذكرنا قبل من قول قتادة وابن جُريج : أن البعوضة أضعف خلق الله ، فإذْ كانت أضعف خلق الله فهي نهايةٌ في القلة والضعف . وإذ كانت كذلك ، فلا شك أنَّ ما فوق أضعف الأشياء ، لا يكون إلا أقوى منه . فقد يجب أن يكون المعنى

---

(١) في المخطوطة : « يعنون يملك من قرنها . . . » .

(٢) في المخطوطة : « ليدل النصب في الأسماء على المحذوف . . . » ، وهما سواء .

(٣) أكثر هذا من كلام الفراء في معاني القرآن ١ : ٢١ – ٢٢ ، وذكر الوجهين السالفين جميعاً، وكلامه أبسط من كلام الطبري وأبين .

(٤) قد مضى قديماً شرح معنى التطول (انظر : ١٨، ٢٢٤ وما يأتي ص:٤٠٦، ١٥٤ من بولاق)، وهو الزيادة في الكلام . وهذا الذي قال عنه : « زعم بعض أهل العربية » ، هو الفراء نفسه ، فقد ذكر هذا أول وجه من ثلاثة وجوه في الآية في معاني القرآن ١ : ٢١ ، وقال : « أولها : أن توقع الضرب على البعوضة ، وتجعل ما صلة ، كقوله : « عما قليل ليصبحن نادمين » ، يريد : عن قليل . المعنى — والله أعلم — : إن الله لا يستحيي أن يضرب بعوضة فما فوقها مثلا ».

والذي يسميه الطبري البغدادي المذهب في النحو « تطولا » ، يسميه الفراء الكوفي المذهب في النحو « صلة » ، وهي الزيادة في الكلام .

(٥) في المخطوطة : « فهو ما قد عظم منها » ، وهو خطأ بلا معنى .

—على ما قالاه — فما فوقها فى العظم والكبر ، إذ كانت البعوضة نهايةً فى الضعف والقلة .

وقيل فى تأويل قوله « فما فوقها » ، فى الصغر والقلة . كما يقال فى الرجل يذكره الذاكرُ فيصفه باللؤم والشحّ ، فيقول السامع : « نعم ، وفوقَ ذاك » ، يعنى فوقَ الذى وصفت فى الشحّ واللؤم [1] ، وهذا قولٌ خلافُ تأويل أهل العلم الذين تُرْتَضى معرفتهم بتأويل القرآن .

فقد تبين إذاً ، بما وصفنا ، أن معنى الكلام : إن الله لا يستحيى أن يصف شبَهاً لما شبّه به الذى هو ما بين بعوضةٍ إلى ما فوق البعوضة .

فأما تأويل الكلام لو رفعت البعوضة ، فغير جائز فى « ما » ، إلا ما قلنا من أن تكون اسما ، لا صلة بمعنى التطول [2] .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾

قال أبو جعفر : يعنى تعالى ذكره بقوله : « فأما الذين آمنوا » ، فأما الذين صدّقوا الله ورسوله . وقوله : « فيعلمون أنه الحقّ من ربهم » . يعنى : فيعرفون أن المثَل الذى ضرَبه الله ، لِما ضرَبه له ، مثَل . ١٤١/١

٥٦٤ — كما حدثنى به المثنى ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « فأما الذين آمنوا

---

(١) فى المطبوعة : « فوق الذى وصف » . وهذا التأويل الذى ذكره الطبرى ، قد اقترحه الفراء فى معانى القرآن ١ : ٢٠ — ٢١ وأبان عنه ، وقال : « ولو جعلت فى مثله من الكلام « فما فوقها » ، تريد أصغر منها ، لجاز ذلك . ولست أستحبه » ، يعنى : أنه لا يستحبه فى هذا الموضع من تفسير كتاب الله .

(٢) قد شرحنا معنى « صلة » و « تطول » فيما مضى ص : ٤٠٥ .

فيعلمون أنه الحق من ربهم »، أنّ هذا المثلَ الحقُّ من ربهم، وأنه كلامُ الله ومن عنده[١] .

٥٦٥ — وكما حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، قوله « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » ، أى يعلمون أنه كلامُ الرحمن ، وأنه الحق من الله[٢] .

* * *

« وأما الذين كفروا فيقولونَ ماذا أراد الله بهذا مثلا » .

قال أبو جعفر : وقوله « وأما الذين كفرُوا »، يعنى الذين جحدوا آيات الله، وأنكرُوا ما عرفوا ، وستروا ما علموا أنه حق، وذلك صفةُ المنافقين، وإياهم عَنَى الله جلّ وعز — ومن كان من نظرائهم وشركائهم من المشركين من أهل الكتاب وغيرهم — بهذه الآية ، فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، كما قد ذكرنا قبل من الخبر الذى رويناه عن مجاهد الذى : —

٥٦٦ — حدثنا به محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « فأما الذين آمنوا فيعلمونَ أنه الحقّ من ربهم » الآية ، قال: يؤمن بها المؤمنون، ويعلمون أنها الحق من ربهم ، ويهديهم الله بها، ويَضلّ بها الفاسقون. يقول: يعرفه المؤمنون فيؤمنون به ، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به[٣] .

وتأويل قوله: « ماذا أراد الله بهذا مثلا »، ما الذى أراد الله بهذا المثل مثلاً. « فذا »، الذى مع « ما »، فى معنى « الذى »، وأراد صلته ، وهذا إشارةٌ إلى المثل[٤] .

* * *

(١) الأثر : ٥٦٤ — هو عن الربيع بن أنس عن أبى العالية ، كما مر كثيراً ، وكذلك جاء فى الدر المنثور ١ : ٤٢ .

(٢) الأثر ٥٦٥ — فى ابن كثير ١ : ١١٨ .

(٣) الأثر ٥٦٦ — قد مضى برقم : ٥٥٩ .

(٤) فى المطبوعة : « فذا مع ما فى معنى ... »

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا ﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل وعز : « يضلّ به كثيراً » ، يضلّ الله به كثيراً من خلقه . والهاء فى « به » من ذكر المثل . وهذا خبر من الله جل ثناؤه مبتدأٌ ، ومعنى الكلام : أن الله يُضلّ بالمثل الذى يضرب به كثيراً من أهل النفاق والكفر : —

٥٦٧ — كما حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى ، فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « يضلّ به كثيراً » يعني المنافقين ، « ويهدى به كثيراً » ، يعني المؤمنين[1] . — فيزيد هؤلاء ضلالا إلى ضلالهم ، لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقيناً من المثل الذى ضربه الله لما ضربه له ، وأنه لما ضرّبه له موافق . فذلك إضْلال الله إياهم به . و « يهدى به » ، يعنى المثل ، كثيراً منَ أهل الإيمان والتصديق ، فيزيدهم هدى إلى هُداهم وَإيماناً إلى إيمانهم . لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقيناً أنه موافق ما ضرّبه الله له مثلا ، وإقرارُهم به . وذلك هدايةٌ من الله لهم به .

وقد زعم بعضهم أنّ ذلك خبرٌ عن المنافقين ، كأنهم قالوا : ماذا أراد الله بمثل لا يعرفه كل أحد ، يضلّ به هذا ويهدى به هذا . ثم استؤنف الكلام والخبر عن الله ، فقال الله : « وما يُضلّ به إلا الفاسقين » . وفيما فى سورة المدّثر — من قول الله : « وليقولَ الذينَ فى قلوبهمْ مَرَضٌ والكافرونَ ماذا أرَاد الله بهذا مثلا . كذلك يُضلّ اللهُ مَن يشاءُ ويهدى من يشاء » — ما ينبئُ عن أنه فى سورة البقرة كذلك ، مبتدأٌ — أعنى قوله : « يضلّ به كثيراً ويهدى به كثيراً » .

---

(١) الخبر : ٥٦٧ — فى ابن كثير ١ : ١١٩ ، والدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٥ ، وهو فيها تام متصل ، وتمامه الأثر الذى يليه : ٥٦٨ . ولكن ابن كثير أخطأ ، فوصل هذا الخبر بكلام الطبرى الذى يليه ، كأنه كله من تفسير ابن عباس وابن مسعود ، وهو خطأ محض . فقول الطبرى بعد « فيزيد هؤلاء ضلالا . . . » هو من تمام قوله قبل هذا « أن الله يضل بالمثل الذى يضرب به كثيراً من أهل النفاق والكفر » .

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦)

وتأويل ذلك ما :ـ

٥٦٨ ـ حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ـ وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « وما يُضلّ به إلا الفاسقين » ، هم المنافقون[1] . ١٤٢/١

٥٦٩ ـ وحدثنا بشر بن مُعاذ ، قال : حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة : « وما يُضِلّ به إلا الفاسقين » ، فسقوا فأضلَّهم الله على فِسقهم[2] .

٥٧٠ ـ حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « وما يضل به إلا الفاسقين » ، هم أهل النفاق[3] .

* * *

قال أبو جعفر : وأصلُ الفسق فى كلام العرب : الخروجُ عن الشيء . يقال منه : فسقت الرُّطَبة إذا خرجت من قشرها . ومن ذلك سُمّيت الفأرةُ فُوَيْسِقة ، لخروجها عن جُحرها[4] ، فكذلك المنافق والكافر سُمّيا فاسقيْن ، لخروجهما عن طاعة ربهما . ولذلك قال جل ذكره فى صفة إبليس : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] ، يعنى به خرج عن طاعته واتباع أمره .

٥٧١ ـ كما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال : حدثنى ابن إسحق،

---

(١) الخبر ٥٦٨ ـ تمام الأثر السالف ، وقد ذكرنا موضعه .

(٢) الأثر : ٥٦٩ ـ فى ابن كثير ١ : ١١٩ ، وفى الدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٥ ، وفيهما مكان « على فسقهم » ، « بفسقهم » .

(٣) الأثر : ٥٧٠ ـ فى ابن كثير ١ : ١١٩ .

(٤) انظر الطبرى ١٥ : ١٧٠ (بولاق) . وقوله : « يحكى عن العرب سماعاً : فسقت الرطبة من قشرها ، إذا خرجت . وفسقت الفأرة إذا خرجت من جحرها » ، وسائر ما قال هناك .

عن داود بن الحُصين، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥٩]، أى بما بعَدوا عن أمرى[1] .

فعنى قوله : « وما يُضِلّ به إلا الفاسقين »، وما يضلّ الله بالمثل الذى يضربه لأهل الضلال والنفاق ، إلا الخارجين عن طاعته ، والتاركين اتباعَ أمره ، من أهل الكفر به من أهل الكتاب ، وأهل الضّلال من أهل النفاق .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾

قال أبو جعفر : وهذا وصف من الله جل ذكره الفاسقين الذين أخبر أنه لا يُضلّ بالمثَل الذى ضربه لأهل النفاق غيرَهم ، فقال : وما يُضِلّ الله بالمثل الذى يضربه — على ما وصف قبلُ فى الآيات المتقدمة — إلا الفاسقين الذين ينقُضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه .

ثم اختلف أهل المعرفة فى معنى العهد الذى وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه : —

فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته ، فى كتبه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . ونقضُهم ذلك ، تركُهم العمل به .

وقال آخرون : إنما نزلت هذه الآيات فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وإياهم عَنى الله جل ذكره بقوله : « إنّ الذين كفرُوا سواءٌ عليهم أأنذرتهم » ، وبقوله : « ومن الناس مَنْ يَقول آمنَّا بالله وباليوم الآخر » . فكل ما فى هذه الآيات ، فعَذْل لهم وتوبيخ إلى انقضاء قَصَصهم . قالوا : فعهدُ الله الذى

---

(١) الخبر : ٥٧١ — لم أجده فى مكانه من تفسير آية البقرة ، ولا فى أية آية ذكر فيها هذا الحرف . ولم يخرجه أحد ممن اعتمدنا ذكره . وفى المخطوطة : « من أمرى » .

نقضوه بعدَ ميثاقه ، هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة — منَ العمل بما فيها ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم إذا بُعث ، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم . ونقضُهم ذلك، هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم ذلك ، وكتمانهم علمَ ذلك الناسَ[1] ، بعد إعطائهم اللهَ من أنفسهم الميثاق لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه. فأخبر الله جل ثناؤه أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا .

وقال بعضهم : إن الله عنى بهذه الآية جميعَ أهل الشرك والكفر والنفاق . وعهدُه إلى جميعهم فى توحيده : ما وَضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته . وعهدُه إليهم فى أمره ونهيه : ما احتجّ به لرسله من المعجزات التى لا يقدرُ أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثلها ، الشاهدةِ لهم على صدقهم . قالوا : ونقضهم ذلك، تركهم الإقرارَ بما قد تبيَّنت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبُهم الرسلَ والكتُبَ ، مع علمهم أن ما أتوا به حقّ .

وقال آخرون : العهدُ الذى ذكره الله جل ذكره ، هو العهدُ الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صُلب آدم ، الذى وصفه فى قوله : ١٤٣/١ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٢ – ١٧٣] . ونقضُهم ذلك، تركهم الوفاء به .

وأولى الأقوال عندى بالصواب فى ذلك قولُ من قال : إن هذه الآيات نزلت فى كفّار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظَهْرانَيْ مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) فى المطبوعة : « عن الناس » ، و« الناس » منصوب ، مفعول ثان ، المصدر « كتمانهم » . والفعل « كتم » يتعدى إلى مفعول ومفعولين ، تقول : كتمت فلاناً سرى ، وكتمت عن فلان سرى ، وهما سواء .

وما قرُب منها من بقايا بنى إسرائيل ، ومن كان على شركه من أهل النفاق الذين قد بينا قصَصهم فيما مضى من كتابنا هذا .

وقد دللنا على أن قول الله جل ثناؤه : « إنّ الذين كفروا سواء عليهم » ، وقوله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر » ، فيهم أنزِلت ، وفيمن كان على مثل الذى هم عليه من الشرك بالله . غيرَ أن هذه الآيات عندى ، وإن كانت فيهم نزلتْ ، فإنه معنىٌّ بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضّلال ، ومعنىٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصّةً ،جميعُ المنافقين[1] ؛ وبما وافق منها صفةَ كفار أحبار اليهود ، جميعُ من كان لهم نظيراً فى كفرهم .

وذلك أن الله جلّ ثناؤه يعم أحياناً جميعَهم بالصِّفة ، لتقديمه ذكر جميعهم فى أول الآيات التى ذكرتْ قصَصهم ، ويخصّ أحياناً بالصفة بعضَهم ، لتفصيله فى أول الآيات بين فريقيْهم ، أعنى : فريقَ المنافقين من عبدة الأوثان وأهل الشرك بالله ، وفريقَ كفار أحبار اليهود . فالذين ينقضون عهدَ الله ، هم التاركون ما عهد الله إليهم من الإقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وتبيين نبوته للناس ، الكاتمون بيان ذلك بعدَ علمهم به ، وبما قد أخذَ الله عليهم فى ذلك ، كما قال الله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٧] ، ونبذُهم ذلك وراء ظهورهم ، هو نقضُهم العهدَ الذى عهد إليهم فى التوراة الذى وصفناه ، وتركُهم العمل به .

وإنما قلت : إنه عنى بهذه الآيات من قلتُ إنه عنى بها ، لأن الآيات — من مبتدأ الآيات الخمس والست من سورة البقرة[2] — فيهم نزلتْ، إلى تمام قصصهم .

---

(١) سياق العبارة : « ومعنى جميع المنافقين ، بما وافق منها صفة المنافقين » وعبارة الطبرى أعرب .

(٢) فى المطبوعة : « من ابتداء الآيات » ، وكأنه تغيير من المصححين .

وفى الآية التى بعد الخبر عن خلق آدم وبيانِه فى قوله[1] : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٤٠]. وخطابِه إياهم جلّ ذكره بالوفاء بذلك خاصّة دون سائر البشر[2] — ما يدل على أن قوله : « الذين ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه » مقصودٌ به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركى عبدة الأوثان على ضلالهم . غيرَ أنّ الخطابَ — وإن كان لمن وصفتُ من الفريقين — فداخلٌ فى أحكامهم ، وفيما أوجبَ الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ ، كلّ من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهى .

فمعنى الآية إذاً : وما يُضِلّ به إلا التاركين طاعةَ الله ، الخارجين عن اتباع أمره ونهيه ، الناكثين عهود الله التى عهدها إليهم ، فى الكتب التى أنزلها إلى رُسله وعلى ألسن أنبيائه ، باتباع أمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وطاعة الله فيما افترض عليهم فى التوراة من تبيين أمره للناس ، وإخبارِهم إياهم أنهم يجدونه مكتوباً عندهم أنه رسولٌ من عند الله مفترضةٌ طاعتُه ، وترك كتمان ذلك لهم[3]. ونكثُهم ذلك ونَقضُهم إياه ، هو مخالفتهم الله فى عهده إليهم — فيما وصفتُ أنه عهد إليهم — بعد إعطائهم ربهم الميثاقَ بالوفاء بذلك . كما وصفهم به ربنا تعالى ذكره بقوله : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ . [سورة الأعراف : ١٦٩] ١٤٤/١

---

(١) فى المطبوعة « عن خلق آدم وأبنائه فى قوله » ، وهو خطأ محض . وقوله « وبيانه » ، مجرور معطوف على قوله : « وفى الآية التى بعد الخبر . . . » أى ، « وفى بيانه فى قوله : . . . » .

(٢) قوله : « وخطابه » مجرور معطوف على قوله : « وفى الآية ... » و « وبيانه ... » كما أسلفنا فى التعليق قبله . وفى المطبوعة : « فى ذلك خاصة » . وليست بشىء .

(٣) هكذا فى الأصول ، ولعل الأجود أن يقول : وترك كتمان ذلك عنهم .

وأما قوله : « من بعد ميثاقه » ، فإنه يعنى : من بعد توَثُّق الله فيه[1] ، بأخذ عهوده بالوفاء له ، بما عهد إليهم فى ذلك[2] . غيرَ أن التوثق مصدر من قولك : توثقت من فلان تَوَثُّقاً ، والميثاقُ اسمٌ منه . والهاء فى الميثاق عائدة على اسم الله .

* * *

وقد يدخل فى حكم هذه الآية كلّ من كان بالصفة التى وصف الله بها هؤلاء الفاسقين من المنافقين والكفار ، فى نقض العهد وقطع الرّحم والإفساد فى الأرض .

٥٧٢ ــ كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة ، قوله : « الذين ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه » ، فإياكم ونقضَ هذا الميثاق ، فإن الله قد كره نقضَه وأوعدَ فيه ، وقدّم فيه فى آى القرآن حُجة وموعظة ونصيحة ، وإنا لا نعلم الله جل ذكره أوعد فى ذنب ما أوعدَ فى نقض الميثاق . فمن أعطى عهدَ الله وميثاقه من ثمرَة قلبه فَلْيَفِ به لله[3] .

٥٧٣ ــ حدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، فى قوله : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويَقطعون ما أمرَ الله به أن يُوصَل ويفسدون فى الأرض أولئك همُ الخاسرون » ، فهى ستٌّ خلال فى أهل النفاق ، إذا كانت لهم الظَّهَرَة ،[4] أظهرُوا هذه الخلال الستَّ

---

(١) فى المطبوعة : « منه » مكان « فيه » .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة « بما عهد إليه » ، وهو خطأ بين .

(٣) الأثر : ٥٧٢ — فى الدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٥ . وقوله « من ثمرة قلبه » ، أى خالص قلبه ، مأخوذ من ثمرة الشجرة ، لأنها خلاصتها وأطيب ما فيها . وفى حديث المبايعة : « فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه » ، أى خالص عهده وهو حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، فى المسند : ٦٥٠١ ، ٦٥٠٣ ، ٦٧٩٣ . ويقال : خصنى فلان بثمرة قلبه : أى خالص مودته .

(٤) الظهرة (بثلاث فتحات) : الكثرة ، وأراد بها ظهور الأمر والغلبة . ولو أسكنت الهاء ، كان صواباً ، من قولهم : ظهرت على فلان : إذا علوته وغلبته .

جميعاً : إذا حدّثوا كذبوا ، وإذا وَعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا ، ونقضُوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمرَ اللهُ به أن يوصل ، وأفسدُوا فى الأرض . وإذا كانت عليهم الظَّهَرَةُ ، أظهروا الخلالَ الثلاثَ إذا حدّثوا كذَبوا، وإذا وَعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا[١] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾

قال أبو جعفر : والذى رَغب اللهُ فى وَصْله وذمّ على قطعه فى هذه الآية: الرّحِمُ. وقد بين ذلك فى كتابه، فقال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [سورة محمد : ٢٢]. وإنما عَنى بالرّحم ، أهلَ الرّحم الذين جمعتهم وإياه رَحِمُ والدة واحدة. وقطعُ ذلك: ظلمه فى ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها، وأوجبَ من بِرّها . ووَصْلُها: أداءُ الواجب لها إليها من حقوق الله التى أوجبَ لها ، والتعطفُ عليها بما يحقّ التعطف به عليها .

« وأنْ » التى مع « يوصل » فى محل خفض ، بمعنى رَدّها على موضع الهاء التى فى « به » : فكان معنى الكلام[٢] : ويقطعون الذى أمرَ الله بأن يُوصَل . والهاء التى فى « به »، هى كناية عن ذكر « أن يوصل » . وبما قلنا فى تأويل قوله : « ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل »، وأنه الرّحم ، كان قتادة يقول :

---

(١) الأثر : ٥٧٣ — فى ابن كثير ١ : ١٢٠ — ١٢١ عن أبى العالية ، ثم قال : « وكذا قال الربيع بن أنس أيضاً » . هذا ، وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور ، والشوكانى خبراً خرجوه عن ابن جرير عن سعد بن أبى وقاص قال : « الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، قال : إياكم ونقض هذا الميثاق . وكان يسميهم : الفاسقين » الدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٥ . أما ابن كثير فقد رواه فى تفسيره ١ : ١١٩ نقلا عن ابن أبى حاتم ؛ بإسناده ، ولم ينسبه إلى الطبرى . وأخشى أن يكون وهماً من السيوطى والشوكانى .

(٢) فى المطبوعة : « وكان معنى الكلام » بالواو .

٥٧٤ — حدثنا بشر بن معاذ ، قال حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : « ويقطعون ماأمر الله به أنْ يوصَل » ، فقطع والله ما أمر الله به أن يوصل بقطيعة الرّحم والقرابة[1] .

* * *

وقد تأول بعضهم ذلك : أنّ الله ذمهم بقطعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به وأرحامَهم . واستشهد على ذلك بعموم ظاهر الآية ، وأن لا دلالة على أنه معنىٌّ بها بعضُ ما أمر الله بوصله دون بعض[2] .

قال أبو جعفر : وهذا مذهبٌ من تأويل الآية غيرُ بعيد من الصواب ، ولكن الله جل ثناؤه قد ذكر المنافقين فى غير آية من كتابه ، فوصفهم بقطع الأرحام . فهذه نظيرةُ تلك ، غير أنها — وإن كانت كذلك — فهى دالّةٌ على ذمّ الله كلّ قاطعٍ قطعَ ما أمر الله بوصله ، رَحماً كانتْ أو غيرَها .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾

قال أبو جعفر : وفسادُهم فى الأرض : هو ما تقدم وَصْفُناه قبلُ من معصيتهم ربَّهم ، وكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، وجحدهم نبوته ، وإنكارِهم ما أتاهم به من عند الله أنه حقٌّ من عنده . ١٤٥/١

* * *

(١) الأثر : ٥٧٤ — فى الدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٦ مختصراً ، ونصه هناك : « ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، قال : الرحم والقرابة » .

(٢) فى المخطوطة : « واستشهد على ذلك عموم ظاهر الآية ، ولا دلالة . . . » .

القول فى تأويل قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴾ (٢٧)

قال أبو جعفر : والخاسرون جمع خاسر[1] ، والخاسرون : الناقصُون أنفسَهم حظوظَها — بمعصيتهم الله — من رحمته ، كما يخسرُ الرجل فى تجارته ، بأن يوضَع من رأس ماله فى بيعه[2] . فكذلك الكافر والمنافق ، خسر بحرمان الله إياه رحمتَه التى خلقها لعباده فى القيامة ، أحوج ما كان إلى رحمته . يقال منه : خسِرَ الرجل يخسَرُ خَسْراً وخُسرَاناً وخَساراً ، كما قال جرير بن عطية :

إن سَلِيطاً فى الخَسَارِ إنَّهْ ... أولادُ قَوْمٍ خُلِقُوا أقِنَّهْ[3]

يعنى بقوله : « فى الخسار » ، أى فيما يوكسهم حظوظهم من الشرف والكرم .

وقد قيل : إن معنى « أولئك همُ الخاسرون » : أولئك هم الهالكون . وقد يجوز أن يكون قائل ذلك أراد ما قلنا من هلاك الذى وصف الله صفته بالصفة التى وصفه بها فى هذه الآية ، بحرمان الله إياه ما حرّمه من رحمته ، بمعصيته إياه وكفره به . فحمل تأويلَ الكلام على معناه ، دون البيان عن تأويل عين الكلمة بعينها ، فإن أهل التأويل ربما فعلوا ذلك لعلل كثيرة تدعوهم إليه .

وقال بعضهم فى ذلك بما :

٥٧٥ — حُدِّثت به عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : كل شىء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل « خاسر » ، فإنما يعنى به الكفر . وما نسبه إلى أهل الإسلام ، فإنما يعنى به الذنب .

---

(١) فى المطبوعة : « جمع الخاسر » ، وليست بشىء .

(٢) وضع فى البيع يوضع (مبنى للمجهول) وضيعة : إذا خسر خسارة من رأس المال .

(٣) ديوانه : ٥٩٨ ، والنقائض : ٤ ، واللسان (قنن) ، وروايته : « أبناء قوم » . وسليط : بطن من بنى يربوع قوم جرير ، واسم سليط : كعب بن الحارث بن يربوع . وكان غسان ابن ذهيل السليطى هجا بنى الخطفى ، فهجاه جرير بهذا الرجز . وأقنة جمع قن (بكسر القاف) ، والقن : العبد الذى ملك هو وأبواه . والأنثى ، قن أيضاً بغير هاء .

القول فى تأويل قول الله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك :

فقال بعضهم بما :

٥٧٦ — حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « كيفَ تكفرُون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » ، يقول : لم تكونوا شيئاً فخلقكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم يومَ القيامة .

٥٧٧ — حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا سفيان ، عن أبى إسحق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، فى قوله : ﴿ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ [سورة غافر : ١١] ، قال : هى كالتى فى البقرة : « كنتمْ أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » .

٥٧٨ — حدثنى أبو حَصين عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن يونس ، قال : حدثنا عَبْثَر ، قال : حدثنا حُصين ، عن أبى مالك، فى قوله : « أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » ، قال : خلقتنا ولم نكن شيئاً ، ثم أمَتَّنَا ، ثم أحْيَيْتَنَا .

٥٧٩ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هُشيم ، عن حُصين ، عن أبى مالك ، فى قوله : « أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » ، قال : كانوا أمواتاً فأحياهم الله ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم[1] .

---

(١) الأثر : ٥٧٩ — « حصين » . بضم الحاء المهملة : هو ابن عبد الرحمن السلمى . و « أبو مالك » : هو الغفارى الكوفى ، واسمه « غزوان » . سبقت ترجمته فى : ١٦٨

٥٨٠ ــ حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: حدثنى حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد، فى قوله: «كيف تكفرُون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم»، قال: لم تكونوا شيئاً حين خلقكم، ثم يميتكم الموْتةَ الحقّ، ثم يحييكم. وقوله: «أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين»، مثلها.

٥٨١ ــ حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنى حجاج، عن ابن جريج، قال: حدثنى عطاء الخراسانى، عن ابن عباس، قال: هو قوله: «أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين». ١٤٦/١

٥٨٢ ــ حُدثت عن عمار بن الحسن، قال: حدثنا عبد الله بن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قال: حدثنى أبو العالية، فى قول الله: «كيفَ تكفرون بالله وكنتم أمواتاً»، يقول: حين لم يكونوا شيئاً، ثم أحياهم حين خلقهم، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، ثم رَجعوا إليه بعد الحياة.

٥٨٣ ــ حُدثت عن المنجاب، قال: حدثنا بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله: «أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين»، قال: كنتم تُراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم، فهذه إحياءة. ثم يميتكم فترجعون إلى القبور، فهذه ميتة أخرى. ثم يبعثكم يوم القيامة، فهذه إحياءة. فهما ميتتان وحياتان، فهو قوله: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون».

وقال آخرون بما:

٥٨٤ ــ حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن السدى، عن أبى صالح: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم يميتكم ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون»، قال: يحييكم فى القبر، ثم يميتكم.

قال آخرون بما:

٥٨٥ ــ حدثنا به بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد بن زُريع، عن سعيد،

عن قتادة ، قوله : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً » الآية ، قال : كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم[١] ، فأحياهم الله وخلقهم ، ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة ، فهما حياتان وموتتان[٢] .

وقال بعضهم بما :

٥٨٦ — حدثنى به يونس، قال : أنبأنا ابن وهب، قال : قال ابن زيد، فى قول الله تعالى : « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » . قال : خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق، وقرأ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾، حتى بلغ : ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٢ — ١٧٣] . قال : فكسبهم العقلَ وأخذ عليهم الميثاق . قال : وانتزع ضلعاً من أضلاع آدم القُصَيرى[٣] فخلق منه حواء — ذكرَه عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : وذلك قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [سورة النساء : ١]، قال : وبثّ منهما بعد ذلك فى الأرحام خلقاً كثيراً[٤] ، وقرأ : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ [سورة الزمر : ٦]، قال : خلقاً بعد ذلك . قال : فلما أخذ عليهم الميثاق أماتهم، ثم خلقهم فى الأرحام ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم يوم القيامة، فذلك قول الله : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾.

---

(١) فى المخطوطة : « فى أصلبة » ، والصواب « صلبة » (بكسر الصاد وفتح اللام) أو « أصلب » (بسكون الصاد وضم اللام) . وكلاهما جمع صلب (بضم فسكون) : وهو عظم الظهر من لدن الكاهل إلى عجب الذنب .

(٢) الآثار : ٥٧٥ — ٥٨٥ : بعضها فى ابن كثير ١ : ١٢٢ مجملة ، وبعضها فى الدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٦ ، وكرهنا الإطالة بتفصيلها .

(٣) القصيرى ، بالتصغير : هى الضلع التى تلى الشاكلة أسفل الأضلاع ، وهى أقصرهن .

(٤) فى المطبوعة : « وبث فيهما بعد ذلك . . . » ، وهو خطأ .

وقرأ قول الله : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٧].
قال : يومئذ . قال : وقرأ قول الله :﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[1] [سورة المائدة : ٧] .

قال أبو جعفر : ولكلّ قول من هذه الأقوال التي حكيناها عمن روّيناها عنه ، وجه ومذهبٌ من التأويل .

* * *

فأما وجه تأويل من تأوّل قوله : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم » ، أى لم تكونوا شيئاً ، فإنه ذهب إلى نحو قول العرب للشيء الدارس والأمر الخامل الذكر : هذا شيء ميّتٌ ، وهذا أمر ميّت — يراد بوصفه بالموت : خُمول ذكره ، ودُرُوس أثره من الناس . وكذلك يقال فى ضد ذلك وخلافه : هذا أمر حيّ ، وذكر حيٌّ — يراد بوصفه بذلك أنه نابه مُتعالَم فى الناس ، كما قال أبو نُخَيْلة السعديّ :

فأَحْيَيْتَ لِي ذِكْرِي ، وَمَا كُنْتُ خَامِلاً   وَلٰكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ[2]

يريد بقوله : « فأحييتَ لى ذكرى » ، أى : رفعته وشهرته فى الناس حتى نبه فصار مذكوراً حيًّا ، بعد أن كان خاملاً ميتاً . فكذلك تأويل قول من قال فى قوله : « وكنتم أمواتاً » لم تكونوا شيئاً ، أى كنتم خُمولا لاذكر لكم ، وذلك كان موتكم فأحياكم ، فجعلكم بَشراً أحياء تُذكرون وتُعرفون ، ثم يميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم ، كالذى كنتم قبل أن يحييكم ، من دروس ذكركم ، وتعفِّى آثاركم ، وخمول أموركم ، ثم يحييكم بإعادة أجسامكم إلى هيئاتها ، ونفخ الروح فيها ، ١٤٧/١

(١) الأثر : ٥٨٦ — فى ابن كثير ١ : ١٢٢ ، والشوكانى ١ : ٤٧ ، مختصراً جداً .
(٢) الأغانى ١٨ : ١٤٠ ، والمؤتلف والمختلف للآمدى : ١٩٣ ، وأبو نخيلة اسمه لا كنيته ، كما قال أبو الفرج ، ويقال اسمه : يعمر بن حزن بن زائدة ، من بنى سعد بن زيد مناة ، وكان الأغلب عليه الرجز ، وله قصيد قليل ، وكان عاقاً بأبيه ، فنفاه أبوه عن نفسه . والبيت من أبيات ، يمدح بها مسلمة بن عبد الملك .

وتصييركم بشراً كالذى كنتم قبل الإماتة ، تتعارفون فى بعثكم وعند حشركم[1] .

* * *

وأما وجه تأويل من تأوّل ذلك : أنه الإماتة التى هى خروج الرّوح من الجسد ، فإنه ينبغى أن يكون ذهب بقوله « وكنتم أمواتاً » ، إلى أنه خطاب لأهل القبور بعد إحيائهم فى قبورهم . وذلك معنى بعيد ، لأن التوبيخ هنالك إنما هو توبيخ على ما سلف وفرط من إجرامهم ، لا استعتابٌ واسترجاعٌ[2] . وقوله جل ذكره : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً » ، توبيخ مُستعتِبٍ عبادَه ، وتأنيبُ مسترجعٍ خلقَه من المعاصى إلى الطاعة ، ومن الضلالة إلى الإنابة ، ولا إنابة فى القبور بعد الممات ، ولا توبة فيها بعد الوفاة .

* * *

وأما وجه تأويل قول قتادة ذلك : أنهم كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم . فإنه عنى بذلك أنهم كانوا نطفاً لا أرواح فيها ، فكانت بمعنى سائر الأشياء الموات التى لا أرواح فيها . وإحياؤه إياها تعالى ذكره ، نفخُه الأرواح فيها ، وإماتتُه إياهم بعد ذلك ، قبضُه أرواحهم . وإحياؤه إياهم بعد ذلك ، نفخُ الأرواح فى أجسامهم يوم يُنفخ فى الصّور ، ويُبعثُ الخلق للموعود .

* * *

وأما ابن زيد ، فقد أبان عن نفسه ما قصَد بتأويله ذلك ، وأنّ الإماتة الأولى عنده إعادة الله جل ثناؤه عبادَه فى أصلاب آبائهم ، بعد ما أخذَهم من صُلب آدم ، وأن الإحياء الآخر هو نفخ الأرواح فيهم فى بطون أمهاتهم ، وأن الإماتة الثانية هى قبضُ أرواحهم للعود إلى التراب[3] ، والمصير فى البرزخ إلى يوم

(١) فى المطبوعة : « لتعارفوا » ، وهى قريبة فى المعنى .

(٢) الاستعتاب : الاستقالة من الذنب ، والرجوع إلى ما يجلب الرضا ، أى أن يستقيلوا ربهم ويستغفروه ، ويرجعوا عن إساءتهم ويطلبوا رضاه . واستعتبه : طلب إليه الرجوع إلى ما يرضى . والاسترجاع : طلب الرجوع . واسترجعه : رده الله إلى الطاعة .

(٣) فى المخطوطة : « للعودة إلى التراب » ، وهى قريب.

البعث ، وأن الإحياء الثالثَ هو نفخُ الأرواح فيهم لبعث الساعة ونشر القيامة .

وهذا تأويل إذا تدبره المتدبر وجده خلافاً لظاهر قول الله الذى زعم مفسِّره أن الذى وصفنا من قوله تفسيره . وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر فى كتابه — عن الذين أخبر عنهم من خلقه — أنهم قالوا : « ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » ، وزعم ابن زيد فى تفسيره أنّ الله أحياهم ثلاث إحياءات ، وأماتهم ثلاث إماتات . والأمر عندنا — وإن كان فيما وَصَفَ من استخراج الله جل ذكره من صُلب آدم ذرّيته ، وأخذه ميثاقه عليهم كما وصف — فليس ذلك من تأويل هاتين الآيتين — أعنى قوله : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً » الآية ، وقوله : « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » — فى شيء . لأن أحداً لم يدع أن الله أمات من ذَرَأ يومئذ غيرَ الإماتة التى صار بها فى البرزخ إلى يوم البعث ، فيكون جائزاً أن يوجّه تأويل الآية إلى ما وجهه إليه ابن زيد .

* * *

وقال بعضُهم : الموتة الأولى مفارقة نطفة الرجل جسده إلى رحم المرأة ، فهى ميّتة من لَدُنْ فراقها جسدَه إلى نفخ الروح فيها . ثم يحييها الله بنفخ الروح فيها فيجعلها بشراً سويًّا بعد تارات تأتى عليها . ثم يميته الميتة الثانية بقبض الروح منه ، فهو فى البرزخ ميت إلى يوم ينفخ فى الصُّور ، فيردّ فى جسده روحه[1] ، فيعود حيًّا سويًّا لبعث القيامة . فذلك موتتان وحياتان . وإنما دعا هؤلاء إلى هذا القول ، لأنهم ١٤٨/١ قالوا : موتُ ذى الروح مفارقة الرّوح إياه . فزعموا أن كل شيء من ابن آدم حىّ ما لم يفارق جسده الحى ذا الروح . فكل ما فارق جسده الحى ذا الرّوح ، فارقتْه الحياةُ فصار ميتاً . كالعضو من أعضائه — مثل اليد من يديه ، والرِّجل من رجليه — لو قطعت فأبينتْ[2] ، والمقطوع ذلك منه حىٌّ ، كان الذى بان من جسده ميتاً لا رُوح فيه بفراقه سائر جسده الذى فيه الروح . قالوا : فكذلك نطفته حية بحياته

(١) فى المخطوطة : « فيرد فى جسمه » ، وهى قريب .
(٢) فى المطبوعة : « وأبينت » ، وهذه أجود .

ما لم تفارق جسده ذا الروح، فإذا فارقته مباينةً له صارت ميتةً ، نظيرَ ما وصفنا من حكم اليد والرجل وسائر أعضائه . وهذا قولٌ ووجه من التأويل ، لو كان به قائلٌ من أهل القدوة الذين يُرتضى للقرآن تأويلهم .

* * *

وأولى ما ذكرنا — من الأقوال التى بيَّنَّا — بتأويل قول الله جل ذكره: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم» الآية ، القول الذى ذكرناه عن ابن مسعود وعن ابن عباس : من أن معنى قوله : «وكنتم أمواتاً» أمواتَ الذكر ، خمولا فى أصلاب آبائكم نطفاً ، لا تُعرفون ولا تُذكرون : فأحياكم بإنشائكم بشراً سويًّا حتى ذُكِرتم وعُرِفتم وحَيِيتم ، ثم يُميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رُفاتاً لا تُعرفون ولا تُذكرونَ فى البرزخ إلى يوم تبعثون، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصَيحة القيامة ، ثم إلى الله ترجعون بعد ذلك ، كما قال : «ثم إليه تُرجعون» ، لأن الله جل ثناؤه يحييهم فى قبورهم قبلَ حشرهم، ثم يحشرهم لموقف الحساب ، كما قال جل ذكره :﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [سورة المعارج : ٤٣] وقال : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ [سورة يس : ٥١] .

والعلة التى من أجلها اخترنا هذا التأويل ، ما قد قدّمنا ذكره للقائلين به ، وفساد ما خالفه بما قد أوضحناه قبل .

وهذه الآية توبيخٌ من الله جل ثناؤه للقائلين : «آمنَّا بالله وباليوم الآخر» ، الذين أخبر الله عنهم أنهم مع قيلهم ذلك بأفواههم ، غيرُ مؤمنين به . وأنهم إنما يقولون ذلك خداعاً لله وللمؤمنين ، فعذَلهم الله بقوله : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم» ، ووبّخهم واحتجّ عليهم — فى نكيرهم ما أنكروا من ذلك وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة — فقال : كيف تكفرون بالله فتجحدون قدرته على إحيائكم بعد إماتتكم ، [لبعث القيامة ، ومجازاة المسىء منكم بالإساءة والمحسن

بالإحسان ، وقد كنتم نطفاً أمواتاً فى أصلاب آبائكم ، فأنشأكم خلقاً سويًّا ، وجعلكم أحياءً ، ثم أماتكم بعد إنشائكم . فقد علمتم أن مَنْ فعل ذلك بقدرته ، غير مُعجِزِه — بالقدرة التى فعل ذلك بكم — إحياؤكم بعد إماتتكم][1] ، وإعادتكم بعد إفنائكم ، وحشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم .

ثم عدّد ربنا تعالى ذكره عليهم وعلى أوليائهم من أحبار اليهود — الذين جمع بين قصَصهم وقصَص المنافقين فى كثير من آى هذه السورة التى افتتح الخبرَ عنهم فيها بقوله : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرْهم لا يؤمنون » — [2] نِعَمَه التى سلفت منه إليهم وإلى آبائهم ،التى عظُمتْ منهم مواقعها . ثم سلب كثيراً منهم كثيراً منها ، بما ركبوا من الآثام ، واجترموا من الأجْرام ، وخالفوا من الطاعة إلى المعصية ، محذّرَهم بذلك تعجيلَ العقوبة لهم ، كالتى عجلها للأسلاف والأفراط قبلهم ، ومُخوّفَهم حلُول مَثُلاتِه بساحتهم كالذى أحلَّ بأوّليهم ، ومُعرّفَهم ما لهم من النجاة فى سرعة الأوْبة إليه ، وتعجيل التوبة ، ومن الخلاص لهم يوم القيامة من العقاب[3] .

فبدأ بعد تعديده عليهم ما عدّد من نعمه التى هم فيها مُقيمون ، بذكر أبينا وأبيهم آدم أبى البشر صلوات الله عليه ، وما سلف منه من كرامته إليه ، وآلائه لديه ، وما أحلّ به وبعدوّه إبليس من عاجل عقوبته : ‌بمعصيتهما التى كانت منهما ، ومخالفتهما أمره الذى أمرهما به . وما كان من تغمُّده آدمَ برحمته إذْ تاب وأناب إليه . وما كان من إحلاله بإبليس من لعنته فى العاجل ، وإعداده له ما أعدّ له من العذاب المقيم فى الآجل ، إذ استكبر وأبى التوبة إليه والإنابة ، منبهاً لهم على حكمه ١٤٩/١

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة .

(٢) قوله « نعمه » مفعول قوله « ثم عدد ربنا . . . » ، وما بينهما فصل .

(٣) فى المطبوعة « يحذرهم بذلك . . . ويخوفهم . . . أحل بأوائلهم ، ويعرفهم » ، وانظر ما سيأتى فى ص : ١٥٤ ببولاق . وفى المخطوطة والمطبوعة : « من الخلاص . . . » بغير واو ، وهو لا يستقيم ، فلذلك زدناها . وقوله : « حلول مثلاته » جمع مثلة (بفتح الميم وضم الثاء) : وهى العقوبة والعذاب والنكال .

فى المنيبين إليه بالتوبة، وقضائه فى المستكبرين عن الإنابة، إعذاراً من الله بذلك إليهم، وإنذاراً لهم، ليتدبروا آياته وليتذكر منهم أولو الألباب. وخاصاً أهلَ الكتاب — بما ذَكر من قصص آدم وسائر القصص التى ذكرها معها وبعدها، مما علمه أهل الكتاب وجهلته الأمة الأمِّيَّة من مشركى عبَدة الأوثان — بالاحتجاج عليهم — دون غيرهم من سائر أصناف الأمم، الذين لا علم عندهم بذلك — لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم[1] ، ليعلموا بإخباره إياهم بذلك ، أنه لله رسولٌ مبعوث ، وأن ما جاءهم به فمن عنده . إذْ كان ما اقتص عليهم من هذه القصص ، من مكنون علومهم ، ومصون ما فى كتبهم ، وخفىّ أمورهم التى لم يكن يدّعى معرفة علمها غيرُهم وغيرُ من أخذ عنهم وقرأ كتبهم .

* * *

وكان معلوماً من محمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن قط كاتباً ، ولا لأسفارهم تالياً ، ولا لأحد منهم مُصاحباً ولا مجالساً ، فيمكنهم أن يدّعوا أنه أخذ ذلك من كتبهم أو عن بعضهم، فقال جل ذكره — فى تعديده عليهم ما هم فيه مقيمون من نعمه ، مع كفرهم به، وتركهم شكرَه عليها بما يجب له عليهم من طاعته[2] — : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٩] . فأخبرهم جل ذكره أنه خلق لهم ما فى الأرض جميعاً ، لأنّ الأرضَ وجميعَ ما فيها لبنى آدم منافعُ . أما فى الدين ، فدليلٌ على وحدانية ربهم ، وأما فى الدنيا فمعاشٌ وبلاغ لهم إلى طاعته وأداء فرائضه .

فلذلك قال جل ذكره : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » .

---

(١) سياق هذه العبارة : « وخاصاً أهل الكتاب . . . بالاحتجاج عليهم . . . لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم » . وما بين هذه الأحرف المتعلقة بمراجعها ، فصل متتابع ، كعادة الطبرى فى كتابته

وقوله : « هو » مكنىّ من اسم الله جل ذكره عائد على اسمه فى قوله: « كيف تكفرون بالله » . ومعنى خلقه ما خلق جلّ ثناؤه ، إنشاؤه عينه ، وإخراجه من حال العدم إلى الوجود . و « ما » بمعنى « الذى » .

فمعنى الكلام إذاً : كيف تكفرون بالله وكنتم نُطفاً فى أصلاب آبائكم فجعلكم بشراً أحياءً ، ثم يميتكم ، ثم هو مُحييكم بعد ذلك وباعثكم يوم الحشر للثواب والعقاب ، وهو المنعمُ عليكم بما خلق لكم فى الأرض من معايشكم وأدلتكم على وحدانية ربكم .

و « كيف » بمعنى التعجب والتوبيخ ، لا بمعنى الاستفهام ، كأنه قال : ويحكم كيف تكفرون بالله، كما قال : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [سورة التكوير : ٢٦].

وحل قولُه : « وكنتم أمواتاً فأحياكم » محلّ الحال . وفيه ضميرُ « قد »[1] ، ولكنها حذفت لما فى الكلام من الدليل عليها . وذلك أن « فعل » إذا حلت محلّ الحال كان معلوماً أنها مقتضية « قد » ، كما قال ثناؤه ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ [سورة النساء : ٩٠]، بمعنى : قد حَصِرَت صدورهم . وكما تقول للرجل : أصبحتَ كثرت ماشيتك ، تريد : قد كثرت ماشيتك .

وبنحو الذى قلنا فى قوله : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » ، كان قتادة يقول :

٥٨٧ — حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة، قوله : « هو الذى خلقَ لكم ما فى الأرض جميعاً »، نَعَمْ والله سخر لكم ما فى الأرض[2].

* * *

(١) فى المطبوعة « وفيه إضمار قد » ، ولم يرد بالضمير ما اصطلح عليه النحويون ، وإنما أراد المضمر الذى أخفى وستر . وانظر معانى القرآن للفراء ١ : ٢٣ — ٢٥ .

(٢) الأثر : ٥٨٧ — فى الدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٨ ، وفيهما زيادة على الذى فى أصول الطبرى ، وهى : « . . . ما فى الأرض جميعاً ، كرامةً من الله ونعمةً لابن

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾

قال أبو جعفر : اختلفوا فى تأويل قوله : « ثم استوى إلى السَّماء » .

فقال بعضهم : معنى استوى إلى السماء ، أقبل عليها ، كما تقول : كان فلان مقبلا على فلان ، ثم استوى علىّ يشاتمنى — واستوَى إلىّ يشاتمنى . بمعنى أقبل علىّ وإلىّ يشاتمنى . واستُشْهِد على أنّ الاستواء بمعنى الإقبال بقول الشاعر :

أَقُولُ وقد قَطَعْنَ بِنَا شَرَوْرَى سَوَامِدَ، واسْتَوَيْنَ مِنَ الضَّجُوعِ[1]

فزعم أنه عنى به أنهن خرجن من الضّجوع ، وكان ذلك عندهم بمعنى : أقبلن . وهذا من التأويل فى هذا البيت خطأ ، وإنما معنى قوله : « واستوين من الضجوع » ، استوين على الطريق خارجات ، بمعنى استقمن عليه . ١/١٥٠

وقال بعضهم : لم يكن ذلك من الله جل ذكره بتحوّل ، ولكنه بمعنى فعله ، كما تقول : كان الخليفة فى أهل العراق يواليهم ، ثم تحوّل إلى الشام . إنما يريد :

آدم متاعاً ، وبُلْغةً ومنفعة إلى أجل » .

هذا وقد زادا معاً أثراً آخر قالا أخرجه ابن جرير عن مجاهد ، هذا هو : « فى قوله : هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ، قال : سخّر لكم ما فى الأرض جميعاً » .
وإسناد هذا الأثر ، هو الذى يأتى برقم : ٥٩١ ، لأنه من تمامه ، كما هو بين فيما نقله السيوطى والشوكانى . ويوشك أن يكون فى نسخ الطبرى التى بين أيدينا حذف ألجأ الناسخ إليه طول الكتاب ، فقد مضى آنفاً مثل هذا النقص ، ومثل هذه الزيادة .

(١) البيت لتميم بن أبى بن مقبل (معجم ما استعجم : ٧٩٥ ، ٨٥٧) ، وروايته « ثوانى » مكان « سوامد » . وشرورى : جبل بين بنى أسد وبنى عامر ، فى طريق مكة إلى الكوفة . والضجوع — بفتح الضاد المعجمة — : موضع أيضاً بين بلاد هذيل وبنى سليم . وقوله : « سوامد » جمع سامد . سمدت الإبل فى سيرها : جدت وسارت سيراً دائماً ، ولم تعرف الإعياء . وسوامد : دوائب لا يلحقهن كلال . والنون فى « قطعن » للإبل .

تحوّل فيعله . [وقال بعضهم: وله : « ثم استوى إلى السماء » يعني به: استوت][1].
كما قال الشاعر :

أقولُ له لمَّا استَوى في تُرَابه عَلَى أيِّ دِينٍ قتَّل النَّاس مُصْعَبُ[2]

وقال بعضهم : « ثم استوى إلى السماء » ، عمدَ لها[3] . وقال : بل كلُّ تارك عملا كان فيه إلى آخر ، فهو مُستوٍ لما عمدَ له ، ومستوٍ إليه .

وقال بعضهم : الاستواء هو العلو ، والعلوّ هو الارتفاع . وممن قال ذلك الربيع بن أنس .

٥٨٨ ــ حُدِّثت بذلك عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « ثم استوى إلى السماء » . يقول : ارتفع إلى السماء[4] .

ثم اختلف متأوّلو الاستواء بمعنى العلوّ والارتفاع ، في الذي استوى إلى السّماء. فقال بعضهم: الذي استوى إلى السماء وعلا عليها ، هو خالقُها ومنشئها . وقال بعضهم : بل العالي عليها : الدّخانُ الذي جعله الله للأرض سماء[5] .

قال أبو جعفر : الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه : منها انتهاءُ شباب الرجل وقوّته ، فيقال ، إذا صار كذلك : قد استوى الرّجُل . ومنها استقامة ما كان فيه أوَدٌ من الأمور والأسباب ، يقال منه : استوى لفلان أمرُه . إذا استقام بعد أوَدٍ ، ومنه قول الطِّرِمَّاح بن حَكِيم :

طالَ على رَسْمِ مَهْدَدٍ أبَدُهْ وعَفَا وَاسْتَوَى بِهِ بَلَدُهْ[6]

---

(١) هذه الجملة بين القوسين ، ليست في المخطوطة ، وكأنها مقحمة .

(٢) لم أجد هذا البيت . وفي المطبوعة : « قبل الرأس مصعب » ، وهو خطأ لا شك فيه . وفي المخطوطة : « في ثراته » ، ولا معنى لها ، ولعلها « في تراثه » . وأنا في شك من كل ذلك . بيد أن مصعباً الذي ذكر في الشعر ، هو فيما أرجح مصعب بن الزبير .

(٣) في المطبوعة : « عمد إليها » .

(٤) الأثر : ٥٨٨ ــ في الدر المنثور ١ : ٤٣ ، والأثر التالي : ٥٨٩ ، من تمامه .

(٥) في المطبوعة : « العالي إليها » .

(٦) ديوانه : ١١٠ ، واللسان (سوى) قال : « وهذا البيت مختلف الوزن ، فالمصراع الأول

يعنى : استقام به . ومنها : الإقبال على الشيء يقال استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إليه . ومنها . الاحتياز والاستيلاء[١] ، كقولهم : استوى فلانٌ على المملكة . بمعنى احتوى عليها وحازَها . ومنها : العلوّ والارتفاع ، كقول القائل ، استوى فلان على سريره . يعنى به علوَّه عليه .

وأوْلى المعانى بقول الله جل ثناؤه : « ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن » ، علا عليهن وارتفع ، فدبرهنّ بقدرته ، وخلقهنّ سبع سموات .

والعجبُ ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب فى تأويل قول الله : « ثم استوى إلى السماء » ، الذى هو بمعنى العلو والارتفاع ، هرباً عند نفسه من أن يلزمه بزعمه — إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك — أن يكون إنما علاَ وارتفع بعد أن كان تحتها — إلى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر . ثم لم يَنْجُ مما هرَب منه ! فيقال له : زعمت أن تأويل قوله « استوى » أقبلَ ، أفكان مدْبِراً عن السماء فأقبل إليها ؟ فإن زعم أنّ ذلك ليس بإقبال فعل ، ولكنه إقبال تدبير ، قيل له : فكذلك فقُلْ : علا عليها علوّ مُلْك وسُلْطان ، لا علوّ انتقال وزَوال . ثم لن يقول فى شيء من ذلك قولا إلا ألزم فى الآخر مثله . ولولا أنا كرهنا إطالة الكتاب بما ليس من جنسه ، لأنبأنا عن فساد قول كل قائل قال فى ذلك قولاً ، لقول أهل الحق فيه مخالفاً . وفيما بينا منه ما يُشرِف بذى الفهم على ما فيه له الكفاية إن شاء الله تعالى .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل[٢] : أخبرنا عن استواء الله جل ثناؤه إلى السماء ، كان قبل خلق السماء أم بعده ؟

قيل : بعده ، وقبل أن يسويهن سبعَ سموات ، كما قال جل ثناؤه :

من المنسرح ، والثانى من الخفيف » . والرسم : آثار الديار اللاصقة بالأرض . ومهدد اسم امرأة . والأبد : الدهر الطويل ، والهاء فى « أبده » راجع إلى الرسم . وعفا : درس وذهب أثره . والبلد : الأثر يقول : انمحى رسمها حتى استوى بلا أثر .

(١) فى المخطوطة : « الاستيلاء والاحتواء » .

(٢) فى المطبوعة : « وإن قال . . . » .

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّماء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ [سورة فصلت : ١١] . والاستواء كان بعد أن خلقها دُخاناً ، وقبل أن يسوِّيَها سبعَ سموات.

وقال بعضهم : إنما قال : «استوى إلى السَّماء» ، ولا سماء ، كقول الرجل لآخر : ١٠١/١ «اعمل هذا الثوب» ، وإنما معه غزلٌ .

* * *

وأما قوله «فسواهن» فإنه يعنى هيأهن وخلقهن ودبَّرهن وقوَّمهن . والتسوية فى كلام العرب ، التقويم والإصلاح والتوطئة ، كما يقال : سوَّى فلان لفلان هذا الأمر . إذا قوّمه وأصلحه ووَطّأه له. فكذلك تسوية الله جل ثناؤه سمواته : تقويمه إياهن على مشيئته ، وتدبيره لهنّ على إرادته ، وتفتيقهنّ بعد ارتتاقهنّ[1] .

٥٨٩ ــ كما : حُدِّثت عن عمار ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : «فسوّاهن سبع سموات» يقول : سوّى خلقهن ، «وهو بكل شيء عليم[2]» .

وقال جل ذكره : «فسواهن» ، فأخرج مكنيَّهن مخرج مكنىِّ الجميع[3] ، وقد قال قبلُ : «ثم استوى إلى السماء» فأخرجها على تقدير الواحد . وإنما أخرج مكنيَّهن مخرج مكنىِّ الجميع ، لأن السماء جمع واحدها سماوة ، فتقدير واحدتها وجميعها إذاً تقدير بقرة وبقر ونخلة ونخل ، وما أشبه ذلك . ولذلك أنِّثت السماء مرة فقيل : هذه سماءٌ ، وذُكِّرت أخرى[4] فقيل : ﴿السَّماء مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [سورة المزمل : ١٨] ،

---

(١) فى المطبوعة : «بعد إرتاقهن» وليست بشيء ، وفى المخطوطة : «بعد أن نتاقهن» ، وظاهر أنها تحريف لما أثبتناه . وارتتق الشيء : التأم والتحم حتى ليس به صدع . وهذا من تأويل ما فى سورة الأنبياء : ٣٠ من قول الله سبحانه :
﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفروا أَن السَّمٰوات والأَرْضَ كانتا رَتْقًا فَفَتَقْناهُما﴾ والفتق : الشق.

(٢) الأثر : ٥٨٩ ــ فى الدر المنثور ١ : ٤٣ ، وهو من تمام الأثر السالف : ٥٨٨ .

(٣) المكنى : هو الضمير ، فيما اصطلح عليه النحويون ، لأنه كناية عن الذى أخفيت ذكره . وفى المطبوعة : «الجمع» مكان «الجميع» حيث ذكرت فى المواضع الآتية فى هذه العبارة .

(٤) فى المطبوعة : «أنث السماء . . . وذكر» بطرح التاء .

كما يُفعل ذلك بالجميع الذى لا فرق بينه وبين واحده غير دخول الهاء وخروجها ، فيقال : هذا بقر وهذه بقر ، وهذا نخل وهذه نخل ، وما أشبه ذلك .

وكان بعض أهل العربية يزعم أنّ السماء واحدة ، غير أنها تدلّ على السموات ، فقيل : « فسواهن » ، يراد بذلك التى ذُكِرت وما دلت عليه من سائر السموات التى لم تُذْكر معها [1] . قال : وإنما تُذكر إذا ذُكِّرت وهى مؤنثة ، فيقال : « السماء منفطر به » ، كما يذكر المؤنث[2] ، وكما قال الشاعر :

فَلَا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا ... وَلاَ أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا[3]

وكما قال أعشى بنى ثعلبة :

فَإِمَّا تَرَىْ لِمَّتِى بُدِّلَتْ ... فَإِنَّ الحوادِثَ أَزْرَى بِهَا[4]

---

(١) « بعض أهل العربية » هو الفراء ، وإن لم يكن اللفظ لفظه ، فى كتابه معانى القرآن ١ : ٢٥ ، ولكنه ذهب هذا المذهب ، فى كتابه أيضاً ص : ١٢٦ — ١٣١ .

(٢) هكذا فى الأصول « كما يذكر المؤنث » ، وأخشى أن يكون صواب هذه العبارة : « كما تذكر الأرض ، كما قال الشاعر : . . . » وقد ذكر الفراء فى معانى القرآن ذلك فقال : « . . . فإن السماء فى معنى جمع فقال : (فسواهن) للمعنى المعروف أنهن سبع سموات . وكذلك الأرض يقع عليها — وهى واحدة — الجمع . ويقع عليهما التوحيد وهما مجموعتان ، قال الله عز وجل : (رب السموات والأرض) ثم قال : (وما بينهما) ، ولم يقل : بينهن . فهذا دليل على ما قلت لك » . معانى القرآن ١ : ٢٥ ، وانظر أيضاً ص : ١٢٦ — ١٣١ .

(٣) البيت من شعر عامر بن جوين الطائى ، فى سيبويه ١ : ٢٤٠ ، ومعانى القرآن ١ : ١٢٧ والخزانة ١ : ٢١ — ٢٦ ، وشرح شواهد المغنى : ٣١٩ ، والكامل ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ٦٨ ، وقبله ، يصف جيشاً :

وَجَارِيةٍ من بَنَاتِ المُلُو ... كِ قَعْقَعْتُ بِالخَيْلِ خَلْخَالَهَا

كَكِرْفِئَةِ الغَيْثِ ذَاتِ الصَّبِيـ ... ـرِ تَرْمِى السَّحابَ وَيَرْمِى لَهَا

تَوَاعَدْتُها بَعْدَ مَرِّ النُّجُو ... مِ ، كَلْفاء تُكْثِرُ تَهْطالَهَا

فلا مزنة . . . .

(٤) أعشى بنى ثعلبة ، وأعشى بنى قيس ، والأعشى ، كلها واحد ، ديوانه ١ : ١٢٠ ، وفى سيبويه ١ : ٢٣٩ ، ومعانى القرآن للفراء ١ : ١٢٨ ، والخزانة ٤ : ٥٧٨ ، ورواية الديوان :

فإن تَعهَدِينى ولى لِمَّةٌ ... فإن الحوادثَ أَلْوَى بها

وقال بعضهم : السماء وإن كانت سماء فوق سماء وأرضاً فوق أرض ، فهي في التأويل واحدةٌ إن شئت ، ثم تكون تلك الواحدة جِماعاً ، كما يقال : ثوبٌ أخلاقٌ وأسمالٌ ، وبُرْمة أعشار ، للمتكسرة، وبُرْمة أكسار وأجبار. وأخلاق، أي أنّ نواحيه أخلاق[1].

* * *

فإن قال لنا قائل : فإنك قد قلت إن الله جل ثناؤه استوَى إلى السماء وهي دخان قبل أن يسويها سبع سموات ، ثم سواها سبعاً بعد استوائه إليها ، فكيف زعمت أنها جِماع ؟

قيل: إنهن كنّ سبعاً غيرَ مستويات ، فلذلك قال جل ذكره : فسوّاهن سبعاً . كما : —

٥٩٠ — حدثني محمد بن حميد، قال حدثنا سلمة بن الفضل، قال: قال محمد ابن إسحق: كان أوّلَ ما خلق الله تبارك وتعالى النورُ والظلمةُ ، ثم ميَّز بينهما ، فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً ، ثم سمك السموات السبع من دخان — يقال، والله أعلم، من دخان الماء — حتى استقللن ولم يحبُكْهن[2]. وقد أغطش في السماء الدنيا ليلها ، وأخرج ضُحاها ، فجرى فيها الليل والنهار ، وليس فيها شمس ولا قمر ولا نجوم . ثم دحا الأرض وأرْساها بالجبال ، وقدر فيها الأقوات ، وبث فيها ما أراد من الخلق ، ففرَغ من الأرض وما قدر فيها من أقواتها في أربعة أيام . ثم استوى إلى السماء وهي دخان — كما قال — فحبكهن ، وجعل في السماء الدنيا شمسها وقمرها ونجومها ، وأوحى في كل سماء أمرها ، فأكمل

ورواية سيبويه كما في الطبري ، إلا أنه روى « أودى بها » . وألوى به : ذهب به وأهلكه . وأودى به : أهلكه ، أيضاً . وأما « أزرى بها » : أي حقرها وأنزل بها الهوان ، من الزراية وهي التحقير . وكلها جيد .

(١) أخلاق ، جمع خلق (بفتحتين) : وهو البالي . وأسمال جمع سمل (بفتحتين) : وهو الرقيق المتمزق البالي . وبرمة أجبار ، ضد قولهم برمة أكسار ، كأنه جمع برمة جبر (بفتح فسكون) وإن لم يقولوه مفرداً ، كما لم يقولوا برمة كسر ، مفرداً . وأصله من جبر العظم ، وهو لأمه بعد كسره .

(٢) في المخطوطة : « ولم يحبكن » .

خلقهن فى يومين ، ففرغ من خلق السموات والأرض فى ستة أيام . ثم استوى فى اليوم السابع فوق سمواته ، ثم قال للسموات والأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً لما أردت بكما ، فاطمئنا عليه طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين [١] .

١٥٢/١

فقد أخبر ابن إسحق أنّ الله جل ثناؤه استوى إلى السماء — بعد خلق الأرض[٢] وما فيها — وهن سبع من دخان ، فسواهن كما وَصف . وإنما استشهدنا لقولنا الذى قلنا فى ذلك بقول ابن إسحق ، لأنه أوضح بياناً — عن خلق السموات[٣] ، أنهن كُنّ سبعاً من دخان قبل استواء ربنا إليها لتسويتها — من غيره[٤] ، وأحسنُ شرحاً لما أردنا الاستدلال به ، من أن معنى السماء التى قال الله تعالى ذكره فيها : « ثم استوى إلى السماء » بمعنى الجميع[٥] ، على ما وصفنا . وأنه إنما قال جل ثناؤه : « فسوّاهن » ، إذ كانت السماء بمعنى الجميع ، على ما بينا .

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : فما صفة تسوية الله جل ثناؤه السموات التى ذكرها فى قوله « فسواهن » ، إذ كن قد خُلِقن سبعاً قبل تسويته إياهن ؟ وماوجه ذِكْر خَلْقهن بعد ذِكر خَلْق الأرض ؟ ألأنها خلقت قبلها ، أم لمعنى غير ذلك[٦] ؟

قيل : قد ذكرنا ذلك فى الخبر الذى رويناه عن ابن إسحق ، ونؤكد ذلك تأكيداً بما نضم إليه من أخبار بعض السلف المتقدمين وأقوالهم[٧] :

---

(١) الأثر : ٥٩٠ — هذا الأثر فى الحقيقة تفسير للآيات ٩ — ١٢ من سورة فصلت . ولم يذكره الطبرى فى موضعه عند تفسيرها (٢٤ : ٦٠ — ٦٥ طبعة بولاق) . وكذلك لم يذكره ابن كثير والسيوطى والشوكانى — فى هذا الموضع ، ولا فى موضعه من تفسير سورة فصلت . وهو من كلام ابن إسحق ، ولا بأس عليهم فى الإعراض عن إخراجه . وقد صرح الطبرى هنا — بعد — أنه إنما ذكره استشهاداً ، لا استدلالا ، إذ وجده أوضح بياناً ، وأحسن شرحاً .

(٢) فى المطبوعة : « بعد خلقه الأرض » .

(٣) فى المطبوعة : « عن خبر السموات » .

(٤) فى المطبوعة : « بتسويتها » ، وسياق كلامه : « أوضح بياناً ... من غيره » ، وما بينهما فصل .

(٥) فى المطبوعة « بمعنى الجمع » ، وفى التى تليها ، وقد مضى مثل ذلك آنفاً .

(٦) فى المطبوعه : « أم بمعنى » ، وهذه أجود .

(٧) فى المطبوعة : « ونزيد ذلك توكيداً » .

٥٩١ — فحدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « هو الذى خلقَ لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعَ سموات » . قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء . فلما أراد أن يخلق الخلق ، أخرج من الماء دخاناً ، فارتفع فوق الماء فسما عليه ، فسماه سماء . ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعل سبع أرضين فى يومين — فى الأحد والاثنين ، فخلق الأرض على حوت ، والحوتُ هو النون الذى ذكره الله فى القرآن : « ن والقلم » ، والحوت فى الماء ، والماء على ظهر صفاة ، والصفاةُ على ظهر ملَك ، والملك على صخرة ، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان — ليست فى السماء ولا فى الأرض : فتحرك الحوت فاضطرب ، فتزلزلت الأرض ، فأرسى عليها الجبال فقرّت ، فالجبال تفخر على الأرض ، فذلك قوله : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾[1] [سورة النحل : ١٥] . وخلق الجبالَ فيها ، وأقواتَ أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين ، فى الثلاثاء والأربعاء ، وذلك حين يقول : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ يقول : أنبتَ شجرَها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ يقول : أقواتها لأهلها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ يقول : قلْ لمن يسألك : هكذا الأمر[2] ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [سورة فصلت ٩ — ١١] ، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ، فجعلها

---

(١) فى الأصول : « وجعل لها رواسى أن تميد بكم » ، وهو وهم سبق إليه القلم من النساخ فيما أرجح ، والآية كما ذكرتها فى سورة النحل ، ومثلها فى سورة لقمان : ١٠

(٢) فى المخطوطة : « يقول : من سأل ، فهكذا الأمر » .

سماء واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين — فى الخميس والجمعة ، وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض — « وأوحى فى كل سماء أمْرها » قال : خلق فى كل سماء خلقَها من الملائكة والخلق الذى فيها ، من البحار وجبال البَرَد ومالا يُعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب ، فجعلها زينةً وحِفظاً ، تُحفظُ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحبّ ، استوى على العرش . فذلك حين يقول : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] . ويقول : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[1] [سورة الأنبياء : ٣٠] .

٥٩٢ — وحدثنى الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله : « هوَ الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء » . قال : خلق الأرض قبل السماء ، فلما خلق الأرضَ ثار منها دخان ، فذلك حين يقول : « ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » . قال : بعضُهن فوق بعض ، وسبعَ أرضين ، بعضُهن تحت بعض[2] .

١٥٣/١

---

(١) الخبر : ٥٩١ — فى ابن كثير ١ : ١٢٣ ، والدر المنثور ١ : ٤٢ — ٤٣ ، والشوكانى ١ : ٤٨ . وقد مضى الكلام فى هذا الإسناد ، واستوعب أخى السيد أحمد شاكر تحقيقه فى موضعه (انظر الخبر : ١٦٨) ، وقد مضى أيضاً قول الطبرى ، حين عرض لهذا الإسناد فى الأثر رقم : ٤٦٥ ص : ٣٥٣ : « فإن كان ذلك صحيحاً ، ولست أعلمه صحيحاً ، إذ كنت بإسناده مرتاباً . . . » . وقد مضى الطبرى فى تفسيره على رواية مالم يصح عنده إسناده ، لعلمه أن أهل العلم كانوا يومئذ يقومون بأمر الإسناد والبصر به ، ولا يتلقون شيئاً بالقبول إلا بعد تمحيص إسناده . فلئن سألت : فيم يسوق الطبرى مثل هذا الخبر الذى يرتاب فى إسناده ؟ وجواب ذلك : أنه لم يسقه ليحتج بما فيه ، بل ساقه للاعتبار بمعنى واحد ، وهو أن الله سبحانه سمك السموات السبع من دخان ، ثم دحا الأرض وأرساها بالجبال ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فحبكهن سبعاً ، وأوحى فى كل سماء أمرها . وليس فى الاعتبار بمثل هذا الأثر ضرر ، لأن المعنى الذى أراده هو ظاهر القرآن وصريحه . وإن كان الخبر نفسه مما تلقاه بعض الصحابة عن بنى إسرائيل ، لا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا حجة إلا فيما أنزل الله فى كتابه ، أو فى الذى أوحى إلى نبيه مما صح عنه إسناده إليه . وكل ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبلناه لا نحكم فيه أحداً ، فإن قوله هو المهيمن بالحق على أقوال الرجال .

(٢) الأثر : ٥٩٢ — فى ابن كثير ١ : ١٢٤ ، والدر المنثور ١ : ٤٢ ، والشوكانى ١ : ٤٨ .

٥٩٣ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أنبأنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله : « فسواهن سبعَ سموات » قال : بعضُهن فوق بعض ، بين كل سماءين مسيرة خمسمئة عام .

٥٩٤ — حدثنا المثنى بن إبراهيم قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثنى معاوية بن صالح ، عن على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : — حيث ذكر خلق الأرض قبل السماء ، ثم ذكر السماء قبل الأرض ، وذلك أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء — « ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات » ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، فذلك قوله : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ [سورة النازعات : ٣٠] .

٥٩٥ — حدثنى المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثنى أبو معشر ، عن سعيد بن أبي سعيد ، عن عبد الله بن سلام أنه قال : إنّ الله بدأ الخلق يوم الأحد ، فخلق الأرَضِين في الأحد والاثنين ، وخلق الأقواتَ والرواسيَ في الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات في الخميس والجمعة ، وفرَغ في آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم على عجل . فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة .

قال أبو جعفر : فمعنى الكلام إذاً : هو الذى أنعم عليكم ، فخلق لكم ما في الأرض جميعاً وسخَّره لكم تفضُّلاً منه بذلك عليكم ، ليكون لكم بلاغاً في دنياكم ومتاعاً إلى موافاة آجالكم ، ودليلاً لكم على وَحدانية ربكم . ثم علا إلى السموات السبع وهى دخان ، فسوَّاهنَّ وحبَكهن ، وأجرى في بعضهن شمسه وقمره ونجومه ، وقدر في كل واحدة منهن ما قدر من خلقه[1] .

* * *

---

(١) الآثار : ٥٩٣ — ٥٩٥ ، لم نجدها في شيء من تلك المراجع .

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٩)

يعنى بقوله جل جلاله : « وهو » نفسَه ، وبقوله : « بكل شىء عليم » أن الذى خلقكم ، وخلق لكم ما فى الأرض جميعاً ، وسوّى السموات السبع بما فيهن فأحكمهن من دخان الماء ، وأتقن صُنعهنّ ، لايخفى عليه — أيها المنافقون والملحدون الكافرون به من أهل الكتاب[1] — ما تُبدون وما تكتمون فى أنفسكم ، وإن أبدى منافقوكم بألسنتهم قولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وهم على التكذيب به منطوون . وكذّبتْ أحباركم بما أتاهم به رسولى مِن الهدى والنور ، وهم بصحته عارفون . وجحدوه وكتموا ما قد أخذتُ عليهم — ببيانه لخلقى من أمر محمد ونُبوّته — المواثيقَ وهم به عالمون . بل أنا عالم بذلك من أمركم وغيره من أموركم . وأمور غيركم[2] ، إنى بكل شىء عليم .

وقوله : « عليم » بمعنى عالم . ورُوِى عن ابن عباس أنه كان يقول : هو الذى قد كمَل فى علمه .

٥٩٦ — حدثنى المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا معاوية بن صالح ، قال : حدثنى على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : العالم الذى قد كمَل فى علمه[3] .

* * *

---

(١) فى المخطوطة : « وأهل الكتاب » عطفاً .
(٢) فى المطبوعة : « بل أنا عالم بذلك وغيره من أموركم . . . » .
(٣) الخبر : ٥٩٦ — ليس فى مراجعنا .

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾

قال أبوجعفر : زعم بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة[1] : أن تأويل قوله : « وإذ قال ربك » ، وقال ربك ؛ وأن « إذ » من الحروف الزوائد ، وأن معناها الحذف . واعتلّ لقوله الذى وصفنا عنه فى ذلك ببيت الأسود بن يَعْفُر :

فَإِذَا وذَلك لامَهَاهَ لِذِكْرِهِ والدَّهْرُ يُعْقِب صَالِحاً بفَسَادِ[2]

(١) هو أبو عبيدة (انظر تفسير ابن كثير ١ : ١٢٥) ، وكما مضى آنفاً فى مواضع من كلام الطبرى . ويؤيد ذلك أن البغدادى نقل فى شرح بيت عبد مناف بن ربعى ، (الخزانة ٣ : ١٧١) ، عن ابن السيد : « وقال أبو عبيدة: إذا ، زائدة ، فلذلك لم يؤت لها بجواب » . هذا والشاهدان الآتيانِ فى زيادة « إذا » لا فى زيادة « إذ » ، وهو من جرأة أبى عبيدة وخطئه ، وأيا ما كان قائله ، فهو جرىء مخطئ .

(٢) المفضليات ، القصيدة رقم : ٤٤ ، وليس البيت فى رواية ابن الأنبارى شارح المفضليات . وقوله « لامهاه » ، يقال : ليس لعيشنا مهه (بفتحتين) ومهاه : أى ليس له حسن أو نضارة . وقد زعموا أن الواو فى قوله « فإذا وذلك . . . » زائدة مقحمة ، كأنه قال : فإذا ذلك ... ، وقد قال الطبرى فى تفسير قوله تعالى : « حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » ج ٢٤ ص ٢٤ : « واختلف أهل العربية فى موضع جواب « إذا » التى فى قوله : (حتّى إذا جاءوها) ، فقال بعض نحويى البصرة ، يقال إن قوله : (وقال لهم خزنتها) فى معنى : قال لهم . كأنه يلغى الواو . وقد جاء فى الشعر شىء يشبه أن تكون الواو زائدة ، كما قال الشاعر :

فَإِذَا وَذَلكَ يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ إلاَّ تَوَهُّمَ حَالِمٍ بِخَيَالِ

فيشبه أن يكون يريد : فإذا ذلك لم يكن » . وقال أبو سعيد السكرى فى شرح أشعار الهذليين ٢ : ١٠٠ ، فى شرح بيت أبى كبير الهذلى :

فَإِذَا وَذَلكَ لَيْسَ إلاَّ حِينَهُ وَإِذَا مَضَى شَىءٌ كَأَنْ لَمْ يُفْعَلِ

قال أبوسعيد : « الواو زائدة. قال: قلت لأبى عمرو : يقول الرجل : ربنا ولك الحمد . فقال : يقول الرجل : قد أخذت هذا بكذا وكذا . فيقول : وهو لك » .

وقال ابن الشجرى فى أماليه ١ : ٣٥٨ : « قيل فى الآية إن الواو مقحمة ، وليس ذلك بشىء ، لأن زيادة الواو لم تثبت فى شىء من الكلام الفصيح » . والذى ذهب إليه ابن الشجرى هو الصواب ،

ثم قال : ومعناها : وذلك لامهاه لذكره — وببيت عبد مناف بن رِبْع الهُذَلِىّ :

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهم فى قُتَائِدَةٍ شَلًّا كَمَا تَطْرُدُ الجَمَّالَةُ الشُّرُدَا[1]

وقال : معناه ، حتى أسلكوهم .

قال أبو جعفر : والأمر فى ذلك بخلاف ما قال : وذلك أن « إذ » حرف يأتى بمعنى الجزاء ، ويدل على مجهول من الوقت . وغيرُ جائز إبطال حرف كان دليلاً على معنى فى الكلام . إذْ سواءٌ قيلُ قائلٍ : هو بمعنى التطوُّل ، وهو فى الكلام دليل على معنى مفهوم — وقيلُ آخرَ ، فى جميع الكلام الذى نطق به دليلاً على ما أريد به : هو بمعنى التطوُّل[2] . ١٥٤/١

ولكل شاهد مما استشهدوا به وجه فى البيان ، ليس هذا موضع تفصيله . وكفى برد الطبرى فى هذا الموضع ما زعمه أبو عبيدة من زيادة « إذ » كما سيأتى : « وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام » إلى آخر ما قال . وهو من سديد الفهم . وشرحه للبيت بعد ، يدل على أنه لا يرى زيادة الواو ، وذلك قوله فى شرحه : « فإذا الذى نحن فيه ، وما مضى من عيشنا » .

(١) ديوان الهذليين ٢ : ٤٢ ، ويأتى فى تفسير الطبرى ١٤ : ٨ ، ١٨ : ١٣ ، ٢٤ : ٢٥ (طبعة بولاق) والخزانة ٣ : ١٧٠ — ١٧٤ ، وأمالى ابن الشجرى ١ : ٣٥٨ ، ٢ : ٢٨٩ ، وكثير غيرها . وسلك الرجل الطريق ، وسلكه غيره فيه ، وأسلكه الطريق : أدخله فيه أو اضطره إليه . وقتائدة : جبل بين المنصرف والروحاء ، أى فى الطريق بين مكة والمدينة . وشل السائق الإبل : طردها أمامه طرداً . ومر فلان يشل العدو بالسيف : يطردهم طرداً يفرون أمامه . والجمالة : أصحاب الجمال . وشرد البعير فهو شارد وشرود : نفر وذهب فى الأرض ، وجمع شارد شرد (بفتحتين) مثل خادم وخدم . وجمع شرود شرد (بضمتين) . ويذكر عبد مناف قوماً أغاروا على عدو لهم ، فأزعجوهم عن منازلهم ، واضطروهم إلى « قتائدة » يطردونهم بالسيوف والرماح والنبال ، كما تطرد الإبل الشوارد . وجواب « إذا » تقديره : شلوهم شلا ، فعل محذوف دل عليه المصدر ، كما سيأتى فى كلام الطبرى بعد .

(٢) فى المخطوطة : « هو بمعنى التطول فى الكلام » . وهو خطأ . والتطول ، فى اصطلاح الطبرى وغيره : الزيادة فى الكلام بمعنى الإلغاء ، كما مضى آنفاً فى ص ١٤٠ من بولاق ، وأراد الطبرى أن ينفى ما لج فيه بعض النحاة من ادعاء اللغو والزيادة فى الكلام ، فهو يقول : إذا كان للحرف أو الكلمة معنى مفهوم فى الكلام ، ثم ادعيت أنه زيادة ملغاة ، فجائز لغيرك أن يدعى أن جملة كاملة مفهومة المعنى ، أو كلاماً كاملا مفهوم المعنى — إنما هى زيادة ملغاة أيضاً . وبذلك يبطل كل معنى لكل كلام ، إذ يجوز لمدع أن يبطل منه ما يشاء بما يهوى من الجرأة والادعاء . وهذا تأييد لمذهبنا الذى ارتضيناه فى التعليق السالف .

وليس لما ادَّعَى الذى وصفنا قوله[1] — فى بيت الأسود بن يعفر : أن « إذا » بمعنى التطوّل — وجه مفهوم ، بل ذلك لو حذف من الكلام لبطل المعنى الذى أراده الأسود بن يعفر من قوله :

* فَإِذَا وذلك لَامَهَاهَ لِذِكْرِهِ *

وذلك أنه أراد بقوله : فإذا الذى نحن فيه ، وما مضى من عيشنا . وأشار بقوله « ذلك » إلى ما تقدم وصْفه من عيشه الذى كان فيه — « لامهاه لذكره » يعنى لا طعمَ ولا فضلَ ، لإعقاب الدهر صَالح ذلك بفساد . وكذلك معنى قول عبد مناف بن رِبْعٍ :

حتى إذا أسلكوهم فى قُتَائدةٍ شَلاًّ . . . . . .

لو أسقط منه « إذا » بطل معنى الكلام ، لأن معناه : حتى إذا أسلكوهم فى قتائدة سلكوا شلا ، فدل قوله . « أسلكوهم شلا » على معنى المحذوف ، فاستغنى عن ذكره بدلالة « إذا » عليه ، فحذف . كما دَلّ — ماقد ذكرنا فيما مضى من كتابنا[2] — على ما تفعل العربُ فى نظائر ذلك . وكما قال النمر بن تَوْلَب :

فإنِ المَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَها فَسَوْفَ تُصَادِفُه أَيْنَمَا[3]

وهو يريد : أينما ذهب . وكما تقول العرب : « أتيتك من قبلُ ومن بعدُ » . تريد من قبل ذلك ، ومن بعد ذلك . فكذلك ذلك فى « إذا » كما يقول القائل :

---

(١) فى المطبوعة « وليس لمدعى الذى . . . » وهو خطأ .

(٢) فى المطبوعة : « كما قد ذكرنا فيما مضى من كتابنا على ما تفعل . . . » ، وفى المخطوطة : « كما قال .قد ذكرنا فيما مضى ... » ، وكلاهما خطأ ، الأول، من تغيير المصححين ، والثانى تصحيف فى « قال » ، فهى « دل » ، والنقطة السوداء ، بياض كان فى الأصل المنقول عنه ، أو « ما » ضاعت ألفها وبقيت « . » مطموسة ، فظنها ظان علامة فصل .

هذا وقد أشار الطبرى إلى ما مضى فى كتابه هذا ص : ١١٤ ، ص : ٣٢٧ فانظره .

(٣) من قصيدة محكمة فى مختارات ابن الشجرى ١ : ١٦ ، والخزانة ٤ : ٤٣٨ ، وشرح شواهد المغنى : ٦٥ ، وبعده :

وإنْ تتخطّاكَ أَسْبابُهـا فإن قُصَاراكَ أَنْ تهرمَا

« إذا أكرمك أخوكَ فأكرمه ، وإذا لا فلا » . يريد : وإذا لم يكرمك فلا تكرمه . ومن ذلك قول الآخر :

فَإِذَا وذَلِكَ لاَ يَضُرُّكَ ضُرُّهُ   فى يَوْمِ أَسْأَلُ نَائِلاً أو أَنْكَدَا[1]

نظيرَ ما ذكرنا من المعنى فى بيت الأسود بن يعفر . وكذلك معنى قول الله جل ثناؤه : « وإذ قالَ ربك للملائكة » ، لو أبْطِلت « إذ » وحُذِفت من الكلام ، لاستحال عن معناه الذى هو به[2] ، وفيه « إذ » .

فإن قال لنا قائل : فما معنى ذلك ؟ وما الجالب لـ « إذ » ، إذ لم يكن فى الكلام قبله ما يُعطف به عليه[3] ؟

قيل له : قد ذكرنا فيما مضى[4] : أنّ الله جل ثناؤه خاطب الذين خاطبهم بقوله : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم » ، بهذه الآيات والتى بعدها ، مُوَبِّخهم مقبحاً إليهم سوءَ فعالهم ومقامهم على ضلالهم ، مع النعم التى أنعمها عليهم وعلى أسلافهم ، ومذكِّرَهم - بتعديد نعمه عليهم وعلى أسلافهم - بأسَه ، أن يسلكوا سبيل من هلك من أسلافهم فى معصيته[5] ، فيسلك بهم سبيلهم فى عقوبته ، ومعرِّفهم ما كان منه من تعطّفه على التائب منهم استعتاباً منه لهم . فكان مما عدّد من نعمه عليهم أنه خلق لهم ما فى الأرض جميعاً ، وسخّر لهم ما فى السموات من شمسها

(١) لم أعرف صاحبه . وفى المطبوعة :

« فى يوم أثل نائلا أو أنكدا »

وهو خطأ عريق. وفى المطبوعة: « أسل نائلا » ، وهى أقرب إلى الصواب . الضر : سوء الحال من فقر أو شدة أو بلاء أو حزن . والنائل : ما تناله وتصيبه من معروف إنسان . ونكده ما سأله : قلل له العطاء ، أو لم يعطه البتة ، يقول القائل :

وأَعْطِ ما أعطيتَهُ طَيِّباً   لا خيرَ فى المنكودِ والنَّاكِدِ

(٢) قوله : « الذى هو به » ، أى : الذى هو به كلام قائم مفهوم .

(٣) فى المطبوعة : « فإن قال قائل » ، بحذف : « لنا » .

(٤) انظر ما سلف فى ص : ٤٢٤ وما بعدها .

(٥) فى المطبوعة : « من أسلافهم فى معصية الله » ، وفى المخطوطة : « سلافهم » مضبوطة بالقلم بضم السين وتشديد اللام ، وفى المواضع السالفة : « أسلاف » . والأسلاف والسلاف جمع سلف وسالف : وهم آباؤنا الذين مضوا وتقدمونا إلى لقائه سبحانه .

وقمرها ونجومها ، وغير ذلك من منافعها التى جعلها لهم ولسائر بنى آدم معهم منافع .
فكان فى قوله تعالى ذكره « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » ، معنى : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، إذ خلقتكم ولم تكونوا شيئاً . وخلقت لكم ما فى الأرض جميعاً ، وسويت لكم ما فى السماء .
ثم عطف بقوله : « وإذ قال رَبُّك للملائكة » على المعنى المقتضَى بقوله : « كيف تكفرون بالله » ، إذ كان مقتضياً ما وصفتُ من قوله : اذكروا نعمتى إذ فعلت بكم وفعلتُ ، واذكروا فعلى بأبيكم آدم إذ قلتُ للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً[1] .

١/١٥٥ فإن قال قائل : فهل لذلك من نظير فى كلام العرب نعلم به صحة ما قلت ؟
قيل : نعم ، أكثرُ من أن يحصى ، من ذلك قول الشاعر :

أَجِدَّكَ لَنْ تَرَى بِثُعَيْلِبَاتٍ وَلاَ بَيْدَانَ نَاجِيَةً ذَمُولاَ[2]
ولاَ مُتَدَارِكٍ والشمْسُ طِفْلٌ بِبعضِ نَوَاشغِ الوَادى حُمُولاَ[3]

فقال : « ولامتدارِكٍ » ، ولم يتقدمه فعلٌ بلفظه يعطفه عليه[4] ، ولا حرف

---

(١) هذا الذى قاله أبو جعفر تغمده الله بمغفرته ، من أجود النظر فى تأويل كتاب الله ، ومن حسن بصره بالعربية وأسرار إيجازها ، واعتمادها على الاكتفاء بالقليل من اللفظ الدال على الكثير من المعنى ، واتخاذها الحروف روابط المعانى الجامعة ، لا لرد حرف على حرف سبق .

(٢) هو للمرار بن سعيد الفقعسى ، معانى القرآن للفراء ١ : ١٧١ ، مجالس ثعلب : ١٥٩ ، اللسان (بيد) (طفل) (نشغ) ، ومعجم البلدان (ثعيلبات) . وثعيلبات و بيدان موضعان . والناجية : الناقة السريعة ، من النجاء : وهو سرعة السير . والذمول : الناقة التى تسير سيراً سريعاً ليناً . ذملت ذميلا وذملاناً .

(٣) يروى « ولا متلافياً » بالنصب . وتدارك القوم (متعدياً) ، بمعنى أدركهم ، أو حاول اللحاق بهم . وتلافاه : تداركه أيضاً . والشمس طفل : يعنى هنا : عند شروقها — لا عند غروبها — أخذت من الطفل الصغير . ونواشغ الوادى جمع ناشغة : وهى مجرى الماء إلى الوادى . الحمول : هى الهوادج التى فيها النساء تحملها الإبل . وسميت الإبل وما عليها حمولا ، لأنهم يحملون عليها الهوادج للرحلة . يقول : لن تدركهم ، فقد بكروا بالرحيل .

(٤) فى المطبوعة : « يعطف عليه » . وفى المخطوطة « يعطف به » ، وقوله « به » ملصقة إلصاقاً فى الفاء من « يعطف » .

مُعرَب إعرابَه ، فيردّ « متدارك » عليه فى إعرابه . ولكنه لما تقدّمه فعل مجحود بـ « لن » يدل على المعنى المطلوب فى الكلام من المحذوف[١] ، استغنى بدلالة ما ظهر منه عن إظهار ما حُذِف ، وعاملَ الكلامَ فى المعنى والإعراب معاملته أن لو كان ما هو محذوف منه ظاهراً [٢]. لأن قوله :

* أجدَّكَ لن ترَى بثُعَيْلِبَاتٍ *

بمعنى : « أجدّك لستَ بِرَاءٍ »، فردّ « متداركاً » على موضع « ترى »، كأنّ « لست » و « الباء » موجودتان فى الكلام . فكذلك قوله : « وإذ قالَ رَبُّكَ » ، لمّا سلف قبله تذكير الله المخاطبين به ما سلف قِبَلهم وقِبَلَ آبائهم من أياديه وآلائه ، وكانَ قوله : « وإذ قال ربك للملائكة » مع ما بعده من النعم التى عدّدها عليهم ونبّههم على مواقعها — رَدّ « إذْ » على موضع « وكنتم أمواتاً فأحياكم » . لأن معنى ذلك : اذكروا هذه من نعمى ، وهذه التى قلت فيها للملائكة . فلما كانت الأولى مقتضية « إذ »، عطف بـ « إذ » على موضعها فى الأولى[٣] ، كما وصفنا من قول الشاعر فى « ولا متدارك » .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾

قال أبو جعفر : والملائكة جمع مَلأَكٍ[٤] ، غيرَ أن أحدَهم[٥] ، بغير الهمزة أكثرُ وأشهر فى كلام العرب منه بالهمز . وذلك أنهم يقولون فى واحدهم : مَلَكٌ من

---

(١) فى المطبوعة : « فى الكلام ، وعلى المحذوف » ، لعله من تغيير المصححين . وأراد الطبرى أن الفعل المجحود ، يدل على المعنى المطلوب من المحذوف . وهذا بين .

(٢) فى المخطوطة : « إذ لو كان ما هو محذوف منه ظاهر » ، وهو خطأ .

(٣) فى المطبوعة : « عطف « وإذ » على موضعها فى الأولى » ، وليس بشىء .

(٤) فى المطبوعة والمخطوطة : « جمع ملك » ، وظاهر كلام الطبرى يدل على صواب ما أثبتناه .

(٥) فى المطبوعة : « غير أن واحدهم » ، وهما سواء .

الملائكة، فيحذفون الهمز منه ، ويحركون اللام التي كانت مسكنة لو هُمز الاسم . وإنما يحركونها بالفتح ، لأنهم ينقلون حركة الهمزة التي فيه بسقوطها إلى الحرف الساكن قبلها : فإذا جمعوا واحدهم ، ردّوا الجمعَ إلى الأصل وهمزوا ، فقالوا : ملائكة .

وقد تفعل العرب نحو ذلك كثيراً في كلامها ، فتترك الهمز في الكلمة التي هي مهموزة ، فيجري كلامهم بترك همزها في حال ، وبهمزها في أخرى ، كقولهم : « رأيت فلاناً » فجرى كلامهم بهمز « رأيت » ثم قالوا : « نرى وترى ويرى » ، فجرى كلامهم في « يفعل » ونظائرها بترك الهمز ، حتى صارَ الهمز معها شاذًّا ، مع كون الهمز فيها أصلاً . فكذلك ذلك في « ملك وملائكة » ، جرى كلامهم بترك الهمز من واحدهم ، وبالهمز في جميعهم . وربما جاء الواحد مهموزاً ، كما قال الشاعر :

فلَسْتَ لإنسِيٍّ ولكنْ لِمَلْأَكٍ تحدَّرَ من جَوِّ السَّماء يَصُوبُ[(١)]

وقد يقال في واحدهم ، مألك ، فيكون ذلك مثل قولهم : جَبَذ وجذب ، وشأمَل وشمأل ، وما أشبه ذلك من الحروف المقلوبة . غير أن الذى يجبُ إذا سمي واحدهم « مألك » أن يجمع إذا جمع على ذلك « مآلك » ، ولست أحفظ جمعَهم كذلك سماعاً ، ولكنهم قد يجمعون : ملائك وملائكة ، كما يجمع أشعث : أشاعث وأشاعثة ، ومِسْمع : مَسامِع ومَسامِعة ، قال أميّة بن أبي الصّلت في جمعهم كذلك :

وفِيهما مِنْ عِبَادِ الله قومٌ مَلَائِكُ ذُلِّلوا وهُمُ صِعَابُ[(٢)]

وأصل الملأك : الرسالة ، كما قال عدى بن زيد العِبَادِيّ :

---

(١) سلف الكلام على هذا البيت في ص : ٣٣٣ ، ورواية المخطوطة في هذا الموضع :

« ولستَ لجنِّيّ ولكنّ مَلْأَكاً »

(٢) ديوانه : ١٩ . « ذللوا » من الذل (بكسر الذال) وذلله : راضه حتى يذل ويلين ويطيع .

أَبْلِغِ النُّعْمَـــان عَنِّى مَلأَكًا إِنَّه قد طال حَبْسِى وَانْتِظَارِى(١)

وقد ينشد : مألكاً ، على اللغة الأخرى. فمن قال : ملأكاً فهو مَفْعل، من لأك إليه يَلأك إذا أرسل إليه رسالة مَلأكة(٢) ؛ ومن قال : مَألكاً فهو مَفْعل من ألكت إليه آلك : إذا أرسلت إليه مألكة وألُوكاً(٣) ، كما قال لبيد بن ربيعة(٤) :

١٠٦/١

وَغُلامٍ أَرْسَلَتْـــه أُمُّه بِأَلُوكٍ فَبَذَلْنا ما سَأَل(٥)

فهذا من « ألكت » ، ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

أَلِكْنى ياعُيَيْنَ إليكَ قَوْلاً سَأَهْدِيه ، إِلَيْكَ إِلَيْكَ عَنِّى(٦)

---

(١) الأغانى ٢ : ١٤ ، والعقد الفريد ٥ : ٢٦١ ، وفى المطبوعة «وانتظار» ، وهى إحدى قصائد عدى ، التى كان يكتبها إلى النعمان ، لما حبسه فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد . وبعده البيت المشهور ، وهو من تمامه :

لَوْ بغيرِ المــاء حَلْقِى شرِقٌ كُنْتُ كالغَصَّانِ بالماء اعتصارِى

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « يلئك » ، وهذا الثلاثى : « لأك يلأك » لم أجده منصوصاً عليه فى كتب اللغة ، بل الذى نصوا عليه هو الرباعى : « ألكنى إلى فلان : أبلغه عنى . أصله ألئكنى ، فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على ما قبلها » ، ولكنهم نصوا على أنه مقلوب ، فإذا صح ذلك ، صح أيضاً أن تكون « لأك » مقلوب « ألك » الثلاثى ، وهو مما نصوا عليه .

(٣) كلام الطبرى يشعر بأنه أراد وزن « مفعل » بفتح العين ، فهى مألك ، بفتح اللام ، والأشهر الأفصح : والمألك والمألكة (بفتح الميم وضم اللام فيهما) .

(٤) فى المطبوعة : « لبيد بن أبى ربيعة » ، وهو خطأ .

(٥) ديوانه القصيدة رقم : ٣٧ ، البيت : ١٦ ، وقوله « وغلام » مجرور بواو « رب » . أرسلت الغلام أمه تلتمس من معروف لبيد ، فأعطاها ما سألت .

(٦) فى المطبوعة : « ستهديه الرواة إليك . . . » ، وأثبتنا نص المخطوطة ، والديوان : ٨٥ وغيرهما . ويضبطونه « سأهديك » بضم الهمزة ، من الهدية ، أى سأهديه إليك ، ولست أرتضيه ، والشعر يختل بذلك معناه . وإنما هو عندى بفتح الهمزة ، من « هديته الطريق » إذا عرفته الطريق وبينته له . ومنه أخذوا قولهم : هادانى فلان الشعر وهاديته : أى هاجانى وهاجيته . وقوله : « إليك إليك » أى خذها ، كما قال القطامى :

إذا التَّيَّارُ ذُو العَضَلاتِ قلنا : إِلَيْكَ إِلَيْكَ ! ضاقَ بهاَ ذِراعَا

وقوله : « عنى » أى منى ، كما فى قولهم : « عنك جاء هذا » أى منك ، أو من قبلك . وكذلك هو فى قوله تعالى : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) ، أى من عباده ، وقوله تعالى : (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا) ، أى نتقبل منهم . وليس قول النابغة من قولهم « إليك عنى » ، أى كف وأمسك — فى شيء . والشعر الذى يليه دال على ذلك ، والبيت الذى يلى هذا فيه الكلمة المنصوبة

وقال عبدُ بنى الحَسْحَاس :

أَلِكْنى إليها عَمْرَكَ اللهَ يافَتَى ... بِآيَةِ ما جاءتْ إلَيْنَا تَهَادِيَا[١]

يعنى بذلك : أبلغها رسالتى. فسميت الملائكةُ ملائكة بالرسالة ، لأنها رُسُل الله بينه وبين أنبيائه ، ومن أرسلت إليه من عباده .

• • •

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ ﴾

اختلف أهل التأويل فى قوله : « إنى جاعل » ، فقال بعضهم : إنى فاعل.

ذكر من قال ذلك :

٥٩٧ — حدثنا القاسم بن الحسن ، قال: حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن جرير بن حازم ، ومبارك ، عن الحسن ، وأبى بكر — يعنى الهذلى — عن الحسن ، وقتادة ، قالوا : قال الله تعالى ذكره لملائكته : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة »[٢] ، قال لهم : إنى فاعل[٣] .

بقوله « إليك إليك » :

قوافِىَ كالسِّلاَم إذا استَمَرَّتْ ... فليسَ يُرَدُّ مَذْهبَها التظنِّى

أى خذها قوافى كالسلام ، وهى الحجارة .

وقوله : « عين » يعنى عيينة بن حصن الفزارى ، وكان أعان بنى عبس على بنى أسد حلفاء بنى ذبيان ، رهط النابغة .

(١) سلف القول فى هذا البيت : ١٠٦ آنفاً .

(٢) فى المطبوعة : « قال الله للملائكة إنى . . . » . وهو موافق لما نقله ابن كثير .

(٣) الأثر : ٥٩٧ — نقله ابن كثير ١ : ١٢٧ عن الطبرى . ووقع فى إسناده هناك سقط ، والظاهر أنه خطأ مطبعى . وذكره السيوطى ١ : ٤٤ مختصراً . وسيأتى مرة أخرى : ٦١١ مطولا ، بهذا الإسناد نصاً . وهو هنا بإسنادين بل ثلاثة : رواه الحجاج — وهو ابن المنهال — عن جرير ابن حازم ، وعن المبارك — وهو ابن فضالة — ثم رواه عن أبى بكر الهذلى ، ثلاثتهم عن الحسن البصرى ، والإسنادان الأولان جيدان ، والثالث ضعيف ، بضعف أبى بكر الهذلى ، ضعفه ابن المدينى جداً ، وقال ابن معين : « ليس بشىء » ، وترجمه البخارى فى الكبير ٢/٢/١٩٩ باسم

وقال آخرون : إنى خالق . ذكر من قال ذلك :

٥٩٨ ـ حُدِّثت عن المنجاب بن الحارث، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، قال : كل شىء فى القرآن « جَعَل » ، فهو خلق[١] .

* * *

قال أبو جعفر : والصواب فى تأويل قوله : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » : أى مستخلف فى الأرض خليفةً ، ومُصَيِّر فيها خَلَفاً[٢]. وذلك أشبه بتأويل قول الحسن وقتادة .

وقيل : إن الأرض التى ذكرها الله فى هذه الآية هى « مكة » . ذكر من قال ذلك :

٥٩٩ ـ حدثنا ابن حميد قال : حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن ابن سابط : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : دُحِيت الأرضُ من مكة ، وكانت الملائكة تطوفُ بالبيت ، فهى أوّل من طاف به، وهى « الأرضُ» التى قال الله : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة » ، وكان النبىّ إذا هلك قومه، ونجا هو والصالحون، أتاها هو ومن معه فعبدوا الله بها حتى يموتوا . فإنّ قَبر نُوحٍ وهودٍ وصَالحَ وشعَيْب ، بين زَمزَم والرُّكن والمَقَام[٣] .

* * *

« سامى أبو بكر الهذلى البصرى » ، وقال : « ليس بالحافظ عندهم . قال عمرو بن على : عدلت عن أبى بكر الهذلى عمداً » . وكذلك ترجمه ابن أبى حاتم ٢/١/٣١٣ – ٣١٤ ، وأبان عن ضعفه . و « سلمى » : بضم السين وسكون اللام مع إمالة الألف المقصورة .

(١) الأثر : ٥٩٨ – نقله السيوطى ١ : ٤٤ عن الطبرى ، ولكنه جعله من كلام الضحاك . وأبو روق يكثر رواية التفسير عن الضحاك . فلعل ذكر « الضحاك » سقط من الناسخين فى بعض نسخ الطبرى . وأياً ما كان فهذا الإسناد ضعيف . سبق بيان ضعفه : ١٣٧ . ويزيده ضعفاً هنا جهالة الشيخ الذى رواه عنه الطبرى عن المنجاب ، فى قوله « حدثت » ، بتجهيل من حدثه .

(٢) فى المخطوطة : « خنقاً » ، بالقاف .

(٣) الحديث : ٥٩٩ – نقل ابن كثير فى التفسير ١ : ١٢٧ معناه من تفسير ابن أبى حاتم : « حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن ابن سابط» ، فذكره مرفوعاً بنحوه مختصراً . وقال ابن كثير : « وهذا مرسل ، وفى سنده ضعف ، وفيه

القول فى تأويل قوله ﴿ خَلِيفَةً ﴾

والخليفة الفعيلة من قولك : خلف فلان فلاناً فى هذ الأمر ، إذا قام مقامه فيه بعده . كما قال جل ثناؤه ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يونس : ١٤] يعنى بذلك أنه أبدلكم فى الأرض منهم ، فجعلكم خلفاء بعدهم . من ذلك قيل للسلطان الأعظم : خليفة ، لأنه خلف الذى كان قبله ، فقام بالأمر مقامه ، فكان منه خلَفاً. يقال منه : خلف الخليفة ، يخلُف خِلافة وخِلِّيفَى[1] .

وكان ابن إسحق يقول بما :

٦٠٠ — حدثنا به ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ، يقول: ساكناً وعامراً يسكنها ويعمُرها خلَفاً ، ليس منكم[2] .

وليس الذى قال ابن إسحق فى معنى الخليفة بتأويلها — وإن كان الله جل

مدرج ، وهو أن المراد بالأرض مكة ، والله أعلم — فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك » .
أما إرساله : فإن « عبد الرحمن بن سابط » : تابعى ، وهو ثقة ، ولكنه لم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، بل لم يدرك كبار الصحابة ، كعمر وسعد ومعاذ وغيرهم . ويقال إنه « عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط » . واختلف فى ذلك جداً ، فلذلك ترجمه الحافظ لأبيه فى الموضعين : «سابط» ، أو « عبد الله بن سابط » ، وفى الإصابة ٣ : ٥١ — ٥٢ ، و ٤ : ٧٣ . ونقله السيوطى ١ : ٤٦ ، ونسبه للطبرى وابن أبى حاتم وابن عساكر ، مطولا كرواية الطبرى ، ونقله الشوكانى ١ : ٥٠ مختصراً ، كرواية ابن أبى حاتم ، ونقل تعليل ابن كثير إياه .

وفى المطبوعة « أتى هو ومن معه » . وفى المخطوطة « فيعبدوا الله بها » .

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « وخليفاً » ، والصواب ما أثبتناه . فى حديث عمر : « لولا الخِلِّيفَى لأذنت » (بكسر الخاء وتشديد اللام المكسورة ، بعدها ياء ، ثم فاء مفتوحة) قالوا : وهو وأمثاله من الأبنية كالرميى والدليل ، مصدر يدل على معنى الكثرة . يريد عمر : كثرة اجتهاده فى ضبط أمور الخلافة وتصريف أعنتها .

(٢) الأثر : ٦٠٠ — فى ابن كثير ١ : ١٢٧ وفى المطبوعة هنا ، وفى : ٦١٥ « خلقاً

ثناؤه إنما أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفةً يسكنها — ولكن معناها ما وصفتُ قبلُ .

فإن قال قائل : فما الذى كان فى الأرض قبل بنى آدم لها عامراً ، فكان بنو آدم منه بدلاً [1] ، وفيها منه خلَفاً ؟

قيل : قد اختلف أهل التأويل فى ذلك :

٦٠١ — فحدثنا أبو كريب قال : حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبي روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : أول من سكن الأرضَ الجنُّ فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً . فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة ، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال . ثم خلق آدم فأسكنه إياها ، فلذلك قال : « إنى جاعل فى الأرض خليفة »[2] .

١٥٧/١

فعلى هذا القول : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ، من الجن ، يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها .

٦٠٢ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا إسحق ، قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس فى قوله : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ، الآية ، قال : إن الله خلق الملائكة يوم الأربعاء ، وخلق الجن يوم

ليس منكم » بالقاف ، وهو خطأ ، والصواب فى ابن كثير ١ : ١٢٧ . وقوله « خلفاً » : أي بدلا ممن مضى ، وهم سكان الأرض قبل أبينا آدم عليه السلام ، كما يأتى فى الخبر التام : ٦١٥ . وقوله : « ليس منكم » ، كلام مستأنف ، أى ليس منكم أيتها الملائكة . أما المخطوطة ففيها : « ليس خلفاً منكم » وهو خطأ محض .

(١) فى المطبوعة : « بدلا منه » بالتقديم .

(٢) الخبر : ٦٠١ — فى ابن كثير ١ : ١٢٧ . وقد روى الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٦١ خبراً يشبهه فى بعض المعنى ويخالفه فى اللفظ قال : « أخبرنا عبد الله بن موسى الصيدلانى ، حدثنا إسماعيل بن قتيبة ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن بكير بن الأخنس، عن مجاهد، عن ابن عباس : ...» وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى . وأما إسناد الطبرى هنا فضعيف ، كما بينا فيما سبق : ١٣٧ .

الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة ، فكفر قوم من الجن ، فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم ، فكانت الدماء ، وكان الفساد فى الأرض[1] .

وقال آخرون فى تأويل قوله : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ، أى خلفاً يخلف بعضهم بعضاً ، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم ، ويخلف كل قرن منهم القرنَ الذى سلف قبله . وهذا قول حكى عن الحسن البصرى .

ونظيرٌ له ما : —

٦٠٣ — حدثنى به محمد بن بشار ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن ابن سابط فى قوله : « إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » قال : يعنون به بنى آدم صلى الله عليه وسلم .

٦٠٤ — حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : قال الله تعالى ذكره للملائكة : إنى أريد أنْ أخلق فى الأرض خلقاً وأجعلَ فيها خليفةً . وليس لله يومئذ خلق إلا الملائكة ، والأرض ليس فيها خلق[2] .

وهذا القول يحتمل ما حكى عن الحسن ، ويحتمل أن يكون أراد ابنُ زيد أنّ الله أخبر الملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفةً له يحكم فيها بين خلقه بحكمه ، نظيرَ ما : —

٦٠٥ — حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى

---

(١) الأثر : ٦٠٢ — رواه الطبرى فى التاريخ ١ : ٤٣ ، بهذا الإسناد . سيأتى أيضاً بهذا الإسناد بأطول منه : ٦١٢ . ونقله ابن كثير ١ : ١٢٨ ، والسيوطى ١ : ٤٥ بالرواية المطولة ، ولكنهما جعلاه من كلام أبى العالية . فهو من رواية الربيع بن أنس عن أبى العالية . وزاد السيوطى فى نسبته أنه رواه أيضاً ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة .

(٢) الأثران : ٦٠٣ ، ٦٠٤ — فى ابن كثير ١ : ١٢٨ .

صلى الله عليه وسلم : أنّ الله جل ثناؤه قال للملائكة : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذُرّيةٌ يُفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً[١] .

فكان تأويل الآية على هذه الرواية التى ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس : إنى جاعل فى الأرض خليفةً منّى يخلفنى فى الحكم بين خلقى . وذلك الخليفة هو آدمُ ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه . وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها ، فمن غير خلفائه ، ومن غير آدم ومن قام مقامه فى عباد الله — لأنهما أخبرا أن الله جل ثناؤه قال لملائكته — إذ سألوه : ما ذاك الخليفة؟ — : إنه خليفة يكون له ذُرّية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً . فأضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذُرّية خليفته دونه ، وأخرج منه خليفته .

وهذا التأويل ، وإن كان مخالفاً فى معنى الخليفة ما حكى عن الحسن من وجه ، فموافق له من وجه . فأما موافقته إياه ، فصرْفُ متأوِّليه إضافة الإفساد فى الأرض وسفك الدماء فيها إلى غير الخليفة . وأما مخالفته إياه ، فإضافتهما الخلافة إلى آدم[٢] ، بمعنى استخلاف الله إياه فيها . وإضافة الحسن الخلافةَ إلى ولده ، بمعنى خلافة بعضهم بعضاً ، وقيام قرن منهم مقام قرن قبلهم ، وإضافة الإفساد فى الأرض وسفك الدماء إلى الخليفة .

١٥٨/١ والذى دعا المتأوِّلين قولَه : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة » — فى التأويل الذى ذُكر عن الحسن — إلى ما قالوا فى ذلك ، أنهم قالوا إن الملائكة إنما قالت لربها — إذ قال لهم ربهم : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة » — : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، إخباراً منها بذلك عن الخليفة الذى أخبرَ الله جل ثناؤه أنه

---

(١) الأثر : ٦٠٥ — فى ابن كثير ١ : ١٢٧ .

(٢) فى المطبوعة : « فإضافتهم » ، والصواب ما فى المخطوطة ، ويعنى بهما ابن مسعود وابن عباس كما مضى آنفاً .

جاعله فى الأرض لا عنْ غيره [١] . لأنّ المحاورة بين الملائكة وبين ربها عنهُ جرتْ . قالوا : فإذا كان ذلك كذلك — وكان الله قد بَرأَ آدم من الإفساد فى الأرض وسفك الدماء، وطهّره من ذلك — عُلم أن الذى عنى به غيرَه من ذرّيته . فثبت أن الخليفة الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء هو غيرُ آدم ، وأنهم وَلدُه الذين فعلوا ذلك ، وأن معنى الخلافة التى ذكرَها الله إنما هى خلافة قرن منهم قرناً غيرَهم لما وصفنا .

وأغفل قائلو هذه المقالة ، ومتأوّلو الآية هذا التأويل ، سبيلَ التأويل . وذلك أنّ الملائكة إذ قال لها ربها : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة »، لم تُضف الإفساد وسفك الدماء فى جوابها ربَّها إلى خليفته فى أرضه ، بل قالت : « أتجعل فيها من يُفسد فيها»؟ وغيرُ مُنْكَر أن يكون ربُّها أعلمها أنه يكون لخليفته ذلك ذرّيةٌ يكون منهم الإفساد وسفك الدماء ، فقالت : يا ربنا ، «أتجعل فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء » . كما قال ابن مسعود وابن عباس ، ومن حكينا ذلك عنه من أهل التأويل [٢] .

---

(١) فى المطبوعة « لا غيره » بإسقاط « عن » .

(٢) فى الأصل المخطوط بعد هذا الموضع ما نصه :—

[بلغتُ من أوّله بقراءتى على القاضى أبى الحسن الخصيب ابن عبد الله الخصيبىّ ، عن أبى محمد الفَرْغانىّ ، عن أبى جعفر الطبرى . وسمع معى أخى على بن أحمد بن عيسى ، ونصر بن الحسن الطبرى . وسمع أبو الفتح أحمد بن عمر الجهارى ، من موضع سماعه .

وكتب محمد بن أحمد بن عيسى السعدى فى جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعمئة]

* * *

« تذكرة »

تبين لى مما راجعته من كلام الطبرى ، أن استدلال الطبرى بهذه الآثار التى يرويها بأسانيدها ، لا يراد به إلا تحقيق معنى لفظ ، أو بيان سياق عبارة . فهو قد ساق هنا الآثار التى رواها بإسنادها

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه خبراً عن ملائكته : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء ﴾

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل(١) : وكيف قالت الملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل فى الأرض خليفة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء »، ولم يكن آدمُ بعد مخلوقاً ولا ذُرّيته، فيعلموا ما يفعلونَ عياناً؟ أعلمتِ الغيبَ فقالت ذلك، أم قالت ما قالت من ذلك ظنًّا ؟ فذلك شهادة منها بالظنّ، وقولٌ بما لا تعلم. وذلك ليس من صفتها. أمْ ما وجه قيلها ذلك لربها؟(٢)

ليدل على معنى « الخليفة » ، و « الخلافة » ، وكيف اختلف المفسرون من الأولين فى معنى « الخليفة » . وجعل استدلاله بهذه الآثار ، كاستدلال المستدل بالشعر على معنى لفظ فى كتاب الله . وهذا بين فى الفقرة التالية للأثر رقم : ٦٠٥ ، إذ ذكر ما روى عن ابن مسعود وابن عباس ، وما روى عن الحسن فى بيان معنى « الخليفة » ، واستظهر ما يدل عليه كلام كل منهم . ومن أجل هذا الاستدلال ، لم يبال بما فى الإسناد من وهن لا يرتضيه . ودليل ذلك أن الطبرى نفسه قال فى إسناد الأثر : ٤٦٥ عن ابن مسعود وابن عباس ، فيما مضى ص : ٣٥٣ « فإن كان ذلك صحيحاً ، ولست أعلمه صحيحاً ، إذ كنت بإسناده مرتاباً . . . » ، فهو مع ارتيابه فى هذا الإسناد ، قد ساق الأثر للدلالة على معنى اللفظ وحده ، فيما فهمه ابن مسعود وابن عباس — إن صح عنهما — أو ما فهمه الرواة الأقدمون من معناه . وهذا مذهب لا بأس به فى الاستدلال . ومثله أيضاً ما يسوقه من الأخبار والآثار التى لا يشك فى ضعفها ، أو فى كونها من الإسرائيليات ، فهو لم يسقها لتكون مهيمنة على تفسير آى التنزيل الكريم ، بل يسوق الطويل الطويل ، لبيان معنى لفظ ، أو سياق حادثة ، وإن كان الأثر نفسه مما لا تقوم به الحجة فى الدين ، ولا فى التفسير التام لآى كتاب الله .

فاستدلال الطبرى بما ينكره المنكرون ، لم يكن إلا استظهاراً للمعانى التى تدل عليها ألفاظ هذا الكتاب الكريم ، كما يستظهر بالشعر على معانيها . فهو إذن استدلال يكاد يكون لغوياً . ولما لم يكن مستنكراً أن يستدل بالشعر الذى كذب قائله ، ما صحت لغته ؛ فليس بمستنكر أن تساق الآثار التى لا يرتضيها أهل الحديث ، والتى لا تقوم بها الحجة فى الدين ، للدلالة على المعنى المفهوم من صريح لفظ القرآن ، وكيف فهمه الأوائل — سواء كانوا من الصحابة أو من دونهم .

وأرجو أن تكون هذه تذكرة تنفع قارئ كتاب الطبرى ، إذا ما انتهى إلى شىء مما عده أهل علم الحديث من الغريب والمنكر . ولم يقصر أخى السيد أحمد شاكر فى بيان درجة رجال الطبري عند أهل العلم بالرجال ، وفى هذا مقنع لمن أراد أن يعرف علم الأقدمين على وجهه ، والحمد لله أولا وآخراً .

(١) فى المطبوعة : « إن قال قائل » .

(٢) فى المطبوعة : « فما وجه » .

قيل : قد قالت العلماء من أهل التأويل فى ذلك أقوالا. ونحن ذاكرو أقوالهم فى ذلك، ثم مخبرون بأصحِّها برهاناً وأوضحها حُجة .فروى عن ابن عباس فى ذلك ما :

٦٠٦ — حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كان إبليس من حَىٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم « الحِن » ،خُلقوا من نار السَّمُوم من بين الملائكة [1] ، قال : وكان اسمه الحارث ، قال : وكان خازناً من خُزَّان الجنة . قال : وخُلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحىّ. قال : وخلقت الجنّ الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار — وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا ألهبت . قال : وخُلق الإنسان من طين. فأوّل من سكن الأرضَ الجنُّ . فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً . قال : فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة — وهم هذا الحى الذين يقال لهم الحِن [1] — فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال . فلما فعل إبليس ذلك اغترّ فى نفسه . وقال : « قد صنعتُ شيئاً لم يصنعه أحد » ! قال : فاطّلع الله على ذلك من قلبه ، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه . فقال الله للملائكة الذين معه: « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة ». فقالت الملائكة مجيبين له : « أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفِك الدماء »، كما

(١) فى المطبوعة فى الموضعين « الجن » بالجيم ، وهو خطأ ، يدل عليه سياق هذا الأثر ، فقد ميز ما بين إبليس ، وبين الجن الذين ذكروا فى القرآن . إبليس مخلوق من نار السموم ، والآخرون خلقوا من مارج من نار . والجن (بالجيم) أول من سكن الأرض ، وإبليس جاء لقتالهم فى جند من الملائكة . وهذا بين . وقد قال الجاحظ فى الحيوان ٧ : ١٧٧ ، وبعض الناس يقسم الجن على قسمين فيقول : هم جن وحن (بالحاء) ، ويجعل الّتى بالحاء أضعفهما . وقال فى ١ : ٢٩١ — ٢٩٢ ، وبعض الناس يزعم أن الحن والجن صنفان مختلفان ، وذهبوا إلى قول الأعرابى حين أتى باب بعض الملوك ليكتتب فى الزمنى فقال فى ذلك :

إن تكتُبُوا الزَّمْنى فإنّى لزَمِنْ ... من ظاهر الداء وداء مستكِنْ

أبيتُ أهوِى فى شياطينَ تَرِنْ ... مختلفٍ نجارُهُمْ جنٌّ وحِنْ

ففرق بين هذين الجنسين . وانظر الحيوان ٦ : ١٩٣ ، أيضاً ، واللسان (جنن) ، وغيرها

أفسدت الجن وسفكت الدماء ، وإنما بُعثنا عليهم لذلك . فقال : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، يقول : إنى قد اطلعتُ من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه ، من كبره واغتراره . قال : ثم أمر بتُربة آدم فرُفعت ، فخلق الله آدم من طين لازب — واللازبُ : اللزِجُ الصُّلب ، من حمأ مسنون — مُنْتِن . قال : وإنما كان ١٥٩/١ حمأ مسنوناً بعد التراب . قال : فخلق منه آدم بيده ، قال فمكث أربعين ليلة جسداً مُلقًى . فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيُصَلصِل — أى فيصوّت — قال : فهو قول الله : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [سورة الرحمن : ١٤] . يقول : كالشىء المنفوخ الذى ليس بمُصْمت[١] . قال : ثم يَدخل فى فيه ويخرج من دُبُره ، ويدخل من دُبُره ويخرج من فيه ، ثم يقول : لستَ شيئاً ! — للصَّلصَلة — ولشىء ما خُلقت ! لئن سُلِّطتُ عليك لأهلكنك ، ولئن سُلِّطتَ على لأعصينَّك . قال : فلما نفخ الله فيه من روحه ، أتت النفخة من قبل رأسه ، فجعل لا يجرى شىء منها فى جسده إلا صار لحماً ودماً . فلما انتهت النفخة إلى سُرّته ، نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من حسنه ، فذهب لينهضَ فلم يقدرْ ، فهو قول الله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ [سورة الإسراء : ١١] قال : ضَجِراً لا صَبرَ له على سَرَّاء ولا ضرّاء . قال : فلما تمت النفخة فى جسده عطس ، فقال : « الحمد لله ربّ العالمين » بإلهام من الله تعالى ، فقال الله له : يرحمُك الله يا آدم . قال : ثم قال الله للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصّة دون الملائكة الذين فى السموات : اسجدوا لآدم . فسجدُوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبىَ واستكبر ، لماَ كان حدّث به نفسه من كبره واغتراره . فقال : لا أسجُد له ، وأنا خير منه وأكبرُ سنًّا وأقوى خَلْقاً ، خلقتنى من نار وخلقته من طين — يقول : إن النار أقوى من الطين . قال : فلما أبَى إبليس أن يسجد أبلسه الله — أى آيسه من الخير كله[٢] ، وجعله شيطاناً رجيما

(١) المصمت : الذى لا جوف له ، وكل ذى جوف إذ قرع صوت ، أما المصمت فهو صامت لا صوت له . فمن الصمت أخذوه .

(٢) فى المطبوعة : « وآيسه الله . . . » .

عقوبةً لمعصيته . ثم علم آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ودابة وأرْض وسهلٌ وبحر وجبل وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة — يعنى الملائكة الذين كانوا مع إبليس ، الذين خلقوا من نار السموم — وقال لهم : أنبئونى بأسماء هؤلاء — يقول : أخبرونى بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين ، إن كنتم تعلمون أنّى لمَ أجعلُ خليفة فى الأرض[1]. قال : فلما علمت الملائكة مؤاخذةَ الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب ، الذى لا يعلمه غيرُه ، الذى ليس لهم به علم ، قالوا : سبحانك ، تَنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيرُه — تبنا إليك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، تبرّياً منهم من علم الغيب ، إلا ما علمتنا كما علّمت آدم . فقال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم — يقول : أخبرهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم — أيها الملائكة خاصة — إنى أعلم غيبَ السموات والأرض ، ولا يعلمه غيرى ، وأعلم ما تبدون — يقول : ما تُظهرون — وما كنتم تكتمون — يقول : أعلم السرّ كما أعلم العلانية ، يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار[2] .

قال أبو جعفر : وهذه الرواية عن ابن عباس ، تُنبئُ عن أن قول الله جل ثناؤه : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة » ، خطابٌ من الله جل ثناؤه لخاصٍ من الملائكة دون الجميع ، وأنّ الذين قيل لهم ذلك من الملائكة كانوا قبيلة إبليس خاصةً — الذين قاتلوا معه جنّ الأرض قبل خلق آدم — وأنّ الله إنما خصّهم بقيل ذلك امتحاناً منه لهم وابتلاءً ، ليعرّفهم قصورَ علمهم وفضلَ كثير ممن هو أضعفُ خلقاً منهم من خلقه عليهم ، وأنّ كرامته

---

(١) فى المطبوعة : « أنكم تعلمون أنى أجعل فى الأرض خليفة » ، وقوله « لم أجعل . . . » سقط « لم » من المخطوطة أيضاً . والصواب من الدر المنثور ، والشوكانى ، حيث يأتى تخريجه . وسيأتى على الصواب أيضاً فى رقم : ٦٧١ ص : ٤٩٠ ، وهو مختصر من هذا الأثر .

(٢) الخبر : ٦٠٦ — خرجه السيوطى فى الدر المنثور مفرقاً ١ : ٤٤ — ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ . والشوكانى ١ : ٥٢ بعضه مفرقاً . وروى الطبرى قطعة منه ، بهذا الإسناد ، فى تاريخه ١ : ٤٢ — ٤٣ .

لا تنال بقوَى الأبدان وشدّة الأجسام، كما ظنه إبليس عدوّ الله . ومُصَرِّح بأن قيلهم لربِّهم[1] : « أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء »، كانت هفوةً منهم ورجماً بالغيب ، وأن الله جل ثناؤه أطلعهم على مكروه ما نطقوا به من ذلك ، ووَقفَهم عليه حتى تابوا وأنابوا إليه مما قالوا ونطقوا من رَجْم الغيْب بالظُّنون ، وتبرّأوا إليه أن يعلم الغيب غيرُه . وأظهرَ لهم من إبليس ما كان منطوياً عليه من الكِبْر الذي قد كان عنهم مستخفياً[2] . ١/١٦٠

* * *

وقد رُوى عن ابن عباس خلاف هذه الرواية ، وهو ما : —

٦٠٧ — حدثني به موسى بن هرون، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « لما فرَغ الله من خلق ما أحبّ، استوى على العرش ، فجعل إبليس على مُلْك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ[3] — وإنما سموا الجنّ لأنهم خزّان الجنة . وكان إبليس مع مُلكه خازنا ، فوقع فى صدره كبر ، وقال : ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى — هكذا قال موسى بن هرون ، وقد حدثنى به غيره، وقال : لمزيّة لى على الملائكة[4] — فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه ،

---

(١) فى المطبوعة : « ويصرح » ، وسياق الكلام : « تنبئ عن أن قول الله . . . خطاب من الله جل ثناؤه لخاص من الملائكة دون الجميع ، .. ومصرح بأن قيلهم » ، عطفاً على خبر « أن » .

(٢) هذا التعقيب على خبر ابن عباس ، دليل على ما ذهبنا إليه فى بيان طريقة الطبرى فى الاستدلال بالأخبار والآثار انظر ص : ٤٥٣–٤٥٤ . فهو لم يروه لاعتماد صحته ، بل رواه لبيان أن قول الله سبحانه : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » ، إنما هو خطاب فيه لفظ العموم « الملائكة » ، ويراد به الخصوص لبعض الملائكة ، كما هو معروف فى لسان العرب . وأن قول هؤلاء الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها . . . » ، لم يكن عن علم عرفوه من علم الغيب ، بل كان ظناً ظنوه . وسيأتى بعد ما يوضح مذهب الطبرى فى الاستدلال ، كما سأشير إليه فى موضعه .

(٣) فى المخطوطة : « الحن » بالحاء ، وتفسيرها التالى يدل على أنها بالجيم . وانظر ما كتبناه آنفاً فى ص : ٤٥٥ التعليق : ١

(٤) غيره ، الذى أبهمه الطبرى هنا ، بينه فى التاريخ ١ : ٤٣ ، قال : « وحدثنى به أحمد بن أبى خيثمة ، عن عمرو بن حماد » .

اطلع الله على ذلك منه ، فقال الله للملائكة : « إنى جاعل فى الأرض خليفة ». قالوا : ربنا ، وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرّية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً . قالوا : ربنا ، « أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحنُ نسبّح بحمدك ونُقدّس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون » . يعنى من شأن إبليس . فبعث جبريلَ إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : إنى أعوذ بالله منك أن تنقُص منى أو تشينني . فرجع ، ولم يأخذ . وقال : ربِّ إنها عاذت بك فأعذْتُها . فبعث الله ميكائيل ، فعاذَت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل . فبعث ملَكَ الموت فعاذت منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره . فأخذ من وجه الأرض، وخلَط فلم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تُرْبة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين . فصَعِد به ، فبلّ التراب حتى عاد طيناً لازباً — واللازبُ : هو الذى يلتزق بعضه ببعض — ثم ترك حتى أنتن وتغير [1] . وذلك حين يقول : ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [سورة الحجر : ٢٨] . — قال : منتن— ثم قال للملائكة : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [سورة ص ٧١ - ٧٢]. فخلقه الله بيديه لكيلا يتكبر إبليس عنه ، ليقول له : تتكبر عما عملت بيديّ ، ولم أتكبر أنا عنه ؟ فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة : فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه. وكان أشدّهم منه فزعاً إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوّت الجسدُ كما يصوّت الفخار وتكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [سورة الرحمن : ١٤] .ويقول لأمر ما خُلقت ! ودخل من فيه فخرج من دُبُره . فقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا،

---

(١) فى المطبوعة « حين أنتن » ، وصحته « حتى أنتن » ، كما فى تاريخ الطبرى ، وتفسير ابن كثير — فيما نبين فى تخريجه .

فإنّ ربكم صَمَدٌ وهذا أجوف[1]. لئن سُلطت عليه لأهلكنّه . فلما بلغ الحين الذى يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفختُ فيه من رُوحى فاسجدوا له . فلما نفخ فيه الرّوح فدخل الروح فى رأسه ، عَطَس ، فقالت له الملائكة : قل الحمد لله . فقال : الحمدُ لله . فقال له الله : رحمك ربُّك . فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة . فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعامَ ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٧]. فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين — أى استكبرَ[2] — وكان من الكافرين . قال الله له : ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لِما خلقتُ بيدَىّ ؟ قال : أنا خير منه ، لم أكن لأسجدَ لبشر خلقته من طين . قال الله له : اخرج منها فما يكون لك — يعنى ما ينبغى لك — . أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين — والصَّغار : هو الذل — . قال وعلَّم آدم الأسماء كلها ، ثم عرض الخلق على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أنّ بنى آدم يُفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء . فقالوا له : سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنتَ العليم الحكيم . قال الله : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . قال قولهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها » ، فهذا الذى أبدَوْا ، « وأعلم ما كنتم تكتمون » ، يعنى ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر[3].

١٦١/١

---

(١) الصمد هنا : هو الذى لا جوف له ، والمصمد والمصمت واحد . وانظر ما سلف ص : ٤٥٦ تعليق : ١ .

(٢) فى المطبوعة : « أبى واستكبر » ، وهو تحريف .

(٣) الخبر : ٦٠٧ — روى الطبرى قطعة منه فى تاريخه ١ : ٤١ — ٤٢ ، بهذا الإسناد . وقطعة أخرى أيضاً ١ : ٤٣ . وثالثة ١ : ٤٥ — ٤٦ . ورابعة ١ : ٤٧ . وخامسة ١ : ٤٧ — ٤٨ . وسادسة ١ : ٥٠ . وبعضه عن السيوطى ١ : ٤٥ — ٤٧ ، والشوكانى ١ : ٥٠ . وقد مضى تعليل هذا الإسناد ، فى : ١٦٨ ، ورأى الطبرى نفسه فيه : ٤٥٢ ، وأنه فيه مرتاب . وقد ساقه ابن

قال أبو جعفر : فهذا الخبر أوّله مخالف معناه معنى الرواية التى رويت عن ابن عباس من رواية الضحاك التى قد قدمنا ذكرها قبل ، وموافقٌ معنى آخره معناها . وذلك أنه ذكر فى أوّله أن الملائكة سألت ربها : ما ذاك الخليفة ؟ حين قال لها : إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة . فأجابها أنه تكون له ذُرّية يُفسدون فى الأرض وَيتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً . فقالت الملائكة حينئذ : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ فكان قولُ الملائكة ما قالت من ذلك لرَبّها ، بعد إعلام الله إياها أنّ ذلك كائن من ذُرّية الخليفة الذى يجعله فى الأرض . فذلك معنى خلاف أوله معنى خبر الضحاك الذى ذكرناه .

وأما موافقته إياه فى آخره ، فهو قولهم فى تأويل قوله: « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » : أنّ بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، وأن الملائكة قالت إذ قال لها ربها ذلك، تبرّياً من علم الغيب — : « سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .

وهذا إذا تدبّره ذوالفهم ، علم أن أوّله يفسد آخرَه ، وأنآخره يُبطل معنى أوّله. وذلك أن الله جل ثناؤه إن كان أخبر الملائكة أن ذرّية الخليفة الذى يجعله فى الأرض تفسد فيها وتسفك الدماء ، فقالت الملائكة لربها : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ؛ فلا وجه لتوبيخها على أن أخبرت عمن أخبرها الله عنه أنه يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، بمثل الذى أخبرها عنهم ربُّها ، فيجوزَ أن يقالَ لها فيما طوى عنها من العلوم : إن كنتم صادقين فيما علمتم بخبر الله إياكم أنه كائن من الأمور فأخبرتم به ، فأخبرونا بالذى قد طوى الله عنكم علمه ، كما قد أخبرتمونا بالذى قد أطلعكم الله عليه — بل ذلك خُلفٌ من التأويل ، ودعوَى على

كثير بطوله ١ : ١٣٧ — ١٣٨ ، ثم قال : « فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى ، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة . فلعل بعضها مدرج ، ليس من كلام الصحابة ، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة ، والله أعلم . والحاكم يروى فى مستدركه ، بهذا الإسناد بعينه ، أشياء ، ويقول : على شرط البخارى ! » .

الله ما لا يجوز أن يكون له صفة[1]. وأخشى أن يكون بعض نَقَلَة هذا الخبر هو الذى غَلِط على من رواه عنه من الصحابة ، وأن يكون التأويل منهم كان على ذلك : « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فيما ظننتم أنكم أدركتموه من العِلم بخبَرى إياكم أنّ بَنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، حتى استجزتم أن تقولوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » . فيكون التوبيخ حينئذ واقعاً على ما ظنوا أنهم قد أدركوا بقول الله لهم : « إنه يكون له ذرّية يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء » ، لا على إخبارهم بما أخبرهم الله به أنه كائن . وذلك أن الله جل ثناؤه ، وإن كان أخبرهم عما يكون من بعض ذرّية خليفته فى الأرض ، ما يكون منه فيها من الفساد وسفك الدماء ، فقد كانَ طوَى عنهم الخبرَ عما يكون من كثيرٍ منهم ما يكون من طاعتِهم ربَّهم ، وإصلاحهم فى أرْضه ، وحقن الدماء ، ورفعِه منزلتَهم ، وكرامتِهم عليه ، فلم يخبرهم بذلك . فقالت الملائكة : « أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء » ، على ظنٍّ منها — على تأويل هذين الخبرين اللذين ذكرتُ وظاهرِهما — أنّ جميع ذرية الخليفة الذى يجعله فى الأرض يُفسدون فيها ويسفكون فيها الدماء ، فقال الله لهم — إذ علّم آدم الأسماء كلها — : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أنكم تعلمون أنّ جميع بنى آدم يُفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، على ما ظننتم فى أنفسكم — إنكاراً منه جل ثناؤه لقيلهم ما قالوا من ذلك على الجميع والعموم ، وهو من صفة خاصٍّ ذرّية الخليفة منهم . وهذا الذى ذكرنا هو صفةٌ منا لتأويل الخبر ، لا القول الذى نختاره فى تأويل الآية[2] .

١٦٢/١

---

(١) نقد الطبرى دال أيضاً على ما ذهبنا إليه من الاستدلال بالآثار كاستدلال المستدل بالشعر . وأنت تراه ينقض هذا الخبر نقضاً ، ويبين الخطأ فى سياقه ، وتناقضه فى معناه . وهذا بين إن شاء الله .

(٢) وهذا أيضاً دليل واضح على أن استدلال الطبرى بالأخبار والآثار ، ليس معناه أنه ارتضاها ، بل معناه أنه أتى بها ليستدل على سياق تفسير الآية مرة ، وعلى بيان فساد الأخبار أنفسها مرة أخرى . وقد أخطأ كثير ممن نقل عن الطبرى فى فهم مراده ، وتحامل عليه آخرون لم يعرفوا مذهبه فى هذا التفسير .

وبما يدل على ما ذكرنا من توجيه خبر الملائكة عن إفساد ذرية الخليفة وسفكها الدماء على العموم ، ما : —

٦٠٨ — حدثنا به أحمد بن إسحق الأهوازى[1] ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن سابط ، قوله : « أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء » ، قال : يعنون الناس[2] .

وقال آخرون فى ذلك بما : —

٦٠٩ — حدثنا به بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد، عن قتادة قوله : « وإذ قال ربُّك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفةً » ، فاستشار الملائكة فى خلق آدمَ ، فقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » — وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شىء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد فى الأرض — «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون» فكان فى علم الله جل ثناؤه أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياءُ ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة . قال: وذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : إن الله لما أخذ فى خلق آدم قالت الملائكة : ما الله خالقٌ خلقاً أكرم عليه منَّا ولا أعلم منَّا ؟ فابتلوا بخلق آدم — وكل خلق مُبْتَلًى — كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة ، فقال الله : ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أَتَيْنَا طائِعِينَ ﴾[3] [سورة فصلت : ١١] .

وهذا الخبر عن قتادة يدل على أن قتادة كان يرى أن الملائكة قالت ما قالت من قولها : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، على غير يقين علمٍ تقدم منها بأن ذلك كائن ، ولكن على الرأى منها والظنّ ، وأن الله جل ثناؤه أنكر ذلك من

(١) فى المطبوعة . « ابن أحمد بن إسحق الأهوازى » ، وزيادة « ابن » خطأ .
(٢) الأثر : ٦٠٨ — لم أجده .
(٣) الأثر : ٦٠٩ — فى ابن كثير ١ : ١٢٩ ، وبعضه فى الدر المنثور مفرقاً ١ : ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ .

قيلها ، وردّ عليها ما رأت بقوله : « إني أعلم ما لا تعلمون » من أنه يكون من ذرية ذلك الخليفة الأنبياء والرسلُ والمجتهدُ في طاعة الله .

وقد رُوِي عن قتادةَ خلافُ هذا التأويل وهو ما : —

٦١٠ — حدثنا به الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، في قوله : « أتجعل فيها من يُفسد فيها » قال : كان الله أعلمهم إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فذلك قوله : « أتجعل فيها من يفسد فيها »(١) .

وبمثل قول قتادة قال جماعة من أهل التأويل ، منهم الحسن البصري :

٦١١ — حدثنا القاسم : قال حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن جرير بن حازم ، ومبارك ، عن الحسن — وأبي بكر ، عن الحسن وقتادة — قالا : قال الله للملائكته : « إني جاعلٌ في الأرض خليفة » — قال لهم : إني فاعلٌ — فعرضُوا برأيهم ، فعلّمهم علماً وطوَى عنهم علماً علمه لا يعلمونه ، فقالوا بالعلم الذي علمهم : « أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء » — وقد كانت الملائكة علمتْ من علم الله أنه لا ذنب أعظم عند الله من سفك الدماء — « ونحن نسبحّ بحمدك ونُقدس لكَ . قال إني أعلم ما لا تعلمون » . فلما أخذ في خلق آدم همَست الملائكة فيما بينها ، فقالوا : ليخلق ربّنا ما شاء أن يخلق ، فلن يخلق خلقاً إلا كنا أعلمَ منه وأكرمَ عليه منه . فلما خلقه ونفخ فيه من روحه أمرَهم أن يسجدوا له لما قالوا ، ففضّله عليهم ، فعلموا أنهم ليسوا بخير منه ، فقالوا : إن لم نكن خيراً منه فنحن أعلمُ منه ، لأنا كنا قبله ، وُخلقت الأمم قبله . فلما أعجبوا بعملهم ابتلوا ، فـ « علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » أني لا أخلق خلقاً إلا كنتم أعلمَ منه ، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قال : ففزع القومُ إلى التوبة — وإليها يفزع كل مؤمن — فقالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا

١٦٣/١

(١) الأثر : ٦١٠ — لم أجده .

ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقلْ لكم إنى أعلمُ غيبَ السموات والأرض وأعلم ما تُبدُون وما كنتم تكتمون» — لقولهم : «ليخلقْ ربّنا ما شاء، فلن يخلق خلقاً أكرمَ عليه منا ولا أعلم منا».

قال : علمه اسم كل شيء ، هذه الجبال وهذه البغال والإبل والجنّ والوحش ، وجعل يسمى كل شيء باسمه ، وعرضت عليه كل أمة ، فقال : «ألم أقل لكم إنى أعلم غيبَ السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون»، قال : أما ما أبدَوْا فقولهم : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» ، وأمّا ما كتموا فقول بعضهم لبعض : «نحن خير منه وأعلم»[1].

٦١٢ — وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا إسحق بن الحجاج ، قال: حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، فى قوله : «إنى جاعل فى الأرض خليفةً» الآية ، قال : إن الله خلق الملائكة يوم الأربعاء ، وخلق الجنّ يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة . قال : فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم ، فكانت الدماءُ وكان الفسادُ فى الأرض . فمن ثَمّ قالوا : «أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» الآية[2] .

٦١٣ — [حدثنا محمد بن جرير، قال] : حدثت عن عمار بن الحسن ، قال: أخبرنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله —: «ثم عَرَضهم

---

(١) الأثر : ٦١١ — سبق بعضه بهذا الإسناد نصاً . وشرحنا جودة بعضه وضعف بعضه . ونقل السيوطى ١ : ٤٩ ، بعضه عن هذا الموضع من تفسير الطبرى . وذكر ابن كثير ١ : ١٢٨ قسما منه ، من تفسير ابن أبى حاتم : عن الحسن بن محمد بن الصباح ، عن سعيد بن سليمان ، عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن — وهو البصرى . وهذا إسناد صحيح إلى الحسن البصرى : فإن «الحسن بن محمد بن الصباح» : هو الزعفرانى الثقة المأمون، تلميذ الشافعى وراوية كتبه بالعراق . وسعيد بن سليمان : هو سعدويه الضبى الواسطى ، وهو ثقة مأمون من شيوخ البخارى ومن أقران الإمام أحمد . ومبارك بن فضالة : ثقة ، من أخص الناس بالحسن البصرى ، جالسه ١٣ أو ١٤ سنة .

(٢) الأثر : ٦١٢ — مضى صدره برقم : ٦٠٢ ، وأشرنا إلى هذا هناك .

على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » . إلى قوله : « إنك أنتَ العليم الحكيم » . قال : وذلك حين قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » . قال : فلما عرفوا أنه جاعل فى الأرض خليفةً قالوا بينهم : لن يخلق الله خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرمَ . فأراد الله أن يخبرهم أنه قد فضل عليهم آدَم . وعلّم آدم الأسماء كلها ، فقال للملائكة: « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » ، إلى قوله: « وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون » ، وكان الذى أبْدَوْا حين قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، وكان الذى كتموا بينهم قولهم : « لن يخلق الله خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم » ، فعرفوا أن الله فضّل عليهم آدم فى العلم والكرم(١) .

وقال ابن زيد بما :—

٦١٤ — حدثنى به يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال قال ابن زيد: لما خلق الله النارَ ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً ، وقالوا : ربنا لم خلقت هذهِ النار ؟ ولأى شيء خلقتّها ؟ قال : لمن عصانى من خلقى . قال : ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة ، والأرض ليس فيها خلق ، إنما خُلق آدم بعد ذلك ، وقرأ قول الله: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ [سورة الإنسان : ١]. قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ليت ذلك الحين(٢) . ثم قال : قالت الملائكة : يارب ، أو يأتى علينا دهرٌ نعصيك فيه ! — لا يرَوْن له خلقاً غيرهم— قال : لا ، إنى أريد أن أخلق فى الأرض خلقاً

---

(١) الأثر : ٦١٣ — هو رواية أخرى للأثر السالف . ولم أجده فى المراجع السالفة .

(٢) كلمة عمر رضى الله عنه : « ليت ذلك الحين » ، يعنى ليت الإنسان بقى شيئاً غير مذكور ، طيناً لازباً . يقولها من مخافة عذابه ربه يوم القيامة . وفى الدر المنثور ٦ : ٢٩٧ : « أخرج ابن المبارك ، وأبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب : أنه سمع رجلا يقرأ : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) ، فقال عمر : ليتها تمت » . فهذا فى معنى كلمة عمر هنا .

وأجعل فيها خليفةً ، يسفكون الدماء ويفسدون فى الأرض . فقالت الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ؟ وقد اخترتنا، فاجعلنا نحن فيها ، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ونعمل فيها بطاعتك . وأعظمت الملائكة أن يجعل الله فى الأرض من يعصيه فقال : « إنى أعلمُ ما لا تعلمون » . « يا آدم أنبئهم بأسمائهم » . فقال : فلان وفلان . قال : فلما رأوا ما أعطاه الله من العلم أقروا لآدم بالفضل عليهم ، وأبى الخبيث إبليس أن يقرَّ له ، قال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . قال : « فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها[1] » . ١٦٤/١

وقال ابن إسحق بما : —

٦١٥ — حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحق قال : لما أراد الله أن يخلق آدم بقدرته ليبتليه ويبتلى به ، لعلمه بما فى ملائكته وجميع خلقه — وكان أوّل بلاء ابتُليت به الملائكةُ مما لها فيه ما تحبّ وما تكره ، للبلاء والتمحيص لما فيهم مما لم يعلموا ، وأحاط به علم الله منهم — جمع الملائكة من سكان السموات والأرض ، ثم قال : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » — يقول : ساكناً وعامراً ليسكنها ويعمرُها — خَلَفاً، ليس منكم[2]. ثم أخبرهم بعلمه فيهم ، فقال : يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ويعملون بالمعاصى . فقالوا جميعاً : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »

---

(١) الأثر : ٦١٤ — سيأتى بعض معناه بهذا الإسناد : (ص ١٧٦ بولاق) . وأما هذا النص ، فقد ذكر السيوطى بعضه ١ : ٤٥ ونسبه لابن جرير فقط . ولم يذكر فيه كلمة عمر ابن الخطاب . وقد أشرنا إلى ورود معناها من وجه آخر ، فى الهامشة قبل هذه . وكلمة عمر هنا سيقت مساق الحديث المرفوع ، إذ قال : « يا رسول الله ، ليت ذلك الحين » . فتكون حديثاً مرفوعاً مرسلا ، بل منقطعاً ، لأن ابن زيد — وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم — لم يدرك إلا بعض التابعين . هذا إلى أنه ضعيف جداً ، كما سبق فى : ١٨٥ .

(٢) فى المطبوعة : « عامر وساكن يسكنها ويعمرها خلقاً ليس منكم » ، وانظر ما مضى، رقم : ٦٠٠ ، وانظر تخريجه بعد .

لا نعصى ، ولا نأتى شيئاً كرهته ؟ قال : « إنى أعلم ما لا تعلمون » — قال : إنى أعلم فيكم ومنكم ولم يُبدها لهم — من المعصية والفساد وسفك الدماء وإتيان ما أكره منهم ، مما يكون فى الأرض ، مما ذكرتُ فى بنى آدم . قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *﴾ [سورة ص : ٦٩ — ٧٢] .

فذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم الذى كان مِنْ ذكره آدم حين أراد خلقه ، ومراجعة الملائكة إياه فيما ذكر لهم منه . فلما عزم الله تعالى ذكره على خلق آدم قال للملائكة : إنى خالقٌ بشراً من صلصال من حَمَإٍ مسنون بيدى — تكرمةً له وتعظيماً لأمره وتشريفاً له — حفظت الملائكة عهده وَوَعوْا قوله ، وأجمعوا الطاعة إلا ما كان من عدوّ الله إبليس ، فإنه صمتَ على ما كان فى نفسه من الحسد والبغْيِ والتكبر والمعصية . وخلق الله آدم من أدَمة الأرض ، من طين لازب من حَمَإٍ مسنون بيديه ، تكرمةً له وتعظيماً لأمره وتشريفاً له على سائر خلقه . قال : ابن إسحق : فيقال، والله أعلم : خلق الله آدم ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاماً قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالاً كالفخار ولم تمسسه نار . قال: فيقال ، والله أعلم : إنه لما انتهى الروح إلى رأسه عَطس فقال : الحمد لله ، فقال له ربه : يرحمك ربك ، ووقع الملائكة حين استوى سجوداً له ، حفظاً لعهد الله الذى عهد إليهم ، وطاعة لأمره الذى أمرهم به . وقام عدوّ الله إبليس من بينهم فلم يَسجد ، مكابراً متعظماً بغياً وحسداً. فقال له: ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ إلى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص٧٥—٨٥] .

قال : فلما فرغ الله من إبليس ومعاتبته ، وأبى إلا المعصية ، أوقع عليه اللعنة وأخرجه من الجنة . ثم أقبل على آدم ، وقد علمه الأسماء كلها ، فقال : « يا آدم

أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إنّى أعلم غيبَ السموات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون . قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » — أى ، إنما أجبناك فيما علمتنا، فأما ما لم تعلمنا فأنت أعلم به . فكان ما سمىّ آدمُ من شىء ، كان اسمه الذى هو عليه إلى يوم القيامة[1].

وقال ابن جريج بما : —

٦١٦ — حدثنا به القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : إنما تكلموا بما أعلمهم أنه كائن من خلق آدم، فقالوا: « أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ؟ وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » لأن الله أذن لها فى السؤال عن ذلك ، بعد ما أخبرها أن ذلك كائن من بنى آدم . فسألته الملائكة ، فقالت — على التعجب منها —: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم ؟ فأجابهم ربهم: إنى أعلم ما لا تعلمون ، يعنى : أن ذلك كائن منهم — وإن لم تعلموه أنتم — ومن بعض من ترونه لى طائعاً . يعرّفهم بذلك قصور علمهم عن علمه[2].

١/١٦٥

* * *

وقال بعض أهل العربية: قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها » على غير وجه الإنكار منهم على ربّهم ، وإنما سألوه ليعلموا ، وأخبروا عن أنفسهم أنهم يسبحون . وقال : قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يُعصَى الله، لأن الجن قد كانت أمرتْ قبل ذلك فعصتْ .

وقال بعضهم : ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك ، فكأنهم قالوا: « يارب خبرنا »، مسألةَ استخبار منهم لله، لا على وجه مسألة التوبيخ .

قال أبو جعفر : وأولى هذه التأويلات بقول الله جل ثناؤه ، مخبراً عن ملائكته قيلها له : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس

(١) الأثر : ٦١٥ — مضى صدره برقم : ٦٠٠ .
(٢) الأثر : ٦١٦ — لم أجده فى مكان .

لك » ، تأويل من قال : إن ذلك منها استخبار لربها ، بمعنى : أعلمنا يا ربنا أجاعلٌ أنت فى الأرض مَنْ هذه صفته ، وتارك أن تجعل خلفاءَك منا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك — لا إنكارٌ منها لما أعلمها ربها أنه فاعل . وإن كانت قد استعظمتْ لما أخبرت بذلك ، أن يكون لله خلقٌ يعصيه .

وأما دعوى من زعم أن الله جل ثناؤه كان أذن لها بالسؤال عن ذلكَ فسألته على وجه التعجب ، فدعْوَى لا دلالة عليها فى ظاهر التنزيل ، ولا خبر بها من الحجة يقطعُ العذرَ . وغير جائز أن يقال فى تأويل كتاب الله بما لا دلالة عليه من بعض الوجوه التى تقوم بها الحجة .

وأما وصفُ الملائكة مَن وصفت — فى استخبارها ربَّها عنه — بالفساد فى الأرض وسفك الدماء ، فغير مستحيلٍ فيه ما رُوِى عن ابن عباس وابن مسعود من القول الذى رواه السدىّ ، ووافقهما عليه قتادة — من التأويل : وهو أن الله جل ثناؤه أخبرهم أنه جاعلٌ فى الأرض خليفة تكون له ذرية يفعلون كذا وكذا ، فقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها » ، على ما وصفت من الاستخبار .

فإن قال لنا قائل : وما وجه استخبارها ، والأمر على ما وصفتَ ، من أنها قد أخبرت أنّ ذلك كائن ؟

قيل : وجه استخبارها حينئذ يكون عن حالهم عند وقوع ذلك . وهل ذلك منهم ؟ ومسألتهم ربَّهم أن يجعلهم الخلفاءَ فى الأرض حتى لا يعصوه . وغيرُ فاسد أيضاً ما رواه الضحاك عن ابن عباس ، وتابعه عليه الربيع بن أنس ، من أن الملائكة قالت ذلك لما كان عندها من علم سكان الأرض — قبل آدم — من الجنّ ، فقالت لربها : « أجاعل فيها أنت مثلهم من الخلق يفعلون مثل الذى كانوا يفعلون » ؟ على وجه الاستعلام منهم لربهم ، لا على وجه الإيجاب أنّ ذلك كائن كذلك ، فيكون ذلك منها إخباراً عما لم تطلع عليه من علم الغيب . وغيرُ خطأ أيضاً ما قاله ابن زيد من أن يكون قيلُ الملائكة ما قالت من ذلك ، على

وجه التعجب منها من أن يكون لله خلقٌ يعصى خالقه .

وإنما تركنا القول بالذى رواه الضحاك عن ابن عباس ، ووافقه عليه الربيع ابنُ أنس ، وبالذى قاله ابن زيد فى تأويل ذلك ، لأنه لاخبر عندنا بالذى قالوه من وجه يقطعُ مجيئُه العذرَ ، ويُلزمُ سامعَه به الحجة . والخبر عما مضى وما قد سلف ، لا يُدرِك علمُ صحته إلا بمجيئه مجيئاً يمتنع مَعه التشاغب والتواطؤ ، ويستحيل مَعه الكذب والخطأ والسهو[1] . وليس ذلك بموجود كذلك فيما حكاه الضحاك عن ابن عباس ووافقه عليه الربيع ، ولا فيما قاله ابن زيد .

١٦٦/١

فأولى التأويلات — إذ كان الأمر كذلك — بالآية ، ما كان عليه من ظاهر التنزيل دلالةٌ ، مما يصح مخرجُه فى المفهوم .

فإن قال قائل : فإن كان أولى التأويلات بالآية هو ما ذكرتَ ، من أن الله أخبر الملائكة بأن ذرّية خليفته فى الأرض يفسدون فيها ويسفكون فيها الدماء ، فمن أجل ذلك قالت الملائكة : «أتجعل فيها من يفسد فيها »، فأين ذكر إخبارِ الله إياهم فى كتابه بذلك ؟

قيل له : اكتفى بدلالة ما قد ظهرَ من الكلام عليه عنه ، كما قال الشاعر :

فلا تَدْفِنُونِى، إنَّ دَفْنِى مُحَرَّمٌ عليكم، ولكن خامِرِى أمَّ عامِرِ[2]

فحذف قوله : « دعونى للتى يقال لها عند صَيدها » : خامرى أمَّ عامر . إذ كان فيما أظهر من كلامه ، دلالة على معنى مراده . فكذلك ذلك فى قوله : « قالوا :

---

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « يمتنع منه ... ويستحيل منه » ، وليست بشىء . وفى المخطوطة مكان « التشاغب » : « الساهر » غير مبينة .

(٢) البيت للشنفرى الأزدى فى قصة . شرح الحماسة ٢ : ٢٤-٢٦ ، والأغانى ٢١ : ٨٩ وغيرها . ويروى : « لا تقبرونى إن قبرى » ، « ولكن أبشرى » . وقوله « خامرى » : أى استترى ، وأصله من الخمرة (بكسر فسكون) وهو الاستخفاء . يريدون بذلك دنو الضبع مستخفية ملازمة لمكانها حتى تخالط القتيل فتصيب منه . وأم عامر : كنية الضبع . وذلك ما يقوله لها الصائد حين يريد صيدها ، يغرها بذلك حتى يتمكن منها ، فيقول لها : « أبشرى أم عامر بشياه هزلى ، وجراد عظلى ، وكمر رجال قتلى » ، فتميل الضبع إليه فيصيدها .

« أتجعل فيها من يفسد فيها » ، لما كان فيه دلالة على ما ترك ذكره بعد قوله : « إنى جاعل فى الأرض خليفة »، من الخبر عما يكون من إفساد ذريته فى الأرض ، اكتفى بدلالته وحذف ، فترك ذكره كما ذكرنا من قول الشاعر . ونظائر ذلك فى القرآن وأشعار العرب وكلامها أكثر من أن يحصى . فلما ذكرنا من ذلك ، اخترنا ما اخترنا من القول فى تأويل قوله : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

قال أبو جعفر : أما قوله : « ونحن نسبح بحمدك » فإنه يعنى : إنا نعظمك بالحمد لك والشكر ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [سورة النصر : ٣] ، وكما قال : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (سورة الشورى : ٥) . وكلّ ذكر لله عند العرب فتسبيحٌ وصلاة. يقول الرجل منهم : قضيتُ سُبْحَتِى من الذكر والصلاة . وقد قيل : إن التسبيحَ صلاةُ الملائكة .

٦١٧ – حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا يعقوب القمى ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يُصلى ، فمرّ رجل من المسلمين على رجل من المنافقين ، فقال له : النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصلّى وأنت جالس ! فقال له : امض إلى عملك إن كان لك عمل . فقال : ما أظنّ إلاّ سيمر عليك من ينكر عليك . فمرّ عليه عمر بن الخطاب فقال : له : يا فلان ، النبى صلى الله عليه وسلم يصلّى وأنت جالس ! فقال له مثلها ، فقال : هذا من عملى . فوثب عليه فضربه حتى انتهى ، ثم دخل المسجدَ فصلّى

مع النبي صلى الله عليه وسلم . فلما انفتل النبي صلى الله عليه وسلم قام إليه عمر فقال : يا نبيَّ الله ، مررت آنفاً على فلان وأنت تُصلى ، فقلت له : النبيّ صلى الله عليه وسلم يُصلِّى وأنت جالس ! فقال : سِرْ إلى عملك إن كان لكَ عمل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فهلاَّ ضربتَ عُنقه . فقام عمر مسرعاً، فقال : يا عُمر ارجع فإن غضبك عِزّ ، ورضاك حُكْم ، إن لله فى السموات السبع ملائكة يصلون، له غنًى عن صلاة فلان . فقال عمر : يا نبي الله، وما صلاتُهم ؟ فلم يردّ عليه شيئاً ، فأتاه جبريل فقال : يا نبي الله! سألك عُمر عن صلاة أهل السماء ؟ قال : نعم . فقال : اقرأ على عمر السلام ، وأخبره أن أهل السماء الدنيا سجودٌ إلى يوم القيامة يقولون: « سبحان ذى الملك والملكوت »، وأهل السماء الثانية ركوعٌ إلى يوم القيامة يقولون : « سبحان ذى العزة والجبروت »، وأهل السماء الثالثة قيامٌ إلى يوم القيامة يقولون « : سبحان الحى الذى لا يموت »(١). ١٦٧/١

٦١٨ - قال أبو جعفر : وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، وسهل بن موسى الرازى ، قالا : حدثنا ابن عُلَيَّة، قال : أخبرنا الجُرَيْرى ، عن أبي عبد الله الجَسْرى ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عادَه - أو أن أباذرّ عاد النبي صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، بأبي أنتَ ، أى الكلام أحب إلى الله ؟ فقال : ما اصطفى الله للملائكته : «سبحان ربّى وبحمده ، سبحان ربى وبحمده »(١) .

---

(١) الحديث : ٦١٧ هو حديث مرفوع ، ولكنه مرسل ، لأن سعيد بن جبير تابعي . وإسناده إليه إسناد جيد . يعقوب بن عبد الله الأشعرى القمى أبو الحسن : ثقة ، مترجم فى التهذيب ، وترجمه البخارى فى الكبير ٣٩١/٢/٤ ، فلم يذكر فيه جرحاً . وفى التهذيب : « قال محمد بن حميد الرازى [وهو شيخ الطبرى هنا] : دخلت بغداد، فاستقبلنى أحمد وابن معين ، فسألانى عن أحاديث يعقوب القمى ». جعفر بن أبي المغيرة الخزاعى القمى: ثقة، ترجمه البخارى فى الكبير ٢٠٠/٢/١ ، وابن أبي حاتم فى الجرح ٤٩٠/١/١ - ٤٩١ ، فلم يذكرا فيه مطعناً . وفى التهذيب أن ابن حبان نقل فى الثقات توثيقه عن أحمد بن حنبل . وهذا الحديث بطوله ، رواه أبو نعيم فى الحلية ٤ : ٢٧٧ - ٢٧٨ ، من طريق محمد بن حميد - شيخ الطبرى - بهذا الإسناد . وذكر السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٤٦ آخره ، من أول سؤال عمر عن صلاة الملائكة ، ولم ينسبه لغير الطبرى وأبي نعيم .

(١) الحديث: ٦١٨ - فى الدر المنثور ولم ينسبه لابن جرير ، وقال : «أخرج ابن أبي

ــ فى أشكال لما ذكرنا من الأخبار[1] ، كرهنا إطالةَ الكتاب باستقصائها .

* * *

وأصلُ التسبيح لله عند العرب: التنزيهُ له من إضافة ما ليس من صفاته إليه ، والتبرئة له من ذلك ، كما قال أعشى بنى ثعلبة :

أقولُ ــ لمَّا جاءنى فخرُه ــ : سُبْحَانَ من عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ[2]

يريد: سُبحان الله من فخر علقمة ، أى تنزيهاً لله مما أتى علقمة من الافتخار ، على وجه النكير منه لذلك .

وقد اختلف أهل التأويل فى معنى التسبيح والتقديس فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : قولهم « نسبح بحمدك » : نصلى لك . ذكر من قال ذلك :

٦١٩ ــ حدثنى موسى بن هرون، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال: حدثنا أسباط ، عن السدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ــ وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « ونحن نسبح بحمدك ونُقدس لك » ، قال: ، يقولون : نصلّى لك .

وقال آخرون : « نُسبّح بحمدك »[3] التسبيح المعلوم . ذكر من قال ذلك :

٦٢٠ ــ حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزّاق ، قال أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله: « ونحن نسبّح بحمدك » ، قال : التسبيحَ التسبيحَ[4] .

شيبة وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى ذر ... » ٥ : ١٦١ ، ١٧٦ . وهو فى المسند ٥ : ١٤٨ ومسلم ٢ : ٣١٩ ، ٨ : ٨٦ .

(١) فى المطبوعة : « فى كل أشكال لما ذكرنا ... » ، و « كل » مقحمة هنا بلا شك .

(٢) ديوانه : ١٠٦ ، من قصيدته المشهورة ، التى قالها فى هجاء علقمة بن علاثة ، فى خبر منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل (الأغانى ١٥ : ٥٠ ــ ٥٦) . وذكر ابن الشجرى فى أماليه ١ : ٣٤٨ عن أبى الخطاب الأخفش ، قال : « وإنما ترك التنوين فى « سبحان » وترك صرفه لأنه صار عندهم معرفة » . وقال فى ٢ : ٢٥٠ : « لم يصرفه ، لأن فيه الألف والنون زائدتين ، وأنه علم التسبيح ، فإن نكرته صرفته » . وانظر ص : ٤٩٥ وتعليق رقم : ٣ .

(٣) فى الأصول : « نسبح لك » ، والصواب ما أثبتناه ، وهو نص الآية .

(٤) الأثران : ٦١٩ ، ٦٢٠ ــ فى ابن كثير ١ : ١٢٩ ، والدر المنثور ١ : ٤٦ ، والشوكانى ١ : ٥٠ .

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

قال أبو جعفر : والتقديس هو التطهير والتعظيم ، ومنه قولهم : « سُبُّوح قُدُّوس » ، يعنى بقولهم : « سُبوح » ، تنزيهٌ لله ، وبقولهم : « قُدوسٌ » ، طهارةٌ له وتعظيم . ولذلك قيل للأرض : « أرض مُقدسة » ، يعنى بذلك المطهرة . فمعنى قول الملائكة إذاً : « ونحن نسبِّح بحمدك » ، ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهلُ الشرك بك ، ونصلى لك « ونقدس لك » ، ننسبك إلى ما هو من صفاتك ، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك . وقد قيل : إن تقديس الملائكة لربها صلاتُها له . كما : —

٦٢١ — حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، قال أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله : « ونقدس لك » ، قال : التقديسُ : الصلاة(١).

وقال بعضهم : « نقدس لك » : نعظمك ونمجدك . ذكر من قال ذلك .

٦٢٢ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هاشم بن القاسم ، قال : حدثنا أبو سعيد المؤدِّب ، قال : حدثنا إسمعيل ، عن أبى صالح ، فى قوله : « ونحن نسبِّح بحمدك ، ونقدس لك » ، قال : نعظمك ونمجِّدك(٢).

٦٢٣ — وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنى عيسى — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل — جميعاً عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله : « ونقدس لك » ، قال نعظِّمك ونكبِّرك(٣) .

---

(١) الأثر : ٦٢١ — فى ابن كثير ١ : ١٢٩ ، والدر المنثور ١ : ٤٦ ، والشوكانى ١ : ٥٠ .

(٢) الأثر : ٦٢٢ — فى الدر المنثور ١ : ٤٦ .

(٣) الأثر : ٦٢٣ — فى ابن كثير ١ : ١٢٩ ، والدر المنثور ١ : ٤٦ .

٦٢٤ـ وحدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن ابن إسحق : «ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك» ، لا نَعصَى ولا نأتى شيئاً تكرهُه[1].

١/١٦٨ ٦٢٥ـ وحدثت عن المنجاب، قال حدثنا بشر، عن أبى رَوق، عن الضحاك، فى قوله: «ونقدس لك» ، قال : التقديس: التطهير[2] .

وأما قول من قال : إن التقديس الصلاة أو التعظيم ، فإن معنى قوله ذلك راجع إلى المعنى الذى ذكرناه من التطهير ، من أجل أنّ صلاتها لربها تعظيم منها له ، وتطهير مما ينسبه إليه أهل الكفر به . ولو قال مكانَ «ونقدّس لك» و «نقدّسك» كان فصيحاً من الكلام . وذلك أن العرب تقول: فلان يسبّح الله ويقدّسه ، ويسبح لله ويقدّس له، بمعنى واحد . وقد جاء بذلك القرآن، قال الله جل ثناؤه : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ [سورة طه : ٣٣، ٣٤]، وقال فى موضع آخر: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة الجمعة : ١]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : يعنى بقوله: «أعلم ما لا تعلمون»، مما اطلع عليه من إبليس وإضماره المعصيةَ لله وإخفائه الكبر ، مما اطلع عليه تبارك وتعالى منه وخفى على ملائكته . ذكر من قال ذلك :

٦٢٦ـ حدثنا محمد بن العلاء، قال: حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : «إنى أعلم

---

(١) الأثر : ٦٢٤ — فى ابن كثير ١ : ١٢٩ .
(٢) الأثر : ٦٢٥ — فى ابن كثير ١ : ١٢٩ ، وفى الدر المنثور ١ : ٤٦ : «وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال : التقديس : التطهير» ، ولم ينسبه للضحاك ، ولا لابن جرير .

ما لا تعلمون »، يقول: إنى قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كِبره واغتراره[1] .

٦٢٧– وحدثني موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس – وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، يعنى من شأن إبليس .

٦٢٨– وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد – وحدثنا محمد ابن بشار ، قال : حدثنا مؤمل – قالا جميعاً : حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها .

٦٢٩– وحدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقى ، قال : حدثنا محمد بن بشر ، قال : حدثنا سفيان ، عن على بن بَذِيمة ، عن مجاهد ، بمثله[2] .

٦٣٠– حدثنا أبو كريب قال : حدثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن على ابن بذيمة ، عن مجاهد مثله[3] .

٦٣١– وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حَكَّام ، عن عنبسة ، عن محمد ابن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بزة ، عن مجاهد فى قوله : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها[4] .

---

(١) الخبر : ٦٢٦ – لم يذكر فى المصادر السالفة . و « بشر بن عمارة » : مضت ترجمته فى : ١٣٧ ، وتكرر مراراً ، ولكن مصححو طبعة بولاق قالوا فى هذا الموضع : « كذا فى النسخ بالتاء ، وتكرر بها فيها كلها . وهو فى الخلاصة بدون تاء » !! وهو « عمارة » بالتاء فى جميع الكتب والدواوين . والذى فى الخلاصة خطأ مطبعى فقط !!

(٢) الأثر : ٦٢٩ – « على بن بذيمة » ، بفتح الباء الموحدة وكسر الذال المعجمة ، وهو ثقة .

(٣) الأثر : ٦٣٠ – « ابن يمان » ، بفتح الياء وتخفيف الميم : هو يحيى بن يمان العجلى الكوفى ، وهو صدوق من شيوخ أحمد بن حنبل . و « سفيان » فى هذا والذى قبله – هو الثورى .

(٤) الأثر : ٦٣١ – « القاسم بن أبى بزة » ، بفتح الباء الموحدة وتشديد الزاى : ثقة مكى ، قال ابن حبان : « لم يسمع التفسير من مجاهد – أحد غير القاسم ، وكل من يروى عن مجاهد التفسير –

٦٣٢– وحدثني جعفر بن محمد البُزُورى ، قال : حدثنا حسن بن بشر ، عن حمزة الزيات ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، قال : علم من إبليس كتمانه الكِبْر أن لا يسجُد لآدم .

٦٣٣– وحدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، قال : – وحدثني المثنى ، قال : حدثنا ، أبو حذيفة ، قال : حدثنا شِبل – جميعاً عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قول الله : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، قال : علم من إبليس المعصية .

٦٣٤– وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد ، مثله .

٦٣٥– وحدثني المثنى ، قال : حدثنا سُويد ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن سفيان ، قال : قال مجاهد فى قوله : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها[1] .

وقال مرّةً : آدم .

٦٣٦– وحدثني المثنى ، قال : حدثنا حجاج بن المنهال ، قال : حدثنا المعتمر ابن سليمان ، قال سمعت عبد الوهاب بن مجاهد يحدث عن أبيه فى قوله : « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها ، وعلم من آدم الطاعة وخلقَه لها[2] . ١٦٩/١

فإنما أخذه من كتاب القاسم » . وقال ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ٣/٢/١٢٢ : « هو القاسم ابن نافع بن أبى بزة ، واسم أبى بزة : يسار » . و « محمد بن عبد الرحمن » الراوى عنه هنا : هو ابن أبى ليلى .

(١) الأثر : ٦٣٥ – ذكره السيوطى ١ : ٤٦ . والشوكانى ١ : ٥٠ . ولكن سقط اسم « مجاهد » ، من الدر المنثور ، خطأ مطبعياً .

(٢) الأثر : ٦٣٦ – أما « مجاهد بن جبر » ، فهو التابعى الكبير ، الثقة الفقيه المفسر . ولكن ابنه « عبد الوهاب بن مجاهد » : ضعيف جداً ، قال أحمد بن حنبل : « لم يسمع من أبيه ، ليس بشىء ، ضعيف الحديث » . وضعفه أيضاً ابن معين وأبو حاتم . ومر عبد الوهاب بسفيان الثورى ،

٦٣٧– وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس، عن أبيه ، والثورى ، عن على بن بَذِيمة ، عن مجاهد فى قوله : « إنى أعلم ما لا تعلمون »، قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها[١] .

٦٣٨– وحدثنا ابن حميد، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق : « إنى أعلم ما لا تعلمون ». أى فيكم ومنكم ، ولم يُبْدِها لهم ، من المعصية والفساد وسفك الدماء.

وقال آخرون : معنى ذلك : إنى أعلم ما لا تعلمون من أنه يكون من ذلك الخليفة أهلُ الطاعة والولايةِ لله . ذكر من قال ذلك :

٦٣٩– حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد بن زُريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال: « إنى أعلم ما لا تعلمون »، فكان فى علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ُورسلٌ وقوم صالحون وساكنو الجنة[٢] .

* * *

وهذا الخبر من الله جل ثناؤه يُنبئ عن أن الملائكة التى قالت : « أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء » ، استفظعتْ أن يكون لله خلق يعصيه ، وعجبتْ منه إذْ أخبرت أن ذلك كائن . فلذلك قال لهم ربهم : « إنى أعلم ما لا تعلمون » . يعنى بذلك، والله أعلم : إنكم لتعجبون من أمر الله وتستفظعونه ، وأنا أعلم أنه فى بعضكم ، وتصفون أنفسكم بصفةٍ أعلمُ خِلافَها من بعضكم، وتعرّضون بأمر قد جعلته لغيركم . وذلك أن الملائكة لما أخبرها ربها بما هو كائن من ذرية خليفته ، من الفساد وسفك الدماء ، قالت لربها : يا رب أجاعل أنت فى الأرض خليفةً من غيرنا ، يكون من ذريته من يعصيك ، أم منا ، فإنا نعظمك

فى مسجد الحرام ، فقال سفيان : « هذا كذاب » . وأما هذا الأثر ، بزيادة : « وعلم من آدم الطاعة – ... » – فلم نجده فى موضع آخر .

(١) الأثر : ٦٣٧ – هو فى معنى الآثار السالفة : ٦٣٣ – ٦٣٥ .

(٢) الأثر : ٦٣٩ – فى ابن كثير ١ : ١٣٠ ، والدر المنثور ١ : ٤٦ ، والشوكانى ١ : ٥٠ . وفى ابن كثير : « فى تلك الخليقة » وفى الدر المنثور « من تلك الخليقة » وفى الشوكانى : « سيكون من الخليقة » : وجميعها بالقاف ، وهو خطأ ، والصواب ما فى نص الطبرى .

ونصلى لك ونطيعك ولا نعصيك؟ - ولم يكن عندها علم بما قد انطوى عليه كَشْحاً إبليسُ من استكباره على ربه - فقال لهم ربهم : إنى أعلم غير الذى تقولون من بعضكم . وذلك هو ما كان مستوراً عنهم من أمر إبليس ، وانطوائه على ما قد كان انطوى عليه من الكبر . وعلى قِيلهم ذلك ، ووصفهم أنفسهم بالعموم من الوصف ، عُوتبوا.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ ءادَمَ ﴾

٦٤٠ - حدثنا محمد بن جرير ، قال : حدثنا محمد بن حميد، قال : حدثنا يعقوب القُمّى ، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس، قال : بعث ربُّ العزة مَلكَ الموت فأخذ من أديم الأرض ، من عذْبها ومالحها ، فخلق منه آدم . ومن ثَمَّ سُمى آدم . لأنه خُلق من أديم الأرض[1] .

٦٤١ - وحدثنا أحمد بن إسحق، قال: حدثنا أبو أحمد الزبيرى، قال : حدثنا عمرو بن ثابت ، عن أبيه ، عن جده ، عن على ، قال : إن آدم خُلق من أديم الأرض، فيه الطيّب والصالح والردىء، فكل ذلك أنت راءٍ فى ولده، الصالح والردىء[2] .

(١) الخبر : ٦٤٠ - هذا إسناد صحيح . ورواه الطبرى فى التاريخ أيضاً ١ : ٤٦ ، بهذا الإسناد ، بزيادة فى آخره . ولكن فيه : « بعث رب العزة إبليس » بدل « ملك الموت » . وهذا هو الصواب الموافق لسائر الروايات ، فلعل ما هنا تحريف قديم من الناسخين . وكذلك رواه ابن سعد فى الطبقات ١/١/٦ ، عن حسين بن حسن الأشقر ، عن يعقوب بن عبد الله القمى ، بهذا الإسناد . وكذلك نقله السيوطى ١ : ٤٧ ، مطولا ، عن ابن سعد ، والطبرى ، وابن أبى حاتم ، وابن عساكر .

(٢) الخبر : ٦٤١ - رواه الطبرى فى التاريخ ١ : ٤٦ ، بهذا الإسناد. وذكره السيوطى ١ : ٤٧ ، منسوباً للطبرى وحده ، ولم أجده عند غيره . وإسناده ضعيف جداً . عمرو بن ثابت : هو ابن أبى المقدام الحداد ، ضعيف جداً ، قال ابن معين : « ليس بثقة ولا مأمون » . وأما أبوه « ثابت بن هرمز أبو المقدام » ، فإنه ثقة . ويزيد هذا الإسناد ضعفاً وإشكالا - قوله فيه : « عن جده » ! فإن ترجمة ثابت فى المراجع كلها ليس فيها أنه يروى عن أبيه « هرمز » . ثم لا نجد لهرمز هذا ذكراً ولا ترجمة ، فما أدرى مم هذا ؟

٦٤٢ — حدثنا أحمد بن إسحق، قال: حدثنا أبو أحمد ، قال حدثنا مِسعر، عن أبي حَصين ، عن سعيد بن جُبير ، قال : خُلق آدم من أديم الأرض ، فسمِّى آدم .

٦٤٣ — وحدثنا ابن المثنى، قال: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا شعبة، عن أبي حَصين ، عن سعيد بن جبير ، قال: إنما سمى آدمَ لأنه خلق من أديم الأرض[1].

٦٤٤ — وحدثني موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى في خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أنّ ملك الموت لما بُعث ليأخذ من الأرض تربةَ آدم ، أخذ من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاءَ وسوداء ، فلذلك خرَج بنو آدم مختلفين . ولذلك سُمى آدم ، لأنه أخذ من أديم الأرض[2] .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرٌ يحقق ما قال مَن حكينا قوله في معنى آدم . وذلك ما — :

٦٤٥ — حدثني به يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن عُلية ، عن عوف — وحدثنا محمد بن بشار ، وعمر بن شَبة — قالا : حدثنا يحيى بن سعيد — قال : حدثنا عوف — وحدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا ابن أبي عدى ، ومحمد بن جعفر ، وعبد الوهاب الثقفي ، قالوا حدثنا عوف — حدثني محمد بن عمارة الأسدى ، قال : حدثنا إسمعيل بن أبان ، قال : حدثنا عنبسة — عن عوف الأعرابي، عن قَسامَة بن زُهير ، عن أبي موسى الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ الله خلق آدم من قَبضة قَبضها من جميع الأرض ، فجاء

١/١٧٠

---

(١) الأثران : ٦٤٢ ، ٦٤٣ — رواهما الطبرى فى التاريخ أيضاً ١ : ٤٦ ، بهذين الإسنادين . وذكره بنحوه السيوطى ١ : ٤٩ ، والشوكانى ١ : ٥٢ . و « أبو حصين » ، فيهما : بفتح الحاء وكسر الصاد المهملتين، وهو : عثمان بن عاصم بن حصين الأسدى، ثقة ثبت صاحب سنة .

(٢) الخبر : ٦٤٤ — مضى ضمن خبر مطول ، بهذا الإسناد : ٦٠٧ .

بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك ، والسهلُ والحَزْن ، والخبيث والطيب[١] .

فعلى التأويل الذى تأوّل « آدم » من تأوله ، بمعنى أنه خُلق من أديم الأرض ، يجب أن يكون أصْل « آدم » فعلاً سمي به أبو البشر ، كما سمى « أحمد » بالفعل من الإحماد ، و « أسعد » من الإسعاد ، فلذلك لم يُجرَّ . ويكون تأويله حينئذ : آدمَ المَلَكُ الأرضَ ، يعنى به بلغ أدمتها — وأدَمَتُها : وجهها الظاهر لرأى العين ، كما أنّ جلدة كل ذى جلدة له أدَمَة . ومن ذلك سُمى الإدام إدَاماً ، لأنه صار كالجلدة العليا مما هى منه — ثم نقل من الفعل فجعل اسماً للشخص بعينه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى الأسماء التى علمها آدمَ ثم عَرضها على الملائكة ، فقال ابن عباس ما — :

٦٤٦— حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسانٌ ودابة وأرض وَسهل وبحر وجبل وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها[٢] .

---

(١) الحديث : ٦٤٥ — هو حديث صحيح . ورواه أحمد فى المسند ٤ : ٤٠٠ ، ٤٠٦ (حلبى) ، وابن سعد فى الطبقات ١/١/٥ — ٦ ، وأبو داود : ٤٦٩٣ ، والترمذى ٤ : ٦٧—٦٨ ، والحاكم ٢ : ٢٦١ — ٢٦٢ ، كلهم من طريق عوف بن أبى جميلة الأعرابى ، عن قسامة بن زهير ، به . قال الترمذى : « حسن صحيح » . وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى ، وذكره السيوطى ١ : ٤٦ ، ونسبه لهؤلاء ، ولعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وغيرهم . ورواه أيضاً الطبرى فى التاريخ ١ : ٤٦ ، بهذه الأسانيد التى هنا ، بزيادة فى آخره .

(٢) الخبر : ٦٤٦ — فى ابن كثير ١ : ١٣٢ ، والدر المنثور ١ : ٤٩ ، والشوكانى ١ : ٥٢ وقد مضى برقم : ٦٠٦ ، مطولا .

٦٤٧ـ وحدثنا محمد بن عمرو ، قال: حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثني عيسى ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد ـ وحدثني المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ،عن مجاهد ، في قول الله : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، قال : علمه اسم كل شيء .

٦٤٨ـ وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي ،عن سفيان ، عن خُصيف ، عن مجاهد : « وعلم آدم الأسماء كلها ، » قال : علمه اسم كل شيء[1] .

٦٤٩ـ وحدثنا على بن الحسن ، قال :حدثنا مسلم الجَرمى ،عن محمد بن مصعب ، عن قيس بن الربيع ، عن خُصيف ، عن مجاهد ، قال : علمه اسم الغراب والحمامة واسم كل شيء [2] .

٦٥٠ـ وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، عن شَريك ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، قال : علمه اسمَ كل شيء ، حتّى البعير والبقرة والشاة[3] .

٦٥١ـ وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبي، عن شَريك ، عن عاصم ابن كليب ، عن سعيد بن مَعبد ، عن ابن عباس ، قال : علمه اسم القصعة والفسوة والفُسَيَّة [4] .

٦٥٢ـ وحدثنا أحمد بن إسحق، قال: حدثنا أبو أحمد، قال : حدثنا شريك ،

---

(١) الأثران : ٦٤٧ ، ٦٤٨ – في الدر المنثور ١ : ٤٩ ، وكأنهما اختصار لما بعدهما .

(٢) الأثر : ٦٤٩ – لم أجده بنصه ولعله مطول الذى قبله، وانظر ما سيأتي رقم : ٦٦٦.
و « مسلم الجرمى » : ثبت في الأصول بالحاء . وقد مضى في : ١٥٤ ترجيحنا أنه بالجيم .

(٣) الأثر : ٦٥٠ – في الدر المنثور ١ : ٤٩ .

(٤) الخبر : ٦٥١ – سعيد بن معبد : تابعى ، يروى عن ابن عباس ، لم أجد له ترجمة إلا في التاريخ الكبير للبخارى ٤٦٨/١/٢ ، والجرح لابن أبي حاتم ٦٣/١/٢ . وكلاهما ذكر أنه يروى عن ابن عباس ، ويروى عنه : القاسم بن أبي بزة . فجاءنا الطبرى بفائدة زائدة ، في هذا الإسناد ، وفي الإسناد : ٦٥٣ : أنه يروى عنه أيضاً عاصم بن كليب . وهذا الخبر ذكره بنحوه : ابن كثير ١ : ١٣٢ ، والسيوطى ١ : ٤٩ . ونسباه أيضاً لابن أبي حاتم . وهذا الخبر والثلاثة بعده ، متقاربة المعنى ، هي روايات لخبر واحد .

عن عاصم بن كليب ، عن الحسن بن سعد ، عن ابن عباس : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، قال : حتى الفسوة والفُسَيَّة .

٦٥٣— حدثنا على بن الحسن، قال : حدثنا مسلم ، قال: حدثنا محمد بن مُصعب ، عن قيس ، عن عاصم بن كليب ، عن سعيد بن مَعبد ، عن ابن عباس فى قول الله: « وعلم آدم الأسماء كلها » ، قال : علمه اسم كل شىء حتى الهَنة والهُنَيَّة والفسوة والضرطة .

٦٥٤— وحدثنا القاسم ،قال: حدثنا الحسين، قال : حدثنا على بن مسهر ، عن عاصم بن كليب، قال : قال ابن عباس : علمه القصعة من القُصيعة والفسوة من الفسية[١] .

٦٥٥— وحدثنا بشر بن معاذ، قال : حدثنا يزيد بن زُريع ،عن سعيد ، عن قتادة ، قوله : « وعلم آدم الأسماء كلها » حتى بلغ « إنك أنتَ العليمُ الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم » ، فأنبأ كل صنف من الخلق باسمه ، وألجأه إلى جنسه[٢] .

١٧١/١ ٦٥٦— وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال: حدثنا عبد الرزّاق، قال : حدثنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « وعلم آدم الأسماء كلها »،قال : علمه اسم كل شىء، هذا جبل ، وهذا بحر ، وهذا كذا وهذا كذا ، لكل شىء . ثم عرض تلك الأشياء على الملائكة فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين[٣] .

٦٥٧— وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن جرير بن حازم — ومبارك ، عن الحسن — وأبى بكر عن الحسن وقتادة ،

(١) الخبر : ٦٥٤ — عاصم بن كليب الجرمى : ثقة يحتج به . ولكنه إنما يروى عن التابعين ، فروايته عن ابن عباس هنا منقطعة . وقد دلتنا الأسانيد الثلاثة الماضية على أنه إنما روى هذا المعنى عن سعيد بن معبد ، وعن الحسن بن سعد ، عن ابن عباس .

(٢) الأثر : ٦٥٥ — فى الدر المنثور ١ : ٤٩ ، بغير هذا اللفظ. وانظر رقم : ٦٩٧ .

(٣) الأثر : ٦٥٦ — فى ابن كثير ١ : ١٣٣ مختصراً ، وفى الدر المنثور ١ : ٤٩ مطولا وفى ابن كثير : « ثم عرض تلك الأسماء » .

قالا : علمه اسم كل شيء : هذه الخيل ، وهذه البغال والإبل والجنّ والوحش ، وجعل يسمى كل شيء باسمه[1].

٦٥٨ـ وحُدِّثت عن عمّار ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : اسم كل شيء[2].

وقال آخرون : علم آدم الأسماء كلها ، أسماء الملائكة . ذكر من قال ذلك :

٦٥٩ـ حُدِّثت عن عمار ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله : « وعلم آدمَ الأسماء كلها » ، قال : أسماء الملائكة[3].

وقال آخرون : إنما علمه أسماء ذريته كلها . ذكر من قال ذلك :

٦٦٠ـ حدثنا محمد بن جرير ، قال : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد فى قوله : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، قال : أسماء ذريته أجمعين[4] .

* * *

وأوْلَى هذه الأقوال بالصواب ، وأشبهها بما دل على صحته ظاهرُ التلاوة ، قول من قال فى قوله : « وعلم آدم الأسماء كلها » أنها أسماءُ ذرّيته وأسماءُ الملائكة ، دون أسماء سائر أجناس الخلق . وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال : « ثم عَرَضَهم على الملائكة » ، يعني بذلك أعيانَ المسمَّين بالأسماء التى علمها آدم . ولا تكادُ العرب تكني بالهاء والميم إلا عن أسماء بنى آدم والملائكة . وأمّا إذا كانت عن أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفناها ، فإنها تكنى عنها بالهاء والألف أو بالهاء والنون ، فقالت : « عرضهن » أو « عرضها » ، وكذلك تفعل إذا كنَتْ عن أصناف

(١) الأثر : ٦٥٧ — فى ابن كثير ١ : ١٣٣ بغير هذا اللفظ مختصراً ، وفى الدر المنثور ١ : ٤٩ ، وسيأتى كما جاء فيهما برقم : ٦٦٧ .

(٢) الأثر : ٦٥٨ — لم أجده .

(٣) الأثر : ٦٥٩ — فى ابن كثير ١ : ١٣٢ ، والدر المنثور ١ : ٤٩ ، والشوكانى ١ : ٥٢ .

(٤) الأثر : ٦٦٠ — فى ابن كثير ١ : ١٣٢ ، والدر المنثور ١ : ٤٩ ، والشوكانى ١ : ٥٢ .

من الخلق كالبهائم والطير وسائر أصناف الأمم وفيها أسماءُ بنى آدم والملائكة ، فإنها تكنى عنها بما وصفنا من الهاء والنون أو الهاء والألف . وربما كنَتْ عنها، إذا كان كذلك[١] ، بالهاء والميم ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾[سورة النور : ٤٥]، فكنى عنها بالهاء والميم ، وهى أصناف مختلفة فيها الآدمى وغيره . وذلك ، وإن كان جائزاً ، فإن الغالب المستفيض فى كلام العرب ما وصفنا ، من إخراجهم كنايةَ أسماء أجناس الأمم — إذا اختلطت — بالهاء والألف أو الهاء والنون . فلذلك قلتُ : أولى بتأويل الآية أن تكون الأسماء التى علَّمها آدمَ أسماء أعيان بنى آدم وأسماء الملائكة ، وإن كان ما قال ابن عباس جائزاً على مثال ما جاء فى كتاب الله من قوله: «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه » الآية . وقد ذكر أنها فى حرف ابن مسعود : « ثم عرضهن »، وأنها فى حرف أبَىّ: « ثم عرَضها »[٢]. ولعل ابن عباس تأول ما تأول من قوله : علمه اسم كل شىء حتى الفسوة والفسيَّة ، على قراءة أبىّ ، فإنه فيما بلغنا كان يقرأ قراءة أبىّ . وتأويل ابن عباس — على ما حُكى عن أبىّ من قراءته — غير مُستنكر ، بل هو صحيح مستفيض فى كلام العرب ، على نحو ما تقدم وصفى ذلك .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾

قال أبو جعفر : قد تقدم ذكرنا التأويل الذى هو أولى بالآية ، على قراءتنا ورسم مُصحفنا ، وأن قوله : « ثم عرَضهم » ، بالدلالة على بنى آدم والملائكة ،

---

(١) فى المطبوعة : « إذ كان ... » وهو خطأ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١ : ١٣٢ فى التعقيب على كلام الطبرى .

أولى منه بالدلالة على أجناس الخلق كلها ، وإن كان غيرَ فاسد أن يكون دالاً على جميع أصناف الأمم ، للعلل التي وصفنا . ١٧٢/١

ويعني جل ثناؤه بقوله : « ثم عَرَضهم » ، ثم عرَض أهل الأسماء على الملائكة .

* * *

وقد اختلف المفسرون في تأويل قوله : « ثم عَرَضهم على الملائكة » نحو اختلافهم في قوله : « وعلم آدمَ الأسماء كلها » . وسأذكر قول من انتهى إلينا عنه فيه قولٌ .

٦٦١ — حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « ثم عَرضهم على الملائكة » ، ثم عرض هذه الأسماء ، يعني أسماء جميع الأشياء ، التي علمها آدم من أصناف جميع الخلق[1] .

٦٦٢ — وحدثني موسى ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدي في خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « ثم عرضهم » ، ثم عرض الخلقَ على الملائكة[2] .

٦٦٣ — وحدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : أسماء ذريته كلِّها ، أخذهم من ظهره . قال : ثم عرضهم على الملائكة[3] .

٦٦٤ — وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة : « ثم عرضهم » ، قال : علمه اسم كل شيء ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة[4]

---

(١) الخبر : ٦٦١ — هو من تمام الآثار السالفة قريباً .

(٢) الخبر : ٦٦٢ — مختصر من الخبر الطويل الماضي قريباً ، وفي ابن كثير ١ : ١٣٢ .

(٣) الأثر : ٦٦٣ — في الدر المنثور ١ : ٤٩ .

(٤) الأثر : ٦٦٤ — مختصر أثر سلف بإسناده هذا ، وفي ابن كثير ١ : ١٣٣ .

٦٦٥ — وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال: حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد: « ثم عرضهم » ، عرض أصحاب الأسماء على الملائكة [١].

٦٦٦ — وحدثنا على بن الحسن ، قال : حدثنا مسلم، قال: حدثنا محمد ابن مصعب، عن قيس، عن خُصَيف ، عن مجاهد: « ثم عرضهم على الملائكة »، يعنى عرض الأسماء، الحمامةَ والغراب [٢].

٦٦٧ — وحدثنا القاسم، قال : حدثنا الحسين، قال : حدثني حجاج، عن جرير بن حازم — ومبارك عن الحسن — وأبي بكر عن الحسن وقتادة — قالا : علّمه اسم كل شيء: هذه الخيلَ، وهذه البغال، وما أشبه ذلك. وجعل يُسمى كل شيء باسمه ، وعُرضت عليه أمة أمة [٣].

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل قوله « أنبئونى » : أخبرونى ، كما : —

٦٦٨ — حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان ، قال : حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « أنبئونى » ، يقول : أخبرونى بأسماء هؤلاء [٤].

ومنه قول نابغة بنى ذُبيان :

---

(١) الأثر : ٦٦٥ — فى ابن كثير : ١ : ١٣٣ ، والدر المنثور ١ : ٤٩ ، والشوكانى ١ : ٥٢ .

(٢) الأثر : ٦٦٦ — فى ابن كثير ١ : ١٣٤ ، وانظر ما مضى قريباً بإسناده .

(٣) الأثر : ٦٦٧ — انظر ما مضى رقم : ٦٥٧ وابن كثير ١ : ١٣٣ ، والدر المنثور ١ : ٤٩ .

(٤) الخبر : ٦٦٨ — مختصر من الخبر رقم : ٦٠٦ .

وأَنْبَأَهُ الْمُنَبِّئُ أَنَّ حَيًّا حُلُولٌ من حَرَامٍ أو جُذَامِ[1]

يعنى بقوله : « أنبأه » : أخبره وأعلمه .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ذكره : ﴿ بِأَسْمَاءِ هٰؤُلاَءِ ﴾

قال أبو جعفر :

٦٦٩ — حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال حدثنا عيسى — وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد فى قوله الله : « بأسماء هؤلاء » ، قال : بأسماء هذه التى حدَّثتُ بها آدمَ .

٦٧٠ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » يقول : بأسماء هؤلاء التى حدَّثت بها آدم[2]

* * *

(١) ديوانه : ٨٧ من قصيدة له ، فى عمرو بن هند ، وكان غزا الشام بعد قتل المنذر أبيه . وقال أبو عبيدة : هذه القصيدة لعمرو بن الحارث الغسانى فى غزوة العراق . ورواية الديوان : « أن حياً حلولا » بالنصب ، صفة « حياً » وهى الرواية الجيدة . وخبر « أن » محذوف ، كأنه يقول : قد تألبوا يترصدون لك . وحذفه للتهويل فى شأن اجتماعهم وترصدهم . والبيت الذى يليه دال على ذلك ، وهو قوله :

وَأَنَّ القَوْمَ نَصْرُهُمُ جَمِيعٌ فِئَامٌ مُجْلِبُونَ إِلَى فِئَامِ

ورواية الرفع ، لا بأس بها ، وإن كنت لا أستجيدها . وقوله : « حرام » كأنه يعنى بنى حرام ابن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد هذيم . أو كأنه يعنى بنى حرام بن جذام بن عدى بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد . ودار جذام جبال حسمى ، وأرضها بين أيلة وجانب تيه بنى إسرائيل الذى يلى أيلة ، وبين أرض بنى عذرة من ظهر حرة نهيل (معجم البلدان : حسمى) . فمن أجل أن بنى عذرة هذه ديارهم قريبة من جذام ، شككت فيمن عنى النابغة ببنى حرام فى هذا البيت .

(٢) الأثران : ٦٦٩ ، ٦٧٠ — لم أجدهما فى مكان .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٣١)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى ذلك :

٦٧١ — فحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس: « إن كنتم صادقين » ، إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل فى الأرض خليفة [١].

١٧٣/١ ٦٧٢ — وحدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « إن كنتم صادقين » أنّ بنى آدم يُفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء[٢].

٦٧٣ — وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، عن جرير بن حازم — ومبارك عن الحسن — وأبى بكر عن الحسن وقتادة — قالا : « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » أنى لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلمَ منه ، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين [٣] .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، تأويلُ ابن عباس ومن قال بقوله . ومعنى ذلك: فقال أنبئونى بأسماء من عرضتُه عليكم أيتها الملائكة — القائلون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا ، أم منا ، فنحن نسبح بحمدك

---

(١) الخبر : ٦٧١ — مختصر من الخبر السالف رقم ٦٠٦ ، وانظر التعليق ، هناك على هذه الفقرة . وانظر الشوكانى ١ : ٥٢ .

(٢) الخبر : ٦٧٢ — مختصر من الخبر السالف رقم ٦٠٧ ، وابن كثير ١ : ١٣٣ ، والدر المنثور ١ : ٥٠ ، والشوكانى ١ : ٥٢ .

(٣) الأثر : ٦٧٣ — مختصر من الأثر السالف رقم ٦١١ ، وابن كثير ١ : ١٣٣ .

ونقدس لك ؟ إن كنتم صادقين فى قيلكم أنى إن جعلت خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى ذريته وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، وإن جعلتكم فيها أطعتمونى واتّبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس . فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليكم من خلقى ، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم ، وعلمه غيركم بتعليمى إياه ؛ فأنتم = بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التى لم توجد بعدُ ، وبما هو مستتر من الأمور — التى هى موجودة — عن أعينكم = أحرى أن تكونوا غير عالمين . فلا تسألونى ما ليس لكم به علم ، فإنى أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقى .

وهذا الفعل من الله جل ثناؤه بملائكته — الذين قالوا له : « أتجعل فيها من يفسد فيها » ، من جهة عتابه جل ذكره إياهم — نظيرُ قوله جل جلاله لنبيه نوح صلوات الله عليه إذ قال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٥] — : لاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ [1]. فكذلك الملائكة سألت ربها أن تكون خلفاءه فى الأرض ليسبّحوه ويقدسوه فيها ، إذ كان ذرية من أخبرهم أنه جاعلُه فى الأرض خليفةً ، يفسدون فيها ويسفكون الدماء ، فقال لهم جل ذكره : « إنى أعلم ما لا تعلمون » . يعنى بذلك : إنى أعلم أنّ بعضكم فاتحُ المعاصى وخاتمُها ، وهو إبليس ، منكراً بذلك تعالى ذكره قولهم . ثم عرّفهم موضع هفوتهم فى قيلهم ما قالوا من ذلك ، بتعريفهم قصور علمهم عما هم له شاهدون عياناً ، — فكيف بما لم يروه ولم يُخبَروا عنه ؟ — بعرضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ ، وقيله لهم : « أنبئونى

(١) فى المطبوعة : « وأنت أحكم الحاكمين فلا تسألن » ، وهو خطأ فاحش ، فإن الآية التى تلى قوله : « وأنت أحكم الحاكمين » : « قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم ... » ، ولم يرد الطبرى أن يسوق الآيتين ، بل ساق قول الله سبحانه لنبيه حين قال ما قال . والصواب ما فى المخطوطة كما أثبتناه .

بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » أنكم إن استخلفتكم فى أرضى سبّحتمونى وقدستمونى ، وإن استخلفت فيها غيركم عصَانى ذُريته وأفسدوا وسفكوا الدماء . فلما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم ، وبدت لهم هَفوة زَلّتهم ، أنابوا إلى الله بالتوبة فقالوا : « سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا » ، فسارعوا الرجعة من الهفوة ، وبادروا الإنابة من الزلة ، كما قال نوح — حين عوتب فى مَسئلته فقيل له : لا تسألن ما ليس لك به علم(١) — : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٧] . وكذلك فعلُ كل مسدَّد للحق مُوفَّق له — سريعة إلى الحق إنابته ، قريبة إليه أَوْبته .

* * *

وقد زعم بعض نحويّى أهل البصرة أنّ قوله : « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » ، لم يكن ذلك لأن الملائكة ادّعوا شيئا ، إنما أخبر الله عن جهلهم بعلم الغيب ، وعلمه بذلك وفضله ، فقال : « أنبئونى إن كنتم صادقين » — كما يقول الرجل للرجل : « أنبئنى بهذا إن كنت تعلم » . وهو يعلم أنه لا يعلم ، يريد أنه جاهلٌ .

١٧٤/١ وهذا قول إذا تدبره متدبر ، علم أن بعضَه مُفسدٌ بعضاً . وذلك أن قائله زعم أن الله جل ثناؤه قال للملائكة — إذ عرَض عليهم أهل الأسماء — : أنبئونى بأسماء هؤلاء ، وهو يعلم أنهم لا يعلمون ، ولا هم ادّعوا علم شىء يوجب أن يُوبَّخوا بهذا القول .

وزعم أن قوله : « إن كنتم صادقين » نظير قول الرجل للرجل : « أنبئنى بهذا إن كنت تعلم » . وهو يعلم أنه لا يعلم ، يريد أنه جاهل .

ولا شك أن معنى قوله : « إن كنتم صادقين » إنما هو : إن كنتم صادقين ، إمّا فى قولكم ، وإما فى فعلكم . لأن الصّدق فى كلام العرب ، إنما هو صدق فى الخبر لا فى

(١) فى المطبوعة هنا أيضاً : « فلا تسألن » .

العلم . وذلك أنه غير معقول فى لغة من اللغات أن يقال : صدَّق الرجل بمعنى علم . فإذْ كان ذلك كذلك، فقد وجب أن يكون الله جل ثناؤه قال للملائكة — على تأويل قول هذا الذى حكينا قوله فى هذه الآية — : « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » وهو يعلم أنهم غيرُ صادقين، يريد بذلك أنهم كاذبون . وذلك هو عين ما أنكره، لأنه زعم أن الملائكة لم تدَّع شيئاً ، فكيف جاز أن يقال لهم: إن كنتم صادقين ، فأنبئونى بأسماء هؤلاء ؟ هذا مع خروج هذا القول — الذى حكيناه عن صاحبه — من أقوال جميع المتقدمين والمتأخرين من أهل التأويل والتفسير .

وقد حُكى عن بعض أهل التفسير أنه كان يتأول قوله : « إن كنتم صادقين » بمعنى : إذْ كنتم صادقين .

ولو كانت « إن » بمعنى « إذ » فى هذا الموضع ، لوجب أن تكون قراءتها بفتح ألفها ، لأن « إذ » إذا تقدَّمها فعل مُستقبل صارت علة للفعل وسبباً له . وذلك كقول القائل : « أقوم إذ قمت » . فمعناه أقوم من أجل أنك قمت . والأمرُ بمعنى الاستقبال ، فمعنى الكلام — لو كانت « إن » بمعنى « إذ » — : أنبئونى بأسماء هؤلاء من أجل أنكم صادقون . فإذا وُضعت « إن » مكان ذلك قيل: أنبئونى بأسماء هؤلاء أنْ كنتم صادقين، مفتوحةَ الألف . وفى إجماع جميع قرَّاء أهل الإسلام على كسر الألف من « إنْ » ، دليل واضح على خطأ تأويل من تأول « إن » بمعنى « إذ » فى هذا الموضع

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٢)

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله جل ذكره عن ملائكته ، بالأوبة إليه ، وتسليم علم ما لم يعلموه له، وتبرِّيهم من أن يعلموا أو يعلم أحد شيئاً إلا ما علّمه تعالى ذكره .

وفى هذه الآيات الثلاث العبرة لمن اعتبرَ ، والذكرى لمن ادّكر ، والبيان لمن كان له قلبٌ أو ألقىَ السمعَ وهو شهيد ، عمّا أودع الله جل ثناؤه آىَ هذا القرآن من لطائف الحكم التى تعجز عن أوصافها الألسن .

وذلك : أن الله جل ثناؤه احتجّ فيها لنبيه صلى الله عليه وسلم على من كان بين ظهرَانيْه من يَهود بنى إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التى لم يكن جل ثناؤه أطلعَ عليها من خلقه إلا خاصًّا ، ولم يكن مُدرَكاً علمه إلا بالإنباء والإخبار ، لتتقرر عندهم صحة نبوته ، ويعلموا أن ما أتاهم به فمن عنده . ودلّ فيها على أنّ كل مخبر خبراً عما قد كان — أو عما هو كائن مما لم يكنْ ، ولم يأته به خبر ، ولم يُوضَع له على صحّته برهان ، — فمتقوّلٌ ما يستوجبُ به من ربه العقوبة . ألا ترى أنّ الله جل ذكره ردّ على ملائكته قيلَهم : « أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدماءَ ونَحنُ نُسبح بحمدك ونقدسُ لك » قال : « إنى أعلمُ ما لا تعلمونُ » ، وعرفهم أن قِيلَ ذلك لم يكن جائزاً لهم ، بما عرّفهم من قصور علمهم عند عرضه ما عرض عليهم من أهل الأسماء ، فقال : « أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتمْ صادقين » . فلم يكن لهم مَفزَعٌ إلا الإقرارُ بالعجز ، والتبرّى إليه أن يعلموا إلاّ ما علّمهم ، بقولهم : « سبحانك لا عِلْمَ لنا إلا ما علّمتنا » . فكان فى ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة ، على كذب مقالة كلّ من ادعى شيئاً من علوم الغيب من الُحزاة والكهنة والعافةِ والمنجّمة[1]. وذكّر بها الذين ١/١٧٥

(١) الحزاة جمع حاز : وهو كالكاهن ، يحزر الأشياء ويقدرها بظنه . ويقال للذى ينظر فى النجوم ويتكهن حاز وحزاء ، وفى حديث هرقل أنه « كان حزاء » ، وفى الحديث : « كان لفرعون حاز » ، أى كاهن . والكهنة جمع كاهن : وهو الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار . وفى المطبوعة « والقافة » مكان « والعافة » ، وهو خطأ بين ، فالقيافة ليست مما أراد الطبرى فى شىء ، وهى حق ، لا باطل كباطل التحزى والكهانة والتنجيم . والعافة جمع عائف : وهو الذى يعيف الطير فيزجرها ويتفاءل أو يتشاءم بأسمائها وأصواتها وممرها . واسم حرفته : العيافة ، وفى الحديث : « العيافة والطرق من الجبت » . وهو ضرب من الكهانة . والمنجم والمتنجم : الذى ينظر فى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ، ثم يربط بين ذلك وبين أحوال الدنيا والناس ، فيقول بالظن فى غيب أمورهم .

وَصَفنا أمرَهم من أهل الكتاب — سوالفَ نعمه على آبائهم ، وأياديَه عند أسلافهم ، عند إنابتهم إليه ، وإقبالهم إلى طاعته ، مُستعطفَهم بذلك إلى الرشاد ، ومُستعتِبَهم به إلى النجاة . وحذّرهم — بالإصرار والتمادى فى البغى والضلال — حلولَ العقاب بهم ، نظيرَ ما أحلّ بعدوِّه إبليس ، إذ تمادَى فى الغىّ والخَسَار (١) .

* * *

قال : وأما تأويل قوله : « سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا » ، فهو كما : —

٦٧٤ — حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « قالوا سبحانك » تنزيهاً لله من أن يكون أحدٌ يعلم الغيبَ غيرُه ، تُبنا إليك « لا علم لنا إلا ما عَلَّمتنا » ، تبرِّياً منهم من علم الغيب ، « إلا ما علَّمتنا » كما علمت آدم (٢) .

* * *

وسُبحان مصدر لا تصرُّف له (٣) . ومعناه : نسبِّحك ، كأنهم قالوا : نسبحك تسبيحاً ، وننزهك تنزيهاً ، ونبرّئك من أن نعلم شيئاً غير ما علمتنا .

* * *

القول فى تأويل قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك : أنك أنت يَا ربنا العليمُ من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن ، والعالم للغيوب دون جميع خلقك . وذلك أنّهم نَفَوْا عن أنفسهم بقولهم : « لا علم لنا إلاّ ما علمتنا » ، أن يكون لهم علمٌ إلا ما علَّمهم ربهم ، وأثبتوا ما نَفَوْا عن أنفسهم من ذلك لربهم بقولهم : « إنك أنتَ العليم » ،

---

(١) فى المطبوعة : « فى البغى والخسار » ، والصواب ما فى المخطوطة .

(٢) الخبر : ٦٧٤ — مختصر من الخبر رقم : ٦٠٦ . وفى المطبوعة هنا « تبرؤاً منهم » .

(٣) انظر ما مضى : ص ٤٧٤ التعليق رقم : ٣

يعنون بذلك العالم من غير تعليم ، إذ كان مَنْ سواك لا يعلم شيئاً إلا بتعليم غيره إياه . والحكيم : هو ذو الحكمة . كما : —

٦٧٥ — حدثني به المثنى ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثني معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس : « العليم » الذي قد كمل في علمه ، و « الحكيم » الذي قد كمل في حُكمه[1] .

وقد قيل ، إن معنى الحكيم : الحاكم ، كما أنّ العليم بمعنى العالم ، والخبير بمعنى الخابر .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

قال أبو جعفر : إن الله جل ثناؤه عرّف ملائكته — الذين سألوه أن يجعلهم الخلفاء في الأرض ، ووَصفوا أنفسهم بطاعته والخضوع لأمره ، دونَ غيرهم الذين يُفسدون فيها و يسفكون الدماء — أنهم، من الجهل بمواقع تدبيره ومحلّ قَضَائه قَبل إطلاعه إياهم عليه ، على نحو جهلهم بأسماء الذين عرَضهم عليهم ، إذ كان ذلك مما لم يعلّمهم فيعلّموه ، وأنهم وغيرَهم من العباد لايعلمون من العلم إلا ما علّمهم إياه ربهم ، وأنه يخص بما شاء من العلم مَنْ شاء من الخلق ، ويمنعه منهم من شاء ، كما علم آدم أسماء ما عرَض على الملائكة ، ومنعهم عِلْمها إلا بعد تعليمه إيّاهم .

فأمّا تأويل قوله : « قال يا آدم أنبئهم » ، يقول : أخبر الملائكةَ ، والهاء والميم في قوله « أنبئهم » عائدتان على الملائكة . وقوله : « بأسمائهم » يعني بأسماء الذين عرَضهم على الملائكة ، والهاء والميم اللتان في « أسمائهم » كناية عن ذكر

---

(١) الخبر : ٦٧٥ في الدر المنثور ١ : ٤٩ ، والشوكاني ١ : ٥٢ .

« هؤلاء » التى فى قوله : « أنبئونى بأسماء هؤلاء » . « فلما أنبأهم » يقول : فلما أخبر آدمُ الملائكةَ بأسماء الذين عرضهم عليهم فلم يَعرفوا أسماءهم ، وأيقنوا خطأ قيلهم : « أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماءَ ونحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك » ، وأنهم قد هفَوْا فى ذلك وقالوا ما لا يعلمون كيفية وقوع قضاء ربهم فى ذلك لو وقع ، على ما نطقوا به ، — قال لهم ربهم : « ألم أقلْ لكمُ إنى أعلمُ غيبَ السموات والأرض » . والغيب : هو ما غاب عن أبصارهم فلم يعاينوه ؛ توبيخاً من الله جل ثناؤه لهم بذلك ، على ما سلف من قيلهم ، وفرَط منهم من خطأ مَسألتهم . كما — :

٦٧٦ — حدثنا به محمد بن العلاء ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « قال يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم » ، يقول : أخبرهم بأسمائهم — « فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقلْ لكم » أيها الملائكة خاصة « إنى أعلم غيبَ السموات والأرض» ولا يعلمه غيرى[1] . ١٧٦/١

٦٧٧ — وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، فى قصة الملائكة وآدم : فقال الله للملائكة : كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم ، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها ، هذا عندى قد علمتُه ، فكذلك أخفيتُ عنكم أنى أجعل فيها من يعصينى ومن يُطيعنى ، قال : وسَبقَ من الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[سورة هود: ١١٩، وسورة السجدة: ١٣]، قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه . قال : فلما رأوْا ما أعطى الله آدمَ من العلم أقروا لآدم بالفضل[2] .

* * *

(١) الخبر : ٦٧٦ — مختصر من الخبر السالف رقم : ٦٠٦ .

(٢) الأثر : ٦٧٧ — فى ابن كثير ١ : ١٣٥ . فى المخطوطة : « علم بما أردت . . . هذا عندى » .

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٣٣)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فرُوِى عن ابن عباس فى ذلك ما — :

٦٧٨ — حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وأعلم ما تبدون » يقول : ما تظهرون ، « وما كنتم تكتمون » يقول : أعلم السرّ كما أعلم العلانية . يعنى : ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار[1] .

٦٧٩ — وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « وأعلمُ ما تبدون وما كنتم تكتمون »، قال: قولهم: « أتجعل فيها من يُفسد فيها » ، فهذا الذى أبدوْا ، « وما كنتم تكتمون »، يعنى ما أسرّ إبليس فى نفسه من الكبْر [2] .

٦٨٠ — وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال : حدثنا عمرو بن ثابت ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، قوله : « وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون » ، قال : ما أسرّ إبليس فى نفسه[3] .

---

(١) الخبر : ٦٧٨ — فى ابن كثير ١ : ١٣٥ ، والدر المنثور ١ : ٥٠ ، والشوكانى ١ : ٥٢ .

(٢) الخبر : ٦٧٩ — فى ابن كثير ١ : ١٣٥ ، والدر المنثور ١ : ٥٠ والشوكانى ١ : ٥٢ ، وهو مختصر الخبر السالف رقم : ٦٠٦ .

(٣) الأثر : ٦٨٠ — لم أجده فى مكان . وقد مضى فى : ٦٤١ ترجمة «عمرو بن ثابت» وأبيه . وبينا ما فى ذاك من شبهة الخطأ فى قوله «عن جده» . وهذا الإسناد هنا صواب ، لأن « ثابت ابن هرمز » معروف بالرواية عن سعيد بن جبير .

٦٨١ — وحدثنا أحمد بن إسحق، قال : حدثنا أبو أحمد، قال: حدثنا سفيان في قوله: «وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون»، قال: ما أسرّ إبليس في نفسه من الكِبْر ألاّ يسجد لآدم[1] .

٦٨٢ — وحدثني المثنى بن إبراهيم، قال : أخبرنا الحجاج الأنماطي، قال : حدثنا مهدى بن ميمون، قال: سمعت الحسن بن دينار، قال للحسن — ونحن جُلوس عنده في منزله —: يا أبا سَعيد، أرأيتَ قول الله للملائكة: «وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون»، ما الذى كتمت الملائكة؟ فقال الحسن : إن الله لمّا خلق آدم رأت الملائكة خلقاً عجيباً فكأنهم دَخلهم من ذلك شيء، فأقبل بعضهم إلى بعض، وأسرّوا ذلك بينهم، فقالوا : وما يُهمكم من هذا المخلوق ! إن الله لن يخلقَ خلقاً إلا كنا أكرمَ عليه منه[2] .

٦٨٣ — وحدثنا الحسن بن يحيي، قال : أخبرنا عبد الرزّاق، قال : أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله «وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون»، قال : أسرّوا بينهم فقالوا : يخلق الله ما يشاءُ أن يخلُق، فلن يخلُق خلقاً إلا ونحن أكرم عليه منه[3] .

٦٨٤ — وحدثني المثنى، قال : حدثنا إسحق، قال : حدثنا عبد الله بن أبي

---

(١) الأثر : ٦٨١ — لم أجده في مكان .

(٢) الأثر : ٦٨٢ — في الدر المنثور ١ : ٥٠ . و «الحجاج الأنماطي» : هو الحجاج ابن المنهال، وهو ثقة من شيوخ البخاري والدارمي وغيرهما . و «مهدى بن ميمون» : ثقة معروف، روى عن الحسن البصري، وابن سيرين وغيرهما . وهو في هذا الإسناد يصرح بأنه سمع جواب الحسن البصري، حين سأله الحسن بن دينار . وقد نبهت على هذا، خشية أن يظن أنه من رواية مهدى عن الحسن بن دينار . والحسن بن دينار : كذاب لا يوثق به . وله ترجمة حافلة بالمنكرات والموضوعات — في كتاب المجروحين لابن حبان، رقم : ٢٠٨، والميزان، ولسان الميزان، والتهذيب، وترجم له البخاري في الكبير ١/٢/٢٩٠ — ٢٩١، والصغير : ١٨٥، وابن أبي حاتم ١/٢/١١ — ١٢، وابن سعد ٧/٢/٣٧ .

(٣) الأثر : ٦٨٣ — في الدر المنثور ١ : ٥٠، بلفظ آخر، منسوباً للطبري «عن قتادة والحسن» .

جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : «وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون»، فكان الذى أبدَوْا حين قالوا : «أتجعل فيها من يفسد فيها»، وكان الذى كتموا بينهم قولهم : لن يخلق ربّنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم . فعرفوا أن الله فضّل عليهم آدم فى العلم والكرم[1] .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس ، وهو أن معنى قوله : «وأعلم ما تُبدون»، وأعلم — مع علمى غيبَ السموات والأرض — ما تُظهرون بألسنتكم ، «وما كنتم تكتمون» ، وما كنتم تخفونه فى أنفسكم ، فلا يخفى علىّ شىء ، سواءٌ عندى سرائركم وعلانيتكم .

١٧٧/١ والذى أظهروه بألسنتهم ما أخبرَ الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه ، وهو قولهم : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك» ؛ والذى كانوا يكتمونه ، ما كان منطوياً عليه إبليس من الخلاف على الله فى أمره ، والتكبُّر عن طاعته . لأنه لا خلاف بين جميع أهل التأويل أن تأويل ذلك غيرُ خارج من أحد الوجهين اللذين وصفت ، وهو ما قلنا ، والآخرُ ما ذكرنا من قول الحسن وقتادة ، ومن قال إن معنى ذلك كتمانُ الملائكة بينهم لن يخلق الله خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه . فإذ كان لا قول فى تأويل ذلك إلا أحد القولين اللذين وصفت ، ثم كان أحدُهما غيرَ موجودةٍ على صحته الدّلالةُ من الوجه الذى يجب التسليم له — صح الوجهُ الآخر . فالذى حكى عن الحسن وقتادة ومن قال بقولهما فى تأويل ذلك ، غيرُ موجودةٍ الدلالةُ على صحته من الكتاب ، ولا من خبر يجب به حجة . والذى قاله ابن عباس يدلّ على صحته خبرُ الله جل ثناؤه عن إبليس وعصيانه إياه ، إذْ دعاه إلى السجود لآدم فأبى واستكبر ، وإظهارُه لسائر الملائكة من معصيته وكبره ، ما كان له كاتماً قبل ذلك .

فإن ظن ظانٌّ أنّ الخبر عن كتمان الملائكة ما كانوا يكتمونه ، لمّا كان

(١) الأثر : ٦٨٤ — فى ابن كثير ١ : ١٣٥ .

خارجاً مخرج الخبر عن الجميع ، كان غيرَ جائز أن يكون ما رُوى فى تأويل ذلك عن ابن عباس — ومن قال بقوله : من أن ذلك خبر عن كتمان إبليس الكِبْرَ والمعصية — صحيحاً ، فقد ظن غير الصواب . وذلك أنّ من شأن العرب ، إذا أخبرتْ خبراً عن بعض جماعة بغير تسمية شخص بعينه ، أن تخرج الخبر عنه مخرج الخبر عن جميعهم ، وذلك كقولهم : « قُتل الجيش وهُزموا » ، وإنما قتل الواحد أو البعض منهم ، وهزم الواحد أو البعض . فتخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مُخرج الخبر عن جميعهم ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ٤] ، ذُكر أن الذى نادَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم — فنزلت هذه الآية فيه — كان رجلاً من جماعة بنى تميم ، كانوا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخرج الخبر عنه مُخرج الخبر عن الجماعة . فكذلك قوله : « وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » ، أخرج الخبر مُخرج الخبر عن الجميع ، والمراد به الواحد منهم .

• • •

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٤)

قال أبو جعفر : أمّا قوله : « وإذ قلنا » فمعطوف على قوله : « وإذ قال ربّك للملائكة » ، كأنه قال جل ذكره لليهود — الذين كانوا بين ظهرانَىْ مُهاجَرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى إسرائيل ، معدداً عليهم نعَمه ، ومذكّرهم آلاءه ، على نحو الذى وصفنا فيما مضى قبل — : اذكروا فعلى بكم إذْ أنعمتُ عليكم .

فخلقت لكم ما فى الأرض جميعاً ، وإذ قلت للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة فكرمت أباكم آدمَ بما آتيته من عِلمى وفضلى وكرامتى ، وإذْ أسجدت له ملائكتى فسجدوا له . ثم استثنى من جميعهم إبليس ، فدلّ باستثنائه إياه منهم على أنه منهم ، وأنه ممن قد أمِر بالسجود معهم ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۞ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [سورة الأعراف : ١١ ، ١٢] ، فأخبر جل ثناؤه أنه قد أمر إبليس فيمن أمرَه من الملائكة بالسجود لآدمَ . ثم استثناه جل ثناؤه مما أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدم ، فأخرجه من الصفة التى وصفهم بها من الطاعة لأمره ، ونفى عنه ما أثبته لملائكته من السجود لعبده آدم .

* * *

١/١٧٨ ثم اختلف أهل التأويل فيه : هل هو من الملائكة ، أم هو من غيرها ؟ فقال بعضهم بما — :

٦٨٥ — حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كان إبليس من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم « الجن » ، خلقوا من نار السَّموم من بين الملائكة . قال : فكان اسمه الحارث. قال : وكان خازناً من خُزَّان الجنة . قال : وخلقت الملائكة من نورٍ غير هذا الحىّ . قال : وخلقت الجنّ الذى ذكروا فى القرآن من مارج من نار ، وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت[1] .

٦٨٦ — وحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحق ، عن خلاّد ، عن عطاء ، عن طاوس ،عن ابن عباس . قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصيةَ من الملائكة اسمه « عزازيل »، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة

---

(١) الخبر : ٦٨٥ — مضى بتمامه فى الخبر السالف رقم : ٦٠٦ ، وفى ابن كثير ١ : ١٣٦ ، وفيهما معاً « إذا ألهبت » . وأعاده ابن كثير ٥ : ٢٩٦ . وفيه كما هنا « التهبت » . وفيه « الجن » بالجيم ، وانظر ما مضى ص: ٤٥٥ تعليق : ١

اجتهاداً وأكثرهم علماً ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حيّ يسمون جنا[(١)] .

٦٨٧ — وحدثنا به ابن حميد مرة أخرى ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاوس ، أو مجاهد أبي الحجاج ، عن ابن عباس وغيره بنحوه ، إلا أنه قال : كان ملكاً من الملائكة اسمه « عزازيل » ، وكان من سكان الأرض وعُمَّارها ، وكان سكان الأرض فيهم يسمون « الجنّ » من بين الملائكة[(٢)] .

٦٨٨ — وحدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : جعل إبليس على مُلك سماء الدنيا ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم « الجنّ » ، وإنما سُمُّوا الجن لأنهم خُزّان الجنة . وكان إبليس مع مُلكه خازناً[(٣)] .

٦٨٩ — وحدثنا القاسم بن الحسن ، قال : حدثنا حسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطانُ سماء الدنيا ، وكان له سلطانُ الأرض . قال : قال ابن عباس : وقوله : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] إنما يسمى بالجنان أنه كان خازناً عليها ، كما يقال للرجل مكيّ ومدَنيّ وكوفيّ وبَصريّ[(٤)] .

قال ابن جريج ، وقال آخرون : هم سبط من الملائكة قَبيلِه ، فكان اسم قبيلته الجن .

---

(١) الخبر : ٦٨٦ فى ابن كثير ١ : ١٣٩ و ٥ : ٢٩٦ ، والدر المنثور ١ : ٥٠ ، والشوكانى ١ : ٥٣ . وخلاد : هو ابن عبد الرحمن الصنعانى ، وهو ثقة ، ويروى عن طاوس ومجاهد مباشرة ، ولكنه روى عنهما ، هنا وفى الخبر التالى ، بواسطة عطاء .

(٢) الخبر : ٦٨٧ — فى ابن كثير ١ : ١٣٩ عقب الذى قبله .

(٣) الخبر : ٦٨٨ — مختصر من الأثر السالف رقم : ٦٠٧ .

(٤) الخبر : ٦٨٩ — فى ابن كثير ١ : ١٣٩ و ٥ : ٢٩٦ ، والدر المنثور ١ : ١٧٨ .

٦٩٠ — وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن صالح مولى التَّوْأمة ، وشريك بن أبي نَمِر — أحدهما أو كلاهما — عن ابن عباس ، قال : إن من الملائكة قبيلةً من الجن ، وكان إبليس منها ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض(١) .

٦٩١ — وحدِّثت عن الحسن بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ الفضل بن خالد ، قال : أخبرنا عُبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك بن مُزَاحم يقولُ في قوله : ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] ، قال : كان ابن عباس يقول : إن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة . ثم ذكر مثل حديث ابن جريج الأول سواء(٢) .

٦٩٢ — وحدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثني شيبان ، قال حدثنا سلاّم بن مسكين ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : كان إبليس رئيسَ ملائكة سماء الدنيا(٣) .

٦٩٣ — وحدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] ، كان من قبيل من الملائكة يقال لهم « الجن » ،

---

(١) الخبر : ٦٩٠ — في ابن كثير ٥ : ٢٩٦ — ٢٩٧ ، وفيه زيادة هناك . وسيأتي بإسناد آخر مطولا : ٧٠٠ .

(٢) الخبر : ٦٩١ — الحسن بن الفرج : لم أعرف من هو ؟ وأبو معاذ الفضل بن خالد : هو النحوي المروزي ، وهو ثقة ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وترجمه ابن أبي حاتم ٣/٢/٦١ ، وياقوت في الأدباء ٦ : ١٤٠ ، والسيوطي في البغية : ٣٧٣ . وقال ياقوت : « روى عنه الأزهري في كتاب التهذيب ، فأكثر » . وليس يريد بذلك رواية السماع ، بل يريد أنه روى آراءه أو نقله في اللغة . أما رواية السماع فلا . لأن الفضل هذا مات سنة ٢١١ ، والأزهري ولد سنة ٢٨٢ . فهذا كلام موهم ؛ ولم يكن يجدر بالسيوطي — وهو محدث — أن يتبعه دون تأمل !

(٣) الأثر : ٦٩٢ — في ابن كثير ١ : ١٣٩ . شيبان : هو ابن فروخ ، وهو ثقة . سلام بن مسكين الأزدي : ثقة ، أخرج له الشيخان .

وكان ابن عباس يقول : لو لم يكن من الملائكة لم يُؤمر بالسجود ، وكان على خِزانة سماء الدنيا ، قال : وكان قتادة يقول : جَنّ عن طاعة ربه[١] .

٦٩٤ — وحدثنا الحسين بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله : « إلا إبليسَ كان من الجن » قال : كان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن[٢] . ١٧٩/١

٦٩٥ — وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنا محمد بن إسحق ، قال : أما العرب فيقولون : ما الجنّ إلا كل من اجتَنّ فلم يُرَ . وأما قوله : « إلا إبليس من كان من الجن » أى كان من الملائكة ، وذلك أن الملائكة اجتنُّوا فلم يُروْا . وقد قال الله جل ثناؤه : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٥٨] ، وذلك لقول قريش : إن الملائكة بناتُ الله ، فيقول الله : إن تكن الملائكة بناتى فإبليس منها ، وقد جعلوا بينى وبين إبليس وذريته نسباً . قال : وقد قال الأعشى ، أعشى بنى قيس بن ثعلبة البكرى ، وهو يذكر سليمانَ بن داود وما أعطاه الله :

وَلَوْ كانَ شَىْءٌ خَالِدًا أَوْ مُعَمَّرا لَكانَ سُلَيْمانُ البَرِىءُ من الدَّهْرِ[٣]

---

(١) الأثر : ٦٩٣ — لم نجده فى مكان آخر .

(٢) الأثر : ٦٩٤ — لم نجده أيضاً . وقال الحافظ ابن كثير ١ : ٢٩٧ — بعد أن نقل كثيراً من الآثار فى مثل هذه المعانى : « وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف . وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا . وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين ، الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين — كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد . الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبينوا صحيحه ، من حسنه ، من ضعيفه ، من منكره وموضوعه ، ومتروكه ومكذوبه . وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين ، وغيرَ ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوى ، والمقام المحمدى ، خاتم الرسل ، وسيد البشر ، صلى الله عليه وسلم — : أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل » .

(٣) ملحق ديوان الأعشى : ٢٤٣ ، والأضداد لابن الأنبارى : ٢٩٣ . ولم يعن بالدهر

بَرَاهُ إِلٰهِى وَاصْطَفَاهُ عِبَادَهُ وَمَلَّكَهُ مَا بَيْنَ ثُرْيَا إِلَى مِصْرَ[١]

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ المَلَائِكِ تِسْعَةً قِيَاماً لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلَا أَجْرِ

قالَ : فأبت العربُ فى لغتها إلا أنّ « الجن » كل ما اجتنّ . يقول : ما سمّى الله الجن إلا أنهم اجتنُّوا فلم يُرَوا ، وما سمّى بنى آدم الإنس إلا أنهم ظهروا فلم يجتنوا . فما ظهر فهو إنس ، وما اجتنّ فلم يُرَ فهو جن[٢] .

وقال آخرون بما — :

٦٩٦ — حدثنا به محمد بن بشار ، قال : حدثنا ابن أبى عدى ، عن عوف ، عن الحسن ، قال : ما كان إبليسُ من الملائكة طرفةَ عين قطّ ، وإنه لأصل الجنّ ، كما أن آدم أصل الإنس[٣] .

٦٩٧ — وحدثنا بشر بن معاذ، قال : حدثنا يزيد بن زريع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة، قال : كان الحسن يقول فى قوله : « إلاّ إبليس كانَ من الجن » ألجأه إلى نسبه[٤] ، فقال الله : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] ، وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم[٥] .

٦٩٨ — وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا يحيى بن واضح ، قال : حدثنا

ههنا الأمد الممدود ، بل عنى مصائب الدهر ونكباته ، كما قال عدى بن زيد ، وجعل مصائب الدهر هى الدهر نفسه :

أَيُّها الشامِتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْرِ أَأَنْتَ المبرَّأُ المَوْفُورُ

(١) ثريا : هكذا ضبط فى ملحق ديوان الأعشى ، ولم أعرف الموضع ولم أجده . ولم أهتد إلى تحريفه إن كان محرفاً . وفى الأضداد : « توفى » .

(٢) الأثر : ٦٩٥ — رواه مختصراً صاحب الأضداد : ٢٩٣ ، ولم أجده فى مكان آخر .

(٣) الأثر : ٦٩٦— فى ابن كثير ١ : ١٣٩ و ٥ : ٢٩٦ . وقال : « وهذا إسناد صحيح عن الحسن » .

(٤) فى المطبوعة : « إلجاء إلى نسبه » ، وألجأه إلى نسبه : رده إليه . وانظر رقم : ٦٥٥

(٥) الأثر : ٦٩٧ — لم أجده فى مكان .

أبو سعيد اليحمَدىّ ، حدثنا إسمعيل بن إبراهيم ، قال : حدثنا سَوار بن الجعد اليحمَدى ، عن شَهر بن حَوْشب ، قوله : «من الجن» ، قال : كان إبليس من الجنّ الذين طرَدتهم الملائكة ، فأسرَه بعض الملائكة فذهب به إلى السماء[١] .

٦٩٩ — وحدثني على بن الحسين ، قال : حدثني أبو نصر أحمد بن محمد الخلاّل ، قال : حدثني سنيد بن داود ، قال حدثنا هشيم ، قال أخبرنا عبدالرحمن بن يحيى ، عن موسى بن نُمير ، وعثمان بن سعيد بن كامل ، عن سعد بن مسعود ، قال : كانت الملائكة تقاتل الجنّ ، فسُبِىَ إبليس وكان صغيراً ، فكان مع الملائكة فتعبَّد معها ، فلما أمِروا بالسجود لآدم سجدوا . فأبى إبليس . فلذلك قال الله : «إلا إبليس كان من الجن»[٢] .

٧٠٠ — وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، قال : حدثنا المبارك بن مجاهد أبو الأزهر ، عن شريك بن عبد الله بن أبى نَمِر ، عن صالح مولى التوأمة ، عن ابن عباس ، قال : إن منَ الملائكة قبيلاً يقال لهم : الجن ، فكان إبليس منهم ، وكان إبليس يسوس ما بين السماء والأرض ، فعصَى ، فمسخه الله شيطاناً رجيما[٣] .

٧٠١ — قال : وحدثنا يونس ، عن ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : إبليس أبو الجن ، كما آدم أبو الإنس[٤] .

* * *

وعلة من قال هذه المقالة ، أن الله جل ثناؤه أخبرَ فى كتابه أنه خلق إبليس من نار السَّموم ، ومن مارج من نار ، ولم يخبر عن الملائكة أنه خَلقها من شيء ١/١٨٠ من ذلك ، وأن الله جل ثناؤه أخبر أنه من الجنّ — فقالوا : فغيرُ جائز أن يُنسب إلى غير ما نسبه الله إليه . قالوا : ولإبليس نسلٌ وذرية ، والملائكة لا تتناسل ولا تتوالد .

---

(١) الأثر : ٦٩٨ — فى ابن كثير ١ : ١٣٩ .
(٢) الأثر : ٦٩٩ — فى ابن كثير ١ : ١٣٩ .
(٣) الخبر : ٧٠٠ — هو فى ابن كثير ١ : ١٣٩ . وقد مضى نحوه مختصراً ، بإسناد آخر : ٦٩٠ .
(٤) الأثر : ٧٠١ — لم أجده فى مكان .

٧٠٢ — حدثنا محمد بن سنان القزّاز ، قال: حدثنا أبوعاصم، عن شَريك، عن رجل ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : إن الله خلق خلقاً ، فقال : اسجدوا لآدم: فقالوا: لا نفعل . فبعث الله عليهم ناراً تُحرقهم، ثم خلق خلقاً آخر، فقال : إنى خالقٌ بشراً من طين ، اسجدوا لآدم . فأبوا ، فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم . قال : ثم خلق هؤلاء ، فقال : اسجدوا لآدم . فقالوا : نعم . وكان إبليسُ من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم[1] .

• • •

قال أبو جعفر : وهذه علل تنبئ عن ضعف معرفة أهلها . وذلك أنه غيرُ مستنكر أن يكون الله جل ثناؤه خَلق أصنافَ ملائكته من أصنافٍ من خلقه شَتّى . فخلق بعضاً من نُور ، وبعضاً من نار ، وبعضاً مما شاء من غير ذلك . وليس فى ترك الله جل ثناؤه الخبرَ عما خَلق منه ملائكته[2] ، وإخبارِه عما خلق منه إبليس — ما يوجب أن يكون إبليس خارجاً عن معناهم . إذْ كان جائزاً أن يكون خلق صِنفاً من ملائكته من نار كان منهم إبليس ، وأن يكون أفرد إبليس بأنْ خَلقه من نار السموم دون سائر ملائكته . وكذلك غيرُ مخرجه أن يكون كان من الملائكة بأنْ كان له نسل وذرية ، لِمَا ركّب فيه من الشهوة واللذة التى نُزعت من سائر الملائكة ، لِمَا أراد الله به من المعصية . وأما خبرُ الله عنه أنه « من الجن » ، فغير مدفوع أن يسمى ما اجتنّ من الأشياء عن الأبصار كلها جنًّا — كما قد ذكرنا قبل فى شعر الأعشى — فيكون إبليسُ والملائكةُ منهم ، لاجتنانهم عن أبصار بنى آدم .

• • •

---

(١) الأثر : ٧٠٢ — فى ابن كثير ١ : ١٣٩ ، والدر المنثور ١ : ٥٠ وقال ابن كثير فى إسناده: « وهذا غريب ، ولا يكاد يصح إسناده، فإن فيه رجلا مبهماً ، ومثله لا يحتج به، والله أعلم » .

(٢) فى المطبوعة: « وليس فيما نزل الله جل ثناؤه . . . » ، وهو خطأ صرف . وقوله بعد: « وإخباره عما خلق منه إبليس » معطوف على قوله : « وفى ترك . . . » .

القول فى معنى ﴿ إبليس ﴾

قال أبو جعفر : وإبليس « إفعِيل » ، من الإبلاس ، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن . كما — :

٧٠٣ — حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : إبليس ، أبلسه الله من الخير كله ، وجعله شيطاناً رَجيماً عقوبة لمعصيته[1] .

٧٠٤ — وحدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى ، قال : كان اسم إبليس « الحارث » ، وإنما سمى إبليس حين أبلس مُتحيِّراً[2] .

قال أبو جعفر : وكما قال الله جل ثناؤه : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٤] ، يعنى به : أنهم آيسون من الخير ، نادمون حزناً ، كما قال العجَّاج :

يَا صَاحِ ، هلْ تَعرِفُ رَسْماً مُكْرَسَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أعْرِفُهُ ! وأَبْلَسَا[3]

---

(١) الخبر : ٧٠٣ — مختصر من الخبر السالف رقم : ٦٠٦ ، وهو فى الدر المنثور ١ : ٥٠ ، والشوكانى ١ : ٥٣ .

(٢) الأثر : ٧٠٤ — فى الدر المنثور ١ : ٥٠ ، مقتصراً على أوله إلى قوله : « الحارث » . وجاء النص فى المطبوعة هكذا : « وإنما سمى إبليس حين أبلس فغير كما قال الله جل ثناؤه . . . » أسقطوا ما أثبتناه من المخطوطة ، لأنهم لم يحسنوا قراءة الكلمة الأخيرة ، فبدلوها ووصلوا الكلام بعد الحذف ، وهو تصرف معيب . وقوله : « متحيراً » كتبت فى المخطوطة مجمجمة هكذا « مجرا » غير معجمة . والإبلاس : الحيرة ، فكذلك قرأتها .

(٣) ديوانه ١ : ٣١ ، والكامل ١ : ٣٥٢ ، واللسان : (بلس) ، (كرس) . المكرس : الذى صار فيه الكرس ، وهو أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض فى الدار . وأبلس الرجل : سكت غماً وانكسر وتحير ولم ينطق .

وقال رؤبة :

وحَضَرَتْ يَوْمَ الخَمِيسِ الأَخمَاسْ وَفِي الوُجُوهِ صُفْرَةٌ وإبْلَاسْ[1]

يعني به اكتئاباً وكسوفاً .

* * *

فإن قال قائل: فإن كان إبليس ، كما قلت ، « إفعيل » من الإبلاس، فهلاّ صُرف وأُجرى ؟ قيل : تُرك إجراؤه استثقالا ، إذ كان اسماً لا نظيرَ له من أسماء العرب ، فشبَّهته العرب — إذْ كان كذلك — بأسماء العجم التي لا تُجرَى . وقد قالوا : مررت بإسحق ، فلم يُجروه . وهو من « أسحقه الله إسحاقاً » ، إذْ كان وَقع مبتدَأً اسماً لغير العرب ، ثم تسمت به العرب فجرى مَجراه — وهو من أسماء العجم — في الإعراب فلم يصرف . وكذلك « أيوب » ، إنما هو « فيْعول » من « آب يؤوبُ » .

وتأويل قوله : « أبَى » ، يعني جل ثناؤه بذلك إبليس ، أنه امتنع من السجود لآدم فلم يسجد له . « واستكبر » ، يعني بذلك أنه تعظَّم وتكبَّر عن طاعة الله في السجود لآدم . وهذا ، وإن كان من الله جل ثناؤه خبراً عن إبليس ، فإنه ١٨١/١ تقريعٌ لضُرَبائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله ، والانقيادِ لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه ، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق . وكان ممن تكبر عن الخضوع لأمر الله ، والتذلل لطاعته ، والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم — اليهودُ الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهاجَرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبارُهم الذين كانوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وصِفته عارفين ، وبأنه لله رسولٌ عالمين . ثم استكبروا — مع علمهم بذلك — عن الإقرار بنبوّته ، والإذعان لطاعته ، بَغْياً منهم له وحسداً . فقرّعهم الله بخبره عن إبليس

---

(١) ديوانه : ٦٧ ، واللسان (بلس)، ورواية ديوانه « وعرفت يوم الخميس » . وبين البيتين بيت آخر هو :

« وَقَدْ نَزَتْ بينَ التَّرَاقِي الأَنفَاسْ »

الذى فعل فى استكباره عن السجود لآدم حسداً له وبغياً ، نظيرَ فعلهم فى التكبر عن الإذعان لمحمد نبي الله صلى الله عليه وسلم ونبوّته ، إذ جاءهم بالحق من عند ربهم حسداً وبغياً .

ثم وَصَف إبليس بمثل الذى وصف به الذين ضرَبه لهم مثلا فى الاستكبار والحسد والاستنكاف عن الخضوع لمن أمرَه الله بالخضوع له ، فقال جل ثناؤه : « وكان » — يعنى إبليس — « منَ الكافرين » — من الجاحدين نعمَ الله عليه وأياديَه عنده ، بخلافه عليه فيما أمرَه به من السجود لآدم ، كما كفرت اليهود نعمَ ربِّها التى آتاها وآباءَها قبلُ : من إطعام الله أسلافَهم المنّ والسلوى ، وإظلال الغمام عليهم ، وما لا يحصى من نعمه التى كانت لهم ، خصوصاً ما خصّ الذين أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم بإدراكهم إياه ، ومشاهدتِهم حجةَ الله عليهم ، فجحدت نبوّته بعد علمهم به ، ومعرفتهم بنبوّته حسداً وبغياً . فنسبه الله جل ثناؤه إلى « الكافرين » ، فجعله من عِدَادهم فى الدين والملة ، وإن خالفهم فى الجنس والنسبة . كما جعل أهل النفاق بعضَهم من بعض ، لاجتماعهم على النفاق ، وإن اختلفت أنسابهم وأجناسهم فقال : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ [سورة التوبة : ٦٧] يعنى بذلك أن بعضهم من بعض فى النفاق والضلال . فكذلك قوله فى إبليس : كان من الكافرين ، كان منهم فى الكُفر بالله ومخالفته أمرَه ، وإن كان مخالفاً جنسُه أجناسَهم ونسبُه نسبهم . ومعنى قوله : « وكان من الكافرين » أنه كان — حين أبَى عن السجود — من الكافرين حينئذ .

وقد رُوى عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية أنه كان يقول : فى تأويل قوله : « وكان منَ الكافرين » ، فى هذا الموضع ، وكان من العاصين .

٧٠٥ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم العسقلانى ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، فى قوله : « وكان من الكافرين » ، يعنى العاصين [1] .

---

(١) الأثر ٧٠٥ — فى ابن كثير ١ : ١٤٠ .

٧٠٦ - وحُدِّثت عن عمار بن الحسن، قال حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، بمثله.

وذلك شبيه بمعنى قولنا فيه.

وكان سجود الملائكة لآدم تكرمةً لآدم وطاعة لله، لا عبادةً لآدم، كما :-

٧٠٧ - حدثنا به بشر بن معاذ : قال : حدثنا يزيد بن زريع، قال : حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: «وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم»، فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجَد له ملائكته[1].

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ﴾

قال أبو جعفر : وفي هذه الآية دلالة واضحة على صحة قول من قال : إن إبليس أخرج من الجنة بعد الاستكبار عن السجود لآدم، وأسكنها آدمُ قبل أن يهبط إبليس إلى الأرض. ألا تسمعون الله جل ثناؤه يقول : «وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنت وزوجك الجنة وكُلاَ منها رَغداً حيثُ شئتما ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا مِنَ الظالمين ٭ فأزلهما الشيطانُ عنها فأخرجهما مما كانا فيه». فقد تبين أن ١٨٢/١ إبليس إنما أزلهما عن طاعة الله بعد أن لُعِن وأظهرَ التكبر، لأن سجود الملائكة لآدم كان بعد أن نُفخ فيه الروح، وحينئذ كان امتناع إبليس من السجود له، وعند الامتناع من ذلك حلَّت عليه اللعنة. كما :-

٧٠٨ - حدثني به موسى بن هرون، قال : حدثنا عمرو بن حماد، قال : حدثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن

(١) الأثر : ٧٠٧ - في ابن كثير ١ : ١٤٠، وفي الدر المنثور ١ : ٥٠ مطولا.

ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن عدوّ الله إبليس أقسم بعزة الله ليُغويَنّ آدم وذريته وزوجَه إلا عباده المخلصين منهم ، بعد أن لعنه الله ، وبعد أن أخرِج من الجنة ، وقبل أن يهبط إلى الأرض . وعلّم الله آدم الأسماء كلها[1] .

٧٠٩ — وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : لما فرغ الله من إبليس ومعاتبته ، وأبَى إلاّ المعصية وأوقع عليه اللعنة ، ثم أخرجه من الجنة ، أقبل على آدمَ وقد علّمه الأسماء كلها ، فقال : « يا آدم أنبئهم بأسمائهم » إلى قوله « إنك أنت العليم الحكيم »[2] .

ثم اختلف أهل التأويل فى الحال التى خُلقت لآدم زوجته ، والوقت الذى جُعلت له سكناً . فقال ابن عباس بما : —

٧١٠ — حدثنى به موسى بنْ هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : فأخرِج إبليسُ من الجنة حين لعن ، وأسكِن آدم الجنة . فكان يمشي فيها وَحْشاً ليس له زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدةٌ خلقها الله من ضلعه ، فسألها : من أنت ؟ فقالت : امرأة . قال : ولم خلقت ؟ قالت : تسكن إليّ . قالت له الملائكة — ينظرون ما بلغ علمه — : ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء . قالوا : ولم سُميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حيّ . فقال الله له : « يا آدمُ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رَغداً حيث شئتما »[3] .

---

(١) الخبر : ٧٠٨ — لم أجده فى مكان .

(٢) الأثر : ٧٠٩ — لم أجده فى مكان بنصه هذا ، لكنه من صدر الأثر الآتى بعد رقم : ٧١١

(٣) الأثر : ٧١٠ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٢ ، مع اختلاف فى بعض اللفظ . وابن كثير ١ : ١٤٢ والشوكانى ١ : ٥٦ ، وقوله : « وحشاً » أى ليس معه غيره ، خلواً . ومكان وحش : خال .

فهذا، الخبر يُنبيء أن حواء خُلقت بعد أن سَكن آدمُ الجنةَ ، فجعلت له سكناً .

* * *

وقال آخرون : بل خُلقت قبل أن يسكن آدم الجنة . ذكر من قال ذلك :

٧١١ — حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، قال : لما فرغ الله من مُعاتبة إبليس، أقبل على آدم وقد علّمه الأسماء كلها فقال : « يا آدم أنبئهم بأسمائهم » إلى قوله : « إنك أنت العليم الحكيم » . قال: ثم ألقى السِّنةَ على آدم — فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة ، وغيرهم من أهل العلم، عن عبد الله بن عباس وغيره — ثم أخذ ضِلَعاً من أضلاعه من شِقّه الأيسر ، ولأم مكانه لحماً ، وآدم نائم لم يهبَّ من نومته، حتى خلق الله من ضِلَعه تلك زوجته حوّاء، فسوّاها امرأةً ليسكن إليها . فلما كُشِف عنه السِّنة وهبَّ من نومته ، رآها إلى جنبه ، فقال — فيما يزعمون والله أعلم — : لحمى ودمِى وزوجتى ، فسكن إليها . فلما زوّجه الله تبارك وتعالى، وَجعل له سكناً من نفسه، قال له قَبيلاً : « يا آدم اسكنْ أنتَ وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين » (١) .

قال أبو جعفر : ويقال لامرأة الرجل : زَوْجُه وزَوْجتُه ، والزوجة بالهاء أكثر فى كلام العرب منها بغير الهاء . والزوج بغير الهاء يقال إنه لغة لأزْد شَنوءة . فأما الزوج الذى لا اختلاف فيه بين العرب ، فهو زوجُ المرأة (٢) .

* * *

(١) الأثر : ٧١١ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٢ وابن كثير ١ : ١٤١ — ١٤٢ . وقوله « قال له قبيلا » أى عياناً . وفى حديث أبى ذر (ابن كثير ١ : ١٤١) « قال : قلت يا رسول الله ؛ أرأيت آدم ؛ أنبياً كان ؟ قال : نعم نبياً رسولا يكلمه الله قبيلا — أى عياناً » . وجاء هذا الحرف فى المطبوعة : « قال له فتلا يا آدم اسكن... » وهو خطأ . وفى تاريخ الطبرى « قال له قيلا يا آدم . . . » وهو أيضاً خطأ .

(٢) انظر اختلافهم فى ذلك فى مادته (زوج) من لسان العرب .

القول فى تأويل قوله ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾

قال أبو جعفر : أما الرَّغَد ، فإنه الواسع من العيش، الهنىء الذى لا يُعنِّى صاحبه . يقال : أرْغد فلان ، إذا أصاب واسعاً من العيش الهنىء ، كما قال امرؤ القيس بن حُجْر :

بَيْنَمَا المَرْء تَراه نَاعِمـاً يَأْمَنُ الأَحْدَاثَ فى عيشٍ رَغَدْ[1] ١٨٣/١

٧١٢ — وكما حدثنى به موسى بن هرون قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، « وكلا منها رَغداً » ، قال : الرغد ، الهنىء[2] .

٧١٣ — وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، فى قوله : « رغداً » ، قال : لاحسابَ عليهم .

٧١٤ — وحدثنا المثنى ، قال حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، مثله .

٧١٥ — وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد ابن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبى بَزَّة ، عن مجاهد : « وكلا منها رغداً » ، أى لا حسابَ عليهم[3] .

٧١٦ — وحُدِّثت عن المنجاب بن الحارث ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ،

---

(١) لم أجد البيت فيما جمعوا من شعر امرىء القيس.

(٢) الخبر : ٧١٢ — فى الدر المنثور ١ : ٥٢ ، والشوكانى ١ : ٥٦ .

(٣) الآثار : ٧١٣ — ٧١٥ فى الدر المنثور ١ : ٥٢ ، والشوكانى ١ : ٥٦

عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وكلا منهما رغداً حيث شئتما » ، قال : الرغد ، سعة المعيشة .[١]

فمعنى الآية وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا من الجنة رزقاً واسعاً هنيئاً من العيش حيث شئتما .

٧١٧ — كما حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد بن زُرَيع ، قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : « يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رَغداً حيث شئتما » ، ثم إن البلاء الذى كتب على الخلق ، كتب على آدمَ ، كما ابتُلى الخلقُ قبله ، أن الله جل ثناؤه أحل له ما فى الجنة أن يأكل منها رَغداً حيث شاء ، غيرَ شجرة واحدة نُهى عنها ، وقُدِّم إليه فيها ، فما زال به البلاء حتى وقع بالذى نُهى عنه[٢] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾

قال أبو جعفر : والشجر فى كلام العرب : كلّ ما قام على ساق ، ومنه قول الله جل ثناؤه ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [سورة الرحمن : ٦] ، يعنى بالنجم ما نَجمَ من الأرض من نَبت ، وبالشجر ما استقلّ على ساق .

* * *

ثم اختلف أهل التأويل فى عين الشجرة التى نُهى عن أكل ثمرها آدم ، فقال بعضهم : هى السُّنبلة . ذكر من قال ذلك :

٧١٨ — حدثنى محمد بن إسمعيل الأحمسى ، قال : حدثنا عبد الحميد الحِمّانى ،

---

(١) الخبر : ٧١٦ — فى الدر المنثور ١ : ٥٢ والشوكانى ١ : ٥٦

(٢) الأثر : ٧١٧ — فى الدر المنثور ١ : ٥٣ من غير طريق الطبرى . وقوله : « قدم إليه فيها » أى أمر فيها بأمر أن لا يقربها . ويقال : تقدمت إليه بكذا وقدمت إليه بكذا : أى أمرته بكذا .

عن النضر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : الشجرة التى نُهى عن أكل ثمرها آدم ، هى السنبلة[١] .

٧١٩ — وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم — وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمْران بن عُتيبة — جميعاً عن حُصين ، عن أبى مالك ، فى قوله : « ولا تقرَبا هذه الشجرة »، قال : هى السنبلة

٧٢٠ — وحدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا ابن مهدى — وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيرى — قالا جميعاً : حدثنا سفيان ، عن حُصين ، عن أبى مالك ، مثله[٢] .

٧٢١ — وحدثنا أبو كريب، وابن وكيع ، قالا : حدثنا ابن إدريس ، قال : سمعت أبى ، عن عطية فى قوله : « ولا تقربا هذه الشجرة »، قال : السنبلة[٣] .

٧٢٢ — وحدثنا بشر بن معاذ، قال : حدثنا يزيد، عن سعيد ، عن قتادة ، قال: الشجرة التى نُهى عنها آدم ، هى السنبلة[٤] .

٧٢٣ — وحدثنى المثنى بن إبراهيم، قال : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، قال: حدثنا القاسم ، قال : حدثنى رجل من بنى تميم ، أن ابن عباس كتب إلى أبى الجَلْد يسأله عن الشجرة التى أكل منها آدمُ ، والشجرة التى تاب عندها : فكتب إليه أبو الجلد : « سألتنى عن الشجرة التى نُهى عنها آدم ، وهى السنبلة ، وسألتنى

---

(١) الخبر : ٧١٨ — فى ابن كثير ١ : ١٤٢ ، والدر المنثور ١ : ٥٣ ، والشوكانى ١ : ٥٦ وهو إسناد ضعيف . محمد بن إسمعيل الأحمسى سبق توثيقه : ٤٠٥ عبد الحميد بن عبد الرحمن، أبو يحيى الحمانى : ثقة ، وثقه ابن معين وغيره ، وأخرج له الشيخان. النضر : هو ابن عبد الرحمن ، أبو عمر الخزاز — بمعجمات — وهو ضعيف جداً ، قال البخارى فى الكبير ٤/٢/٩١ : « منكر الحديث » . وروى ابن أبى حاتم ٤/١/٤٧٥ عن أحمد بن حنبل ، قال : « ليس بشىء ، ضعيف الحديث » ، وروى عن ابن معين أنه قال : « لا يحل لأحد أن يروى عنه ».

(٢) الأثران : ٧١٩ ، ٧٢٠ — فى ابن كثير ١ : ١٤٢ ، والدر المنثور ١ : ٥٣

(٣) الأثر : ٧٢١ — عطية : هو العوفى . وقد أشار ابن كثير ١ : ١٤٢ إلى هذه الرواية عنه .

(٤) الأثر : ٧٢٢ — لم أجده فى مكان .

عن الشجرة التى تاب عندها آدم ، وهى الزيتونة[١]» .

١٨٤/١

٧٢٤ ــ وحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن رجل من أهل العلم، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، أنه كان يقول : الشجرة التى نُهى عنها آدمَ ، البُرُّ[٢] .

٧٢٥ ــ وحدثنى المثنى ،قال: حدثنا إسحق ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة ، وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزَوجته ، السُّنبلة[٣] .

٧٢٦ ــ وحدثنا ابن حميد، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق، عن بعض أهل اليمن ، عن وهب بن منبه اليمانى ، أنه كان يقول : هى البُرُّ ، ولكن الحبة منها فى الجنة ككُلَى البقر ، ألين من الزبد وأحلى من العسل . وأهل التوراة يقولون : هى البرّ[٤] .

٧٢٧ ــ وحدثنا ابن حميد، قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثنى محمد بن إسحق ، عن يعقوب بن عتبة : أنه حُدِّث أنها الشجرةُ التى تحتكُّ بها الملائكة للخُلد .

٧٢٨ ــ وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا ابن يَمانَ ، عن جابر بن يزيد ابن رفاعة ، عن محارب بن دِثار ، قال : هى السنبلة .

٧٢٩ ــ وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا أبو أسامة ، عن يزيد بن إبراهيم،

---

(١) الخبر : ٧٢٣ ــ فى ابن كثير ١ : ١٤٢ ، وفى الأصول : «أبو الخلد» ، وانظر ما سلف فى التعليق على الأثر رقم : ٤٣٤ . وهذا الإسناد ضعيف ، لجهالة الرجل من بنى تميم .

(٢) الخبر : ٧٢٤ ــ ابن كثير ١ : ١٤٢ ، والدر المنثور ١ : ٥٢ ، والشوكانى ١ : ٥٦ . والذى فى ابن كثير : «عن رجل من أهل العلم ، عن حجاج ، عن مجاهد . . . » .

(٣) الأثر : ٧٢٥ ــ فى ابن كثير ١ : ١٤٢ .

(٤) الأثر : ٧٢٦ ــ فى ابن كثير ١ : ١٤٢ ــ ١٤٣ ، والدر المنثور ١ : ٥٢ ــ ٥٣ . ولكن ليس فيهما قوله «وأهل التوراة . . . » .

عن الحسن ، قال : هي السنبلة التي جعلها الله رزقاً لولده في الدنيا[1] .

* * *

قال أبو جعفر : وقال آخرون : هي الكرمة . ذكر من قال ذلك .

٧٣٠ — حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عبد الله ، عن إسرائيل ، عن السدى ، عمن حدثه ، عن ابن عباس ، قال : هي الكرمة .

٧٣١ — حدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى في خبر ذكره ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « ولا تقربا هذه الشجرة » ، قال : هي الكرمة ، وتزعم اليهود أنها الحنطة .

٧٣٢ — وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى ، قال : الشجرة هي الكَرْم .

٧٣٣ — وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هشيم ، عن مغيرة ، عن الشعبي ، عن جعدة بن هُبيرة ، قال : هو العِنَب في قوله : « ولا تقربا هذه الشجرة » .

٧٣٤ — وحدثنا ابن وكيع ، قال : حدثني أبي ، عن خلاّد الصفار ، عن بيّان ، عن الشعبي ، عن جعدة بن هُبيرة : « ولا تقربا هذه الشجرة » ، قال : الكرمُ .

٧٣٥ — وحدثنا ابن المثنى ، قال : حدثني الحسين ، قال : حدثنا خالد الواسطي ، عن بيان ، عن الشعبي ، عن جعدة بن هبيرة : « ولا تقربا هذه الشجرة » ، قال : الكرم .

٧٣٦ — وحدثنا ابن حميد ، وابن وكيع ، قالا : حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن الشعبي ، عن جعدة بن هُبيرة ، قال : الشجرة التي نُهي عنها آدم ، شجرة الخمر .

٧٣٧ — وحدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد الزبيري ، قال : حدثنا

---

(١) الآثار : ٧٢٧ — ٧٢٩ : لم أجدها بلفظها في مكان .

عباد بن العوام ، قال : حدثنا سفيان بن حسين ، عن يعلى بن مُسلم ، عن سعيد بن جبير ، قوله « ولا تقربا هذه الشجرة » ، قال : الكرم .

٧٣٨ — وحدثنا أحمد بن إسحق ، قال : حدثنا أبو أحمد ، قال : حدثنا سفيان ، عن السدى ، قال : العنب .

٧٣٩ — وحدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن قيس ، قال : عِنَب[١] .

* * *

وقال آخرون : هى التِّينة . ذكر من قال ذلك .

٧٤٠ — حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : تينة[٢] .

* * *

قال أبو جعفر : والقول فى ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر عباده أن آدم وزوجَه أكلا من الشجرة التى نهاهما ربُّهما عن الأكل منها، فأتيا الخطيئة التى نهاهما عن إتيانها بأكلهما ما أكلا منها ، بعد أن بيّن الله جل ثناؤه لهما عَين ١/١٨٥ الشجرة التى نهاهما عن الأكل منها ، وأشارلهما إليها بقوله : « ولا تقربا هذه الشجرة » ، ولم يضع الله جل ثناؤه لعباده المخاطَبين بالقرآن، دلالةً على أىّ أشجار الجنة كان نَهيُه آدمَ أن يقربها، بنصٍّ عليها باسمها، ولا بدلالة عليها . ولو كان لله فى العلم بأىّ ذلك من أىٍّ رضاً ، لم يُخل عبادَه من نَصْب دلالة لهم عليها يَصلون بها إلى معرفة عينها ، ليطيعوه بعلمهم بها ، كما فعل ذلك فى كل ما بالعلم به له رضاً .

فالصواب فى ذلك أن يقال : إن الله جل ثناؤه نَهى آدمَ وزوجته عن أكل

---

(١) الآثار : ٧٣٠ — ٧٣٩ : مذكورة بلا تعيين فى ابن كثير ١ : ١٤٢ ، والدر المنثور ١ : ٥٣ والشوكانى ١ : ٥٦ .

(٢) الخبر : ٧٤٠ — فى ابن كثير ١ : ١٤٣ ، والدر المنثور ١ : ٥٣ ، والشوكانى ١ : ٥٦ .

شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه ، فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه به . ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يَضَع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ، ولا فى السنة الصحيحة. فأنَّى يأتى ذلك ؟[1] وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل : كانت شجرة العنب ، وقيل : كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها ، وذلك عِلمٌ ، إذا عُلم لم ينفع العالمَ به علمه[2] ، وإن جهله جاهل لم يضرَّه جهلُه به .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل العربية فى تأويل قوله : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

فقال بعض نحويّى الكوفيين : تأويل ذلك : ولا تقرَبا هذه الشجرة ، فإنكما إن قربتماها كنتما من الظالمين . فصار الثانى فى موضع جواب الجزاء . وجوابُ الجزاء يعمل فيه أوّله ، كقولك : إن تَقُم أقُم ، فتجزم الثانى بجزم الأول . فكذلك قوله « فتكونا » ، لما وقعت الفاء فى موضع شرط الأوّل نُصب بها ، وصُيِّرت

(١) فى المخطوطة خلاف ما فى المطبوعة ، وهذا نصه « ولا علم عندنا بأى ذلك . وقد قيل كانت شجرة البر . . . » ، كأن الناسخ أسقط سطراً فاختل الكلام . وكان فى المطبوعة : « فأنى يأتى ذلك من أتى » بزيادة قوله « من أتى » والظاهر أن التحريف قديم ، فإن ابن كثير نقل نص الطبرى هذا فى تفسيره ١ : ١٤٣ فحذف قوله : « فأنى يأتى ذلك » . وقد استظهرت أن الصواب حذف « من أتى » ، ليكون الاستفهام منصباً على كيفية إتيان العلم بهذه الشجرة ، وليس فى القرآن عليها دليل ولا فى السنة الصحيحة. وأما الجملة كما جاءت فى المطبوعة ، فهى فاسدة مفسدة لما أراد الطبرى .

(٢) فى المطبوعة : « وذلك إن علمه عالم لم ينفع العالم . . . » ، وأثبت ما فى المخطوطة وابن كثير (١ : ١٤٣) .

بمنزله «كى» فى نصبها الأفعال المستقبلة، للزومها الاستقبال. إذ كان أصل الجزاء الاستقبال.

وقال بعض نحويّى أهل البصرة: تأويل ذلك، لا يكن منكما قُرْبُ هذه الشجرة فأن تكونا من الظالمين. غير أنه زعم أنّ «أن» غير جائز إظهارها مع «لا»، ولكنها مضمرة لابد منها، ليصح الكلام بعطف اسم — وهى «أن» — على الاسم. كما غير جائز فى قولهم: «عسى أن يفعل»، عسى الفعل. ولا فى قولك: «ما كان ليفعل»: ما كان لأن يَفعل.

وهذا القولُ الثانى يُفسده إجماعُ جميعهم على تخطئة قول القائل: «سرنى تقوم يا هذا»، وهو يريد سرنى قيامُك. فكذلك الواجب أن يكون خطأ على هذا المذهب قول القائل: «لا تقم» إذا كان المعنى: لا يكن منك قيام. وفى إجماع جميعهم — على صحة قول القائل: «لا تقم»، وفساد قول القائل: «سرنى تقوم» بمعنى سرنى قيامك — الدليل الواضح على فسادِ دعوى المدعى أنّ مع «لا» التى فى قوله: «ولا تقربا هذه الشجرة»، ضمير «أن» — وصحةِ القول الآخر.

وفى قوله «فتكونا من الظالمين»، وجهان من التأويل:

أحدهما أن يكون «فتكونا» فى نية العطف على قوله «ولا تقربا»، فيكون تأويله حينئذ: ولا تقربا هذه الشجرة ولا تكونا من الظالمين. فيكون «فتكونا» حينئذ فى معنى الجزم مجزوماً بما جُزم به «ولا تقربا»، كما يقول القائل: لا تُكلم عمراً ولا تؤذه، كما قال امرؤ القيس.

فَقُلْتُ لَهُ: صوِّبْ ولا تَجْهَدَنَّهُ فَيُذْرِكَ مِنْ أُخْرَى القَطَاةِ فَتَزْلَقِ[1]

فجزم «فيذرِك» بما جزم به «لا تجهدنه»، كأنه كرّر النهى.

---

(١) ديوانه، من رواية الأعلم الشنتمرى، القصيدة رقم: ٣٠، البيت: ٢٦. وفى معانى القرآن للفراء ١: ٢٦، ونسبه سيبويه فى الكتاب ١: ٤٥٢، لعمرو بن عمار الطائى، وسيذكره الطبرى فى (١٥: ١٦٤ بولاق) غير منسوب، ورواية سيبويه «فيدنك من أخرى القطاة» وقوله: «فقلت له»

والثانى أن يكون « فتكونا من الظالمين » ، بمعنى جواب النهى . فيكون تأويله حينئذ : لا تقربا هذه الشجرة ، فإنكما إن قَربتماها كنتما من الظالمين. كما تقول: لا تَشتمْ عمراً فيشتُمك، مجازاةً . فيكون « فتكونا » حينئذ فى موضع نَصب ، إذْ كان حرفاً عطف على غير شكله ، لمّا كان فى « ولا تقربا » حرف عامل فيه ، ولا يصلح إعادته فى « فتكونا »، فنصب على ما قد بينت فى أول هذه المسئلة . ١٨٦/١

وأما تأويل قوله « فتكونا من الظالمين »، فإنه يعنى به فتكونا من المتعدِّين إلى غير ما أذِن لهم وأبيح لهم فيه ، وإنما عَنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة ، كنتما على منهاج من تَعدَّى حُدودى ، وَعصى أمرى ، واستحلَّ محارمى ، لأن الظالمين بعضُهم أولياء بعض ، والله ولىّ المتقين .

* * *

وأصل «الظلم» فى كلام العرب، وضعُ الشىء فى غير موضعه ، ومنه قول نابغة بنى ذبيان:

إلّا أُوارِىَّ لَأْياً مَا أُبَيِّنُها وَالنُّؤْىُ كالحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ[1]

فجعل الأرض مظلومة ، لأن الذى حفر فيها النؤى حَفر فى غير موضع الحفر . فجعلها مظلومة، لموضع الحفرة منها فى غير موضعها[2]. ومن ذلك قول ابن قَميئة فى صفة غيث :

يعنى غلامه ، وذكره قبل أبيات . وقوله : « صوب » ، أى خذ الفرس بالقصد فى السير وارفق به ولا تجهده بالعدو الشديد فيصرعك . أذراه عن فرسه : ألقاه وصرعه . والقطاة : مقعد الردف من الفرس . وأخرى القطاة : آخر المقعد . ورواية الشنتمرى : « من أعلى القطاة » . وهما سواء .

(١) سلف تخريجه وشرحه فى هذا الجزء : ١٨٣

(٢) فى المطبوعة : « لوضع الحفرة منها فى غير موضعها » ، وفى المخطوطة أيضاً : « لموضع الحفر فيها فى غير موضعها » .

ظَلَمَ البِطَاحَ بِهَا انْهِـلالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ المُقْلَعِ (١)

وظلمه إياه: مجيئه فى غير أوانه ، وانصبابه فى غير مصبّه . ومنه : ظَلَم الرجلُ جَزوره، وهو نحره إياه لغير علة . وذلك عند العرب وَضْع النحر فى غير موضعه .

وقد يتفرع الظلم فى معان يطول بإحصائها الكتاب، وسنبينها فى أماكنها إذا أتينا عليها إن شاء الله تعالى . وأصل ذلك كله ما وصفنا من وضع الشىء فى غير موضعه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾

قال أبو جعفر : اختلفت القَرَأة (٢) فى قراءة ذلك . فقرأته عامتهم، «فأزلَّهما» بتشديد اللام، بمعنى : استزلَّهما، من قولك زلّ الرجل فى دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه . وأزلَّه غيره : إذا سبب له ما يزلّ من أجله فى دينه أو دنياه ، ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى ابليسَ خُروجَ آدم وزوجته من الجنة ، فقال : « فأخرجهما » يعنى إبليس « مما كانا فيه »، لأنه كانَ الذى سَبَّب لهما الخطيئة التى عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة .

* * *

وقرأه آخرون: «فأزَالهما»، بمعنى إزَالة الشىء عن الشىء، وذلك تنحيته عنه .

وقد روى عن ابن عباس فى تأويل قوله : « فأزلهما »، ما :—

(١) جاء أيضاً فى تفسيره (٢ : ٥٠ بولاق) منسوباً لعمرو بن قميئة . وصحة نسبته إلى الحادرة الذبيانى ، وهو فى ديوان الحادرة ، قصيدة : ٤ ، البيت رقم : ٧ ، وشرح المفضليات : ٥٤ . والبطاح جمع بطحاء وأبطح : وهو بطن الوادى . وانهل المطر انهلالا : اشتد صوبه و وقعه . والحريصة والحارصة : السحابة التى تحرص مطرها وجه الأرض ، أى تقشره من شدة وقعها . والنطاف جمع نطفة : وهى الماء القليل يبقى فى الدلو وغيره . وقوله : « بعيد المقلع » : أى بعد أن أقلعت هذه السحابة . و رواية المفضليات : « ظلم البطاح له » وقوله : « له » : أى من أجله .

(٢) فى المطبوعة : « اختلف القراء » والقرأة جمع قارىء ، وانظر ما مضى : ٥١ ، تعايق ، وص : ٦٤ ، ١٠٩ وغيرهما .

٧٤١ ـ حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال : حدثنى حجاج، عن ابن جريج، قال : قال ابن عباس فى تأويل قوله تعالى: «فأزلهما الشيطان»، قال: أغواهما[1].

* * *

وأولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ «فأزلَّهما»، لأن الله جل ثناؤه قد أخبر فى الحرف الذى يتلوه . بأن إبليس أخرجهما مما كانا فيه . وذلك هو معنى قوله «فأزالهما»، فلا وجه — إذْ كان معنى الإزالة معنى التنحية والإخراج — أن يقال: «فأزالهما الشيطانُ عنها فأخرجهما مما كانا فيه» فيكون كقوله : فأزالهما الشيطان عنها فأزالهما مما كانا فيه . ولكن المفهوم أن يقال[2]: فاستزلهما إبليسُ عن طاعة الله — كما قال جل ثناؤه : «فأزلهما الشيطان»، وقرأت به القراء — فأخرجهما باستزلاله إياهما من الجنة .

* * *

فإن قال لنا قائل : وكيف كان استزلال إبليسُ آدمَ وزوجته، حتى أضيف إليه إخراجهما من الجنة ؟

قيل: قد قالت العلماء فى ذلك أقوالاً، وسنذكر بعضها[3]:

فحكى عن وهب بن منبه فى ذلك ما :—

٧٤٢ ـ حدثنا به الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا عمر بن عبد الرحمن بن مُهرِب[4]، قال : سمعت وهب بن منبه، يقول : لما

---

(١) الخبر : ٧٤١ — فى الدر المنثور ١ : ٥٣، والشوكانى ١ : ٥٦ .

(٢) فى المطبوعة : «لكن المعنى المفهوم»، زاد ما لا جدوى فيه .

(٣) فى المطبوعة : «سنذكر» بغير واو .

(٤) فى المطبوعة : «عمرو» بدل «عمر»، وفى المخطوطة وابن كثير : «مهران»، بدل «مهرب». وكلاهما خطأ، صوابه ما أثبتنا : «عمر بن عبد الرحمن بن مهرب»، فهذا الشيخ ترجمه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ١٢١/١/٣، وقال : «سمع وهب بن منبه، روى عنه إبراهيم بن خالد الصنعانى، وعبد الرزاق». ثم روى عن يحيى بن معين، قال : «عمر بن عبد الرحمن بن مهرب : ثقة». ولم أجد له ترجمة أخرى . و«مهرب» : لم أجد نصاً بضبطها فى هذا النسب، إلا قول صاحب القاموس أنهم سموا من مادة (هرب) بوزن «محسن» — يعنى بضم أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه .

أسكن الله آدمَ وذريته — أو زوجته — الشك من أبى جعفر : وهو فى أصل كتابه « وذريته » — ونهاه عن الشجرة، وكانت شجرةً غصونها متشعِّبٌ بعضها فى بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهى الثمرة التى نَهى الله آدمَ عنها وزوجته. ١٨٧/١

فلما أراد إبليس أن يستزلَّهما دَخل فى جوف الحية، وكانت للحية أربع قوائم كأنها بُخْتيةٌ، من أحسن دابة خلقها الله — فلما دخلت الحية الجنة، خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حواء[1]، فقال: انظرى إلى هذه الشجرة! ما أطيبَ رِيحَها وأطيبَ طعمها وأحسن لونها! فأخذت حواءُ فأكلتْ منها ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت: انظرْ إلى هذه الشجرة! ما أطيبَ ريحها وأطيبَ طعمها وأحسنَ لونها! فأكل منها آدم، فبدت لهما سوآتُهما. فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربُّه يا آدم أين أنت؟ قال: قال: أنا هذا يارب[2]! قال: ألا تخرج؟ قال: أستحيى منك يا رب. قال: ملعونة الأرض التى خُلقتَ منها لعنةً يتحوَّل ثمرها شوكاً. قال: ولم يكن فى الجنة ولا فى الأرض شجرةٌ كان أفضل من الطَّلح والسِّدر، ثم قال: يا حواء، أنت التى غرَّرْتِ عبدى، فإنك لا تَحملين حَملا إلا حملته كَرْهاً، فإذا أردتِ أن تضعى ما فى بطنك أشرفتِ على الموت مراراً. وقال للحية: أنت التى دخل الملعون فى جوفك حتى غرَّ عبدى، ملعونة أنتِ لعنة تَتحول قوائمك فى بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بنى آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت أحداً منهم أخذت بعقبه، وحيث لقيك شدَخ رأسك. قال عمر:[3] قيل لوهب: وما كانت الملائكة تأكل؟ قال: يفعل الله ما يشاء[4].

وقع اسم هذا الشيخ محرفاً إلى شيخين، فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٤ — فى هذا الإسناد، هكذا: « معمر عن عبد الرحمن بن مهران »!

(١) فى المطبوعة: « فجاء به »، والذى أثبتناه من المخطوطة وتاريخ الطبرى.

(٢) فى المطبوعة: « أنا هنا يا رب »، وأثبتنا ما فى المخطوطة وتاريخ الطبرى.

(٣) فى المطبوعة: « قال عمرو »، وأثبتنا الصواب من المخطوطة، ومما ذكرنا آنفاً.

(٤) الأثر: ٧٤٢ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٤، بهذا الإسناد، وأوله فى ابن كثير ١ : ١٤٣.

وروى عن ابن عباس نحو هذه القصة :

٧٤٣ ــ حدثني موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو ، قال :حدثنا أسباط ، عن السدى فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ــ وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : لما قال الله عز وجلّ لآدم: «اسكن أنتَ وزوجُك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين » ، أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة ، فنعته الخزَنة. فأتى الحية ــ وهى دابّة لها أربعُ قوائم كأنها البعير ، وهى كأحسن الدواب ــ فكلمها أن تُدخله فى فمها حتى تدخل به إلى آدم ، فأدخلته فى فُقْمها ــ قال أبو جعفر : والفقم جانب الشدق[1] ــ فرت الحية على الخزنة فدخلت ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر . فكلمه من فُقمها فلم يُبال كلامه[2] ، فخرج إليه فقال : ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [سورة طه : ١٢٠] يقول : هل أدلك على شجرة إن أكلت منها كنت مَلِكاً مثل الله عز وجل ، أو تكونا من الخالدين[3] ، فلا تموتان أبداً . وحلف لهما بالله إنى لكما لمن الناصحين . وإنما أراد بذلك ليبدىَ لهما ما توارى عنهما من سَوْآتهما بهتكِ لباسهما . وكان قد علم أن لهما سوأة ، لما كان يقرأ من كتب الملائكة ، ولم يكن آدم يعلم ذلك . وكان لباسُهما الظُّفر ، فأبى آدم أن يأكل منها ، فتقدمت حواء فأكلت ، ثم قالت : يا آدم كُلْ ، فإنى قد أكلتُ فلم يضرَّنى . فلما أكل آدم بدت لهما سوآتُهما وطفقا يَخصفان عليهما من ورق الجنة[4] .

---

(١) فى المطبوعة وتاريخ الطبرى ١ : ٥٣ : « فأدخلته فى فمها ، فرت الحية . . . » ، وما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) فى المطبوعة وتاريخ الطبرى : « فكلمة من فمها » . وفى المطبوعة : « فلم يبال بكلامه » .

(٣) فى المخطوطة : « وتكونا من الخالدين » .

(٤) الخبر : ٧٤٣ . بنصه فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٣ ، وببعض الاختلاف فى الدر المنثور ١ : ٥٣ ، والشوكانى ١ : ٥٦ .

٧٤٤ - حُدِّثت عن عمار بن الحسن، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : حدثني محدِّث : أن الشيطان دخل الجنة في صورة دابة ذات قوائم ، فكان يُرى أنه البعير ، قال : فلعِن ، فسقطت قوائمه فصار حيَّة[١] .

٧٤٥ - وحُدِّثت عن عمار ، قال: حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قال : وحدثني أبو العالية أن من َ الإبل َما كان أوّلها من الجن ، قال : فأبيحت له الجنة كلها إلا الشجرة[٢] ، وقيل لهما : لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » . قال : فأتى الشيطان حواء فبدأ بها ، فقال : أنُهيتما عن شيء ؟ قالت: نعم ! عن هذه الشجرة فقال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠] قال : فبدأت حواء فأكلت منها ، ثم أمرت آدم فأكل منها . قال : وكانت شجرةً من أكل منها أحدث . قال : ولا ينبغي أن يكون في الجنة َحدَث . قال : « فأزالهما الشيطان َعنها فأخرجهما مما كانا فيه »[٣] ، قال : فأخرج آدم من الجنة[٤] .

١/١٨٨

٧٤٦ - حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا سلمة ، قال :حدثنا ابن إسحق ، عن بعض أهل العلم : أن آدم حين دخل الجنة ورأى ما فيها من الكرامة وما أعطاه الله منها ، قال : لو أن ُخلداً كان ! فاغتمز فيها منه الشيطان لما سمعها منه[٥] ، فأتاه من قِبَل الخلد[٦] .

---

(١) الأثر : ٧٤٤ - في تاريخ الطبري ١ : ٥٥

(٢) في تاريخ الطبري ١ : ٥٥ ، زيادة سياقها : « . . . كلها - يعني آدم - إلا الشجرة » .

(٣) في تاريخ الطبري ١ : ٥٥ « فأزلهما الشيطان » .

(٤) الأثر : ٧٤٥ - في تاريخ الطبري ١ : ٥٥ .

(٥) في التاريخ : « لو أنا خلدنا » . وفي المطبوعة : « فاغتنمها منه الشيطان» ، لم يحسنوا قراءة المخطوطة فبدلوا الحرف ، وأثبتنا ما في المخطوطة والتاريخ . يقال : سمع مني كلمة فاغتمزها ، أي استضعفها ووجد فيها مغمزاً يعاب ويؤتى من قبله .

(٦) الأثر : ٧٤٦ - في تاريخ الطبري ١ : ٥٥ .

٧٤٧ — حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق قال : حُدثت : أن أول ما ابتدأهما به من كيده إياهما ، أنه ناح عليهما نيا َحة أحزنتهما حين سمعاها ، فقالا : ما يبكيك ؟ قال : أبكى عليكما ، تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة . فوقع ذلك فى أنفسهما . ثم أتاهما فوسوس إليهما ، فقال : يا آدم َهل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى ؟ وقال : « مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا َملَكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين » . أى تكونا َملكين ، أو تخلدَا ، إن لم تكونا ملكين[1] — فى نعمة الجنة فلا تموتان . يقول الله جل ثناؤه : « فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ »[2] .

٧٤٨ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : وسوس الشيطان إلى حواء فى الشجرة حتى أتى بها إليها ، ثم حسَّنها فى عين آدم . قال : فدعاها آدم لحاجته ، قالت : لا ! إلاَّ أن تأتى ههنا . فلما أتى قالت : لا ! إلاَّ أن تأكل من هذه الشجرة . قال : فأكلا منها فبدَت لهما َسوآتهما . قال : وذهب آدم هارباً فى الجنة ، فناداه ربه : يا آدم أمنِّى تفرّ ؟ قال : لا يارب ، ولكن حياءً منك . قال : يا آدم أنَّى أُتيت ؟ قال : من قِبَل حواء أى رب . فقال الله : فإن لها علىَّ أن أدميها فى كل شهر مرة ، كما أدميت هذه الشجرة[3] ، وأن أجعلها سفيهةً فقد كنت خلقتها َحليمة ، وأن أجعلها تحمل كرهاً وتضع كرهاً ، فقد كنت جعلتها تحمل ُيسراً وَتضع ُيسراً . قال ابن زيد : ولولا البلية التى أصابت حوّاء ، لكان نساء الدنيا لا َيحضن ، ولكُنّ حليمات ، وكن يحملن ُيسراً ويضعن يُسراً[4] .

---

(١) فى المخطوطة : « أى تكونا ملكين ، أو تخلدان إن لم . . . » وفى التاريخ ١ : ٥٥ : « أى تكونان ملكين أو تخلدان — أى إن لم . . . » .

(٢) الأثر : ٧٤٧ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٥ .

(٣) فى المخطوطة : « كما دمت هذه الشجرة » .

(٤) الأثر : ٧٤٨ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٥ .

٧٤٩ ـ حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحق ، عن يزيد ابن عبد الله بن قسيط ، عن سعيد بن المسيب ، قال : سمعته يحلف بالله ما يستثنى ـ ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ، ولكن حواء سقته الخمر ، حتى إذا سكر قادته إليها فأكل [١].

٧٥٠ ـ حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ،عن ليث ابن أبى سليم، عن طاوس اليمانى ، عن ابن عباس ، قال: إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دوابّ الأرض أيُّها يحمله حتى يدخل الجنة معها ويكلم آدم وزوجته[٢] ، فكلّ الدواب أبى ذلك عليه ، حتى كلّم الحية فقال لها : أمنعك من ابن آدم ، فأنتِ فى ذمتى إن أنت أدخلتِنى الجنة . فجعلته بين نابين من أنيابها ، ثم دخلت به ، فكلمهما من فيها ؛ وكانت كاسية تمشى على أربع قوائم ، فأعراها الله وجعلها تمشى على بطنها . قال : يقول ابن عباس: اقتلوها حيث وجدتموها ، أخفِروا ذمَّةَ عدوّ الله فيها[٣] .

٧٥١ ـ وحدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة ، قال قال ابن إسحق : وأهل التوراة يدرُسون : إنما كلم آدمَ الحية . ولم يفسروا كتفسير ابن عباس .

٧٥٢ ـ وحدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين ، قال: حدثنى حجاج ، عن أبى معشر ، عن محمد بن قيس ، قال : نهى الله آدمَ وحواء أن يأكلا من شجرة واحدة فى الجنة ، ويأكلا منها رَغداً حيث شاءا ، فجاء الشيطان فدخل فى جوف الحية ، فكلم حواء، ووسوس الشيطان إلى آدم فقال : «ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن

١/١٨٩

---

(١) الأثر : ٧٤٩ ـ فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٥ ـ ٥٦ ، وهو هناك تام .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة والدر المنثور : «أنها تحمله حتى يدخل . . .» ، وأثبت ما فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٤ ، فهو أجود وأصح .

(٣) الخبر : ٧٥٠ ـ فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٣ ـ ٥٤ ، والدر المنثور ١ : ٥٣ . وأخفر الذمة والعهد : نقضهما ، ولم يف بهما .

الناصحين » . قال: فقطعت[١] حواء الشجرة فدَميت الشجرة . وسقط عنهما رياشهما الذى كان عليهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٢]. لم أكلتها وقد نهيتك عنها؟ قال : يا رب أطعمتنى حواء . قال لحواء : لم أطعمته؟ قالت: أمرتنى الحية . قال للحية : لم أمرتِها ؟ قالت : أمرنى إبليس. قال: ملعونٌ مدحورٌ ! أما أنت يا حواء فكما أدميْتِ الشجرة تَدمَيْن[٢] فى كلّ هلال ، وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين جَرياً على وَجهك ، وَسيشدخ رأسك من لقيك بالحجر ، اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ [٣].

* * *

قال أبو جعفر : وقد رُويت هذه الأخبار — عمن رويناها عنه من الصحابة والتابعين وغيرهم — فى صفة استزلال إبليس عدوِّ الله آدمَ وزوجتَه حتى أخرجهما من الجنة . وأولى ذلك بالحق عندنا ما كان لكتاب الله مُوافقاً . وقد أخبر الله تعالى ذكره عن إبليس أنه وسوس لآدم وزوجته ليبدىَ لهما ما وُورى عنهما من سَوآتهما ، وأنه قال لهما: « ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلكين أو تكونا من الخالدين » ، وأنه « قاسمَهما إنى لكما لمن الناصحين » مُدلّياً لهما بغرور . فى إخباره جل ثناؤه — عن عدوّ الله أنه قاسم آدم وزوجته بقيله لهما: إنى لكما لمن الناصحين — الدليلُ الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه : إما ظاهراً لأعينهما ، وإما مستجِنًّا فى غيره . وذلك أنه غير مَعقول فى كلام العرب أن يقال : قاسم فلانٌ فلاناً فى كذا وكذا . إذا سبّب له سبباً وصل به إليه دون أن يحلف له . والحلف لا يكون بتسبب السبب . فكذلك قوله « فوسوس إليه الشيطان » ، لو كان ذلك كان منه إلى آدم — على نحو الذى منه إلى ذريته ، من تزيين أكل ما نهى الله آدم

---

(١) فى المطبوعة : « فعضت حواء الشجرة » ، وأثبتنا ما فى المخطوطة وتاريخ الطبرى ١ : ٥٤ .

(٢) فى المطبوعة : « فتدمين » ، وأثبتنا ما فى المخطوطة والتاريخ .

(٣) الأثر : ٧٥٢ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٤ .

عن أكله من الشجرة ، بغير مباشرة خطابه إياه بما استزلّه به من القول والحيل — لما قال جلّ ثناؤه: « وقاسمَهما إنى لكما لمن الناصحين » . كما غير جائز أن يقول اليوم قائلٌ ممن أتى معصية: قاسمنى إبليس أنه لى ناصحٌ فيما زيَّن لى من المعصية التى أتيتها . فكذلك الذى كان من آدمَ وزوجته ، لو كان على النحو الذى يكون فيما بين إبليس اليومَ وذرية آدم— لما قال جل ثناؤه: «وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين»، ولكن ذلك كان — إن شاء الله — على نحو ما قال ابن عباس ومن قال بقوله .

فأما سَبب وصوله إلى الجنة حتى كلم آدم بعد أن أخرجه الله منها وطرده عنها ، فليس فيما رُوى عن ابن عباس ووهب بن منبه فى ذلك معنى يجوز لذى فهم مُدافعته ، إذ كان ذلك قولا لا يدفعه عقل ولا خبر يلزم تصديقه من حجة بخلافه[1] ، وهو من الأمور الممكنة . فالقول فى ذلك أنه وصل إلى خطابهما على ما أخبرنا الله جل ثناؤه[2] ؛ وممكن أن يكون وصل إلى ذلك بنحو الذى قاله المتأولون، بل ذلك — إن شاء الله — كذلك ، لتتابع أقوال أهل التأويل على تصحيح ذلك . وإن كان ابن إسحق قد قال فى ذلك ما :—

٧٥٣ — حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة، قال : قال ابن إسحق فى ذلك، والله أعلم، كما قال ابن عباس وأهل التوراة: إنه خَلص إلى آدم وزوجته بسُلطانه الذى جعل الله له ليبتلى به آدم وذريته، وأنه يأتى ابن آدم فى نَوْمته وفى يقظته، وفى كل حال من أحواله، حتى يخلص إلى ما أراد منه ، حتى يدعوَه إلى المعصية ، ويوقع فى نفسه الشهوة وهو لا يراه. وقد قال الله عز وجلّ : « فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه»[3] ، وقال : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

١/١٩٠

---

(١) فى المطبوعة : « إذ كان ذلك قولا لا يدفعه قول . . . » .

(٢) فى المطبوعة : « والقول فى ذلك . . . » .

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة : « وقد قال الله فوسوس لهما الشيطان ، فأخرجهما مما كان فيه » ، وهذه ليست آية ، والصواب أنه أراد آية سورة البقرة هذه .

الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧] وقد قال الله لنبيه عليه السلام : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ إلى آخر السورة . ثم ذكر الأخبار التى رُويت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الشيطان يجرى من ابن آدمَ مجرى الدم[1] .

ثم قال ابن إسحق[2] : وإنما أمرُ ابن آدم فيما بينه وبين عدوّ الله، كأمره فيما بينه وبين آدم . فقال الله : ﴿ اهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٣]. ثم خلص إلى آدم وزوجته حتى كلمهما، كما قصّ الله علينا من خبرهما، فقال : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [سورة طه : ١٢٠] ، فخلص إليهما بما خلص إلى ذريته من حيث لا يريانه — فالله أعلم أىّ ذلك كان — فتابا إلى ربهما .

* * *

قال أبو جعفر : وليس فى يقين ابن إسحق — لو كان قد أيقن فى نفسه — أن إبليس لم يخلص إلى آدم وزوجته بالمخاطبة بما أخبر الله عنه أنه قال لهما وخاطبهما به ، ما يجوز لذى فهم الاعتراضُ به على ما ورد من القول مستفيضاً من أهل العلم ، مع دلالة الكتاب على صحة ما استفاض من ذلك بينهم . فكيف بشكّه ؟ والله نسأل التوفيق .

* * *

(١) حديث « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » — حديث صحيح جدًّا — رواه أحمد والشيخان وأبو داود ، من حديث أنس ، ورواه الشيخان وأبو داود وابن ماجة ، من حديث صفية ، وهى بنت حيى ، أم المؤمنين ، كما فى الجامع الصغير : ٢٠٣٦ .

(٢) فى المطبوعة إسقاط : « ثم » .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾

قال أبو جعفر : وأما تأويل قوله « فأخرجهما » ، فإنه يعنى : فأخرج الشيطانُ آدمَ وزوجته ، « مما كانا »، يعنى مما كان فيه آدمُ وزوجته من رغد العيش فى الجنة ، وسعة نعيمها الذى كانا فيه . وقد بينا أن الله جل ثناؤه إنما أضاف إخراجهما من الجنة إلى الشيطان — وإن كان الله هو المخرجَ لهما — لأن خروجهما منها كان عن سبب من الشيطان ، فأضيف ذلك إليه لتسبيبه إياه[1] ، كما يقول القائل لرجل وَصل إليه منه أذى حتى تحوّل من أجله عن موضع كان يسكنه : « ما حوّلنى من موضعى الذى كنت فيه إلا أنت » ، ولم يكن منه له تحويل ، ولكنه لما كان تحوّله عن سبب منه ، جازَ له إضافة تحويله إليه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

قال أبو جعفر : يقال : هبط فلان أرضَ كذا وواديَ كذا، إذا حلّ ذلك[2] ، كما قال الشاعر :

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ ، حَتَّى إذَا هَبَطَتْ ... أَيْدِي الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِسٍ فَلَقَا[3]

---

(١) فى المطبوعة : « وأضيف ذلك . . . » .

(٢) لعل صواب العبارة : « إذا حل ذلك الموضع » ، فسقطت كلمة من الناسخين .

(٣) البيت لزهير بن أبى سلمى ، ديوانه : ٣٧ ، أرمقهم : يعنى أحبابه الراحلين ، وينظر إليهم حزيناً كئيباً ، والركاب : الإبل التى يرحل عليها . وراكس : واد فى ديار بنى سعد بن ثعلبة ، من بنى أسد . وفلق وفالق : المطمئن من الأرض بين ربوتين أو جبلين أو هضبتين ، وقالوا : فالق وفلق ، كما قالوا : يابس ويبس (بفتحتين) .

وقد أبان هذا القولُ من الله جل ثناؤه ، عن صحة ما قلنا من أنّ المخرِجَ آدمَ من الجنة هو الله جل ثناؤه ، وأن إضافة الله إلى إبليس ما أضاف إليه من إخراجهما ، كان على ما وصفنا . ودلّ بذلك أيضاً على أنّ هبوط آدم وزوجته وعدوهما إبليس ، كان فى وقت واحد ، بجَمْع الله إياهم فى الخبر عن إهباطهم ، بعد الذى كان من خطيئة آدم وزوجته ، وتسبُّب إبليس ذلك لهما[1] ، على ما وصفه ربنا جل ذكره عنهم.

* * *

قال أبو جعفر : وقد اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بقوله : « اهبطوا » ، مع إجماعهم على أن آدم وزوجته ممن عُنِى به .

٧٥٤ — فحدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبو أسامة ، عن أبى عَوانة ، عن إسمعيل بن سالم ، عن أبى صالح : « اهبطوا بَعضُكم لبعض عَدوٌّ » ، قال : آدم وحواءُ وإبليس والحية[2] .

٧٥٥ — حدثنا ابن وكيع ، وموسى بن هرون ، قالا : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : « اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ » ، قال : فلعنَ الحية وقطع قوائمها وتركها تمشى على بطنها ، وجعل رزقها من التراب . وأهبِط إلى الأرض آدمُ وحواء وابليس والحية[3].

١٩١/١

٧٥٦ — وحدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله : « اهبِطوا بعضكم لبعض عدو » ، قال : آدم وإبليس والحية[4] .

---

(١) لعل الأجود : « وتسبيب إبليس ذلك لهما » ، وهى فى المخطوطة غير منقوطة .

(٢) الأثر : ٧٥٤ — فى الدر المنثور ١ : ٥٥ .

(٣) الأثر : ٧٥٥ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٦ ، والظاهر أن إسناده هنا سقط منه شىء ، وتمامه فى التاريخ : « . . . عن السدى — فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : اهبطوا . . . » . وهو الإسناد الذى يكثر الطبرى من الرواية به .

(٤) الأثر : ٧٥٦ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٥٦

٧٥٧ — وحدثني المثنى بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو» ، آدم وإبليس والحية ، ذريةٌ بعضُهم أعداءٌ لبعضٍ .

٧٥٨ — وحدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال : حدثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد: « بعضكم لبعض عدوّ »، قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته .

٧٥٩ — وحدثنا المثنى ، قال: حدثنا آدم بن أبي إياس، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله : « بعضكم لبعض عدوّ » ، قال : يعني إبليس وآدم[1] .

٧٦٠ — حدثني المثنى ، قال : حدثنا إسحق، قال : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل، عن السدى، عمن حدثه عن ابن عباس في قوله : « اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ » ، قال: بعضهم لبعض عدوّ : آدم وحواء وإبليس والحية[2] .

٧٦١ — وحدثني يونس بن عبد الأعلى، قال : حدثنا ابن وهب ،قال : حدثني عبد الرحمن بن مهدىّ ، عن إسرائيل ، عن إسمعيل السدى ، قال : حدثني من سمع ابن عباس يقول : « اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ » ، قال : آدم وحواء وإبليس والحية[3] .

٧٦٢ — وحدثني يونس ، قال: أخبرنا ابن وهب ،قال : قال ابن زيد في قوله: « اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ » ، قال : لهما ولذريتهما[4] .

* * *

قال أبو جعفر : فإن قال قائل : وما كانت عداوة ما بين آدم وزوجته وإبليس والحية ؟

---

(١) الآثار : ٧٥٧ — ٧٥٩ لم أجدها بإسنادها في مكان .
(٢) الخبر : ٧٦٠ — كالذى يليه من طريق آخر .
(٣) الخبر : ٧٦١ — في تاريخ الطبرى ١ : ٥٦ .
(٤) الأثر : ٧٦٢ — لم أجده في مكان .

قيل : أما عداوة إبليس آدمَ وذريته، فحسدهُ إياه، واستكبارُه عن طاعة الله في السجود له حين قال لربه: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [سورة ص : ٧٦] . وأما عداوة آدم وذريته إبليس ، فعداوةُ المؤمنين إياه لكفره بالله وعصيانه لربّه في تكبره عليه ومُخالفته أمرَه . وذلك من آدم ومؤمني ذريته إيمانٌ بالله . وأما عداوة إبليسَ آدمَ فكفرٌ بالله .

وأما عداوة ما بين آدم وذريته والحية ، فقد ذكرنا ما روى في ذلك عن ابن عباس ووهب بن منبه ، وذلك هي العداوة التي بيننا وبينها ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما سالمناهُنّ منذ حاربناهن ، فمن تركهنّ خشيةَ ثأرهنّ فليس منّا .

٧٦٣ ــ حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: حدثني حجاج بن رِشْدِين، قال : حدثنا حَيْوَة بن شُريح ، عن ابن عَجلانَ ، عن أبيه ، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما سالمناهُنّ منذ حاربناهنّ، فمن ترك شيئاً منهنّ خيفةً، فليس منا[1] .

---

(١) الحديث : ٧٦٣ ــ إسناده جيد . والحديث مروى بأسانيد أخر صحاح ، كما سنذكر ، إن شاء الله . حجاج : هو ابن رشدين بن سعد المصرى ، ترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١ / ٢ / ١٦٠ ، وذكر أنه يروى عن « حيوة بن شريح » ، ويروى عنه « محمد بن عبد الله بن عبد الحكم » . وذكر أنه سأل عنه أبا زرعة ، قال : « لا علم لي به ، لم أكتب عن أحد عنه » . وترجمه الحافظ في لسان الميزان ، ونقل أنه ضعفه ابن عدى ، وأنه مات سنة ٢١١ ، وأن ابن يونس لم يذكر فيه جرحاً ، « وقال الخليل : هو أمثل من أبيه ، وقال مسلمة بن قاسم : لا بأس به » ، وأن ابن حبان ذكره في الثقات . وهذا كاف في توثيقه ، خصوصاً وأن ابن يونس أعرف بتاريخ المصريين .

وأبوه اسمه « رشدين » ، بكسر الراء والدال بينهما شين معجمة ساكنة ، وبعد الدال ياء ونون . ووقع في المطبوعة « رشد » ؛ وهو خطأ .

والحديث رواه أحمد في المسند : ٩٥٨٦ ، عن يحيى ــ وهو القطان ، ١٠٧٥٢ ، عن صفوان ــ وهو ابن عيسى الزهرى ، كلاهما عن ابن عجلان ، به (٢ : ٤٣٢ ، ٥٢٠ من طبعة الحلبي) . ورواه أيضاً قبل ذلك مختصراً : ٧٣٦٠ (٢ : ٢٤٧) عن سفيان بن عيينة . ورواه أبو داود : ٥٢٤٨ (٤ : ٥٣٤ عون المعبود) ، من طريق سفيان ، تاما . وهذه أسانيد صحاح .

وورد معناه من حديث ابن عباس ، في المسند أيضاً : ٢٠٣٧ ، ٣٢٥٤ . وقريب من معناه من حديث ابن مسعود ، في المسند أيضاً : ٣٩٨٤ .

قال أبو جعفر : وأحسبُ أن الحرب التي بيننا ، كان أصله ما ذكره علماؤنا الذين قدمنا الرواية عنهم ، في إدخالها إبليس الجنة بعد أن أخرجه الله منها ، حتى استزلّه عن طاعة ربه في أكله ما نُهي عن أكله من الشجرة .

٧٦٤ — وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا معاوية بن هشام — وحدثني محمد ابن خلف العسقلاني ، قال حدثني آدم — جميعاً ، عن شيبان ، عن جابر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الحيّات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خُلقتْ هي والإنسانُ كل واحد منهما عدوّ لصاحبه ، إن رآها أفزعته ، وإن لدغته أوجعته ، فاقتلها حيث وجدتَها[1] .

• • •

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾

١/١٩٢ قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال : بعضهم بما :—

٧٦٥ — حدثني المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم العسقلاني ، قال : حدثنا أبو جعفر الرازيّ ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله : « ولكم في الأرض مُستقَرٌّ » قال : هو قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً ﴾ [سورة البقرة : ٢٢] .

٧٦٦ — وحُدِّثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع في قوله : « ولكم في الأرض مستقرٌّ » ، قال : هو قوله : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً ﴾[2] [سورة غافر : ٦٤] .

---

(١) الحديث : ٧٦٤ — في الدر المنثور ١ : ٥٥ ، ونسبه للطبري فقط . وهو في مجمع الزوائد ٤ : ٤٥ بلفظ آخر ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه جابر غير مسمى ، والظاهر أنه الجعفي ، وثقه الثوري وشعبة ، وضعفه الأئمة أحمد وغيره .

(٢) الأثران : ٧٦٥ — ٧٦٦ : لم أجدهما في مكان .

وقال آخرون: معنى ذلك ولكم فى الأرض قرار فى القبور . ذكر من قال ذلك :

٧٦٧ — حدثنى موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : « ولكم فى الأرض مستقر » ، يعنى القبور[١] .

٧٦٨ — وحدثنى يونس ، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال : حدثنى عبد الرحمن ابن مهدى، عن إسرائيل ، عن إسمعيل السدى ، قال : حدثنى من سمع ابن عباس قال : « ولكم فى الأرض مستقرٌّ » ، قال : القبور[٢].

٧٦٩ — وحدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: «ولكم فى الأرض مستقر » ، قال : مقامهم فيها[٣] .

* * *

قال أبو جعفر: والمستقرُّ فى كلام العرب، هو موضع الاستقرار . فإذْ كان ذلك كذلك ، فحيث كان من الأرض موجوداً حالاًّ ، فذلك المكان من الأرض مستقره. وإنما عنى الله جل ثناؤه بذلك: أنّ لهم فى الأرض مستقرًّا ومنزلا ، بأماكنهم ومستقرِّهم من الجنة والسماء . وكذلك قوله : « ومتاع » يعنى به : أن لهم فيها متاعاً بمتاعهم فى الجنة .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٣٦)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك . فقال بعضهم : ولكم فيها بلاغ إلى الموت . ذكر من قال ذلك :

٧٧٠ — حدثنى موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا

---

(١) الأثر : ٧٦٧ — لم أجده فى مكان .
(٢) الخبر : ٧٦٨ — فى الدر المنثور ١ : ٥٥ ، وهو من تمام الخبر : ٧٦١ .
(٣) الأثر : ٧٦٩ — لم أجده فى مكان .

أسباط ، عن السدى فى قوله : « ومتاعٌ إلى حين » ، قال يقول : بلاغ إلى الموت [١] .

٧٧١ — وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى ، عن إسرائيل ، عن إسمعيل السدى ، قال : حدثنى من سمع ابن عباس : «ومتاعٌ إلى حين» ، قال : الحياة [٢] .

* * *

وقال آخرون : يعنى بقوله « ومتاعٌ إلى حين » ، إلى قيام الساعة . ذكر من قال ذلك :

٧٧٢ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « ومتاع إلى حين » ، قال : إلى يوم القيامة ، إلى انقطاع الدنيا .

* * *

وقال آخرون : « إلى حين » . قال : إلى أجل . ذكر من قال ذلك :

٧٧٣ — حُدِّثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « ومتاع إلى حين » ، قال : إلى أجل [٣] .

* * *

والمتاع ، فى كلام العرب ، كل ما استُمتع به من شىء ، من معاش استُمتع به أو رِياش أو زينة أو لذة أو غير ذلك [٤] . فإذْ كان ذلك كذلك — وكان الله جل ثناؤه قد جعل حياة كل حىٍّ متاعاً له يستمتع بها أيام حياته ، وجعل الأرض للإنسان متاعاً أيام حياته ، بقراره عليها ، واغتذائه بما أخرج الله منها من الأقوات والثمار ، والتذاذه بما خلق فيها من الملاذّ ، وجعلها من بعد وفاته لجثته كِفاتاً [٥] ، ولجسمه منزلا وقراراً ؛ وكان اسم المتاع يشمل جميع ذلك — كان أولى التأويلات

(١) الأثر : ٧٧٠ — لم أجده فى مكان .

(٢) الأثر : ٧٧١ — فى الدر المنثور ١ : ٥٥ ، وهو من تمام الأثرين : ٧٦١ ، ٧٦٨

(٣) الأثران : ٧٧٢ ، ٧٧٣ : لم أجدهما فى مكان .

(٤) فى المخطوطة : « فى معاش استمتع . . . » .

(٥) الكفات : الموضع الذى يضم فيه الشىء ويقبض .

بالآية[1] إذْ لم يكن الله جل ثناؤه وضع دلالة دالة على أنه قصد بقوله: «ومتاعٌ إلى حين» بعضاً دون بعض، وخاصاً دون عامّ في عقل ولا خبر — أن يكون ذلك في معنى العامّ، وأن يكون الخبر أيضاً كذلك، إلى وقت يطول استمتاع بنى آدم وبنى إبليس بها، وذلك إلى أن تُبدَّل الأرض غير الأرض. فإذْ كان ذلك أولى التأويلات بالآية لما وَصفنا، فالواجب إذاً أن يكون تأويل الآية: ولكم فى الأرض ١٩٣/١ مَنازلُ ومساكنُ تستقرُّون فيها استقرارَكم — كان — فى السموات، وفى الجنان فى منازلكم منها[2]، واستمتاعٌ منكم بها وبما أخرجت لكم منها، وبما جعلت لكم فيها من المعاش والرياش والزِّين والملاذّ، وبما أعطيتكم على ظهرها أيام حياتكم ومن بعد وفاتكم لأرْماسكم وأجداثكم تُدفنون فيها[3]، وتبلغون باستمتاعكم بها إلى أن أبدلكم بها غيرها.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾

قال أبو جعفر: أما تأويل قوله: «فتلقّى آدم»، فقيل: إنه أخذ وقَبِل[4]. وأصله التفعُّل من اللقاء، كما يتلقّى الرجلُ الرجلَ مُستقبلَه عند قدومه من غيبته أو سفره، فكأنّ ذلك كذلك فى قوله «فتلقّى»[5]، كأنه استقبله فتلقاه بالقبول حين أوحى إليه أو أخبر به. فمعنى ذلك إذاً: فلقّى الله آدمَ كلمات توبة، فتلقَّاها آدم من ربه وأخذها عنه تائباً، فتاب الله عليه بقيله إياها، وقبوله إياها من ربه. كما: —

٧٧٤ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال قال ابن

---

(١) فى المطبوعة: «إن لم يكن الله ...»، وهو خطأ.

(٢) فى المطبوعة: «فى الجنات».

(٣) الأرماس جمع رمس، والأجداث جمع جدث (بفتحتين): وهما بمعنى القبر.

(٤) فى المطبوعة: «أخذ. وقيل: أصله»، وهو خطأ.

(٥) فى المطبوعة: «... يستقبله عند قدومه من غيبة أو سفر فكذلك ذلك فى قوله»، تصرف نساخ.

زيد فى قوله: « فتلقى آدمُ من ربه كلمات » الآية . قال : لقّاهما هذه الآية : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] [سورة الأعراف : ٢٣] .

* * *

وقد قرأ بعضهم : « فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ » ، فجعل الكلمات هى المتلقية آدم . وذلك، وإن كان من جهة العربية جائزاً، — إذْ كان كل ما تلقاه الرجل فهو له مُتلقّ ، وما لقيه فقد لَقيه ، فصار للمتكلم أن يُوجه الفعل إلى أيهما شاء ، ويخرج من الفعل أيهما أحب — فغير جائز عندى فى القراءة إلا رفع « آدم » على أنه المتلقى الكلمات ، لإجماع الحجة من القَرَأة وأهل التأويل من علماء السلف والخلف[2] ، على توجيه التلقى إلى آدم دون الكلمات . وغيرُ جائز الاعتراض عليها فيما كانت عليه مجمعة ، بقول من يجوز عليه السهو والخطأ .

* * *

واختلف أهل التأويل فى أعيان الكلمات التى تلقاها آدمُ من ربه. فقال بعضهم بما :—

٧٧٥ — حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا ابن عطية ، عن قيس ، عن ابن أبى ليلى ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « فتلقى آدمُ من ربه كلمات فتابَ عليه » ، قال : أى رب ، ألم تخلقنى بيدك؟ قال : بلى . قال: أى رب ، ألم تنفخ فىّ من روحك ؟ قال : بلى . قال : أى رب ، ألم تسكنى جَنتك ؟ قال : بلى . قال : أى رب، ألم تسبق رحمتُك غضبك ؟ قال : بلى . قال : أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ، أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال: نعم .

(١) الأثر : ٧٧٤ — ابن كثير ١ : ١٤٧، والدر المنثور ١ : ٥٩، والشوكانى ١ : ٥٨، وسيأتى برقم : ٧٩٢ .

(٢) فى المطبوعة : « لإجماع الحجة من القراء » . والقرأة : جمع قارىء ، كما سلف مراراً، انظر ما مضى ص ٥٢٤ .

قال : فهو قوله: « فتلقى آدمُ من ربه كلمات »[1] .

٧٧٦ — وحدثني على بن الحسن، قال: حدثنا مسلم ، قال: حدثنا محمد ابن مُصْعب، عن قيس بن الربيع ، عن عاصم بن كليب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، نحوه .

٧٧٧ — وحدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي ، قال : حدثني عمي ، قال : حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله : « فتلقى آدمُ من ربه كلمات فتاب عليه » ، قال : إن آدم قال لربه إذ عصاه : رب ، أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ؟ فقال له ربه : إني راجعك إلى الجنة[2] .

٧٧٨ — وحدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة، قوله: «فتلقى آدم من ربه كلمات»، ذكر لنا أنه قال : يا رب ، أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ؟ قال : إني إذاً راجعك إلى الجنة ، قال : وقال الحسن : إنهما قالا: « ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تَغفر لنا وتَرحمنا لنكونن من الخاسرين »[3] .

٧٧٩ — وحدثني المثنى ، قال: حدثنا آدم العسقلاني ، قال: حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله « فتلقى آدم من ربه كلمات » ، قال : إن آدم لما أصاب الخطيئة قال : يا رب ، أرأيت إن تبت أصلحتُ ؟ فقال الله : إذاً أرجعك إلى الجنة . فهي من الكلمات . ومن الكلمات أيضاً : « ربنا ظَلمنا أنفسنا وإن لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »[4] . ١٩٤/١

٧٨٠ — وحدثني موسى بن هرون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال حدثنا أسباط ، عن السدي : « فتلقى آدَمُ من ربه كلمات »، قال : رب ، ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له : بلى . قال : ونفخت فيّ من روحك ؟ قيل له : بلى . قال وسبقت رحمتك

---

(١) الخبر : ٧٧٥ — في ابن كثير ١ : ١٤٧ ، والدر المنثور ١ : ٥٨ ، والشوكاني ١ : ٥٧ .
(٢) الخبر : ٧٧٧ — لم أجده بلفظه في مكان .
(٣) الأثر : ٧٧٨ — في ابن كثير ١ : ١٤٧ .
(٤) الأثر : ٧٧٩ — في ابن كثير ١ : ١٤٧ .

غضبك؟ قيل له : بلى. قال : ربّ هل كنتَ كتبتَ هذا عليّ؟ قيل له : نعم . قال : رب ، إن تبت وأصلحت ، هل أنت راجعي إلى الجنة ؟ قيل له : نعم . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[١] [سورة طه : ١٢٢] .

* * *

وقال آخرون بما :—

٧٨١ — حدثنا به محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، قال : حدثنا سفيان ، عن عبد العزيز بن رُفَيع ، قال : حدثنى من سمع عُبيد ابن عُمير يقول : قال : آدم : يا رب ، خطيئتى التى أخطأتُها ، أشىء كتبته علىّ قبل أن تخلقنى ، أو شىء ابتدعتُهُ من قبل نفسى؟ قال : بلى ، شىء كتبته عليك قبل أن أخلقك . قال : فكما كتبته علىّ فاغفره لى . قال: فهو قول الله: « فتلقَّى آدم من ربه كلمات »[٢] .

٧٨٢ — وحدثنا ابن سنان، قال: حدثنا مؤمَّل، قال: حدثنا سفيان ، عن عبد العزيز بن رُفيع ، قال : أخبرنى من سمع عُبيد بن عُمير ، بمثله .

٧٨٣ — وحدثنا ابن سنان، قال: حدثنا وكيع بن الجراح ، قال: حدثناسفيان، عن عبد العزيز بن رفيع ، عمن سمع عبيد بن عمير يقول : قال آدم : فذكر نحوه .

٧٨٤ — وحدثنا المثنى ، قال: حدثنا أبو نعيم، قال: حدثنا سفيان ، عن عبد العزيز بن رفيع ، قال أخبرنى من سمع عبيد بن عمير ، بنحوه .

٧٨٥ — وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا الثورى ، عن عبد العزيز ، عن عبيد بن عمير ، بمثله .

وقال آخرون بما :—

٧٨٦ — حدثنى به أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى ، قال: حدثنا عبد الرحمن

---

(١) الأثر : ٧٨٠ — لم أجده بنصه فى مكان .

(٢) الأثر : ٧٨١ — فى ابن كثير ١ : ٤٧ . والدر المنثور ١ : ٥٩ .

ابن شَريك ، قال: حدثنا أبي ، قال: حدثنا حصين بن عبد الرحمن ، عن حميد ابن نبهان ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، أنه قال : قوله : « فتلقى آدمُ من ربه كلمات فتاب عليه »، قال آدم : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك ، تب عليّ إنك أنت التواب الرحيم[1] .

٧٨٧ — وحدثني المثنى بن إبراهيم ، قال: حدثنا أبو غسان، قال : أنبأنا أبو زهير — وحدثنا أحمد بن إسحق الأهوازي ، قال : أخبرنا أبو أحمد ، قال : حدثنا سفيان، وقيس — جميعاً عن خُصَيف ، عن مجاهد في قوله: « فتلقى آدم من ربه كلمات»، قال قوله: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا»، حتى فرغ منها[2] .

٧٨٨ — وحدثني المثنى ،قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال: حدثني شبل ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد ، كان يقول في قول الله: « فتلقى آدم من ربه كلمات » الكلمات : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربي إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربّ إني ظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم[3] .

٧٨٩ — وحدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا أبي ،عن النضر بن عربي ، عن مجاهد : « فتلقى آدم من ربه كلمات » هو قوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا » الآية[4] .

٧٩٠ — وحدثنا القاسم، قال : حدثنا الحسين ، قال: حدثني حجاج ، عن

---

(١) الأثر : ٧٨٦ — لم أجده في مكان . وعبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ثقة ، مترجم في التهذيب ، وقال مصعب الزبيري : « وكان رجلا صالحاً » . وقال أبو زرعة : « معاوية ، وعبد الرحمن ، وخالد — بنو يزيد بن معاوية : كانوا صالحي القوم » . وأما الراوي عنه « حميد بن نبهان » فلم أجد له ترجمة ولا ذكراً ، وأخشى أن يكون محرفاً عن شيء لا أعرفه .

(٢) الأثر : ٧٨٧ — في ابن كثير ١ : ١٤٧ ، والدر المنثور ١ : ٥٩ ، والشوكاني ١ : ٥٨.

(٣) الأثر : ٧٨٨ — في ابن كثير ١ : ١٤٧ .

(٤) الأثر : ٧٨٩ — انظر الأثر السالف رقم : ٧٨٧ .

ابن جريج ، عن مجاهد : « فتلقى آدم من ربه كلمات »، قال : أى رب ، أتتوب علىّ إن تبت ؟ قال نعم . فتاب آدم ، فتاب عليه ربه[1] .

٧٩١ — وحدثنا الحسن بن يحيى ،قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات »، قال هو قوله : « ربنا ظَلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين[2] » .

٧٩٢ — حدثنى يونس، قال أخبرنا ابن وهب، قال قال ابن زيد: هو قوله : « ربنا ظَلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين[3] » .

* * *

وهذه الأقوال التى حكيناها عمن حكيناها عنه ، وإن كانت مختلفة الألفاظ ، فإن معانيها متفقة فى أن الله جل ثناؤه لقّى آدمَ كلماتٍ، فتلقّاهُنّ آدمُ من ربه فقبلهن وعمل بهن ، وتاب بقِيله إياهنّ وعمله بهنّ إلى الله من خطيئته ، معترفاً بذنبه ، متنصِّلاً إلى ربه من خطيئته ، نادماً على ما سلف منه من خلاف أمره ، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التى تلقاهن منه ، وندمه على سالف الذنب منه . ١٩٥/١

والذى يدل عليه كتابُ الله ، أن الكلمات التى تلقاهنّ آدمُ من ربه، هن الكلمات التى أخبر الله عنه أنه قالها متنصِّلا بقيلها إلى ربه ، معترفاً بذنبه ، وهو قوله: « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ». وليس ما قاله من خالف قولنا هذا — من الأقوال التى حكيناها — بمدفوع قوله ، ولكنه قولٌ لا شاهد عليه من حجة يجب التسليم لها، فيجوز لنا إضافته إلى آدم ، وأنه مما تلقاه من ربّه عند إنابته إليه من ذنبه . وهذا الخبر الذى أخبر الله عن آدم — من قيله الذى لقّاه إياه فقاله تائباً إليه من خطيئته — تعريف منه جل ذكره جميعَ المخاطبين

(١) الأثر : ٧٩٠ — لم أجده فى مكان .
(٢) الأثر : ٧٩١ — فى ابن كثير ١ : ١٤٧ ، والدر المنثور ١ : ٥٩ .
(٣) الأثر : ٧٩٢ — فى ابن كثير ١ : ١٤٧ ، والدر المنثور ١ : ٥٩ ، ومضى رقم : ٧٧٤

بكتابه ، كيفية التوبة إليه من الذنوب[1]، وتنبيهٌ للمخاطبين بقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨] ، على موضع التوبة مما هم عليه من الكفر بالله، وأنّ خلاصهم مما هم عليه مُقيمون من الضلالة، نظير خلاص أبيهم آدم من خطيئته ، مع تذكيره إياهم به السالفَ إليهم من النعم التى خصَّ بها أباهم آدم وغيرَه من آبائهم .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

قال أبو جعفر : وقوله « فتاب عليه »، يعنى : على آدم . والهاء التى فى « عليه » عائدة على آدم . وقوله : « فتاب عليه »، يعنى رزَقه التوبة من خطيئته. والتوبة معناها الإنابة إلى الله ، والأوبةُ إلى طاعته مما يَكرَهُ من معصيته .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل قوله: « إنه هو التواب الرحيم »، أن الله جل ثناؤه هو التوّاب على من تاب إليه — من عباده المذنبين — من ذنوبه ، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه . وقد ذكرنا أن معنى التوبة من العبد إلى ربّه، إنابتُه إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يَسْخَطه من الأمور التى كان عليها مقيماً مما يكرهه ربه . فكذلك توبة الله على عبده، هو أن يرزقه ذلك،

---

(١) فى المخطوطة : « التوبة من الذنوب » ، بالحذف .

ويؤوب له من غضبه عليه إلى الرضا عنه[1] ، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه .

* * *

وأما قوله : « الرحيم » ، فإنه يعنى أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة . ورحمته إياه ، إقالة عثرته ، وصفحه عن عقوبة جُرمه .

* * *

قال أبو جعفر : وقد ذكرنا القول فى تأويل قوله : « قلنا اهبطوا منها جميعاً » فيما مضى ،[2] فلا حاجة بنا إلى إعادته ، إذْ كان معناه فى هذا الموضع ، هو معناه فى ذلك الموضع .

٧٩٣ — وقد حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا هشيم ، قال : أخبرنا إسمعيل بن سالم ، عن أبى صالح ، فى قوله : « اهبطوا منها جميعاً » ، قال : آدم وحواء والحية وإبليس[3] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل قوله : فإما يأتينكم » ، فإنْ يَأتكم . و « ما » التى مع « إن » توكيدٌ للكلام ، ولدخولها مع « إن » أدخلت النون المشددة فى « يأتينَّكم » ، تفرقةً بدخولها بين « ما » التى تأتى بمعنى توكيد الكلام — التى تسميها أهل العربية صلة وَحشواً — وبين « ما » التى تأتى بمعنى « الذى » ، فتؤذِن بدخولها فى الفعل ، أنّ « ما » التى مع « إن » التى بمعنى الجزاء ، توكيد ، وليست « ما » التى بمعنى « الذى » .

وقد قال بعض نحويى أهل البصرة[4] : إنّ «إمَّا» ، «إن» زيدت معها «ما» ،

---

(١) فى المطبوعة : « ويؤوب من غضبه عليه » ، بالحذف .

(٢) انظر ص : ٥٣٤ .

(٣) الأثر : ٧٩٣ — لم أجده بهذا الإسناد ، وانظر ، ما مضى الأرقام : ٧٥٤ وما بعده .

(٤) فى المطبوعة : « نحويى البصريين » .

وصار الفعل الذي بعده بالنون الخفيفة أو الثقيلة ، وقد يكون بغير نون . وإنما حسنت فيه النون لمّا دخلته « ما »، لأن « ما » نفيٌ، فهي مما ليس بواجب، وهي الحرف الذي ينفي الواجب، فحسنت فيه النون، نحو قولهم: «بعينٍ مَّا أرَينَّك»، حين أدخلت فيها « ما » حسنت النون فيما ههنا .

وقد أنكرت جماعة من أهل العربية دعوى قائل هذه المقالة[1] : أن « ما » التي مع « بعينٍ ما أرَينَّك » بمعنى الجحد ، وزعموا أن ذلك بمعنى التوكيد للكلام .

وقال آخرون : بل هو حشو في الكلام، ومعناها الحذف، وإنما معنى الكلام: « بعين أراك »، وغير جائز أن يُجعل مع الاختلاف فيه أصلا يُقاس عليه غيره .

• • •

القول في تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨)

قال أبو جعفر : والهدى، في هذا الموضع ، البيان والرشاد . كما :—

٧٩٤ — حدثنا المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم العسقلاني قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، في قوله : « فإما يأتينكم مني هُدًى » قال : الهدى ، الأنبياءُ والرسل والبيان[2] . ١٩٦/١

فإن كان ما قال أبو العالية في ذلك كما قال ، فالخطاب بقوله : «اهبطوا»، وإن كان لآدم وزوجته ، فيجب أن يكون مراداً به آدمُ وزوجتُه وذريتُهما. فيكون ذلك حينئذ نظيرَ قوله : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [سورة فصلت : ١١] ، بمعنى أتينا بما فينا من الخلق طائعين ، ونظيرَ قوله في قراءة

(١) في المطبوعة : « وقد أنكر جماعة . . . دعوى قائل . . . »

(٢) الأثر : ٧٩٤ — في ابن كثير ١ : ١٤٨ ، والدر المنثور ١ : ٦٣ ، والشوكاني ١ : ٥٨.

ابن مسعود : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ﴾ [سورة البقرة : ١٢٨] ، فجمع قبل أن تكون ذريةٌ ، وهو فى قراءتنا « وأرنا مناسكنا ». وكما يقول القائل لآخر : « كأنك قد تزوجت وولد لك ، وكثرتم وعززتم » ، ونحو ذلك من الكلام .

وإنما قلنا إن ذلك هو الواجب على التأويل الذى ذكرناه عن أبى العالية ، لأنّ آدمَ كان هو النبيَّ أيام حياته بعد أن أُهبط إلى الأرض[١] ، والرسولَ من الله جل ثناؤه إلى ولده . فغير جائز أن يكونَ معنيًّا — وهو الرسولُ صلى الله عليه — بقوله : « فإما يأتينّكم منّى هُدًى » ، خطاباً له ولزوجته ، « فإما يأتينكم منى أنبياءُ ورسل »[٢] إلا على ما وصفتُ من التأويل .

وقول أبى العالية فى ذلك — وإن كان وجهاً من التأويل قد تحتمله الآية — فأقرب إلى الصواب منه عندى وأشبهُ بظاهر التلاوة ، أن يكون تأويلها : فإما يأتينكم يا معشرَ من أُهبط إلى الأرض من سمائى[٣] ، وهو آدمُ وزوجته وإبليس — كما قد ذكرنا قبل فى تأويل الآية التى قبلها — إما يأتينكم منىَّ بيانٌ من أمرى وطاعتى ، ورشاد إلى سبيلى ودينى ، فمن اتبعه منكم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وإن كان قد سلف منهم قبل ذلك إلىَّ معصية وخلافٌ لأمرى وطاعتى . يعرّفهم بذلك جل ثناؤه أنه التائبُ على من تاب إليه من ذنوبه ، والرحيمُ لمن أناب إليه ، كما وصف نفسه بقوله : « إنه هو التّواب الرحيم » .

وذلك أن ظاهر الخطاب بذلك إنما هو للذين قال لهم جل ثناؤه : « اهبطوا منها جميعاً » ، والذين خوطبوا به هم من سمّينا فى قول الحجة من الصحابة والتابعين الذين قد قدّمنا الرواية به عنهم[٤] . وذلك ، وإن كان خطاباً من الله جل ذكره لمن أُهبط

---

(١) فى المطبوعة : « هو النبى صلى الله عليه وسلم » .
(٢) فى المطبوعة : « . . . منى هدى أنبياء ورسل . . . . » .
(٣) فى المطبوعة : « فإما يأتيكم منى يا معشر من أهبطته . . . . » .
(٤) فى المطبوعة : « الرواية عنهم » بالحذف .

حينئذٍ من السماء إلى الأرض ، فهو سنّة الله فى جميع خلقه ، وتعريفٌ منه بذلك الذين أخبر عنهم فى أول هذه السورة بما أخبر عنهم فى قوله[1] : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٦] ، وفى قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة : ٨] ، وأنّ حكمه فيهم — إن تابوا إليه وأنابوا واتبعوا ما أتاهم من البيان من عند الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم — أنهم عنده فى الآخرة ممن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأنهم إن هلكوا على كُفرهم وضلالتهم قبل الإنابة والتوبة ، كانوا من أهل النار المخلَّدين فيها .

وقوله : « فمن تَبعَ هُدَاىَ » ، يعنى : فمن اتبع بَيانى الذى آتيتُه على ألسن رُسلى ، أو مع رسلى[2] . كما : —

٧٩٥ — حدثنا به المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « فمن تَبع هُدَاى » ، يعنى بيانى[3] .

* * *

وقوله : « فلا خوفٌ عليهم » ، يعنى فهم آمنون فى أهوال القيامة من عقاب الله ، غير خائفين عذابه ، بما أطاعوا الله فى الدنيا واتبعوا أمرَه وهُداه وسبيله ، ولا هم يحزنون يومئذ على ما خلّفوا بعد وفاتهم فى الدنيا . كما : —

٧٩٦ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال قال ابن زيد : « لا خوفٌ عليهم » ، يقول : لا خوف عليكم أمامكم[4] .

وليس شىء أعظمَ فى صدر الذى يموت ممّا بعد الموت . فأمّنهم منه وَسلاّهم عن الدنيا فقال : « ولا هم يحزنون » .

---

(١) فى المطبوعة : « وتعريف منه بذلك للذين » .
(٢) فى المطبوعة : « . . . بيانى الذى أبينه على ألسن رسلى » .
(٣) الأثر : ٧٩٥ — لم أجده فى مكان .
(٤) الأثر : ٧٩٦ — لم أجده فى مكان .

وقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣٩)

يعني : والذين جَحدوا آياتي وكذّبوا رسلي. وآيات الله: حُجَجه وأدلتُه على وحدانيّته وربوبيّته ، وما جاءت به الرُّسُل من الأعلام والشواهد على ذلك، وعلى صدقها فيما أنبأتْ عن ربّها . وقد بيّنا أن معنى الكفر ، التغطيةُ على الشيء[1] .

« أولئك أصحاب النار » ، يعني : أهلُها الذين هم أهلها دون غيرهم ، المخلدون فيها أبداً إلى غير أَمد ولا نهاية . كما : —

١٩٧/١ ٧٩٧ — حدثنا به عُقبة بن سنان البصري ، قال : حدثنا غَسان بن مُضَر ، قال حدثنا سعيد بن يزيد — وحدثنا سَوَّار بن عبد الله العنبري ، قال : حدثنا بشر بن المفضل ، قال: حدثنا أبو مَسْلَمَة سعيد بن يزيد — وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، وأبو بكر بن عون، قالا: حدثنا إسمعيل بن عُلَيّة ، عن سعيد بن يزيد — عن أبي نَضْرة ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن، ولكن أقواماً أصابتْهم النارُ بخطاياهم أو بذنوبهم ، فأماتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحماً ، أُذِنَ في الشفاعة[2] .

---

(١) انظر ما مضى ص : ٢٥٥

(٢) الحديث : ٧٩٧ — رواه الطبري هنا بثلاثة أسانيد ، تنتهي إلى سعيد بن يزيد . وذكره ابن كثير ١ : ١٥٨ ، ولكنه سها فذكر أنه رواه من طريقين ، وهي ثلاثة كما ترى :

و « عقبة بن سنان بن عقبة بن سنان البصري » — شيخ الطبري في الإسناد الأول : ثقة ، سمع منه أبو حاتم ، وقال : « صدوق » . ولم أجد له ترجمة إلا في الجرح والتعديل ٣ / ١ / ٣١١ . و « غسان بن مضر الأزدي البصري » : ثقة من شيوخ أحمد القدماء ، وقال أحمد : « شيخ ثقة ثقة » . وترجمه البخاري في الكبير ١٠٧/١/٤ ، وابن أبي حاتم ٥١/٢/٣ . و « أبو بكر بن عون » — شيخ الطبري في الإسناد الثالث : لم أستطع أن أعرف من هو ؟ ولا أثر لذلك في الإسناد ، فإن الطبري رواه عنه وعن يعقوب بن إبراهيم الدورقي ، كلاهما عن ابن علية . و « سعيد بن يزيد بن مسلمة أبو مسلمة الأزدي

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « يابنى إسرائيل » ولد يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم خليل الرحمن[1] وكان يعقوب يدعى « إسرائيل » ، بمعنى عبد الله وصفوته من خلقه . و« إيل » هو الله ، و« إسرا » هو العبد ، كما قيل : « جبريل » بمعنى عبد الله . وكما :—

٧٩٨ — حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير ، عن الأعمش عن إسمعيل بن رجاء ، عن عُمير مولى ابن عباس، عن ابن عباس : أن إسرائيل كقولك : عبد الله[2]

٧٩٩ — وحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا جرير ، عن الأعمش، عن المنهال ، عن عبد الله بن الحارث ، قال : « إيل » ، الله بالعبرانية[3] .

البصرى » : تابعى ثقة ، روى له الجماعة . وترجمه البخارى ٢ / ١ / ٤٧٦ ، وابن أبى حاتم ٢ / ١ / ٧٣ . وكنيته « أبومسلمة » بالميم فى أولها . ووقع فى تفسير ابن كثير « أبو سلمة » بحذفها ، وهو خطأ مطبعى.

وهذا الحديث رواه مسلم ١ : ٦٧ — ٦٨ ، وابن ماجة : ٤٣٠٩ — كلاهما من طريق بشر بن المفضل ، عن سعيد بن يزيد أبى مسلمة ، به . ولكنه عندهما أطول مما هنا . ولم يروه من أصحاب الكتب الستة غيرهما ، كما يدل على ذلك تخريجه فى جامع الأصول لابن الأثير : ٨٠٨٥ . وكذلك رواه الإمام أحمد فى المسند : ١١٠٩٣ (٣ : ١١ حلبى) عن ابن علية . ورواه أيضاً أحمد: ١١٧٦٩ (٣ : ٧٨ — ٧٩) ، ومسلم ١ : ٦٨ — كلاهما من طريق شعبة ، عن سعيد بن يزيد .

وهو فى الحقيقة جزء من حديث طويل ، ورواه أحمد فى المسند ، مطولا ومختصراً ، من أوجه ، عن أبى نضرة ، منها : ١١٠٢٩ ، ١١١٦٨ ، ١١٢١٨ — ١١٢٢٠ (٣ : ٥ ، ٢٠ ، ٢٥ — ٢٦ حلبى) .

(١) فى المطبوعة : « يا ولد يعقوب . . . » بزيادة النداء .

(٢) الخبر : ٧٩٨ — فى ابن كثير ١ : ١٤٩ ، والدر المنثور ١ : ٦٣ . وهذا إسناد صحيح . إسمعيل بن رجاء بن ربيعة : ثقة ، أخرج له مسلم فى صحيحه . عمير مولى ابن عباس : هو عمير بن عبد الله الهلالى ، مولى أم الفضل ، وقد ينسب إلى ولاء زوجها « العباس » ، كما ورد فى إسناد حديث آخر فى المسند : ٧٧ ، وقد ينسب إلى ولاء بعض أولادها ، كما فى هذا الإسناد . وهو تابعى ثقة ، ترجمه ابن أبى حاتم ٣ / ١ / ٣٨٠ ، وأخرج له الشيخان وغيرهما .

(٣) الأثر : ٧٩٩ — فى الدر المنثور ١ : ٦٣ . و « المنهال » : هو ابن عمرو الأسدى . و « عبد الله بن الحارث » : هو الأنصارى البصرى أبو الوليد ، وهو تابعى ثقة .

وإنما خاطب الله جل ثناؤه بقوله: «يابنى إسرائيل» أحبارَ اليهود من بنى إسرائيل، الذين كانوا بين ظَهرانَىْ مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنسبهم جل ذكره إلى يعقوب، كما نسب ذرية آدم إلى آدم، فقال: ﴿ يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [سورة الأعراف : ٣١] وما أشبه ذلك. وإنما خصّهم بالخطاب فى هذه الآية والتى بعدها من الآى التى ذكّرهم فيها نعمتَه — وإن كان قد تقدّم ما أنزل فيهم وفى غيرهم فى أول هذه السورة ما قد تقدم — أن الذى احتج به من الحجج والآيات التى فيها أنباء أسلافهم، وأخبارُ أوائلهم، وقَصَصُ الأمور التى هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثلُ الذى لهم من العلم به، إلا لمن اقتبس علم ذلك منهم. فعرّفهم بإطلاع محمّد على علمها — مع بعد قومه وعشيرته من معرفتها، وقلّة مزاولة محمد صلى الله عليه وسلم دراسةَ الكتب التى فيها أنباء ذلك[1] — أن محمداً صلى الله عليه وسلم

(١) قوله : «وقلة مزاولة محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الكتب . . .» ، هو كما نقول اليوم فى عبارتنا المحدثة : «وعدم مزاولة محمد . . .» . قال الجاحظ فى البيان والتبيين ١ : ٢٨٥ : «واستجار عون ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود، بمحمد بن مروان بنصيبين ، وتزوج بها امرأة فقال محمد : كيف ترى نصيبين ؟ قال : «كثيرة العقارب ، قليلة الأقارب» . يريد بقوله : «قليلة» ، كقول القائل : «فلان قليل الحياء» ، وليس يريد أن هناك حياء وإن قل . يضعون : «قليلا» فى موضع «ليس» . انتهى .

قلت : ومنه قول دريد بن الصمة فى أخيه :

قليلُ التشكّى للمصيبات ، حافظٌ مِنَ اليومِ أعقابَ الأحاديث فى غدِ

وسيأتى قول الطبرى فى تفسير قوله تعالى من (سورة البقرة : ٨٨) «فقليلا ما يؤمنون» : (١ : ٣٢٤ ، بولاق) : «وإنما قيل : فقليلا ما يؤمنون ، وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب : «قلما رأيت مثل هذا قط» . وقد روى عنها سماعاً منها : «مررت ببلاد قلما تنبت إلا الكراث والبصل» ، يعنى ما تنبت غير الكراث والبصل ، وما أشبه ذلك من الكلام الذى ينطق به بوصف الشىء بالقلة ، والمعنى فيه نفى جميعه» ، انتهى .

وفى الحديث : «إنه كان يقل اللغو» أى لا يلغو أصلا ، قال ابن الأثير : وهذا اللفظ يستعمل فى نفى أصل الشىء (اللسان : قلل) .

ولولا زمان فسد فيه اللسان ، وقل الإيمان ، واشتدت بالمتهجمين الجرأة على تفسير الكلمات ، وتصيد الشبهات — ولولا أن يقول قائل فيفترى على الطبرى أنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدارس كتب أهل الكتاب ، لكنت فى غنى عن مثل هذه الإطالة .

لم يَصلْ إلى علم ذلك إلا بوحى من الله وتنزيلٍ منه ذلك إليه — لأنهم من علمْ صحة ذلك بمحلّ ليس به من الأمم غيرهم ، فلذلك جل ثناؤه خص بقوله : « يا بنى إسرائيل» خطابَهم . كما :—

٨٠٠ — حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قوله : « يا بنى إسرائيل » ، قال : يا أهل الكتاب ، للأحبار من يهود[1] .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : ونعمته التى أنعم بها على بنى إسرائيل جلّ ذكره ، اصطفاؤه منهم الرسلَ ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاذُه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضَّرَّاء من فرعون وقومه ، إلى التمكين لهم فى الأرض ، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المنّ والسلوى . فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلَف منه إلى آبائهم على ذُكْرٍ ، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم ، فيحلّ بهم من النقم ما أحلّ بمن نسي نعمتَه عنده منهم وكفرها ، وجحد صنائعه عنده . كما :—

٨٠١ — حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « اذكروا نعمتيِ التى أنعمتُ عليكم » ، أى آلائى عندكم وعند آبائكم ، لما كان نجّاهم به من فرعون وقومه[2] .

٨٠٢ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن

(١) الأثر ٨٠٠ — فى الدر المنثور ١ : ٦٣ ، والشوكانى ١ : ٦١ بتمامه . وسيأتى تمامه فى الأثر التالى .

(٢) الأثر : ٨٠١ — من تمام الأثر السالف ، المراجع السالفة ، وابن كثير ١ : ١٤٩ .

الربيع ، عن أبى العالية ، فى قوله : « اذكروا نعمتى » ، قال : نعمتُه أنْ جعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب(١) .

٨٠٣ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » ، يعنى نعمتَه التى أنعم على بنى إسرائيل ، فيما سمى وفيما سوَى ذلك : فجَّر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، وأنجاهم من عبودية آل فرعون(٢) .

٨٠٤ — وحدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال قال ابن زيد فى قوله : « نعمتى التى أنعمت عليكم » قال : نعمه عامة ، ولا نعمةَ أفضلُ من الإسلام ، والنعم بعدُ تبع لها ، وقرأ قول الله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٣) [سورة الحجرات : ١٧]

١٩٨/١

وتذكيرُ الله الذين ذكرَّهم جل ثناؤه بهذه الآية من نعمه على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، نظيرُ تذكير موسى صلوات الله عليه أسلافَهم على عهده ، الذى أخبر الله عنه أنه قال لهم ، وذلك قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٠] .

• •

---

(١) الأثر : ٨٠٢ — فى ابن كثير ١ : ١٤٩ .
(٢) الأثر : ٨٠٣ — فى ابن كثير ١ : ١٤٩ وفيه : « وفيما سوى ذلك : أن فجر » ، بالزيادة .
(٣) الأثر : ٨٠٤ — لم أجده فى مكان .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : قد تقدم بياننا فيما مضى — عن معنى العهد — من كتابنا هذا[1] ، واختلاف المختلفين فى تأويله ، والصوابُ عندنا من القول فيه[2] . وهو فى هذا الموضع : عهدُ الله ووصيته التى أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة ، أن يبيِّنوا للناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسولٌ ، وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة أنه نبيّ الله ، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله .

«أوف بعهدكم» : وعهدُه إياهم أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ١٢] ، وكما قال : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا

---

(١) انظر ما مضى : ٤١٠ — ٤١٥ .

(٢) فى المطبوعة : « قد تقدم بياننا معنى العهد فيما مضى من كتابنا . . . » ، غيروه ليستقيم الكلام على ما ألفوه .

النورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] [سورة الأعراف : ١٥٦، ١٥٧].

٨٠٥ — وكما حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « وأوفوا بعهدى» الذى أخذتُ فى أعناقكم للنبىّ محمد إذا جاءكم،[2] « أوف بعهدكم » ، أى أنجزْ لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصْر والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم[3] .

٨٠٦ — وحدثنا المثنى ، قال : حدثنا آدم، قال حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله : « أوْفوا بعهدى أوفِ بعهدكم »، قال : عهدُه إلى عباده، دينُ الإسلام أن يتبعوه ، « أوف بعهدكم » ، يعنى الجنة[4] .

٨٠٧ — وحدثنا موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : «أوفوا بعهدى أوف بعهدكم » : أما « أوفوا بعهدى»، فما عهدت إليكم فى الكتاب . وأما « أوف بعهدكم » فالجنة ، عهدتُ إليكم أنكم إن عملتم بطاعتى أدخلتكم الجنة[5].

٨٠٨ — وحدثنى القاسم، قال : حدثنا الحسين، قال : حدثنى حجاج ، عن ابن جريج، فى قوله : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم »، قال : ذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى المائدة : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ

---

(١) فى الأصول : « . . . اثنى عشر نقيباً ، الآية » . و « النبى الأمى ، الآية » . وآثرنا إتمام الآيتين ، كما جرينا عليه فيما سلف ، وفيما سيأتى .
(٢) فى المطبوعة : « ... للنبى صلى الله عليه وسلم إذا جاءكم ... » ، وفى المراجع الأخرى .
(٣) الأثر : ٨٠٥ — من تمام الأثر السالف رقم : ٨٠٠ ، ورقم ٨٠١، ومراجعه ما سلف .
(٤) الأثر : ٨٠٦ — فى ابن كثير ١ : ١٥٠ .
(٥) الأثر : ٨٠٧ — فى ابن كثير ١ : ١٥٠ تضميناً .

نقيباً ﴾ إلى آخر الآية [سورة المائدة : ١٢] . فهذا عهدُ الله الذى عهد إليهم، وهو عهد الله فينا ، فمن أوفى بعهد الله وفّى الله له بعهده[1] .

٨٠٩ — وحُدِّثت عن المنجاب ، قال : حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، فى قوله « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » ، يقول : أوفوا بما أمرتكم به من طاعتى ونهيتكم عنه من معصيتى فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى غيره ، « أوف بعهدكم » ، يقول : أرض عنكم وأدخلكم الجنة[2] .

٨١٠ — وحدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال قال ابن زيد فى قوله : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » ، قال : أوفوا بأمرى أوفِ بالذى وعدتكم ، وقرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ حتى بلغ ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ [سورة التوبة : ١١١] ، قال : هذا عهده الذى عهده لهم[3] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (٤٠)

قال أبو جعفر : وتأويل قوله : « وإياى فارهبون » ، وإياى فاخْشَوْا — واتَّقُوا أيها المضيِّعون عهدى من بنى إسرائيل ، والمكذبون رسولى الذى أخذتُ ميثاقكم — فيما أنزلتُ من الكتُب على أنبيائى — أن تؤمنوا به وتتبعوه — أن أُحِلَّ بكمْ من عقوبتى ، إن لم تنيبوا وتتوبوا إلىّ باتباعه والإقرار بما أنزلت إليه ، ما أحللتُ بمن خالف أمرى وكذّب رُسلى من أسلافكم . كما :—

٨١١— حدثنى به محمد بن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ،

---

(١) الأثر : ٨٠٨ — لم أجده بنصه فى مكان .
(٢) الأثر : ٨٠٩ — فى ابن كثير ١ : ١٥٠ ، الدر المنثور ١ : ٦٣ ، والشوكانى ١ : ٦١ .
(٣) الأثر ٨١٠ — لم أجده فى مكان .

عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « وإيايَ فارهبون » ، أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النَّقِمات التي قد عرفتم ، من المسخ وغيره[١] . ١٩٩/١

٨١٢ - وحدثنا المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثني آدم العسقلاني ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، في قوله : « وإياى فارَهبُون » ، يقول : فاخشَوْن .

٨١٣ - وحدثني موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : « وإياى فارهبون » ، يقول : وإياى فاخشون[٢] .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه : « آمنوا » ، صدِّقوا ، كما قد قدمنا البيان عنه قبل[٣] . ويعني بقوله « بما أنزلت » ، ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن. ويعني بقوله . «مصدِّقاً لما معكم»، أن القرآن مصدِّق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة . فأمرهم بالتصديق بالقرآن ، وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة ، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه واتباعه ، نظيرُ الذي من ذلك في التوراة والإنجيل . ففي تصديقهم بما

---

(١) الأثر : ٨١٢ - من تمام الآثار السالفة الأرقام : ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٥ . وابن كثير ١ : ١٥٠ من تمام ما سلف في ص ١٤٩ . المراجع المذكورة .

(٢) الأثر : ٨١٣ - في ابن كثير ١ : ١٥٠ .

(٣) انظر ما مضى : ٢٣٤ ، ٢٣٥

أنزل على محمد تصديقٌ منهم لما معهم من التوراة، وفى تكذيبهم به تكذيبٌ منهم لما معهم من التوراة .

وقوله: « مصدقاً »، قطع من الهاء المتروكة فى «أنزلته» من ذكر «ما»[1] . ومعنى الكلام وآمنوا بالذى أنزلته مصدقاً لما معكم أيها اليهود ، والذى معهم : هو التوراة والإنجيل . كما : —

٨١٤ — حدثنا به محمد بن عمرو الباهلى، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، فى قول الله : « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم » ، يقول : إنما أنزلت القرآن مصدقاً لما معكم التوراة والإنجيل[2] .

٨١٥ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

٨١٦ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم، قال: أخبرنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم » ، يقول : يامعشر أهل الكتاب ، آمنوا بما أنزلت على محمّد مصدقاً لما معكم . يقول: لأنهم يجدون محمّداً صلى الله عليه وسلم مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل[3] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : كيف قيل: « ولا تكونوا أول كافر به »،

---

(١) قوله « قطع » ، أى حال . وانظر ما سلف ص ٢٣٠ : تعليق : ٤، وص ٣٣٠ تعليق : ١ .
(٢) الأثر : ٨١٤ — فى ابن كثير ١ : ١٥٠ تضميناً ، والدر المنثور ١ : ٢٦٤ ، والشوكانى ١ : ٦١ .
(٣) الأثر : ٨١٥ — فى ابن كثير ١ : ١٥٠، والدر المنثور ١ : ٦٤ ، والشوكانى ١ : ٦١.

والخطاب فيه لجميع[1] ، وقوله : « كافر » واحد ؟ وهل نجيز — إن كان ذلك جائزاً — أن يقول قائل : « ولا تكونوا أول رُجل قام » ؟

قيل له : إنما يجوز توحيد ما أضيف له « أفعل » وهو خبر لجميع[1] ، إذا كان اسماً مشتقاً من «فعل ويفعل » ، لأنه يؤدّى عن المرادِ معه المحذوفَ من الكلام وهو « مَنْ » ، ويقوم مقامه فى الأداء عن معنى ما كان يؤدى عنه « مَنْ » من الجمع والتأنيث ، وهو فى لفظ واحد . ألا ترى أنك تقول : ولا تكونوا أوَّلَ من يكفر به . « فن » بمعنى جميع[1] ، وهو غير متصرف تصرفَ الأسماء للتثنية والجمع والتأنيث. فإذا أقيم الاسمُ المشتق من « فعل ويفعل » مُقَامه ، جرى وهو موحّد مجراه فى الأداء عما كان يؤدى عنه « مَنْ » من معنى الجمع والتأنيث ، كقولك : « الجيش مُنهزِم» ، «والجند مقبلٌ»[2] ، فتوحّد الفعلَ لتوحيد لفظ الجيش والجند . وغير جائز أن يقال : « الجيش رجل ، والجند غلام » ، حتى تقول : « الجند غلمان والجيش رجال» . لأن الواحد من عدد الأسماء التى هى غير مشتقة من «فعل ويفعل » ، لا يؤدّى عن معنى الجماعة منهم ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَإِذَاهُمُ طَعِمُوا فَأَلْأَمُ طَاعِمٍ وَإِذاهُمُ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعِ[3]

فوحّد مَرّةً على ما وصفتُ من نية «مَنْ» ، وإقامة الظاهر من الاسم الذى هو مشتق من « فعل ويفعل » مقامه ، وجمع أخرى على الإخراج على عدد أسماء

---

(١) فى المطبوعة فى المواضع الثلاثة : « لجمع . . . لجمع . . . جمع » .

(٢) فى المطبوعة . « الجيش ينهزم ، والجند يقبل » ، وهو خطأ صرف .

(٣) نوادر أبى زيد : ١٥٢ ، لرجل جاهلى ، ومعانى القرآن للفراء ١ : ٣٣ ، وهى ثلاثة أبيات نوادر ، وقبله :

ومُوَيْلكٌ زمعُ الكِلابِ يَسُبُّنِي فَسَماعِ أَسْتَاهَ الكلابِ سَمَاعِ

هَلْ غير عَذوِكُمُ عَلَىَّ جارَاتكمْ لبطُونِكمْ مَلثَ الظَّلامِ دَوَاعِي

وقوله : « طعموا » أى شبعوا ، فهم عندئذ ألأم من شبع . وفى الحديث : « طعام الواحد يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة » ، يعنى شبع الواحد قوت الاثنين ، وشبع الاثنين قوت الأربعة .

المخبر عنهم ، ولو وحَّد حيث جمع ، أو جمع حيث وحَّد ، كان صواباً جائزاً[١] .

وأما تأويل ذلك[٢] ، فإنه يعنى به : يا معشر أحبار أهل الكتاب ، صدِّقوا بما أنزلتُ على رسولى محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن المصدِّق كتابكم والذى عندكم من التوراة والإنجيل ، المعهود إليكم فيهما أنه رسولى ونبيِّىَ المبعوثُ بالحق ، ولا تكونوا أوَّل أمتكُمْ كذَّبَ به[٣] وجحد أنه من عندى ، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم . ١/٢٠٠

وكفرهم به : جُحودهم أنه من عند الله[٤] . والهاء التى فى « به » من ذكر « ما » التى مع قوله « وآمنوا بما أنزلت » . كما : —

٨١٧ — حدثنى القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنا حجاج ، قال قال ابن جريج ، فى قوله : « ولا تكونوا أول كافر به » ، بالقرآن[٥] .

قال أبو جعفر : وروى عن أبى العالية فى ذلك ، ما :—

٨١٨ — حدثنى به المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « ولا تكونوا أول كافر به » ، يقول : لا تكونوا أوّل من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم[٦] .

وقال بعضهم : « ولا تكونوا أول كافر به » ، يعنى : بكتابكم . ويتأول أنّ فى تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم تكذيباً منهم بكتابهم ، لأن فى كتابهم الأمرَ باتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذان القولان من ظاهر ما تدلّ عليه التلاوة بعيدانِ . وذلك أن الله جل ثناؤه

---

(١) انظر مثل ما قال الطبرى فى معانى القرآن للفراء ١ : ٣٢ — ٣٣ .

(٢) فى المطبوعة : « فأما . . . » بالفاء .

(٣) فى المطبوعة : « أول من كذب به » ، والذى أثبتناه هو صواب بيان الطبرى .

(٤) فى المخطوطة : « وكفرهم به وجحودهم . . . » وهو خطأ .

(٥) الأثر : ٨١٧ — فى الدر المنثور ١ : ٦٤ ، والشوكانى ١ : ٦١ .

(٦) الأثر : ٨١٨ — فى ابن كثير ١ : ١٥٠ ، والدر المنثور ١ : ٦٤ ، والشوكانى ١ : ٦١ .

أمر المخاطبين بهذه الآية فى أولها بالإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال جل ذكره : «وآمِنُوا بما أنزلتُ مصدقاً لما معكم» . ومعقول أن الذى أنزله الله فى عصر محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن لا محمد ، لأن محمداً صلوات الله عليه رسولٌ مرسل ، لا تنزيلٌ مُنْزَل ، والمنْزَل هو الكتاب . ثم نهاهم أن يكونوا أوّل من يكفر بالذى أمرهم بالإيمان به فى أول الآية[1] . ولم يجر لمحمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية ذكرٌ ظاهر ، فيعاد عليه بذكره مكنيًّا فى قوله : «ولا تكونوا أول كافر به» — وإن كان غير محال فى الكلام أن يُذْكر مكنىٌّ اسمٍ لم يَجْرِ له ذكرٌ ظاهر فى الكلام[2] .

وكذلك لا معنى لقول من زعم أنّ العائد من الذكر فى « به » على « ما » التى فى قوله « لما معكم » . لأن ذلك ، وإن كان محتمَلاً ظاهرَ الكلام[3] ، فإنه بعيدٌ مما يدل عليه ظاهر التلاوة والتنزيل ، لما وصفنا قبل من أن المأمور بالإيمان به فى أول الآية هو القرآن . فكذلك الواجب أن يكون المنهىُّ عن الكفر به فى آخرها هو القرآن[4] . وأما أن يكون المأمور بالإيمان به غيرَ المنهىّ عن الكفر به ، فى كلام واحد وآية واحدة ، فذلك غير الأشهر الأظهر فى الكلام . هذا مع بُعْد معناه فى التأويل[5] .

٨١٩ — حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد

---

(١) فى المطبوعة زيادة بين هاتين الجملتين ، وهى مقحمة مفسدة للكلام نابية فى السياق . ونصها « . . . فى أول الآية من أهل الكتاب ، فذلك هو الظاهر المفهوم . ولم يجر لمحمد . . . » .

(٢) بيان الطبرى جيد محكم ، وإن ظن بعض من نقل كلامه أن كلا القولين صحيح ، لأنهما متلازمان . لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كفر بالقرآن (ابن كثير ١ : ١٥٠) . ونعم ، كلا القولين صحيح المعنى فى ذاته ، ولكن الطبرى يحدد دلالة الألفاظ والضمائر فى الآية ، ويعين ما يحتمله ظاهر التلاوة والتنزيل ، ويخلص معنى من معنى ، وإن كان كلاهما صحيحاً فى العقل ، صحيحاً فى الحكم ، صحيحاً فى الدين . وما أكثر ما يتساهل الناس إذا تقاربت المعانى ، ولا يخلص معنى من معنى إلا بصير بالعربية كأبى جعفر رضى الله عنه .

(٣) فى المطبوعة : « محتمل ظاهر الكلام » .

(٤) فى المخطوطة : « . . . أن الأمر بالإيمان به فى أول الآية . . . أن يكون النهى عن الكفر به فى آخرها . . . » ، والذى فى المطبوعة أجود وأبين .

(٥) وهذا أيضاً من جيد البصر ؛ بمنطق العربية ، وإن ظنه بعضهم قريباً من قريب .

ابن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » ، وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم[١] .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ذكره ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك :

٨٢٠ — فحدثني المثنى بن إبراهيم قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا » ، يقول : لا تأخذوا عليه أجراً . قال : وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول : يا ابنَ آدم ، علِّمْ مجّاناً كما عُلِّمتَ مجّاناً[٢] .

وقال آخرون بما : —

٨٢١ — حدثني به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدي : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا » ، يقول : لا تأخذوا طمعاً قليلا وتكتُموا اسمَ الله ، وذلك الثمن هو الطمع[٣] .

---

(١) الخبر : ٨١٩ — من تمام الأخبار السالفة الأرقام ٨٠٥ ، ٨١١ ، في الدر المنثور ١ : ٦٣ .

(٢) الأثر : ٨٢٠ — من تمام الأثر السالف رقم : ٨١٨ ومراجعه هناك . وفي ابن كثير ١ : ١٥١ .
والمجان : عطية الشيء بلا منة ولا ثمن . قال أبو العباس : سمعت ابن الأعرابي يقول : المجان عند العرب الباطل ، وقالوا : « ماء مجان » . قال الأزهري : العرب تقول : تمر « مجان » ، وماء « مجان » ، يريدون أنه كثير كاف . قال : واستطعمني أعرابي تمراً فأطعمته كتلة واعتذرت إليه من قلته ، فقال : هذا والله « مجان » . أي كثير كاف . وقولهم : أخذه مجاناً : أي بلا بدل ، وهو فعال لأنه ينصرف (اللسان : مجن) .

(٣) الأثر : ٨٢١ — في ابن كثير ١ : ١٥١ . وفي المطبوعة وابن كثير : « فذلك الطمع هو الثمن » ، وأثبت ما في المخطوطة ، فهو أجود .

فتأويل الآية إذاً : لا تبيعوا ما آتيتكم من العلم بكتابي وآياته بثمن خسيسٍ وعَرَضٍ من الدنيا قليل. وبيعُهم إياه – تركهم إبانةَ ما في كتابهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم للناس ، وأنه مكتوب فيه أنه النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل – بثمن قليل، وهو رضاهم بالرياسة على أتباعهم من أهل ملتهم ودينهم ، وأخذهم الأجرَ ممّن بيّنوا له ذلك على ما بيّنوا له منه .

٢٠١/١

وإنما قلنا بمعنى ذلك « لا تبيعوا »[1] ، لأن مشترى الثمن القليل بآيات الله بائعٌ الآياتِ بالثمن، فكل واحد من الثمن والمثمَّن مبيع لصاحبه ، وصاحبه به مشترى : وإنما معنى ذلك على ما تأوله أبو العالية[2] : بينوا للناس أمر محمّد صلى الله عليه وسلم ، ولا تبتغوا عليه منهم أجراً . فيكون حينئذ نهيُه عن أخذ الأجر على تبيينه، هو النهيَ عن شراء الثمن القليل بآياته .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾

قال أبو جعفر : يقول : فاتقونِ – في بَيعكم آياتي بالخسيس من الثمن ، وشرائكم بها القليل من العَرَض، وكفركم ، بما أنزلت على رسولي وجحودكم نبوة نبيّي – أنْ أُحِلّ بكم ما أحللتُ بأسلافكم الذين سلكوا سبيلكم من المَثُلات والنَّقِمات .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾

قال أبوجعفر : يعني بقوله: « ولا تلبسُوا »، لا تخلطوا . واللَّبْس هو الخلط.

---

(١) في المطبوعة : « وإنما قلنا معنى ذلك . . . » .

(٢) في المطبوعة : « وإنما معناه على ما تأوله . . . » .

يقال منه: لَبَسْت عليه هذا الأمر ألبِسُه لبساً : إذا خلطته عليه[١] . كما : —

٨٢٢ — حُدِّثت عن المنجاب ، عن بشر بن عمارة ، عن أبي روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩] يقول : لخلطنا عليهم ما يخلطون[٢] .

ومنه قول العجاج :

لَمَّا لَبَسْنَ الْحَقَّ بالتَّجَنِّي غَنِينَ وَاسْتَبْدَلْنَ زيدًا مِنِّي[٣]

يعني بقوله : « لبسن »، خلطن . وأما اللُّبس فإنه يقال منه: لبِسْته ألبَسُه لُبْساً ومَلْبَساً ، وذلك الكسوةُ يكتسيها فيلبسها[٤] . ومن اللُّبس قول الأخطل :

لَقَدْ لَبِسْتُ لِهٰذَا الدَّهْرِ أَعْصُرَهُ حَتَّى تَجَلَّلَ رَأْسِي الشَّيْبُ وَاشْتَعَلَا[٥]

ومن اللَّبْس قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ . [سورة الأنعام: ٩]

* * *

فإن قال لنا قائل[٦] : وكيف كانوا يلبِسون الحق بالباطل وهم كفّار ؟ وأيُّ حق كانوا عليه مع كفرهم بالله ؟

قيل : إنه كان فيهم منافقون منهم يظهرون التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ويستبطنون الكفر به . وكان عُظْمُهم يقولون[٧] : محمد نبيٌّ مبعوث، إلا أنه

---

(١) في المطبوعة : « لبست عليهم الأمر . . . خلطته عليهم » .

(٢) الخبر : ٨٢٢ — لم أجده في مكان ، ولم يذكره الطبري في مكانه من تفسير هذه الآية في سورة الأنعام (٧ : ٩٨ بولاق) .

(٣) ديوانه : ٦٥ . غني عن الشيء واستغنى : اطرحه ورمى به من عينه ولم يلتفت إليه .

(٤) في المطبوعة : « وذلك في الكسوة . . . » ، بالزيادة .

(٥) ديوانه : ١٤٢ ، وفيه « وقد لبست » . وأعصر جمع عصر : وهو الدهر والزمان . وعنى هنا اختلاف الأيام حلوها ومرها ، فجمع . ولبس له أعصره : عاش وقاسى خيره وشره . وتجلل الشيب رأسه : علاه .

(٦) في المطبوعة : « إن قال . . . »

(٧) في المطبوعة : « وكان أعظمهم . . . » ، وهو تحريف قد مضى مثله مراراً . وعظم الشيء : معظمه وأكثره .

مبعوث إلى غيرنا . فكان لَبْسُ المنافق منهم الحقَّ بالباطل، إظهارَه الحقَّ بلسانه ، وإقرارَه بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به جهاراً[1] ، وخلطه ذلك الظاهر من الحق بما يستبطنه[2] . وكان لَبْسُ المقرّ منهم بأنه مبعوث إلى غيرهم ، الجاحدُ أنه مبعوث إليهم ، إقرارَه بأنه مبعوث إلى غيرهم ، وهو الحق ، وجحودَه أنه مبعوث إليهم ، وهو الباطل ، وقد بعثه الله إلى الخلق كافة . فذلك خلطهم الحق بالباطل ولَبْسهم إياه به . كما : —

٨٢٣ — حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قوله : « ولا تلبِسُوا الحق بالباطل » ، قال : لا تخلطوا الصدق بالكذب[3] .

٨٢٤ — وحدثني المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « ولا تلبِسُوا الحق بالباطل »، يقول : لا تخلطوا الحق بالباطل ، وأدُّوا النصيحةَ لعباد الله في أمر محمد صلى الله عليه وسلم[4] .

١/٢٠٢ ٨٢٥ — وحدثنا القاسم، قال : حدثنا الحسين، قال: حدثني حجاج، قال: قال ابن جريج ، قال مجاهد : «ولا تلبسوا الحق بالباطل»، اليهوديةَ والنصرانية بالإسلام[5] .

٨٢٦ — وحدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال قال ابن زيد في قوله : « ولا تلبِسُوا الحقَّ بالباطل»، قال : الحقّ ، التوراةُ الذي أنزل الله على موسى ، والباطلُ الذي كتبوه بأيديهم[6] .

* * *

(١) في المطبوعة : « وإقراره لمحمد . . . . » .
(٢) في المطبوعة : « بالباطل الذي يستبطنه » .
(٣) الخبر : ٨٢٣ — في ابن كثير ١ : ١٥٢ ، والدر المنثور ١ : ٦٤ ، والشوكاني ١ : ٦٢ .
(٤) الأثر : ٨٢٤ — في ابن كثير ١ : ١٥٢ .
(٥) الأثر : ٨٢٥ — لم أجده عن مجاهد ، ومثله عن قتادة في ابن كثير ١ : ١٥٢ ، والدر المنثور ١ : ٦٤ .
(٦) الأثر : ٨٢٦ — في الدر المنثور ١ : ٦٤ ، والشوكاني ١ : ٦٢ .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٢)

قال أبو جعفر : وفى قوله « وتكتموا الحق »، وجهان من التأويل :

أحدُهما : أن يكون الله جل ثناؤه نهاهم عن أن يكتموا الحق ، كما نهاهم أن يلبسوا الحق بالباطل . فيكون تأويل ذلك حينئذ: ولا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق . ويكون قوله: «وتكتموا» عند ذلك مجزوماً بما جُزِم به «تلبسوا»، عطفاً عليه .

والوجه الآخر منهما : أن يكون النهى من الله جل ثناؤه لهم عن أن يلبسوا الحق بالباطل ، ويكون قوله: «وتكتموا الحق» خبراً منه عنهم بكتمانهم الحق الذى يعلمونه، فيكون قوله: « وتكتموا » حينئذ منصوباً لانصرافه عن معنى قوله: « ولا تلبسوا الحق بالباطل» ، إذ كان قوله : « ولا تلبسوا » نهياً، وقوله « وتكتموا الحق » خبراً معطوفاً عليه ، غيرَ جائز أن يعاد عليه ما عمل فى قوله « تلبسوا » من الحرف الجازم . وذلك هو المعنى الذى يسميه النحويون "صرْفاً"[1] . ونظيرُ ذلك فى المعنى والإعراب قول الشاعر :

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وَتأْتِىَ مِثْلَهُ عارٌ عَلَيْكَ إذا فعلتَ عَظِيمُ[2]

---

(١) ذكر هذا الفراء فى كتابه معانى القرآن ١ : ٣٣ — ٣٤ ، ثم قال : « فإن قلت : وما الصرف ؟ قلت : أن تأتى بالواو معطوفاً على كلام فى أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها ، فإذا كان كذلك فهو الصرف ، كقول الشاعر : . . . » وأنشد البيت وقال : « ألا ترى أنه لا يجوز إعادة « لا » فى « تأتى مثله » ، فلذلك سمى صرفاً ، إذ كان معطوفاً ، ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذى قبله » .

(٢) هذا من الأبيات التى رويت فى عدة قصائد . كما قال صاحب الخزانة ٣ : ٦١٧ . نسبه سيبوية ١ : ٤٢٤ للأخطل ، وهو فى قصيدة للمتوكل الليثى ، ونسب لسابق البربرى ، وللطرماح ، ولأبى الأسود الدؤلى فى قصيدة ساقها صاحب الخزانة (٣ : ٦١٨) ، وليست فى ديوانه الذى نشره الأستاذ محمد حسن آل ياسين فى (نفائس المخطوطات) طبع مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤ م) ، وهذا الديوان من نسخة بخط أبى الفتح عثمان بن جنى . ولم يلحقها الأستاذ الناشر بأشتات شعر أبى الأسود التى جمعها .

فنصب « تأتى » على التأويل الذى قلنا فى قوله : « وتكتموا »[1] ، لأنه لم يرد : لا تنه عن خُلق ولا تأت مثله ، وإنما معناه : لا تنه عن خلق وأنت تأتى مثله ، فكان الأول نهياً ، والثانى خبراً ، فنصبَ الخبر إذ عطفه على غير شكله . فأما الوجه الأول من هذين الوجهين اللذين ذكرنا أن الآية تحتملهما ، فهو على مذهب ابن عباس الذى :—

٨٢٧ — حدثنا به أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قوله : « وتكتموا الحق » ، يقول : ولا تكتموا الحق وأنتم تعلمون .

٨٢٨ — وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة بن الفضل ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « وتكتموا الحق » ، أى ولا تكتموا الحق[2] .

وأما الوجه الثانى منهما ، فهو على مذهب أبى العالية ومجاهد .

٨٢٩ — حدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ، قال : كتموا بعث محمد صلى الله عليه وسلم[3] .

٨٣٠ — وحدثنا محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد نحوه .

٨٣١ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد نحوه .

---

(١) فى المطبوعة : « وتكتموا ، الآية ، لأنه . . . » ، وهو خطأ فى قراءة ما فى المخطوطة وهو : « وتكتموا إلا أنه لم يرد » .

(٢) الخبران : ٨٢٧ ، ٨٢٨ — لم أجدهما بنصهما فى مكان ، وثانيهما فى ضمن خبر ابن عباس الذى سلف تخريجه رقم : ٨١٩ ، وفى ابن كثير ١ : ١٥٢ ، والدر المنثور ١ : ٦٣ .

(٣) الأثر : ٨٢٩ — لم أجده فى مكان .

وأما تأويل الحق الذى كتموه وهم يعلمونه ، فهو ما : —

٨٣٢ — حدثنا به ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « وتكتموا الحق » ، يقول : لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وما جاء به ، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم[1] .

٨٣٣ — وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وتكتموا الحق » ، يقول : إنكم قد علمتم أن محمداً رسول الله ، فنهاهم عن ذلك[2] .

٨٣٤ — وحدثنى محمد بن عمرو قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، فى قول الله : « وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ، قال : يكتم أهل الكتاب محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل[3] .

٨٣٥ — وحدثنى المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

٨٣٦ — وحدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : « وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمون » ، قال : الحقُّ هو محمد صلى الله عليه وسلم[4] .

٨٣٧ — وحدثنى المثنى ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن

---

(١) الخبر : ٨٣٢ — فى ابن كثير ١ : ١٥٢ ، والدر المنثور ١ : ٦٣ ، والشوكانى ١ : ٦١.

(٢) الخبر : ٨٣٣ — فى الدر المنثور ١ : ٦٤ ، والشوكانى ١ : ٦٢ ، إلا قوله : « فنهاهم عن ذلك » وفى المطبوعة « . . . رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٣) الأثر : ٨٣٤ — فى ابن كثير ١ : ١٥٢ تضميناً .

(٤) الأثر : ٨٣٦ — فى ابن كثير ١ : ١٥٢ تضميناً ، وفى الدر المنثور ١ : ٦٤ ، والشوكانى ١ : ٦٢ .

الربيع ، عن أبى العالية : «وتكتموا الحق وأنتم تعلمون» ، قال : كتموا بعثَ محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم[1] .

٨٣٨ – وحدثنا القاسم، قال : حدثنا الحسين ، قال: حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : تكتموا محمداً وأنتم تعلمون ، وأنتم تجدونه عندكم فى التوراة والإنجيل[2] .

٢٠٢/١

فتأويل الآية إذاً : ولا تخلطوا على الناس – أيها الأحبار من أهل الكتاب – فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند ربه ، وتزعموا أنه مبعوث إلى بعض أجناس الأمم دون بعض ، أو تنافقوا فى أمره ، وقد علمتم أنه مبعوثٌ إلى جميعكم وجميع الأمم غيركم ، فتخلطوا بذلك الصدق بالكذب ، وتكتموا به ما تجدونه فى كتابكم من نعته وصفته ، وأنه رسولى إلى الناس كافة ، وأنتم تعلمون أنه رسولى ، وأن ما جاء به إليكم فمن عندى ، وتعرفون أن من عهدى – الذى أخذت عليكم فى كتابكم – الإيمانَ به وبما جاء به والتصديقَ به .

• • •

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾

قال أبو جعفر : ذُكِر أن أحبارَ اليهود والمنافقين كانوا يأمرون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفعلونه ، فأمرهم الله بإقام الصلاة مع المسلمين المصدِّقين بمحمد وبما جاء به ، وإيتاء زكاة أموالهم معهم ، وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا .

٨٣٩ – كما حُدِّثت عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن

---

(١) الأثر : ٨٣٧ – لم أجده فى مكان .

(٢) الأثر : ٨٣٨ – لم أجده بنصه فى مكان. وفى المطبوعة : «تكتمون محمداً . . .» .

أبيه ، عن قتادة ، فى قوله : « وأقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزكاة » ، قال : فريضتان واجبتان، فأدُّوهما إلى الله[1] .

وقد بينا معنى إقامة الصلاة فيما مضى من كتابنا هذا ، فكرهنا إعادته[2] .

أما إيتاءُ الزكاة ، فهو أداء الصدقة المفروضة . وأصل الزَّكاة، نماءُ المال وتثميرُه وزيادتُه . ومن ذلك قيل: زَكا الزرع ، إذا كثُر ما أخرج الله منه . وزَكتِ النَّفقة، إذا كثُرتْ . وقيل زَكا الفَرْدُ ، إذا صارَ زَوْجاً بزيادة الزائد عليه حتّى صار به شفْعاً ، كما قال الشاعر :

كانُوا خَسًا أو زَكاً مِنْ دُونِ أرْبَعَةٍ ... لَمْ يُخْلَقُوا، وجُدُودُ النَّاسِ تَعْتَلِجُ[3]

وقال آخر :

فَلَا خسًا عَدِيدُهُ ولَازَكا ... كَمَا شِرَارُ البَقْلِ أطْرَافُ السَّفَا[4]

قال أبو جعفر : السفا شوك البُهْمَى، والبُهْمى الذى يكون مُدَوَّراً فى السُّلاَّءِ[5] .

---

(١) الأثر : ٨٣٩ — لم أجده فى مكان .

(٢) انظر ما مضى ص : ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٣) اللسان (خسا) ، وفيه : « الفراء : العرب تقول للزوج زكا ، وللفرد خسا . . . قال ، وأنشدنى الدبيرية . . . » وأنشد البيت . وتعتلج : تصطرع ويمارس بعضها بعضا .

(٤) لرجل من بنى سعد ، ثم أحد بنى الحارث فى عمرو بن كعب بن سعد . وهذا الرجز فى خبر للأغلب العجلى ، (طبقات فحول الشعراء : ٥٧٢ / ومعجم الشعراء : ٤٩٠ / والأغانى ١٨ : ١٦٤) ورواية الطبقات والأغانى : « كما شرار الرعى » . والرعى (بكسر فسكون) : الكلأ نفسه ، والمرعى أيضاً. والسفا : شوك البهمى والسنبل وكل شىء له شوك . يقول : أنت فى قومك كالسفا فى البهمى ، هو شرها وأخبثها . والبيت الأول زيادة ليست فى المراجع المذكورة .

(٥) البهمى : من أحرار البقول ، (وهى ما رق منها ورطب وأكل غير مطبوخ) ، تنبت كما ينبت الحب ، ثم يبلغ بها النبت إلى أن تصير مثل الحب ، ترتفع قدر الشبر ، ونباتها ألطف من نبات البر ، وطعمها طعم الشعير ، ويخرج لها إذا يبست شوك مثل شوك السنبل ،(وهو السفا) ، وإذا وقع فى أنوف الإبل أنفت منه ، حتى ينزعه الناس من أفواهها وأنوفها . وفى المطبوعة : « فى السلى » بتشديد الياء ، وفى المخطوطة « فى السل » بضم السين وتشديد اللام . والصواب ما أثبته ، والسلاء جمع سلاءة ، وهى شوكة النخلة ، وأراد بها سفا البهمى أى شوكها .

يعني بقوله : « ولا زكا » ، لم يُصَيِّرْهم شفعاً من وترٍ ، بحدوثه فيهم[1] .

وإنما قيل للزكاة زكاة ، وهي مالٌ يخرجُ من مال ، لتثمير الله — بإخراجها مما أخرجت منه — ما بقي عند ربِّ المال من ماله . وقد يحتمل أن تكون سُمِّيت زكاة ، لأنها تطهيرٌ لما بقي من مال الرجل ، وتخليص له من أن تكون فيه مَظْلمة لأهل السُّهْمان[2] ، كما قال جل ثناؤه مخبراً عن نبيه موسى صلوات الله عليه : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ [سورة الكهف : ٧٤] ، يعني بريئة من الذنوب طاهرة . وكما يقال للرجل : هو عدل زكيٌّ — لذلك المعنى[3] . وهذا الوجه أعجب إليّ — في تأويل زكاة المال — من الوجه الأوّل ، وإن كان الأوّل مقبولا في تأويلها .

وإيتاؤها : إعطاؤُها أهلها .

وأما تأويل الرُّكوع ، فهو الخضوع لله بالطاعة . يقال منه : ركع فلانٌ لكذا وكذا ، إذا خضع له ، ومنه قول الشاعر :

بِيعَتْ بِكَسْرٍ لَئِيمٍ وَاسْتَغَاثَ بِهَا ... مِنَ الهُزَالِ أَبُوهَا بَعْدَ مَا رَكَعَا[4]

---

(١) قوله : « بحدوثه فيهم » ، أي بوجوده في هؤلاء القوم . والعديد (في الرجز) ، من قولهم فلان عديد بني فلان : أي يعد فيهم وليس منهم : يريد أنه إذا دخل في قوم لم يعد فيهم شيئاً ، فإذا كانوا شفعاً ، لم يصيرهم دخوله وتراً ، وإذا كانوا وتراً لم يصيرهم شفعاً ، فهو كلا شيء في العدد . يهجوه ويستسقطه .

(٢) السهمان جمع سهم ، كالسهام : وهو النصيب والحظ .

(٣) في المطبوعة : « بذلك المعنى » وليست بشيء .

(٤) هذا البيت من أبيات لعصام بن عبيد الزماني (من بني زمان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل) رواها أبو تمام في الوحشيات رقم ١٣٠ (مخطوطة عندي) ، ورواها الجاحظ في الحيوان ٤ : ٢٨١ ، وجاء فيه : « قال الزيادي » وهو تحريف وتصحيف كما ترى . وهذه الأبيات من مناقضة كانت بين الزماني ويحيى بن أبي حفصة . وذلك أن يحيى تزوج بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقري فهاجاه عصام الزماني وقال :

أَرَى حَجْراً تغيَّر واقشعرّا ... وبُدِّل بعد حُلْو العيش مُرّا

فأجابه يحيى بأبيات منها :

أَلَا مَنْ مُبلغٌ عنِّي عِصَاماً ... بأنِّي سوف أنقُضُ ما أمرّا

هكذا روى المرزباني في معجم الشعراء : ٢٧٠ ، وروى أبو الفرج في أغانيه ١٠ : ٧٥ أن يحيى

يعنى : بعد ما خضَع من شِدَّة الجَهْد والحاجة .

* * *

قال أبو جعفر : وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه — لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها — بالإنابة والتوبة إليه ، وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والدخولِ مع المسلمين فى الإسلام ، والخضوع له بالطاعة ؛ ونهىٌ منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد تظاهر حججه عليهم ، بما قد وصفنا قبل فيما مضى من كتابنا هذا ، وبعد الإعذار إليهم والإنذارِ ، وبعد تذكيرهم نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطُّفاً منه بذلك عليهم ، وإبلاغاً فى المعذرة(١) .

تم الجزء الأول من تفسير الطبرى

ويليه الجزء الثانى وأوله :

القول فى تأويل قوله تعالى

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾

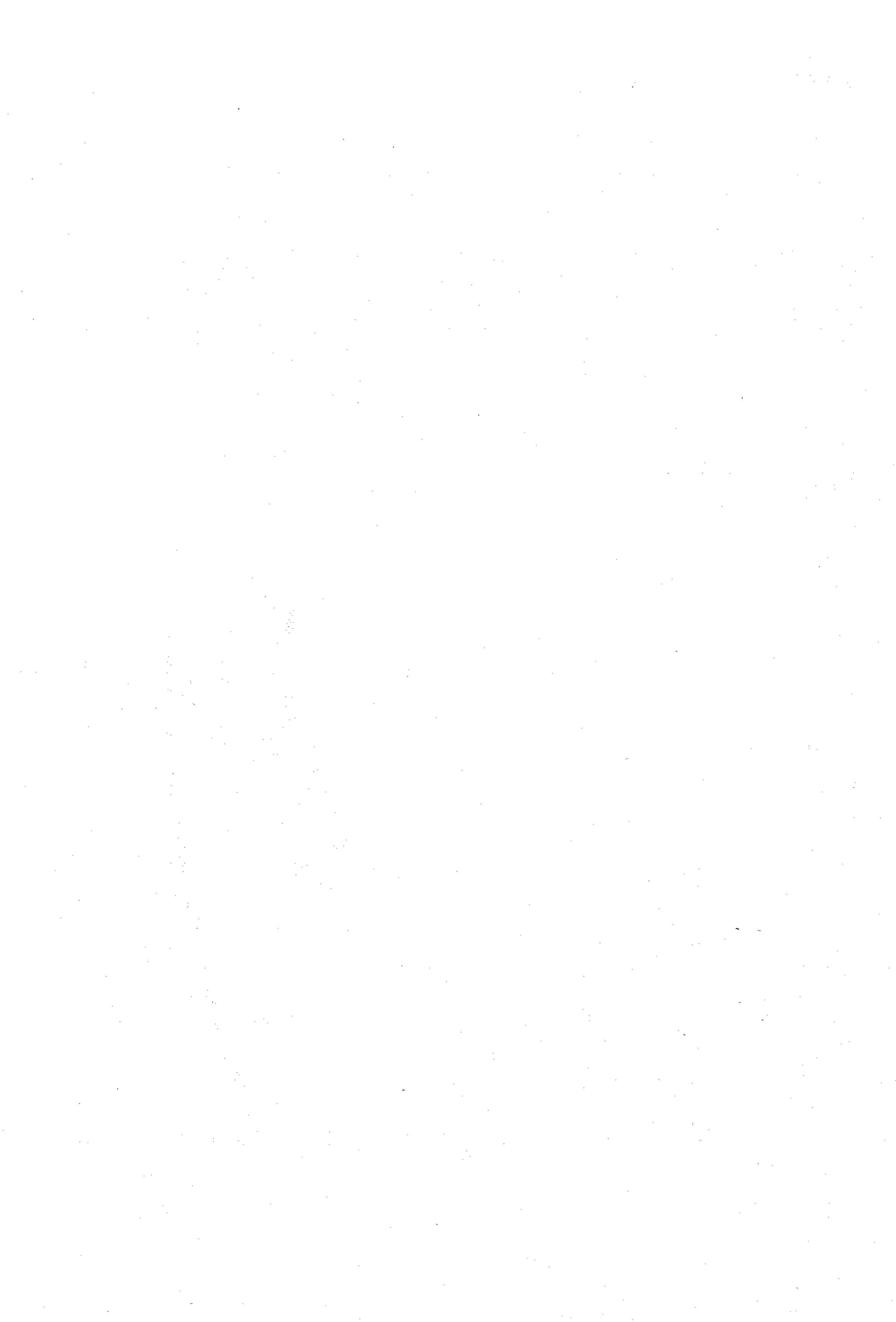
خطب إلى مقاتل بن طلبة المنقرى ابنته وأختيه ، فأنعم له بذلك . فبعث يحيى إلى بنيه سليمان وعمر وجميل ، فأتوه فزوجهن بنيه الثلاثة ، ودخلوا بهن ثم حملوهن إلى حجر ، (وهو مكان) .

وأبيات عصام الزمانى، ونقيضتها التى ناقضه بها يحيى ، من جيد الشعر ، فاقرأها فى الوحشيات ، والحيوان ، والشعر والشعراء : ٧٤٠ ، ورواية الحيوان والوحشيات

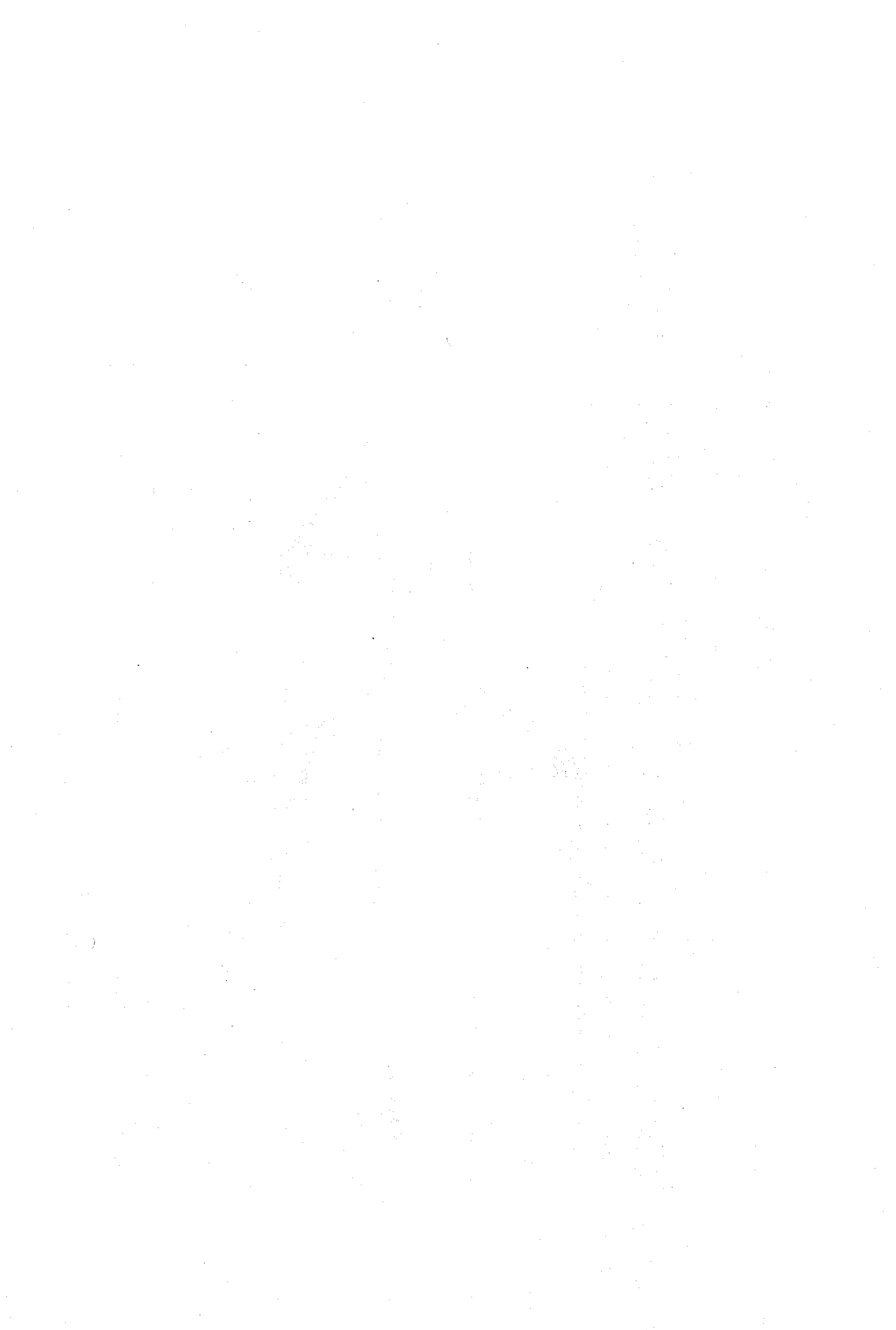
« بِيعَتْ بِوَكْسٍ قَلِيلٍ واسْتَقَلَّ بها »

الوكس : اتضاع الثمن فى البيع . وفى المخطوطة والمطبوعة « بكسر لئيم » ، وهو تحريف لا معنى له ، وأظن الصواب ما أثبت اجتهاداً . والكسر : أخس القليل . وقوله : « بيعت » الضمير لابنة مقاتل بن طلبة المنقرى التى تزوجها يحيى أو أحد بنيه . يقول : باعها أبوها بثمن بخس دنىء خسيس ، فزوجها مستغيثاً ببيعها مما نزل به من الجهد والفاقة ، فزوجها هذا الغنى اللئيم الدنىء ، ليستعين بمهرها .

(١) فى المطبوعة : « وإبلاغاً إليهم . . . » بالزيادة .



الفهارس



فهرس الآيات التى استدل بها فى غير موضعها من التفسير

فهرس اللغة

أعلام المترجمين فى التعليق

[الأرقام فى هذا الفهرست هى أرقام الآثار ، لا الصفحات]

* * *

* * *

* * *

مصطلحات

الرد على الفرق

مباحث العربية والنحو وغيرهما

- لا تكاد العربُ تكنى « بالهاء والميم » إلا عن أسماء بنى آدم والملائكة ، كقوله : « ثم عرضهم على الملائكة » . وأما إذا أرادت أسماء البهائم وسائر الخلق سوى بنى آدم والملائكة ، فإنها تكنى «بالهاء والألف ، أو بالهاء والنون » فقالت : «ثم عرضها — أوعرضهن» . فإذا جمعت ذلك كله ، فإنها تكنى عنه أيضاً « بالهاء والألف ، أو الهاء والنون. » هذا هو المستفيض فى كلامهم . وربما أتت بالهاء والميم كقوله : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ...» : ٤٨٥ — ٤٨٦ .

- إتباعُ الكلام بعضه بعضاً ، والعطفُ على الموضع ، كما فى قراءة من قرأ : «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوةً » بنصب « غشاوة » ، إتباعاً على موضع « سمعهم » إذ كان موضعها نصباً وهى مجرورة : ٢٦٤ .

- النصب والرفع ، فى المدح والذمّ : ٣٢٩ .

- النصبُ فى كلامهم للدلالة على المحذوف من الكلام ، كقولهم : « هى أحسن الناس ما قرناً فقدماً» أى ما بين قرن إلى قدم، فلما حذفوا « بين » ، « وإلى » نصبوا ما بعدهما : ٤٠٥

- الكناية عن متأخر بالضمير ، كقوله: « ما أمر الله به أن يوصل » ، الهاء فى « به » كناية عن « أن يوصل » ، أى بأن يوصل : ٤١٥

- الفعل الماضى إذا حلّ محل الحال اقتضى « قد » ، وتحذف على تقدير إضمارها : ٤٠٧ .

- العطف على مؤوّل ، وإعراب المعطوف بإعراب المؤوّل المعطوف عليه كقول الشاعر : « أجدك لن ترى بثعيلبات . . . » ثم قال « ولا متداركٍ » بالجر . كأنه قال : لست براء ولا متدارك : ٤٤٣ —٤٤٤ .

- نصب الفعل المعطوف على فعل مجزوم بالنهى ، إذا كان لايستقيم معناه لو عطف عليه بالجزم ، كقوله : « لا تنه عن خلق وتأتى مثله » ، وهذا الذى يسمى « الصرف » : ٥٦٩ .

* * *

• العربُ تقدم الاسم ، ثم تتبعه صفاته ونعوته : ١٣٢

• العرب تقدر اللفظين من لفظ واحد ، ومعناهما واحد ، لاتساع الكلام . مثل : نديم وندمان : ١٣٢ .

• المؤخر الذى هو بمعنى التقديم ، وكثرته فى كلام العرب : ١٤٧–١٤٨ .

• العربُ تخاطب ثم تخبر عن غائب ، وتخبر عن غائب ثم تعود إلى الخطاب : ١٥٣–١٥٤

• المقدم الذى هو بمعنى التأخير فى كلام العرب ، كقوله «كفانى ، ولم أطلب ، قليل من المال» : ١٦٤ .

• وقوع الاستفهام موقع الخبر ، إذا وقع موقع «أى» ، كما تقول: «لا نبالى أقمت أم قعدت» ، وأنت مخبر لا مستفهم ، ومعناه: ما نبالى أى هذين كان : ٢٥٦، ٢٥٧ .

• «كان» فى مثل قوله: «بما كانوا يكذبون» ، وإدخالها للخبر عن أنه كان فيما مضى ، كما يقال : «ما أحسن ما كان عبد الله» عجباً من عبد الله ، لا من كونه ، وإن وقع التعجب فى اللفظ على كونه : ٢٨٦ .

• إضافة الفعل إلى غير فاعله ، كقوله: «فما ربحت تجارتهم» ، أى فما ربحوا فى تجارتهم : ٣١٦، ٣١٧ ، وكقولهم : «نام ليلى» وهو الذى نام فى ليله : ٣١٧ .

• وصف المضاف بصفة ، والمراد وصف المضاف إليه كقوله: «وأعور من نبهان أما نهاره فأعمى» ، أضاف العمى إلى الليل ، ومراده وصف النبهانى : ٣١٧ .

• متى يجوز للمتكلم أن يوجه الفعل إلى الفاعل أو المفعول إن شاء ، كقوله «وتلقى آدم من ربه كلمات» برفع «آدم» ، ونصب «كلمات» . ثم قراءة من قرأها بنصب «آدم» ورفع «كلمات» : ٥٤٢ .

• • •

• لايعطف على جحْدٍ إلا بجحْدٍ ، وليس فى كلامهم استثناء يعطف عليه بجحد : ١٨٤ .

• من شأن العرب إضافة الفعل إلى من وُجد منه ، وإن كان مسبّبه غير الذى وجد منه ، وتضيفه أحياناً إلى مسبّبه ، وإن كان الذى وجد منه الفعل غيره كقولهم : « تحركت الشجرة » والريح هى التى حركتها : ١٩٦ .

• الأسماء فى أصل الوضع للتمييز ، ولكن صار الأمر إلى اشتراك كثير من الناس فيها ، فاحتاجت إلى ضم نسبة أو نعت أو صفة للتمييز ٢١١ ، ٢١٢ .

• اللفظ الواحد الجامع لمعانى مختفلة مشتركة فيه : ٢٢٢ .

• الإشارة إلى الحاضر المعاين ، بإشارة غائب غير حاضر ولامعاين ، وجواز ذلك ، لأن كل ما تقضّى وقرب انقضاؤه من الإخبار به ، هو كالحاضر عند المخاطب ، وإن صار بمعنى غير الحاضر : ٢٢٥ ــ ٢٢٧ .

• النكرة لا تكون دليلا على معرفة : ٢٣٢ .

• شبه الصفة بالفعل مثل « حسن » : ٢٨٦ .

• التذكر والتأنيث فى الكلمة الواحدة ، مثل : سماء ، وأرض : ٤٣١ ، ٤٣٢

• « الألف واللام » ، لا تقتضى الاستغراق ، كما فى قوله : « الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم » : ٢٩٢ .

• القلب فى مثل : جذب وجبذ : ٤٤٥ .

• إنما يوجه كلام كل متكلم إلى المعروف فى الناس من مخارجه ، دون المجهول من معانيه : ٣٨٨ .

• غير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام : ٤٤٠ .

• الأمر فى معنى الاستقبال : ٤٩٣

• من المستفيض فى كلامها الزيادة فى الكلمة، إذا لم يكن فى الزيادة تلبيس على السامع نحو : « أقول إذ خرت على الكلكال » : ٢١٣، ٢١٤ .

• • •

• إسقاط حرفٍ من كلمة وإدغام ما قبل المحذوف فيما بعده ، كما فى قولهم « لكن أنا » ، « لكنّ » ، و « الإله » ، « الله » ، و « الأناس » ، « الناس » : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢٦٨ .

• العربُ تحذف ما كفى منه الظاهر فى الكلام ، إذا لم تشكّ فى معرفة السامع مكان الحذف : ١٣٩ — ١٤١ ، ١٧٩ .

• حذف حرف النداء فى كلام العرب : ١٥٢ .

• حذف حرف الجرّ ، وإيصالُ الفعل ، ونصب ما كان مجروراً به ، مثل « أستغفر الله ذنباً » و « يصيدنا العيرَ » : ١٦٩ — ١٧٠ وكقولهم : « فلان يلعب الكعاب » ، يراد : يلعب بالكعاب ٣٠٧ .

• من المستفيض فى كلام العرب أن ينقص المتكلم أحرفاً ، إذا كان فيما بقى دلالة ، نحو قولهم : « قلت لها : قفى ، قالت: قاف » وقولهم : « بالخير خيرات وإن شرافا » : ٢١٢ — ٢١٣ .

• جوازَ ذكر ضمير كناية عن اسم لم يجر له ذكرٌ فى الكلام : ٥٦٤ .

• حذف الفعل ، إذا كان فى أول الكلام دليل يدل عليه : ٢٦٤

• الحذف وإسناد الفعل إلى غير فاعله ، كقولهم : « سبحت المدينة » والمعنى ، أهل المدينة : ٢٧٩

• إبطال « كان » فى قولهم : « حسنٌ كان زيد » ، لشبه الصفات بالفعل: ٢٨٦ .

• إبطال « كان » فى قولهم « ما أحسن ما كان عبد الله » ، فى التعجب ، لأن الفعل قد تقدمها: ٢٨٦ .

فهرس التفسير

(١) رأيت فى ترجمة الطبرى ، أنه كان يسمى مقدمات كتبه « رسالة » . وكان لكل كتاب من كتبه الكبيرة « رسالة » . وسأبين ذلك فى ترجمته المفردة .

* * *

* * *